فرجينيا وولف

مكتبة

السِنين

ترجمة: عهد صبيحة

رواية

نينوى

فرجينيا وولف

السِنين

«السنين»، قصّة ثلاثة أجيال في أسرة بارغيتر، تتجلى فيها علاقات أفرادها الحميمة والجافية ومخاوفهم، وانتصاراتهم.وهي روايةٌ رُسمت مستندة إلى الإيقاعات المتسارعة لشوارع لندن إبّان العقود الأولى في القرن العشرين.

في مراحل نشأتهم في بيت وفق طراز فيكتوري أنموذجي، كان على أبناء بارغيتر أن يتعلموا العثور على موطئ قدم لهم في عالم بديل، حيث انتقلت آداب السلوك من حجرة المعيشة إلى ملجأ يحمي من الغارات الجويّة.

إنّه عمل يتّسم بالسلاسة والوضوح المبهر، ويتجنّب في بنائه المسار البسيط لتقدّم الأحداث لصالح أسلوب متغيّر ومتنوع، ويؤكد على الانقطاع الجذري لتجارب الأفراد، وللأحداث التاريخيّة.

تحتفل رواية فرجينيا وولف قبل الأخيرة بمرونة الذات الفرديّة، وترسم بثقة -بأصوات شخصيّاتها- لوحةً كاملة على مرّ الزمن والأجيال والتغيُرات الاجتماعيّة. ويُعدّ مرور الوقت أحد موضوعاتها الرئيسة، وبهذا تعمد إلى ذكر تفاصيل بسيطة، غالبا ما تكون ذات خصوصيّة، للّحظات في حياة الشخصيات. مع ذلك، تبتعد عن أنموذج تيّار الوعي، الّذي تشتهر به، وتتحرّك بأسلوب أقرب إلى الرواية التقليديّة.

telegram @soramnqraa

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع

السِّنين

لن ننسى تشرين . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

عنوان الكتـاب: السّنين

اسـم المؤلـف: فرجينيا وولف

اسـم المترجـم: عهد صبيحة

الموضـــوع: روايـــة

عدد الصفحات: 480 ص

القيـــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 /كانون الثاني 2022 م - 1443 هـ

ISBN: 978-9933-38-404-3

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتـف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

@House Ninawa

Ninawa house

ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

مكتبة ٢٠ ١١ ٢٠٢٣

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

فرجينيا وولف

السِّنين

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة
عهد صبيحة

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

العنوان الأصليّ للكتاب

The Years

By Virginia Woolf

فرجينيا وولف

أديبة وروائية إنكليزية، ومن كتاب المقالات. اشتهرت برواياتها التي تمتاز بإيقاظ الضمير الإنساني، وهي تعد من كتاب القصة التأثيرين. كانت روايتها الأولى ذات طابع تقليدي مثل رواية «الليل والنهار» ١٩١٩، واتخذت فيما بعد المنهج المعروف بمجرى الوعي أو تيار الشعور، كما في «غرفة جَيكوب» ١٩٢٢، و«السيدة دالواي» ١٩٢٥ و«إلى المنارة» ١٩٢٧، و«الأمواج» ١٩٣١، ولها روايات أخرى ذات طابع تعبيري، منها رواية «أورلاندو» ١٩٢٨ و«السنين» ١٩٣٧، و«بين الفصول» ١٩٤١. اشتغلت بالنقد، ومن كتبها النقدية «القارئ العادي» ١٩٢٥، و«موت الفراشة ومقالات أخرى» ١٩٤٣. كتبت ترجمة لحياة «روجر فراي» ١٩٤٠، وكتبت القصة القصيرة، وظهرت لها مجموعة بعنوان «الاثنين أو الثلاثاء» ١٩٢١.

ولدت في لندن في ٢٥ كانون الأول ١٨٨٢ وكان والدها ليزلي ستيفن مؤرخاً مرموقاً، وكاتباً، وناقداً. تعلمت وولف على يدي والديها في بيت مثقف ومترابط.

بعد أن أنهت روايتها (بين الأعمال) والتي نشرت بعد وفاتها، أصيبت فيرجينيا بحالة اكتئاب. وزادت حالتها سوءا بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وتدمير منزلها في لندن حتى أصبحت عاجزة عن الكتابة. وفي ٢٨ آذار ١٩٤١ ارتدت فيرجينيا معطفها وملأته بالحجارة وأغرقت نفسها في نهر أوس القريب من منزلها مخافة أن يصيبها انهيار عقلي. وجد جسدها في ١٨ نيسان ١٩٤١ ودفنت رفاتها تحت علم في حديقة مونكس هاوس في رودميل ساسيكس.

إهداء الـمُترجِم

إلى غزوة أورفلي،

معلِّمتي اللُّغة الإنكليزيَّة الأولى؛

فضلُكِ يغمرني طوالَ العُمر.

عهد

الفهرس

إهداء الـمُترجِم ٧

١٨٨٠ .... ١١

١٨٩١ .... ١٠٢

١٩٠٧ .... ١٤٦

١٩٠٨ .... ١٦٦

١٩١٠ .... ١٨٢

١٩١١ .... ٢١٧

١٩١٣ .... ٢٤١

١٩١٤ .... ٢٥١

١٩١٧ .... ٣١١

١٩١٨ .... ٣٣٧

الوقت الحاضر ٣٤١

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٨٨٠

كان جوّاً ربيعيّاً متقلّباً؛ والطقس المتغيِّر يثير دوماً وسائدَ من السحب الأرجوانيَّة والزرقاء تحلِّق فوق سطح الأرض. كان مزارعو الريف ينظرون إلى حقولهم قلقين، والناس في لندن يفتحون مظلَّاتهم تارة ويغلقونها تارة أخرى وهم يرمقون السماء بأعينهم. لكنَّ مثل هذا الطقس متوقَّع في شهر إبريل، وهذا ما كان يعلِّق به آلاف الباعة في المتاجر وهم يسلِّمون الطرود الأنيقة للسيِّدات اللواتي يرتدينَ أثواباً مكشكشة ويقفنَ على الجانب الآخر من نُضد البيع في متاجر «وايتليز» ومتاجر «ذي آرمي أند نايفي». كانت ثمَّة مواكب لا تنتهي من المتسوِّقين في طرف لندن الغربيِّ، ومن رجال الأعمال في طرفها الشرقيِّ، تقطع الأرصفة كقوافلَ تواصل السير دائماً بلا انقطاع. هكذا بدا المشهد لأولئك الذين كانوا يتوقَّفون لسبب ما، لإرسال رسالة، أو عند نافذة أحد النوادي في شارع «بيكاديللي». كان سيل من عربات «لانداو»، و«فيكتوريا» و«هانسوم» يتدفَّق باستمرار؛ لأنَّ الموسم قد بدأ، وفي الشوارع الأقلِّ صخباً، كان عازفو النايات يطلقون ألحانهم العذبة والشجيَّة الَّتي يتردَّد صداها هنا بين أشجار متنزَّه «هايد بارك»، أو هناك في متنزَّه «سانت جيمس»، وأحياناً تحاكيها زقزقة العصافير الَّتي يتخلَّلها فجأة تغريد شحرورٍ عاشقٍ يصدح بصوته عالياً بين الفينة والأخرى. الحمَام في الساحات يتنقَّل بين قمم الأشجار على غير هدى، فيهبط غصناً أو اثنين، ثمَّ يترنَّم مراراً وتكراراً بهديل لا يلبث إلَّا قليلاً، والبوَّابات عند «قوس النصر» ومبنى «أبسلي هاوس» تغصُّ بعد الظهيرة بسيِّداتٍ -يرتدينَ أثواباً ملوَّنة ذوات حشواتٍ خلفيَّة- وبسادةٍ محترمين بمعاطفَ طويلة سود، يحملون العصيَّ، ويزيِّنون ياقات معاطفهم بأزهار القرنفل، وينتظرون عربة الأميرة حينما تمرُّ

من هناك فيرفعون القبّعات احتراماً لها. والخادمات اللواتي يغطينَ رؤوسهنّ، ويرتدينَ المآزر، يحضِّرن الشايَ في أقبية المنازل الممتدَّة على جانبَي الشوارع المشجَّرة الطويلة في الأحياء السكنيَّة؛ ليصعدنَ بعد ذلك بأباريق الشاي الفضِّية من الطابق السفليِّ ويضعنَها على الطاولة، فتَمُدَّ العذراوت والعوانس أيديهنَّ، الَّتي تحمَّلت الكثير من الجروح والآلام في منطقتَي «برموندسي» و«هوكستون»، لوضع ملعقة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع من الشاي في الإبريق، وحينما تغيب الشمس، كان مليون مصباح من مصابيح الغاز الصغيرة تضيء في أقفاصها الزجاجيَّة، فتبدو كالعيون الَّتي تزيِّن ريش الطواويس، ومع ذلك، يبقى الظلام مفترشاً مساحاتٍ واسعةً من الرصيف. كان ينعكس ضوء المصابيح المختلط مع غروب الشمس بالتساوي على صفحة المياه الساكنة في بحيرتَي «راوند» و«سربينتين»؛ فيسترق، أولئك الَّذين يخرجون لتناول العشاء، النظرَ إلى ذلك المشهد الساحر وهم يقطعون الجسر في عربات «هانسوم». وبعد حين يبزغ القمر بقرصه الفضِّيِّ اللامع، تحجبه حزم الغيوم بين الفينةِ والأخرى، فيشعُّ نوره بصفاء حيناً ويشتدُّ حيناً آخرَ، أو ربَّما يختفي تماماً، ومع دورته البطيئة كأشعَّة ضوء الكشَّاف، تمرُّ الأيَّام والأسابيع والسنوات الواحدة تلو الأخرى في السماء.

كان الكولونيل إيبل بارغيتر يجلس بعد تناول الغداء في ناديه، يتجاذب أطراف الحديث مع رفاقه. وكان رفاقه الجالسون على المقاعد الجلديَّة رجالاً وفق شاكلته؛ إمَّا جنوداً وإمَّا موظَّفين حكوميِّين أصبحوا متقاعدين الآن؛ يستعيدون ذكرياتهم بسرد النكات والقصص القديمة عن ماضيهم في الهند وأفريقيا ومصر، ثمَّ ينتقلون بكلِّ عفويَّة إلى الحاضر، للحديث عن مسألة بعض التعيينات، أو التعيينات المحتملة.

فجأةً، ينحني أصغر الأصدقاء الثلاثة سنّاً وأكثرهم أناقة إلى الأمام؛ كان قد تناول طعام الغداء أمس مع... هنا ينخفض صوت المتحدِّث، وينحني

الآخرون في اتِّجاهه، وبإشارة سريعة من يد الكولونيل إيبل ينصرف النادل الذي كان يرفع فناجين القهوة، وتبقى الرؤوس الثلاثة التي يغزوها الشيب والصَّلَع متقاربة لبضع دقائق. بعد ذلك، يرفع الكولونيل إيبل رأسه، ويستند إلى كرسيِّه، لكنَّ بريق الفضول الَّذي ظهر في عيونهم جميعاً حين بدأ الرائد إلكين قصَّته، بدأ يتلاشى تماماً من عينيه. جلس محدِّقاً إلى الأمام بعينيه الزرقاوين اللامعتين اللتين بدتا مغمضتين قليلاً، كما لو أنَّ وهج الشرق لا يزال في داخلهما، لكنَّهما مضمومتان من طرفيهما كما لو أنَّ الغبار لا يزال في داخلهما. كانت بعض الأمور تشغل باله؛ ما جعله غير مهتمٍّ بما يقوله الآخرون؛ بل في الواقع، لم يرق له الحديث. نهض وأخذ ينظر من النافذة إلى شارع «بيكاديللي»، ممسكاً سيجاره المطفأ، ومتأمِّلاً قمم حافلات الركَّاب وعربات «هانسوم» و«فيكتوريا» و«لاندو» وعربات الشحن الصغيرة في الأسفل. لم يرغب في التحدُّث إلى أحد، ولسان حاله يقول إنَّه لم يعد لديه شأن بتلك المسألة، وقد علت وجهه المحمرَّ الوسيم مسحةٌ من الكآبة وهو يقف متأمِّلاً. فجأةً، خطرت في باله فكرة؛ ثمَّة سؤال لديه ليطرحه؛ فاستدار ليسأله، لكنَّ أصدقاءه كانوا قد اختفوا. لقد تفرَّق شمل المجموعة الصغيرة؛ إلكينز كان قد خرج مسرعاً من الباب؛ وبراند انتقل للتحدُّث إلى رجل آخر. أطبق الكولونيل بارغيتر فمه وأعرض عمَّا كان يودُّ قوله، وعاد مرَّة أخرى إلى النافذة المطلَّة على شارع «بيكاديللي». بدا كلُّ شخصٍ في الشارع المزدحم يمضي إلى هدفٍ يضعه نُصب عينيه؛ كلُّ واحدٍ يحثُّ الخطى للوصول إلى موعد ما، حتَّى السيِّدات اللواتي تقلُّهنَّ عربات «فكتوريا» و«بروغهام» المسرعة في شارع «بيكاديللي» كنَّ يمضينَ لقضاء مهمَّة ما أو أخرى. كان الناس يرجعون إلى لندن ليستقرُّوا ويستعدُّوا لقضاء موسم الأعياد هناك، لكن بالنسبة إليه لن تكون هناك أيُّ أعياد. بالنسبة إليه لن يكون هناك أيُّ شيء. كانت زوجته تحتضر؛ لكنَّها لم تمت بعد. كانت اليوم أفضل حالاً، لكنَّها غداً ستكون أسوأ، وثمَّة

ممرِّضة جديدة ستأتي لخدمتها، وهكذا دواليك. التقط جريدة وقلَّب صفحاتها. نظر إلى صورة الواجهة الغربيَّة لكاتدرائيَّة «كولونيا». ثمَّ أعاد الجريدة إلى مكانها بين الجرائد الأخرى. فكَّر في أنَّه في يومٍ ما -كنايةً عن الوقت الَّذي ستموت فيه زوجته- سيغادر لندن، وينتقل للعيش في الريف، لكنَّه حينها سيتعيَّن عليه تدبُّر أمر المنزل والأطفال، إضافة إلى تدبُّره أمرَ... تغيَّر وجهه فجأة؛ أصبح أقلَّ استياء، لكنَّه أيضاً لا يزال يوحي بشيء من الغموض والقلق.

في كلِّ حال، كان عليه الذهاب إلى مكانٍ ما. لقد خطرت الفكرة في باله حين كانوا يثرثرون، لكنَّه أرجأ التفكير فيها، ولَمَّا استدار ولم يجدهم، شعر بأنَّ ذهابهم هو البلسم الَّذي سيداوي جراحه. سيذهب الآن ليرى ميرا. في الأقلِّ ستكون ميرا سعيدة برؤيته. لكنَّه لَمَّا غادر النادي لم يتَّجه نحو الشرق، حيث يتَّجه الرجال المشغولون؛ ولا إلى الغرب حيث كان منزله في «أبيركورن تيريس»؛ بل شقَّ طريقه عبر الممرَّات الوعرة في متنزَّه «غرين بارك» في اتِّجاه «ويستمنستر». كان العشب شديد الخضرة، والأشجار تكتسي بأوراقها المتفتِّحة، وتبرز على أغصانها براعم خُضر صغيرة كأنَّها مخالب الطيور؛ كلُّ شيء حوله يضجُّ بالحيويَّة والنشاط؛ والهواء يفوح برائحة نقيَّة منعشة. لكنَّ الكولونيل بارغيتر لم يرَ العشب ولا الأشجار، بل سار في المتنزَّه وهو ينظر أمامه مباشرة، مرتدياً معطفه ذا الأزرار المتقاربة. لَمَّا وصل إلى «ويستمنستر» توقَّف فجأةً، إذ لم يكن يُحبُّ ذلك الجزء من الرحلة على الإطلاق، ففي كلِّ مرَّة يقترب فيها من الشارع الصغير الَّذي يقع خلف المجمَّع الضخم لكنيسة الدير، حيث تزدحم البيوت الصغيرة القذرة، بنوافذها المغطَّاة بالستائر الصُّفر والصور، وحيث يقف بائع «المافن» دائماً يقرع جرسه، وتتعالى أصوات الأطفال وهم يتقافزون داخل وخارج العلامات المرسومة بالطبشور الأبيض على الرصيف، يقف، وينظر يُمنة ويسرةً؛ ثمَّ يمضي مسرعاً نحو الباب رقم ثلاثين، ويقرع الجرس. وقف محدِّقاً

إلى الباب أمامه، وانتظر مطرقاً رأسَه. لم يرِد أن يلمحه أحد واقفاً عند عتبة ذلك الباب. ولم يكن يعجبه أن ينتظر حتَّى يُؤذنَ له بالدخول، ولا حتَّى أن تسمح له السيِّدة سيمز بالدخول. كانت دائماً ثمَّة رائحة تنبعث من المنزل؛ وثمَّة ملابس قذرة معلَّقة على حبل الغسيل في الحديقة الخلفيَّة. صعد الدرج بوجه عابس وخطوات متثاقلة، ودلف غرفة الجلوس.

ليس ثمَّة أحد. لقد جاء في وقت مبكر جدّاً. نظر في أرجاء الغرفة باشمئزاز. كان هناك كثير من الأشياء الصغيرة المبعثرة حوله، وشعر بأنَّه لا ينتمي إلى ذلك المكان، فلقد بدا ضخماً للغاية وهو يقف منتصباً بمحاذاة المدفأة المزيَّنة بستارةٍ أمام لوحة رُسم عليها طائر الرفراف وهو يحطُّ على أغصان البردي. تناهى إلى مسمعه وقع الخطى المتسارعة هنا وهناك في الطابق العلويِّ. هل معها أحد؟ تساءل، منصتاً، وتعالت أصوات الأطفال في الشارع. يا له من أمر مثير للاشمئزاز! يا له من أمر مهين وماكر! في يوم من الأيَّام، قال لنفسه... لكنَّ الباب فُتح، ودخلت عشيقته ميرا.

«أوه، يا عزيزي بوغي!»، صاحت. كان شعرها أشعثَ، وتبدو ممتلئة قليلاً، لكنَّها كانت أصغر منه بكثير، ومع ذلك كانت سعيدة جدّاً برؤيته، كما اعتقدَ. وثب الكلب الصغير نحوها.

«لولو، لولو»، صرخت وهي تمسك الكلب الصغير بإحدى يديها وتضع اليد الأخرى على شعرها، «تعالَ ودعِ العمَّ بوغي يراك».

جلس الكولونيل على كرسيٍّ من الخيزران يُحدث صريراً، فوضعت الكلب على ركبته. كانت ثمَّة بقعة حمراء -ربَّما أكزيما- خلف إحدى أذنَيه. وضع الكولونيل نظَّارته، وانحنى لينظر إلى أذن الكلب. فقبَّلته ميرا على عنقه حيث ياقة قميصه، حينها سقطت نظَّارته، فالتقطتها ووضعتها على الكلب. شعرت أنَّ الفتى الهرم كان حزيناً اليوم على غير عادته. ثمَّة خطب ما في عالمه الغامض الممتلئ بالنوادي والحياة الأسريَّة الَّتي لم يتحدَّث إليها

عنها قطُّ. لقد حضر باكراً قبل أن تتمكَّن من تصفيف شعرها، الأمر الَّذي جعلها تنزعج، لكن ينبغي لها أن تروِّح عنه، لذلك راحت تتنقَّل بخفَّة هنا وهناك -بجسدها الممتلئ الَّذي لم يمنعها من المرور بين الطاولة والكرسيِّ؛ أبعدت الحاجز من أمام المدفأة لأجل أن تشعلها قبل أن يتمكَّن من إيقافها، لتجلس بعد ذلك على ذراع كرسيِّه.

«أوه، ميرا!»، قالت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة وتعدِّل دبابيس شعرها، «يا لكِ من فتاةٍ رثَّة للغاية!»، ثمَّ فكَّت لفَّة طويلة من شعرها وأطلقتها على كتفيها. كان شعرها الأشقر اللامع لا يزال جميلاً، مع أنَّها شارفت على الأربعين من عمرها، وكانت لديها ابنة في الثامنة من عمرها تعيش بعيداً عنها لدى أصدقائها في «بيدفورد» -مع أنَّ أحداً لا يعلم بتلك الحقيقة. انسدل شعرها من تلقاء نفسه، وانساب على كتفيها كثيفاً. رأى بوغي شعرها يتدلَّى متموِّجاً، فقبَّل شعرها. هنا بدأ أحدهم العزف على آلة الأرغن في آخر الشارع فاندفع الأطفال جميعاً باتِّجاه الصوت، تاركين وراءهم هدوءاً مفاجئاً. أخذ الكولونيل يداعب عنقها، ثمَّ راح يمدُّ يده الَّتي فقدت إصبعين، إلى الأسفل قليلاً، متلمِّساً جِيدها، وانزلقت ميرا جالسة على الأرض، وأسندت ظهرها إلى ركبته.

في ذلك الحين، سمعا صرير الدرج الخشبيِّ، كما لو أنَّ شخصاً ما تعمَّد إصدار ذلك الصوت ليعلمهما بوجوده، فلمَّت ميرا شعرها على الفور، وثبَّتته، ثمَّ خرجت وأغلقت الباب خلفها.

راح الكولونيل، بطريقته المعتادة، يفحص أذنَي الكلب مرَّة أخرى. أهي أكزيما؟ أم أنَّها ليست أكزيما؟ نظر إلى البقعة الحمراء، ثمَّ أوقف الكلب على قدميه في السلَّة، وانتظر. لم يعجبه الهمس الَّذي دار مطوَّلاً عند فسحة الدرج في الخارج. عادت ميرا بعد حين، وبدت قلقة، حتَّى إنَّ ملامح القلق الَّتي ارتسمت على وجهها جعلتها تبدو أكبر سنّاً. أخذت تبحث عن شيء ما تحت

الوسائد والأغطية. قالت إنَّها تريد حقيبتها؛ وتساءلت: أين وضعتها؟ فكَّر الكولونيل في أنَّها قد تكون في مكان ما في تلك الفوضى. كانت تبدو حقيبة هزيلة بائسة بعدما عثرت عليها تحت الوسائد في زاوية الأريكة. قلبتها رأساً على عقب، وراحت تهزُّها فسقطت منها مناديل ورقيَّة، وبضع أوراق نقديَّة مجعَّدة، وقطع نقد فضيَّة ونحاسيَّة، لكن لا بدَّ أنَّ هناك قطعة عملة «سوفرن» ما، قالت، ثمَّ تمتمت: «أنا متأكِّدة من أنَّه كان لديَّ واحدٌ أمس».

«كم المبلغ؟»، قال الكولونيل.

إنَّه نحو باوند واحد، لا، إنَّه باوند وثمانية أو ستَّة بنسات، قالت وهي تغمغم بشيء ما عن الغسيل. أخرج الكولونيل قطعتَي سوفرن من حقيبته الذهبيَّة الصغيرة وأعطاها إيَّاها. أخذتها وخرجت، وكان هناك المزيد من الهمس عند فسحة الدرج.

«غسيل...؟»، فكَّر الكولونيل في ذلك، وهو ينظر في أرجاء الغرفة الَّتي بدت كأنَّها جحر صغير قذر. لم يشأ التدخُّل والاستفسار عن أمر الغسيل لأنَّ ميرا بدت أكبر سنّاً بانزعاجها. ها هي ذي رجعت ثانيةً، وبدأت تتنقَّل بخفَّة في أرجاء الغرفة، ثمَّ جلست على الأرض ووضعت رأسها على ركبته. لقد خمدت الآن جذوة النار الَّتي كانت تتأجَّج على مضض. «دعيها كما هي»، قال بعد أن نفد صبره، وهي تتناول المحراك لإذكاء النار، «دعيها تنطفئ». فوضعت المِحْراك جانباً. كان الكلب يشخر، وآلة الأرغن تصدر ألحانها، حين بدأت يده تقطع رحلتها صعوداً وهبوطاً على رقبتها، وداخل وخارج شعرها الكثيف الطويل. في هذه الغرفة الصغيرة، الملتصقة بالمنازل الأخرى، حلَّ الغسق على عجل؛ وكانت الستائر نصف مسدولة. جذبها إليه، وقبَّل مؤخِّرة عنقها، ثمَّ راحت يده الَّتي فقدت إصبعين تمتدُّ إلى أسفل قليلاً وتتلمَّس جِيدها.

هبَّت عاصفة مطريَّة مفاجئة على الرصيف، فهرع الأطفال، الَّذين كانوا يتقافزون داخل وخارج ملاعبهم المرسومة بالطباشير، إلى منازلهم. أمَّا مغنِّي

الشارع الهرم، الَّذي كان يترنَّح على طول الرصيف، معلِّقاً قبَّعة صيَّاد على مؤخِّرة رأسه، فراح يهتف متحمِّساً: «احمدوا الله، احمدوا لله»، فقد رفع ياقة معطفه، واحتمى تحت رواق إحدى الحانات، وتوقَّف عن ندائه: «احمدوا الله، جميعاً». بعد ذلك أشرقت الشمس مرَّة أخرى، وجفَّ الرصيف.

«لم يغلِ بعد»، قالت هيلي بارغيتر وهي تنظر إلى إبريق الشاي، وكانت تجلس إلى المائدة المستديرة في غرفة الاستقبال الأماميَّة في المنزل، في «أبيركورن تيريس». «أوشك أن يغلي»، كرَّرت. كان الإبريق وعاءً نحاسيّاً قديم الطراز نُقشت عليه رسمة من الورد تكاد تُمحى، وهناك شعلة صغيرة ضعيفة تومض صعوداً وهبوطاً أسفل الإبريق النحاسيِّ. كانت أختها ديليا، متَّكئة على كرسيٍّ إلى جانبها، وتراقب الإبريق أيضاً. «أيجب أن يغلي الماء في الإبريق؟»، سألت بعد لحظة بفتور كأنَّها تتوقَّع أنَّ أحداً لن يُجيبَ عن سؤالها، وبالفعل لم تُجِب ميلي. جلستا في صمت تشاهدان الشعلة الضئيلة وهي تتوهَّج على حزمة خيوطٍ في أعلى الفتيل الأصفر. كان هناك العديد من الأطباق والأكواب كما لو أنَّ أشخاصاً آخرين سيحضرون؛ لكنَّهما كانتا وحدهما في ذلك الحين. كانت الغرفة تعجُّ بالأثاث. فمقابلهما خزانة هولنديَّة تمتلئ رفوفها بالخزف الصينيِّ الأزرق؛ وعلى الزجاج تنعكس شمس إبريل الآيلة للغروب فترسم بقعاً مشرقة هنا وهناك. وفوق المدفأة، صورة امرأة شابَّة ذات شعر أحمر ترتدي الموسلين الأبيض وتضع على حجرها سلَّة من الأزهار التي تنظر إليها، وتبتسم.

أخذت ميلي دبُّوس شعر من رأسها، وبدأت تحرِّك خيوط الفتيل، وتفصلها عن بعضها بعضاً لزيادة اللهب.

«لكنَّ ذلك لن يفيد في أيِّ شيء»، قالت ديليا بغضب وهي تراقبها. ثمَّ تململت. بدا كأنَّ كلَّ شيء يستغرق وقتاً يفوق طاقَتها على الاحتمال. ثمَّ دخلت كروسبي، وسألت إن كان ينبغي لها غلي الإبريق في المطبخ؟ فقالت ميلي لا. كيف يمكنني أن أضع حدّاً لهذا العبث الذي أضيِّع به

وقتي، قالت لنفسها، وهي تنقر على المنضدة بسكّين، وتنظر إلى اللهب الضعيف الذي كانت أختها تحثُّه على الاشتعال بدبُّوس الشعر. سمعت طنين بعوضة تحت الإبريق، لكن حينئذ انفتح الباب عنوة مرَّة أخرى، ودخلت فتاة صغيرة ترتدي فستاناً ورديّاً منشّىً.

«اعتقدتُ أنَّ نيرس قد ألبستك مريلة نظيفة»، قالت ميلي بصرامة، وهي تقلِّد أسلوب شخصٍ ناضج. كانت ثمَّة لطخة خضراء على مئزرها كما لو أنَّها كانت تتسلَّق الأشجار.

«لم تعد من الغسل بعد»، قالت الفتاة الصغيرة روز، متأفِّفةً. نظرت إلى الطاولة، لكنَّها لم تكن بعدُ مؤهَّلة لتسأل عن الشاي.

استعملت ميلي دبُّوس شعرها مرَّة أخرى لتحثَّ الفتيل. استدارت ديليا ونظرت إلى الخارج من النافذة خلفها، حيث كان بإمكانها رؤية عتبة الباب الأماميِّ من المكان الذي جلست فيه.

«الآن، ها هو ذا مارتن»، قالت مغتمَّة. صُفع الباب بقوَّة، ورُميت الكتب على طاولة الصالة، ودخل مارتن، وهو صبيٌّ في الثانية عشرة من عمره، ذو شعر أحمر، يشبه شعر المرأة التي كانت في اللوحة، لكنَّه مجعَّد.

«اذهب ونظِّف نفسك»، قالت ديليا بتجهُّم، وأضافت، «لديك متَّسع من الوقت. لم يغلِ الإبريق بعد».

نظر الجميع إلى إبريق الشاي. كان لا يزال مستمراً في صفيره الخافت الحزين، والشعلة الصغيرة تومض تحت وعاء النحاس المتأرجح.

«تبّاً لهذا الإبريق»، قال مارتن بحدَّة وهو يغادر.

«ماما لا تريدك أن تتفوَّه بمثل هذه الكلمات»، وبَّخته ميلي كما لو كانت تقلِّد شخصاً كبيراً؛ لقد بقيت والدتهم مريضة لفترة طويلة، الأمر الذي جعل الأختين تقلِّدان سلوكها مع الأطفال. فُتح الباب مرَّة أخرى.

«الصينيّة، يا آنسة...»، قالت كروسبي، وقد أبقت الباب مفتوحاً بقدمها. كانت تحمل صينيَّة الـمُقعدين بيديها.

«الصينيَّة»، قالت ميلي، «الآن من سيأخذ الصينيَّة إلى الأعلى؟»، قالت ذلك وهي تقلِّد من جديد أسلوب شخص كبير يودُّ أن يكون لبقاً مع الأطفال.

«لست أنت، يا روز. إنَّها ثقيلة جدّاً. دعي مارتن يحملها؛ ويمكنك الذهاب معه. لكن لا تبقي هناك. أخبري ماما بما كنتِ تفعلينه فحسب؛ ثمَّ أخبريها عن الإبريق... الإبريق...»

وعادت لتستعمل دبُّوس شعرها مرَّة أخرى لحثِّ الفتيل. انبعثت سحابة رقيقة من البخار من فوهة الإبريق المائلة كرأس الثعبان. في البداية، خرجت على نحو متقطِّع، وشيئاً فشيئاً أصبحت أقوى فأقوى، وهكذا حتَّى سمعوا خطوات مارتن وهو يصعد الدَّرج، فخرجت نفثة من البخار القويِّ من الفوهة.

«إنَّه يغلي!»، صاحت ميلي، «إنَّه يغلي!»

تناولوا طعامهم بصمت. وبسبب تغيُّر انعكاس ضوء الشمس على زجاج الخزانة الهولنديَّة فقد بدت الشمس كما لو أنَّها تدخل وتخرج إلى الغرفة، حيث يلمع أحد الأوعية باللون الأزرق الداكن حيناً ثمَّ يصبح رماديّاً مسودّاً حيناً آخر. استقرَّت أشعَّة الشمس خلسة على الأثاث في الغرفة الأخرى. كانت هنا تحاكي شكلاً ما، وهناك تبدو مجرَّد بقعة مضيئة. ثمَّة جمال يكمن في مكان ما، فكَّرت ديليا، ثمَّة حرّيَّة تكمن في مكان ما، فكَّرت في أنَّه -يضع زهرته البيضاء على سترته- ويوجد في مكان ما... لكنَّ صوت عصاً في القاعة شتَّت انتباهها فجأة.

«إنَّه بابا!»، صاحت ميلي محذِّرة.

انسلَّ مارتن على الفور من كرسيِّ والده، واعتدلت ديليا في جلستها. قرَّبت ميلي على الفور إلى الأمام كوباً كبيراً جدّاً مزخرفاً بالورد ولا يشبه

بقيَّة الأكواب. وقف الكولونيل عند الباب وتفقَّد الحاضرين بغضب إلى حدٍّ ما. جالت عيناه الزرقاوان الصغيرتان بينهم كما لو أنَّهما تبحثان عن خطأ ما، لم يكن يبحث عن خطأ معيَّن في ذلك الحين؛ لكنَّ مزاجه كان سيّئاً. عرف الجميع على الفور أنَّ مزاجه كان معكَّراً حتَّى قبل أن يتكلَّم.

«أيَّتها الهمجيَّة الصغيرة القذرة»، قال وهو يقرص روز من أذنها حين مرَّ إلى جانبها، فوضعت روز يدها من فورها على البقعة الموجودة على مئزرها.

«هل ماما بخير؟»، سأل، وهو يلقي بجسده دفعة واحدة على الكرسيِّ الكبير. إنَّه لا يحبُّ الشاي، لكنَّه غالباً ما يرتشف القليل منه بكوبه الضخم القديم الَّذي كان فيما مضى لوالده. رفع الكوب، وارتشف الشاي وهو متبرِّم.

«وماذا كنتم تفعلون جميعاً؟»، سأل.

نظر حوله نظرة يشوبها الغموض لكنَّها توحي بالدهاء، قد تكون نظرة ودّيَّة، لكنَّه كان متجهِّم الوجه حينها.

«ديليا أخذت درس الموسيقا، وذهبتُ إلى أسرة وايتلي-»، بدأت ميلي تخبره كما لو كانت طفلة تسمِّع درسها.

«تنفقين المالَ، إيه؟»، قال والدها بطريقة صارمة، لكن ليست غير ودود.

«لا، بابا. لقد أخبرتك. لقد أرسلوا الأوراق الخطأ».

«وأنت يا مارتن؟»، سأل الكولونيل بارغيتر، مقاطعاً كلام ابنته، «الأخيرُ في الصفِّ كالعادة؟»

«الأوَّل»، صاح مارتن، وهو ينطق الكلمة بسرعةٍ كما لو أنَّه كان يكبحها بصعوبة حتَّى تلك اللحظة.

«حسناً، لم تقل لي ذلك»، قال والده. انفرجت أسارير وجهه قليلاً، ووضع يده في جيب بنطاله وأخرج حفنة من قطع النقود الفضّيَّة. كان

أطفاله يراقبونه وهو يحاول أن ينتقي قطعة من فئة ستَّة بنسات من بين قطع الفلورين النقديَّة كلِّها. كان قد فقد إصبعين من يده اليمنى في أثناء العصيان العسكريِّ، وضمرت عضلاتها حتَّى أصبحت يده اليمنى تشبه مخلب طائر مسنٍّ. خلط مراراً بين القطع النقديَّة، وأوقعها، لكنَّ أحداً من أطفاله لم يجرؤ على مساعدته لأنَّه كان على الدوام يتجاهل إصابته. لطالما فُتنت روز بتلك النتوءات اللحميَّة اللامعة في نهاية أصابعه المشوَّهة.

«هذه لك يا مارتن»، قال في نهاية المطاف وهو يعطي ابنه البنسات الستَّة. ثمَّ عاد وارتشف الشاي مرَّة أخرى ومسح شاربيه.

«أين إليانور؟»، قال أخيراً كأنَّه يكسر الصمت المخيِّم على الغرفة.

«إنَّه يومها في غروف»، ذكَّرته ميلي.

«أوه، يومها في غروف»، تمتم الكولونيل وهو يحرِّك السكَّر بحركة دائريَّة مستمرَّة في الكوب كما لو أنَّه سيذيبه.

«العجوز ليفي العزيزة»، قالت ديليا بتردُّد. كانت ابنته المفضَّلة، لكنَّها لم تكن واثقة إلى أيِّ مدى ستجرؤ على قول شيء ما وهو في هذا المزاج.

لم يقل شيئاً.

«بيرتي ليفي التي لديها ستَّة أصابع في إحدى قدميها». تكلَّمت روز فجأة، فضحك الآخرون. لكنَّ الكولونيل قاطعهم بسرعة.

«أسرع يا بنيَّ، واذهب لكتابة واجباتك»، قال وهو يلقي نظرة سريعة على مارتن الَّذي كان لا يزال يأكل.

«دعه يكمل شايَه، بابا»، قالت ميلي وهي تقلِّد من جديد صوت امرأة ناضجة.

«والممرِّضة الجديدة؟»، سأل الكولونيل وهو ينقر بأصابعه على حافَّة الطاولة، «هل جاءت؟»

«نعم...»، بدأت ميلي كلامها، لكنَّ صوت خشخشة جاء من الصالة، ودخلت إليانور، ما جعلهم يشعرون براحة أكبر، ولا سيَّما ميلي. فكَّرت وهي تنظر إليها، الحمد لله، ها قد جاءت إليانور -التي تهدِّئ الجوَّ، وتحلُّ المشكلات، وتحول بينها وبين التوتُّرات والنزاعات التي تسود حياة الأسرة. إنَّها تعشق أختها. لطالما كانت تدعوها التي تمنحها الجمال الذي لا تملكه، وتكسوها بالملابس التي لا تملكها، لو لم تكن تحمل كومة من الدفاتر الصغيرة المرقَّشة وزوجاً من القفَّازات السود. احميني، تخيَّلت أنَّها ستقول لها ذلك وهي تقدِّم لها فنجان الشاي، فأنا لست سوى تلك الفتاة الصغيرة الخجول المضطهدة الَّتي لا تفقه شيئاً، مقارنة مع ديليا، الَّتي تخلِّص نفسها دائماً، حتَّى بابا يتجاهلني دائماً، وها هو ذا الآن غاضب لسبب ما. ابتسم الكولونيل لإليانور، والكلب الأحمر الَّذي كان يجثو على البساط أمام الموقد رفع عينيه إلى الأعلى وهزَّ ذيله، كما لو أنَّه عرف أنَّها إحدى أولاء النساء الطيِّبات اللاتي يرمين له عظمة، لكن يغسلنَ أيديهنَّ بعد ذلك. كانت إليانور أكبر أخواتها، وهي فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، لم تكن تتمتَّع بقدر كبير من الجمال، لكنَّها كانت مفعمة بالصحَّة والحيويَّة، وعلى الرَّغم من أنَّها كانت متعبة في تلك الفترة، لم تكن الابتسامة تفارق ثغرها.

«أنا آسفة لأنَّني تأخَّرت»، قالت، «لقد بقيت هناك. ولم أكن أتوقَّع-» نظرت إلى والدها.

«غادرتُ أبكر ممَّا كنت أعتقد»، قال بسرعة، «الاجتماع -» توقَّف لوهلةٍ. لقد كان ثمَّة جدال آخر مع ميرا. «وكيف كان يومك في غروف، آه؟»، أضاف.

«أوه، يومي في غروف»، كرَّرت. لكنَّ ميلي أعطتها الطبق المغطَّى.

«لقد بقيت هناك»، قالت إليانور مرَّة أخرى وهي تخدم نفسها وتأخذ ما تريد، ثمَّ بدأت تأكل، وأصبح الجوُّ ألطف.

«والآن، أخبرنا، بابا»، قالت ديليا بجرأة -فقد كانت ابنته المفضَّلة- «ماذا كنت تفعل أنت. أقمت بأيِّ مغامرات؟»

كان ذلك تعليقاً بائساً.

«ليس هناك أيُّ مغامرات لشخص محافظ مثلي»، قال الكولونيل بفظاظة، وطحن حبَّات السكَّر على جدران فنجانه، ثمَّ بدا كأنَّه ندم على فظاظته؛ وفكَّر للحظة.

«قابلت العجوز بورك في النادي؛ طلب إليَّ أن أحضر إحداكنَّ إلى العشاء؛ لقد عاد روبن في إجازة»، قال.

ارتشف شايه، وسقطت بعض القطرات على لحيته الصغيرة المدبَّبة، فأخرج منديله الحريريَّ الكبير ومسح ذقنه باستياء. كانت إليانور تجلس على كرسيِّها المنخفض، فرأت نظرة غريبة تعتلي وجه ميلي في البداية، ثمَّ وجهَ ديليا. كان لديها انطباع بأنَّ ثمَّة خطباً ما وقع بينهما، لكنَّهما لم تتفوَّها بشيء. استمرَّ الجميع في الأكل والشرب حتَّى رفع الكولونيل فنجانه ليشرب الشاي ورأى أنَّه فارغ، فوضعه بقوَّة مصدراً قرقعة بسيطة، وبذلك انتهت طقوس شرب الشاي.

«الآن، انهض يا ولدي، وابدأ بكتابة واجباتك»، قال لمارتن، فسحب مارتن يده الَّتي كانت ممدودة نحو الطبق.

«هيَّا أسرع»، قال الكولونيل بحزم، فنهض مارتن وذهب، وهو يسحب يده على مضض فوق الكراسي والطاولات كأنَّه يتلكَّأ في الخروج، ثمَّ صفق الباب خلفه بحدَّة. نهض الكولونيل ووقف بينهم بمعطفه المزرَّر بإحكام.

«يجب أن أغادر أنا أيضاً»، قال. لكنَّه توقَّف لوهلة كما لو أنَّه ليس ثمَّة مكان محدَّد ليغادر لأجله. وقف هناك منتصب القامة بينهنَّ، كما لو أنَّه يرغب في إعطاء بعض الأوامر، لكنَّه لم يستطع حينها التفكير في أيِّ أمر يصدره. ثمَّ تذكَّر.

«أتمنّى أن تتذكّر إحداكنّ»، مخاطباً بناته بتجرُّد دون أن يقصد واحدة معيَّنة، «أن تكتبَ إلى إدوارد... وأن تخبره أن يكتب إلى ماما».

«حسناً»، قالت إليانور.

اتَّجه نحو الباب. لكنَّه توقَّف.

«أخبروني حينما تودُّ ماما رؤيتي»، قال. ثمَّ توقَّف وقرص ابنته الصغرى من أذنها.

«أيَّتها الهمجيَّة الصغيرة القذرة»، قال مشيراً إلى البقعة الخضراء على مئزرها. فغطَّت البقعة بيدها. ثمَّ عاد وتوقَّف عند الباب ثانية.

«لا تنسي الكتابة إلى إدوارد»، قال محاولاً تلمُّس مقبض الباب، وأخيراً أدار المقبض، وخرج.

ساد الصمت في الغرفة. شعرت إليانور بأنَّ ثمَّة شيئاً ما يوتِّر الجوَّ. تناولت أحد الكتب الصغيرة الَّتي كانت قد ألقتها على الطاولة، وفتحته، ثمَّ وضعته على ركبتها. لكنَّها لم تنظر إليه، كانت تحدِّق إلى شيء ما، بل كانت شاردة في مكان بعيد. كانت الأشجار في الحديقة الخلفيَّة مزهرة، وأوراقها الصغيرة - التي تشبه الآذان الصغيرة- تتفتَّح على الأغصان. والشمس بين كرٍّ وفرٍّ تشرق حيناً وتغيب حيناً آخر، تضيء هنا الآن، وهناك...

«إليانور»، قاطعتها روز. كانت تضبط نفسها بطريقة غريبة مثل والدها.

«إليانور»، كرَّرت بصوت منخفض لأنَّ أختها كانت شاردة تماماً.

«ماذا؟»، قالت إليانور وهي تنظر إليها.

«أريد الذهاب إلى متجر أسرة لاملي»، قالت روز.

نظرت إلى صورة والدها، وهي تقف هناك وتضع يديها خلف ظهرها.

«لقد تأخَّر الوقت على الذهاب إلى متجر لاملي»، قالت إليانور.

«إنَّهم لا يغلقون حتَّى الساعة السابعة»، قالت روز.

«إذاً، قولي لمارتن أن يذهب معك»، قالت إليانور.

تقدَّمت الفتاة الصغيرة بخطىً بطيئة نحو الباب. رفعت إليانور دفتر حساباتها ثانيةً.

«لكن، لا تذهبي وحدك، لا تذهبي وحدك، يا روز، يجب ألَّا تذهبي وحدك»، قالت، وهي تلقي نظرة سريعة على الدفتر، في حين كانت روز قد وصلت إلى الباب. اختفت روز وهي تومئ برأسها بصمت.

صعدت إلى الطابق العلويِّ. توقَّفت خارج غرفة نوم والدتها، وتنشَّقت الرائحة الحلوة الحامضة الَّتي بدت معلَّقة بالأباريق والأكواب والأوعية المغطَّاة على الطاولة خارج الباب. صعدت مرَّة أخرى، وتوقَّفت خارج باب غرفة الدراسة. لم ترغب في الدخول لأنَّها كانت قد تشاجرت مع مارتن، لقد تشاجرا في البداية حول أريدج والمجْهِر، ثمَّ حول رمي الحجارة على قطط الآنسة بيم الَّتي تسكن في الجوار. لكنَّ إليانور طلبت إليها أن تسأله. فتحت الباب.

«مرحباً، مارتن»، بدأت كلامها.

كان مارتن يجلس إلى طاولة، ويرفع كتاباً قبالته، ويتحدَّث إلى نفسه متمتماً -ربَّما باليونانيَّة أو باللاتينيَّة.

«قالت لي إليانور...»، قالت، ملاحظةً كيف احمرَّ وجهه، وكيف أطبقت يده على قطعة من الورق كأنَّه يكوِّرها، ثمَّ تابعت، «أن أطلب إليك...»، وهي تقف مستعدَّة، وتسند ظهرها إلى الباب.

كانت إليانور تجلس مسترخية في كرسيِّها، والشمس تبسط أشعَّتها على أشجار الحديقة الخلفيَّة الَّتي بدأت تتفتَّح فيها البراعم. فضح ضوء الربيع طبعاً رداءة أغطية الكراسي، ولاحظت بقعة داكنة على الكرسيِّ الكبير ذي الذراعين، حيث كان والدها يُسند رأسه. إنَّما، كم كان عدد الكراسي كثيراً -وكم كانت هذه الغرفة فسيحة وجيِّدة التهوية إذا ما قارنَّاها بغرفة نوم السيِّدة

ليفي العجوز- لكنَّ ميلي وديليا كانتا صامتتين. تذكَّرت أنَّ السبب في ذلك هو مشكلة حفل العشاء. أيُّ واحدة منهما ستذهب؟ كانت كلتاهما ترغب في الذهاب إليه. تمنَّت لو لم يقل الناس لوالدها، «أحضر إحدى بناتك»، كانت تتمنَّى لو قالوا له: «أحضر إليانور»، أو «أحضر ميلي»، أو «أحضر ديليا»، بدلاً من توجيه الدعوة لهنَّ جميعاً، حينئذٍ لن تكون هناك مشكلة.

«حسناً»، قالت ديليا فجأة، «أنا يجب أن...»

نهضت كما لو أنَّها ذاهبة إلى مكان ما. لكنَّها توقَّفت. ثمَّ توجَّهت نحو النافذة المطلَّة على الشارع. كانت كلُّ المنازل المقابلة لمنزلهم لها الحدائق الأماميَّة الصغيرة نفسها، والأدراج نفسها، والأعمدة نفسها، وأقواس النوافذ نفسها. لكنَّ الغسق كان يهبط حينها، فبدت أطياف وهميَّة في ظلِّ الضوء الخافت. أُضيئت المصابيح، فتوهَّج الضوء في غرفة المعيشة المقابلة؛ ثمَّ أُسدلت الستائر وباتت الغرفة معتمة. وقفت ديليا تنظر إلى الشارع. كانت ثمَّة امرأة من الطبقة الفقيرة تدفع عربة للأطفال، ورجل عجوز يسير مترنِّحاً ويداه خلف ظهره. ثمَّ خلا الشارع من المارَّة، فخيَّم الصمت لوهلة. في تلك الأثناء كانت إحدى عربات «هانسوم» تقترب مجلجلةً على الطريق. لفت الأمر اهتمام ديليا للحظات، وتساءلت إن كانت العربة ستتوقَّف عند باب منزلهم أم لا؟ حدَّقت بمزيد من الاهتمام؛ لكن، يا للأسف، شدَّ الحوذيُّ اللجام بعد ذلك بسرعة، فتعثَّر الحصان؛ وتوقَّفت العربة بعد بيتين هناك في الأسفل.

نادت أختَها وهي تمسك بطرف ستارة الموسلين لتفتحها قليلاً: «ثمَّة شخص ما يزور أسرة ستابلتون». جاءت ميلي ووقفت إلى جانبها، وشاهدتا معاً، من الشقِّ، شابّاً يرتدي قبَّعة عالية، يترجَّل من العربة، ثمَّ يمدُّ يده ليدفعَ الأجرة للحوذيِّ.

قالت لهما إليانور محذِّرةً: «لا تدعا أحداً يراكما وأنتما تنظران». صعد الشاب الدَّرج مسرعاً، ودخل المنزل. أغلق الباب خلفه، وابتعدت عربة الأجرة.

لكنَّ الفتاتين وقفتا لوهلة عند النافذة وهما تنظران إلى الشارع. كانت أزهار الزعفران الصُّفر والبنفسجيَّة تملأ الحدائق الأماميَّة، وأشجار اللوز وجُنْبات الرِّباط تميل إلى الخضرة. هبَّت ريح قويَّة مفاجئة، واندفعت في الشارع، حاملةً معها بقايا الأوراق على طول الرصيف؛ تبعتها بعد ذلك زوبعة صغيرة من الغبار الجافِّ. وفوق أسطح المنازل لاح مشهد مغيب الشمس الحمراء بين الغيوم المتبدِّدة في سماء لندن، ما جعل نوافذ المنازل تتوهَّج الواحدة تلو الأخرى وتصطبغ باللون الذهبيِّ. كان مساءً ربيعيّاً متَّقداً. حتَّى هنا، في «أبيركورن تيريس»، كان ضوء الشمس يتغيَّر من الذهبيِّ إلى الأسود، ومن الأسود إلى الذهبيِّ. أسدلت ديليا الستارة، واستدارت عائدةً إلى غرفة المعيشة، ثمَّ قالت فجأةً:

«يا إلهي!»

رفعت إليانور -التي كانت تراجع دفاترها مرَّة أخرى- عينيها حائرةً؛ «ثمانية ضرب ثمانية...»، قالت بصوت عال، «ما هو ناتج ثمانية ضرب ثمانية؟»

وضعت إصبعها على الصفحة لتحديد مكان الجواب، ونظرت إلى أختها، وهي تقف هناك وتُرجع رأسها إلى الخلف وشعرها الأحمر يتلألأ تحت وهج شمس المغيب. بدت للحظة جريئة متمرِّدة، بل حتَّى جميلة، وإلى جانبها كانت تقف ميلي بشعرها البنّيِّ الفاتح الباهت، ولا يمكن وصفُها.

«اسمعي ديليا»، قالت إليانور وهي تغلق دفترها، «ما عليك سوى الانتظار...»، كانت تقصد، «حتَّى تموت ماما»، لكنَّها لم تستطع قول ذلك.

«لا، لا، لا»، قالت ديليا وهي تمدُّ ذراعيها، وأضافت: «الأمر ميئوس منه...»، لكنَّها توقَّفت فجأة عن الكلام، حين دخلت كروسبي الغرفة. كانت تحمل صينيَّة، وراحت تضع الأكواب، والأطباق، والسكاكين، وأوعية المربَّى، وأطباق الكيك وأطباق الخبز والزُّبد، الواحد تلو الآخر على الصينيَّة، وتصدر

قرقعة بسيطة مزعجة. ثمَّ حملتها بعناية أمامها، وخرجت. ساد الصمت. لَمَّا عادت كروسبي مرَّة أخرى وطوت غطاء الطاولة وأعادت الطاولات إلى مكانها، ساد الصمت ثانية. ثمَّ عادت، بعد لحظة أو اثنتين، تحمل مصباحين بغطاءين من الحرير، وضعت أحدهما في الغرفة الأماميَّة والآخر في الغرفة الخلفيَّة، ثمَّ اتَّجهت إلى النوافذ، محدثة صريراً بحذائها الرخيص، وشدَّت الستائر، فانزلقت محدثةً صوت طقطقتها المألوفة على طول القضيب النحاسيِّ، وسرعان ما توارت النوافذ خلف طيَّات سميكة منقوشة من قماش المخمل الخمريِّ. لَمَّا أُسدلت الستائر في كلتا الغرفتين، خيَّم صمت عميق على غرفة المعيشة، وبدا العالم الخارجيُّ منفصلاً عنها تماماً. كانت تُسمع أصوات الباعة المتجوِّلين بعيداً في الشارع المجاور، وطقطقة حوافر خيول العربات الثقيلة وهي تقطع الطريق ببطء. كانت العجلات تقطع الطريق للحظة؛ ثمَّ يختفي صوتها ويخيِّم الصمت من جديد.

انعكس ضوء المصباحين، وتجمَّع في دائرتين صفراوين تحتهما. جرَّت إليانور كرسيَّها تحت ضوء أحدهما، وحنت رأسها تواصلُ العمل على ذلك الجزء الَّذي كانت دائماً تتركه إلى النهاية لأنَّها تكرهه كثيراً -ألا وهو جمع الأرقام. كانت شفتاها تتحرّكان، ويدها الممسكة بقلمها الرصاص تضع نقاطاً صغيرة على الورق وهي تجمع الثمانيات مع الستَّات والخمسات مع الأربعات.

«ها هو ذا!»، قالت أخيراً، «لقد انتهيت. الآن سأذهب وأجلس مع ماما».

انحنت لالتقاط قفَّازيها.

«لا»، قالت ميلي وهي تلقي بإحدى المجلَّات الَّتي كانت قد فتحتها، «سأذهب أنا...»

خرجت ديليا فجأة من الغرفة الخلفيَّة الَّتي كانت تجول فيها خلسة.

«ليس لديَّ ما أفعله»، قالت بإيجاز، «سأذهب أنا».

صعدت إلى الطابق العلويِّ، درجة بعد درجة، ببطء شديد. ولَمَّا وصلت إلى باب غرفة النوم -حيث كانت الأباريق والكؤوس موضوعة على الطاولة في الخارج- توقَّفت. لقد جعلتها رائحة المرض الحلوة الحامضة تشعر بالغثيان قليلاً. لم تستطع جبرَ نفسها على الدخول. كان في وسعها رؤية حزمَ الغيوم الملوَّنة كطائر النحام الورديِّ، ترقد فوق صفحة السماء الزرقاء الشاحبة من النافذة الصغيرة في نهاية الممرِّ. انبهرت عيناها بعدما كان ضوء الغسق الخافت يخيِّم على غرفة المعيشة. تسمَّرت هناك للحظة من وهج الضوء. ثمَّ سمعت صوت الطفلين -مارتن وروز يتشاجران في الطابق العلويِّ.

«لا تفعل إذاً!»، سمعتْ روز تقول ذلك، وصُفق الباب بقوَّة. توقَّفت للحظة، أخذت نفساً عميقاً، ونظرت مرَّة أخرى إلى السماء الملتهبة، ثمَّ نقرت على باب غرفة النوم.

نهضت الممرِّضة بهدوء وهي تضع إصبعها على شفتيها، وغادرت الغرفة. كانت السيِّدة بارغيتر تنام مستلقية بين كومة من الوسائد، وتضع إحدى يديها تحت خدِّها، تئنُّ قليلاً كما لو أنَّها تطوف في عالم لا يخلو من العقبات الصغيرة الَّتي تعترض سبيلها حتَّى في أثناء النوم. كان وجهها منتفخاً ومرهقاً، وبشرتها ملطَّخة ببقع بنِّيَّة اللون، وشعرها الأحمر أصبح الآن أبيضَ، باستثناء بعض البقع الصُّفر الغريبة فيه، كما لو أنَّ بعض خصله قد غُمست بصفار البيض، ويداها خاليتان تماماً من الخواتم ما عدا خاتم زواجها. منظر أصابعها وحده يوحي بأنَّها قد دخلت العالم الخاصَّ بالمرض. لكن لم يبدُ عليها أنَّها تحتضر، بل بدت كأنَّها باقية هكذا، معلَّقة بين الحياة والموت إلى الأبد. لم تلحظ ديليا أيَّ تغيُّر طرأ عليها. لَمَّا جلست أمامها، كان كلُّ ما فيها يوحي بأنَّها على ما يرام. عكس الكوب الزجاجيُّ الطويل إلى جانب السرير جزءاً من السماء، وشعَّ في تلك اللحظة بالضوء الأحمر. كانت طاولة الزينة مضاءة، والضوء ينعكس على القوارير الفضيَّة والزجاجيَّة الَّتي كانت مرتَّبة كلَّها بطريقة مثاليَّة توحي بأنَّها لم تعد

مستخدمة. بدت غرفة المريضة نظيفة وهادئة ومنظَّمة على نحو مذهل في تلك الساعة من المساء، وثمَّة طاولة صغيرة إلى جانب السرير عليها نظَّارة وكتاب للصلاة وزُهريَّة مُلئَت بالزنبق البريِّ، حتَّى الأزهار الَّتي في الزُّهريَّة بدت مذهلةً. لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى النظر.

حدَّقت إلى لوحة جدِّها المصفرَّة والضوء القويِّ المنعكس على أنفه؛ وإلى صورة عمِّها هوراس في زيِّه العسكريِّ؛ والجسد النحيل الملتوي على الصليب إلى اليمين.

«لكنَّكِ لا تؤمنين به!»، قالت بقسوة وهي تنظر إلى والدتها الغارقة في النوم، «أنتِ لا تريدين أن تموتي».

كانت تتمنَّى لها الموت. كانت ترقد هناك، ضعيفة، تالفة، لكنَّها صامدة، تستلقي في فرجة بين الوسائد كأنَّها تقف عقبة أو مانعاً أو عائقاً أمام أنماط الحياة كلِّها. حاولت استحضار بعض مشاعر العاطفة والشفقة. في سبيل المثال، قالت لنفسها، في ذلك الصيف، في «سيدموث»، حين نادتني عند أعلى درج الحديقة... لكنَّ المشهد تلاشى وهي تحاول تخيُّله. كان هناك المشهد الآخر بالطبع -الرجل الذي يرتدي المعطف الأسود الطويل ذا الشقِّ- ويضع زهرة في ياقة معطفه. لكنَّها كانت قد أقسمت ألَّا تفكِّر في ذلك حتَّى ترقد في فراشها. ما الَّذي يجب أن تفكِّر فيه إذاً؟ جدَّها والضوء الأبيض المنعكس على أنفه؟ أو كتاب الصلاة؟ أو الزنابق البرِّيَّة؟ أو المرآة؟ دخلت الشمس الغرفة. كان الزجاج مغبَّشاً ولم يعكس حينها سوى بقعة مظلمة من السماء. لم تعد تستطيع المقاومة.

«يضع زهرة بيضاء في عروة معطفه»، بدأت تتخيَّل. تطلَّب الأمر منها بضع دقائق حتَّى تستعدَّ؛ لا بدَّ أن تكون هناك قاعة وصفَّان من أشجار النخيل، والطابقُ السفليُّ يزدحم برؤوس الحاضرين. بدأ السِّحر يأخذ مفعوله، وأصبحت مفعمة بالبدايات الممتعة لمشاعر الإطراء والإثارة.

كانت على المسرح، وكان هناك جمهور حاشد، والجميع يصيحون ويلوِّحون بالمناديل ويهمسون ويصفِّرون. ثمَّ وقفت، وتقدَّمت بثيابها البيض إلى منتصف المسرح؛ والسيِّد بارنيل إلى جانبها.

«أنا أتحدَّث لأجل قضيَّة الحرّيَّة»، بدأت تقول وهي تلوِّح بيديها، «لأجل قضيَّة العدالة...». كان الناس يقفون إلى جانب بعضهم بعضاً، أمَّا السيِّد بارنيل فكان وجهه شاحباً جدّاً، لكنَّ عينيه الدَّاكنتين تلمعان. التفت إليها وهمس...

فجأةً، انقطعت سلسلة أفكارها. كانت السيِّدة بارغيتر ترفع نفسها عن الوسائد.

«أين أنا؟»، صاحت قائلةً. كانت خائفة ومرتبكة، كما هي حالها حين تستيقظ في كثير من الأحيان. رفعت يدها، كأنَّها تطلب المساعدة. «أين أنا؟»، كرَّرت السؤال. بدت ديليا محتارة أيضاً للحظة، وتساءلت أين كانت؟

«هنا، ماما! هنا!»، قالت بفظاظة، «هنا، في غرفتك».

وضعت السيِّدة بارغيتر يدها على غطاء السرير، وتشبَّثت به بعصبيَّة. نظرت في أرجاء الغرفة كما لو أنَّها تبحث عن شخص ما. يبدو أنَّها لم تتعرَّف ابنتها. «ماذا يحدث؟»، قالت، «أين أنا؟»، ثمَّ نظرت إلى ديليا وتذكَّرتها.

«أوه، ديليا -كنت أحلم»، تمتمت كأنَّها تحاول أن تعتذر. استلقت للحظة وهي تنظر من النافذة. كانت المصابيح في الشارع قد أُضيئت، فدخلت حزمة من الضوء الخفيف المفاجئ من الشارع في الغرفة.

«كان يوماً رائعاً...»، تردَّدت قليلاً، «لأنَّه...»، وبدت كما لو أنَّها لا تستطيع تذكُّر السبب.

«أجل، كان يوماً جميلاً، ماما»، كرَّرت ديليا وهي تحاول أن تشجِّعها تلقائيّاً.

«... لأنَّه...»، حاولت والدتها مرَّة أخرى.

أيَّ يوم كان ذاك اليوم؟ لم تستطع ديليا أن تتذكَّر.

«... لأنَّه كان عيد ميلاد عمِّك ديغبي»، أخيراً تذكَّرت السيِّدة بارغيتر، «أخبِّريه عنِّي -أخبريه كم أنا سعيدة حقّاً».

«سأخبره»، قالت ديليا. كانت قد نسيت عيد ميلاد عمِّها، لكنَّ والدتها كانت تحرص دوماً على مثل هذي الأشياء.

«العمَّة يوجين-»، بدأت ديليا تقول.

لكنَّ والدتها كانت تحدِّق إلى منضدة الزينة. لقد انعكس شيء من بريق المصباح في الخارج عليها فجعل الغطاء الأبيض يبدو شديد البياض.

«غطاء طاولة آخر نظيف!»، تمتمت السيِّدة بارغيتر بحزن، «إنَّها المصاريف، المصاريف، يا ديليا -ذلك أكثر ما يقلقني-»

«لا عليك، يا ماما»، قالت ديليا بفتور. كانت عيناها تحدِّقان إلى صورة جدِّها. وتساءلت لماذا وضع الرسَّام مسحة من الطبشور الأبيض على طرف أنفه؟

«لقد أحضرت لك العمَّة يوجين بعض الزهور»، تابعت.

بدت السيِّدة بارغيتر سعيدة لسبب ما. راحت عيناها تتأمَّلان غطاء المنضدة النظيف -الَّذي ذكَّرها منذ قليل بمصاريف الغسل.

«العمَّة يوجين...»، قالت، «كم أتذكَّر جيِّداً» -بدا صوتها أعلى وأوضح- «ذلك اليوم الَّذي أُعلنت فيه الخطبة. كنَّا جميعاً في الحديقة. حيث وصلتنا رسالة»، توقَّفت، «وصلتنا رسالة»، أعادت، ثمَّ صمتت لبعض الوقت. بدت كأنَّها تتأكَّد من بعض الذكريات.

«مات الصبيُّ العزيز الصغير، لكن بقي ذلك...». توقَّفت مرَّة أخرى. فكَّرت ديليا في أنَّها تبدو أضعف الليلة؛ فبدأ ينتابها شعور بالفرح. كانت جملها

متقطِّعة أكثر من المعتاد. تساءلت ديليا أيّ صبيٍّ صغير مات؟ ثمَّ بدأت تعدُّ الجدائل الموجودة على غطاء السرير، فيما تنتظر والدتها لتتحدَّث.

«تعلمين أنَّ أبناء عمومك كلَّهم كانوا يجتمعون معاً في الصيف»، استأنفت والدتها الحديث فجأة، «وكان عمُّك هوراس يأتي أيضاً...»

«صاحب العينِ الزجاجيَّة»، قالت ديليا.

«نعم، أصاب عينه وهو يركب الحصان الخشبيَّ الهزَّاز. كانت العمَّات يفكِّرن كثيراً في هوراس. وكنَّ يقلْنَ...»، هنا توقَّفت عن الكلام لوقت طويل كما لو كانت تحاول العثور على الكلمات الصحيحة.

«حينما يأتي هوراس... لا تنسي أن تسأليه عن باب غرفة الطعام».

شعور غريب بالبهجة بدا كما لو أنَّه غمر السيِّدة بارغيتر. لقد ضحكت من قلبها. لا بدَّ أنَّها كانت تفكِّر في نكتة أُسريَّة قديمة، كما ظنَّت ديليا، وهي تشاهد الابتسامة ترتسم على ثغرها وتتلاشى. ساد صمت مطبق. تمدَّدت والدتها وأغمضت عينيها. وضعت يدَها، ذات الخاتم الوحيد، تلك اليد البيضاء الهزيلة، على غطاء السرير. في خضمِّ ذلك الصمت المطبق، كان بإمكانهما سماع طقطقة الفحم في الموقد ودندنة الباعة المتجوِّلين في الطريق. لم تقل السيِّدة بارغيتر أيَّ شيء آخر، بل استلقت ساكنة تماماً دون أن تأتي بأيٍّ حركة، ثمَّ تنهَّدت بعمق.

فُتح الباب ودخلت الممرِّضة. نهضت ديليا، ثمَّ خرجت. أين أنا؟ سألت نفسها وهي تحدِّق إلى إبريق أبيض صبغه غروب الشمس باللون الورديِّ. بدت للحظة كأنَّها في منطقة هامشيَّة بين الحياة والموت. ثمَّ سألت ثانية: أين أنا؟ وهي تنظر إلى الإبريق الورديِّ، بدا كلُّ شيء غريباً. ثمَّ سمعت صوت الماء ينسكب، ووقع قدمين تخبطان على الأرض في الطابق العلويِّ.

«ها أنتِ ذي، يا روزي»، قالت نيرس، وهي ترفع عينيها وتنظر، عبر عجلة ماكينة الخياطة، إلى روز وهي تدخل.

كانت الإضاءة ساطعةً في غرفة الأولاد؛ ثمَّة مصباح غير مظلَّل على المنضدة، وكانت السيِّدة سي، الَّتي تأتي كلَّ أسبوع لأجل الغسل، تجلس على الأريكة وفي يدها كوب. «اذهبي وأحضري شغل الحياكة الخاصَّ بك أيَّتها الفتاة المطيعة»، قالت نيرس، في حين كانت روز تصافح السيِّدة سي، «وإلَّا فلن تنتهي أبداً في الوقت المناسب لعيد ميلاد بابا»، مضيفةً وهي تفسح في المجال على الطاولة في غرفة الأولاد.

فتحت روز درج الطاولة، وأخرجت كيساً للأحذية كانت تطرِّز عليه رسماً لزهور زُرق وحُمر بمناسبة عيد ميلاد والدها. كان لا يزال هناك بضع طاقات من الورد الصغيرة المرسومة بقلم الرصاص في حاجة إلى التطريز. فرشت الكيس على الطاولة وراحت تتفحَّصه، في حين استأنفت نيرس ما كانت تقوله للسيِّدة سي عن ابنة السيِّدة كيربي، لكنَّ روز لم تكن تُصغي إليهما.

إذاً، يجب أن أذهب بمفردي، قرَّرت وهي تسوِّي حقيبة الأحذية بيدها. إذا لم يأتِ معي مارتن، إذاً عليَّ الذهاب بمفردي.

«تركتُ صندوق عملي في غرفة الجلوس»، قالت بصوت مرتفع.

«حسناً، إذاً، اذهبي وأحضريه»، قالت نيرس، لكنَّها لم ترافقها؛ أرادت أن تواصل حديثها مع السيِّدة سي عن ابنة البقَّال.

الآن، بدأت المغامرة، قالت روز لنفسها وهي تتسلَّل على رؤوس أصابعها إلى غرفة نوم الأولاد. الآن، يجب أن تزوِّد نفسها بالذخيرة والمؤن؛ يجب أن تسرق مفتاح نيرس؛ لكن أين هو؟ كلَّ ليلة تخبِّئه في مكان جديد خوفاً من اللصوص. سيكون إمَّا تحت علبة المناديل أو في الصندوق الصغير الَّذي تحتفظ فيه بساعة والدتها الذهبيَّة ذات السلسلة. ها هو ذا! الآن، أصبحت جاهزة، فلديها المسدَّس والطلقات، فكَّرت في ذلك وهي تأخذ حقيبة نقودها من درجها الخاصِّ، وما يكفيها من المؤونة لمدَّة أسبوعين، كما فكَّرت، وهي تضع قبَّعتها ومعطفها على ذراعها.

مرَّت من أمام غرفة الأولاد، وتسلَّلت إلى أسفل الدَّرج. كانت تصغي بانتباه شديد إلى أيِّ حركة وهي تمرُّ من أمام باب غرفة الدراسة. قالت لنفسها ينبغي أن تحرص على ألَّا تطأ غصناً جافّاً، أو تدع أيَّ عودٍ ينكسر تحت قدميها. توقَّفت مرَّة أخرى، وأصغت من جديد إلى أيِّ حركة وهي تمرُّ من أمام باب غرفة نوم والدتها. كان ثمَّة صمت عميق يخيِّم على المكان. ثمَّ وقفت للحظة عند فسحة الدرج وهي تنظر إلى الصالة. الكلب نائم على بساطه، والجوُّ آمن، والصالة فارغة. سمعت تمتمةً في غرفة الجلوس، فأدارت مزلاج الباب الأماميِّ بكلِّ هدوء، وأغلقته خلفها بطقَّة لم تكد تُسمع. ثمَّ راحت تمشي منحنية إلى جوار الحائط فلا يراها أحد حتَّى اقتربت من الزاوية. لَمَّا وصلت إلى الزاوية تحت شجرة الأبنوس وقفت هناك منتصبة.

«أنا فرد من أسرة بارغيتر العريقة»، قالت وهي تلوِّح بيدها متباهية بنفسها، «أهبُّ للنجدة!»

كانت تهبُّ لنجدة إحدى الحاميات المحاصَرة تحت جنح الليل في مهمَّة يائسة، قالت لنفسها. أحكمت قبضتها على محفظة نقودها -لأنَّ لديها رسالة سرّيَّة تودُّ تسليمها إلى الجنرال شخصيّاً، فحياة الجميع متوقِّفة عليها. كان العلم البريطانيُّ لا يزال يرفرف على البرج المركزيِّ -أمَّا متجر لاملي فهو البرج المركزيُّ؛ والجنرال واقف على سطح متجر لاملي واضعاً عينه على منظاره. كانت حيواتهم جميعاً تتوقَّف على اجتيازها لأرض الأعداء ووصولها إليهم. ها هي ذي هنا تعدو مسرعة بحصانها عبر الصحراء، وتبدأ بالهرولة هناك. اشتدَّ الظلام حلكة، ومصابيح الشارع بدأت تُضاء. كان سرَّاج المصابيح يقحم عصاه في الباب الأفقيِّ الصغير للمصباح لإضاءته؛ والأشجار في الحدائق الأماميَّة ترسم شبكة من الظلال المرتعشة على الرصيف الواسع المظلم الممتدِّ أمامها. اجتازت التقاطع، ثمَّ وصلت إلى جزيرة من المحالِّ الصغيرة المقابلة حيث يقع متجر لاملي. كان عليها فقط أن تعبر الصحراء لتجتاز النهر الممتدَّ أمامها، وعندها تصبح في أمان. حثَّت حصانها بالمهماز، وانطلقت تجري في شارع «ميلروز»

وهي تلوِّح بذراعها الَّتي تحمل بها المسدَّس، وبينما كانت تركض بالقرب من صندوق البريد، ظهر أمامها فجأةً رجلٌ يقف تحت مصباح الغاز.

«العدوُّ!»، صاحت روز قائلة لنفسها، «إنَّه العدوُّ! بنغ بنغ!»، صاحت وهي تضغط على زناد مسدَّسها، وتنظر إلى وجهه مباشرةً وهي تمرُّ من أمامه. بدا وجهه فظيعاً: أبيضَ، متقشِّراً، وممتلئاً بآثار البثور؛ نظر إليها شزراً، ومدَّ ذراعه كأنَّه يرغب في إيقافها، وكاد يمسك بها. لكنَّها أسرعت من أمامه، وانتهت اللُّعبة.

عادت إلى طبيعتها مرَّة أخرى، فتاة صغيرة عصَتْ أختها، وفرَّت إلى متجر أسرة لاملي بحذاء المنزل، بحثاً عن الأمان.

كانت السيِّدة لاملي ذات الوجه النضر تقف خلف المنضدة وهي تطوي الصحف. تفكِّر، كما يبدو، في شيء ممتع وهي تنظر إلى ساعاتها من ذات البنسين، وإلى بطاقات الأدوات، وقوارب الألعاب، وعلب الأدوات المكتبيَّة الرخيصة؛ لذا كانت تبتسم. دخلت روز، ونظرت إلى الأعلى متسائلة.

«أهلاً روزي!»، قالت، «ماذا تريدين يا عزيزتي؟»

وضعت روز يدها على كومة الصحف، ووقفت هناك تلهث؛ لقد نسيت ما جاءت لأجله.

«أريد صندوق البطِّ الموجود في النافذة»، تذكَّرت روز أخيراً.

تمايلت السيِّدة لاملي في مشيتها، وذهبت لإحضاره.

«أليس الوقت متأخِّراً لتخرج فتاة صغيرة مثلك بمفردها؟»، سألتها السيِّدة لاملي وهي تنظر إليها كما لو أنَّها تعلم بأنَّها خرجت بحذاء المنزل، ومن دون إذن أختها.

«ليلة سعيدة يا عزيزتي، اركضي على الفور إلى المنزل»، قالت وهي تعطيها الطرد. بدت الطفلة متردِّدة في الخروج، فوقفت عند عتبة باب المحلِّ تحدِّق إلى الألعاب تحت مصباح الزيت المعلَّق؛ ثمَّ خرجت على مضض.

ها قد سلَّمتُ رسالتي إلى الجنرال شخصياً، قالت لنفسها وهي تقف ثانية في الخارج على الرصيف، وهذه هي الكأس الَّتي حصلتُ عليها، قالت وهي تمسك بالصندوق تحت ذراعها. ها أنا ذي أعود مكلَّلة بالنصر ومعي رأس زعيم المتمرِّدين. قالت لنفسها وهي تستطلع امتداد شارع «ميلروز» أمامها، يجب أن أحثَّ حصاني وأعدو به مسرعة. لكنَّ القصَّة لم تعد مجدية، فشارع «ميلروز» لا يزال هو شارع «ميلروز». نظرت إلى الشارع. كان الشارع الطويل يمتدُّ أمامها خالياً، وظلال الأشجار ترتجف على الرصيف، والمصابيح تصطفُّ بعيدة عن بعضها بعضاً، وبينها برك من الظلام الموحش. بدأت بالهرولة. وفجأةً، وهي تمرُّ أمام عمود المصباح، رأت الرجل مرَّة أخرى. كان ظهره مستنداً إلى عمود الإنارة، وضوء مصباح الغاز ينعكس على وجهه، ولَمَّا مرَّت به، مصَّ شفتيه إلى الداخل والخارج، ومَاءَ كالهرِّ. لكنَّه لم يمدَّ يديه إليها، لأنَّه كان يفكُّ أزرار ملابسه.

فرَّت من أمامه مسرعة، وظنَّت أنَّها سمعته يلاحقها، وسمعت وقع خطواته على الرصيف. كان كلُّ شيء يهتزُّ أمامها وهي تركض، وثمَّة بقع ورديَّة وسُود تتراقص أمامها وهي تصعد راكضة على درجات الباب. وضعت مفتاحها في المزلاج وفتحت باب الصالة. لم تهتمَّ ما إذا كانت قد أحدث ضجَّة أو لا، بل كانت تأمل في أن يخرج شخص ما ويتحدَّث إليها، لكنَّ أحداً لم يسمعها. كانت الصالة فارغة، والكلب لا يزال نائماً على البساط، والأصوات لا تزال تتمتم في غرفة الجلوس.

«وحينما يشتعل»، كانت إليانور تقول، «سيكون الجوُّ حارّاً للغاية».

كانت كروسبي قد كدَّست الفحم في شكل كومة كبيرة سوداء في المدفأة، وراح عمود من الدخان الأصفر يلتفُّ حولها؛ أخذ الفحم يحترق، ولَمَّا أصبح الفحم جمراً، بات الجوُّ حارّاً للغاية.

«يمكنها رؤية نيرس وهي تسرق السكَّر، ويمكنها رؤية ظلّها على الحائط»، كانت ميلي تقول، وكنَّ يتحدَّثنَ عن والدتهنَّ.

«وماذا عن إدوارد»، أضافت، «نسيتِ أن تكتبي إليه».

«لقد ذكَّرتني»، قالت إليانور. يجب أن تكتبَ إلى إدوارد. لكن ثمَّة متَّسع من الوقت بعد العشاء. لم تكن ترغب في الكتابة، ولا حتَّى في الكلام. لَمَّا كانت تعود من «غروف»، تشعر دائماً كما لو أنَّ العديد من أشياء تحدث في وقت واحد. ظلَّت الكلمات تتكرَّر في عقلها -الكلمات والمشاهد. إنَّها تفكِّر في السيِّدة ليفي العجوز، وهي تجلس مُسنَّدة في السرير، وشعرها الأبيض كثيف ومجعَّد كباروكة، ووجهها متشقِّقٌ كوعاء مزجَّجٍ قديم.

«أولئك الذين أحسنوا معاملتي، أولئك الذين أتذكَّرهم... أولئك الذين كنت أركب في عرباتهم حين كنت أرملة فقيرة تنظِّف وتعصر-»، هنا مدَّت ذراعها المفتولة البيضاء كجذر شجرة، «أولئك الذين أحسنوا معاملتي، أولئك الذين أتذكَّرهم...»، كرَّرت إليانور قولها وهي تنظر إلى النار. ثمَّ دخلت ابنتها الَّتي كانت تعمل لدى الخيَّاط، كانت ترتدي لآلئ بحجم بيض الدَّجاج، وقد بدأت تتبرَّج وتضع المساحيق على وجهها، كانت رائعة الجمال. لكنَّ ميلي أبدت حركة بسيطة.

«كنت أفكِّر»، قالت إليانور فجأةً، «في أنَّ الفقراء يستمتعون بوقتهم أكثر منَّا».

«أسرة ليفي؟»، قالت ميلي وهي شاردة. ثمَّ أضاء وجهها.

«هلَّا حدَّثتني عن أسرة ليفي»، أضافت. لطالما استمتعت بحديث إليانور عن علاقاتها مع «الفقراء» -أُسر ليفي، وغراب، وبارافيسيني، وزوينغلر، وكوب. لكنَّ إليانور لم تكن تحبُّ الحديث عن «الفقراء» كأنَّهم أبطال رواية ما. كانت معجبةً أشدَّ الإعجاب بالسيِّدة ليفي الَّتي كانت تحتضر بسبب إصابتها بمرض السرطان.

«أوه، إنَّهم على حالهم»، قالت إليانور بحدَّة، فنظرت إليها ميلي، وظنَّت أنَّ «إليانور مزاجها معكَّر».كانت النكتة التي تتداولها الأسرة بقصد

المزاح: «انتبهوا، إليانور مزاجها معكَّر. لقد كانت اليوم في غروف». وكانت إليانور تشعر بالخجل، لكنَّ مزاجها يكون فعلاً معكَّراً حينما تعود كلَّ مرَّة من «غروف»، لسبب ما أو لآخر -كانت تفكِّر في كثير من الأشياء المختلفة في وقت واحدٍ: في منطقة «كانينغ بليس»؛ و«أبيركورن تيريس»؛ وفي هذه الغرفة وتلك. فهناك تجلس العجوز اليهوديَّة مستوية في السرير في غرفتها الصغيرة الحارَّة. ثمَّ تعود إلى هنا، فترى أمَّها المريضة، وأباها الغاضب، وديليا وميلي تتشاجران بشأن حفل. لكنَّها راجعت نفسها، وقالت إنَّه ينبغي لها أن تقول شيئاً ما لتسلية أختها.

«كان مبلغ أجرة السيِّدة ليفي جاهزاً، يا للعجب!»، قالت، «فَليلي تساعدها، لقد حصلت ليلي على وظيفة لدى خياطٍ في شورديتش. ولَمَّا دخلت كانت تضع الكثير من اللآلئ والأشياء. هؤلاء اليهود، يحبُّون الملابس المبهرجة فعلاً»، أضافت.

«اليهود؟»، قالت ميلي. بدت كأنَّها تفكِّر في ذوق اليهود، ومن ثمَّ في إهماله.

«نعم»، قالت، «كانت برَّاقة».

«كانت في غاية الجمال»، قالت إليانور، وهي تفكِّر في الوجنتين الحمراوين واللآلئ البيض.

ابتسمت ميلي، لأنَّ إليانور كانت تقف دائماً في صفِّ الفقراء، وفكَّرت في أنَّ إليانور هي أفضل وأعقل وأروع شخص عرفته.

«أعتقد أنَّكِ تحبِّين الذهاب إلى هناك أكثر من أيِّ شيء آخر»، قالت، «وأعتقد لو كان الأمر بيديك لوددتِ الذهاب والعيش هناك»، أضافت وهي تطلق تنهيدة صغيرة.

تململت إليانور في كرسيِّها. كانت لديها أحلام وخطط بالطبع، لكنَّها لم ترغب في مناقشتها.

«ربَّما ستفعلين ذلك حين تتزوَّجين؟»، قالت ميلي. كان ثمَّة مزيج من الحزن والتذمُّر في صوتها، ربَّما بسبب حفل العشاء؛ حفل عشاء لدى أسرة بورك، فكَّرت إليانور. تمنَّت لو لا تفتح ميلي سيرة الزواج دائماً. ماذا يعرِفنَ عن الزواج؟ سألت نفسها. إنَّهنَّ يجلسنَ في المنزل طوال الوقت، فكَّرت؛ ولا يستطعنَ رؤية أيِّ أحد خارج محيطهنَّ، فهنَّ هنا حبيسات في المنزل، ويوماً بعد يوم... لهذا السبب كانت تقول «الفقراء يستمتعون بوقتهم أكثر منَّا». لقد صدمها الأمر منذ عودتها إلى غرفة الجلوس تلك، مع كلِّ الأثاث والزهور وممرِّضات المستشفى... وتحاول أن تمنع نفسها مرَّة أخرى من التفكير في الأمر. يجب أن تنتظر حتَّى تبقى وحدها -عندما تنظِّف أسنانها في الليل؛ فحينما تكون مع الآخرين، ينبغي لها أن تمنع نفسها من التفكير في شيئين مختلفين في الوقت نفسه. أخذت المِحراك ونشَّطت الفحم.

«انظري! يا للروعة!»، صاحت. ثمَّة شررٌ يتطاير فوق الفحم، شررٌ سريع ومتفرِّق، إنَّه ذلك الشرر الَّذي كنَّا نشعله حين كنَّا صغاراً، عندما كنَّا ننثر ذرَّات الملح على النار. ضربت الفحم من جديد، فانطلق وابل من الشرر الذهبيِّ متطايراً إلى الأعلى نحو المدخنة. «هل تتذكَّرين كيف كنَّا نعبث مع رجال الإطفاء حين كنَّا نشعل، أنا وموريس، النار في المدخنة؟»، قالت.

«وتذهب بيبي لتحضر بابا»، قالت ميلي، ثمَّ توقَّفت. كان ثمَّة صوت في الصالة. إنَّه صرير عصا ما، هناك أحدٌ ما يعلِّق معطفاً. برقت عينا إليانور. نعم -إنَّه موريس. كانت تعرف الصوت الَّذي يصدره. ها هو ذا الآن يدخل. التفتت مبتسمةً حين فتح الباب. وثبت ميلي مسرعة تريد الخروج.

حاول موريس إيقافها.

«لا تذهبي»، قال.

«حسناً!»، قالت، «عليَّ أن أذهب. عليَّ أن أذهب وأغتسل»، أضافت فجأةً من دون تفكير. ثمَّ تركتهما.

جلس موريس على الكرسيِّ الَّذي تركته فارغاً. كان سعيداً لوجوده مع إليانور وحدها. لم يتحدَّثا كلاهما للحظة. أخذا يراقبان عمود الدخان الأصفر، وشرر اللهب الصغير يتطاير بخفَّة وعشوائيَّة هنا وهناك فوق كومة الفحم السوداء. ثمَّ سأل السؤال المعتاد:

«كيف حال ماما؟»

ردَّت قائلةً ألَّا تحسُّن قد طرأ، «باستثناء أنَّها تنام أكثر». قطَّب حاجبيه فتغضَّنت جبهته. فكَّرت إليانور في أنَّه بدأ يفقد نظرته الصبيانيَّة. كان ذلك أسوأ ما في مهنة المحاماة، كما يقول الجميع؛ وعلى المرء أن ينتظر. كان يعمل لصالح ساندرز كوري؛ كان عملاً مملّاً ورتيباً يجعله يتنقَّل بين المحاكم طوال النهار، وينتظر.

«كيف هو السيِّد كوري؟»، سألته -العجوز كوري سيِّيء الطباع.

«عصبيٌّ قليلاً»، قال موريس متجهِّماً.

«وماذا كنت تفعل طوال اليوم؟»، سألته.

«لا شيء بالتحديد»، أجاب.

«أما زال النزاع مستمرّاً بين إيفانز وكارتر؟»

«نعم»، قال باختصار.

«ومن سيربح؟»، سألته.

«كارتر، بالطبع»، أجاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لماذا «بالطبع»، أرادت أن تسأل؟ لكنَّها بالأمس كانت قد قالت شيئاً سخيفاً -شيئاً يبيِّن أنَّها لم تكن تواكب الأحداث. لقد خلطت الأمور ببعضها بعضاً، فسألته مثلاً، ما الفرق بين القانون العامِّ والقوانين الأخرى؟ لذلك فضَّلت الآن ألَّا تقولَ شيئاً. جلسا صامتين وهما يشاهدان الشرر يتطاير فوق الفحم، كان شرراً أخضرَ سريعاً متناثراً.

«هل تعتقدين أنَّني مغفَّل كبير»، سأل فجأة، «فمع مرض أمِّي، ودفع نفقات إدوارد ومارتن، لا بدَّ أن يشعرَ بابا بشيء من الضغط». قطَّب حاجبيه فتغضَّنت جبهته بطريقة جعلتها تقول لنفسها إنَّه بدأ الآن فعلاً يفقد نظرته الصبيانيَّة.

«بالطبع لا»، قالت نافيةً. فمن غير المعقول، بالنسبة إليه طبعاً، أن يتَّجه إلى الأعمال التجاريَّة؛ كان شغوفاً بالقانون.

«ستكون وزيراً للعدل في يوم من الأيَّام»، قالت، «أنا متأكِّدة من ذلك». هزَّ رأسه مبتسماً.

قالت «متأكِّدة تماماً» وهي تنظر إليه كما اعتادت أن تنظر إليه حين كان يعود من المدرسة ويرى كيف حصل إدوارد على كلِّ التقدير، فيجلس موريس صامتاً -إنَّها تتخيَّله الآن- وهو يزدرد طعامه دون أن يكترثَ لأمره أحد. إنَّما، حتَّى وهي تنظر إليه، انتابها بعض الشكِّ. لقد قالت وزيراً. أكان عليها أن تقول كبير القضاة؟ لكنَّها لم تستطع أن تتذكَّر أيَّ منصب ينبغي لها أن تقول: لهذا السبب لم يكن ليناقش معها قضيَّة إيفانز وكارتر.

لم تخبره قطُّ عن أسرة ليفي، إلَّا في سبيل المزاح. كانت تعتقد أنَّ أسوأ ما حدث بعدما أصبحا ناضجين أنَّه لم يعد بإمكانهما تبادل الأحاديث كما اعتادا تبادلها وهما صغيران. فالآن، حينما يلتقيان، لم يعد لديهما وقت للتحدُّث -عن الأشياء بالعموم-كما كانا يفعلان من قبل، بل أصبحا يتحدَّثان دائماً عن الحقائق المتعلِّقة بالواقع -الحقائق الصغيرة. أجَّجتِ النارَ. وفجأةً، دوى صوت جرس قويٍّ في أرجاء الغرفة. كانت كروسبي تقرع الجرس في الصالة، كأنَّها شخص متوحِّش يحاول الانتقام من ضحيَّة وقحة. تردَّدت أصداء الجرس القويِّ في أرجاء الغرفة كلِّها. «يا إلهي، إنَّه جرس العشاء!»، قال موريس. ثمَّ نهض وبدأ يتمطَّى. رفع ذراعيه، وأمسكهما للحظة معلَّقتين فوق رأسه. هكذا سيبدو حين يصبح ربَّ أسرة،

فكَّرت إليانور. أفلت ذراعيه وغادر الغرفة. جلست متأمِّلة للحظة. ثمَّ انتبهت إلى نفسها، وتساءلت: ماذا عليَّ أن أتذكَّر؟ أن أكتب إلى إدوارد، سرحت قليلاً، ثمَّ نهضت إلى طاولة الكتابة الخاصَّة بوالدتها. فكَّرت وهي تنظر إلى الشمعدانِ الفضيِّ، وصورةِ جدِّها الصغيرة، ستصبح الآن طاولتي، وإلى دفاترِ الحسابات -الَّتي طُبعت على أحدها صورة بقرة مذهَّبة- وتمثالِ حصان البحر المرقَّط المزوَّد بفرشاة في أعلى ظهره، الَّذي قدَّمه مارتن لوالدته في عيد ميلادها الأخير.

أبقت كروسبي باب غرفة الطعام مفتوحاً حين كانت تنتظر نزولهم. كانت تفكِّر في أنَّ ذلك المال الَّذي دفعته لتلميع الأدوات الفضّيَّة لم يذهب سدىً، فالسكاكين والشوك تلمع على المائدة. كانت الغرفة بأكملها، بكراسيِّها المحفورة، ولوحاتها الزيتيَّة، والخنجرين الموجودين على رفِّ الموقد، والخزانة الجانبيَّة الكبيرة -كلُّ الأشياء الثمينة الَّتي كانت كروسبي تنفض عنها الغبار وتلمِّعها كلَّ يوم- تبدو في أبهى حالاتها في المساء، والستائر المحبوكة، الَّتي تعبق برائحة اللحم، وتُرفع في أثناء النهار، تبدو لامعة وشبه شفَّافة في المساء. نظرت إليهم وهم يدخلون، وفكَّرت في أنَّها أسرة رائعة -فالشابَّات يرتدينَ أثواب الموسلين الجميلة المطرَّزة باللونين الأزرق والأبيض؛ والشبَّان يتأنَّقون بستراتهم الخاصَّة بالعشاء. سحبت كرسيَّ الكولونيل ليجلس عليه. يبدو دائماً في أفضل حالاته في فترة المساء؛ فهو يستمتع بالعشاء، وتختفي كآبته لسبب ما. كان مزاجه مرحاً، الأمر الَّذي رفع من معنويات أطفاله حينما رأوه هكذا.

«كم هو فستانك جميل!»، قال لديليا وهو يجلس.

«هذا القديم؟»، قالت وهي تربِّت على قماش الموسلين الأزرق.

لَمَّا كان يتمتَّع بذلك المزاج الجيِّد الَّذي كانت تحبُّه بالذات، كان تبدو عليه أمارات الترف والراحة والجاذبيَّة. كان الناس دائماً يقولون عنها إنَّها

تشبهه، وفي بعض الأحيان كان يُسعدها ذلك -مثل الليلة. بدا في غاية الأناقة والترتيب والدماثة وهو يرتدي سترة العشاء الخاصَّة به. لَمَّا كان يتمتَّع بذلك المزاج، كان الجميع يسترجعون طفولتهم ثانية، ويتشجَّعون على إلقاء النكات الأسريَّة الَّتي يضحك الجميع لها من دون سبب معيَّن.

«انتبهوا، إليانور مزاجها معكَّر»، قال والدها وهو يغمزهم، «لقد كانت اليوم في غروف».

ضحك الجميع؛ ظنَّت إليانور أنَّه سيتحدَّث عن الكلب روفر، لكنَّه بدأ في الواقع يتحدَّث عن السيِّدة إيغرتون، الراقية. تغضَّن وجه كروسبي، الَّتي كانت تقدِّم الحساء، لأنَّها أرادت أن تضحك أيضاً. كان حديث الكولونيل في بعض الأحيان يجعل كروسبي تضحك كثيراً إلى درجة أنَّها تُضطرُّ إلى الابتعاد والتظاهر بأنَّها تفعل شيئاً ما عند الطاولة الجانبيَّة.

«أوه، السيِّدة إيغرتون»، قالت إليانور وهي تهمُّ بتناول حسائها.

«نعم، السيِّدة إيغرتون»، قال والدها، واستمرَّ في سرد قصَّته عن السيِّدة إيغرتون، «الَّتي قال أحد المفترين عن شعرها الذهبيِّ إنَّه مزيَّف».

لطالما أحبَّت ديليا الاستماع إلى قصص والدها عن الهند. كانت قصصاً مسلِّية ورومانسيَّة في الوقت نفسه، تنقل الأجواء الَّتي يعيشها الضبَّاط وهم يتناولون طعام العشاء معاً بستراتهم القصيرة في إحدى الليالي الحارَّة جدّاً، حيث كانت توجد كأس فضيَّة ضخمة في منتصف الطاولة.

هكذا كانت حاله دائماً حينما كنَّا صغاراً، فكَّرت في ذلك، وتذكَّرت كيف كان في عيد ميلادها يقفز فوق مشعلة النار الَّتي يضرمونها في العراء. راقبته وهو ينقل شرحات اللحم ببراعة إلى الأطباق بيده اليسرى. كانت معجبة بصرامته ورجاحة عقله. بينما ينقل شرحات اللحم إلى الأطباق، تابَع:

«ذكَّرني الحديث عن السيِّدة إيغرتون الجميلة بقصَّة -هل أخبرتكم يوماً بقصَّة العجوز بادجر باركس و-»

«آنستي»، نادت كروسبي بصوت خافت وهي تفتح الباب خلف ظهر إليانور. همست بضع كلمات في أذن إليانور على انفراد.

«سآتي حالاً»، قالت إليانور وهي تنهض.

«ما الأمر. ماذا هناك؟»، قال الكولونيل، وتوقَّف في منتصف حديثه، وغادرت إليانور الغرفة.

«إنَّها رسالة من الممرِّضة»، قالت ميلي.

الكولونيل، الَّذي كان للتوِّ قد وضع شرحات اللحم في طبقه، وضع السكِّين والشوكة اللتين كانتا في يديه. كذلك فعل الجميع بسكاكينهم. لم يرغب أحد في أن يستمرَّ في تناول الطعام.

«حسناً، لنتابع عشاءنا»، قال الكولونيل، وشرع فجأةً في تناول قطعة اللحم. لقد فقد لطفه ورقَّته. سكب موريس لنفسه بعض البطاطا مبدئيّاً وهو متردِّد. ثمَّ ظهرت كروسبي مجدَّداً. وقفت عند الباب وعيناها الزرقاوان الشاحبتان تبدوان بارزتين وجاحظتين للغاية.

«ما الأمر يا كروسبي؟ ماذا هناك؟»، قال الكولونيل.

«السيِّدة، يا سيِّدي، تدهورت حالتها، كما أعتقد، يا سيِّدي»، قالت وفي صوتها نشيج غريب. نهض الجميع.

«انتظروا. سأذهب وأرى»، قال موريس. تبعه الجميع إلى الصالة. كان الكولونيل لا يزال يحمل منديل العشاء. ركض موريس إلى الطابق العلويِّ، وعاد بعد لحظة.

«ماما تعاني من نوبة إغماء»، قال للكولونيل، «سأحضر برنتيس». انتشل قبَّعته ومعطفه ونزل الدرجات الأماميَّة راكضاً. سمعوه وهو يصفِّر لإحدى عربات الأجرة في أثناء وقوفهم في الصالة في حالة من الحيرة والقلق.

«أنهينَ عشاءكنَّ يا فتيات». قال الكولونيل بلهجة آمرة. لكنَّه راح يذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً ممسكاً بمنديل العشاء في يده.

«لقد حان الوقت أخيراً»، قالت ديليا في نفسها، «لقد حان أخيراً!» تملَّكها شعور غريب بالراحة والحماس. كان والدها يتنقَّل من غرفة الجلوس إلى الغرفة الأخرى. راحت تتبعه؛ لكنَّها كانت تتجنَّبه. كانا متشابهين للغاية، كلٌّ منهما يعرف ما يشعر به الآخر. وقفت عند النافذة تنظر إلى الشارع. كان المطر قد هطل قبل قليل، والشارع مبلَّلاً، والأسطح تلمع، والسحب الداكنة تسبح في السماء، وأغصان الأشجار تهتزُّ صعوداً وهبوطاً تحت أضواء المصابيح في الشارع. ثمَّة شيء ما داخلها كان يهتزُّ صعوداً وهبوطاً أيضاً. يبدو كأنَّ شيئاً مجهولاً يوشك أن يحدث. ثمَّ سمعت شهقة خلفها فاستدارت. إنَّها ميلي، تقِف إلى جانب رفِّ الموقد تحت صورة الفتاة ذات الرداء الأبيض، الَّتي تحمل سلَّة الزهور، والدموع تسيل ببطء على خدَّيها. اتَّجهت ديليا نحوها؛ كان عليها أن ترفع نفسها لتصل إلى ميلي وتضع ذراعيها حول كتفيها؛ لكنَّها لم تستطع ذلك. بدت ميلي تذرف دموعاً حقيقيَّة على خدَّيها، أمَّا هي فعيناها جافَّتان. استدارت نحو النافذة مرَّة أخرى. كان الشارع خالياً إلَّا من أغصان الأشجار الَّتي راحت تهتزُّ صعوداً وهبوطاً في ظلِّ أضواء المصابيح. الكولونيل يذرع المكان جيئةً وذهاباً، وفجأة ضرب الطاولة بيده مرَّة واحدة، وقال: «تبّاً!». سمعوا صوت وقع الأقدام يأتي من الغرفة في الطابق العلويِّ، ثمَّ سمعوا همهمةً. استدارت ديليا نحو النافذة.

رأت عربة «هانسوم» تتهادى في مشيها وسط الشارع. ثمَّ توقَّفت عربة الأجرة، وقفز موريس منها مباشرةً، تبعه الدكتور برنتيس، الَّذي صعد مباشرة إلى الطابق العلويِّ، وانضمَّ موريس إليهم في غرفة المعيشة.

«لِمَ لا تنهون عشاءكم؟»، قال الكولونيل بفظاظة، بعدما توقَّف عن حركته في المكان، وانتصب واقفاً قبالتهم.

«أوه، بعد مغادرته»، قال موريس بنزق.

استأنف الكولونيل سيره.

توقَّف عن السير من جديد، ووقف أمام النار ويداه خلف ظهره. كان يبدو كمَن يستعدُّ لحالة طارئة.

قالت ديليا لنفسها وهي تسترق النظر إليه، كلانا يمثِّل، لكنَّه يؤدِّي دوره أفضل منِّي.

نظرت من النافذة مرَّة أخرى. كان المطر ينهمر بخيوطٍ فضّيَّة طويلة تلمع تحت أضواء المصابيح.

«إنَّها تمطر»، قالت بصوت منخفض، لكنَّ أحداً لم يُجبها.

أخيراً، سمعوا وقع أقدام على الدَّرج، دخل الدكتور برنتيس وأغلق الباب خلفه بهدوءٍ لكنَّه لم يقل شيئاً.

«حسناً؟»، قال الكولونيل وهو ينظر إليه.

ساد صمت طويل بينهما.

«كيف حالها؟»، سأله الكولونيل.

هزَّ الدكتور برنتيس كتفيه قليلاً.

«تحسَّنت قليلاً... في الوقت الحاضر»، قال برنتيس.

شعرت ديليا كما لو أنَّ كلماته نزلت على رأسها كالصاعقة، فرمت بنفسها على الأريكة.

لن تموتي إذاً، قالت وهي تنظر إلى الفتاة المستندة إلى جذع الشجرة. بدت صورة الأمِّ كأنَّها تهزأ من ابنتها، وتبتسم ابتسامة خبيثة. أنت لن تموتي -أبداً، أبداً! ثمَّ ردَّدت ذلك وهي تشبك يديها معاً وتجلس تحت صورة والدتها.

«والآن، هلَّا تابعنا عشاءنا؟»، قال الكولونيل وهو يلتقط منديل المائدة الَّذي ألقاه على طاولة غرفة الجلوس.

يا للأسف، لقد فَسُد العشاء، قالت كروسبي لنفسها وهي تحضر شرائح اللحم ثانيةً من المطبخ؛ لقد جفَّ اللحم، وتشكَّلت قشرة بنّيَّة اللون فوق طبق البطاطا. كما لاحظت أنَّ إحدى الشموع كانت تحترق في ظلِّها أيضاً وهي تضع الطبق أمام الكولونيل. بعد ذلك أغلقت الباب عليهم، وبدؤوا في تناول العشاء.

كان كلُّ شيءٍ هادئاً في المنزل؛ الكلب ينام على بساطه عند أسفل الدرج، والسكون يخيِّم على المكان خارج باب غرفة المريضة، وثمَّة صوت شخير خافت ينبعث من غرفة النوم الَّتي يرقد فيها مارتن. في غرفة الأولاد النهاريَّة، استأنفت السيِّدة سي والممرِّضة تناول عشائهما، بعدما توقَّفتا حين سمعتا الأصوات في الصالة تحت. كانت روز نائمة في غرفة نوم الأولاد. نامت بعمق لبعض الوقت وهي ملتفَّة بالبطانيَّات بإحكام مدثِّرةً رأسها. ثمَّ تقلَّبت ومدَّت ذراعيها. كان ثمَّة شيء ما يسبح عالياً في العتمة، شكل بيضويٌّ أبيض يتدلَّى أمامها متأرجحاً، كما لو كان معلَّقاً بحبل. فتحت عينيها قليلاً ونظرت إليه. كان ممتلئاً ببقع رماديَّة تظهر وتختفي. استيقظت تماماً. رأت وجهاً يتدلَّى بالقرب منها كما لو كان معلَّقاً بحبل. أغمضت عينيها. لكنَّ الوجه كان لا يزال هناك، ممتلئاً بآثار البثور الرماديَّة والبيضاء والأرجوانيَّة النافرة والغائرة. مدَّت يدها تتحسَّس السرير الكبير المجاور، لكنَّه كان فارغاً. أنصتت. سمعت قعقعة السكاكين وثرثرة الأصوات في الممرِّ تصدر من غرفة الأولاد النهاريَّة. لكنَّها لم تستطع النوم.

شغلت نفسها بالتفكير في قطيع من الخراف المحتجزة في حقل مسيَّج، ثمَّ بدأت تتخيَّلها تقفز فوق السياج، الواحد تلو الآخر، وراحت تعدُّها وهي تقفز؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة -قفزت فوق السياج. لكنَّ الخروف الخامس لم يقفز. استدار ونظر إليها. كان وجهه الضيِّق المتطاول رماديَّ اللون، وشفتاه تتحرَّكان. إنَّه وجه الرجل الَّذي رأته عند صندوق البريد. كانت وحدها معه؛ إذا أغمضت عينيها تراءى لها، وإذا ما فتحتهما تراه ماثلاً قبالتها.

جلست في السرير، وصرخت: «نيرس! نيرس!»

عمَّ الصمت المطبق في كلِّ مكان. توقَّفت قعقعة السكاكين والشوك في الغرفة المجاورة، وبقيت وحدها مع ذلك الشيء الفظيع. ثمَّ سمعت وقع أقدام متثاقلة في الممرِّ تقترب أكثر فأكثر. كان الرجل نفسه يضع يده على الباب، فُتح الباب، وسقطت زاوية من الضوء على منضدة المغسلة، فأُضيء الإبريق والحوض. كان الرجل معها في الغرفة بالفعل... لكنَّها كانت إليانور.

«لِمَ لستِ نائمة؟»، قالت إليانور. وضعت شمعتها جانباً، وراحت تسوِّي أغطية الفراش. كانت كلُّ الأغطية مكوَّمة. نظرت إلى روز. كانت عيناها لامعتين للغاية، وخدَّاها متورِّدين. ما الأمر؟ هل أيقظوكِ وهم يتحرَّكون في الطابق السفليِّ في غرفة ماما؟

«ما الذي يُبقيكِ مستيقظة؟»، سألتها. تثاءبت روز مرَّة أخرى. بل بدت كأنَّها تطلق تنهيدة تتنفَّس بها الصعداء أكثر من كونها تتثاءب. لم تستطع إخبار إليانور بما رأت. كان لديها شعور عميق بالذنب. ولسبب ما كان عليها أن تكذب بشأن الوجه الَّذي كانت قد رأته.

«راودني حلم سيِّئ»، قالت، «وأنا خائفة». سرت رعشة عصبيَّة غريبة في جسدها وهي جالسة في السرير. ما الأمر؟ تساءلت إليانور مرَّة أخرى. هل كانت تتشاجر مع مارتن؟ أم كانت تطارد القطط في حديقة الآنسة بيم ثانيةً؟

«هل كنت تحلمين بأنَّك تطاردين القطط ثانية؟»، سألتها، «يا للقطط المسكينة! إنَّها تنزعج من الأمر مثلك تماماً». لكنَّها عرفت أنَّ خوف روز لا علاقة له بالقطط. كانت تمسك إصبعها بإحكام، وتحدِّق إلى الأمام مباشرة، وفي عينيها نظرة غريبة.

«بماذا كنت تحلمين؟»، سألتها وقد جلست على حافَّة السرير. نظرت إليها روز. لم تستطع إخبارها، لكن عليها أن تجعل إليانور تبقى معها بأيِّ شكل من الأشكال.

«ظننت أنَّني سمعت صوت رجل في الغرفة»، نطقت أخيراً. وأضافت، «صوت لصٍّ».

«لصٌّ؟ هنا؟»، قالت إليانور، «لكن، كيف يمكن للصِّ أن يدخل غرفة نومك يا روز؟ فهناك بابا، وموريس -لن يدعا أيَّ لصٍّ يدخل غرفتك أبداً».

«لا»، قالت روز، «سيقتله بابا». كان هناك شيء غريب في طريقة ارتعاشها.

«لكن، ماذا تفعلون جميعكم؟»، سألت بقلق، «لِمَ لمْ تذهبي إلى الفراش بعد؟ أليس الوقت متأخِّراً جدّاً؟»

«ماذا نفعل جميعنا؟»، قالت إليانور، «نجلس في غرفة الجلوس، كما أنَّ الوقت ليس متأخِّراً كثيراً». وبينما كانت تتحدَّث، دوَّى صوت خافت في أرجاء الغرفة. لـمَّا هبَّتِ الريح من الاتِّجاه الأيمن استطاعتا سماع صوت ناقوس كنيسة القدِّيس بولس. كان صدى دقَّاته الناعمة ينتشر في الهواء، وأخذت إليانور تعدُّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... ثمانية، تسعة، عشرة. وفوجئت بتوقُّف دقَّاته بسرعة.

«اسمعي، لا تزال الساعة العاشرة فقط كما ترين»، قالت. مع أنَّ الوقت بدا لها متأخِّراً أكثر، لكنَّ الدقَّة الأخيرة تلاشت في الهواء. «إذاً، عليكِ أن تنامي الآن»، قالت لها، فتمسَّكت روز بيدها.

رجتها قائلةً: «لا تذهبي يا إليانور، ابقي قليلاً».

«لكن أخبريني، ما الَّذي أخافك؟»، ردَّت عليها إليانور. كانت متأكِّدة من أنَّها تخفي عنها شيئاً ما.

«رأيتُ...». بدأت روز تتكلَّم. بذلت كلَّ ما في وسعها لتقول لها الحقيقة؛ لتخبرها عن الرجل الواقف عند صندوق البريد. «رأيتُ...». قالت ثانية. لكن هنا فُتح الباب ودخلت نيرس.

«لا أعرف ما الَّذي أصاب روزي الليلة»، قالت وهي منهمكة تروح وتجيء في الغرفة. شعرت ببعض الذنب لأنَّها كانت في الطابق السفليِّ مع الخدم الآخرين يتبادلون أطراف النميمة عن السيِّدة.

«إنَّها تنام نوماً عميقاً في العادة»، قالت وهي تتَّجه نحو السرير.

«الآن، هي ذي نيرس»، قالت إليانور، «إنَّها تستعدُّ للنوم. لذلك لن تشعري بالخوف بعد الآن، أليس كذلك؟» سوَّت أغطية السرير، وقبَّلتها، ثمَّ نهضت وأخذت شمعتها.

«تصبحين على خير، يا نيرس»، قالت فيما كانت تستدير لتغادر الغرفة.

«تصبحين على خير يا آنسة إليانور»، قالت نيرس، وفي صوتها شيء من التعاطف مع إليانور، لأنَّهم كانوا يقولون في الطابق السفليِّ إنَّ السيِّدة لن تصمد طويلاً.

«استديري ونامي يا عزيزتي»، قالت وهي تقبِّل جبهة روز. لقد كانت تشعر بالأسف لأجل الفتاة الصغيرة الَّتي ستفقد أمَّها قريباً. ثمَّ خلعت الأزرار الفضيَّة من أساور أكمامها، وبدأت بإخراج دبابيس الشعر من شعرها، وهي تقف في تنُّورتها الداخليَّة أمام خزانة الأدراج الصفراء.

«رأيتُ»، كرَّرت إليانور وهي تغلق باب الغرفة، «رأيتُ...»، ما الَّذي رأته؟ لا بدَّ أنَّه شيء فظيع، شيء خفيٌّ. لكن ما هو؟ إنَّها تخفي ذلك الشيء خلف نظرة عينيها المرهقتين. أمالت الشمعة قليلاً في يدها، فسقطت ثلاث قطرات من الشحم على طرف تنُّورتها اللامع قبل أن تلاحظها. قوَّمت الشمعة ونزلت الدرج. أنصتت وهي تغادر علَّها تسمع صوتاً ما، لكنَّ الصمت كان قد عمَّ أرجاء المكان. كان مارتن نائماً، ووالدتها نائمة. وبينما كانت تمرُّ بالأبواب لتنزل إلى الطابق السفليِّ، شعرت بعبءٍ يثقل كاهلها. توقَّفت، ونظرت إلى الصالة في الأسفل. طغى عليها شعور غامر بالفراغ. أين أنا؟ سألت نفسها وهي تحدِّق إلى إطار كئيب. ما هذا؟ بدت كأنَّها

وحيدة في خضمِّ ذلك العدم، لكن كان عليها أن تنزل، فعليها أن تحمل عِبْأها -رفعت ذراعيها قليلاً كـأنَّها تحمل جرَّةً، جرَّة من الفخَّار على رأسها. توقَّفت مرَّة أخرى، وإذ بإطار وعاءٍ مستديرٍ يرتسم في مقلتَي عينيها، فيه ماء وشيء أصفر. أدركت أنَّه وعاء الكلب، وأنَّ ذلك الأصفر هو الكبريت؛ كان الكلب يستلقي مكوَّراً أسفل الدرج. خطت بحذر من فوق جسد الكلب النائم، واتَّجهت نحو غرفة الجلوس.

نظروا جميعاً إليها حين دخولها؛ كان موريس يمسك كتاباً في يده لكنَّه لم يكن يقرأ فيه؛ كذلك ميلي تحمل شيئاً ما مثل قماش في يدها لكنَّها لم تكن تخيط، في حين كانت ديليا مستندة إلى كرسيِّها ولا تفعل أيَّ شيء. وقفت هناك متردِّدة للحظة. ثمَّ التفتت إلى طاولة الكتابة، «سأكتب إلى إدوارد» تمتمت. تناولت القلم لكنَّها تردَّدت قليلاً. لقد وجدت صعوبة في الكتابة إلى إدوارد، لكن لَمَّا حملت القلم بيدها، ومسَّدت الورقة على طاولة الكتابة، تخيَّلته أمامها؛ كانت عيناه متقاربتين للغاية، وهو يسوِّي شارته أمام المرآة في الردهة بطريقة تزعجها. كانت تلقِّبه بـ «نيغز»، لكنَّها استهلَّت الرسالة بـ «عزيزي إدوارد»، إذ اختارت هذه المرَّة أن تدعوه «إدوارد» وليس «نيغز».

رفع موريس نظره عن الكتاب الَّذي كان يحاول القراءة فيه، فقد أزعجه صرير قلم إليانور. توقَّفت، ثمَّ عادت إلى الكتابة، ثمَّ وضعت يدها على رأسها، فالهموم كلُّها ملقاة على عاتقها طبعاً. ظلَّت إليانور تزعجه. كانت دائماً تطرح الأسئلة، ولا تستمع أبداً إلى الإجابات. نظر في كتابه مرَّة أخرى. لكن، ما الفائدة من محاولة القراءة؟ كان يكره أجواء المشاعر المكبوتة هذه. لم يكن في وسع أحدهم فعل أيِّ شيء، جلسوا جميعاً وهم يكبتون مشاعرهم. لقد انزعج حتَّى من خياطة ميلي، أمَّا ديليا فكانت مستندة إلى كرسيِّها دون أن تفعل شيئاً كالعادة. كان محبوساً هنا مع هؤلاء النساء في جوٍّ من المشاعر المزيَّفة. استمرَّت إليانور في الكتابة،

والكتابة، والكتابة. لم يكن هناك شيء لتكتب عنه -لكن ها هي ذي أخيراً تلعق المظروف وتختمه.

«هل آخذها؟»، قال وهو يلقي الكتاب من يده.

نهض كما لو كان سعيداً بعمل شيء ما. ذهبت إليانور معه إلى الباب الأماميِّ ووقفت هناك وأبقت الباب مفتوحاً فيما كان يذهب إلى صندوق البريد. كانت حبَّات المطر تنهمر بهدوء. وبينما كانت تقف عند الباب، تستنشق الهواء الرطب البارد، شاهدت الظلال الغريبة التي ترتعش على الرصيف تحت الأشجار. اختفى موريس تحت الظلال عند زاوية الرصيف. تذكَّرت كيف كانت تقف عند الباب تودِّعه حين كان طفلاً يذهب إلى المدرسة النهاريَّة وهو يحمل حقيبة بيده. كانت تلوِّح له، وحينما يصل إلى الزاوية كان دائماً ما يستدير ويلوِّح لها. كان ذلك طقساً غريباً بسيطاً، تخلَّيا عنه الآن بعدما أصبحا ناضجين. كانت الظلال تهتزُّ وهي تقف منتظرة، وفجأة خرج من بين تلك الظلال، ومشى على طول الشارع وصعد درجات المنزل الأماميَّة.

«ستصله غداً»، قال، «مع دفعة البريد الثانية في أيِّ حال».

أغلق الباب، وانحنى ليقفل السلسلة بأحكام. لَمَّا سمعت قرقعة السلسلة، أدركت أنَّ كليهما يشعر أنَّه لن يحدث شيء آخر الليلة. تجنَّبا النظر في عينَي أحدهما الآخر. لم يرغب أيٌّ منهما في المزيد من الانفعال الليلة. وعادا إلى غرفة الجلوس.

«حسناً»، قالت إليانور وهي تنظر حولها، «أعتقد أنَّ عليَّ الذهاب إلى الفراش الآن. ستقرع نيرس الجرس إذا أرادت أيَّ شيء».

«ربَّما نذهب جميعاً»، قال موريس، راحت ميلي تلفُّ مطرَّزاتها، وبدأ موريس يسوِّي جمرات النار ليطفئها.

«يا لها من نار حمقاء-»، صاح بانزعاج، فقد كان الفحم ملتصقاً بعضه ببعض. كان يلتهب بشراسة.

قُرع الجرس فجأة.

«نيرس!»، صاحت إليانور. نظرت إلى موريس، ثمَّ غادرت الغرفة في عُجالة وتبعها موريس.

إمَّا، ما الأمر؟ فكَّرت ديليا في نفسها. إنَّه مجرَّد إنذار كاذب آخر. نهضت. «إنَّها نيرس فحسب»، قالت لميلي الَّتي كانت تقف وتعلو وجهها نظرة قلق. يستحيل أنَّها ستبدأ في البكاء من جديد، فكَّرت، وتمشَّت متَّجهةً نحو الغرفة الأماميَّة. كانت الشموع تحترق على رفِّ الموقد، لقد أضاءت صورة والدتها. ألقت نظرة على لوحة والدتها. بدت الفتاة الَّتي ترتدي الملابس البيض كأنَّها تترأَّس مسألة احتضارها الَّتي طال أمدها، وترتسم ابتسامة لا مبالاة على وجهها، ما أثار حنق ابنتها.

«لن تموتي -لن تموتي!»، قالت ديليا بمرارة وهي تنظر إليها. كان والدها قد دخل الغرفة في إثر تنبُّهه بوساطة الجرس. كان يرتدي قبَّعة حمراء اللَّون ذات شرابة سخيفة.

غير أنَّ كلَّ هذا كان بلا جدوى، قالت ديليا بصمت وهي تنظر إلى والدها. شعرت بأنَّه يتعيَّن على كلٍّ منهما أن يضبط شعوره المتزايد بالحماس. «لن يحدث أيُّ شيء -لا شيء على الإطلاق»، قالت وهي تنظر إليه. إلَّا أنَّ إليانور كانت قد دخلت الغرفة في تلك اللحظة. كانت شاحبة اللون للغاية.

قالت وهي تنظر في أرجاء الغرفة: «أين هو بابا؟»، ثمَّ رأته، «تعالَ يا بابا، تعالَ معي»، قالت وهي تمدُّ يدها نحوه، «إنَّ ماما تحتضر... والأطفال»، قالت مخاطبة ميلي من فوق كتفها.

لاحظت ديليا ظهور بقعتين صغيرتين بيضاوين فوق أذنَي والدها، وكانت عيناه تحدِّقان. هيَّأ نفسه، ثمَّ صعد الدَّرج متجاوزاً إيَّاهم. تبعه الجميع في موكب صغير تشكَّل خلفه. حاول الكلب أن يصعد إلى الطابق

العلويِّ معهم، كما لاحظت ديليا، غير أنَّ موريس أعاد ربطه بسلسلته. ولج الكولونيل أوَّلاً غرفة النوم، فإليانور، ثمَّ موريس، وبعد ذلك نزل مارتن وهو يسحب ملابس النوم خاصَّته، ثمَّ أحضرتْ ميلي روز ملفوفةً في شال. غير أنَّ ديليا تخلَّفت عن الآخرين. حضر كثير من أفراد الأسرة في الغرفة إلى درجة لم تستطع معها أن تشقَّ طريقها أبعد من الممرِّ. كان في مقدورها أن ترى الممرِّضتين تقفان وظهراهما مسندان إلى الحائط في الجهة المقابلة. كانت إحداهما تبكي -الممرِّضة الَّتي كانت قد أتت في ظهيرة ذلك اليوم فقط، كما لاحظت. لم تستطع أن ترى السرير من حيث كانت تقف، لكنَّها كانت قادرة على رؤية أنَّ موريس قد انهار على ركبتيه. هل يتعيَّن عليَّ أن أركع على ركبتيَّ أيضاً؟ تساءلت. اتَّخذت قراراً بألَّا تفعل ذلك في الردهة. أشاحت بنظرها بعيداً، ورأت النافذة الصغيرة في نهاية الردهة. كان المطر ينهمر، وأشعَّ ضوء في مكان ما فجعل قطرات المطر تتلألأ. انزلقت قطرة تلو الأخرى على الزجاج، انزلقتا معاً ثمَّ توقَّفتا قليلاً، وانضمَّت قطرة إلى أخرى ثمَّ انزلقتا معاً من جديد. عمَّ صمت مطبق في غرفة النوم.

أهذا هو الموت؟ سألت ديليا نفسها. بدا للحظة كأنَّ ثمَّة شيئاً ما يوجد هناك، كما لو أنَّ جداراً من الماء ينفلق، وتباعَدَ الجداران أحدهما عن الآخر. أنصتت، كان الصمت التامُّ يعمُّ المكان. ثمَّ حدثت جلبَة، حركة أقدام في الغرفة، وخرج والدها متعثِّراً.

«روز!»، نادى، «روز! روز!». مدَّ يديه أمامه وقبضتاه مغلقتان.

لقد أدَّيتَ هذا على نحو جيِّد جدّاً، قالت له ديليا وهو يعبر متجاوزاً إيَّاها، لقد كان أشبه بمشهد من مسرحيَّة. لاحظت، على نحو فاتر للغاية، أنَّ قطرات المطر كانت لا تزال تتساقط. لاقت إحدى القطرات المنزلقة الأخرى وتدحرجتا معاً كقطرة واحدة نحو نهاية زجاج النافذة.

لقد كان المطر يهطل، وبلَّل مطرٌ خفيف، هطلٌ لطيف، الأرصفةَ وجعلها زلقة. هل كان الأمر يستحقُّ عناء فتح مظلَّة، وهل كان من الضروريِّ استدعاء عربة «هانسوم»، سأل الأشخاص الخارجون من المسارح أنفسهم وهم ينظرون إلى السماء المعتدلة حليبيَّة اللون الَّتي تضاءلت فيها النجوم. تصاعدت رائحة ترابيَّة حيث تساقط المطر على الأرض، على الحقول والحدائق. هنا، وقفت قطرة على شفرة عشب، وهناك مُلئ إناء زهرة بريَّة، إلى أن هبَّ النسيم وتفرَّق المطر. هل كان يستحقُّ الأمر الاحتماء تحت أشجار الزعرور البرّيِّ، تحت الشجيرات، بدا وكأنَّ الخراف تتساءل، وتابعت الأبقار اجترارها وقد خرجت بالفعل في الحقول الرماديَّة، أسفل الشجيرات المعتمة، تجترُّ بنعاس، وقطرات المطر على جلودها. تساقط على الأسطح -هنا في «ويستمنستر»، هناك في «لادبروك غروف»، على البحر الواسع حيث ثقبت ملايين القطرات الوحش الأزرق مثل حمَّام من القطرات لا حصر له. انزلق المطر على القباب الشاسعة، على الأبراج المرتفعة للمدن الجامعيَّة الراكدة، وعلى المكتبات المطليَّة بالرصاص، والمتاحف، المغطَّاة الآن بستار من النسيج الهولنديِّ البنّيِّ، إلى أن انزلق في آلاف التجاويف الغريبة بعد وصوله إلى أفواه أولئك الضاحكين الرائعين، المزاريب ذوات الفتحات المتعدِّدة. ألقى رجل مخمور، يدخل ردهة خارج الحانة، باللَّعنة عليه، وسمعت امرأة، خلال ولادتها، الطبيب وهو يقول للقابلة: «إنَّ المطر يهطل»، ورتَّلت أجراس «أكسفورد» ذوات الأزيز بتأمليَّة رقيتها الموسيقيَّة وهي تهتزُّ مراراً وتكراراً مثل خنازير بحر بطيئة غارقة في بحر من النفط. انسكب المطر الناعم، المطر اللطيف، فوق مرتدِي تاج الأسقفيَّة وحاسري الرؤوس على نحو متساوٍ بحياديَّة تشير إلى أنَّ إله المطر، في حال وجود إله، كان يفكِّر، يجب ألَّا يقتصر الأمر على بالغي الحكمة، على بالغي العظمة، بل فلنسمح بأن يتشاركه كلُّ كائن حيٍّ يتنفَّس؛ المجترُّون والماضغون، الجاهلون، التعساء، أولئك الذين

يكدحون في الفرن يصنعون نسخاً لا حصر لها من الإناء عينه، أولئك الذين أفرغوا مكنونات أذهانهم من الغضب في رسائل مطويَّة، وأيضاً السيِّدة جونز في الزقاق.

كان المطر يهطل في «أكسفورد». لقد تساقط المطر بلطف، وعلى نحو متواصل، مصدراً صوت خرير وبقبقة في المجارير. كان لا يزال في مقدور إدوارد، وهو يميل خارجاً من النافذة، أن يرى الأشجار في حديقة الجامعة، وقد شحب لونها بسبب المطر المتساقط. كان المكان هادئاً تماماً باستثناء حفيف الأشجار والمطر المتساقط. تصاعدت رائحة ترابيَّة رطبة من الأرض المبلَّلة. كانت المصابيح تُضاء هنا وهناك في محيط الجامعة المعتمة، وثمَّة تلَّة شاحبة اللون مصفرَّة في إحدى الزوايا حيث أضاء نور المصباح على شجرة مزهرة، وأصبح العشب يكاد يكون خفيّاً، سائلاً، رمادياً كما الماء.

استنشق نفساً عميقاً يدلُّ على الرِّضا. لقد أحبَّ هذه اللحظة محبَّة تفوق لحظات اليوم جميعها، حين كان يقف ينظر إلى الحديقة. استنشق الهواء الرطب البارد من جديد، وقوَّم نفسه واستدار عائداً إلى الغرفة. كان يدرس بجدٍّ بالغ، إذ إنَّه قسَّم يومه إلى ساعات وأنصاف ساعات، بناءً على نصيحة معلِّمه، غير أنَّه لا يزال يمتلك خمس دقائق قبل أن يضطرَّ إلى البدء. أضاء مصباح القراءة. لقد كان المصباح الأخضر يتحمَّل جزئيّاً اللوم على جعله يبدو شاحباً وهزيلاً قليلاً، لكنَّه كان يتمتَّع بوسامة بالغة. بدا أشبه بصبيٍّ يونانيٍّ على إفريز بملامحه محدَّدة المعالم، وشعره الفاتح الذي مشَّطه مستخدماً حركة من أصابعه مشكِّلاً عرفاً. ابتسم، إذ كان يفكِّر في حين يشاهد المطر كيف أصرَّ الرجل العجوز على البحث عن الغرف الَّتي كان والده قد أقام فيها حين كان في الجامعة، وحدث ذلك في أعقاب مقابلة دارت بين والده ومعلِّمه، حين قال هاربوتل العجوز: «إنَّ ابنك

يتمتَّع بفرصة»، واقتحموا الغرفة ليجدوا فتىً يُدعى طومبسون جاثياً على ركبتيه ينفث النار بمنفاخ.

قال الكولونيل بطريقة أقرب إلى الاعتذار: «لقد كان والدي يقيم في هذه الغرف يا سيِّدي». كان الشابُّ اليافع يتوهَّج خجلاً، وقال: «لا داعي للاعتذار». ابتسم إدوارد. أعاد قائلاً: «لا داعي للاعتذار». لقد حان وقت البدء، فزاد ضوء المصباح قليلاً. كان في مقدوره أن يرى عمله مقسَّماً في دائرة محدَّدة من الضوء الساطع ضمن العتمة الَّتي تحيط به حين كان يزيد من قوَّة ضوء المصباح. نظر إلى دفاتره، وإلى القواميس الملقاة أمامه. لطالما كانت بعض الشكوك تراوده قبل أن يبدأ. سيتعرَّض لانتقاد لاذع، على نحو مخيف، من قِبل والده في حال فشله، فلقد عقد عزمه على إنجاح الأمر. كان قد أرسل إليه بدزينة من النبيذ الفاخر المعتَّق، «بوساطة عربة مخصَّصة لنقل الشراب»، هكذا قال. لكن بعد كلِّ شيء، كان مارشام راغباً في احتسائه، ثمَّ كان هناك الصبيُّ اليهوديُّ الضئيل الذكيُّ من «برمنغهام» -غير أنَّ وقت البدء قد حان. بدأت أجراس «أكسفورد» تدفع دقَّاتها البطيئة الواحدة تلو الأخرى عبر الجوِّ، رنَّت على نحو ثقيل، غير متساوٍ، كما لو كان يتعيَّن عليها إزاحة الهواء الثقيل عن طريقها. لقد أحبَّ صوت الأجراس. أنصت حتَّى الدقَّة الأخيرة، ثمَّ سحب كرسيَّه نحو الطاولة، لقد انتهى الوقت، عليه البدء بالعمل الآن.

تشكَّلت تجعيدة حادَّة بين حاجبيه، إذ إنَّه كان عابساً وهو يقرأ. قرأ ودوَّن ملاحظة، ثمَّ تابع القراءة من جديد. لقد مُحيت كلُّ الأصوات، ولم يرَ أيَّ شيء سوى اللُّغة اليونانيَّة أمامه. إنَّما، بينما تابع القراءة، بدأ عقله يستوعب أكثر فأكثر على نحو تدريجيٍّ، وكان واعياً بشأن أمر يتسارع ويشدُّ في جبينه. لاحظ، وهو يدوِّن ملاحظة قصيرة على الهامش، أنَّه قرأ عبارة تلو الأخرى على نحو دقيق، صارم، على نحو أكثر دقَّة ممَّا فعل الليلة الماضية. الآن، بعض الكلمات الصغيرة الجديرة بالإهمال قد كشفت عن مستويات

للمعنى عملت على تغيير المقصد. دوَّن ملاحظة أخرى، وكان هذا هو المقصد. إنَّ مهارته الخاصَّة المتمثِّلة في فهم العبارة مباشرة في المنتصف قد منحته دفعة من الإثارة. ها هي ذي، واضحة ومكتملة. إنَّما يتعيَّن عليه أن يكون دقيقاً، محدَّداً، حتَّى ملاحظاته الـمُخربشة يجب أن تكون واضحة كالطباعة. نظر إلى كتاب، ثمَّ إلى آخر، ثمَّ مال إلى الخلف كي يرى، وعيناه مغلقتان. عليه ألَّا يسمح لأيِّ شيء بأن يتقلَّص ويدخل في مرحلة الإبهام. بدأت الساعة تقرع، فأنصت إليها، وتابعت الساعات ترسل دقَّاتها. تضاءلت الخطوط الَّتي حفرت نفسها على وجهه، ومال إلى الخلف، فاسترخت عضلاته، ورفع نظره من على كتبه ناظراً إلى العتمة. شعر كما لو أنَّه قد ألقى بنفسه على العشب بعد إنهائه الركض في سباق. إنَّما، للحظة شعر بأنَّه لا يزال يركض، وتابع ذهنه دون النظر إلى الكتاب. لقد سرح من تلقاء نفسه من دون عقبات تعترض سبيله عبر عالم مكوَّن من المعنى الخالص، غير أنَّه فقد معناه تدريجيّاً. برزت الكتب القابعة على الجدار، ورأى الألواح ذوات اللون القشديّ، حفنة من نبات الخشخاش في زهريَّة زرقاء اللَّون. دوت آخر دقَّة من الساعة. أرسل تنهيدة ونهض من أمام طاولته.

وقف إلى جوار النافذة من جديد. كان الجوُّ لا يزال ماطراً، غير أنَّ البياض قد اختفى. كانت الحديقة بأكملها معتمة، باستثناء ورقة مبتلَّة تشعُّ هنا وهناك، واختفت التلَّة الصفراء للشجرة المزهرة أيضاً. توضَّعت أبنية الجامعة حول الحديقة في شكل كتل منخفضة الارتفاع، هنا ملطَّخة باللون الأحمر، وهنا ملطَّخة باللون الأصفر، حيث التهبت الأضواء خلف الستائر، وهناك كانت تقع الكنيسة، تحشد كتلتها نحو السماء الَّتي بدت مضطربة قليلاً بسبب المطر. إلَّا أنَّ المكان لم يعد صامتاً بعد الآن. أنصت، فلم يكن ثمَّة صوت محدَّد، غير أنَّ المباني كانت تعجُّ بالحياة، كما لاحظ وهو ينظر إلى الخارج. كان هناك زئير ضحك مفاجئ، ثمَّ ألحان قادمة من بيانو، ثمَّ ثرثرة وهمهمة يصعب وصفهما، من اللُّغة الصينيَّة جزئيّاً، ثمَّ بدأ

صوت تساقط المطر من جديد، والمجارير تصدر أصوات خرير وبقبقة، في حين ابتلعت المياه. استدار عائداً نحو الغرفة.

لقد أضحت باردة قليلاً، إذ كادت النار تنطفئ، ولم يبقَ منها سوى وهج أحمر ضئيل تحت الرماد الرماديّ. تذكَّر هديَّة والده في الوقت المناسب، النبيذ الذي كان قد وصل هذا الصباح. ذهب إلى الطاولة الجانبيَّة وصبَّ لنفسه كأساً. ابتسم وهو يرفعها نحو الضوء، إذ رأى من جديد يدَ والده ذات النتوءين بدلاً من إصبعين، وهو يحمل الكأس نحو الضوء، كما كان يفعل دائماً قبل أن يشرب.

«لا يمكنك أن تدفع حربة في جسد شاب بدم بارد»، تذكَّر قوله.

«ولا يمكنك الذهاب لتقديم امتحان من دون احتساء شراب»، قال إدوارد. شعر بالتردُّد، فأمسك الكأس نحو الضوء محاولاً أن يُحاكي تصرُّف والده. ثمَّ ارتشف منها. وضع الكأس على الطاولة أمامه. استدار مجدَّداً إلى مسرحيَّة أنتيغون. قرأ، ثمَّ ارتشف، ثمَّ قرأ، ثمَّ ارتشف مجدَّداً. انتشر وهج رقيق عبر عموده الفقريِّ انطلاقاً من مؤخِّرة عنقه. بدا كأنَّ النبيذ يعمل على فتح أبواب فاصلة في دماغه. وسواء أكان السبب من النبيذ أم الكلمات أم كليهما معاً، فإنَّ قشرة مضيئة قد تشكَّلت، دخاناً أرجوانيّاً، خطَّت خارجة منه فتاة إغريقيَّة، إلَّا أنَّها كانت إنكليزيَّة. وقفت هناك بين البَروَق والرخام، إنَّما كانت هناك بين ورق جدران موريس والخزائن، قريبته كيتي، تبدو كما كانت حين تناول العشاء معها آخر مرَّة في النُّزل. كانت كلٌّ منهما- أنتيغون وكيتي، هنا في الكتاب، وهناك في الغرفة، مُضاءة، مُرتفعة، مثل زهرة أرجوانيَّة. صاح قائلاً، كلَّا، لا تشبه الزهرة على الإطلاق! لأنَّ أيَّ فتاة كانت تنتصب بقامتها، تعيش، تضحك وتتنفَّس فقد كانت كيتي، مرتدية فستانها الأبيض والأزرق، الَّذي كانت قد ارتدته آخر مرَّة، حين تناول العشاء في النُّزل. عبر نحو النافذة. ظهرت المربَّعات الحُمر

عبر الأشجار. كان ثمَّة حفل في النُّزل. مع مَن كانت تتحدَّث؟ ماذا كانت تقول؟ عاد إلى الطاولة.

«أوه، تبّاً!»، صاح وهو يحثُّ الورقة مستخدماً قلمه الرصاص، فكُسرت قمَّته. ثمَّ سمع نقراً على الباب، نقراً خفيفاً لا آمراً، نقر شخص مارٍّ لا شخص يرغب في الدخول. ذهب وفتح الباب. حامت هناك على الدرج هيئة شابٍّ فتيٍّ ضخم كان يميل فوق الدرابزين. «ادخل»، قال إدوارد.

هبط الشابُّ الفتيُّ الضخم الدَّرجَ ببطء. كان بالغ الضخامة. التمعت نظرة قلق في عينيه الجاحظتين في إثر رؤيته للكتب الملقاة على الطاولة. نظر إلى الكتب على الطاولة، كانت كتباً يونانيَّة، إنَّما كان هناك نبيذ بغضِّ النظر عن كلِّ شيء.

صبَّ إدوارد لنفسه النبيذ. كان يبدو نيِّقاً بالمقارنة مع جيبس، كما كانت تدعوه إليانور. شعر هو نفسه بالتضادِّ الموجود. كانت اليد الَّتي رفع بها الكأس أشبه بيد فتاة بالنسبة إلى كفِّ جيبس الحمراء الهائلة. كانت يد جيبس ذات لون قرمزيٍّ محترق ساطع، أشبه بقطعة من اللحم النيء.

كان الحديث عن الصيد هو الموضوع المشترك بينهما، فتحدَّثا عنه. مال إدوارد إلى الخلف للسماح لجيبس بتسلُّم زمام الحديث. كان كلُّ شيء ممتعاً للغاية، الاستماع إلى جيبس، والتجوُّل عبر هذه الممرَّات الإنكليزيَّة، وهو يتحدَّث عن صيد الثعالب في شهر سبتمبر، وعن حيلة مفيدة لكنَّها فجَّة. قال: «أتذكر تلك المزرعة الواقعة إلى اليمين، حين اتّجاهك نحو ستابلز؟ والفتاة الجميلة؟» -غمزه بعينه- «يا لسوء الحظِّ، إنَّها متزوِّجة حارساً». قال إنَّه يتمنَّى أن ينتهيَ هذا الصيف اللعين، وراقبه إدوارد وهو يتجرَّع النبيذ خاصَّته. ثمَّ مرَّة أخرى، سرد القصَّة القديمة حول الكلبة من نوع «سبانييل». «ستأتي وتتوقَّف معنا في سبتمبر»، كان يقول هذا حين فُتح الباب بهدوء بالغ إلى درجة أنَّ جيبس لم يسمعه، ودخل رجل آخر، ويا له من رجل آخر!

لقد كان آشلي هو مَن دخل، وكان على النقيض من جيبس تماماً، إذ إنَّه لم يكن طويلاً أو قصيراً، ولم يكن يتمتَّع ببشرة فاتحة أو داكنة. غير أنَّه لم يكن شخصاً يمكن إهمال وجوده، بل أبعد ما يكون عن ذلك. كان الأمر يتعلَّق جزئيّاً بالطريقة الَّتي تحرَّك بها، كما لو أنَّ الكرسيَّ والطاولة قد أشعَّا بتأثير معيَّن استطاع هو أن يستشعره بوساطة قرون استشعار ما غير مرئيَّة، أو شوارب، كما القطّ. لقد جلس الآن، بتأنٍّ، بحذر بالغ، ونظر إلى الطاولة، وقرأ سطراً من الكتاب على نحو غير كامل. توقَّف جيبس في منتصف جملته.

«مرحباً يا آشلي»، قال باقتضاب إلى حدٍّ ما. تمطَّى وصبَّ لنفسه كأساً أخرى من نبيذ الكولونيل. الآن، أصبح الدورق فارغاً.

«المعذرة»، قال وهو ينظر إلى آشلي.

قال آشلي على عجل: «لا تفتح قنِّينة أخرى لأجلي»، بدا كأنَّ صوته يحوي بعض الصرير، كما لو أنَّه كان مضطرباً.

«أوه، لكنَّنا نرغب في شرب المزيد أيضاً»، قال إدوارد على نحو تلقائيٍّ. اتَّجه إلى غرفة الطعام وأحضر قنينة.

«الغريب اللعين»، فكَّر وهو ينحني بين القوارير. فكَّر بتجهُّم وهو يختار قنِّينته في أنَّ هذا الأمر يعني أنَّه سيخوض شجاراً آخرَ مع آشلي، وكان قد تشاجر مرَّتين بالفعل مع آشلي حول جيبس إبَّان هذا الفصل.

عاد حاملاً القنِّينة، وجلس على كرسيٍّ منخفض بينهما. أزال غطاء قنِّينة النبيذ وصبَّ. نظرا معاً إليه بإعجاب، في حين جلس بينهما. كان ذاك الاختيال، الَّذي لطالما سخرت إليانور منه بسببه، مدعاة للإطراء من قِبل الآخرين. أحبَّ الشعور الناتج عن نظرهما إليه، وعلى الرَّغم من ذلك فقد كان يشعر بالارتياح مع كلٍّ منهما، كما فكَّر، فلقد أرضته الفكرة، وكان في استطاعته التحدُّث عن الصيد مع جيبس، وعن الكتب مع آشلي. غير أنَّ

آشلي لا يستطيع التحدُّث إلَّا عن الكتب، وجيبس -ابتسم- لا يستطيع التحدُّث إلَّا عن الفتيات، الفتيات والأحصنة. صبَّ ثلاث كؤوس من النبيذ.

شرب آشلي بحذر، في حين اجترع جيبس النبيذ في عجالة تقريباً، واضعاً كلتا يديه الضخمتين الحمراوين حول الكأس. تحدَّثوا عن السباقات، ثمَّ تحدَّثوا عن الامتحانات. ثمَّ قال آشلي، وهو ينظر إلى الكتب الملقاة على الطاولة:

«وماذا عنك؟».

«إنَّني لا أمتلك أدنى فرصة»، قال إدوارد. لقد خُدش عدم اكتراثه، فقد كان يدَّعي أنَّه يبغض الامتحانات، إلَّا أنَّ الأمر كان محض تظاهر. كان جيبس مخدوعاً به، لكنَّ آشلي استطاع أن يرى حقيقته تماماً. غالباً ما كان يكشف إدوارد عبر أباطيل صغيرة مثل هذه، غير أنَّ جلَّ ما كان ينتج عن هذا هو أن يزيدَ من تحبُّبه. لكم كان يبدو جميلاً! كان يفكِّر، لقد جلس هنا بينهما والضوء يسقط على قمَّة شعره الفاتح، مثل صبيٍّ يونانيٍّ، قويٍّ، غير أنَّه ضعيف، وفي حاجة إلى حماية بطريقة ما.

يتعيَّن أن يجري إنقاذه من المتوحِّشين من أمثال جيبس، فكَّر بشراسة. إذ كيف لإدوارد أن يتحمَّل ذاك المتوحِّش الأخرق، فكَّر وهو ينظر إليه، المتوحِّش الَّذي لطالما بدا عابقاً برائحة الجعة والأحصنة (كان يستمع إليه). لم يستطع آشلي أن يتصوَّر ذلك. كان قد سمع في أعقاب دخوله جملة مثيرة للغضب، بل جزءاً من جملة دلَّت على أنَّهما قد اتَّفقا على خطَّة ما، أحدهما مع الآخر.

«حسناً إذاً، سأحادث ستوري بشأن تلك الحيلة»، قال جيبس الآن، كما لو كان يختتم حديثاً خاصّاً كانا يخوضان فيه قبل دخوله عليهما. سرى تشنُّج ناتج عن الغيرة عبر جسد آشلي، وبغية إخفائه، مطَّ جسده والتقط كتاباً مفتوحاً على الطاولة. تظاهر بالقراءة فيه.

شعر جيبس كما لو أنَّه قد فعل ذلك بقصد إهانته. كان يعلم أنَّ آشلي يعتقد أنَّه متوحِّش ضخم ثقيل. ذاك الخنزير القذر الضئيل قد دخل، وأفسد الحديث، ثمَّ بدأ يتصرَّف كأنَّه شخص أفضل على حساب جيبس. حسنٌ جدّاً، لقد كان يوشك على الذهاب، والآن سيبقى، وهو يعلم الطريقة الَّتي سيزعجه بها. التفت نحو إدوارد وتابع حديثه.

«لن تمانع في البقاء في مكان غير مرتَّب، إذ إنَّ أسرتي ستكون في اسكتلندا»، قال.

قلب آشلي صفحة بعنف. إذاً، سيكونان وحدهما. بدأ إدوارد يتلذَّذ بالوضع، لقد اضطلع به بخبث.

«حسناً»، قال، «إنَّما يتعيَّن عليكَ الإشراف على ألَّا أبدو في مظهر الأحمق»، أضاف قائلاً.

«أوه، جلَّ ما سنفعله هو صيد الثعالب»، قال جيبس، فقلب آشلي صفحة أخرى. نظر إدوارد إلى الكتاب، إذ كان يمسكه رأساً على عقب. غير أنَّه رأى مظهر رأسه على الألواح والخشخاش، في حين كان ينظر إلى آشلي، فكَّر في أنَّه يبدو متحضِّراً للغاية بالمقارنة مع جيبس، وكم كان الأمر مثيراً للسخرية. لقد احترمه إلى حدٍّ كبير. فقدَ جيبس سحره. ها هو ذا يحكي القصَّة القديمة عينها عن الكلبة «السبانييل» من جديد. سيكون هناك شجار محتدم غداً، فكَّر ونظر خلسة إلى ساعته، لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، ويتعيَّن عليه أن يُنجزَ ساعة من العمل قبل تناول وجبة الفطور. ابتلع القطرات الأخيرة من نبيذه، وتمطّى، ثمَّ تثاءب زاعماً، ونهض.

«سأذهب إلى السرير»، قال. نظر إليه آشلي على نحو جذَّاب. كان في مقدور إدوارد أن يُعذِّبه على نحو مروِّع. بدأ إدوارد يفكُّ أزرار صدريَّته، وكان يتمتَّع بقوام مثاليٍّ، فكَّر آشلي حين كان ينظر إليه وهو يقف بينهما.

«لكن، لا داعي لأن تستعجلا»، قال إدوارد وهو يتثاءب من جديد، «أنهيا شرابكما». ابتسم لفكرة أنَّ آشلي وجيبس سينهيان شرابهما أحدهما مع الآخر.

«إنَّ هناك الكثير إن رغبتما». أشار إلى الغرفة الأخرى، وتركهما.

«فلأدعهما يتشاجران مع بعضهما»، فكَّر وهو يغلق باب الغرفة. سيقع شجاره الخاصُّ في وقت لاحق قريب للغاية، عرف ذلك من النظرة الَّتي تعلو وجه آشلي، إذ إنَّه كان يشعر بالغيرة على نحو جهنميٍّ. بدأ ينزع ملابسه. وضع نقوده بطريقة منهجيَّة في شكل كومتين إلى جانبَي المرآة، فقد كان يشعر بأنَّه بخيل قليلاً حين يتعلَّق الأمر بالمال. طوى صدريَّته بعناية على كرسيٍّ، ثمَّ نظر إلى نفسه في المرآة، ومسح على أعلى رأسه بإيماءة شبه واعية كانت تثير انزعاج شقيقته، ثمَّ أنصت.

صُفق باب في الخارج. لقد غادر أحدهما، إمَّا جيبس وإمَّا آشلي، إلَّا أنَّ أحدهما لا يزال موجوداً، فكَّر. أنصت بعناية، فسمع صوت شخص ما يتحرَّك في أرجاء غرفة الجلوس. أدار المفتاح في الباب بسرعة بالغة، بإحكام شديد. بعد مضيٍّ لحظة، تحرَّكت القبضة.

«إدوارد!»، قال آشلي. كان صوته خفيضاً ومضبوطاً.

لم تصدر أيُّ إجابة عن إدوارد.

«إدوارد!»، قال آشلي وهو يحرِّك القبضة.

كان الصوت حادّاً وجذَّاباً.

«تُصبح على خير»، قال إدوارد بحدَّة، ثمَّ أنصت. ساد صمت. ثمَّ سمع الباب يُغلق. لقد رحل آشلي.

«يا إلهي! سيقع غداً شجار محتدم»، قال إدوارد وهو يتَّجه نحو النافذة وينظر إلى الخارج نحو المطر الَّذي كان لا يزال يتساقط.

لقد انتهى الحفل في النُزل. وقفت السيِّدات في المدخل بأثوابهنَّ الفضفاضة، ينظرنَ إلى الأعلى نحو السماء الَّتي تساقط منها مطر خفيف.

«هل هذا عندليب؟»، قالت السيِّدة لاربنت وهي تستمع إلى تغريد طائر بين الشجيرات. ثمَّ صدرت ضحكة أشبه بالزئير من تشافي العجوز -الطبيب أندروز العظيم- وهو يقف خلفها بقليل ورأسه المقبَّب مكشوف للمطر وقد ارتفعت ملامحه المشعرة، القويَّة على الرَّغم من كونها غير خلَّابة إلى الأعلى. إنَّه طائر السُّمَانى، قال. تردَّدت أصداء الضحكة مثل ضبع يضحك من الجدران الحجريَّة. ثمَّ سحبت السيِّدة لاربنت قدمها عقب تلويحة من اليد أملتها قرون من التقاليد، كما لو أنَّها قد تعدَّت على علامات الطبشور الَّتي تُزيِّن العتبات الأكاديميَّة، ما يُبيِّن أنَّ السيِّدة لاربنت، زوجة أستاذ اللاهوت، يتعيَّن عليها المشي في أعقاب زوجها، ثمَّ اختفيا في المطر.

كان الجميع واقفاً في غرفة المعيشة الطويلة داخل النُّزل.

«إنَّني في غاية السعادة أنَّ تشافي -الطبيب أندروز- قد وصل إلى حدود توقُّعاتك»، كانت السيِّدة مالون تقول بطريقتها المؤدَّبة. بينما كان المقيمون يدعون الطبيب العظيم بـ«تشافي»، إلَّا أنَّ الزوَّار الأمريكيّين كانوا يدعونه بالطبيب أندروز.

لقد رحل الضيوف الآخرون، لكنَّ هاورد فريبس والأمريكيِّين كانوا يقيمون في المنزل. كانت السيِّدة هاورد فريبس تقول إنَّ الطبيب أندروز كان ساحراً تماماً بالنسبة إليها. وكان زوجها، الأستاذ، يقول شيئاً ما يعادل ما قالته باللطف مخاطباً السيِّد. تمنَّت كيتي، الابنة، الَّتي كانت تقف في الخلفيَّة إلى حدٍّ ما، أن ينتهوا من الأمر ويذهبوا إلى السرير. إنَّما، كان يتعيَّن عليها البقاء إلى أن تُشير إليهم والدتهم بالحركة المعهودة.

«أجل، لم أعرف تشافي في حال أفضل من هذه قطُّ»، تابع والدها القول، مُقدِّماً إطراءً لجملة كانت السيِّدة الأمريكيَّة الشابَّة قد قالتها. لقد كانت صغيرة ومرحة، وأحبَّ تشافي أن تكون السيِّدات صغيرات ومرحات.

«إنَّني أعشق كتبه»، قالت بصوتها الغريب الصادر من أنفها، «لكنَّني لم أتوقَّع قطُّ أن أستمتع إلى هذا الحدِّ بالجلوس إلى جانبه في أثناء العشاء».

هل أحببتِ حقّاً طريقته في البصاق وهو يتحدَّث؟ تساءلت كيتي وهي تنظر إليها. لقد كانت جميلة وسعيدة على نحو استثنائيٍّ. بدت جميع النساء الأخريات رثَّات وزريَّات الملابس وهنَّ إلى جانبها، باستثناء والدتها. لأنَّ السيِّدة مالون، وهي تقف إلى جانب الموقد، واضعة قدمها على الحاجز، وشعرها الأبيض الأنيق مجعَّد بشدَّة، لم تبدُ أنَّها متَّبعة للدُّرْجَة (الموضة) أو غير متَّبعة لها قطُّ، على نقيض السيِّدة فريب الَّتي كانت تتبع الدُّرجة.

فكَّرت كيتي في أنَّهم كانوا يسخرون منها على الرَّغم من ذلك. لقد وقع نظرها على سيِّدات أكسفورد يرفعنَ حواجبهنَّ استنكاراً لبعض مصطلحات السيِّدة فريب الأمريكيَّة. غير أنَّ كيتي أحبَّت مصطلحاتها الأمريكيَّة، إذ إنَّها كانت مختلفة جدّاً عمَّا كانت معتادتها. لقد كانت أمريكيَّة، أمريكيَّة حقيقيَّة، إلَّا أنَّ أيَّ شخص لم يكن ليعتقدَ أنَّ زوجها أمريكيٌّ بالنظر إليه، فكَّرت كيتي. فكَّرت في أنَّه كان يمكن أن يكون أيَّ أستاذ، من أيِّ جامعة، فكَّرت، بوجهه المميَّز المكسوِّ بالتجاعيد، ولحيته الصغيرة المحدَّدة، وشريطة نظَّارته السوداء تتقاطع مع مقدِّمة قميصه كما لو كان هذا ترتيباً أجنبيّاً. تحدَّث من دون لهجة، من دون لهجة أمريكيَّة في الأقلِّ. غير أنَّه هو أيضاً كان مختلفاً بطريقة ما. كانت قد أوقعت منديلها، فانحنى على الفور وأعطاها إيَّاه مع انحناءة كادت تكون مهذَّبة أكثر من اللازم، ما جعلها تشعر بالخجل. طوت يدها وابتسمت للأستاذ، على نحو خجل إلى حدٍّ ما، في حين تناولت منديلها.

«شكراً جزيلاً لك»، قالت. لقد جعلها تشعر بالغرابة. لقد شعرت بأنَّها أكثر ضخامة من المعتاد إلى جانب السيِّدة فريب. لم يسبق لشعرها ذي اللون الأحمر، الَّذي يدلُّ على كونها فرداً حقيقيّاً من أسرة ريغبي، أن انسدل بنعومة كما يُفترض به أن يفعل، غير أنَّ شعر السيِّدة فريب بدا جميلاً، لامعاً ومرتَّباً.

قالت السيِّدة مالون وهي تنظر إلى السيِّدة فريب: «حسناً أيَّتها السيِّدات-؟»، ولوَّحت بيدها. كان ثمَّة شيء رسميٌّ يتعلَّق بفعلها، كما لو أنَّها فعلت هذا الأمر مراراً وتكراراً، وأُطيعت فيه مراراً وتكراراً. تحرَّكن نحو الباب. كانت هناك مراسم صغيرة الليلة عند الباب، إذ انحنى الأستاذ فريب جدّاً فوق يد السيِّدة مالون، غير أنَّه لم ينحنِ بهذا القدر فوق يد كيتي، وأبقى الباب مفتوحاً لأجلهما.

«إنَّه يبالغ في تصرُّفاته إلى حدٍّ ما»، فكَّرت كيتي وهما تتجاوزانه.

أخذت السيِّدات شموعهنَّ واتَّجهنَ في صفٍّ واحد صاعدات الدرجات العريضة المنخفضة. أطلَّت لوحات لسادة بيت كاثرين السابقين عليهنَّ حين صعودهنَّ. تأرجحت أضواء الشموع على الوجوه المؤطَّرة باللَّون الذهبيِّ في أثناء صعودهنَّ درجة تلوَ الأخرى.

الآن، ستتوقَّف، فكَّرت كيتي وهي تسير في أعقابها، وستسأل من يكون ذاك.

غير أنَّ السيِّدة فريب لم تتوقَّف. منحتها كيتي علامات جيِّدة لهذا السبب. اعتقدت كيتي أنَّها كانت تقع في مرتبة جيِّدة بالمقارنة مع معظم زوَّارهم. لم يسبق لها أن ذهبت إلى مكتبة «بودلي» بسرعة بالغة كما فعلت في ذاك الصباح. كانت تشعر بالذنب إلى حدٍّ ما بالفعل. كان هناك العديد من المواقع الأُخَر الَّتي يتعيَّن رؤيتها، لو رغبتا في ذلك. إنَّما، بعد

مضيٍّ ما يقلُّ عن ساعة من الأمر كانت السيِّدة فريب قد التفتت إلى كيتي وقالت بصوتها الرائع، وإن كان يبدو صادراً من أنفها:

«حسناً يا عزيزتي، أعتقد أنَّكِ قد مللتِ هذه المشاهد، ما رأيكِ في تناول بعض المثلَّجات في متجر الكعك القديم المحبَّب الذي تحتوي نوافذه شريطة؟»

وتناولتا المثلَّجات في حين كان يتعيَّن عليهما التجوُّل في أنحاء مكتبة «بودلي».

الآن، وصل الموكب إلى محطَّته الأولى، وتوقَّفت السيِّدة مالون عند باب الغرفة الشهيرة الَّتي لطالما نام فيها الضيوف المميَّزون في أثناء إقامتهم في النُّزل. ألقت نظرة واحدة في الأرجاء، في حين فتحت الباب.

«السرير حيث لم تنم الملكة إليزابيث»، قالت ملقية النكتة المعتادة حين نظرنَ إلى السرير الضخم ذي القوائم الأربع. كانت النار ملتهبة، وكان إناء الماء ملفوفاً كامرأة عجوز تعاني من وجع في الأسنان، وكانت الشموع مضاءة على طاولة الزينة. إنَّما، ثمَّة أمر غريب بشأن الغرفة الليلة، فكَّرت كيتي وهي تنظر من فوق كتف والدتها، هناك فستان سهرة أخضر وفضِّيٌّ ملقى فوق السرير. وكان هناك عدد من الأواني والأوعية الصغيرة ومذرة مسحوق كبيرة ملطَّخة باللون الورديِّ فوق طاولة الزينة. هل يمكن أن يكون هذا هو السبب في أنَّ السيّدة فريب بدت مشرقة للغاية في حين بدت بقيَّة سيّدات أكسفورد رثَّات جدّاً، أيعقل أن يكون، هو أنَّ السيّدة فريب... غير أنَّ السيِّدة مالون كانت تقول، «هل تمتلكين كلَّ ما تحتاجين إليه؟»، بلطف بالغ إلى درجة أنَّ كيتي خمَّنت أنَّ السيّدة مالون قد رأت طاولة الزينة أيضاً. مدَّت كيتي يدها. ولمفاجأتها فإنَّ السيِّدة فريب سحبتها وقبَّلتها بدلاً من إمساكها.

«أشكركِ ألف شكر على أخذي لرؤية كلِّ تلك المشاهد»، قالت، «وتذكَّري، سوف تأتين للإقامة معنا في أمريكا»، أضافت قائلة. لأنَّها

أُعجبت بالفتاة الكبيرة الخجول، الَّتي من الواضح أنَّها فضَّلت تناول المثلَّجات على أن تجول معها في مكتبة «بودلي»، وقد شعرت بالأسف لأجلها لسبب من الأسباب.

«تصبحين على خير يا كيتي»، قالت والدتها وهي تغلق الباب، ولمست إحداهما الأخرى عند الخدِّ بطريقة روتينيَّة.

تابعت كيتي صعود الدرج متَّجهة إلى غرفتها. كانت لا تزال تشعر بالمكان الَّذي قبَّلتها عليه السيِّدة فريب، إذ خلَّفت القُبلة قليلاً من الوهج على خدِّها.

أغلقت الباب. كانت الغرفة مكتظَّة بالأغراض للغاية. كانت ليلة دافئة، غير أنَّهم لطالما أغلقوا النوافذ وأسدلوا الستائر. فتحت النوافذ وسحبت الستائر. كان الجوُّ ماطراً كما هو معتاد. قطعت أسهم من المطر الفضّيّ الأشجار القاتمة في الحديقة. ثمَّ ركلت حذاءها كي تخلعه. كان هذا أسوأ أمر يتعلَّق بكونها ضخمة، الأحذية كانت ضيِّقة على قدميها دائماً، ولا سيَّما أحذية الساتان البيض. ثمَّ بدأت تفكُّ فستانها. كان الأمر صعباً، إذ إنَّه يحتوي الكثير من المشابك، وكانت كلُّها في الخلف، لكن أخيراً خُلع فستان الساتان الأبيض ووضعته بعناية على الكرسيِّ، ثمَّ بدأت تُسرِّح شعرها. كان يوم الخميس في أسوأ ما يمكن أن يكون عليه، فكَّرت، زيارة الأماكن السياحيَّة في الصباح، واستضافة أشخاص لأجل الغداء، واستضافة الطلَّاب الجامعيِّين لشرب الشاي، وحفل عشاء في المساء.

لقد انتهى الأمر، على الرَّغم من ذلك، خلصت إلى هذا التفكير وهي تجذب المشط خلال شعرها، لقد انتهى الأمر.

تأرجحت الشمعات، وحينها أوشكت الستائر المصنوعة من قماش الموسلين أن تلامس اللهب، إذ هبَّت مشكِّلة بالوناً أبيضَ. فتحت عينيها جزعة. كانت تقف عند النافذة المفتوحة مرتدية تنُورتها التحتيَّة وإلى جانبها ضوء.

«يمكن لأيٍّ شخص أن يرى إلى داخل الغرفة»، كانت والدتها قد قالت وهي توبِّخها قبل أيّام فحسب.

الآن، قالت وهي تحرِّك الشمعة إلى إحدى الطاولات، إلى اليمين، لا يمكن لأحد أن يرى.

بدأت تُسرِّح شعرها من جديد. غير أنَّها رأت وجهها من زاوية مختلفة نظراً لكون الضوء إلى جانبها بدلاً من كونه أمامها.

هل أنا جميلة؟ سألت نفسها وهي تضع المشط وتنظر في المرآة. كانت عظمتا خدَّيها بارزتين للغاية، في حين كانت عيناها بعيدتين جدّاً إحداهما عن الأخرى. لم تكن جميلة، كلَّا، كان حجمها يلعب ضدَّها. ما كان رأي السيِّدة فريب فيَّ، تساءلت؟

لقد قبَّلتني، تذكَّرت، وسرى فيها إجفال من السعادة، وهي تشعر بالوهج على خدِّها. لقد طلبت إليَّ الذهاب معهما إلى أمريكا. لكَم سيكون هذا ممتعاً! فكَّرت. يا له من أمر ممتع أن أغادر أكسفورد وأذهب إلى أمريكا! جذبت المشط عبر شعرها، الَّذي كان أشبه بشجيرة زغبة.

إلَّا أنَّ الأجراس كانت تصدر ضجَّتها المعتادة. لقد كرهتْ صوت الأجراس، إذ لطالما بدا لها صوتاً كئيباً، ومن ثمَّ كان أحدها يبدأ، تماماً حين يتوقَّف الآخر. تابعت الأجراس تدافعها في إثر بعضها بعضاً، الواحد تلو الآخر، كما لو أنَّها لن تنتهي البتَّة. أحصت إحدى عشرة دقَّة، اثنتا عشرة، ومن ثمَّ تابعت وصولاً إلى ثلاث عشرة، أربع عشرة... الدقَّة تلو الدقَّة عبر الهواء الرطب البارد. كان الوقت متأخِّراً. بدأت تفرِّش أسنانها. ألقت نظرة على الروزنامة فوق المغسلة ومزَّقت ورقة يوم الخميس وجعَّدتها في شكل كرة، كما لو أنَّها تعني القول، «لقد انتهى! لقد انتهى!». واجهها يوم الجمعة بحروفه الحُمر الكبيرة. كان يوم الجمعة يوماً جيِّداً، هي تتلقَّى درسها مع لوسي في يوم الجمعة، وتذهب لشرب الشاي مع أسرة روبسون.

«طوبى لمن وجد عمله»، قرأت على الروزنامة. لطالما بدت الروزنامات كأنَّها تخاطبك. لم تكن قد أنجزت واجباتها الدراسيَّة بعد. نظرت إلى صفٍّ من المجلَّدات، زرقاء اللَّون، «التاريخ الدستوريُّ لإنكلترا، تأليف د. أندروز». كانت هناك قسيمة ورقيَّة في المجلَّد الثالث. كان يتعيَّن عليها إنهاء فصلها من أجل لوسي، إنَّما، ليس الليلة، فقد كانت متعبة للغاية. استدارت نحو النافذة. طاف زئير من الضحك منطلقاً من مساكن الطلَّاب الجامعيِّين. على أيِّ أمر يضحكون، تساءلت وهي تقف عند النافذة. لقد بدا كأنَّهم يستمتعون بوقتهم. إنَّهم لا يضحكون بهذه الطريقة أبداً حين يأتون بغية شرب الشاي في النُّزل، فكَّرت في حين خفتت أصوات الضحك. جلس الرجل الضئيل من كليَّة «باليول» وهو يطوي أصابعه مراراً وتكراراً. لم يكن ليتحدَّث، لكنَّه لم يكن ليغادر أيضاً. ثمَّ أطفأت الشمعة وخلدت إلى السرير. إنَّه يعجبني إلى حدٍّ ما، فكَّرت وهي تتحرَّك بين الملاءات الباردة، على الرَّغم من أنَّه يلوي أصابعه. أمَّا بالنسبة إلى توني آشتون، فكَّرت وهي تستدير على وسادتها، فإنَّني لا أحبُّه، إذ إنَّه لطالما بدا كأنَّه يستجوبها بشأن إدوارد، الَّذي اعتادت إليانور مناداته بنيغز. كانت عيناه قريبتين للغاية إحداهما من الأخرى، وفكَّرت في أنَّه يشبه الكتلة المستديرة الَّتي تُصنع عليها الباروكات. كان قد تبعها في أثناء النزهة في ذاك اليوم، النزهة الَّتي دخل خلالها النمل في تنُّورة السيِّدة لاثوم. ها هو ذا إلى جانبها على الدوام. غير أنَّها لم ترغب في أن تتزوَّجه. لم ترغب في أن تكون زوجة «أستاذ جامعيٍّ»، وأن تعيش في «أكسفورد» إلى الأبد. كلَّا، كلَّا، كلَّا! تثاءبت، استدارت على وسادتها، واستمعت إلى جرس متأخِّر بدأ يطنُّ كخنزير بحر بطيء عبر الجوِّ الثقيل العابق بالمطر الخفيف، ثمَّ تثاءبت مرَّة أخرى وغطَّت في النوم.

تساقط المطر طيلة الليلة على نحو ثابت مشكِّلاً ضباباً خفيفاً على الحقول، وأصوات خرير وبقبقة في المجارير، أمَّا في الحدائق فقد تساقط

على شجيرات أزهار الليلك والآبنوس الكاذب. انزلق بلطف على قباب المكاتب الرصاصيَّة، وتناثر خارجاً من أفواه المزاريب الضاحكة. لقد لطَّخ النافذة حيث جلس الصبيُّ اليهوديُّ من «برمنغهام» يدرس اللغة اليونانيَّة على نحو مكثَّف واضعاً منشفة مبلَّلة حول رأسه، حيث جلس الطبيب مالون يكتب فصلاً آخر في تاريخه التذكاريٍّ في الجامعة. وروَّى المطر الشجرة القديمة، في حديقة النُّزل خارج نافذة كيتي، حيث كان الملوك والشعراء يجلسون ويحتسون الشراب منذ ثلاثة عقود مضت، إنَّما الآن، فإنَّها قد سقطت تقريباً، وكان لا بُدَّ من دعمها بوضع وتد في المنتصف.

«أتريدين مظلَّة يا آنستي؟»، قال هيسكوك يعرض مظلَّة على كيتي في حين غادرت المنزل في وقت متأخِّر عن الوقت المفترض في ظهيرة اليوم التالي. كانت ثمَّة برودة في الهواء، الأمر الذي جعلها سعيدة بأنَّها لن تجلس في قارب اليوم، وكان هذا ما طرأ إلى بالها وهي تنظر إلى حفل يغلب عليه اللونان الأصفر والأبيض للفساتين والوسادات، وهم يتَّجهون نحو النهر. ليس ثمَّة حفلات اليوم، فكَّرت، ليس ثمَّة حفلات اليوم. نبَّهتها الساعة إلى أنَّها قد تأخَّرت.

مشت في عجالة على طول الطريق إلى أن وصلت إلى الفيلَّات الحُمر الرخيصة التي لطالما بغضها والدها للغاية، إلى درجة أنَّه كان يسلك منعطفاً على الدوام بغية تجنُّبها. غير أنَّ الآنسة كرادوك كانت تعيش في إحدى هذه الفيلَّات الحُمر الرخيصة، وقد رأت كيتي هذه الفيلَّات محاطة بهالة من الرومانسيَّة. تسارع نبض قلبها، في حين سلكت المنعطف بالقرب من الكنيسة الجديدة، ورأت درجات المنزل المنحدرة حيث عاشت الآنسة كرادوك بالفعل. صعدت لوسي تلك الدرجات وهبطتها كلَّ يوم، كانت تلك هي نافذتها، وكان ذاك هو جرسها. كان الجرس يصدر اهتزازة حين تسحبه، غير أنَّه لا يعود ثانية إلى موضعه، لأنَّ كلَّ شيء في منزل لوسي كان متداعياً، إلَّا أنَّ كلَّ شيء كان رومانسيّاً. ها هي ذي مظلَّة لوسي على

الحامل، ولم تكن تشبه المظلّات الباقية، كان رأس قبضتها في شكل رأس ببغاء. لكنَّ الحماس أصبح مختلطاً مع الخوف بينما صعدت الدرجات المنحدرة اللامعة: لقد أهملت وظائفها الدراسيَّة مرَّة أخرى، إذ إنَّها في هذا الأسبوع أيضاً «لم تبذل قُصارى جهدها لإنجازها».

«إنَّها قادمة!»، فكَّرت الآنسة كرادوك وهي تمسك بقلمها ثابتاً. كانت بقعة حمراء تعلو قمَّة أنفها، وكانت عيناها تشبهان عينَي البومة إلى حدٍّ ما، إذ كان يحيط بهما انخفاض أجوف شاحب. ها هو ذا الجرس. غُمس القلم بالحبر الأحمر، إذ كانت تُصحِّح مقال كيتي. والآن، سمعت خطواتها على الدرج. «إنَّها قادمة!»، فكَّرت وهي تأخذ نفساً وتضع قلمها.

«إنَّني بالغة الأسف يا آنسة كرادوك»، قالت كيتي وهي تخلع أغراضها وتضعها على الطاولة، «إنَّما كان لدينا ضيوف يقيمون معنا في المنزل».

مسحت الآنسة كرادوك بيدها فوق فمها بالطريقة الَّتي كانت تفعلها حين تشعر بخيبة الأمل.

قالت: «لقد فهمت. إذاً فأنتِ لم تنجزي أيّاً من الواجبات الدراسيَّة هذا الأسبوع أيضاً».

أمسكت الآنسة كرادوك قلمها، وغمسته في الحبر الأحمر، ثمَّ عادت إلى المقال.

«لم يكن يستحقُّ عناء التصحيح»، علَّقت وهي ترفع قلمها في الهواء.

«إنَّ طفلاً في العاشرة من عمره كان ليشعر بالعار من هذا المقال». تورَّدت كيتي باللون الأحمر الساطع.

«والأمر الغريب أنَّكِ تتمتَّعين بذهن مبدع للغاية»، قالت الآنسة كرادوك وهي تضع قلمها حين انتهى الدرس.

اعتلى وجه كيتي لون أحمر متوهِّج نتيجة سعادتها.

«غير أنَّكِ لا تستخدمينه»، قالت الآنسة كرادوك، «لِمَ لا تستخدمينه؟»، أضافت قائلة وهي تنظر عبر عينيها الرماديَّتين الصغيرتين.

«كما تعرفين يا آنسة كرادوك فإنَّ والدتي-»، بدأت كيتي تقول بلهفة.

«مم... مم... مم...»، أوقفتها الآنسة كرادوك عن الحديث، إذ إنَّ الأسرار لم تكن ضمن الأمور الَّتي يدفع لها الطبيب مالون لأجلها، فنهضت.

«انظري إلى أزهاري»، قالت وهي تشعر بأنَّها قد ازدرتها بشدَّة. كان ثمَّة إناء من الأزهار على الطاولة، أزهار بريَّة ذات لونين أبيض وأزرق، مثبَّتة على وسادة من الأشنة الخضراء المبلَّلة.

«لقد أرسلتها شقيقتي من المستنقعات»، قالت.

«المستنقعات؟»، قالت كيتي، «أيُّ مستنقعات؟». انحنت ولمست الأزهار الصغيرة بلطف. لكم كانت محبَّبة، فكَّرت الآنسة كرادوك، نظراً لكونها عاطفيَّة بشأن كيتي. إنَّما، لن أكون عاطفيَّة، قالت لنفسها.

«مستنقعات سكاربورو»، قالت بصوتٍ عالٍ، «إن أبقيتِ الأشنة رطبة، لكن ليس رطبة أكثر ممَّا يلزم، فستدوم لأسابيع»، أضافت القول وهي تنظر إلى الأزهار.

«رطبة، لكن ليست رطبة أكثر ممَّا اللازم»، ابتسمت كيتي، «إنَّ هذا الأمر سهل في أكسفورد، نظراً لكون المطر يهطل باستمرار هنا». نظرت إلى خارج النافذة، كان ثمَّة مطر خفيف يتساقط.

«إن عشتُ هناك يا آنسة كرادوك-»، بدأت القول وهي تلتقط مظلَّتها، غير أنَّها توقَّفت. لقد انتهى الدرس.

«ستجدين المكان مملاً للغاية»، قالت الآنسة كرادوك وهي تنظر إليها. كانت ترتدي معطفها، وقد كانت تبدو جميلة جدّاً بالتأكيد وهي تفعل ذلك.

«لـمَّا كنتُ في مثل عمركِ كنتُ لأهبَ عيني للحصول على الفرص الَّتي تمتلكينها الآن، أن ألتقي الأشخاص الَّذين تلتقينهم، أن أعرف الناس الَّذين تعرفينهم»، تابعت الآنسة كرادوك القول متذكِّرة وظيفتها كمعلِّمة.

«تشافي العجوز؟»، قالت كيتي وهي تتذكَّر إعجاب الآنسة كرادوك العميق بهذا النوع من التعلُّم.

«أيَّتها الفتاة عديمة الاحترام! إنَّه أعظم مؤرِّخ في جيله!»، قالت الآنسة كرادوك معاتبة إيَّاها.

«حسناً، إنَّه لا يتحدَّث معي عن التاريخ»، قالت كيتي وهي تتذكَّر الشعور النديَّ ليد ثقيلة على ركبتها.

تردَّدت، غير أنَّ الدرس قد انتهى، فثمَّة طالب آخر آتٍ. نظرت في أرجاء الغرفة. كان ثمَّة طبق من البرتقال يعلو كومة من كتب التمارين اللامعة، وصندوق بدا كأنَّه كان يحتوي بسكويتاً. أكانت هذه هي غرفتها الوحيدة، تساءلت؟ هل تنام على الأريكة ذات المظهر المتكتِّل، الَّتي يعلوها شال قد رُمي عليها؟ لم تكن هناك مرآة، فارتدت قبَّعتها مائلة إلى جانب واحد تقريباً، فكَّرت وهي تفعل ذلك في أنَّ الآنسة كرادوك تبغض الملابس.

غير أنَّ الآنسة كرادوك كانت تفكِّر في مدى روعة أن يكون المرء فتيّاً ومحبَّباً، وأن يلتقي رجالاً عباقرة.

«إنَّني ذاهبة لشرب الشاي مع أسرة روبسون»، قالت كيتي وهي تمدُّ يدها. كانت الفتاة، نيلي روبسون، الطالبة المفضَّلة لدى الآنسة كرادوك، الفتاة الوحيدة الَّتي تعرف معنى العمل بحقٍّ، كما اعتادت أن تقول.

«هل ستذهبين سيراً على الأقدام؟»، قالت الآنسة كرادوك وهي تنظر إلى ملابسها، «إنَّها مسافة بعيدة كما تعلمين. عبر طريق رينمر، بعد شركة الغاز».

قالت كيتي وهي تصافحها: «أجل سأسير إلى هناك».

«وسأحاول أن أدرس بجدٍّ هذا الأسبوع»، قالت وهي تنظر إليها بعينين تملؤهما المحبَّة والإعجاب. ثمَّ هبطت الدرجات المنحدرة الَّتي أشعَّ مشمَّعها ساطعاً بالرومانسيَّة، ونظرت إلى المظلَّة ذات المقبض في شكل رأس ببغاء.

كان ابن الأستاذ، الَّذي كان يفعل الأشياء من تلقاء نفسه فحسب، «صاحب أكثر أداء جدير بالإكبار»، حسب تعبير الطبيب مالون، يصلح أقفاص الدجاج في الحديقة الخلفيَّة في «بريستويتش تيريس» -مكان صغير بالٍ. كان يطرق ويطرق مراراً وتكراراً وهو يثبِّت لوحاً خشبيّاً على السقف المتعفِّن. كانت يداه بيضاوين، على عكس يدَي والده، وكان ذا أصابع طويلة أيضاً. لم يكن يُكنُّ أيَّ محبَّة تجاه القيام بهذه المهامِّ بنفسه، غير أنَّ والده قد أصلح الأحذية يوم الأحد. هبطت المطرقة. تابع ما يفعله، يطرق المسامير الطويلة اللامعة الَّتي قسمت الخشب أحياناً، أو اندفعت خارجه لكونه متعفِّناً. كان يكره الدَّجاج أيضاً، يراها طيوراً معتوهة، كومة من الريش، وهي تراقبه بعيونها الحُمر اللامعة. لقد نزعتِ الطريق، مخلِّفة كتلاً مجعَّدة من الريش هنا وهناك على سُرر الأزهار الَّتي تفوق ما يعجبه. إنَّما، لم ينمُ شيءٌ هناك. كيف للمرء أن يزرع الأزهار كما الأشخاص الآخرين إن كان يُربِّي الدَّجاج؟ قُرع جرس.

«اللَّعنة! لقد جاءت امرأة عجوز ما لشرب الشاي»، قال وهو يُمسك بمطرقته ثابتة، ثمَّ أنزلها على المسمار.

حاولت كيتي أن تتذكَّر الأمر الَّذي قاله والدها عن والد نيلي، وهي تقف على العتبة، تنظر إلى ستائر الدانتيل الرخيصة والزجاج الأزرق والبرتقاليِّ. لكنَّ خادمة صغيرة فتحت لها الباب وأدخلتها. إنَّني بالغة الضخامة، فكَّرت كيتي، في حين وقفت للحظة في الغرفة الَّتي أخذتها الخادمة إليها. كانت غرفة صغيرة، مكتظَّة بالأغراض. وإنَّني متأنِّقة في ملبسي أكثر ممَّا يلزم، فكَّرت

وهي تنظر إلى نفسها في المرآة القابعة فوق المدفأة، لكن حينها دخلت صديقتها نيلي. كانت رثَّة الهيئة، وقد وضعت نظَّارة معدنيَّة على عينيها الرماديَّتين الكبيرتين، وبدا أنَّ النسيج الهولنديَّ البنّيَّ الَّذي كانت ترتديه قد زاد بصورة عامَّة من حقيقة مظهرها المتصلِّب.

«سنشرب الشاي في الغرفة الخلفيَّة»، قالت وهي تنظر إليها من قمَّة رأسها إلى أخمص قدميها. ما الَّذي كانت تفعله؟ لِمَ ترتدي ملابس عاديَّة؟ فكَّرت كيتي وهي تتبعها إلى الغرفة حيث كانوا قد بدؤوا في شرب الشاي بالفعل.

«إنَّني سعيدة برؤيتكِ»، قالت السيِّدة روبسون برسميَّة وهي تنظر من فوق كتفها، لكنَّ أحداً لم يبدُ سعيداً برؤيتها. كان ثمَّة طفلان يتناولان الطعام، وكانا يمسكان بشرائح من الخبز والزُّبد في أيديهم، غير أنَّهما وضعا الخبز والزُّبد وحدَّقا إلى كيتي حين جلست.

بدا أنَّها رأت الغرفة كلَّها في نظرة واحدة. كانت غرفة خالية لكنَّها مكتظَّة. كانت الطاولة أكبر ممَّا يلزم، وكانت ثمَّة كراسٍ فاخرة خضراء اللَّون، إلَّا أنَّ مفرش المائدة كان رديئاً، مرتَّقاً في المنتصف، والأواني الخزفيَّة كانت بخسة الثمن ومزيَّنة بوردٍ أحمر مبهرج. لمع الضوء في عينيها بشكل ساطع على نحو استثنائيٍّ. أتى صوت طرق من الحديقة الخارجيَّة، فنظرت إلى الحديقة، لقد كانت حديقة بالية، أرضيَّة خالية من سُرر الأزهار، وكان ثمَّة كوخ عند نهاية الحديقة صدر منه صوت الطرق.

كانوا جميعهم قصار القامة أيضاً، فكَّرت كيتي وهي تنظر إلى السيِّدة روبسون، كانت كتفاها فقط تتجاوزان أغراض شرب الشاي، لكنَّها تمتَّعت بكتفين ضخمتين. كانت تشبه بيغي قليلاً، طبَّاخة النُّزل، لكنَّها كانت أضخم بقليل. ألقت نظرة واحدة خاطفة على السيِّدة روبسون، ثمَّ بدأت تسحب قفَّازيها لتخلعهما خفية، بسرعة، تحت ستر مفرش المائدة. إنَّما، لِمَ لا يتحدَّث أحد؟ فكَّرت بتوتُّر. أبقى الطفلان أعينهما مثبَّتة عليها وتملؤها

نظرة دهشة جليلة. تنقَّلت نظراتهما الشبيهة بنظرات البومة صعوداً وهبوطاً عليها دون هوادة، ولحسن الحظِّ قبل أن يُتاح لهما التعبير عن استنكارهما، أمرتهما السيِّدة روبسون بحدَّة أن يتابعا شرب الشاي خاصَّتهما، وارتفع الخبز والزُّبد إلى فميهما من جديد ببطء.

لِمَ لا يقولون شيئاً ما؟ فكَّرت كيتي مجدَّداً وهي تنظر إلى نيلي. كانت قد أوشكت أن تتحدَّث حين صدر صوت حفيف مظلَّة في الصالة، فرفعت السيِّدة روبسون نظرها وقالت لابنتها:

«ها هو ذا والدكِ قد أتى!».

هرول داخلاً في اللحظة التالية رجل ضئيل، وقد كان قصير القامة للغاية، إلى الحدِّ الَّذي بدت معه سترته كأنَّها سترة «إيتون» القصيرة الَّتي يبلغ طولها الخصر، وبدا عنقه كطوق مستدير. كان هو أيضاً يضع ساعة ذات سلسلة غليظة جدّاً مصنوعة من الفضَّة، على غرار صبيان المدارس. غير أنَّ عينيه كانتا ثاقبتين وشرستين، وله شاربان شائكان، وكان يتمتَّع بلكنة غريبة في حديثه.

«سعيد برؤيتكِ»، قال وأمسك بيدها بشدَّة في يده. جلس، حشر منديلاً أسفل ذقنه فحجب ساعته الفضيَّة الغليظة ذات السلسلة أسفل درعها المتصلِّبة البيضاء. توالت أصوات الطرق من الكوخ الواقع في الحديقة.

«قولي لجو إنَّ الشاي قد قُدِّم على الطاولة»، قالت السيِّدة روبسون لنيلي، الَّتي كانت قد أحضرت طبقاً يعلوه غطاء. أُزيح الغطاء. لاحظت كيتي أنَّهم كانوا سيتناولون السمك المقليَّ والبطاطس في وقت شرب الشاي.

غير أنَّ السيِّد روبسون أدار عينيه الزرقاوين والمفزعتين إلى حدٍّ ما نحوها. توقَّعت منه أن يقول، «كيف حال والدكِ يا آنسة مالون؟».

لكنَّه قال:

«أنتِ تدرسين التاريخ مع لوسي كرادوك؟»

«نعم»، أجابت. أحبَّت الطريقة الَّتي لفظ بها لوسي كرادوك، كما لو أنَّه كان يكنُّ لها احتراماً، في حين أنَّ العديد من أساتذة الجامعة كانوا يسخرون منها. أحبَّت أيضاً الشعور الَّذي منحها إيَّاه، والمتمثِّل في أنَّها لم تكن ابنة شخص معيَّن على وجه التحديد.

«هل أنتِ مهتمَّة بموضوع التاريخ؟»، قال وهو يؤهِّب نفسه لتناول السمك والبطاطس خاصَّته.

«إنَّني أحبُّه»، قالت. بدا كأنَّ عينيه الزرقاوين الساطعتين اللَّتين تُحدِّقان إليها على نحو شرس، إلى حدٍّ ما، قد جعلتاها تُجيب باختصار أكثر ممَّا كانت تنويه.

«غير أنَّني كسلانة إلى حدٍّ كبير»، أضافت قائلة. هنا، نظرت إليها السيِّدة روبسون بصرامة، وناولتها قطعة سميكة من الخبز على رأس سكين.

قالت، في سبيل الانتقام من الازدراء الَّذي شعرَت بأنَّه كان متعمَّداً، إنَّ ذوقهم مزرٍ في أيِّ حال من الأحوال. ركَّزت نظرها على صورة في الطرف المقابل، لوحة زيتيَّة لمشهد طبيعيٍّ، محاطة بإطار مذهَّب ثقيل. كان ثمَّة طبق يابانيٌّ أزرق وأحمر عند كلا جانبيه. كان كلُّ شيء قبيحاً، ولا سيَّما اللوحات.

«إنَّه المستنقع الواقع خلف منزلنا»، قال السيِّد روبسون وهو يراها تنظر إلى لوحة.

شعرت كيتي بالصدمة من كون اللهجة الَّتي تحدَّث بها كانت لهجة يوركشاير. لقد زاد النظر إلى اللوحة من لكنته.

«في يوركشاير؟»، قالت، «إنَّنا ننحدر من هناك أيضاً، أعني أسرة والدتي»، قالت مضيفة.

قالت السيّدة روبسون: «أسرة والدتكِ؟».

«ريغبي»، قالت وقد تورَّدت قليلاً.

«ريغبي؟»، قال السيّد روبسون وهو يرفع نظره.

«لقد عمـ... ـمـ... لتُ لدى آنسة من أسرة ريغبي قبل زواجي».

ما نوع العم... ـم... ـمل الَّذي قامت به السيِّدة روبسون؟ تساءلت كيتي، فشرح لها سام.

«لقد كانت زوجتي طاهية قبل أن نتزوَّج يا آنسة مالون»، قال. ومن جديد، شدَّد على لكنته كما لو كان فخوراً بها. شعرت بميل كبير كي تقول: كان لديَّ عمٌّ كبير يؤدِّي مع السيرك، وعمَّة تزوَّجت... غير أنَّ السيِّدة روبسون قاطعتها هنا.

«أسرة هولي»، قالت، «سيِّدتان مسنَّتان للغاية، الآنسة آن والآنسة ماتيلدا»، تحدَّثت بلطف أكبر.

«لكن، لا بُدَّ أنَّهما قد توفِّيتا منذ زمن طويل الآن»، خلُصت في قولها، وللمرَّة الأولى مالت إلى الخلف في كرسيِّها، وحرَّكت الشاي خاصَّتها، تماماً كما كانت سناب العجوز في المزرعة تحرِّك الشاي خاصَّتها مراراً وتكراراً، فكَّرت كيتي.

«أخبري جو أنَّنا لن نُبقي قطعة من الكعكة له»، قال السيِّد روبسون وهو يقطع لنفسه قطعة من ذاك الشيء ذي المظهر الصخريِّ، وخرجت نيل من الغرفة مرَّة أخرى. توقَّف الطَّرق في الحديقة وفُتح الباب. فُوجِئت كيتي الَّتي كانت قد أهَّبت عينيها لتتناسبا ضآلة أسرة روبسون. بدا الشاب اليافع ضخماً في الغرفة الصغيرة، لقد كان شابّاً فتيّاً وسيماً. مرَّر يده عبر شعره من فور دخوله، لأنَّه كان يحوي نثرات من الخشب عالقة فيه.

«ابننا جو»، قالت السيِّدة روبسون معرِّفة به، «اذهب وأحضر الإبريق يا جو»، أضافت قائلة، فذهب على الفور كما لو أنَّه كان معتاداً الأمر. بدأ سام يمازحه بشأن خمِّ الدَّجاج من فور عودته مع الإبريق.

«إنَّ إصلاح خمٍّ دجاج يتطلَّب وقتاً طويلاً يا بُنيَّ»، قال. كانت ثمَّة نكتة أسريَّة حول إصلاح الأحذية وخموم الدجاج، لم تستطع كيتي أن تفهمها. راقبته وهو يأكل بثبات، وهو يستمع إلى مزاح والده. لم يكن من مدرستي «إيتون» أو «هارو»، ولا من «ريغبي» أو «وينشستر»، ولم يكن يقرأ أو يُمارس التجديف. لقد ذكَّرها بآلف، العامل الـمُساعد في مزرعة كارتر، الَّذي قبَّلها تحت ظلِّ كومة القشِّ حين كانت تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وظهر كارتر العجوز يقتاد ثوراً ذا حلقة في أنفه، وقال، «أوقِفا ذلك!». أخفضت نظرها من جديد. كانت تودُّ لو يُقبِّلها جو، أكثر من أن يفعل ذلك إدوارد، فكَّرت في نفسها فجأةً. تذكَّرت مظهرها الَّذي كانت قد نسيت كلَّ ما يتعلَّق به. لقد أُعجبت به. أجل، لقد أُعجبت بهم إعجاباً بالغاً، قالت لنفسها، إعجاباً بالغاً بالفعل. شعرت كما لو أنَّها قد فرَّت من مربِّيتها وانطلقت بمفردها.

ثمَّ بدأ الطفلان يدفعان كرسيَّيهما، إذ إنَّ الوجبة قد انتهت. وهي بدأت تتصيَّد تحت الطاولة بحثاً عن قفَّازيها.

«أهما هذان؟»، قال جو وهو يلتقطهما من على الأرض، فأخذتهما وجعَّدتهما في يدها.

ألقى نظرة واحدة سريعة عابسة عليها حين وقفت في الردهة. إنَّها بالغة الجمال، فكَّر في نفسه، لكن يا إلهي، إنَّها تتصرَّف وكأنَّها أفضل من الآخرين!

رافقتها السيِّدة روبسون إلى الغرفة الصغيرة حيث نظرت في المرآة، قبل شرب الشاي. كانت مكتظَّة بالأغراض. كانت هناك طاولتان من البامبو، وكتب مخمليَّة ذوات مفصلات نحاسيَّة، وتماثيل رخاميَّة لمصارعين موضوعة بطريقة مائلة على رفِّ المدفأة، بالإضافة إلى عدد لا يُحصى من الصور... غير أنَّ السيِّدة روبسون كانت تعرض صينيَّة فضيَّة ذات نقش

بإيماءة كانت تماثل تماماً الإيماءة الصادرة عن السيِّدة مالون حين أشارت إلى لوحة غينزبورو الَّتي لم تكن لوحته على نحو مؤكَّد.

«تلك هي الصينيَّة التي أُهديت إلى زوجي من طلَّابه»، قالت السيِّدة روبسون وهي تشير إلى النقش. بدأت كيتي تُهجِّئ النقش.

«وهذه...»، قالت السيِّدة روبسون، حين انتهت كيتي من التهجئة، مشيرة إلى وثيقة مؤطَّرة كنصٍّ على الجدار.

غير أنَّ سام، الَّذي كان واقفاً في الخلفيَّة يعبث بساعته ذات السلسلة، قد تقدَّم حينها وأشار بسبَّابته القصيرة إلى صورة امرأة عجوز تبدو أقرب إلى الحجم الحقيقيِّ جالسة في كرسيِّ المصوِّر.

«هذه والدتي»، قال ثمَّ توقَّف عن الحديث، وألقى ضحكة صغيرة غريبة.

«والدتك؟»، أعادت كيتي، وانحنت كي تنظر. إنَّ السيِّدة العجوز صعبة المراس المتموضعة بتصلُّب في أفضل ملابسها كانت عاديَّة إلى أقصى حدٍّ، وعلى الرَّغم من ذلك فقد شعرت كيتي بأنَّ إظهار الإعجاب كان أمراً متوقَّعاً.

«أنتَ تشبهها جدّاً يا سيِّد روبسون»، كان هذا جلَّ ما استطاعت أن تعثر عليه لقوله. لقد كانا بالفعل يتمتَّعان بالنظرة المتماسكة عينها؛ العينان الثاقبتان نفساهما، وكانا كلاهما عاديَّين جدّاً. أطلق ضحكة صغيرة غريبة.

«أنا سعيد لأنَّكِ تعتقدين ذلك»، قال، «لقد ربَّتنا جميعاً، لكنَّ أيّاً منهم ليس جيّداً بقدرها». أصدر ضحكته الصغيرة الغريبة من جديد.

ثمَّ استدار نحو ابنته، الَّتي كانت قد دخلت، وتقف في الغرفة فحسب.

«لا أحد جيِّد بقدرها»، أعاد قوله وهو يقرص نيل في كتفها. بينما وقفت هناك تحت صورة جدَّتها، ويد والدها موضوعة على كتفها، سرت رعشة مفاجئة من الشفقة على الذات في كيتي. فكَّرت في لو أنَّها كانت ابنة أشخاص مثل أسرة روبسون، ولو كانت عاشت في الشمال -غير أنَّه

كان من الواضح أنَّهم يرغبون في مغادرتها. لم يجلس أيُّ شخص في هذه الغرفة قطُّ، كان الكلُّ واقفاً. لم يصرَّ أيُّ شخص على بقائها. لـمَّا قالت إنَّه يتعيَّن عليها المغادرة، خرجوا جميعاً معها إلى الصالة الصغيرة. كانوا جميعاً يوشكون أن يتابعوا الأمور الَّتي كانوا يفعلونها بحسب ما شعرت. كانت نيل توشك أن تذهب إلى المطبخ، وتغسل أدوات الشاي، وجو يوشك أن يعود إلى خُمِّ الدجاج خاصَّته، وكان الطفلان سيُرافقان والدتهما إلى السرير، في حين سام -ما الَّذي كان سيفعله؟ نظرت إليه واقفاً هناك مع ساعته الثقيلة ذات السلسلة، كصبيٍّ في المدرسة. أنتَ ألطف رجل قابلته على الإطلاق، فكَّرت وهي تمدُّ يدها.

«إنَّني سعيدة بالتعرُّف إليكِ على نحو شخصيٍّ»، قالت السيِّدة روبسون بطريقتها الجليلة.

«أتمنَّى أن تأتي مجدَّداً عمَّا قريب»، قال السيِّد روبسون وهو يمسك يدها بشدَّة.

«أوه، لكم أودُّ ذلك!»، صاحت وهي تضغط يديهما بقدر ما استطاعت من قوَّة. هل كانوا يعلمون مقدار إعجابها بهم؟ أرادت أن تقول. هل يقبلون بها على الرَّغم من قبَّعتها وقفَّازيها؟ رغبت في أن تسألهم. غير أنَّهم جميعاً كانوا سينطلقون إلى أعمالهم. وأنا ذاهبة إلى المنزل لارتداء ملابسي لأجل العشاء، فكَّرت وهي تهبط الدرجات الأماميَّة الصغيرة وتضغط على قفَّازَي الأطفال الشاحبين في يديها.

كانت الشمس مشرقة من جديد، وقد تألَّق الرصيف الرطب، وبعثرت نفحة من الرياح أغصان أشجار اللوز في حدائق الفيلَّا، وتأرجحت الغُصُون الصغيرة وخصلات البراعم على الرَّصيف، فعلقت هناك. بدا أنَّها هي أيضاً قد جُرفت خارجة من محيطها المعتاد، في حين وقفت ساكنة للحظة عند تقاطع طرق. لقد نسيت أين كانت. بدت السماء، الَّتي تحوَّلت إلى

مساحة زرقاء مفتوحة، كأنَّها تطلُّ إلى الأسفل لا على الشوارع والمنازل هنا، بل على الريف المفتوح، حيث مسَّدت الريح المستنقعات، والخراف، فتأرجح صوفها الرماديُّ، محتمية أسفل الجدران الحجريَّة. تكاد ترى المستنقعات تتوهَّج وتُظلم حين عبرت الغيوم فوقها.

إنَّما، حينها، بعد خطوتين واسعتين، بدا أنَّ الشارع غير المألوف قد أصبح الشارع الَّذي لطالما عرفته. لقد كانت في الزقاق المعبَّد مجدَّداً، وكانت هناك المتاجر الغريبة القديمة الَّتي تحوي الأواني الخزفيَّة الزرق وأحواض تدفئة الأسرَّة النحاسيَّة، وفي اللَّحظة التالية، كانت في الشارع الشهير الملتوي مع كلِّ القباب وأبراج الكنائس. ألقت الشمس بأشرطة عريضة من أشعَّتها عليه. وُجدت هناك عربات الأجرة والمظلَّات ومحالّ الكتب، حيث يتدفَّق الرجال المسنُّون مرتدين ملابس السهرة السود خاصَّتهم، والنساء في أثوابهنَّ الزرق والورديَّة المنسدلة، والشبَّان اليافعون في قبَّعاتهم القشيَّة يحملون الوسائد تحت أذرعهم. غير أنَّ هذا بدا للحظة عبثيّاً، تافهاً، فارغاً بالنسبة إليها. بدا الطالب الجامعيُّ المعتاد الَّذي يرتدي قبَّعته وعباءته، ويحمل كتباً تحت ذراعه سخيفاً. وبدا الرجال المسنُّون الرائعون بملامحهم المبالغ فيها كتماثيل غريبة، منحوتة، من العصور الوسطى، زائفة. فكَّرت في أنَّهم جميعاً كما الأشخاص الآخرون يرتدون ملابسهم ويؤدُّون أدوارهم. الآن، وقفت عند باب منزلها، وانتظرت هيسكوك، كبير الخدم، أن يُنزل قدميه من فوق الحاجز ويهرع إلى الطابق العلويِّ. لِمَ لا يمكنكَ التحدُّث ككائن بشريٍّ؟ فكَّرت، في حين أخذ منها مظلَّتها، وتمتم بملاحظته المعتادة حول الطقس. مكتبة سُر مَن قرأ

صعدت إلى الطابق العلويِّ ببطء كما لو أنَّ هناك وزناً أثقل قدميها أيضاً، وأخذت تنظر عبر النوافذ والأبواب المفتوحة إلى العشب الناعم، وإلى الشجرة الراقدة والأنسجة القطنيَّة الباهتة. غاصت على طرف سريرها. لقد كان متكدِّساً جدّاً. أزَّت ذبابة زرقاء في الأرجاء، في حين أصدرت جزَّازة

عشب صريراً في الحديقة الواقعة في الأسفل. كان الحمام يهدل بعيداً جدّاً- اهدلي مرّتين يا تافي. اهدلي مرّتين. اهدلـ.. انطبقت عيناها نصف إطباقة. بدا لها أنَّها كانت جالسة على شرفة نُزُل إيطاليٍّ. كان والدها هناك يضغط نبات كفِّ الذئب على صفيحة خشنة من ورق التنشيف. برقت البحرة في الأسفل وتألَّقت. استجمعت شجاعتها، وقالت لوالدها: «أبي...». نظر إليها بلطف بالغ من فوق نظَّارته. أمسك بزهرة زرقاء صغيرة بين سبَّابته وإصبعه. «أريد أن...»، بدأت تنزلق على الدرابزين الَّذي كانت تجلس عليه، غير أنَّ جرساً قرع حينها، فنهضت واتَّجهت نحو طاولة الغسيل. ماذا كانت لتعتقد نيل بهذا الشأن، فكَّرت وهي تميل الإبريق النحاسيَّ الـمُلمَّع على نحو جميل وتغمس يديها في الماء الحارِّ. دوَّى صوت جرس آخر. عبرت إلى طاولة الزينة. كان الهواء القادم من الحديقة الخارجيَّة عبقاً بالتمتمات والهديل. نثرات الخشب، قالت وهي تلتقط فرشاتها ومشطها - كانت هناك نثرات خشب في شعره. عبر خادمٌ حاملاً كومة من الأطباق، المصنوعة من الصفيح، على رأسه. كانت الحمامات تهدل، اهدلي مرّتين يا تافي. اهدلي مرّتين... إنَّما، ها قد انطلق جرس العشاء. رفعت شعرها إلى الأعلى بدبُّوس، وزرَّرت فستانها في لحظة، ثمَّ هرعت نزولاً الدرجات الزلقة، ممرِّرة كفَّ يدها على الدرابزين، كما اعتادت أن تفعل حين كانت طفلة صغيرة مستعجلة. وها هم أولاء جميعاً موجودون.

كان والداها يقفان في الصالة وبرفقتهما رجل طويل القامة. كان ثوبه مُلقى إلى الخلف، وقد أضاء شعاع أخير من الشمس وجهه اللطيف الجازم. مَن يكون؟ لم تستطع كيتي أن تتذكَّر.

صاح وهو ينظر إليها بإعجاب: «يا للعجب!».

«تلك هي كيتي، أليس كذلك؟»، قال. ثمَّ أمسك بيدها وضغط عليها.

«كم كبرتِ!»، صاح. لقد كان ينظر إليها كما لو أنَّه لم يكن ينظر إليها هي نفسها بل إلى ماضيه الخاصّ.

«أنتِ لا تذكرينني؟»، أضاف يقول.

«تشنجاجوك!»، صاحت وهي تستذكر ذكرى طفوليَّة ما.

«لكنَّه السير ريتشارد نورتون الآن»، قالت والدتها وهي تمنحه تربيتة خفيفة فخور على كتفه، واستدارا مبتعدين، لأنَّ السيِّدين كانا سيتناولان العشاء في «هول».

كان سمكاً فاتراً، فكَّرت كيتي، فقد كانت الأطباق شبه باردة. فكَّرت في أنَّ الخبز بائت، ومقطَّع إلى مربَّعات صغيرة ضئيلة، وكانت الألوان وبهجة «بريستويتش تيريس» لا تزال في عينيها، في أذنيها. سلَّمت، وهي تنظر في أرجاء المكان، بتفوُّق الأطباق الخزفيَّة والفضيَّة الخاصَّة بالنُّزل، وقد كانت الصحون اليابانيَّة واللوحة مروّعة، غير أنَّ غرفة الطعام هذه بما تحويه من نباتات معرِّشة معلَّقة ولوحاتها الضخمة المتصدِّعة، كانت مظلمة جدّاً. الغرفة في «بريستويتش تيريس» ممتلئة بالنور، ولا يزال صوت الطرق المتوالي يرنُّ في أذنيها. نظرت إلى الخارج نحو الأعشاب الباهتة في الحديقة، وللمرَّة الألف ردَّدت صدى أمنيتها الطفوليَّة بأنَّ الشجرة يتعيَّن عليها أن تستلقي أو تنتصب بدلاً من عدم فعلها لأيٍّ من الأمرين. لم يكن الجوُّ ماطراً تماماً، إنَّما بدا أنَّ نفحات من الشحوب تهبُّ عبر الحديقة، في حين حرَّكت الرياح الأوراق السميكة على أشجار الغار.

«ألم تلحظي الأمر؟»، خاطبتها السيِّدة مالون قائلةً على نحو مفاجئ.

«ماذا يا ماما؟»، سألت كيتي، إذ لم تكن حاضرة الذهن.

«طعم السمكة الغريب»، قالت والدتها.

«لا أعتقد أنَّني لاحظتُ ذلك»، قالت، وتابعت السيِّدة مالون حديثها مع كبير الخدم. لقد تغيَّرت الأطباق، وسيجري إحضار وجبة أخرى. لكنَّ

كيتي لم تكن جائعة. تناولت قضمة من الحلويات الخضراء الَّتي قُدِّمت إليها، ثمَّ انتهى العشاء المتواضع، الـمُسترجع للسيِّدات من بقايا حفل الليلة السابقة، وتبعت والدتها إلى غرفة المعيشة.

كانت الغرفة واسعة للغاية حين كانتا تجلسان بمفردهما، غير أنَّهما لطالما جلستا هناك. بدت اللوحات كأنَّها تنظر إلى الأسفل نحو الكراسي الخالية، في حين بدت الكراسي الخالية تنظر إلى الأعلى نحو اللوحات. بدا السيِّد المسنُّ الَّذي ترأَّس الجامعة منذ مدَّة تتجاوز مئة عام مضى، وقد اختفى في النهار، في حين أنَّه كان يعود حين تُضاء المصابيح. كان الوجه هادئاً، صارماً ومبتسماً، وعلى غرار الطبيب مالون، الَّذي كان يمتلك إطاراً يُحيط باللَّوحة خاصَّته، فإنَّه كان مُعلَّقاً فوق المدفأة أيضاً.

«إنَّه لأمر لطيف أن نحظى بأمسية هادئة بين الحين والآخر»، كانت السيِّدة مالون تقول، «غير أنَّ أسرة فريب...». خمد صوتها حين وضعت نظَّارتها والتقطت صحيفة التايمز. كانت تلك هي لحظة الاسترخاء والنقاهة خاصَّتها بعد يوم من العمل. كتمت تثاؤباً صغيراً وهي تنظر إلى الأعلى والأسفل نحو أعمدة الصحيفة.

«لَكَم كان رجلاً ساحراً!»، علَّقت قائلة على نحو تلقائيٍّ، في حين كانت تنظر إلى صفحة المواليد والوفيات، «يصعب على المرء أن يتوقَّع أنَّه أمريكيٌّ».

استرجعت كيتي أفكارها، وكان تفكيرها في شأن أسرة روبسون، في حين تتحدَّث والدتها عن أسرة فريب.

«وأحببتها هي أيضاً، ألم تكن لطيفة؟»، قالت في عجالة.

«مممم، إنَّ ملابسها مبالغ فيها من وجهة نظري»، قالت السيِّدة مالون على نحو جافٍّ، «وتلك اللكنة-»، تابعت القول وهي تنقل نظرها عبر الصحيفة، «يصعب عليَّ أن أفهمَ ما تقوله في بعض الأحيان».

كانت كيتي صامتة. لقد اختلفتا هنا، على غرار ما كانتا تفعلانه حيال العديد من الأمور.

رفعت السيِّدة مالون نظرها فجأة:

«أجل، تماماً كما كنتُ أقول لبيغي في الصباح»، قالت وهي تضع الصحيفة.

قالت كيتي: «ماذا يا ماما؟».

«هذا الرجل -في المقالة الرئيسة»، قالت السيِّدة مالون، ثمَّ لمستها بإصبعها.

قرأت، «على الرَّغم من امتلاكنا لأفضل اللحوم، والأسماك والطيور في العالم، إلَّا أنَّنا لا نستطيع الانتفاع بها، لكوننا لا نمتلك أيّاً منها كي نطبخه - هذا ما كنتُ أقوله لبيغي في الصباح». أطلقت تنهيدة قصيرة وسريعة. دائماً ما يسير أمر ما على نحو مغلوط حين يرغب المرء في إثارة إعجاب الآخرين، كما فعل الأمريكيَّان. لقد كانت السمكة هذه المرَّة. جابت بحثاً عن أغراض التطريز خاصَّتها، في حين التقطت كيتي الصحيفة.

«إنَّها المقالة الرئيسة»، قالت السيِّدة مالون. كان ذاك الرجل يقول الأمر عينه، الَّذي كانت تفكِّر فيه تماماً على الدوام، الأمر الَّذي طمأنها، ومنحها حسّاً من الأمان في عالم بدا أنَّه يتغيَّر نحو الأسوأ في نظرها.

«قبل التطبيق الصارم، الَّذي أصبح الآن عالميّاً للحضور المدرسيِّ...؟»، قرأت كيتي بصوتٍ عالٍ.

«أجل، تلك هي»، قالت السيِّدة مالون وهي تفتح صندوق الخياطة خاصَّتها وتبحث عن مقصِّها.

«...رأى الأطفال مقداراً كبيراً من الطهي وهو الأمر الَّذي منحهم بعض الذوق والمعرفة المحدودة، على الرَّغم من فقره. إنَّهم الآن لا يرون شيئاً ولا يفعلون شيئاً سوى القراءة والكتابة والجمع والحياكة أو الخياطة»، قرأت كيتي بصوتٍ عالٍ.

«أجل، أجل»، قالت السيِّدة مالون. فتحت شريط التطريز الطويل الَّذي كانت تُطرِّز عليه تصميماً منسوخاً من مقبرة في رافينا لطيور تنقر فاكهة. كان هذا لأجل غرفة النوم الاحتياطيَّة.

أضجرت المقالة الرئيسة كيتي بطلاقتها المتعجرفة. بحثت في الصحيفة عن بعض الأخبار القصيرة الَّتي قد تثير اهتمام والدتها. أحبَّت السيِّدة مالون أن يُتحدَّث إليها، أو يُقرأ لها بصوتٍ عالٍ وهي تطرِّز. ليلة بعد ليلة، عمل تطريزها على نسج حديث ما بعد العشاء في تناغم لطيف. تقول أمراً ما وتخيط، وتنظر إلى التصميم، وتختار خيطاً حريريّاً ملوَّناً آخر، ثمَّ تواصل التطريز. كان الطبيب مالون يقرأ الشعر بصوتٍ عالٍ أحياناً -بوب، تينيسون. كانت تودُّ أن تتحدَّث كيتي إليها في هذه الليلة. غير أنَّها راحت تصبح واعية على نحو متزايد بشأن صعوبة هذا الأمر مع كيتي. لماذا؟ نظرت إليها. ما الخطب؟ تساءلت. أطلقت تنهيدة سريعة قصيرة.

قلبت كيتي الصفحات الكبيرة. تُعاني الخراف من الدودة الكبديَّة. يرغب الأتراك في الحريَّة الدينيَّة. كانت تُقام الانتخابات العامَّة.

بدأت القول: «السيِّد غلادستون-».

أضاعت السيِّدة مالون مقصَّها، الأمر الَّذي أزعجها.

«من يمكن أن يكون قد أخذه من جديد؟»، بدأت القول. انخفضت كيتي نحو الأرض للبحث عنه. بحثت السيِّدة مالون عنه في علبة الخياطة خاصَّتها، ثمَّ حشرت يدها في الفجوة بين الوسادة وإطار الكرسيِّ ولم تُخرج المقَصَّ فحسب بل أيضاً سكيناً صغيراً لقطع الورق، مزركشاً بعرق من اللؤلؤ، كان مفقوداً منذ زمن طويل جدّاً. لقد أزعجها هذا الاكتشاف، إذ إنَّه أثبت أنَّ إيلين لم تكن تهزُّ الوسائد بطريقة صحيحة قطُّ.

«ها هو ذا يا كيتي»، قالت، ثمَّ ساد الصمت بينهما. لطالما كان ثمَّة عائق بينهما الآن.

«هل استمتعتِ بحفلكِ لدى أسرة روبسون يا كيتي؟»، سألت وهي تتابع التطريز خاصَّتـها. لم تجب كيتي. قلَّبت في الصحيفة.

قالت: «ثمَّة تجربة، تجربة بالمصباح الضوئيِّ. ضوء عبقريّ»، قرأت، «شوهد ينطلق فجأة ويُطلق شعاعاً عظيماً عبر المياه نحو الصخرة. لقد أُضيء كلُّ شيء كما لو أنَّه كان مُضاءً بنور النهار». توقَّفت قليلاً. لقد رأت الضوء الساطع من السفن على الكرسيِّ في غرفة المعيشة. إلَّا أنَّ الباب فُتح حينها ودخل هيسكوك حاملاً ملاحظة على صينيَّة فضِّيَّة.

أخذتها السيِّدة مالون وقرأتها بصمت.

«لا ردَّ»، قالت. لقد أدركت كيتي من نغمة صوت والدتها أنَّ خطباً ما قد وقع. جلست ممسكة بالملاحظة في يدها، في حين أغلق هيسكوك الباب.

«لقد ماتت روز!»، قالت السيِّدة مالون، «قريبتنا روز».

أُلقيت الملاحظة مفتوحة على ركبتها.

قالت: «إنَّها من إدوارد».

«توفِّيت قريبتنا روز؟»، قالت كيتي. منذ لحظة مضت كانت تفكِّر في شأن ضوء ساطع على صخرة حمراء، أمَّا الآن فإنَّ كلَّ شيء يبدو مكدَّراً. لقد توقَّف الكلام، وعمَّ الصمت. وقفت الدموع في عينَي والدتها.

«تماماً، لـمَّا أصبح الأطفال في حاجة إليها أكثر من أيِّ وقت مضى»، قالت وهي تُدخل الإبرة في قطعة التطريز. بدأت تلفُّها ببطء شديد. طوت كيتي صحيفة التايمز ووضعتها على الطاولة الصغيرة، ببطء، كي لا تُصدر أيَّ قرقعة. لم تكن قد رأت قريبتهم روز سوى مرَّة أو مرَّتين، لذا فقد راودها شعور بالغرابة.

«أحضري لي كتاب المواعيد خاصَّتي»، قالت والدتها أخيراً، ففعلت كيتي ما قالته.

«يتعيَّن علينا أن نؤجِّل عشاءنا يوم الاثنين»، قالت السيِّدة مالون وهي تنظر إلى كتاب المواعيد خاصَّتها.

«وحفل أسرة لاثوم يوم الأربعاء»، تمتمت كيتي وهي تنظر من فوق كتف والدتها.

«لا يمكننا أن نؤجِّل كلَّ شيء»، قالت لها والدتها بحدَّة، ما جعل كيتي تشعر بأنَّها تتلقَّى توبيخاً.

إنَّما، كانت هناك ملاحظات يتعيَّن كتابتها. كتبتها بحسب ما أملته والدتها عليها.

لِمَ هي بالغة الاستعداد لتأجيل كلِّ مواعيدنا؟ فكَّرت السيِّدة مالون وهي تراقبها تكتب. لِمَ لا تستمتع بالخروج معي بعد الآن؟ نظرت عبر الملاحظات التي أحضرتها ابنتها إليها.

«لماذا لا تهتمِّين أكثر بالأمور الَّتي تقع هنا يا كيتي؟»، قالت بانزعاج وهي تدفع الرسائل بعيداً.

«ماما، عزيزتي-»، بدأت كيتي القول، مستنكرةً الجدال المعتاد.

«إنَّما، ما الَّذي ترغبين في فعله؟»، قالت والدتها مصرَّة. كانت قد وضعت قطعة التطريز خاصَّتها، وها هي ذي تجلس منتصبة، وتبدو رائعة إلى حدٍّ ما.

«إنَّني ووالدكِ نرغب في أن تفعلي ما ترغبين في فعله فقط»، تابعت قولها.

«ماما، عزيزتي-»، أعادت كيتي القول.

«يمكنكِ أن تساعدي والدكِ إن كانت مساعدتي أمراً يُضجرك»، قالت السيِّدة مالون، «لقد أخبرني بابا ذاك اليوم أنَّكِ لا تأتين إليه أبداً الآن». علمت كيتي أنَّها كانت تشير إلى تاريخه في الجامعة، إذ إنَّه اقترح عليها أن

تساعده في كتابته. رأت من جديد الحبر يتدفَّق مغطّياً خمسة أجيال من رجال «أكسفورد»-كانت قد لوَّحت بذراعها بحركة غريبة كما لو كانت فرشاة- الأمر الَّذي أدَّى إلى طمس ساعات من خطٍّ والدها البديع، وكان في مقدورها سماعه يقول بسخريته اللطيفة المعتادة، «لم تنوِ الطبيعة أن تكوني عالمة يا عزيزتي»، في حين يضع ورق التنشيف.

«أعلم ذلك»، قالت بنبرة ممتلئة بالشعور بالذنب، «لم أذهب إلى بابا مؤخَّراً. إنَّما، دائماً ما يوجد أمر ما-». تردَّدت في قولها.

قالت السيِّدة مالون: «من الطبيعيِّ أن يكون شخص في مقام والدكِ...». جلست كيتي بصمت. جلستا كلتاهما في صمت. لقد أبغضتا هذه المشاحنات المثيرة للشفقة، أمقتتا هذه المشاهد المتكررة، وعلى الرغم من ذلك فقد بدت أمراً حتميّاً. نهضت كيتي، وأخذت الرسائل الَّتي كتبتها ووضعتها في الصالة.

ما الَّذي تريده؟ سألت السيِّدة مالون نفسها وهي تنظر نحو الصورة دون أن تراها. لَمَّا كنتُ في مثل عمرها... فكَّرت، وابتسمت. لقد تذكَّرت بوضوح بالغ جلوسها في المنزل في أمسية ربيعيَّة مثل هذه في «يوركشاير»، على بعد أميال من أيِّ مكان. كان في مقدورك سماع صوت طرق حوافر حصان على الطريق الذي يبعد أميالاً عدَّة. كان في مقدورها أن تتذكَّر فتحها لنافذة غرفة نومها ونظرها إلى الأسفل نحو الشجيرات المعتمة في الحديقة وصياحها، «هل هذه هي الحياة؟». وكان هناك ثلج في الشتاء. كانت لا تزال تستطيع سماع انزلاق الثلج عن الأشجار في الحديقة. وها هي ذي كيتي، تعيش في «أكسفورد»، في منتصف كلِّ شيء.

عادت كيتي إلى غرفة المعيشة وتثاءبت قليلاً. رفعت يدها إلى وجهها في إيماءة غير واعية تدلُّ على تعبها، الأمر الَّذي أثَّر في والدتها.

قالت: «هل أنتِ متعبة يا كيتي؟ لقد كان يوماً طويلاً، أنتِ تبدين شاحبة».

«وأنتِ أيضاً تبدين متعبة»، قالت كيتي.

بدأت الأجراس تقرع، الواحد تلو الآخر، يعلو صوت أحدها فوق الآخر، عبر الهواء الثقيل الرطب.

«اذهبي إلى سريركِ يا كيتي»، قالت السيِّدة مالون، «اسمعي! إنَّها تدقُّ الساعة العاشرة».

«إنَّما، ألن تأتي أنتِ أيضاً يا ماما؟»، قالت كيتي وهي تقف إلى جانب كرسيِّها.

«لن يعود والدكِ الآن»، قالت السيّدة مالون وهي تعاود ارتداء نظَّارتها.

أدركت كيتي أنَّ محاولة إقناعها ستذهب هباء. كان هذا جزءاً من الطقوس الغامضة المتضمَّنة في حياتَي والديها. انحنت وقبَّلت والدتها قبلة باردة، كانت الإشارة الوحيدة الَّتي منحتها إحداهما للأخرى كدلالة خارجيَّة على عاطفتيهما، وعلى الرَّغم من ذلك، فقد كانتا شديدتَي الولع إحداهما بالأخرى، غير أنَّهما كانتا تتشاجران على الدَّوام.

«تصبحين على خير، ونوماً هانئاً»، قالت السيِّدة مالون.

«لا أحبُّ أن أرى الورد يذبل»، أضافت القول وهي تحيطها بذراعها للمرَّة الأولى منذ زمن طويل.

جلست ساكنة بعد مغادرة كيتي. لقد ماتت روز، فكَّرت -روز الَّتي كانت تماثلها في العمر تقريباً. قرأت الملاحظة من جديد، لقد كانت من إدوارد. وفكَّرت في أنَّ إدوارد واقع في غرام كيتي، لكنَّني لا أعلم إن كنتُ أرغب في أن تتزوَّجه، فكَّرت وهي تلتقط إبرتها. كلَّا، ليس إدوارد... كان هناك اللورد لاسودي الشابُّ... فكَّرت في أنَّ هذا سيكون زواجاً جيِّداً. لا يتعلَّق الأمر برغبتي في أن تكون غنيَّة، ليس الأمر أنَّني مهتمَّة بأمر المنصب، فكَّرت وهي تُدخل الخيط في الإبرة. كلَّا، بل هو يستطيع منحها

ما ترغب فيه... وما هو ذاك؟... قرَّرت أنَّه الاتِّساع، وقد بدأت تخيط، ثمَّ تحوَّلت أفكارها عائدة إلى روز مرَّة أخرى. لقد ماتت روز. روز الَّتي كانت تماثلها في العمر تقريباً. لا بُدَّ أنَّه كان اليوم الَّذي تقدَّم فيه لخطبتها للمرَّة الأولى، فكَّرت، اليوم الذي ذهبنا في نزهة إلى المستنقعات. لقد كان يوماً ربيعيّاً. كانتا تجلسان على العشب. في مقدورها أن ترى روز مرتدية قبَّعة سوداء تعلوها ريشة ديك فوق شعرها الأحمر الساطع. ولا يزال في مقدورها أن تراها تتورَّد وتبدو بالغة الجمال حين أتى إيبل، الأمر الَّذي فاجأهما -إذ كان معسكره وقتها في «سكاربورو»- في ذاك اليوم الَّذي خرجتا فيه للتنزُّه في المستنقعات.

كان المنزل في «أبيركورن تيريس» معتماً جدّاً. عبقت فيه رائحة قويَّة نابعة من أزهار الربيع، لكون أكاليل مكوَّمة فوق بعضها بعضاً على طاولة الصالة الآن على مدى أيَّام عدَّة. تألَّقت الأزهار في العتمة -كانت كلُّ الستائر مسدلة- وفاحت رائحة الصالة بالحدَّة الغراميَّة لمستنبت النباتات الزجاجيِّ. ظلَّت الأزهار تصل، إكليلاً تلو الآخر. كانت هناك زنابق مع أشرطة مذهَّبة عريضة فيها، وأخرى ذوات حناجر مبقَّعة لزجة بسبب العسل، وأزهار توليب وزنابق بيضاء اللون -كانت ثمَّة أزهار من كلِّ الأنواع، بعضها ذوات بتلات سميكة كالمخمل، وأخرى شفَّافة، رقيقة كالورق، غير أنَّها جميعها كانت بيضاء اللَّون، وجميعها مكوَّمة إلى بعضها بعضاً، ورؤوسها مرصوفة إلى بعضها بعضاً، في أشكال دوائر، وأشكال بيضويَّة، وفي أشكال صلبان، إلى الحدِّ الَّذي كانت معه تكاد تبدو أزهاراً. كانت ثمَّة بطاقات ذوات حوافّ سود مرفقة معها، «مع تعاطفنا العميق من الرائد، والسيِّدة براند»، «مع الحبِّ والتعاطف من الجنرال والسيِّدة إيلكين»، «لأجل روز العزيزة، من سوزان». كانت كلُّ بطاقة تحمل بضع كلمات مكتوبة عليها.

رنَّ الجرس، وظهر صبيٌّ مرسال، يحمل المزيد من الزنابق حتَّى الآن مع وجود عربة الموتى عند الباب. رفع قبَّعته حين وقف في الصالة، لأنَّ الرجال كانوا يترنَّحون نزولاً على الدرج وهم يحملون النعش. تقدَّمت روز الَّتي كانت تتَّشح بالسواد على نحو كامل، مدفوعة من قِبل مربِّيتها، وألقت طاقتها الصغيرة من أزهار البنفسج على النعش. غير أنَّها انزلقت عنه حين تأرجح على الدرجات اللامعة بنور الشمس فوق أكتاف رجال أسرة وايتليز المائلة. مشى أفراد الأسرة في أعقابه.

لقد كان يوماً متذبذباً، مع الظلال العابرة وأشعَّة الشمس الساطعة المندفعة. بدأت الجنازة بوتيرة توازي سرعة المشي. لاحظت ديليا، الَّتي كانت تركب في العربة الثانية مع ميلي وإدوارد، أنَّ المنازل في الجهة المقابلة قد أُسدلت الستائر فيها دلالة على التعاطف، غير أنَّ خادماً كان يسترق النظر، كما لاحظت أيضاً أنَّ الآخرين لم يروها، كما يبدو، لقد كانوا يفكِّرون في شأن والدتهم. تسارعت الوتيرة مع وصولهم إلى الطريق العامِّ، لكون الطريق نحو المقبرة كان طويلاً. لاحظت عبر انفراجة في الستارة أنَّ الكلاب كانت تلعب، وكان هناك متسوّل يغنِّي، ورجال يرفعون قبَّعاتهم بالتزامن مع مرور عربة الموتى. إنَّما، بحلول الوقت الَّذي مرَّت عربتهم فيه، كانوا قد عاودوا اعتمار قبَّعاتهم. سار الرجال بخفَّة ودون اكتراث على طول الرصيف. كانت المحالُّ تبدو مبهجة بالفعل بالملابس الربيعيَّة، وقد توقَّفت النساء قليلاً ينظرنَ إلى الواجهات. لكن، يتعيَّن عليهم ألَّا يرتدوا أيَّ ملابسَ أخرى سوى الملابس السود طيلة الصيف، فكَّرت ديليا وهي تنظر إلى بنطال إدوارد ذي اللون الأسود الفاحم.

الأحرى، كادوا يتحدَّثون، وإن فعلوا، فقد كان الأمر يقتصر على جمل رسميَّة قصيرة، كما لو أنَّهم يضطلعون بدورهم في المراسم بالفعل. لقد تغيَّرت علاقاتهم بطريقة ما. كانوا أكثر تفهُّماً لمشاعر الآخرين، وأكثر اهتماماً

أيضاً، كما لو أنَّ وفاة والدتهم قد ألقت بالمسؤوليَّة عليهم. غير أنَّ الآخرين عرفوا كيف يتصرَّفون، فكانت هي الوحيدة الَّتي يتعيَّن عليها أن تبذل جهداً. بقيت في الخارج، وكذلك فعل والدها. فكَّرت، وحين انفجر مارتن ضاحكاً على الشاي، ثمَّ توقَّف وبدا كأنَّه يشعر بالذنب، راودها شعور بأنَّ هذا ما كان سيفعله بابا، وهذا ما يتعيَّن عليَّ أنا فعله لو كنَّا صادقين.

ألقت نظرة إلى خارج النافذة من جديد. رفع رجل آخر قبَّعته -رجل طويل القامة، رجل يرتدي معطفاً رسمياً، غير أنَّها لن تسمح لنفسها بالتفكير في شأن السيِّد بانريل إلى أن تنتهي الجنازة.

وصلوا إلى المقبرة أخيراً. كانت تشعر بالارتياح من جرَّاء وجود شعور رصين يغلب عليها، في حين اتَّخذت مكانها في المجموعة الصغيرة خلف النعش، ومشت متَّجهة نحو الكنيسة. وقف الناس على كلا جانبَي الكنيسة، وشعرت بأعينهم عليها، ثمَّ بدأت الطقوس الكنسيَّة وقد قرأها رجل دين من أبناء عمومتهم. نُطقت الكلمات الأولى مفعمة باندفاعة من الجمال الاستثنائيِّ. لاحظت ديليا، الَّتي كانت تقف خلف والدها، مقدار ما أعدَّ نفسه وفرد كتفيه.

«أنا القيامة والحياة».

لقد ملأتها الكلمات الـمَقولة بالمجد، على الرَّغم من كونها كانت تشعر بالكبت طيلة هذه الأيَّام في المنزل شبه المضاء، الَّذي كان يعبق برائحة الأزهار. كان في مقدورها الشعور بهذا على نحو حقيقيٍّ، وكان هذا أمراً قالته لنفسها. إنَّما حينها، بينما تابع ابن عمِّها جيمس القراءة، فاتها أمرٌ ما. لقد تشوَّش المعنى. لم تستطع أن تفهم سببه. ثمَّ أتت اندفاعة أخرى من الجمال المألوف في منتصف الجدال. «ونتلاشى فجأةً كما العشب، يكون أخضرَ في الصباح، ويكبر، غير أنَّه يُجزُّ في المساء، جافّاً وذابلاً». كان في مقدورها استشعار الجمال في هذا القول. كان مثل الموسيقا مرَّة أخرى، إنَّما

بدا أنَّ ابن العمِّ جيمس يستعجل، كما لو أنَّه لم يكن يؤمن تماماً بما كان يقوله. بدا كما لو أنَّه كان ينتقل من المعلوم إلى المجهول، من أمر ما كان يؤمن به إلى آخر يفتقر إلى الإيمان به، حتَّى صوته تغيَّر. كان يبدو نظيفاً، بدا منشَّى ومكويّاً مثل أرديته. لكن، ما الَّذي يعنيه بالأمور الَّتي قالها؟ تخلَّت عن التفكير. إمَّا أن يفهمَ المرء، وإمَّا ألَّا يفهمَ، فكَّرت. جال ذهنها.

لكنَّني لن أفكِّر فيه، فكَّرت وهي ترى رجلاً طويلاً وقف إلى جانبها على منصَّة ورفع قبَّعته، إلى أن انتهى كلُّ شيء. ثبَّتت نظرها على والدها. رأته يُربِّت على عينيه بمنديل جيب كبير أبيض اللَّون ثمَّ يعاود وضعه في جيبه، ثمَّ سحبه وربَّت على عينيه من جديد. ثمَّ توقَّف الصوت، فوضع المنديل أخيراً في جيبه، وأعادوا جميعاً تشكيل أنفسهم مجدَّداً، مجموعة الأسرة الصغيرة خلف النعش، ونهض الأشخاص الَّذين يتَّشحون بالسواد، ويجلسون على كلا الطرفين من جديد، وراقبوهم وسمحوا لهم بالذهاب أوّلاً ثمَّ تبعوهم.

كان من المريح الشعور بالهواء الرطب الناعم وهو يهبُّ على وجهها مجدَّداً عبقاً برائحة أوراق الشجر. غير أنَّها قد خرجت مرَّة أخرى من المكان المغلق، فبدأت تُلاحظ الأشياء. لاحظت كيف كانت أحصنة الجنازة السود تخدش الأرض، فكانت تكشط أجزاء صغيرة من حوافرها على الحصى الصُّفر. تذكَّرت أنَّها قد سمعت قبلاً أنَّ أحصنة الجنازة تأتي من بلجيكا، وأنَّها كانت شرسة للغاية. فكَّرت في أنَّها تبدو شرسة بالفعل، وكانت أعناقها السود منقَّطة بالزبَد -لكنَّها عادت بتفكيرها. انطلقوا منتشرين فرادى وأزواجاً على طول الطريق إلى أن وصلوا إلى كومة جديدة من التراب الأصفر، مكوَّمة إلى جانب حفرة، وبدأت تلاحظ هناك كيف وقف حفَّارو القبور على مسافة بعيدة قليلاً، أقرب إلى أن يكونوا واقفين خلفهم، ممسكين بمجارفهم.

كانت ثمَّة وقفة قصيرة. تواصل قدوم الناس واتِّخاذهم لمواقعهم، بعضهم في أماكن منخفضة قليلاً، وآخرون في أماكن أعلى قليلاً. لاحظت المرأة السمينة ذات المظهر الرثّ، الَّتي كانت تطوف على الأطراف، وحاولت أن تفكِّر فيما إذا كانت خادمة قديمة، غير أنَّها لم تستطع تذكُّر اسمها. وقف عمُّها ديغبي، شقيق والدها، قبالتها تماماً، ممسكاً بقبَّعته الرسميَّة بين يديه، كما لو أنَّها إناء مقدَّس، ممثِّلاً صورة اللياقة الجنائزيَّة. كانت بعض النسوة يبكينَ، لكن ليس الرجال، إذ كانت للرجال وضعيَّة معيَّنة، وللنسوة وضعيَّة أخرى، كما لاحظت. ثمَّ بدأ كلُّ شيء من جديد. هبَّت نفحة رائعة من الموسيقا عبرهم -«الإنسان المولود من امرأة»: لقد جدَّدت المراسم نفسها، فتشكَّلوا في هيئة مجموعات من جديد، متَّحدين. تقدَّم أفراد الأسرة نحو القبر أكثر بقليل، وثبَّتوا أنظارهم على النعش الَّذي استقرَّ هناك على الأرض كي يُدفن إلى الأبد، بسطحه الـمُلمَّع وقبضاته النحاسيَّة. بدا أنَّه جديد أكثر ممَّا ينبغي كي يُدفن إلى الأبد. حدَّقت إلى الأسفل نحو القبر. هناك تستلقي والدتها، في ذاك النعش -المرأة الَّتي أحبَّت وكرهت على حدٍّ سواء. زاغت عيناها. كانت خائفة من احتمال أن تُصاب بالإغماء، لكن يتعيَّن عليها أن تنظرَ، يتعيَّن عليها أن تشعرَ، إذ كانت هذه هي الفرصة الأخيرة الَّتي خلَّفتها لها. أُهيل التراب على النعش، وسقطت ثلاث حصوات على السطح اللامع الصلب، ولَمَّا سقطت، تملَّكها شعور بأمر أبديٍّ، باختلاط الحياة مع الموت، بتحوُّل الموت إلى حياة. لأنَّها سمعت زقزقة طيور الدوريِّ تتسارع شيئاً فشيئاً وهي تنظر، سمعت وقع عجلات من مسافة بعيدة، وصوتها يعلو شيئاً فشيئاً، لقد أصبحت الحياة أقرب أكثر فأكثر...

قال الصوت: «إنَّنا نشكرك جزيل الشكر لأنَّكَ أسعدتنا بتحرير أختنا من بؤس هذا العالم الآثم-».

يا لها من كذبة! صاحت في نفسها. يا لها من كذبة لعينة! لقد سلبها الشعور الوحيد الصادق، لقد أفسد عليها لحظة الفهم الوحيدة.

رفعت نظرها فرأت إليانور وموريس جنباً إلى جنب، كان وجهاهما ضبابيين، وأنفاهما أحمرَي اللون، وكانت الدموع تجري على وجهيهما. أمَّا بالنسبة إلى والدها فقد كان متصلِّباً للغاية، وجامداً للغاية، إلى الحدِّ الَّذي راودته معه رغبة تشنجيَّة في الانفجار بالضحك بصوتٍ عالٍ. فكَّرت، لا يمكن لأحد أن يشعرَ على هذا النحو. إنَّه يُبالغ في الأمر. إنَّ أيّاً منَّا لا يشعر بأيٍّ شيء على الإطلاق، فكَّرت: إنَّنا جميعاً نتظاهر.

ثمَّ، كانت ثمَّة حركة عامَّة، فلقد انتهت محاولة التركيز. تحرَّك الناس سالكين هذا الاتِّجاه أو ذاك، ولم تكن ثمَّة أيُّ محاولة لتشكيل موكب. التقت مجموعات صغيرة ببعضها بعضاً، وصافح الناس بعضهم بعضاً خلسةً، إلى حدٍّ ما، بين القبور، وابتسموا حتَّى.

«كم لطيف منكَ أن تأتي!»، قال إدوارد وهو يصافح السير جيمس غراهام العجوز، الَّذي ربَّت على كتفه تربيتةً خفيفة. هل يتعيَّن عليها هي أيضاً أن تذهب وتشكره؟ لقد جعلت القبور من هذا أمراً صعباً. تحوَّلت الجنازة إلى حفل صباحيٍّ مكبوح ومكتنف بين القبور. تردَّدت -لم تعلم ما الَّذي عليها فعله تالياً. كان والدها قد مضى في طريقه. نظرت إلى الخلف، فكان حفَّارو القبور قد مضوا قُدماً، يكوّمون الأكاليل واحداً فوق الآخر بعناية، وقد انضمَّت إليهم المرأة الَّتي كانت تطوف، وكانت تنحني لتقرأ الأسماء على البطاقات. لقد انتهت المراسم. كان المطر يهطل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٨٩١

هبَّت رياح الخريف في إنكلترا، ونزعت أوراق الأشجار، وبدت الأوراق الَّتي سقطت أسفل الأشجار كريشة في مهبِّ الريح. كانت الأوراق المتساقطة منقَّطة باللونين الأحمر والأصفر، أمَّا الأوراق الَّتي تطايرت في الهواء، فتمايلت مع تموُّجات الريح قبل أن تستقرَّ في مكان ما. في المدن بدت الرياح في شكل هبَّات قويَّة عند المنعطفات، فأوقعت قبَّعة أحدهم هنا، ورفعت مئزر إحداهنَّ فوق رأسها هناك. وتطايرت الأوراق النقديَّة بخفَّة مع دوران الرياح. كانت الشوارع مزدحمة. وعند المقاعد الموحلة للمكاتب القريبة من كنيسة «القدِّيس بولس»، توقَّف الموظَّفون ممسكين بأقلامهم وأوراقهم المسطَّرة، من الصعب العمل بعد الإجازة. عمد كلٌّ من مارغيت وإيستبورن وبرايتون إلى طلاء المقاعد باللون البرونزيِّ ودباغة جلدها. كانت عصافير الدوريّ والزرازير تزقزق بأصوات صاخبة وغير متَّسقة وهي تطير حول حافَّة جزيرة «سانت مارتن»، وابيضَّت التماثيل المصقولة الممسكة بصولجانات أو لفافات أوراق، المنتصبة في ميدان البرلمان. لَمَّا هبَّت الرياح خلف عربة نقل المسافرين من وإلى السفينة، اضطربت المياه في القناة، فوقعت عناقيد العنب المحمَّلة على العربة في مياه قناة «بروفنس»، وانتشرت في البحر، إلى درجة أنَّ صيَّاد السمك المستلقي على ظهره في قاربه، في البحر الأبيض المتوسِّط، تقلَّب وانتزع حبلاً ليلتقط العنب.

إنَّما، في شمالي إنكلترا، كان الطقس بارداً. كانت كيتي، وهي الليدي لاسويد، تجلس في الشرفة الواسعة إلى جانب زوجها وكلبه من النوع «الإسبانييل»، جذبت رداءها لتحيط به كتفَيها. كانت تنظر إلى أعلى التلِّ،

حيث النُّصب التذكاريُّ ذو الشكل المخروطيِّ يقف منتصباً، ذاك الَّذي نحته الإيرل العجوز، وقد أصبح النُّصب علامة تستدلُّ بها السفن وهي في عرض البحر. كان الضباب يغطِّي الغابة. وهنا في الشرفة المفتوحة، كانت التماثيل الحجريَّة لسيِّدات يحملْنَ جراراً مملوءة بأزهار قرمزيَّة. انساب دخان أزرق اللَّون من نبتة الأضاليا الَّتي حُرقَتْ في أحواض طويلة تمتدُّ حتَّى النهر. «إنَّهم يحرقون الأعشاب الضارَّة»، قالت بصوت مسموع، ثمَّ سمعتْ نقراً على النافذة؛ لقد تعثَّر ابنها الصغير، الَّذي كان يرتدي رداءً ورديَّ اللَّون، ويمسك حصانه المرقَّط.

في «ديفونشاير»، حيث تحافظ التلال المستديرة الحُمر والوديان المنحدرة على هواء البحر، تبقى أوراق الأشجار متراصَّة بكثافة على الأشجار، «بكثافة شديدة»، قال هيو جيبس حول مائدة الفطور، «بكثافة شديدة تغري باقتناصها»، ثمَّ تركته زوجته ميلي ليذهبَ إلى اجتماعه. سارت ميلي على طول الرصيف الـمُعتَنى به، وهي تحمل سلَّتها على ذراعها، وتتأرجح في مشيتها كما تفعل أيُّ سيِّدة تحمل طفلها. كانت ثمار الكمَّثرى الصُّفر الضخمة تتدلَّى تحت أوراقها، وتبدو معلَّقة على سور البستان. انجذبت الدبابير إليها، وشقَّت قشرتها. توقَّفت ميلي واضعةً يدها على الفاكهة. بوم، بوم، بوم، سمعتْ صوت قرقعة بعيداً في الغابة. كان أحدهم يصطاد بالبندقيَّة.

ارتفع الدخان مكوِّناً حُجُباً فوق قمم المدن الجامعيَّة وقبابها. وسُدَّت فتحة المزراب المثبَّت إلى الجدران الَّتي تقشَّرت وأصبحت صفراء اللَّون. لَمَّا كان إدوارد يقوم بنزهته المنعشة الصحِّيَّة، اشتمَّ رائحةً، وسمع صوتاً، ورأى لوناً، فأوحى إليه ذلك بمدى تعقيد الانطباعات؛ كان يفكِّر، من الممكن جمع أشعار بعض الشعراء على نحوٍ كافٍ، لكن لا بدَّ من وجود سطر باللُّغة اليونانيَّة أو اللاتينيَّة، وهذا يلخِّص التباين، عندها مرَّت به السيِّدة لاثوم، فحيَّاها رافعاً قبَّعته.

في قصر العدل، كانت أوراق الأشجار ملقاة على البلاط الصخريِّ جافَّة وذابلة. وبينما كان موريس يجرُّ قدميه على البلاط متَّجهاً إلى مكتبه، تذكَّر طفولته. سارت قدماه -اللتان لم تدوسا بعد حدائق «كينسينغتون»- دون وعي منه جانبيّاً على طول الميازيب. كان الأطفال يدوسون الأصداف وهم يركضون، ويجرفون بحلقاتهم الَّتي يحملونها حفنة من الأصداف، ويندفعون عبر الضباب في الأزقَّة.

في الريف، كانت الرياح المندفعة إلى أعالي التلال تهبُّ مشكِّلة حلقات واسعة معتمة لا تلبث أن تتضاءلَ هذه الحلقات المعتمة ليعودَ إليها لونها الأخضر ثانيةً. إلَّا أنَّ الغيوم تبدو ضيِّقة في شوارع لندن. خيَّم ضباب كثيف في أقصى الشرق بمحاذاة النهر، فتعالت أصوات الرجال بالصياح، «أيُّ قطعة معدنيَّة للبيع، أيُّ قطعة معدنيَّة»، وتبتعد الأصوات بابتعاد أصحابها، حتَّى إذا ما وصلوا إلى الضواحي، تلاشَتْ أصواتهم. بعثرت الرياح الدخانَ ليتطاير تارة نحو الشارع وتارة نحو نوافذ غرف المعيشة الَّتي تُفتَح في الصباح؛ ففي كلِّ حديقة منزل خلفيِّة، في الزاوية الَّتي يمتدُّ فيها نبات اللبلاب، يوجد حائط تحتمي خلفه نبتة إبرة الراعي، وتتكدَّس أوراقها في الأعلى. كانت ألسنة اللهب المندفعة تلتهم أوراق النبتة، كأنَّه إعلان عن قدوم شهر أكتوبر، شهر مولد العام الجديد.

كانت إليانور تجلس إلى طاولة الكتابة الخاصَّة بها وتمسك بالقلم. الأمر غريب جدّاً، قالت لنفسها، وهي تضع طرف قلمها على رقعة من نبات القَبَب، بالية بفعل الحبر، ملتصقة على ظهر حصان البحر الخاصِّ بمارتن، كان يجب لكلمة «ذلك» أن تُمحى بعد كلِّ هذي السنوات، وقد يكون هذا الشيء الصلب هو ما أبقى على كلِّ تلك الكلمات. إن رمته إليانور فسيبقى موجوداً في مكان ما. لكنَّها لم تتخلَّص منه لأنَّه جزء من مجموعة أشياء أُخَر؛ مثل ورق النشَّاف الخاصِّ بأمِّها، الَّذي رسمت إليانور عليه نقطة تحيط بها خطوط الحبر. ثمَّ رفعت بصرها لترى الدُّخان، كانوا يحرقون

الأعشاب الضارَّة في الحديقة الخلفيَّة، وكان الدُّخان يتدفَّق، تفوح منه رائحة حموضة لاذعة، ورأت الأوراق تتساقط. سمعت من الشارع صوت عزفٍ على أرغن يدويٍّ، فهمهمت بالفرنسيَّة، بالتزامن مع العزف: «فوق جسر أفينون». كيف حدث هذا؟ إنَّها أغنية بيبي الَّتي اعتادت أن تغنِّيها وهي تمسح أذنَيها بقطعة قماش لزجة.

همهمت «رون، رون، رون، إت بلون، بلون، بلون». ثمَّ توقَّف اللَّحن؛ لقد ابتعد الأرغن. عادت إلى عملها وغمست قلمها في الحبر.

«ثلاثة أضعاف الثمانية»، غمغمت، «يساوي أربعاً وعشرين»، قالت بلا تردُّد، وكتبت الرقم في أسفل الورقة، ثمَّ جمعت الدفترَين الصغيرَين الأحمر والأزرق معاً وأخذتهما إلى مكتب والدها.

«ها هي ذي مدبِّرة المنزل»، قال بمرح حين دخول إليانور الحجرة. كان يجلس على أريكته الجلديَّة يقرأ إشعاراً ماليّاً ورديَّ اللَّون.

«ها هي ذي مدبِّرة المنزل»، كرَّر كلامه، وهو يرمقها من فوق نظَّارته الطبيَّة. قالت لنفسها إنَّه يزداد بطأً أكثر فأكثر، وكانت هي في عجلة من أمرها. غير أنَّهما كانا ينسجمان على نحوٍ جيِّد جدّاً؛ فقد أصبحا أقرب إلى كونهما أخاً وأختاً. وضع الإشعار واتَّجه إلى مكتبه.

آمل أن تسرع يا بابا، قالت لنفسها وهي تراقب طريقته المتروِّية في فتح قفل الدرج الَّذي يحتفظ فيه بدفتر شيكَّاته، وإلَّا تأخَّرتُ.

«الحليب مرتفع الثمن جدّاً»، قال لها وهو ينقر على البقرة الذهبيَّة المرسومة على دفتر شيكَّاته، فقالت: «نعم، إنَّه البيض في شهر أكتوبر».

بينما كان يكتب الشيك بتأنٍّ مبالغٍ فيه، لاحت منها التفاتة سريعة في أنحاء الحجرة. بدت غرفته كالمكتب، بكلِّ ما فيها من ملفَّات تملؤها الأوراق وصناديق تزخر بالسندات، عدا القطع الصغيرة الممغنطة الَّتي في شكل خيول، والمعلَّقة فوق الموقد، إضافة إلى الكأس الفضِّيَّة الَّتي ربحها في

لعبة (البولو). تساءلت، أتراه يجلس هناك طوال الصباح يقرأ الصحف الماليَّة ويفكِّر في استثماراته؟ ثمَّ انتهى من الكتابة.

«ولـمَن ستدفعين الآن؟»، سألها وقد علت وجهه ابتسامته الصغيرة الماكرة.

قالتْ: «للجنة ما».

«للجنة»، كرَّر كلامها وهو يخطُّ توقيعه الرصين الضخم، «حسناً، ادعمي نفسك، ولا تكتفي بما حقَّقتِهِ حتَّى الآن يا نيل»، وأضاف رقماً إلى دفتر حساباته.

«أبي، هل ستأتي معي عصر اليوم؟»، قالت بعد أن أنهى كتابة الرقم.

«إنَّها قضيَّة موريس كما تعلم، في المحكمة».

هزَّ رأسه نافياً.

«لا، يجب أن أكون في المدينة عند الساعة الثالثة»، قال.

«إذاً، أراك وقت الغداء»، قالت، ولوَّحتْ له مودِّعةً. رفع يده، لكنَّه لم يحرِّكها؛ كان لديه ما يقوله، لكنَّه تردَّد. لاحظتْ أنَّ وجهه ازداد جدِّيَّة؛ فقد ظهرتْ أوردة صغيرة على أنفه، واحمرَّ وأصبح أكثر حدَّةً.

قال بإسهاب: «كنت أفكِّر في القيام بزيارة سريعة لأسرة ديغبي». ثمَّ نهض واتَّجه نحو النافذة. ألقى نظرة إلى الحديقة الخلفيَّة، فتململتْ إليانور.

«كيف تتساقط الأوراق!»، علَّق.

«نعم»، قالت، «إنَّهم يحرقون الأعشاب الضارَّة».

وقف لوهلة ينظر إلى الدُّخان.

«يحرقون الأعشاب الضارَّة»، كرَّر ما قالته، ثمَّ صمتَ.

«إنَّه عيد ميلاد ماغي»، أخيراً أعلن، «أفكِّر في أخذها لشراء هديَّة صغيرة لها»، وصمتَ. علمت إليانور مقصده بأنَّه يرغب في أن تشتريَ هي هديَّتها.

«ماذا تريد أن تحضر لها؟»، سألته إليانور.

«حسناً»، قال بغموض، «كما تعلمين، شيئاً جميلاً، شيئاً ترتديه».

فكَّرت إليانور، إنَّ ماغي، ابنة عمِّها الصغيرة، أليست في السابعة أو الثامنة من عمرها؟

«عقداً؟ دبُوسَ زينة؟ شيئاً كهذا؟»، سألته بسرعة.

«نعم، شيئاً من هذا القبيل»، قال والدها، واستقرَّ على أريكته من جديد. «شيئاً جميلاً، شيئاً يمكنها ارتداؤه، تعرفين». وفتح الصحيفة وأومأ إليها موافقاً. «أشكركِ يا عزيزتي»، قال وهي تغادر الحجرة.

على طاولة الصالة، بين طبق فضِّيٍّ مثقل ببطاقات الدعوات -كانت زوايا بعض هذه البطاقات مفتولة نحو الأسفل، بعضها الآخر كان كبير الحجم، وأخرى صغيرة- وقطعة فاخرة بنفسجيَّة اللون -يستخدمها الكولونيل لمسح قبَّعته السوداء العالية الرسميَّة- وُضع مظروفٌ رقيق غريب مكتوب على إحدى زواياه «إنكلترا» بالخطِّ البارز، وبالحروف الكبيرة. نزلتْ إليانور درجات السلَّم مسرعةً، وحين مرورها بذاك المظروف دسَّته في حقيبتها. ثمَّ أسرعتْ مهرولةً بطريقتها المميَّزة إلى أسفل الشرفة الواسعة. وقفتْ عند الزاوية ونظرت بقلق نحو الطريق. ووسط حركة المرور استطاعتْ برفق أن تميِّز عربة ضخمة الشكل، كانت صفراء اللَّون، وبرفق أدركت حافلتها. لوَّحت لها، ثمَّ صعدت إلى الطابق العلويِّ فيها. تنهَّدت بارتياح، وجذبت مئزرها الجلديَّ لتغطِّي ركبتَيها. الآن، كامل المسؤوليَّة تقع على عاتق السائق. استرختْ، واستنشقت نسيم لندن العليل، وابتهجت بسماع صخب لندن الكئيب. تأمَّلت الشارع، واستمتعت بالنظر إلى الجانب الخلفيِّ لسيَّارات الأجرة والشاحنات الصغيرة والعربات، الَّتي كانت تعدو وتتقدَّم على حافلتها. إنَّها تحبُّ العودة، في شهر أكتوبر، إلى حركة الحياة الحافلة بعد انقضاء الصيف. كانت تقيم في «ديفونشاير» مع أسرة جيبس. واتَّضح أنَّ ذلك جيِّدٌ للغاية، كما اعتقدت، وهي تتذكَّر زواج أختها من هيو جيبس،

وترى ميلي مع أطفالها. وهيو -ابتسمتْ- يتجوَّل ممتطياً حصاناً هائلاً أبيضَ، ويزيل الفضلات. إنَّما، هناك العديد من الأشجار والأبقار، والكثير من التلال الصغيرة عوضاً عن تلٍّ واحد كبير، قالت لنفسها. إنَّها لا تحبُّ «ديفونشاير». إنَّها سعيدة بالعودة إلى لندن، إلى الطابق العلويِّ من الحافلة الصفراء، مع حقيبتها المحشوَّة بالأوراق، وببداية كلِّ شيء من جديد في أكتوبر. كانت الحافلة قد غادرت الحيَّ السكنيَّ، لقد تبدَّلت المنازل؛ لقد تحوَّلت إلى دكاكين. هذا عالمها؛ فهنا مجالها. كانت الشوارع مزدحمة، واحتشدت النساء في دخولهنَّ وخروجهنَّ من المحالِّ وهنَّ يحملنَ سلال التسوُّق. في هذا المكان ثمَّة شيءٌ مألوف وإيقاعيٌّ، فكَّرت إليانور، إنَّه يشبه الغربان المنقضَّة على حقلٍ ما، صعوداً وهبوطاً.

وهي أيضاً كانت في طريقها إلى عملها. عدَّلت من وضعيَّة ساعة يدها حول معصمها دون أن تنظر إليها. بعد انتهاء اجتماع اللَّجنة ستذهب إلى دوفوس، وبعد دوفوس ديكسون. ثمَّ ستتناول طعام الغداء، وبعده إلى المحكمة... كرَّرت؛ ثمَّ ستتناول طعام الغداء، وبعده إلى المحكمة في الثانية والنصف. تحرَّكت الحافلة ببطء في طريق «بايسووتر». كانت الشوارع تزداد فقراً أكثر فأكثر مع تقدُّم الحافلة.

ربَّما عليَّ منح الوظيفة لدوفوس، قالت لنفسها -كانت تفكِّر في شارع بيتر، حيث شيِّدتِ المنازل؛ كان الماء يتسرَّب من السقف من جديد، وهناك رائحة كريهة تفوح من مصرف المياه. وهنا توقَّفتِ الحافلة، ونزل منها أشخاص، وصعد فيها آخرون، وتابعت الحافلة طريقها، لكن من الأفضل منح العمل إلى رجل واحد كمساعد لها -قالت لنفسها وهي تنظر إلى النوافذ الضخمة ذوات الزجاج المسطَّح المصقول في واجهة أحد المتاجر الهائلة- عوضاً عن الذهاب إلى إحدى تلك المنشآت الكبيرة. هناك دوماً متاجر صغيرة وأخرى كبيرة جنباً إلى جنب، وهذا أربكها، فكيف تتدبَّر المتاجر الصغيرة رزقها؟ تساءلت. إذا فكَّر دوفوس، بدأتْ تفكِّر -وهنا توقَّفت الحافلة، نظرتْ إلى

الأعلى، ونهضت- «إذا فكَّر دوفوس أنَّ في مقدوره تهديدي»، قالت وهي تهبط درجات الحافلة، «فسيجد أنَّه مخطئ».

مشت بسرعة إلى أعلى المعبر الحجريِّ، إلى السقيفة الحديديَّة المطليَّة بالزنك حيث سينعقد الاجتماع. لقد تأخَّرت، ها هم أولاء قد اجتمعوا. كان أوَّل اجتماع لها بعد الإجازة، فابتسم الجميع لها. حتَّى إنَّ جود أخرج عود أسنانه من فمه؛ وهي علامة على التقدير والمجاملة لها. ها نحن أولاء جميعاً من جديد، قالت لنفسها، وهي تأخذ مكانها وتضع أوراقها على الطاولة.

إنَّما، هي قصدتهم «هم»، دون أن تكون معهم؛ فهي ليست موجودة، إنَّها ليست أيَّ أحد على الإطلاق، لكنَّهم جميعاً موجودون؛ بروكيت، كوفنيل، الآنسة سيمز، رامسدين، الرائد بورتر، والسيِّدة لازينبي. الرائد يعظ في المنظَّمة، والآنسة سيمز (المديرة السابقة للمطحنة) المتواضعة، والسيِّدة لازينبي؛ الَّتي تعرض خدماتها بالكتابة لابن عمِّها السيِّد جون، وقد زجرها جود -صاحب المتجر المستقيل- لأجل ذلك. ابتسمتْ إليانور وهي تجلس على كرسيِّها. كانت ميريام باريش تقرأ الرسائل، لكن لماذا تجوِّعين نفسك؟ تساءلت إليانور وهي تستمع إليها، فهي أنحف من أيِّ وقت مضى.

وبينما كانت الرسائل تُقرأ، نظرتْ إليانور في أرجاء الحجرة. كانت الحجرة قد شهدت حفلاً راقصاً؛ فقد تدلَّت من السقف على نحو متقاطع أكاليل ورقيَّة باللونَين الأحمر والأصفر. ووُضعت على زوايا لوحة أميرة ويلز الملوَّنة حلقات من الورد الأصفر، وعلى صدر الأميرة شريط مائل باللّون الأخضر البحريِّ الضارب إلى الزرقة، وعلى حضنها كلب مكوَّر أصفر اللَّون، وتدلَّى على كتفَيها حبلٌ من حبَّات اللؤلؤ. كان مظهر إليانور يبدو ساكناً وحيادياً، وقد خطر في بالها تعليق غريب للفروق بين الحاضرين؛ فالشيء الَّذي تبجِّله أسرة لازينبي، تسخر منه الآنسة سيمز، وينظر إليه جود عاقداً حاجبَيه وهو يخلِّل أسنانه بالعود. لو أنَّ لديه ابناً، كان قد أخبرها، لأرسله إلى جامعة «فارسيتي». ثمَّ عادت إلى رشدها. استدار الرائد بورتر إليها.

«والآن يا آنسة بارغيتر»، قال، ليغريها بالمشاركة، لأنَّهما كلاهما ينتميان إلى المكانة الاجتماعيَّة نفسها، «لم تعطينا رأيكِ».

استجمعت قوَّتها وأدلت برأيها؛ إذ لديها رأي، رأيٌ واضح جدّاً. تنحنحت وبدأت تتكلَّم.

كان الدُّخان المتصاعد من شارع بيتر قد أصبح كثيفاً بين المنازل المتقاربة من بعضها، وتحوَّل إلى حجاب رماديٍّ رقيق. إنَّما المنازل كانت مرئيَّة بوضوح على الجانبَين. باستثناء منزلَين في منتصف الشارع، كانت كلُّ المنازل متشابهة تماماً؛ تبدو كعُلَب بلون رماديٍّ ضارب إلى الصفرة، في أعلاها خيام من الصفيح. لا شيء على الإطلاق يتحرَّك، إلَّا بعض الأطفال الَّذين يلعبون في الشارع، وقد عملت هرَّتان على تقليب شيء ما في القناة بمخالبهما. بل إنَّ إحدى النساء مالت خارج نافذتها، تبحث بطريقة أو بأخرى، هنا وهناك، وكأنَّها تنقِّب في كلِّ شقٍّ عن شيء يؤكل. كانت عيناها الجَشِعتان والشَّرِهتان، الشبيهتَان بعينَي طائر يبحث عن فريسة، متجهِّمتين وذابلتَين، كأنَّهما لم تجدا ما يُسكت جوعها، ولم يحدث شيء، أيّ شيء على الإطلاق، فظلَّتْ تحدِّق هنا وهناك بنظرتها المتجهِّمة الغبيَّة والناقمة. ثمَّ انعطفت عربة يجرُّها حصان عند الزاوية، راقبتْها تلك السيِّدة. توقَّفت العربة في الطرف المقابل للسيِّدة، أمام المنزلَين اللذين - نظراً لعتبتَيهما الخضراوين، واللافتة الموضوعة على باب كلٍّ منهما؛ الَّتي طُبِعَت عليها زهرة دوَّار الشمس- كانا مختلفَين عن بقيَّة المنازل. خرج من العربة رجل ضئيل الحجم يعتمر قبَّعة صوفيَّة، طرق الرجل الباب. فتحت الباب امرأة اقترب موعد ولادتها، وهزَّت رأسها نافية، ثمَّ نظرت إلى الشارع من أوَّله إلى آخره، وأغلقت الباب بعدها. انتظر الرجل. ووقف الحصان بصبر محنيَّ الرأس، واللجام مرخى. ظهرت امرأة أخرى ذات وجه أبيض عند النافذة، كانت ذقنها متعدِّدة الطيَّات بسبب البدانة، وشفتها السفلى بارزة كأنَّها حافَّة. استندت المرأتان على النافذة جنباً إلى جنب، مائلتين

بجسميهما إلى الخارج، وراقبتا الرجل. كان مقوَّس الساقَين، ويدخِّن. تبادلت المرأتان فيما بينهما تعليقات عليه. في حين كان الرجل يسير ذهاباً وإياباً وكأنَّه ينتظر أحدهم. ثمَّ رمى سيجارته. كانتا تراقبانه. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ هل سيطعم جواده؟ هنا ظهرت سيِّدة طويلة، ترتدي معطفاً وتنُّورة صوفيَّة رماديَّة، وهي تنعطف بسرعة عند الزاوية. استدار الرجل الضئيل وأمسك بقبَّعته تحيَّة للقادمة.

«أعتذر عن التأخير»، هتفت إليانور، وأمسك دوفوس قبَّعته وهو يرسم ابتسامته الودود الَّتي لطالما أسعدتها.

«لا بأس يا آنسة بارغيتر»، قال. كانت دائماً تأمل في ألَّا يشعرَ بأنَّها ربُّ عمل اعتياديّ.

«الآن سنتفحَّصه»، قالت. كانت تكره هذا العمل، لكن يجب أن تعمله.

فتحت السيِّدة تومز الباب، وهي المقيمة في الطابق الأرضيِّ.

يا إلهي! قالت إليانور لنفسها، وقد لاحظت ميل مئزر السيِّدة تومز، ستُرزق بطفل آخر، بعد كلِّ ما قلتُه لها.

تنقَّلا في المنزل الصغير من حجرة إلى أخرى، تبعتهما السيِّدتان تومز وغروف. يوجد شرخ هنا، وبقعة هناك. نقر دوفوس على الجصِّ بمسطرته الَّتي طولها قدم. كان الأسوأ، فكَّرت إليانور -وذلك عندما تركت السيِّدة تومز تتحدَّث- في أنَّه لا يسعها إلَّا الإعجاب بدوفوس؛ كانت لهجته الويلزيَّة هي السبب، إنَّه همجيٌّ ساحر، إنَّه مرن كالأنقليس، هي تعرف هذا، لكن عندما يتحدَّث هكذا، بذاك الصوت الرخيم، الَّذي يذكِّرها بسهول ويلز... إنَّما احتال عليها في كلِّ عمل لهما معاً. هناك فتحة يمكنكِ إدخال إصبعك فيها في الجبس.

«انظر إلى ذلك، يا سيِّد دوفوس، هناك»، قالت، وهي تقوِّس إصبعها وتدسُّه في الفتحة. كان دوفوس يلعق قلمه الرصاص. كانت إليانور تحبُّ

الذهاب معه إلى عالمه، ورؤيته يقيس ألواح الخشب والطوب، كما أحبَّتْ كلماته التقنيَّة الَّتي يطلقها على الأشياء، كلماته البليغة البسيطة.

«الآن سنصعد إلى الطابق العلويِّ»، قالت إليانور. بدا دوفوس لها كذبابة تجاهد لترفع نفسها خارج طبقٍ صغير. من المؤثِّر الانسجام مع الموظَّفين البسطاء كدوفوس؛ قد يرتقي أحدهم يوماً ما ويصبح مثل جود ويرسل ابنه إلى «فارسيتي»، من جهة أخرى قد تسوء حاله لينتهي به المطاف متزوِّجاً ولديه خمسة أطفال؛ لقد رأتْهم إليانور حيث يعيشون في الحجرة الَّتي تقع خلف المتجر، وهم يلعبون بكرات القطن على الأرض، ولطالما تمنَّت أن تُدعى للدخول... ها قد وصلا إلى الطابق العلويِّ حيث تستلقي السيِّدة بوتر العجوز طريحة الفراش. طرقت إليانور الباب، ونادت بصوت مرحٍ عالٍ، «هل يمكننا الدخول؟»

لم يجبها أحد. كانت السيِّدة العجوز صمَّاء تماماً، فدخلا. ها هي ذي، كالعادة، لا تفعل شيئاً على الإطلاق، مستندة إلى زاوية سريرها.

«لقد أحضرتُ السيِّد دوفوس ليلقي نظرة على سقف غرفتك»، صاحت إليانور.

رفعت المرأة العجوز نظرها إلى إليانور، وبدأت تشير بيديها وكأنَّها قرد ضخم أشعث. كانت تنظر إليهما بوحشيَّة، وعلى نحو مريب.

«السقف، سيِّد دوفوس»، قالت إليانور. وأشارت إلى بقعة صفراء على السقف. لم يمضِ على بناء المنزل سوى خمس سنوات فقط، ومع ذلك كلُّ شيء في حاجة إلى إصلاح. دفع دوفوس مصراع النافذة فاتحاً إيَّاها، وانحنى بجسمه لينظر إلى الخارج. تشبَّثت السيِّدة بوتر بيد إليانور، كأنَّها تظنُّ أنَّ أحداً ما سيؤذيها.

«لقد جئنا للنظر إلى سقف غرفتكِ»، كرَّرت إليانور كلامها بصوت عالٍ جدّاً. لكنَّ الكلمات لم تبلغ مسمع السيِّدة بوتر. بدأت السيِّدة العجوز تئنُّ

منتحبةً؛ وانطلقت الكلمات من فمها رشّاً، بصياح نصفه تفجُّع، ونصفه الآخر شتائم. فقط لو أنَّ الربَّ أخذها. كلَّ ليلة، قالت العجوز، لناشدته أن يدعها. لقد مات كلُّ أبنائها.

«حينما أستيقظ في الصباح...»، بدأت كلامها.

«نعم، نعم، سيِّدة بوتر»، حاولت إليانور تهدئتها، لكنَّ يدَي العجوز كانتا تقبضان على إليانور بثبات.

«أرجوه أن يدعني»، تابعت السيِّدة بوتر.

«إنَّها أوراق الأشجار العالقة في قناة الصرف»، قال دوفوس، وهو يُدخِل رأسه ثانيةً.

«والألم»، قالت السيِّدة بوتر وهي تمدُّ ذراعيها؛ كانتا معقودتين ومجعَّدتين كجذور الأشجار المغضَّنة.

«نعم، نعم»، قالت إليانور. «لكن هناك تسرُّب؛ ليست أوراق الأشجار وحدها السبب»، قالت لدوفوس.

أخرج دوفوس رأسه من النافذة مجدَّداً.

«سنحرص على جعلك أكثر ارتياحاً»، صاحت إليانور تكلِّم السيِّدة العجوز. الآن بدت العجوز تتذلَّل وتتملَّق؛ وضغطت بيدها على شفتيها.

أدخل دوفوس رأسه ثانيةً.

«هل اكتشفتَ المشكلة؟»، قالت له إليانور بحدَّة. كان دوفوس يدوِّن شيئاً ما في دفتر جيبه. رغبت إليانور في الذهاب. في أثناء ذلك، كانت السيِّدة بوتر تطلب إليها أن تتحسَّس كتفها، فتحسَّسته. كانت يد العجوز لا تزال متعلِّقة بإليانور. رأت إليانور دواءً على الطاولة؛ كانت ميريام باريش تأتي كلَّ أسبوع لأجل العجوز. لماذا نفعل ذلك؟ سألت نفسها فيما كانت السيِّدة بوتر تتابع كلامها. لماذا نجبرها على البقاء في قيد الحياة؟

تساءلت إليانور وهي تنظر إلى الدواء الموضوع على الطاولة. لم تعد تقوى على الاحتمال؛ فسحبت يدها.

«إلى اللقاء سيِّدة بوتر»، صاحت إليانور، وقد أدركت أنَّ العجوز كانت مخادعة ومعافاة، «سنقوم بإصلاح سقف غرفتكِ»، صاحت، وأغلقت الباب خلفها. سارت السيِّدة غروفز أمام إليانور وهي تتمايل بسبب حملها؛ لتريها المغسلة الموجودة في حجرة غسل الأطباق. تدلَّت خصلة من شعرها الأصفر خلف أذنَيها المتَّسختين. إن كان عليَّ عمل هذا الأمر كلَّ يوم طوال حياتي، قالت إليانور لنفسها، وهي تتبع كلّاً من السيِّدة غروفز ودوفوس نزولاً إلى حجرة غسل الأطباق، لأصبحتُ شديدة الهزال مثل ميريام، وفي رقبتي عقدٌ من الخرز... وما الفائدة من هذا؟ فكَّرتْ وهي تنحني لتشتمَّ رائحة المغسلة في حجرة غسل الأطباق.

بعد أن انتهيا من معاينة المنزل، وقفت إليانور مقابل دوفوس، ورائحة المصارف الصحيَّة لا تزال عالقة في أنفها، وقالت له: «حسناً دوفوس»، «ما الَّذي تقترح فعله لحلِّ المشكلة؟»، سألته.

ازداد غضبها؛ لأنَّ الذنب الأكبر يقع على عاتقه. لقد خدعها. لاحظت - وهي تقف مقابله- مدى سوء تغذية جسده الضئيل، والطريقة الَّتي رُبِطَتْ فيها ربطة عنقه المائلة حول ياقته، فشعرتْ بعدم الارتياح.

تغيَّر لون دوفوس، وتلوَّى أمامها، وشعرت إليانور أنَّها ستفقد أعصابها.

«إن لم يكن في وسعك إنجاز العمل على نحوٍ جيِّد»، قالتْ له باقتضاب، «فسأوظِّف شخصاً آخرَ». قلَّدتْ نبرة ابنة الكولونيل في أثناء كلامها معه؛ وهي نبرة الطبقة المتوسِّطة الراقية الَّتي تمقتها. رأتْهُ يتحوَّل إلى شخص كئيب واجم أمام عينَيها. لكنَّها ذكَّرته بذلك عمداً.

«عليك أن تخجل من نفسك»، قالتْ له. رأتْ مدى تأثُّره. «يوماً سعيداً»، قالت بإيجاز.

أدركت إليانور أنَّ الابتسامة المتملِّقة لن تنفعَ معها ثانيةً. لَمَّا ودَّعتها السيِّدة تومز، كانت إليانور تقول لنفسها؛ إمَّا أن تهدِّدهم وإمَّا أن يستهينوا بك، ومرَّة ثانية انتبهتْ إلى مَيلان مئزر السيِّدة. في الخارج تجمهر عدد من الأطفال يحيطون بمهر دوفوس، ويحدِّقون إليه، دون أن يجرؤ أحدهم على التربيت على خطمه، لاحظت إليانور ذلك.

كانت إليانور قد تأخَّرتْ. ألقت نظرة على لوحة القرميد المرسوم عليها زهرة دوَّار الشمس. كانت هذه الزهرة رمزاً لشعورها كفتاة؛ تسلِّي بها نفسها عندما تكون واجمة. أرادتْ لهذا الرمز أن يشيرَ إلى الزهور، إلى حقول من الزهور وسط لندن، لكنَّه رمز متصدِّع الآن. وانطلقتْ بهرولتها المتمهِّلة المعتادة. بدا أنَّ حركتها المعتادة هذه بدَّدتْ الانزعاج الَّذي غلَّفها؛ من الصدمة الَّتي خلَّفها أثر قبضة يد المرأة العجوز الَّتي لا تزال تشعر بها على كتفها. ركضتْ، وتفادتْ الاصطدام بأحد؛ فقد تقاطع طريقها مع النساء اللاتي كنَّ يتسوَّقن. اندفعتْ إلى الطريق وهي تلوِّح بيدها بين العربات والجياد. رآها جابي النقود في إحدى الحافلات، فأحاطها بذراعه وجذبها رافعاً إيَّاها إلى داخل الحافلة. استطاعت اللحاق بالحافلة.

داست على أصابع قدم رجل كان يجلس في الزاوية، وارتمتْ جالسةً بين امرأتين أكبر سنّاً منها. لهثتْ قليلاً، وتساقطت خصلات شعرها، واحمرَّ وجهها من أثر الجري. لاحت منها التفاتة إلى الركَّاب. كانوا جميعاً يبدون مستقرِّين، ويكبرونها سنّاً، كأنَّهم اتَّخذوا قراراتهم بأنفسهم طوال حيواتهم. لسببٍ ما كانت دوماً تشعر أنَّها أصغر شخص يستقلُّ الحافلة، لكن اليوم، بحسبان أنَّها فازت في شجارها مع جود، شعرت أنَّها أصبحت راشدة. ومع تقدُّم الحافلة على طول طريق بايسووتر، لاح أمام عينَيها الشريط الرماديُّ الَّذي ترسمه المنازل، متذبذباً صعوداً وهبوطاً، وتلاشتْ المتاجر أمام ناظرَيها لتحلَّ المنازل محلَّها. كانت المنازل متباينة؛ بين الكبيرة والصغيرة، والمشتركة والخاصَّة. ثمَّ ظهرت الكنيسة وقد انتصب برجها المدبَّب

المزخرف. تحت البرج العديد من الأنابيب والأسلاك والمصارف الصحيَّة... بدأت شفتاها تتحرَّكان؛ فقد كانت تكلِّم نفسها. يوجد دوماً منزل مشترك ومكتبة وكنيسة، كانتْ تهمس متذمِّرة.

كان الرجل الَّذي داست على أصابع قدمه يفوقها حجماً، من النمط المعهود للرجال؛ كان يحمل حقيبة، ويبدو عطوفاً، ويظهر عليه أنَّه تمتَّع بتغذية جيِّدة، وعَزَباً، وقليلَ التجربة. وكانت هي مثل كلِّ نساء طبقتها، رزينةً؛ فلم يسبق لها أن تأثَّرت عواطفها، وعلى الرَّغم من ذلك لا تنقصها الجاذبيَّة. كانت تضحك... وهنا رفعتْ نظرها إليه فلفتَتْ نظره. كانت تكلِّم نفسها بصوت مسموع في الحافلة. عليها أن تعالج نفسها من تلك العادة. وعليها أن تبقى صامتة ريثما تنظِّف أسنانها. ولحسن الحظِّ توقَّفت الحافلة. قفزتْ إلى خارجها بسرعة، وبدأت تسير مسرعة صعوداً إلى منطقة «ميلروز». شعرتْ بالنشاط والشباب يسريان في عروقها. بعد أن تجاوزت «ديفونشاير»، استطاعتْ أن تميِّز كلَّ شيء بانتعاش. ونظرت إلى الأسفل حيث بدا لها الأفق، وحيث مناظر «أبيركورن تيريس» متعدِّدة الأعمدة. كانت كلُّ المنازل، بأعمدتها وحدائقها الأماميَّة، جليلة للغاية؛ فقد بدا لها أنَّها ترى، في كلِّ حجرة أماميَّة لكلِّ منزل، يد الخادمة وهي تمسح الطاولة وتعدُّها للغداء. كان الناس قد بدؤوا بالفعل في الجلوس إلى موائدهم وتناول غداءهم في غرفهم؛ وكأنَّها تراهم -مجتمعين- من بين طرفَي الستائر المفتوحة في شكل خيمة. لقد تأخَّرت على موعد غدائها، قالت لنفسها وهي تصعد الدرجات الأماميَّة راكضة وتضع مفتاحها في مزلاج الباب. ثمَّ، وكأنَّ أحدهم كان يتكلَّم، انتظمت الكلمات في ذهنها. «شيء ما جميل، شيء لترتديه». تسمَّرتْ في مكانها قبل أن تدير المفتاح. عيد ميلاد ماغي، هديَّة والدها لماغي، لقد نسِيَت الأمر. توقَّفتْ لوهلة. ثمَّ استدارت، ونزلت درجات السلَّم جرياً من جديد. يجب أن تذهب إلى متجر لاملي.

كانت السيِّدة لاملي، الَّتي ازدادت بدانةً في السنوات الأخيرة، تمضغ لقمة من لحم الضأن الفاتر في الحجرة الخلفيَّة، عندما رأت الآنسة إليانور عبر بابها الزجاجيِّ.

«صباح الخير يا آنسة إليانور»، استهلَّت كلامها، وهي تخرج من الحجرة.

«أرغب في شيء جميل، شيء يمكن ارتداؤه»، قالت إليانور وهي تلهث. إنَّها تبدو في حال جيِّدة للغاية؛ مسمرَّة كثيراً بعد انتهاء عطلتها، لاحظت السيِّدة لاملي.

«لابنة أختي... أقصد ابنة عمِّي. الابنة الصغرى للسير ديغبي»، أوضحت إليانور.

استنكرت السيِّدة لاملي بضاعتها الرخيصة.

ثمَّة لُعب في شكل قوارب، دُمى، ساعات يد ذهبيَّة زهيدة الثمن، لكن لا شيء لطيف بما يكفي ليناسب ابنة السير ديغبي الصغيرة. غير أنَّ إليانور كانت في عجلة من أمرها.

«هناك»، قالت إليانور، مشيرةً إلى بطاقة من عقد من حبَّات الخرز، «هذا سيفي بالغرض».

إنَّه يبدو رخيصاً قليلاً، قالت السيِّدة لاملي لنفسها. ونزلت يدها لتتناول عقداً أزرق اللون مزيَّناً ببقع ذهبيَّة، لكنَّ إليانور كانت مستعجلة إلى درجة أنَّها لم تنتظر أن تلفَّه بورق الهدايا.

«سأتأخَّر، دعيه كما هو، سيِّدة لاملي»، قالت إليانور وهي تشير بيدها بلطف، وانطلقت مبتعدة.

كانت السيِّدة لاملي تحبُّ إليانور؛ فإليانور كانت ودوداً دائماً. وهي تشفق على إليانور لأنَّها لم تتزوَّج، إنَّه لخطأ فادح أن يتركوا الأخت الصغرى تتزوَّج قبل أختها الأكبر. إنَّما، لدى إليانور والدها الكولونيل الَّذي

يعتني بها، لكنَّه الآن تقدَّم في السنِّ، ختمت السيِّدة لاملي أفكارها، وعادت لتناول لحم الضأن في الحجرة الخلفيَّة لمتجرها.

«لن تستغرق الآنسة إليانور وقتاً طويلاً»، قال الكولونيل عندما كانت كروسبي تُحضِر الأطباق، «اتركي الأطباق مغطَّاة». وقف ينتظرها وقد أولى ظهره للموقد. نعم، قال لنفسه، لا أرى سبباً لعدم حدوث ذلك، «لا أرى سبباً لعدم حدوث ذلك»، كرَّر، وهو ينظر إلى غطاء الطبق. عادت ميرا للظهور ثانيةً؛ فقد غادر الشخص الآخر، ومعلومٌ أنَّه سينجز الأمر، ذاك الشخص لا قيمة له. وما الاستعداد الَّذي سيفعله لأجل ميرا؟ ما الَّذي سيفعله حيال الأمر؟ اضطرب لاضطراره إلى عرض الأمر برمَّته على إليانور. مع ذلك، لِمَ لا؟ لم تعد إليانور طفلة، قال لنفسه، وهو لا يحبُّ القيام بـ.. بـ.. إخفاء الأمور. إنَّما شعر ببعض الجُبْن إزاء إخبار ابنته.

«ها هي ذي»، قال الكولونيل بغتةً لكروسبي، الَّتي كانت تنتظر خلفه بصمت.

لَمَّا دخلت إليانور، قال لنفسه باقتناعٍ مفاجئ لا، لا. ولسبب ما -عندما رآها- أدرك أنَّه لن يخبرها. أخيراً أدرك، وهو يرى مدى تورُّد وجنتَيها، كم تبدو مطمئنَّة؛ فلديها حياتها الخاصَّة لتعيشها، وشعر ببعض الغيرة. لديها شؤونها الخاصَّة لتفكِّر فيها، كان يفكِّر وهما يجلسان إلى المائدة.

مدَّت إليانور يدها بالعقد فوق المائدة نحو والدها.

«ما هذا؟»، قال لها، وهو ينظر إلى العقد وقد فوجئ.

«إنَّها هديَّة ماغي يا أبي»، قالت إليانور، «أفضل ما أمكنني شراؤه... أخشى أنَّه رخيص بعض الشيء».

«نعم، سيفي بالغرض على نحو رائع»، قال وهو ينظر إلى العقد بذهول، «تماماً كما تحبُّ ماغي»، أضاف، ودفعه جانباً إلى طرف الطاولة. ثمَّ بدأ يقطِّع الدجاجة.

كانت إليانور جائعة جدّاً، ولا تزال تلهث. لَمَّا سألت نفسها، ما الأمور الَّتي سعيتِ لأجلها اليوم؟ شعرت ببعض «الدوار»، وتساءلت، وهي تعدُّ لنفسها خبزاً بالصلصة، مركزاً مرموقاً؟ لقد تغيَّر المشهد كثيراً هذا الصباح، وكان كلُّ مشهد يتطلَّب تعديلاً مختلفاً؛ فقد تقدَّم هذا الأمر إلى الصدارة، وغُمِرَ ذاك الشيء حتَّى الأعماق. والآن، لا تشعر إليانور بأيٍّ شيء، إنَّها جائعة فحسب؛ هي الآن مجرَّد آكلة للدجاج؛ ذهنها خالٍ من أيٍّ شيء آخر. وفيما كانت تتناول طعامها، فرض إحساس والدها نفسه عليها؛ فبينما كان يجلس مقابلها يمضغ قطعة الدجاج خاصَّته بانتظام، أحبَّت إليانور ثباته. ما الَّذي كان يفعله، تساءلت. أكان يقتطع الأسهم من إحدى الشركات ليضيفها إلى شركة أخرى؟ استنهض والدها همَّته، وبدأ الكلام معها.

«حسناً، كيف كانت اللَّجنة؟»، سألها. أخبرتْهُ، مبالغة في مسألة انتصارها على جود.

«صحيح. اصمدي أمامهم، يا نيل. لا تكتفي بما حقَّقتِه»، قال لها. كان فخوراً بها بطريقته الخاصَّة؛ وهي أحبَّت فخره بها. في الوقت نفسه لم تذكر دوفوس وأكواخ ريغبي؛ فوالدها لا يشفق على الحمقى فيما يتعلَّق بالأموال، ولم تكن يوماً لتكترث لأدنى بنس: فقد صرفت كلَّ مالها لأجل الإصلاحات. حوَّلتْ مسار الحديث إلى موضوع موريس وقضيَّته في المحكمة. ونظرتْ إلى ساعة يدها من جديد. طلبت إليها زوجة أخيها سيليا أن تلتقيا في المحكمة في الثانية والنصف تماماً.

«عليَّ أن أسرع»، قالتْ لوالدها.

«آه، لكنَّ أولئك المحامينَ الشبَّان يعرفون دوماً كيف يماطلون في القضايا»، قال الكولونيل، «مَن القاضي؟»

«ساندرز كوري»، قالت إليانور.

«إذاً، ستستمرُّ المحاكمة حتَّى يوم الحساب»، قال الكولونيل.

«في أيِّ محكمة ستُعقَد الجلسة؟»، سألها.

لكنَّ إليانور لم تكن تعرف.

«إلى هنا، يا كروسبي»، قال الكولونيل. وطلب إلى كروسبي أن تحضر صحيفة التايمز. بدأ في فتح الصحيفة وتقليب صفحاتها الكبيرة بأصابعه الثخينة. وبينما كانت إليانور تتناول كعكة المربَّى، ولَمَّا انتهتْ وبدأت تصبُّ القهوة، كان والدها قد اكتشف في أيِّ محكمة ستجري جلسة الاستماع.

«وأنت بابا، هل ستذهب إلى المنطقة التجاريَّة؟»، سألت إليانور بعد أن أنهت قهوتها ووضعت فنجانها.

«نعم، إلى اجتماع»، قال. إنَّه يحبُّ الذهاب إلى المنطقة التجاريَّة، أيّاً كان ما يفعله هناك.

«غريب، يجب أن يكون كوري مَن ينظر في الدعوى»، قالت إليانور وهي تنهض. فقد تناولوا العشاء معه منذ وقت قريب في منزل ضخم موحش، في مكانٍ ما من «كوينز غيت».

«هل تذكر ذلك الحفل؟»، قالت وهي تقف، «حفل السنديان العتيق؟»، عندما جمع كوري صناديق السنديان.

«أظنُّها كانت كلُّها مزيَّفة»، قال والدها، «لا تستعجلي»، عنَّفها، «نيل، خذي عربة أجرة، من باب التغيير». بدأ كلامه وهو يبحث عن القطعة النقديَّة بإصبعه المبتور. وفيما كانت إليانور تراقب والدها، ساورها الشعور الطفوليُّ القديم عينه بأنَّ جيوب أبيها مناجم عميقة جدّاً تُستخرج منها عملات نصف الشلن، ولا تنضب.

«حسناً إذاً»، قالت وهي تتناول منه النقود، «سنتقابل في موعد الشاي».

«لا»، ذكَّرها، «سأكون في صحبة أسرة ديغبي».

تناول العقد بيده الهائلة كثيرة الشعر، يبدو رخيصاً بعض الشي، ارتعدت إليانور. «هل توجد علبة نضعه فيها؟»، سألها.

«كروسبي، جِدِي علبة للعقد»، قالت إليانور. تهلّلت كروسبي فجأة لإحساسها بالأهمِّيَّة، وأسرعت خارجة من الحجرة نحو القبو.

«إذاً، سيكون لقاؤنا على العشاء»، قالت لوالدها. وهذا يعني، فكَّرت بارتياح، أن لا حاجة لي للعودة وقت الشاي.

«نعم، على العشاء»، قال والدها. وأمسك بلفافة ورقيَّة أَطْبَقَها على حافَّة سيجاره. بدأ يدخِّن السيجار، فصعدتْ من السيجار نفحةُ دخان صغيرة. كانت إليانور تحبُّ رائحة السيجار. وقفتْ لوهلة تتنشَّق الرائحة.

«وبلِّغ تحيَّاتي للعمَّة يوجين»، قالتْ. وأومأتْ إلى والدها وهو يدخِّن سيجاره.

كان من الممتع أن تستقلَّ عربة أجرة تجرُّها الخيول، إضافة إلى أنَّها توفِّر بذلك خمس عشرة دقيقة. اتَّكأت إليانور عند الزاوية، وأطلقت تنهيدة ارتياح صغيرة، في حين كانت ستائر العربة تتطاير فوق ركبتَيها. كان ذهنها صافياً تماماً في تلك اللَّحظة، وهي جالسة هناك في زاوية العربة، استمتعت بالسلام، والهدوء، والراحة بعد الإجهاد. شعرتْ أنَّها منفصلة عن محيطها، وأنَّها مجرَّد مشاهِدة لما يدور حولها، في حين كانت العربة تتقدَّم بسرعة متوسِّطة. كان صباح هذا اليوم صاخباً؛ توالت الأحداث فيه، واحداً تلو الآخر. أمَّا الآن، حتَّى تصل إلى المحكمة، فستكتفي بالجلوس دون أن تفعل شيئاً. كان الطريق طويلاً إلى مبتغاها، وكان الحصان -ذو الوبر الأحمر الكثيف- بطيئاً؛ حافظ على ثبات سرعته في العدو طوال شارع «بايسووتر». لم يكن الازدحام المروريُّ كثيفاً؛ فالناس لا يزالون في استراحة الغداء. غمر ضباب رماديٌّ رقيق المساحة أمام العربة، وجلجلت الأجراس، وتجاوزت العربة المنازل. انتبهت إليانور لترى ما المنازل الَّتي تجاوزتها عربتها. ضيَّقتْ عينَيها، ثمَّ، على نحوٍ لا إراديٍّ، تذكَّرت يدها وهي تتناول رسالةً ما عن طاولة البهو. متى؟ هذا الصباح بالذات. ماذا فعلت بالرسالة؟

هل وضعتها في حقيبتها؟ نعم. ها هي ذي، لم تُفتَح بعد؛ إنَّها رسالة من مارتن من الهند. أرادت إليانور قراءتها في أثناء سير العربة. كانت الرسالة مكتوبة على ورق رقيق جدّاً وبخطّ يد مارتن الصغيرة. كانت الرسالة أطول من المعتاد، وتتحدَّث عن مغامرة لمارتن مع شخص يُدعى رينتون. مَن هو رينتون؟ لم تستطع إليانور أن تتذكَّر. «بدأنا عند الفجر»، بدأتْ تقرأ.

نظرت إليانور إلى خارج النافذة، فقد تباطأت سرعة العربة بسبب الازدحام عند «القوس الرخاميِّ». كانت العربات تتقدَّم من شارع «بارك». وثب أحد الجياد، لكنَّ الحوذيَّ سيطر عليه تماماً.

عاودت إليانور القراءة: «وجدتُ نفسي وحيداً وسط الأدغال...».

إنَّما، ما الَّذي كنتَ تفعله؟ تساءلت إليانور.

تخيَّلتْ أخاها، ذا الشعر الأحمر، والوجه المستدير، وذا الهيئة المشاكسة قليلاً؛ الَّتي تجعلها دوماً قلقةً من وقوعه في المتاعب ذات يوم. وهذا ما حدث، كما يبدو.

«كنتُ قد تهتُ، وكانت الشمس تغطس»، قرأتْ.

«الشمس تغطس...»، كرَّرت إليانور وهي تنظر أمامها إلى شارع «أكسفورد»، حيث الشمس مشرقة، وأشعَّتها تتخلَّل ستائر النافذة. أمَّا في الأدغال فقد كانت الأشجار كثيفة، تخيَّلت إليانور، أشجاراً قزمة، لونها أخضر داكن. وكان مارتن وحده هناك، والشمس تغطس. ماذا حدث بعد ذلك؟ «اعتقدتُ أنَّ من الأفضل لي أن أبقى مكاني». لذا، وقف وسط الأشجار الصغيرة وحيداً، في الأدغال، والشمس تغطس. فقدَ الشارع أمام إليانور تفاصيله. لا بدَّ أنَّ الجوَّ كان بارداً عندما هبطت الشمس، فكَّرت إليانور. عاودت القراءة مجدَّداً. كان عليه أن يوقد ناراً. «بحثتُ في جيبي ووجدت أنَّ لديَّ عودَي ثقاب فقط... انطفأ العود الأوَّل بسرعة». تخيَّلت إليانور كومة أعواد جافَّة، ومارتن وحيداً يشاهد عود الثقاب ينطفئ. «ثمَّ

أشعلتُ العود الثاني، ووحده الحظُّ ساعدني في إشعال النار». أحسَّت إليانور أنَّ الورقة بدأت تشتعل؛ فقد اشتعلت الأغصان، وتأجَّجت النار. تجاهلت إليانور قلقها لتكمل القراءة وتصل إلى نهاية القصَّة... «وظننتُ أنِّي سمعتُ أصواتاً تنادي، سمعتُها لمرَّة واحدة، لكنَّها تلاشت».

«تلاشت الأصوات!»، قالت إليانور بصوت مسموع.

توقَّفت العربة الَّتي تقلُّ إليانور في جادّة «تشانسيري»؛ فقد كان أحد رجال الشرطة يساعد امرأة عجوزاً في عبور الطريق، لكنَّ الطريق بدا لإليانور أنَّه الأدغال الَّتي علق فيها أخوها.

«تلاشت الأصوات»، قالتْ، «ثمَّ ماذا؟»

«... تسلَّقتُ شجرة... ومن هناك تمكَّنتُ من رؤية درب الخروج من الأدغال... ووقتها كانت الشمس تشرق... كان الجميع قد أوقفوا البحث عنِّي ظنّاً منهم أنِّي متُّ».

توقَّفت العربة. ولدقيقة، بقيت إليانور جالسة في سكون. لم تكن ترى شيئاً سوى الأشجارِ القزمةِ، أمَّا أخوها فيشاهد شروق الشمس فوق الأدغال. أشرقت الشمس. ولوهلة بدتْ لها ألسنة اللهب وهي تتراقص فوق بناء قصر العدل الضخم الكئيب. كان عود الثقاب الثاني هو ما أشعل النار، قالتْ لنفسها وهي تدفع الأجرة لسائق العربة، ثمَّ دخلتْ قصر العدل.

«أوه، ها أنتِ ذي!»، صاحت امرأة ضئيلة الحجم ترتدي الفرو، كانتْ تقف إلى جانب أحد الأبواب.

«كنتُ قد فقدتُ الأمل في مجيئكِ. أوشكت أن أدخل». كانت امرأة ذات وجه دقيق الملامح، وقلقة، لكنَّها فخور جدّاً بزوجها.

دفعتا أحد مصراعَي الباب، ودخلتا قاعة المحكمة، حيث ستجري المحاكمة. بدتِ القاعة في البداية مظلمة ومزدحمة. كان الرجال الَّذين يضعون الباروكات ويرتدون ثياب المحكمة يقفون ويجلسون، ويدخلون

ويخرجون، كأنَّهم سرب من الطيور، يستقرّون هنا وهناك في الحقل. بدَوا جميعاً غير مألوفين؛ لم تستطع إليانور رؤية موريس، ونظرت إلى مرافقتها، زوجة موريس، الَّتي كانت تبحث عنه.

«ها هو ذا»، همست سيليا.

أدار أحد المحامين الجالسين في الصفِّ الأماميِّ رأسه؛ كان موريس، كم بدا غريباً في الباروكة الصفراء! ألقى نظرة خاطفة عليهما دون أدنى علامة منه أنَّه ميَّزهما. ولم تبتسم إليانور له؛ فهذا المناخ الجادُّ والكئيب يمنع الأمور الشخصيَّة؛ فالطابع كلُّه رسميٌّ. ومن مكان جلوسها، كان في مقدورها رؤية المظهر الجانبيِّ لوجهه؛ جعلت الباروكة جبهته مربَّعة، ومنحته مظهراً ذا حواف، كاللوحة. لم يسبق لها رؤيته هكذا؛ بهذه الجبهة، وبهذا الأنف. لاحتْ منها التفاتة في أرجاء المكان. كان الجميع كأشخاص مرسومين في اللوحات؛ فقد بدا كلُّ المحامين حازمين، كأنَّهم انتُزِعوا من لوحات القرن الثامن عشر، الَّتي تُعلَّق الآن على الجدران. كانوا لا يزالون ينهضون ويستقرُّون، ويضحكون ويتكلَّمون... إلى أن دُفعَ أحد مصراعَي الباب فجأة، ففُتح، وطالب الحاجب بالصمت احتراماً لسيادته. ساد الهدوء، ووقف الجميع، ودخل القاضي. انحنى انحناءة واحدة، وجلس على كرسيِّه تحت شعار الأمَّة؛ صورة أسد وحيوان خرافيٌّ أحاديُّ القرن. شعرت إليانور برعدة بسيطة تسري في جسدها من هيبة الموقف. كان القاضي كوري العجوز، كم تغيَّر! آخر مرَّة رأته فيها كان يجلس على رأس طاولة العشاء -لقد تبدَّل الشريط الأصفر الطويل المزخرف إلى آخر مجعَّد متدلٍّ حتَّى خاصرته- تذكر إليانور أنَّه يومها أخذها، وهو يحمل شمعة، في أرجاء حجرة المعيشة، ليريَها شجرة السنديان القديمة. إنَّما الآن، ها هو ذا، مخيف ووقور، وهو يرتدي رداء القاضي.

نهض أحد المحامين. حاولت إليانور أن تفهم ما الَّذي يقوله الرجل ذو الأنف الكبير، لكن يصعب عليها التقاط كلماته الآن. ومع ذلك،

أنصتتْ. ثمَّ نهض محامٍ آخر، كان رجلاً صغير الحجم، واثقاً بنفسه، يرتدي نظَّارة أنفيَّه. كان يقرأ بعض الوثائق، ثمَّ بدأ هو الآخر يناظر. استطاعتْ أن تفهم جزءاً من كلامه، على الرَّغم من ذلك، كم هو مملٌّ أن تتابع قضيَّة لا تعلم عنها شيئاً. تساءلت إليانور متى سيتكلَّم موريس؟ كما يبدو، ليس بعد. فقد قال والدها إنَّ هؤلاء المحامين الشبَّان يعرفون كيف يماطلون. لا داعي للاستعجال في الخروج؛ فالحافلات ستعمل على نحو جيِّد عندما تنتهي المحاكمة. ثبَّتت نظرها على موريس، كان هو والرجل حنطيُّ البشرة، الجالس إلى جانبه، يطلقان فكاهة ما. فكَّرت في أنَّ هؤلاء المحامين زملاؤه؛ فهذه حياته. تذكَّرتْ ولعه بالمحكمة عندما كان صبيّاً. كانتْ هي مَن سعتْ إلى إقناع والدهما؛ حدث ذلك في صباح أحد الأيَّام، خاطرتْ بحياتها لأجل دراسته... والآن، إنَّها متحمِّسة لرؤيتها موريس وقد اشتدَّ عوده.

شعرت إليانور بزوجة أخيها متيبِّسة من شدَّة التوتُّر، وتمسك حقيبتها الصغيرة بإحكام. لَمَّا بدأ موريس الكلام، بدا طويل القامة جدّاً، وشديد سواد الشعر، وبياض البشرة. كانت إحدى يديه على طرف ردائه. فكَّرت إليانور، إنَّها تعرف حقَّ المعرفة حركة يد موريس تلك؛ إنَّك تمسك بشيء ما، كي ترى الندبة البيضاء الَّتي خلَّفها جرح أصابك عندما كنتَ تسبح. لكنَّها لم تعرف معنى حركة يده الأخرى؛ كيف يلوِّح بذراعه بعيداً. يبدو أنَّها حركة اعتاد فعلها في حياته العامَّة، حياته في المحكمة. كان صوته غير مألوف. إنَّما، من حين إلى آخر، عندما ينفعل في كلامه، فثمَّة نبرة في صوته تجعلها تبتسم؛ إنَّه صوته المميَّز. لم تتمالك نفسها، فاستدارت قليلاً نحو زوجة أخيها، كما لو كانت ترغب في القول، كم يشبه موريس! لكنَّ سيليا كانت تنظر بثبات تامٍّ أمامها نحو زوجها. حاولت إليانور أيضاً أن تركِّز انتباهها على النقاش. كان موريس يتكلَّم بوضوح استثنائيٍّ؛ كان يتمهَّل في لفظ الكلمات ببراعة. فجأة، قاطعه القاضي:

«هل أفهم منك أنَّك تدعم... يا سيِّد بارغيتر؟»، قال ذلك بوتيرة لبقة، إنَّما فظيعة، ارتعدت فرائص إليانور عندما شاهدت كيف صمتَ موريس على الفور، وكيف خفض رأسه باحترام عندما تحدَّث القاضي.

يا تُرى، هل يعرف الإجابة؟ قالتْ لنفسها، وكأنَّه لا يزال طفلاً في نظرها، وتحرَّكتْ على مقعدها بتوتُّر مخافة أن يسقط شقيقها. إنَّما، كان يعرف الإجابة معرفة جيِّدة. ودون استعجال أو ارتباك فتح موريس كتاباً، ووجد ما يريده، وقرأ بصوت مسموع أحد المقاطع، لَمَّا سمعه كوري العجوز أومأ بالإيجاب، وسجَّل ملاحظة في المجلَّد الضخم الَّذي كان مفتوحاً أمامه، فارتاحت إليانور كثيراً.

«كم كان جيِّداً في ذلك!»، همستْ. فأومأت زوجة أخيها موافقةً؛ لكنَّها لا تزال قابضة على حقيبتها بإحكام. شعرت إليانور أنَّ بإمكانها أن ترتاح الآن. ألقت نظرة سريعة حولها. كان في الجوِّ مزيج غريب من الوقار والحرّيَّة. استمرَّ المحامون في الدخول والخروج، وكانوا يقفون متَّكئين إلى جدار قاعة المحكمة، وقد ظهرت وجوههم جميعاً -تحت الضوء الضعيف للمصباح العلويِّ- شاحبة؛ إذ بدت ملامحهم مُنتزَعة من لوحات الجدران. وأُضيء مصباح الغاز. حدَّقت إليانور إلى القاضي نفسه، فكان في تلك اللَّحظة مستنداً إلى كرسيِّه الكبير المنقوش تحت لوحة الأسد وأحاديّ القرن، يستمع، وبدا حكيماً وحزيناً تماماً، كأنَّ الكلمات قد هزمته طوال قرون. ثمَّ فتح عينيه العميقتين، وغضَّن جبهته، وخرجت يده الضئيلة ببطء من طرف الكمِّ الهائل لتكتب بضع كلمات في المجلَّد الضخم. ومن جديد، جال بنظره بعينَين نصف مغلقتَين، كأنَّه حارس أبديٌّ لكفاح البشر التعساء. شرد ذهن إليانور. أسندت ظهرها إلى المقعد الخشبيِّ القاسي، وسمحت لتيَّار النسيان أن يجتاحها. بدأتْ مشاهد هذا صباح تعود إلى ذاكرتها؛ تُقحِم نفسها. جود في اللَّجنة، والدها وهو يقرأ الصحيفة، السيِّدة العجوز وهي تقبض على يدها، والخادمة وهي تمسح

الأواني الفضيَّة الموضوعة على الطاولة، ومارتن وهو يضيء عود ثقابه الثاني في الأدغال...

تململتْ؛ فقد أصبح هواء قاعة المحكمة فاسداً، وإضاءتها خافتة، وبدا القاضي، الَّذي اضمحلَّ رونق إطلالته الأولى، معكَّراً؛ فلم يعد منيعاً من ضعف البشر، وتذكَّرتْ، وهي تبتسم، كم كان شديد البساطة -هناك في منزل كوينز جيت القبيح- وهو يتكلَّم عن شجرة السنديان المعمِّرة. يومها قال «التقطتُ هذه الشجرة من ويتبي». وكان كاذباً. رغبت في الضحك، وأرادت أن تتحرّك. نهضت وهمست:

«أنا ذاهبة».

غمغمت زوجة أخيها ببعض الكلمات، ربَّما اعترضتْ. إنَّما، شقَّت إليانور طريقها بهدوء قدر استطاعتها عبر مصراعَي باب القاعة، وخرجت إلى الشارع.

أصابها اتِّساع شارع «ستراند» والضجيج والاضطراب فيه بصدمة مريحة. شعرتْ بنفسها تتَّسع. لا يزال الوقت نهاراً، كأنَّ الحياة المتنوِّعة، والحركة والسرعة، تأتي جرياً إليها. أحسَّت بالفوضى تدبُّ في أوصالها، وفي العالم. بدتْ، بعد ما بذلته من تركيز، مبعثرة ومتخبِّطة. تجوَّلت على طول شارع «ستراند»، تنظر ببهجة إلى الشارع المندفع، والمتاجر الممتلئة بالسلاسل اللمَّاعة والحقائب الجلديَّة، والكنائس ذوات الواجهات البيض، والأسطح المتعرِّجة غير المنتظمة الَّتي تتصالب فيها الأسلاك، من جانب إلى آخر، مراراً وتكراراً. وفي الأعلى، تتألَّق السماء برَّاقةً على الرَّغم من تساقط المطر. هبَّت الرياح في وجهها، فاستنشقت الهواء المنعش الرطب. وذاك الرجل، قالت لنفسها -وهي تفكِّر في قاعة المحكمة الصغيرة المظلمة والوجوه المنتزَعة من اللوحات فيها- عليه أن يحضر هناك طوال اليوم، وكلَّ يوم. تخيَّلتْ ساندرز كوري ثانيةً، مسنداً ظهره إلى كرسيِّه الكبير، ووجهه يغوص بين محتويات

حديديَّة. كلَّ يوم، طوال اليوم، فكَّرتْ، يناقش مسائل قانونيَّة. كيف يستطيع موريس تحمُّل هذا؟ لطالما أراد أن يكون محامياً.

اندفعت عربات الأجرة والشاحنات الصغيرة والحافلات مجتازةً إليانور، وبدت كأنَّها جميعها هي الَّتي تدفع بالهواء إلى وجه إليانور، وكانت هذه العربات تلطِّخ الرصيف بالوحل. تدافع الناس وتزاحموا، فعمدت إليانور إلى تسريع خطواتها لتتماشى معهم. أوقفتها شاحنة صغيرة؛ إذ كانت تخفِّف من سرعتها في أحد الشوارع شديدة الانحدار الَّتي تقود إلى النهر. نظرت إليانور إلى الأعلى ورأت السحب تتحرَّك بين الأسطح، كانت سحباً داكنة، محمَّلة بالمطر، تطوف مثقلة. ثمَّ عاودت إليانور سيرها.

من جديد اضطرَّت إليانور إلى التوقُّف عند مدخل محطَّة «تشارينغ كروس». ظهرت السماء واسعة في تلك البقعة. رأت سرباً من الطيور يطير عالياً، تطير مع بعضها بعضاً، عابرةً السماء. أمعنتِ النظر إلى الطيور. ثمَّ تابعت سيرها ثانيةً. هناك أشخاص يسيرون على أقدامهم، وآخرون تكدَّسوا في عربات الأجرة؛ يشبهون بذلك عيدان القشِّ الَّتي تجمَّعت حول دعائم جسرٍ ما، كان على إليانور أن تنتظر. تجاوزتها سيَّارات أجرة تكدَّستْ فيها بعض الصناديق.

حسدتهم إليانور. وتمنَّتْ أن تغادر البلاد، إلى إيطاليا، إلى الهند... ثمَّ راودها شعور غامض بأنَّ شيئاً ما حدث. كان الصبيان يوزِّعون أوراقاً بسرعة غير اعتياديَّة عند البوَّابات. تلقَّف الرجال الأوراق، وفتحوها، وقرؤوها وهم يكملون سيرهم. نظرتْ إلى مُلصَق لصبيٍّ، كان مجعَّداً بالعرض عند قدمَي الصبيِّ. كان مكتوباً عليه بحروف سود كبيرة جدّاً «موت».

ثمَّ هبَّت الرياح، فطارَ الإعلان، فاستطاعت رؤية كلمة أخرى: «بارنيل».

«مات»... ردَّدتْ. «بارنيل». شعرتْ بالدوار لوهلة. كيف مات بارنيل؟ اشترت صحيفة. منشور فيها الخبر.

«مات بارنيل!»، قالتْ بصوت مسموع. نظرت فوقها ورأت السماء ثانيةً، وكانت الغيوم تمرُّ، فخفضت بصرها إلى الشارع. أشار أحد الرجال إلى الخبر بسبَّابته، وقال مات بارنيل. كان شامتاً. كيف أمكنه أن يموت؟ وكأنَّ شيئاً يختفي في السماء.

مشت ببطء على طول الشارع، متَّجهةً إلى ساحة «ترافالغار»، وهي تمسك الصحيفة بيدها. فجأةً، تجمَّد المشهد بأكمله؛ رجل مربوط إلى العمود، وأسد مربوط إلى الرجل، بدا الاثنان ساكنين، ومترابطين، كأنَّهما لن يتحرَّكا ثانيةً.

عبرت الشارع إلى ساحة «ترافالغار». زقزقت العصافير بأصوات عالية في مكان ما. توقَّفت إليانور عند النافورة ونظرت إلى الأسفل، إلى حوض النافورة الهائل الممتلئ بالماء. لَمَّا موَّجت الرياح الماء، بدت التموُّجات سوداء اللَّون. رأت انعكاسات على صفحة الماء، أغصان الأشجار، ومساحة مستطيلة من السماء باهتة اللَّون. يا له من حلم! غمغمتْ، يا له من حلم!... اصطدم بها أحدهم. استدارت. يجب أن تذهب إلى ديليا. لطالما أبدت ديليا اهتمامها، اهتمَّتْ وتعاطفتْ، ما الجملة الَّتي اعتادتْ قولها؟ دعيهم جميعاً، وانطلقي خارجةً من المنزل؛ لأجل تلك المسألة، لأجل هذا الرجل؟ للعدالة، للحرّيَّة؟ يجب أن تذهبَ إليها، قد يكون ذهابها هذا نهاية كلِّ أحلامها. استدارت إليانور، وأشارت إلى عربة أجرة.

اتَّكأتْ على مصاريع العربة تنظر إلى الخارج. كانت الشوارع التي تسير فيها عربتها فقيرة على نحو مروِّع، ليست فقيرة فحسب، وإنَّما وحشيّة أيضاً، فكَّرتْ إليانور. هنا يكمن السوء، العمل المشين، حقيقة لندن. كان الشارع يبدو رهيباً تحت أضواء المساء المختلِطة. أُضيئت المصابيح. وكان صبيان توزيع الصحف يصيحون، بارنيل... بارنيل. لقد مات، قالت إليانور لنفسها، وهي لا تزال مدركة لكلا العالَمَين؛ أحدهما يتدفّق في خطوات شاسعة في

الأعلى، والآخر يتحرّك بخطوات حذرة على الرَّصيف. إنَّما، ها هي ذي هنا... رفعت يدها. وطلبتْ إلى سائق عربة الأجرة الوقوف مقابل صفٍّ صغير من الأعمدة في زقاق. خرجت من العربة، وشقَّت طريقها نحو الساحة.

كان صوت الازدحام ضعيفاً. المكان هنا هادئ جدّاً. فبعد الظهر من كلِّ يوم في أكتوبر، تبدو الساحة القديمة الهامدة -مع سقوط الأوراق الميتة- قذرة وهَرِمَة وممتلئة بالضباب الرقيق. أُجِّرَت المنازل إلى مكاتب وجمعيَّات وأشخاص، وضعوا أسماءهم على الأبواب. بدا لها الحيُّ بأكمله غريباً ومنحوساً. وصلت إلى مدخل قديم يحمل اسم الملكة آن -ذي قناطر ثقيلة منقوشة- وضغطت على زرِّ جرس، تحته ستَّة أو سبعة أزرار. كُتبَت الأسماء على أزرار الأجراس، بعضها مكتوب على بطاقات الزيارة فقط. لم يأتِ أحد لفتح الباب. دفعت الباب فانفتح، ودخلت. صعدتْ الدَّرج الخشبيَّ ذا الدرابزين المنقوش، الَّذي بدا كأنَّه يهين المكانة الرفيعة للدَّرجات القديمة. وُضِعَت أباريق الحليب -تحتها فواتير- على المقاعد المنخفضة الموجودة تحت النوافذ. كانت بعض ألواح زجاج النوافذ مكسورة. وكان عند باب ديليا إبريق حليب أيضاً، لكنَّه كان فارغاً. كانت بطاقة اسمها مثبَّتة على لوحةٍ بدبُّوس رسم. طرقت إليانور الباب وانتظرت. لم تسمع صوتاً. أدارت مقبض الباب، لكنَّ الباب كان مقفلاً. وقفت لوهلة تصيخ السمع. كانت هناك نافذة صغيرة على الجانب تطلُّ على الساحة. هدلَ الحمام الواقف على قمم الأشجار. وكانت أصوات الازدحام بعيدة، والصوت الوحيد الَّذي استطاعت سماعه هو صياح صبيان الورق؛ موت... موت... موت. كانت أوراق الأشجار تتساقط. استدارت وهبطت الدرجات.

مشت إليانور الهوينى في الشوارع. كان الأطفال قد رسموا مربَّعات بالطبشور على الرصيف، والنساء ينحنينَ من النوافذ العلويَّة، وهنَّ يمشِّطن الشارع بنظرات محدِّقة مفترسة وساخطة. أُجِّرتِ الغرف لغير المتزوّجين

فقط، وفي داخل الغرف بطاقات مكتوب عليها «شقق مفروشة» أو «سرير وفطور»، استطاعت إليانور أن تخمِّن كيف تمضي الحياة خلف هذه الستائر الصُّفر السميكة. كان هذا الحيُّ الَّذي تعيش فيه أختها. فكَّرتْ وهي تستدير، لا بدَّ أنَّ أختها غالباً ما تعود إلى منزلها من هذا الطريق في الليل وحدها. ثمَّ عادت إليانور إلى الساحة، وصعدت الدرجات، وقرعت الباب مجدَّداً، لكن لم يصدر صوت من الداخل. وقفتْ لوهلة تشاهد سقوط أوراق الشجر، وسمعت صياح صبيان الورق، وهديل الحمام على قمم الأشجار؛ هدلتْ إحدى الحمامات مرَّتين، واقتربت من أخرى تتودَّد إليها، وهدلتْ مرَّتين، واقتربتْ، ثمَّ... سقطت ورقة شجر.

مع حلول ما بعد الظهر، أصبح الازدحام كثيفاً عند «تشارينغ كروس». تزاحم الناس -المشاة منهم والراكبون عربات الأجرة- عند بوَّابات المحطَّة. تحرَّك الرجال بسرعة كبيرة، كأنَّ ثمَّة عفريتاً في المحطَّة سيغضب إن تركوه ينتظر. ومع هذا، كانوا يتوقَّفون وينتزع أحدهم صحيفةً كلَّما مرَّ. تفرَّقت السحب ثمَّ تجمَّعت، فهي تارة تسمح لضوء الشمس أن يسطع، وتارة أخرى تحجبه. أمَّا الطين -الَّذي بدا عند سطوع الشمس ذهبيّاً صافياً، وأصبح عند غياب أشعَّتها بنّيّاً داكناً- فقد تطاير إلى الأعلى بفعل عجلات المركبات وحوافر الخيول، وكان قد أحدث، عموماً، جلبة واضطراباً طغى على الصوت الثاقب لزقزقة العصافير، الَّتي كانت تقف على حوافِّ الأسطح، وأسكن صوتها. جلجلت عربة خيل أمام إليانور وتجاوزتها، وجلجلت أخرى وتجاوزتها. أخيراً، ومن بين كلِّ تلك العربات، اقتربت عربة، جلس في داخلها رجل ذو وجهٍ أحمر ممتلئ، وهو يمسك بزهرة ملفوفة بورق رقيق، كان هذا الرجل هو الكولونيل.

«مرحباً»، صاح الكولونيل حين مرور عربته بالبوَّابة، ودفع بإحدى يديه الباب القلَّاب لسطح العربة. مال إلى الخارج، فأُعطِيَ صحيفة.

«بارنيل!»، صاح الكولونيل وقد فوجئ، وهو يتلمَّس بحثاً عن نظَّارته، «يا للسماء!»

أكملت العربة طريقها، وأعاد قراءة الخبر مرَّتين أو ثلاث مرَّات. لقد مات، قال وهو يخلع نظَّارته. سرت في أوصاله صدمة تشبه شيئاً مريحاً؛ شبيهة بشيء يحمل طابع النصر، عندما أسند ظهره إلى زاوية مقعده في العربة. حسناً، قال لنفسه، لقد مات؛ ذلك الطائش عديم الضمير، ذلك الـمُحرِّض الَّذي صدر منه كلُّ أذىً، ذلك الرجل... ثمَّ بدأت بعض المشاعر، الَّتي تمتُّ بصلة إلى ابنته، تتكوَّن لديه تجاه ذلك الرجل، لم يستطع معرفتها تماماً، لكنَّها جعلته يتجهَّم. في أيِّ حال، إنَّه ميت الآن، قال لنفسه. يا تُرى، كيف مات؟ هل انتحر؟ لن يكون ذلك مفاجئاً... كيفما كان موته، انتهى الأمر. جلس وفي إحدى يديه الصحيفة مجعَّدة، وفي يده الأخرى الزهرة الملفوفة، في حين سارت العربة في شارع «وايتهول»... لَمَّا مرَّت العربة بمجلس العموم، فكَّر الكولونيل، يمكن للمرء أن يحترمه، في حين أنَّه كان، في نظر الآخرين، يفوق الكلام... وقد قيل الكثير من الكلام الفارغ فيما يتعلَّق بقضيَّة الطلاق. نظر إلى الخارج، كانت العربة تسير قرب شارع معيَّن، حيث اعتاد التوقُّف والتلفُّت حوله منذ سنوات مضت. ثمَّ استدار، وألقى نظرة عابرة على شارع إلى يمينه. إنَّما لا يمكن لرجل -في الحياة العامَّة- أن يحتمل تبعات فعل هذه الأمور، فكَّر الكولونيل. أبدى إيماءة بسيطة عندما مرَّت العربة. والآن، كتبتْ رسالة لتطلب منِّي نقوداً، قال الكولونيل لنفسه. لقد انتهى أمر الرجل الآخر، كان الكولونيل يعلم أنَّ ذلك سيحدث، فهو شخص عديم القيمة، بعد أن فقدتْ جمالها، كان الكولونيل يفكِّر، أصبحت بدينة جدّاً. حسناً، يمكنه أن يكون سخيّاً. وضع نظَّارته ثانية وأخذ يقرأ أخبار المنطقة التجاريَّة في لندن.

لم يُحدِث موت بارنيل فرقاً، وها قد مات الآن، فكَّر الكولونيل. هل عاش أصلاً، هل تبدَّدت الفضيحة، ثمَّ رفع بصره، كانت العربة قد قطعت شوطاً

طويلاً في جولتها كالمعتاد. لَمَّا استدار السائق في المنعطف الخطأ -وهذا ما يفعله السائقون دوماً- صاح الكولونيل «إلى اليسار... إلى اليسار».

في أحد أقبية شارع «بروني» ضعيفِ الإضاءة، كان الخادم الإيطاليُّ يقرأ الصحيفة وهو يرتدي قميصاً بلا سترة، عندما دخلت الخادمة مندفعة وهي تحمل بيدها قبَّعة.

«انظر ماذا أعطتني!»، صاحت. لتعوِّض عن الفوضى الَّتي أحدثتْها في حجرة المعيشة، أعطتني الليدي بارغيتر قبَّعتها. «ألستُ أنيقة؟»، سألته، وهي تقف أمام المرآة واضعة القبَّعة الإيطاليَّة الكبيرة -الَّتي تبدو كأنَّها صُنعَتْ من الزجاج المغزول- على طرف رأسها. ثمَّ ألقى أنطونيو صحيفته وأحاط بخاصرتها من باب اللباقة فقط؛ إذ لم تكن جميلة، وكان تصرُّفها، حسب ما يذكر، مجرَّد تقليد مُتَّبَع في بلدات التلال في «توسكاني». غير أنَّ عربة أجرة توقَّفت أمام الدرابزين، وإذ بساقين تقفان بسكون هناك، وعليه أن يؤدِّي عمله؛ ارتدى سترته، وصعد إلى الأعلى ليستجيب لقرع الجرس.

لقد أخذ وقته، فكَّر الكولونيل، وهو يقف عند عتبة الباب ينتظر. لقد استوعب تقريباً صدمة موت بارنيل، لا تزال فكرة موته تدور في داخله، لكنَّها لم تمنعه من التفكير، وهو يقف هناك، في أنَّهم أعادوا ترتيب القرميد، لكن كم لديهم من المال لينفقوه، إضافة إلى تعليم الصبية الثلاثة، والفتاتين الصغيرتين؟ كانت يوجين امرأة ذكيَّة بالطبع، لكنَّه تمنَّى لو حصلت على خادمة عوضاً عن هذين الشخصين الإيطاليَّين، اللذين يتكلَّمان اللاتينيَّة، ويبتلعان المعكرونة طوال الوقت. ها قد فُتِح الباب، وظنَّ، وهو يصعد السلَّم، أنَّه سمع، من مكان ما من الحديقة الخلفيَّة، صرخة ضحك.

لطالما أحبَّ حجرة معيشة يوجين، فكَّر الكولونيل، وهو يقف فيها منتظراً. كانت غارقة في الفوضى. كان فيها فضلات من العمل بالنجارة لشيء ما أُفرِغت محتوياته على الأرض. وتذكَّر أنَّهم كانوا في إيطاليا. وانتصبت على الطاولة مرآة. إنَّها، في الأرجح، واحدة من الأشياء الَّتي

أحضرتها معها من هناك -من الأشياء الَّتي يشتريها الناس عادةً من إيطاليا- مرآة قديمة، تغطِّيها البقع. عدَّل ربطة عنقه أمامها.

لكنِّي أفضِّل مرآة يمكن للمرء رؤية نفسه فيها، فكَّر الكولونيل، وهو يستدير. كان غطاء البيانو مفتوحاً، وكوب الشاي -ابتسم لرؤيته- نصف مملوء كالعادة، وتكدَّست بعض الأغصان إلى جوار الحجرة، أغصان وأوراق ذابلة حُمر وصُفر. كانت يوجين تحبُّ الزهور. كان سعيداً لتذكُّره إحضار هديَّتها المعتادة. حمل الزهرة -الملفوفة بورق رقيق- أمامه. لكن لِمَ الحجرة ممتلئة بالدُّخان؟ هبَّت نفحة دخان إلى الحجرة. كانت نافذتَا الحجرة الخلفيَّة مفتوحتَين، والدُّخان يعصف إلى داخلها قادماً من الحديقة. هل كانوا يحرقون الأعشاب الضارَّة؟ تساءل. سار إلى النافذة ونظر إلى الخارج. نعم، ها هم أولاء هناك؛ يوجين والطفلتَان. كنَّ يوقدن مشعلة. وبينما هو ينظر إليهنَّ، كانت ماغدالينا، الفتاة الصغيرة الأثيرة لديه، تلقي حفنة كاملة من الأوراق الميتة. رمت الأوراق بأعلى ما أمكنها، فاستعرت النار. واندفع أحد ألسنة اللهب.

«هذا خطير»، صاح الكولونيل.

أبعدت يوجين الطفلتَين. كانتا ترقصان بحماس. كانت الطفلة الأخرى، سارة، تختبئ تحت ذراع أمِّها، وأمسكت بحفنة أخرى من الأوراق ورمتها أيضاً، فاندفع لسان أحمر من اللَّهب. ثمَّ حضر الخادم الإيطاليُّ وذكر اسم الضيف للسيِّدة يوجين. نقر الكولونيل على النافذة، فاستدارت يوجين ورأته. سحبت الطفلتَين بيد، ورفعت يدها الأخرى مرحِّبة بالكولونيل.

«اِبقَ حيث أنت!»، صاحت، «إنَّنا قادمات».

هبَّت غمامة دخان نحوه مباشرة، جعلت عينيه تدمعان، فاستدار وجلس على الكرسيِّ المجاور للأريكة. بعد هنيهة جاءتْ مسرعة إليه تمدُّ يديها نحوه. نهض وأمسك بهما.

«كنَّا نوقد مشعلة»، قالت. كانت عيناها تبرقان، وشعرها معقوداً بحلقات تتدلَّى إلى الأسفل، «لذلك تراني عابقة بالدُّخان»، أضافتْ وهي تضع يدها على رأسها. كانتْ شعثاء، مع ذلك جميلة للغاية، فكَّر إيبل. كانت امرأة مدهشة، ضخمة الجسد، تزداد امتلاءً، وقد لاحظ ذلك وهي تصافحه، لكنَّ هذه الحال تليق بها. إنَّه معجبٌ بذاك النوع من النساء أكثر من المرأة الإنكليزيَّة الجميلة بيضاء البشرة، متورِّدة الوجه. كانت البدانة تطغى عليها كشمع أصفرَ دافئ، وكانت عيناها واسعتين وداكنتين كأنَّها أجنبيَّة، ولأنفها تموُّجٌ. أعطاها زهرة الكاميليا؛ هديَّته المعتادة. أطلقت هتافاً صغيراً وهي تسحب الزهرة من الورق الرقيق، وتجلس.

«كم هو رائع منك!»، قالتْ، ورفعتها لوهلة أمامها، ثمَّ فعلت الشيء عينه الَّذي تفعله كلَّ مرَّة؛ تمسك بساق الزهرة بين شفتيها. كانت حركاتها تسحره كالعادة.

«أتوقدنَ مشعلة لعيد الميلاد؟»، سألها... «لا، لا، لا»، نفى، «لا أرغب في شرب الشاي».

تناولتْ كوبها، وارتشفت الشاي البارد المتبقِّي فيه. وفيما هو يراقبها، عاودته بعض الذكريات من الشرق؛ عندما كانت نساء البلدان الحارَّة يجلسنَ على عتبات منازلهنَّ تحت أشعَّة الشمس. إنَّما، الجوُّ شديد البرودة الآن، وقد تُرِكَت النافذة مفتوحة، ما سمح للدُّخان أن يهبَّ إلى الداخل. كان لا يزال يحمل الصحيفة في يده، فوضعها على الطاولة.

«هل قرأتِ الأخبار؟»، سألها.

وضعتْ فنجانها، وازداد اتِّساع عينيها الدَّاكنتين قليلاً؛ فقد بدت عيناها شديدتَي التكتُّم عن مشاعرها، ورفعت يدها بحركة توحي بترقُّبها لما سيقوله، وهي تنتظر أن يتكلَّم.

«بارنيل»، قال إيبل بإيجاز، «مات».

«مات؟»، كرَّرت يوجين. وتركت يدها تسقط على نحو استعراضيٍّ.

«نعم. في برايتون. البارحة».

«مات بارنيل»، كرَّرت.

«هكذا يقولون»، قال الكولونيل. لطالما كان انفعالها يشعره بمزيد من الواقعيَّة، لكنَّه يحبُّه. تناولت يوجين الصحيفة.

«مسكين!»، صاحت، وتركت الصحيفة تسقط.

«مسكين؟»، ردَّد. كانت عيناها ممتلئتين بالدموع. احتار الكولونيل. هل تقصد كيتي أوشيا؟ لم تخطر في باله.

«لقد دمَّرتْ مهنته من أجله»، قال معبِّراً عن سخطه بصوت أقرب إلى الشخير.

«آه، لكن لا بدَّ كانت تحبُّه!»، غمغمت يوجين.

مرَّرتْ يدها على عينَيها. صمت الكولونيل لوهلة. بدا له انفعالها لا يناسب الموضوع، لكنَّه كان صادقاً. وأحبَّه.

«نعم»، قال الكولونيل ببعض التصنُّع، «نعم، أعتقد ذلك». أمسكت يوجين الزهرة ثانية ورفعتها، وأدارتها. كانت بين الحين والآخر تشرد بذهنها على نحو غريب، لكنَّه يشعر بالاطمئنان معها على الدوام. استرخى جسده. وفي وجودها كان يشعر بالارتياح من بعض العراقيل.

«كم يعاني الناس!...»، غمغمت وهي تنظر إلى الزهرة، «كم يعانون يا إيبل!»، قالت. واستدارت، ونظرت إليه مباشرة.

هبَّت نفحة دخان هائلة قادمة من الحجرة الأخرى.

«ألا يزعجكِ تيَّار الدخان؟»، سألها وهو ينظر إلى النافذة. لم تجبه على الفور؛ فقد كانت تدير زهرتها. ثمَّ استيقظت من شرودها، وابتسمت.

«نعم، نعم، أغلق النافذة»، قالت وهي تلوِّح بيدها. ذهب الكولونيل وأغلق النافذة. ولَمَّا استدار، كانت قد نهضت ووقفت أمام المرآة، ترتِّب شعرها.

«كنَّا نوقد مشعلة لأجل عيد ميلاد ماغي»، غمغمت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة القادمة من البندقيَّة، الَّتي كانت ممتلئة بالبقع. «لذلك، لذلك...»، ملَّست شعرها، وثبَّتت زهرة الكاميليا على ثوبها. «إنَّني في غاية...»

أمالتْ رأسها إلى أحد الجانبين قليلاً؛ لتتبيَّن أثر الزهرة على ثوبها.

جلس الكولونيل وانتظر. وألقى نظرة خاطفة على الصحيفة الَّتي أحضرها.

«يبدو أنَّهم يبقون الأمور طيَّ الكتمان»، قال.

«أنت لا تعني...»، بدأت يوجين كلامها، لكن هنا، فُتح الباب ودخلت الطفلتان. ماغي؛ الكبرى، دخلت أوَّلاً، في حين أنَّ سارة؛ الطفلة الأخرى، تأخَّرت خلف أختها.

«مرحباً!»، هتف الكولونيل، «ها هما تان!»، واستدار نحوهما. كان مولعاً بالأطفال. «لتكن أيَّامك كلُّها سعيدة، ماغي!»، تلمَّس داخل جيبه بحثاً عن العقد الَّذي جهَّزته كروسبي في علبة كرتونيَّة. اقتربت ماغي منه لتأخذ العلبة. كان شعرها مسرَّحاً، وارتدتْ فستاناً رسميّاً نظيفاً. تناولت العلبة وفتحتها، أمسكت العقد ذا اللَّونَين الذهبّي والأزرق متدلِّياً من إصبعها. لوهلة، ارتاب الكولونيل في إن كانتْ قد أحبَّت العقد أو لا؛ فقد بدا مبهرجاً قليلاً وهو يتأرجح في يدها. كانت صامتة. وعلى الفور، جهَّزت لها أمُّها الكلمات التي يجب أن تقولها.

«كم هو رائع، يا ماغي! إنَّه رائع بكلِّ معنى الكلمة!».

أمسكت ماغي الخرز بيدها، ولم تتفوَّه بكلمة.

«اشكري العمَّ إيبل على العقد الرائع»، حثَّتها أمُّها.

«شكراً على العقد الرائع، عمّ إيبل»، قالت ماغي. تكلّمت الصغيرة بطريقة مباشرة ودقيقة، لكنَّ الكولونيل شعر بوخزة ارتياب أخرى. انتابته غصّة خيبة أمل لا تناسب الموقف. إلَّا أنَّ أمَّها ثبّتت العقد حول عنقها. ثمَّ انصرفت ماغي إلى أختها، الَّتي كانت تنظر خلسة من خلف أحد الكراسي.

«تعالي، يا سارة»، قالت أمُّها، «تعالي وقولي للعمِّ كيف حالك».

مدَّت سارة يدها قليلاً تلاطف أختها، قليلاً، خمَّن إيبل، لتخفي العاهة البسيطة الَّتي لطالما جعلته يشعر بالانزعاج؛ فقد وقعت عندما كانت طفلة صغيرة، فأصبح أحد كتفيها أعلى بقليل من الآخر، ما جعل الكولونيل حسَّاساً تجاه الأمر؛ إذ لا يمكنه احتمال أبسط عاهة يراها في الطفل. إنَّما، لم يؤثِّر ذلك في حيويَّتها. وثبت سارة إليه، ودارت حول نفسها على أصابع قدمها، وقبَّلته برفق على وجنته. ثمَّ جذبت فستان أختها، واندفعت الطفلتان نحو الحجرة الخلفيَّة وهما تضحكان.

«ستُعجِبهما هديَّتك الرائعة، إيبل»، قالت يوجين، «كم تدلِّلهما!»، وأضافتْ، «وتدلِّلني كذلك»، وهي تتلمَّس الكاميليا المثبَّتة على صدرها.

«آمل ذلك، أتراها أحبَّته؟»، تساءل. لم تجبه يوجين. كانت قد تناولت فنجان الشاي البارد من جديد، وارتشفت الشاي بطريقتها المتراخية الَّتي عُرِف بها أهل الجنوب.

«والآن»، قالت وهي تميل إلى الخلف بارتياح، «أخبرني بكلِّ أخبارك».

أسند الكولونيل ظهره، هو الآخر، إلى كرسيِّه. فكَّر ملياً لوهلة. ما أخباره؟ ودون تفكير مسبق، وجد أنَّ شيئاً لم يخطر في باله. كما أنَّه، مع يوجين، يرغب دوماً في ترك انطباع جيِّد؛ فهي تضفي بريقاً على الأشياء. وفيما هو متردِّد، بدأت تقول:

«لقد أمضينا وقتاً رائعاً في البندقيَّة! أخذتُ الطفلتين معي. لذلك أصبحنا سمراوات للغاية. لم تكن غرفنا تطلُّ على القناة الكبيرة، فأنا أكره

القناة الكبيرة، أكتفي بالبقاء بعيدة عنها. اكتسبنا هذا اللَّون من الشمس اللاهبة؛ فقد قضينا أسبوعين»، تردَّدتْ، «مدهشَين»، هتفتْ، «مدهشَين»، وفتحت يدها. كانت إيماءاتها تدلُّ على أهمِّيَّة استثنائيَّة. هكذا تتلاعب بالأمور، فكَّر الكولونيل. لكنَّه معجب بها لهذا السبب.

لم يذهب إلى البندقيَّة منذ سنوات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ألم تصادفنَ أشخاصاً ممتعين؟»، سألها.

«لا أحد»، قالت، «لا أحد، ما من أحد عدا آنسة مروِّعة. من أولئك النسوة اللواتي يجعلن المرء يخجل من موطنه»، قالتْ بحيويَّة.

«أعرفهم»، قال وهو يضحك ضحكة خافتة.

«لكنَّ العودة من الشاطئ في المساء»، تابعت كلامها، «الغيوم فوقنا والماء تحتنا؛ فقد كانت لغرفتنا شرفة، اعتدنا الجلوس فيها»، ثمَّ توقَّفت.

«هل كان ديغبي معكم؟»، سأل الكولونيل.

«لا، المسكين ديغبي. حصل على إجازته في وقت سابق، في أغسطس. قضاها في الشمال في اسكتلندا يصطاد مع أسرة لاسويد». هنا أخذتْ تتلاعب مجدَّداً، ظنَّ الكولونيل.

لكنَّها تابعت كلامها.

«الآن أخبرني عن أسرتك. مارتن وإليانور، هيو وميلي، موريس و...»، تردَّدت، ظنَّ الكولونيل أنَّها نسيت اسم زوجة موريس.

«سيليا»، قال. توقَّف عن الكلام. أراد أن يخبرها عن ميرا. لكنَّه أخبرها عن أسرته: هيو وميلي، موريس وسيليا. وإدوارد.

«يبدو أنَّه سيدرس في جامعة أكسفورد»، قال بصوت أجشَّ. كان فخوراً بإدوارد.

«وديليا؟»، سألت يوجين. ونظرت في الصحيفة. على الفور فقد الكولونيل دماثته، وفكَّرت في أنَّه يبدو كالح الوجه ومرعباً، كثور عجوز محنيٍّ الرأس.

«ربَّما يعيد إليها هذا الأمر عقلَها»، قال بصرامة. وصمتا لفترة وجيزة. ومن الحديقة جاءت أصوات ضحكات الطفلتين العالية.

«أوه، إنَّهما الطفلتان»، هتفت. نهضت واتَّجهت نحو النافذة. ثمَّ تبعها الكولونيل. كانت الطفلتان قد تسلَّلتا وعادتا إلى الحديقة. والمشعلة تتأجَّج بقوَّة؛ فقد ارتفع عمود لهب واضح في منتصف الحديقة. كانت الصغيرتان تضحكان وتصيحان وهما ترقصان حول النار. وقف هناك رجل متقدِّم في السنِّ، رثّ الملبس، يشبه سائس خيل واهن، ينظر إليهما، وهو يحمل مشط الحدائق. دفعت يوجين النافذة لتفتحها، وصاحت، لكنَّ الصغيرتين تابعتا رقصهما، مال الكولونيل إلى الخارج أيضاً، وبدت الصغيرتان بشعرهما المتطاير كمخلوقَين بريَّين. كان بودِّه النزول ومشاركتهما القفز حول المشعلة، لكنَّ عمره لا يسمح بذلك. أجَّتِ النيران عالياً، باللَّونين الذهبيِّ الصافي والأحمر القاني.

«مرحى!»، صاح وهو يصفِّق، «مرحى!».

«الشيطانتان الصغيرتان»، قالت يوجين، لاحظ الكولونيل أنَّ حماسها كحماس ابنتَيها، اتَّكأتْ على النافذة وصاحت للرجل المسنِّ الَّذي يحمل مشط الحدائق:

«أضرم النار! أضرمها!».

إنَّما، كان الرجل المسنُّ يجرف النار؛ فتبعثرت الأعواد، وخمدت النار، وأبعد الطفلتَين.

«حسناً، انتهى الأمر»، قالت يوجين وهي تتنهَّد. استدارت، فرأت شخصاً قد دخل الحجرة.

«أوه، ديغبي، لم أشعر بقدومك!»، هتفت. كان ديغبي يقف حاملاً حقيبة.

«مرحباً، ديغبي»، قال إيبل وهو يصافحه.

«ما كلُّ هذا الدُّخان؟»، سأل ديغبي وهو ينظر حوله.

فكَّر إيبل في أنَّه قد كَبر في السنِّ قليلاً. كان يقف هناك، يرتدي معطفاً طويلاً، والأزرار العلويَّة للمعطف مفتوحة، بدا معطفه بالياً بعض الشيء، وقد ابيضَّ شعر أعلى رأسه، لكنَّه لا يزال شديد الوسامة. وهو يقف إلى جانب ديغبي، شعر الكولونيل أنَّه ضخم الهيئة، خشن المظهر، وفظٌّ. وشعر ببعض الخجل لأنَّه ضُبِطَ متَّكئاً إلى خارج النافذة يصفِّق. ولَمَّا وقفا جنباً إلى جنب، قال الكولونيل لنفسه؛ يبدو ديغبي أكبر سنّاً من ذي قبل، ومع ذلك فهو أصغر منِّي بخمس سنوات. إنَّه رجل متميِّز بطريقته الخاصَّة؛ الأعلى قدراً ومنصباً في عمله؛ فارس ويتحلَّى بكلِّ شيم الفروسيَّة، لكنَّه ليس ثريّاً بقدري، تذكَّر الكولونيل برضا، لأنَّه؛ الكولونيل، كان مخفقاً في الأمرين.

«تبدو متعباً للغاية، ديغبي»، هتفت يوجين وهي تجلس، «عليه أن يأخذ إجازة حقيقيَّة»، قالت وهي تستدير إلى إيبل، «آمل أن تخبره بذلك». مسح ديغبي بنطاله بيده ليزيل منه خيطاً أبيضَ علق به، وسعل سعالاً بسيطاً؛ كانت الحجرة ممتلئة بالدخان.

«لِمَ كلُّ هذا الدُّخان؟»، سأل زوجته.

«كنَّا نوقد مشعلة لعيد ميلاد ماغي»، قالت مسوِّغةً.

«أوه، حسناً»، قال. اغتاظ إيبل؛ فقد كانت ماغي المفضَّلة لديه، إذ على والدها أن يتذكَّر عيد ميلادها.

«نعم»، قالت يوجين وهي تستدير نحو إيبل ثانية، «إنَّه يدع الجميع يأخذون إجازة، لكنَّه هو نفسه لا يأخذ إجازة. وبعد ذلك، حينما يعمل طوال اليوم في المكتب، يعود إلى المنزل وحقيبته ممتلئة بالأوراق»، وأشارت إلى الحقيبة.

«عليك ألَّا تعمل بعد العشاء»، قال إيبل، «إنَّها عادة سيِّئة». ظنَّ الكولونيل أنَّ ديغبي يبدو مريضاً. إنَّما ديغبي لم يكن يقيم وزناً لفيض العواطف الرقيق هذا.

«هل عرفتَ الأخبار؟»، سأل أخاه وهو يشير إلى الصحيفة.

«نعم، يا للسماء!»، قال إيبل. كان يحبُّ التكلُّم في السياسة مع أخيه، مع أنَّه مستاء قليلاً من تصنُّعه في الأوساط الرسميَّة؛ وكأنَّ بإمكانه قول المزيد لكن عليه ألَّا يفعل، ثمَّ يظهر كلُّ شيء في الصحف في اليوم التالي، فكَّر الكولونيل، ومع ذلك يتكلَّمان في السياسة على الدوام. أسندت يوجين ظهرها في زاويتها كما هي عادتها لتدعهما يتكلَّمان، ولم تقاطعهما قطُّ، لكنَّها نهضت في النهاية وبدأت في ترتيب الحجرة وإزالة الفضلات الَّتي سقطت من صندوق الأوراق. صمتَ ديغبي وأخذ يراقبها؛ كان ينظر إلى المرآة.

«هل أحببتَها؟»، سألته يوجين وهي تضع يدها على إطار المرآة.

«نعم»، قال ديغبي، لكنَّ صوته كان يحمل تلميحاً بالامتعاض، «إنَّها جميلة بالفعل».

«إنَّها لغرفة نومي فقط»، قالت بسرعة. راقبها ديغبي وهي ترصُّ فُتات الأوراق في الصندوق.

«تذكَّري»، قال لها زوجها، «سنتناول العشاء مع أسرة كاثام الليلة».

«أعرف»، وتلمَّست شعرها من جديد، «عليَّ أن أهيِّئ نفسي»، قالت. مَن هم «أسرة كاثام»؟ تساءل إيبل. كبار الشخصيَّات، شخصيَّات بارزة، افترض على نحو مستهزئ بعض الشيء. لقد اجتازا شوطاً كبيراً في ذلك العالَم. فَهِمَ من كلامهما الأخير أنَّه تلميح بوجوب ذهابه، فقد وصلا -هو وديغبي- إلى نهاية ما كانا يقولانه لبعضهما. على الرَّغم من ذلك، ما زال يأمل في أن يتكلَّم مع يوجين فقط.

«فيما يخصُّ هذا الموضوع الأفريقيِّ...»، بدأ كلامه؛ يذكِّره بمسألة أخرى، حينها دخلت الطفلتان، قدمتا لتقولا ليلة سعيدة. كانت ماغي تضع العقد الَّذي أحضره لها، وبدا جميلاً للغاية، فكَّر الكولونيل، أم أنَّها هي الَّتي تبدو جميلة جدّاً؟ إنَّما، كان فستانَا الفتاتين، الفستانان النظيفان، الأزرق والورديُّ، مجعَّدَين؛ كان الفستانان قد تلطَّخا بأوراق لندن المتَّسخة الَّتي كانتا تحملانها بيديهما.

«أيَّتها الشرِّيرتان الصغيرتان المتَّسختان!»، قال والدهما وهو يبتسم لهما، «لماذا ارتديتما أفضل ثيابكما لتلعبا في الحديقة؟»، قال السير ديغبي عندما قبَّل ماغي. قال ذلك مازحاً، لكن كان في نبرته تلميح إلى عدم الموافقة. لم تجب ماغي، إذ كانت عيناها مثبَّتتين على زهرة الكاميليا الَّتي وضعتها أمُّها في مقدِّمة فستانها، ثمَّ صعدت درجات السلَّم ووقفت تنظر إليها.

«وأنتِ، كم تشبهين منظِّف المداخن الصغير!»، قال السير ديغبي مشيراً إلى سارة.

«اليوم عيد ميلاد ماغي»، قالت يوجين وهي تمدُّ ذراعها ثانية، كأنَّها تحمي الفتاة الصغيرة.

«ذاك هو السبب، كان عليَّ أن أفكِّر»، قال السير ديغبي وهو يتفحَّص ابنتيه، «لِـيحسِّ.. يحـسِّـ.. يحسِّن المرء عادته»، تلعثم، في محاولة منه لجعل جملته تبدو مازحة، واتَّضح أنَّه يفعل ذلك عادةً عندما يتحدَّث إلى الطفلتَين، أسلوب تقليديٌّ ومبالغ فيه قليلاً.

نظرت سارة إلى والدها وكأنَّها تحترمه.

«لِـيحسِّـ.. يحـسِّـ.. يحسِّن المرء عادته»، كرَّرتْ. وعلى الرَّغم من أنَّها جرَّدت الجملة من معناها، إلَّا أنَّها قلَّدت إيقاع كلماته تماماً. كان تأثير ذلك مضحكاً بطريقة ما. ضحك الكولونيل، لكنَّه شعر أنَّ ديغبي كان

منزعجاً. اكتفى بالتربيت على رأس سارة عندما قالت تصبحون على خير، لكنَّه قبَّلها عندما مرَّت من أمامه.

«هل استمتعتم بعيد الميلاد؟»، سألها وهو يجذبها إليه. وجعل إيبل من ذلك ذريعة ليغادر.

«إنَّما، لا حاجة إلى أن تذهبَ بعد، يا إيبل»، اعترضت يوجين عندما مدَّ يده ليصافحها. ظلَّتْ ممسكة بيده كأنَّها تمنعه من الذهاب. ماذا تعني بذلك؟ أتريده أن يبقى؟ أتريده أن يذهب؟ كانت عيناها الواسعتان الدَّاكنتان غامضتين. «لكنَّكما ستتناولان طعام العشاء خارج المنزل؟»، سأل.

«نعم»، أجابت، وأفلتتْ يده، وبما أنَّها لم تقل أكثر من ذلك، إذاً افترض الكولونيل أنَّه لم يعد ثمَّة ما يفعله، وعليه أن يغادر.

«أوه، لا داعيَ لمرافقتي إلى باب المنزل»، قال حين مغادرته الحجرة.

نزل درجات السلَّم ببطء، وشعر بالكآبة وخيبة الأمل، إذ لم يجلسا وحدهما، ولم يخبرها بشيء. ربَّما عليه ألَّا يخبرَ أحداً بشيء. ففي النهاية، فكَّر وهو ينزل الدرج، ببطء، وبتثاقل، هذا شأنه وحده، ولا شأن لأيٍّ أحد بالأمر. على المرء أن يعتمد على نفسه، فكَّر وهو يتناول قبَّعته. وألقى نظرة خاطفة حوله.

نعم... كان المنزل ممتلئاً بالأشياء الجميلة. نظر بغموض إلى كرسيٍّ موضوع في الردهة؛ كان قرمزيَّ اللَّون، وله مقابض مذهَّبة. كان يحسد ديغبي على منزله، وعلى زوجته، وعلى طفلتَيه. شعر أنَّ العمر يتقدَّم به، وأصبح كلُّ أبنائه ناضجين، وقد غادروه. توقَّف عند عتبة الباب ونظر إلى الشارع في الخارج، كان الظلام قد حلَّ، وأُضيئت المصابيح، وكان الخريف يقترب. ولَمَّا سار في الشارع المظلم والعاصف، الَّذي أصبح الآن منقَّطاً بقطرات المطر، هبَّتْ مقابل وجهه نفحة دخان، وتساقطت أوراق الأشجار.

١٩٠٧

كان الوقت منتصف الصيف، وكانت الليالي حارَّة. هبط القمر على سطح الماء، وسواء كان الماء عميقاً أم ضحلاً، فقد منحه ضوء القمر لوناً أبيضَ، وجعله يبدو مُبْهَماً. أمَّا الأشياء الصلبة، فقد منحها ضوء القمر، عندما سقط عليها، لمعاناً فضِّياً متألِّقاً، لذلك حتَّى أوراق الأشجار، في الطرق الريفيَّة، بدت مصقولة. وعلى طول الطرق الريفيَّة الهادئة المتَّجهة إلى لندن، تهادت العربات من ذات العجلتين، الَّتي يجرُّها حصان واحد، وثُبِّتت أعنَّتها الحديديَّة بأذرع حديديَّة، كانت تتحرَّك ببطء ناقلة الخضراوات والفواكه والزهور، الَّتي وُضِعتْ في أكوام عالية، ومعها أقفاص مستديرة ممتلئة بالملفوف والكرز والقرنفل. كانت تشبه قوافل القبائل، وهي تحمل بضائعها، تجول بحثاً عن الماء، وقد أكرههم أعداؤهم على البحث عن مرتع جديد لهم. وفي سَيرهم المتهادي، في هذا الطريق وذاك، يحافظون على قربهم من الرَّصيف. حتَّى الجياد، الَّتي حُجبت عيونها، استطاعت سماع دويّ لندن من بعيد. وسائقو العربات، الَّذين غلبهم النعاس، رأوا، على الرَّغم من أنَّ عيونهم نصف مغمضة، الضبابَ الرقيق للمدينة ذات اللهيب الأزليِّ. وفي الفجر، عند حديقة «كوفينت»، يفرغون حمولتهم والطاولات والمساند، فيبدو كلُّ شيء مزركشاً، حتَّى الحصى، على الرَّغم من وجود بعض الغسيل المعلَّق في الأعلى مع الملفوف والكرز والقرنفل.

كانت كلُّ النوافذ مفتوحة. وتردَّد صوت الموسيقا. ومن وراء الستائر الرقيقة القرمزيَّة، الَّتي كانت أحياناً تتَّسع حين هبوب الرياح، جاء صوت الفالس مستمرّاً، حتَّى بعد انتهاء الحفل الموسيقيِّ، وتوقُّف الرقص، كثعبان ابتلع ذيله، بطول الحلقة من «هاميرسميث» إلى «شوريديتش». تكرَّرت

الموسيقا مراراً وتكراراً بآلات الترومبون الموسيقيَّة من الفنادق، وصَفَرَ السُّعاة الصغار اللَّحن، وعزفت الفِرَق الموسيقيَّة اللَّحن في الغرف الخاصَّة، الَّتي رقص الناس داخلها، وجلسوا هناك إلى الطاولات الضيِّقة في «وابينغ»؛ الحانة الرومانسيَّة الَّتي تشرف على النهر، وبين مستودعات الخشب، حيث ترسو الزوارق البخاريَّة. وهنا، في «مايفير» أيضاً، كان لكلِّ طاولة مصباحها، ومظلَّتها القماشيَّة الحمراء، ذات الخيوط الحريريَّة الـمُحوكَة على نحو متراصٍّ، وزهورها -الَّتي تشرَّبت رطوبة التربة منتصف نهار ذلك اليوم- ذوات البتلات المتفتِّحة المستقرَّة في الزُّهريَّات. ووُضِع على كلِّ طاولة هرمٌ من حبَّات الفراولة، وطبق من طائر السُّمانى ممتلئ الجسم بلونه الفاتح. وجد مارتن -بعد أن زار الهند وأفريقيا- التشويق في أن يتجاذب أطراف الحديث مع فتاة تكشف كتفَيها، ومع امرأة ترتدي ثياباً ملوَّنة، وتضع على شعرها زينة في شكل جناحَي خنفساء أخضرين، بطريقة تسوِّغ لها رقص الفالس، وتخفي بها بعضاً من مداهنتها الشغوف. أمن المهمِّ ما يقوله المرء؟ وذلك لأنَّها نظرت من فوق كتفَيها، نصف منصتةً، إلى رجل متزيِّن عندما دخل، لكنَّ سيِّدة أخرى أشارت إليه، كانت ترتدي ثوباً أسودَ وتضع الماس، ليجلسا في زاوية منعزلة.

ولَمَّا خيَّم الليل، ناشراً ضوءاً أزرقَ لطيفاً، كانت عربات التسوُّق لا تزال تتهادى على مقربة من حافَّة الطريق. وعند الفجر، كانت العربات قد تجاوزت «ويستمينستر»، والساعات الطرقيَّة الدائريَّة الصُّفر، وأكشاك بيع القهوة، والتماثيل التي وقفت هناك، ممسكة، على نحو مبالغ فيه، بقضبانها الخشبيَّة أو بلفائف ورقها. في حين تعقَّب عمَّال النظافة هذه العربات، ينظِّفون الأرصفة. كنس عمَّال النظافة الأرصفة من أعقاب السجائر، وقصاصات ورق الألمنيوم، وقشور البرتقال، وكلّ قمامة اليوم. وما زالت العربات تتهادى، وعربات الأجرة تهرول، بإصرار، على طول أرضيَّة شارع «كينسينغتون» المرصوفة، قديمة الطراز، لتصل إلى شارع «مايفير»،

وتسير تحت مصابيحه البرَّاقة، وهي تحمل السيِّدات -اللواتي ارتدينَ أغطية رؤوس عالية- والسادة -الَّذين ارتدوا صدريَّات بيض- على طول الطرقات الجافَّة المتشابهة، الَّتي بدتْ في ضوء القمر كأنَّها مطليَّة بالفضَّة.

«انظروا!»، قالت يوجين، حين عبور العربة من فوق الجسر، وقت الشفق الصيفيِّ، «أليس المنظر بديعاً؟».

لوَّحت بيدها فوق الماء. ولَمَّا عبروا المنعطف، كانت تستمع إلى ما يقوله زوجها، لكن جاء هتافها ذاك استطراداً. كانت معهما ابنتهما ماجدالينا، الَّتي نظرت إلى حيثُ أشارت أمُّها. كان المنعطف هناك، وقد تلوَّن بالأحمر عند غروب الشمس، وقد نُظِّمت الأشجار في مجموعات، ونُقِش عليها، وفقدتْ تفاصيلها، فبدا المنظر خياليّاً مع الطراز المعماريِّ للجسر الصغير، الَّذي كان لونه أبيضَ في نهايته. ومُزِجَت الإضاءة -ضوء الشمس والمصابيح الصناعيَّة- على نحو غريب.

«... بالطبع، وُضِعت الحكومة في موقف حرج»، قال السير ديغبي، «لكن هذا ما أراده هو».

«نعم... سيكتسب شهرة، ذاك الشابّ»، قالت الليدي بارغيتر.

اجتازت العربة الجسر. سارت تحت ظلال الأشجار، ثمَّ غادرت المتنزَّه، وانضمَّت إلى صفٍّ العربات الطويل. كانت تلك العربات تقلُّ الأشخاص الَّذين يرتدون ثياب السهرة لحضور المسرحيَّات، أو حفلات العَشاء. كانت العربات تتَّجه نحو «القوس الرخاميِّ». ازدادت الإضاءة الاصطناعيَّة أكثر فأكثر؛ أصبح الضوء أكثر اصفراراً. مالت يوجين ولمست شيئاً كان على ثوب ابنتها. رفعت ماغي بصرها، ظنّاً منها أنَّهما لا يزالان يتحدَّثان في السياسة.

«إذاً»، قالت أمُّها، وهي تعدِّل الزهرة المثبَّتة في مقدِّمة ثوب ابنتها، وأمالت رأسها جانباً، ونظرت إلى ابنتها باستحسان، ثمَّ أطلقت ضحكة مفاجئة، ومدَّت ذراعها. «أتعلم لِمَ تأخَّرتُ؟»، سألتْ، «تلك العفريتة، سالي...»

فقاطعها زوجها، فقد انتبهَ إلى الساعة الـمُضاءة.

«سنتأخَّر»، قال.

«لكنَّ الثامنة والربع تعني الثامنة والنصف»، قالت يوجين عندما انعطفت العربة في طريق فرعيٍّ.

في البيت الواقع في شارع «بروني»، كان كلُّ شيء هادئاً. سقط شعاع ضوء من الشارع وتخلَّل النافذة الدائريَّة الَّتي فوق الباب. ودون سبب، أنار الضوء صينيَّة عليها أكواب موضوعة على طاولة البهو، وقبَّعة رسميَّة، وكرسيّاً ذا مقابض مذهَّبة. كان مظهر الكرسيِّ فخماً، وقد انتصب خالياً، كأنَّه ينتظر قدوم شخص ما، ويوحي منظره أنَّه موضوع على البلاط المتصدِّع لحجرة انتظارٍ إيطاليَّة. إنَّما، كان كلُّ شيء هادئاً. فقد كان أنطونيو، الخادم، نائماً، ومولي، الخادمة، نائمة أيضاً. في الأسفل، في القبو، تحرَّك أحد الأبواب جيئة وذهاباً، عدا ذلك كلُّ شيء كان ساكناً.

كانت سالي في حجرة نومها، في أعلى طابق من المنزل، مستلقية في سريرها، استدارت إلى جانبها، وأنصتت باهتمام. ظنَّتْ أنَّها سمعت صوت طقطقة الباب الأماميِّ للمنزل. واندفع فجأة صوت موسيقا راقصة، دخل عبر النافذة المفتوحة، فأصبح من المستحيل سماع أيِّ صوتٍ آخرَ.

جلستْ في سريرها، ونظرت إلى الخارج من خلال فتحة في الستارة الرقيقة. واستطاعت، عبر تلك الفتحة، رؤية جزء من السماء، ثمَّ أسطح المنازل، ثمَّ شجرة في حديقة المنزل، ثمَّ الجانب الخلفيُّ للمنازل المقابلة لها؛ الواقفة في صفٍّ طويل. كانت إضاءة أحد تلك المنازل متألِّقة، ومن نوافذه الطويلة المفتوحة جاءت الموسيقا الراقصة. شاهدتهم عبر الستارة يرقصون الفالس، كانوا ظلالاً تدور. من المستحيل القراءة أو النوم. في البدء كان السبب الموسيقا، ثمَّ أصوات أحاديث مفاجئة؛ فقد خرج المدعوُّون إلى حديقة المنزل، وسمعت أصوات ثرثرتهم. ثمَّ عادت الموسيقا.

كانت ليلة صيفيَّة حارَّة، وعلى الرَّغم من أنَّ الوقت متأخِّر، إلَّا أنَّ العالَم كلَّه بدا مفعماً بالحيويَّة، وكان صوت تزاحم حركة المرور بعيداً، لكنَّه كان صوتاً متعاقباً.

ثمَّة كتابٌ باللَّون البنِّي الفاتح ملقىً على سريرها، ما يوحي بأنَّها كانت تقرأ. لكن، الآن أصبح من المستحيل القراءة، أو النوم. أسندت ظهرها إلى الوسادة ويدَاها خلف رأسها.

«ويقول»، غمغمتْ، «ليس العالَم سوى...»، توقَّفت لوهلة. ماذا قال؟ ليس سوى فكرة، أكان هذا ما قاله؟ سألت نفسها كأنَّها قد نسيت. حسناً، بما أنَّ من المستحيل القراءة، ومن المستحيل النوم، فستدع نفسها تفكِّر. إنَّ عمل الأشياء أسهل من التفكير فيها. الأرجل، الجسم، اليدان، كلُّها يجب أن ترقدَ من دون حراك؛ لتأخذ دورها في عمليَّة التفكير الكونيَّة هذه، الَّتي قال عنها الرجل إنَّها حياة العالَم. تمطَّت. من أين تبدأ الفكرة؟

من القدمَين؟ تساءلت. ها هما تان بارزتان من تحت غطاء السرير. أنَّهما منفصلَتان، بعيدَتان إحداهما عن الأخرى. أغمضت عينَيها. ثمَّ تيبَّس شيء فيها، رغماً عنها. من المستحيل التفكير. لقد تحوَّلت إلى شيء ما، جذر؛ يمتدُّ عميقاً في التربة، وبدت عروقها تشقُّ طريقها في التربة الباردة، ونمت أغصان الشجرة، وأورقت.

«... تشرق الشمس، وتتخلَّل أشعَّتها الأوراق»، قالت، وهي تهزُّ أصابعها. فتحت عينيها كي تتأكَّد من هبوط أشعَّة الشمس على الأوراق، ولترى الشجرة الحقيقيَّة الواقفة هناك في الخارج في حديقة المنزل. لن تزيِّنها أشعَّة الشمس؛ لأنَّها عارية تماماً من الأوراق. شعرت لوهلة كأنَّها تناقض ذاتها، لأنَّ الشجرة هنا كانت سوداء، ميتة تماماً.

أسندت مرفقها على طرف السرير، ونظرت إلى الشجرة في الخارج. جاء صوت تصفيق مختلط من الحجرة الَّتي كانوا يرقصون فيها. توقَّفت

الموسيقا، وبدأ المدعوُّون يهبطون السلَّم الحديديَّ متَّجهين إلى الحديقة، الَّتي تميَّزت بالمصابيح الزُّرق والصُّفر، الموزَّعة على طول الحائط. علت الأصوات أكثر. وانضمَّ المزيد والمزيد من الأشخاص. وامتلأت الباحة الخضراء، ذات الأضواء الموزَّعة، بأشخاص غير واضحي المعالم، يتتابعون، النساء يرتدينَ فساتين السهرة، والرجال يقفون منتصبي القامات، ببذلات السهرة البيض والسود. راقبتهم وهم يدخلون ويخرجون. كانوا يتكلَّمون ويضحكون، لكنَّهم كانوا بعيدين جدّاً، أبعد من أن تسمع ما يقولونه. أحياناً تعلو كلمة أو ضحكة على بقيَّة الأصوات، ثمَّ ساد صوت اختلاط غمغمة. في حين كانت حديقة منزلهم فارغة، ويسودها الهدوء. زحفت هرَّة خلسة على طول الحافَّة العلويَّة للسور، ثمَّ توقَّفت، ثمَّ تابعت زحفها، كما لو أنَّها خرجت في مهمَّة سرِّيَّة. وبدأت رقصة أخرى.

«من جديد، من جديد!»، هتفتْ متبرِّمة. هبَّ في وجهها الهواء، المحمَّل برائحة تربة لندن الجافَّة الغريبة، وعصف بالستارة الرقيقة تجاهها. لَمَّا انبسطت الستارة على سريرها، رأت القمر، فبدا عالياً وهائلاً فوقها، وقد عبر بعض البخار أمام سطحه. ولَمَّا تباعد البخار عن القمر، رأت الحفر على قرصه. ما هي؟ تساءلت، أهي جبال؟ وديان؟ وإن كانت ودياناً، قالت لنفسها وقد غلبها النعاس، إذاً فالأشجار بيضٌ، والتجاويف من الجليد، والبلابل، بلبلان اثنان ينادي أحدهما الآخر؛ ينادي أحدهما، عبر الوديان، فيجيبه الآخر. تناسبت موسيقا الفالس مع الكلمات «ينادي أحدهما، فيجيبه الآخر»، واندفعت الموسيقا كأنَّها تردِّدها، لكن بتكرار الإيقاع مراراً وتكراراً، بدت الكلمات غليظة، لقد أضاعت الموسيقا جوهر الكلمات. تنوَّعت الموسيقا الراقصة؛ كانتْ في البداية مشوِّقة، ثمَّ أصبحت مملَّة، وفي النهاية باتتْ لا تُطاق. ومع ذلك، لم تتجاوز الساعة الواحدة إلَّا عشرين دقيقة.

ارتفعت شفتاها، كما يفعل الحصان عندما يوشك أن يعضَّ. كان الكتاب البنيُّ الصغير مُضجراً. رفعت يدها إلى فوق رأسها، وتناولت كتاباً آخرَ من

على الرفِّ ذي الكتب القديمة، من دون أن تنظرَ إليه. فتحت الكتاب كيفما اتَّفق، لكن استقرَّت عينها على شخصين كانا لا يزالان يجلسان في حديقة ذاك المنزل، على الرَّغم من أنَّ الآخرين دخلوا قاعة الرقص. يا تُرى، ماذا يقولان؟ تساءلت. كان هناك شيء ما يبرق في العشب، وبقدر ما أمكنها أن ترى، انحنى الشخص الَّذي يرتدي الأبيض والأسود، وتناوله.

«لَمَّا تناوله»، غمغمتْ وهي تنظر إلى الخارج، «قال للسيِّدة الَّتي إلى جانبه: انظري، آنسة سميث، ماذا وجدتُ على العشب؛ قطعة من قلبي، من قلبي المكسور، قال. وجدتُه في العشب، وها أنا ذا أضعه على صدري»، تمتمت الكلمات بتناغم مع موسيقا الفالس الشجيَّة، «قلبي المكسور، هذا الزجاج المكسور، من الحبِّ»، توقَّفت قليلاً، وألقت نظرة سريعة على الكتاب. كُتِب على الورقة الأولى منه -الورقة الفارغة في أوَّل الكتاب-:

«سارة بارغيتر، من ابن عمِّها إدوارد بارغيتر».

«... لأنَّ الحبَّ»، ختمت، «هو الأفضل».

وقلبت إلى صفحة عنوان الكتاب.

«أنتيغون سوفوكليس، نقلها إلى الشعر الإنكليزيِّ إدوارد بارغيتر»، قرأتْ.

نظرت مرَّة أخرى عبر النافذة إلى الخارج؛ كان الشخصان قد تحرَّكا، وصعدا السلَّم الحديديَّ. راقبتْهما. دخلا قاعة الرقص. «وبفرض أنَّها، في منتصف الرقصة»، غمغمت، «أخرجتْهُ، ونظرتْ إليه، وقالت: ما هذا؟ إنَّه مجرَّد قطعة من زجاج مكسور، من زجاج مكسور...»، نظرت إلى الكتاب من جديد.

«أنتيغون سوفوكليس»، قرأت. كانت طبعة حديثة للكتاب، لكنَّه انشقَّ عندما فتحته، إنَّها تفتح الكتاب للمرَّة الأولى.

«أنتيغون سوفوكليس، نقلها إلى الشِّعر الإنكليزيِّ إدوارد بارغيتر»، قرأت مرَّة ثانية. كان قد أعطاها إيَّاه في «أكسفورد»، ذات مساء حارٍّ، عندما كانا

يتجوَّلان بين الكنائس والمكتبات. «يتجوَّلان ويشكوان»، تمتمت، وهي تقلِّب الصفحات، «وقال لي، وهو ينهض عن الكرسيِّ المنخفض، ويخلِّل أصابعه في شعره»، التفتت إلى خارج النافذة، «شبابي الضائع، شبابي الضائع»، كانت موسيقا الفالس الآن على أشدِّها، أشجى ما تكون. «ممسكاً يده»، تمتمت بالتزامن مع نغمة الفالس، «قطعة الزجاج المكسورة هذه، القلب الذابل هذا، قال لي...»، وهنا توقَّفت الموسيقا، وعلا صوت التصفيق، وخرج الراقصون من جديد إلى حديقة المنزل.

تخطَّت بضع صفحات. في البداية، قرأت سطراً أو سطرين عشوائيّاً، ثمَّ، من اختلاط الكلمات المتقطِّعة، تراءت لديها المشاهد، بسرعة، وغير دقيقة، وهي تتخطَّى الصفحات. كان جسد القتيل غير مدفون، مسجَّىً كجذع شجرة مكسور، كتمثال، وإحدى قدميه مكشوفة في الهواء غير مقيَّدة. تجمَّعت العقبان، وحطَّت على الرمل الرماديِّ بقوَّة، واقتربت الطيور ثقيلة الرؤوس، متهاديةً في مشيتها، تترنَّح، وتتمايل، وحلوقها الرماديَّة تهتزُّ مصدرةً صوتَ طقطقة، متأمِّلة -ضربت بيدها على غطاء السرير وهي تقرأ- قطعة اللحم الكبيرة الراقدة هناك. طرقتْ بهزَّات متكرِّرة سريعة، سريعة، سريعة على اللَّحم المتعفِّن. نعم، ألقت نظرة خاطفة على الشجرة الموجودة خارجاً في حديقة المنزل. كانت جثَّة القتيل غير مدفونة، ترقد على الرمل. ثمَّ جاءت سحابة صفراء تدور؛ مَن؟ قلبت الصفحة بسرعة. أهي أنتيغون؟ لقد جاءت وهي تدور، خارجة من سحابة غبار، إلى حيث كانت العقبان تترنَّح، وألقت غباراً أبيض على القدم المسودَّة. وقفت هناك تاركةً الغبار الأبيض يسقط على القدم المسودَّة. ثمَّ لاحظت! كان هناك المزيد من السحب؛ سحب داكنة، قفز منها الفرسان، تملَّكها الذعر، قُيِّد معصماها بأغصان الصفصاف، وحملها الفرسان، وهي لا تزال مقيَّدة؛ إلى أين؟

صدر صوت ضحك صاخب من الحديقة. رفعت بصرها، إلى أين أخذوها؟ تساءلت. كانت الحديقة ممتلئة بالأشخاص، ولم تستطع سماع كلمة ممَّا كانوا يقولون، كانوا يدخلون ويخرجون.

«هل أخذوها إلى المحكمة الموقَّرة للحاكم المبجَّل؟»، غمغمت، وقد التقطت كلمة أو كلمتين عشوائيّاً، قالت ذلك لأنَّها كانت لا تزال تنظر إلى حديقة ذاك المنزل. كان اسم الرجل كريون، لقد دفنها. كانت ليلة مقمرة، وبدت أوراق الصبَّار فضيَّة وحادَّة. طرق الرجل ذو المئزر بمطرقته، على القرميد، ثلاث طرقات مدوِّية، لقد دُفِنَتْ حيَّة، كان قبرها كومةً من القرميد، لا يتَّسع إلَّا لجثَّتها الممدَّدة. ممدَّدة في قبر قرميديٍّ، قالت، وهذي هي النهاية، تثاءبت وهي تغلق الكتاب.

استلقت، تحت الأغطية الناعمة الباردة، وجذبت الوسادة لتغطِّي بها أذنيها. أحاط الغطاء والملاءة جسدها برفق، وكان الفِراش عند نهاية سريرها ليِّناً، وبارداً، وممتدّاً. أصبح صوت الموسيقا الراقصة بطيئاً، غلبها النعاس فجأة، فهوى جسدها ليصل إلى الأرض. خطرَ لها خاطر غامض، تاركاً في محلِّه فاصلاً، فراغاً. أصبح كلُّ شيء؛ الموسيقا، والأصوات، بعيدة وعامَّة. وقع الكتاب على الأرض، لقد نامت.

«إنَّها ليلة رائعة»، قالت الفتاة التي تصعد السلَّم الحديديَّ مع مرافقها، وأسندت يدها على الدرابزين، كان الجوُّ شديد البرودة. رفعت بصرها، فرأت هالة نور صفراء تحيط بالقمر، بدت كأنَّها شيء يضحك وهي تحيط به. رفع مرافقها نظره هو الآخر، وصعد درجة أخرى على السلَّم دون أن ينبس ببنت شفة؛ لأنَّه كان خجلاً.

«هل ستذهبين إلى المباراة غداً؟»، سألها بتصنُّع؛ إذ إنَّهما، يكاد يعرف أحدهما الآخر.

«إذا جاء أخي في الوقت المناسب ليقلّني»، قالت. صعد درجة أخرى، ولَمّا دخلا قاعة الرقص، انحنى قليلاً لها، وتركها، فقد كانت شريكته في الرّقص تنتظره.

وتراءى القمر الآن واضحاً دون سحب، وظهر في مساحة مكشوفة، وكأنَّ ضوءه قد التهم السحب الكثيفة المحيطة به، مفسحاً له مكاناً خالياً بالكامل لينيره؛ فسحة لرقص صاخب مَرِح. وبقيت السماء الملوَّنة واضحة تماماً لبعض الوقت. ثمَّ هبَّت الرياح، واعترضت سحابة صغيرة وجه القمر.

سمعت سارة صوتاً في حجرة نومها، فتقلَّبت.

«مَن هذا؟»، غمغمت، وجلست، وفركت عينيها.

كانت أختها واقفة عند الباب، تردَّدت سارة، «هل لا أزال نائمة؟»، سألت نفسها بصوت منخفض.

«لا»، قالت سارة، وفركت عينيها ثانية، وقالت، «إنَّني صاحية»، وفتحتهما.

دخلت ماغي الحجرة، وجلست عند طرف السرير، كانت الرياح تهبُّ على الستارة الرقيقة، والأغطية منزلقة عن السرير، وشعرت بالدوار لوهلة؛ بسبب تأثير قاعة الرقص، وبدت لها حجرة أختها مبعثرة؛ فهناك قدح، داخله فرشاة الأسنان، على منضدة الاغتسال، والمنشفة كانت مجعَّدة وملقاة على منصبها، والكتاب قد وقع على الأرض، فانحنت والتقطت الكتاب، وعندئذ صدحت الموسيقا في الشارع. أزاحت الستارة الرقيقة، ورأت النساء بأثوابهنَّ الفاتحة، والرجال يرتدون بزَّاتهم من ذات اللَّونين الأبيض والأسود، مجتمعين عند أعلى السلَّم الحديديِّ لقاعة الرقص، وقد وصلت إليها مقتطفات من أحاديثهم وضحكاتهم عبر الحديقة.

«أهو حفل راقص؟»، سألت.

«نعم، في آخر الشارع»، قالت سارة.

نظرت ماغي إلى الخارج، ومن هذه المسافة بدت لها الموسيقا رومانسيَّة، وغامضة، وقد طغت الألوان على بعضها بعضاً، فلا هي ورديَّة ولا بيضاء ولا زرقاء.

تمطَّت ماغي، وانتزعت الزهرة عن فستانها؛ فقد أصبحتْ متهدِّلة وذابلة، وتلطَّخت بتلاتها البيض بعلامات سود. نظرت إلى الخارج من جديد، وكان مزيج الأضواء غريباً للغاية؛ فقد تلوَّنت بعض أوراق الأشجار بالأخضر الفاقع، وبعضها الآخر بالأبيض الساطع، وتقاطعت الأغصان بعضها مع بعض بمستويات مختلفة. ضحكت سالي.

«هل أعطاكِ أحد قطعة زجاج؟»، سألت سالي، «وهو يقول، آنسة بارغيتر... قلبي المكسور؟»

«لا»، قالت ماغي، «لِمَ على أحدهم أن يفعل ذلك؟»، ووقعت الزهرة عن حجرها إلى الأرض.

«كنتُ أفكِّر»، قالت سارة، «في أنَّ الأشخاص في تلك الحديقة...»

ولوَّحت بيدها ناحية النافذة، ثمَّ صمتتا لوهلة، تستمعان إلى الموسيقا الراقصة.

«وإلى جوار مَن جلستِ؟»، سألتها سارة بعد وقت من صمتهما.

«رجل يضع رباطاً ذهبيّاً»، قالت ماغي.

«يضع رباطاً ذهبياً؟»، كرَّرت سارة متسائلة.

كانت ماغي صامتة، واعتادت الآن منظرَ الحجرة المبعثرة؛ فقد تجاوزت التناقض الكبير بين فوضى هذه الحجرة وتألُّق قاعة الرقص. كانت تحسد أختها على تمدُّدها في السرير، ونافذتها المفتوحة التي يهبُّ منها النسيم العليل.

«لأنَّه ذاهبٌ إلى حفل»، قالت ماغي، وصمتت قليلاً؛ فقد لمحت شيئاً ما، إنَّه غصن يتأرجح إلى الأعلى والأسفل بفعل النسيم. أبعدت ماغي

الستارة الرقيقة تاركةً النافذة مكشوفة بلا ستائر، الآن بإمكانها رؤية السماء بأكملها، والمنازل، وأغصان الأشجار في الحديقة.

«إنَّه القمر»، قالت. كان القمر هو ما يجعل أوراق الأشجار بيضاً. نظرت الأختان إلى القمر، الَّذي لمع كقطعة نقديَّة فضيَّة مصقولة على نحو مثاليٍّ بإحكام ووضوح.

«لكن، إن لم يقل أحدهم: أوه قلبي المكسور»، قالت سارة، «فماذا سيقول في الحفلات؟»

أزالت ماغي خيطاً أبيضَ علق بذراعها، من خيوط قفَّازَيها.

«بعض الأشخاص يقولون شيئاً»، قالت وهي تنهض، «وبعضهم الآخر يقولون شيئاً آخر».

رفعت الكتاب البنّيَّ الصغير الموضوع على اللحاف، ومهَّدت شراشف السرير، ثمَّ تناولت سارة الكتاب من أختها.

«هذا الرجل»، قالت وهي تنقر على الغلاف القبيح للكتاب البنّيِّ، «ليس العالم سوى فكرة، يا ماغي».

«أيقول هذا؟»، سألت ماغي وهي تضع الكتاب على منضدة الاغتسال. كانت ماغي تعرف أنَّ ما تقوله سارة ليس إلَّا وسيلة لتُبْقيها في غرفتها، تتكلَّم معها.

«أتعتقدين أنَّ الأمر صحيح؟»، سألت سارة.

«ربَّما»، قالت ماغي دون أن تفكِّر في ما كانت تقوله، ومدَّت يدها لتسحب الستارة.

«ليس العالَم سوى فكرة، أيقول ذلك؟»، كرَّرت ماغي وهي تفتح الستارة.

تذكَّرت ماغي أنَّها كانت تفكِّر في فكرة شبيهة بهذه، عندما عبرت عربة الأجرة، الَّتي كانت هي ووالداها يستقلُّونها، المنعطفَ، عندها قاطعتها

أمُّها، كانت تفكِّر، هل أنا ذاك، أو هذا؟ هل نحن جميعاً واحد، أو أنَّنا منفصلون؛ شيء من هذا القبيل.

«ثمَّ ماذا عن الأشجار والألوان؟»، سألت وهي تستدير.

«الأشجار والألوان؟»، كرَّرت سارة متسائلة.

«أسيكون هناك أشجار إن لم نكن نراها؟»، سألت ماغي.

«ماذا أنا؟... أنا...»، وتوقَّفت عن الكلام؛ لم تكن تعرف ما عَنَتْ أختها، فقد كانت تهذي.

«نعم»، قالت سارة، «ماذا أنا؟»، وأحكمت قبضتها على حاشية فستان أختها؛ سواء أرادت منعها من الذهاب، أم رغبت في مناقشة الأمر.

«ماذا أنا؟»، كرَّرت سارة.

إنَّما، قاطعهما صوت حفيف ملابس خارج الباب، ودخلت أمُّها.

«أوه، طفلتيَّ العزيزتَين!»، هتفت، «ألا تزالان صاحيتين؟ ألا تزالان تتحدَّثان؟»

سارت في الحجرة، متألِّقة ومشرقة، كأنَّها لا تزال متأثِّرة بالحفل، وقد لمعت الجواهر حول عنقها وذراعيها، وبدت جميلة للغاية، التفتت حولها.

«والزهرة على الأرض، والفوضى تعمُّ المكان»، قالت. التقطت الزهرةَ الَّتي وقعت من ماغي، وقرَّبتها إلى شفتيها.

«لأنِّي كنتُ أقرأ، يا أمِّي، ولأنِّي كنتُ أنتظر»، قالت سارة. أمسكت بيد أمِّها، وربَّتت على ذراعها المكشوفة، مقلِّدةً أسلوب أمِّها بدقَّة شديدة، ما جعل ماغي تبتسم. كانت شخصيَّة كلٍّ منهما مناقضة للأخرى تماماً؛ فالسيِّدة بارغيتر مترفةٌ للغاية، أمَّا سالي فخشنة، إنَّما كانتا تنجحان في التعامل مع بعضهما بعضاً، قالت ماغي لنفسها، عندما سمحت الليدي بارغيتر بأن تُستدرَج لتجلس على السرير. وكان تقليد سارة لأمِّها ممتازاً.

«لكن، يجب أن تنامي يا سال»، احتجَّت الأمُّ، «ماذا قال الطبيب؟ قال: استلقي باستقامة، استلقي بهدوء»، ودفعتها لتستلقيَ على الوسائد.

«إنَّني مستلقية باستقامة وهدوء»، قالت سارة، «الآن»، ونظرت إلى أمِّها، «أخبريني عن الحفل».

وقفت ماغي باعتدال أمام النافذة. رأت شخصين يهبطان السلَّم الحديديَّ. وسرعان ما امتلأت الحديقة بسيِّدات يرتدينَ أثواباً فاتحة، ورديَّة وبيضاء، يدخلنَ ويخرجنَ. سمعت أطراف حديثهنَّ في أثناء حديث أمِّها عن الحفل.

«كان حفلاً مبهجاً جدّاً»، كانت أمُّها تقول.

نظرت ماغي إلى خارج النافذة. امتلأ فناء الحديقة بمختلف ألوان الأصبغة. بدا أنَّها تتموَّج من لون إلى آخر، حتَّى تصل إلى الزاوية الَّتي ينيرها ضوء المنزل، لتتحوَّل فجأة إلى سيِّدات وسادة وهم في كامل ثياب السهرة.

«ألم يكونوا كرماء بالضيافة؟»، سمعت سارة تسأل.

استدارت.

«مَن كان الرجل الَّذي جلستُ إلى جواره؟»، سألت.

«إنَّه السير ماثيو مايهو»، قالت الليدي بارغيتر.

«مَن هو السير ماثيو مايهو؟»، سألت ماغي.

«إنَّه الرجل الأكثر شهرةً، يا ماغي!»، قالت أمُّها وهي تمدُّ ذراعها.

«الرجل الأكثر شهرةً»، قلَّدت سارة أمَّها.

«لكنَّه كذلك»، أعادت الليدي بارغيتر، وهي تبتسم لابنتها التي تحبُّها، ربَّما بسبب كتفها.

«كان شرفاً عظيماً أن أجلس إلى جانبه، يا ماغي»، تابعت، «شرفاً عظيماً»، قالت مؤنِّبة. توقَّفت قليلاً، كما لو أنَّها رأت مشهداً قصيراً. رفعت بصرها.

«ثمَّ»، أكلمت، «عندما تسألني ماري بالمر، أيُّ فتاة هي ابنتك؟ أرى ماغي، على بعد أميال منِّي، في الطرف الآخر من القاعة، تتحدَّث إلى مارتن، الَّذي قد تلتقيه كلَّ يوم في الحافلة!»

كانتْ تشدِّد على كلماتها؛ فعلا صوتها وانخفض. ونقرت بأصابعها على ذراع سالي المكشوفة، لتزيد تأكيد وتيرة كلامها.

«لكنِّي لا أرى مارتن كلَّ يوم»، احتجَّت ماغي، «لم أرَه مُذ عاد من أفريقيا».

قاطعتها أمُّها:

«لكنَّكِ لا تذهبين إلى الحفلات، عزيزتي ماغي، لتتحدَّثي إلى أبناء عمِّك. تذهبين إلى الحفلات لِـ..»

وهنا دَوت الموسيقا الراقصة. بدا أنَّ النغمات الأولى سيطرت عليها حيويَّة جنونيَّة، كأنَّها تلحُّ في دعوة الراقصين إلى العودة إلى قاعة الرَّقص. صمتت الليدي بارغيتر في منتصف جملتها. تنهَّدت، وبدا أنَّ جسدها أصبح متراخياً ورقيقاً. انخفض جفنَاها الثقيلان قليلاً فوق عينيها الدَّاكنتين الواسعتين. تمايل رأسها ببطء متزامناً مع نغمات الموسيقا.

«ماذا يعزفون؟»، غمغمت. دندنت النغم، ويدها تدقُّ النغمة. «إنَّه لحن اعتدتُ الرَّقص على وقعه».

«ارقصي على وقعه الآن، أمِّي»، قالت سارة.

«نعم يا أمِّي، أَرِينا كيف كنتِ ترقصين»، ألحَّت ماغي عليها.

اعترضت الليدي بارغيتر قائلة: «أأرقص دون شريك؟».

أبعدت ماغي كرسيّاً.

«تخيَّلي أنَّ هناك شريكاً»، حثَّتها سارة.

«حسناً»، قالت الليدي بارغيتر. ونهضتْ. «كان شيئاً مثل هذا»، قالت. توقَّفت قليلاً، ثمَّ مدَّتْ حاشية ثوبها بيد، وثنت قليلاً اليد الأخرى الَّتي

تمسك الزهرة بها، ودارت دورات عدَّة في المساحة الَّتي أخلتها ماغي. تحرَّكت بفخامة استثنائيَّة، وبدت كلُّ أطرافها تنحني وتنساب بخفَّة مع الموسيقا، وتغيُّر نغماتها. ومع رقصها، أصبح صوت الموسيقا أعلى وأوضح. جالت دخولاً وخروجاً بين الكراسي والطاولات، ثمَّ، لَمَّا توقَّفت الموسيقا، هتفت «هاكما!». بدا جسدها كأنَّه انثنى وانغلق على بعضه بعضاً عندما تنهدَّت وقالت «هاكما!»، وهوى بأكمله بحركة واحدة على طرف السرير.

«رائع!»، هتفت ماغي. استقرَّت عيناها على أمِّها بإعجاب.

«كلام فارغ»، قالت الليدي بارغيتر وهي تضحك، وتلهث قليلاً، «كبرتُ على الرقص، لكن لَمَّا كنتُ شابَّة، لَمَّا كنتُ في مثل عمريكما...»، وجلست في مكانها تلهث.

«رقصتِ خارج المنزل، على الشرفة المكشوفة، ووجدتِ ملحوظة مطويَّة على طاقة أزهارٍ أُرسِلت إليكِ»، قالت سارة وهي تمسِّد ذراع أمِّها، «أخبرينا تلك القصَّة يا أمِّي».

«ليس الليلة»، قالت الليدي بارغتر، «أنصتا، الساعة تدقُّ!»

وبما أنَّ الدير كان قريباً للغاية، فقد ملأ صوت ساعته الحجرة، رخيماً وصاخباً، كأنَّه موجة تأوُّهات حائرة تتسارع الواحدة في إثر الثانية، على الرَّغم من أنَّها تخفي شيئاً قاسياً. عدَّت الليدي بارغيتر دقَّات الساعة، الوقت متأخِّر جدّاً.

«سأخبركما القصَّة الحقيقيَّة يوماً ما»، قالت وهي تنحني لتقبِّل ابنتها متمنِّية لها ليلة سعيدة.

«الآن! الآن!»، صاحت سارة وهي تمسك بها بإحكام.

«لا، ليس الآن، ليس الآن!»، قالت الليدي بارغيتر، وضحكت وهي تنتزع يدها، «والدكما يناديني!».

سمعْنَ صوت خطوات في الممرِّ خارج الحجرة، ثمَّ جاء صوت السير ديغبي عند الباب.

سمعْنَهُ يقول «يوجين! الوقت متأخِّر جدّاً يا يوجين!».

«قادمة!»، صاحت، «قادمة!»

أمسكت سارة ببطانة ثوب أمِّها، وصاحت: «ماما! لم تخبرينا قصَّة طاقة الأزهار».

«يوجين!»، نادى السير ديغبي من جديد. بدا صوته حازماً. «هل أقفلتِ...»

«نعم، نعم، نعم»، قالت يوجين. «سأخبركما القصَّة الحقيقيَّة فيما بعد»، قالت وهي تحرِّر نفسها من قبضة ابنتها. قبَّلتهما على عجل، وخرجت من الحجرة.

«لن تخبرنا»، قالت ماغي وهي تتناول قفَّازيها. تكلَّمت وفي صوتها بعض الانزعاج.

سمعت الفتاتان أصوات الكلام في الممرِّ، وتمكَّنتا من سماع صوت والدهما. كان محتجّاً. بدا صوته متذمِّراً وجلفاً.

«لا بدَّ أنَّه يلوِّح بسيفه الآن إلى الأعلى والأسفل، بين ساقيه، وقبَّعة الأوبِّرا خاصَّته تحت ذراعه»، قالت سارة وهي تسوِّي وسادَتيها بضربهما بقسوة.

ابتعدت الأصوات نحو الأسفل.

«مِمَّن كانت الملحوظة، حسب رأيك؟»، قالت ماغي. وتوقَّفت قليلاً وهي تنظر إلى أختها الَّتي استكانت على وسادتيها.

«الملحوظة؟ أيُّ ملحوظة؟»، سألت سارة، «أوه، الملحوظة الَّتي في طاقة الأزهار. لا أتذكَّر»، قالت، وتثاءبت.

أغلقت ماغي النافذة وسحبت الستارة، وأبقت شقّاً صغيراً ليدخل منه الضوء.

«أحكمي إغلاقها يا ماغي»، قالت سارة بانفعال، «امنعي دخول تلك الجَلَبة».

تكوَّر جسدها، وظهرها في اتِّجاه النافذة. رفعت جزءاً محدَّباً من الوسادة فوق رأسها كأنَّها تُسكِت الموسيقا الراقصة الَّتي لا تزال مستمرَّة. أقحمت وجهها في أخدود بين الوسادتين. وبدت كشرنقة تلتفُّ بطيَّات مفرش السرير الأبيض المتماسك. لا يظهر منها إلَّا أرنبة أنفها. وبرزت عظام حوضها، وكذلك قدمَاها في طرف السرير، وهي مغطَّاة بمفرش واحد فقط. وأطلقت تنهيدة عميقة أشبه بشخير؛ لقد نامت بالفعل.

سارت ماغي على طول الممرِّ. ثمَّ رأت إضاءة في البهو في الطابق السفليِّ. توقَّفت ونظرت إلى الأسفل من فوق الدرابزين. كان البهو مضاءً. استطاعت رؤية الكرسيِّ الإيطاليِّ الضخم، ذي المقبضين المذهَّبين، المنتصب في البهو. كانت أمُّها قد ألقت معطفها الفضفاض الخاصَّ بالحفلات على ذاك الكرسيِّ، فتراصفت طيَّات معطفها الذهبيَّة الناعمة على الغطاء القرمزيِّ. تمكَّنت ماغي من رؤية صينيَّة عليها شراب ومِصَبُّ مياه غازيَّة على طاولة البهو. ثمَّ سمعت صوتَي أمِّها وأبيها وهما يصعدان الدرج قادمَين من المطبخ. كانا في القبو، وسمعتهما يتكلَّمان عن سطوٍ على أحد المنازل في أوَّل الشارع، وكانت أمُّها قد وعدت بالحصول على قفل جديد ليوضع على باب المطبخ، لكنَّها نسيت الأمر. استطاعت سماع صوت والدها وهو يقول:

«... سيذيبونه، علينا ألَّا نعيده ثانية».

صعدت ماغي بضع درجات.

«أعتذر بشدَّة، يا ديغبي»، قالت يوجين وهما يدخلان البهو، «سأعقدُ عقدة في منديلي، وسأذهب غداً صباحاً، بعد الإفطار مباشرة... نعم»، قالت وهي تجمع معطفها على ذراعها، «سأذهب بنفسي، وسأقول: لقد اكتفيتُ من أعذارك، سيِّد توي. لا، يا سيِّد توي، لقد خدعتني كثيراً فيما مضى. وبعد كلِّ هذي السنوات!»

ثمَّ ساد الصمت لوهلة. استطاعت ماغي سماع صوت المياه الغازيَّة وهي تتدفَّق في القدح، وصوت حركة الشراب في الكأس، ثمَّ أُطفِئَت الأنوار.

١٩٠٨

إنَّه مارس، والرياح تهبُّ. لا، إنِّها لا «تهبُّ»، إنَّها تخوض معركة، وتضرب. كانت الرياح مؤذية، وكريهة. إذ لم تكتفِ بجعل الوجوه شاحبة، ولا بإحداث بقع حُمر على الأنوف فحسب، إنَّما لفَّت حواشي الفساتين بشدَّة؛ رافعة إيَّاها إلى الأعلى لتظهرَ الأرجل البدينة، وبدت تحت السراويل سيقان الرجال النحيلة. لم تكن الرياح تستدير، ولم تحمل معها الفاكهة، بل كانت أشبه بمنجل منحنٍ يقطع؛ ليست منجلاً مفيداً لقطع الذرة، إنَّما لتدمِّر، لتستمتع بنشر القحط التامِّ. كانت تنسف، بهبَّة واحدة، الألوان؛ حتَّى ألوان لوحات الرسَّام الهولنديِّ ريمبرانت المعروضة في المعرض الوطنيِّ، وتنسف حتَّى ياقوتة مثبَّتة على نافذة في شارع «بوند»: هبَّة واحدة وتزول كلُّ تلك الأشياء. نشأت تلك الرياح من شبه جزيرة «دوغز» الَّتي تحيط بها علب القصدير، ويقع الملجأ إلى جانبها، على ضفاف نهر المدينة الملوَّثة. رمت الرياح أوراق الأشجار العفنة عالياً، فازدادت فسحة وجودها الفاسد. وازدرت الرياح وهزأت، على الرَّغم من أنَّها لا تملك شيئاً تستبدله بما ازدرته وهزأت به. ثمَّ سقطت الأوراق، ولم يكن سقوطها مبدعاً، ولا مثمراً، إنَّما صاحتْ في الفناء مطالبة بمرحها، وترجو أن تمتلك القوَّة لنزع القشرة، والرونق، ليظهرَ العظم مجرَّداً. بهتت ألوان كلِّ النوافذ بفعل الرياح، وازداد اندفاع السادة كبار السنِّ إلى النوادي الَّتي تعبق فيها رائحة الجلد، في حين جلست السيِّدات العجائز بائسات ومتعاميات، بوجوههنَّ الجامدة، وسط الشراريب وأغطية ظهور الكراسي، في غرف نومهنَّ أو مطابخهنَّ. نجحت الريح بفظاظتها في إفراغ الشوارع؛ فأزالت اللَّحم البشريَّ أمامها، وضربت بقوَّة العربات الصغيرة المغبرَّة الَّتي كانت تقف خارج متاجر الجيش

والقوّات البحريَّة. بعثرت الرياح على طول الرصيف فضلات المغلَّفات القديمة، وجعلت الشعر يتشابك. ونثرتْ بقعاً لإحدى العلامات أو لبقعة ما على أوراق سبق أن تلطَّخت بالدَّم، وأخرى تلطَّخت باللَّون الأصفر، ثمَّ دفعتها نحو الأرجل المجبَّسة، والملصقات على أعمدة المصابيح، والصناديق المثبَّتة على العواميد، فإذا بها تنثني على نحو جنونيٍّ عند السور.

جثمت ماتي ستايلز، الحارسة، في قبو المنزل الواقع في شارع «براوني»، تنظر إلى الأعلى. هبَّت الرياح على طول الرصيف محمَّلة بالغبار. تسلَّل الغبار من تحت الأبواب، وعبر إطارات النوافذ، ليملأ الصدور والفساتين. لكنَّها لم تأبه. كانت من أولئك الأشخاص التعساء. فكَّرت في أنَّه عمل آمن، وكانت واثقة بأنَّه سيستمرُّ حتَّى الصيف في أيِّ حال. فقد توفِّيت سيِّدة المنزل، وسيِّده أيضاً. وحصلت هي على هذا العمل بوساطة ابنها رجلِ الشرطة. لن يؤجَّر هذا الجانب من المنزل وقبوه في عيد الميلاد، هكذا أخبروها. كلُّ ما تفعله رؤية أفراد مجموعات يأتون لرؤية المنزل بأمر من وكيل العقارات. وتذكر هي على الدوام القبوَ لهم؛ كم هو رَطْبٌ. «انظروا إلى تلك البقعة في السقف»، ها هي ذي هناك، تؤكِّد ما أقول. كلُّ المجموعات متشابهة، لكنَّ المجموعة القادمة من الصين أُعجِبَت بالمنزل. إنَّه يناسبه، قال. لديه عمل في المدينة. كانت ماتي من أولئك الأشخاص التعساء؛ إذ بعد ثلاثة أشهر عليها أن تغادر المنزل وتستقرَّ مع ابنها في مدينة «بيمليكو».

رنَّ الجرس. سأدعه يرنُّ ويرنُّ، تذمَّرتْ. لن تفتح الباب بعد الآن. إنَّه واقف هناك عند عتبة الباب. استطاعت رؤية زوج من الأرجل مقابل الدرابزين. ليرنَّ قدر ما يريد. لقد بيع المنزل. ألا يرى الملاحظة المكتوبة على اللَّوحة؟ ألا يمكنه قراءتها؟ أليس لديه عينان؟ زادت اقترابها من الموقد الَّذي غطَّاه رماد فاتح اللَّون. استطاعت رؤية رجليه هناك، عند عتبة الباب، كان يقف بين قفص طيور الكناري والبيَّاضات المتَّسخة الَّتي كانت ستغسلها، لكنَّ هذه الرياح زادت من ألم كتفها. ليرنَّ حتَّى ينهار المنزل، فالأمر لا يعنيها.

كان مارتن واقفاً هناك.

كُتب «مُباع» على شريط ورقيٍّ أحمر فاقع، مُلصَق على لوح المنزل الخاصّ بوكيل العقارات.

«بالفعل!»، قال مارتن. وقام بدورة صغيرة حول منزل شارع «براوني» لينظرَ إليه. وكان قد بيع. صدمه الشريط الأحمر. لقد بيع بالفعل، ولم يمضِ على موت ديغبي سوى ثلاثة أشهر، وعلى موت يوجين أكثر من سنة. وقف لوهلة يحدِّق إلى النوافذ الخلفيَّة الَّتي يكسوها الغبار الآن. كان منزلاً مميَّزاً؛ بُني في إحدى سنوات القرن الثامن عشر. كانت يوجين فخوراً به. وكنتُ أحبُّ الذهاب إليه، قال لنفسه. إنَّما، الآن على عتبته صحيفة قديمة، وبضع قشَّات عالقة على الدرابزين، وأمكنه رؤية الحجرات الفارغة؛ بسبب عدم وجود الستائر. وجد امرأة تمعن النظر إليه من وراء القضبان في القبو. لا نفع من رنٍّ الجرس. فانصرف. انتابه شعور -وهو يسير إلى أدنى الشارع- بأنَّ شيئاً انقرض.

فكَّر، إنَّها نهاية مكدِّرة وبشعة، كنتُ أستمتع بالذهاب إلى هناك. إنَّما، كان يكره الاكتراث للأفكار المزعجة. ما الفائدة من ذلك؟ سأل نفسه.

«ابنة ملك إسبانيا»، تمتم وهو يستدير عند الزاوية، «زارتني...»

«وإلى متى»، سأل نفسه، وهو يضغط زرَّ الجرس، عندما وقف عند عتبة باب منزل «أبيركورن تيريس»، «ستُبقيني العجوز كروسبي منتظراً؟»، كانت الرياح شديدة البرودة.

وقف هناك، ينظر إلى واجهة المنزل الهائل الصفراء الضاربة إلى البرتقاليِّ، ذي التصميم المعماريِّ المتواضع، لكنَّه بلا شكٍّ قصر عائليٌّ مريح، حيث لا يزال والده وأخته يعيشان فيه. «إنَّ كروسبي تأخذ وقتها هذه الأيَّام»، فكَّر، وهو يرتجف من الرياح الباردة. عندها فُتِح الباب، وظهرت كروسبي.

«مرحباً، كروسبي!»، قال.

تهلَّل وجهها لرؤيته، فظهر معها سنُّها الذهبيُّ. لطالما كان مارتن المفضَّل لديها، كانوا يقولون، والفكرة أسعدته اليوم.

«كيف الحياة معك؟»، سألها، عندما أعطاها قبَّعته.

كانت كما هي، لكن ازدادت ذبولاً، وازدادت شبهاً بحشرة صغيرة، وازداد وضوح لون عينيها الزرقاوين من أيِّ وقت مضى.

«أيزعجكِ الروماتيزم؟»، سألها، عندما ساعدته في خلع معطفه. ابتسمت ابتسامة عريضة بصمت، فشعرَ بترحيبها، وسُرَّ عندما وجدها كما هي. «وأين الآنسة إليانور؟»، سأل، عندما فتح باب حجرة المعيشة. كانت الحجرة خالية. لم تكن موجودة. إنَّما، كانت هناك؛ فقد وجد كتاباً على الطاولة. أسعدته رؤيته للأشياء كما هي دون تغيُّر. وقف أمام الموقد ونظر إلى صورة أمِّه. في السنوات القليلة الماضية لم تعد السيِّدة في اللَّوحة أمَّه، بل عدَّ اللوحة مجرَّد قطعة فنِّيَّة. إنَّما، اللَّوحة الآن متَّسخة.

لطالما كانت هناك زهرة بين العشب، فكَّر، وهو يدقِّق النظر في الزاوية الداكنة للَّوحة: لكن الآن لا يوجد شيء سوى رسم بنِّيٌّ قذر. وماذا كانت إليانور تقرأ؟ تساءل. تناول الكتاب الَّذي كان مرتكزاً على إبريق الشاي، وألقى نظرة عليه. قرأ العنوان: «رينان». «لِمَ تقرأ رينان؟»، سأل نفسه، وبدأ يقرأ وهو ينتظرها.

«السيِّد مارتن هنا، آنستي»، قالت كروسبي، وهي تفتح باب حجرة المكتب. نظرت إليانور حولها. كانت تقف إلى جانب كرسيٍّ والدها، وفي يديها قصاصات من الصحف في شكل شرائح طويلة، كأنَّها كانت تقرأ منها بصوت عالٍ. وكانت أمام والدها رقعة شطرنج، وقطع الشطرنج معدَّة للبدء بلعبة جديدة، لكنَّه كان مسنداً ظهره إلى كرسيِّه. بدا خاملاً ومتجهِّماً قليلاً.

«احتفظي بها... احفظيها في مكان آمن»، قال، وهو يهزُّ إبهامه تجاه القصاصات. رغبته في الاحتفاظ بقصاصات الصحف علامة على تقدُّمه في

السنّ، فكَّرت إليانور. فقد اشتدَّ بطؤه وثقلت حركته بعد السكتة الدماغيَّة الَّتي أصابته، وظهرت على أنفه وخدَّيه عروق حُمر. هي أيضاً شعرت أنَّها كبرت في السنّ، وأصبحت هامدة وضعيفة.

«السيِّد مارتن يناديكِ»، كرَّرت كروسبي.

«جاء مارتن»، قالت إليانور. لم يَبدُ على والدها أنَّه سمع. جلس ساكناً ورأسه منخفض إلى صدره. «مارتن»، أعادت إليانور، «مارتن...»

أيرغب في رؤيته أم لا؟ تمهَّلت كأنَّها تنتظر فكرته المتأنِّية. أخيراً أخرج من أنفه صوتاً شبيهاً بالشخير، لكنَّها لم تكن متأكِّدة ممَّا يعنيه بذلك.

«سأطلب إليه القدوم إليك بعد أن نشرب الشاي»، قالت. وقفت لوهلة. رفع نَفْسَهُ، وبدأ يتحسَّس قطع الشطرنج مضطرباً. لا يزال يمتلك الشجاعة، راقبته ابنته بفخر. لا يزال مصرّاً على إنجاز الأشياء بنفسه.

دخلت حجرة المعيشة، فوجدت مارتن واقفاً أمام لوحة أمِّهما الرزينة المبتسمة، ويمسك كتاباً بيده.

«لماذا تقرئين رينان؟»، سألها عندما دخلت. أغلق الكتاب وقبَّلها. «لماذا رينان؟»، أعاد سؤاله. تدفَّق الدم إلى وجهها فاحمرَّ قليلاً. لسبب ما أخجلها الأمر، لأنَّه وجد الكتاب هناك مفتوحاً. جلست، ووضعت قصاصات الصحف على طاولة الشاي.

«كيف هو أبي؟»، سألها. ظنَّ أنَّها فقدت شيئاً من نضارتها، وهو يلقي عليها نظرة سريعة، وفي شعرها خصلة رماديَّة.

«كئيب نوعاً ما»، قالت وهي ترمق قصاصات الصحيفة.

«أتساءل»، قالت، «مَن كتب هذه الأشياء؟»

«أيّ أشياء؟»، سأل مارتن. وتناول إحدى القصاصات المجعَّدة، وبدأ في قراءتها: «... موظَّف حكوميٌّ بارع على نحو استثنائيٍّ... رجل ذو مصالح

واسعة... أوه، يا ديغبي»، قال مارتن، «الوفَيَات. مررتُ بمنزلهم بعد ظهر اليوم»، أضاف، «لقد بيع».

«فعلاً؟»، قالت إليانور.

«بدا ساكناً للغاية ومُقْفِراً»، أضاف، «كانت هناك امرأة متَّسخة الثياب في القبو».

أخرجت إليانور أحد دبابيس شعرها وبدأت تحثُّ به الفتيل لتوقد النار تحت إبريق الشاي. راقبها مارتن لوهلة بصمت.

«كنتُ أحبُّ الذهاب إلى هناك»، قال في النهاية، «كنتُ أحبُّ يوجين»، أضاف.

توقَّفت إليانور عمَّا كانت تفعله.

«نعم...»، قالت برَيْب. فلم تكن تشعر بارتياح تجاهها. «كانت تبالغ»، أضافت.

«حسناً، بالطبع»، قال مارتن وضحك. ابتسم، وهو يسترجع إحدى الذكريات. «إنَّها أقلُّ صدقاً من... لا نفع من ذلك، يا نيل»، وقطع كلامه، وقد تضايق من بعثرتها للفتيل.

«نعم، نعم»، احتجَّتْ، «غلى الماء في أوانه».

توقَّفتْ لوهلة وهي تمدُّ يدها لتصلَ إلى علبة أوراق الشاي. أضافت الشاي. «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة»، عدَّت.

لا تزال تستخدم علبة أوراق الشاي الفضِّيَّة الجميلة القديمة، لاحظ مارتن، ذات الغطاء المنزلق. راقبها بصمت وهي تضيف الشاي بطريقة منظَّمة -ملعقة، ملعقتان، ثلاث ملاعق، أربع ملاعق-.

«لا يمكننا الكذب لننقذ أرواحنا»، قال بغتة.

ما الَّذي دفعه إلى قول ذلك؟ تساءلت إليانور.

«لَمَّا كنتُ معهم في إيطاليا»، قالت بصوت مسموع. وهنا فُتح الباب، ودخلت كروسبي تحمل بعض أصناف الطعام. وتركت الباب موارباً، فدفعه كلب ليدخل وراءها.

«أعني...»، أضافت إليانور، لكنَّها لم تستطع قول ما عَنَتْ مع دخول كروسبي الحجرة شبه راكضة.

«حان الوقت، يا آنسة إليانور، لنحصل على إبريق شاي جديد»، قال مارتن مشيراً إلى إبريق الشاي النحاسيِّ القديم -ذي نقش الورد الباهت- الَّذي لطالما كرهه.

«كروسبي»، قالت إليانور وهي لا تزال تثقب الفتيل بدبُّوس شعرها، «لا تستوعب الابتكارات الجديدة. لن تأمن كروسبي على نفسها في حوض الاستحمام، أليس كذلك، كروسبي؟».

ابتسمت كروسبي. كانوا دوماً يتحدَّثون إليها بصيغة الغائب، لأنَّها لا تجيب أبداً، بل تكتفي بالابتسام. اشتمَّ الكلب الطبق الَّذي وضعَتْه لتوِّها. «تترك كروسبي ذاك الحيوان يسمن»، قال مارتن وهو يشير إلى الكلب.

«هذا ما أقوله لها باستمرار»، قالت إليانور.

«لو كنتُ مكانكِ، يا كروسبي»، قال مارتن، «لخفضتُ عدد وجباته واصطحبته للجري السريع حول المتنزَّه كلَّ صباح»، ففغرت كروسبي فاهها بسبب عرضه.

«أوه، يا سيِّد مارتن!»، اعترضت، وقد صُدِمتْ بقسوة كلامه.

تبعها الكلب وهي تخرج من الحجرة.

«لم تتغيَّر كروسبي قطُّ»، قال مارتن.

كانت إليانور قد رفعت غطاء الإبريق ونظرت داخله. ليس ثمَّة فقاعات في الماء بعد.

«اللَّعنة على ذلك الإبريق»، قال مارتن. وتناول إحدى قصاصات الصحيفة وبدأ يشكِّلها لتصبح سدادة.

«لا، لا، أبي يريد الاحتفاظ بها»، قالت إليانور، «إنَّما لم يكن هكذا»، قالت، وهي تضع يدها على قصاصات الصحيفة، «على الإطلاق».

«كيف كان؟»، سأل مارتن.

صمتت إليانور لوهلة. كان بإمكانها رؤية عمِّها بوضوح بعين بصيرتها، يحمل قبَّعته الرسميَّة بيده، وقد وضع يده على كتفها عندما توقَّفا أمام إحدى اللَّوحات. إنَّما، كيف يمكنها وصفه؟

«اعتاد أن يأخذني إلى المعرض الوطنيِّ»، قالت.

«بالطبع، فهو مثقَّف للغاية»، قال مارتن، «لكنَّه كان متكبِّراً لعيناً».

«فقط ظاهريّاً»، قالت إليانور.

«ودوماً يجد يوجين مخطئة في أبسط الأمور»، أضاف مارتن.

«لكن فكِّر في العيش معها»، قالت إليانور.

«تلك الطريقة...»، ومدَّت يدها. لكنَّها ليست كحركة يوجين في مدِّ يدها، قال مارتن لنفسه.

«كنتُ أحبُّها»، قال، «وكنتُ أحبُّ الذهاب إلى هناك»، تذكَّر الغرفة الَّتي تعمُّها الفوضى، والبيانو مفتوح الغطاء، والنافذة المفتوحة، والرياح الَّتي تهبُّ فتدفع الستائر، وعمَّته قادمة وذراعيها مفتوحتين. «يا للسعادة، مارتن! يا للسعادة»، كانت تقول. يا تُرى، كيف كانت حياتها الخاصَّة؟ تساءل، علاقاتها العاطفيَّة؟ من الواضح أنَّ لديها، من الواضح.

«ألم تكن هناك حكاية»، بدأ كلامه، «عن رسالة؟»، أراد أن يقول، ألم تكن لديها علاقة غراميَّة مع أحدهم؟ إنَّما، من الصعب أن يكون منفتحاً مع أخته أكثر من أيِّ امرأة أخرى، لأنَّها تعامله كأنَّه لا يزال صبيّاً صغيراً. هل وقعت إليانور في الحبِّ، تساءل وهو ينظر إليها.

«نعم»، قالت، «كانت هناك حكاية...».

وهنا ارتفع رنين الجرس الكهربائيّ مدوِّياً. نهضت إليانور قليلاً.

«بابا»، قالت وهي تنهض.

«لا»، قال مارتن، «سأذهب». ووقف. «وعدْتُهُ أن نلعب الشطرنج».

«شكراً مارتن، سيستمتع بذلك»، قالت إليانور بارتياح عندما غادر الحجرة وبقيت وحدها.

أسندت ظهرها إلى الكرسيِّ. كم هو فظيع التقدُّم في السنِّ، فكَّرت، إنَّه يجرِّد المرء من كلِّ مداركه، واحد في إثر آخر، لكنَّه يترك شيئاً حيّاً في الدَّاخل: يترك -ومرَّرت يدها على قصاصات الصحف- لعبة الشطرنج، ونزهة في المتنزَّه، وزيارة الجنرال العجوز آربوثنوت مساءً.

من الأفضل الموت، مثل يوجين وديغبي، في مقتبل العمر، والمرء لا يزال يحتفظ بكلِّ مداركه. لكنَّه لم يكن هكذا، قالت لنفسها وهي تلقي نظرة خاطفة على قصاصات الصحف. «كان رجلاً ذا حضور شخصيٍّ جذَّاب... فقد مارس الصيد، وصيد السمك، ولعب الغولف». لا، ليس كذلك بتاتاً. كان رجلاً غريب الأطوار، ليِّن العريكة، حسَّاساً، ويحبُّ الألقاب، ويحبُّ اللَّوحات، ومغتمّاً في أغلب الأحيان -خمَّنتْ- بسبب فرح زوجته. دفعت القصاصات بعيداً وتناولت كتابها. غريب كيف يبدو الشخص نفسه مختلفاً في عينَي شخصَين مختلفَين، فكَّرت. فمارتن يحبُّ يوجين، وهي -إليانور- تحبُّ ديغبي. ثمَّ عاودت قراءة كتابها.

لطالما أرادت أن تتعرَّف الديانة المسيحيَّة؛ كيف بدأت، وماذا تعني أساساً. الله هو الحبُّ، يكمن ملكوت السموات داخلنا، فكَّرت، ماذا تعني أقوال كهذه؟ وهي تقلب الصفحات. الكلمات الحقيقيَّة جميلة للغاية. إنَّما، مَن قالها؟ ومتى؟ ثمَّ نفثت فوَّهة إبريق الشاي البخار عليها فأبعدته. كانت الرياح تطرق على النوافذ في الحجرة الخلفيَّة، وانحنت بفعلها

الشجيرات الصغيرة، الَّتي لا تزال عارية من الأوراق. هذا ما قاله الرجل القابع تحت شجرة التين، الَّتي في أعلى التلِّ، قالت لنفسها. ثمَّ دوَّنها رجل آخر. إنَّما، بافتراض أنَّ ما قاله ذلك الرجل باطل بقدر ما قاله هذا الرجل - ولمستْ قصاصات الصحف بملعقتها- عن ديغبي. وها أنا ذي، قالت لنفسها، أنظر إلى الأواني الخزفيَّة الصينيَّة المصفوفة في الخزانة الهولنديَّة، في غرفة المعيشة هذه، أحصل على ومضة بسيطة ممَّا قاله أحدهم منذ سنوات مضت، إلى هنا جاء (بدأ لون الأواني الخزفيَّة يتغيَّر من الأزرق إلى أزرق مسودٍّ) متخطِّياً كلَّ تلك الجبال، وتلك البحار. ثمَّ عثرت على المكان حيث كانت تقرأ، وبدأت القراءة.

إنَّما، قاطعها صوت صدر من البهو. هل ثمَّة أحد قادم؟ أنصتتْ. لا، كان صوت الرياح. كانت الرياح مرعبة. كانت تهاجم المنزل، وتقبض عليه بإحكام، ثمَّ تتركه حتَّى يوشك أن ينهار. في الطابق العلويِّ أُغلق أحد الأبواب بعنف، لا بدَّ أنَّ إحدى النوافذ مفتوحة في حجرة النوم في الأعلى. ودقَّت إحدى الستائر بفعل الرياح. كان من الصعب أن تركِّز في قراءة رينان. على الرَّغم من أنَّها أحبَّت الكتاب. بالطبع، من السهل عليها قراءة اللُّغة الفرنسيَّة، وكذلك الإيطاليَّة، والقليل من الألمانيَّة. إنَّما، يا لها من فجوات واسعة! ويا لها من فراغات مُربكة، هناك في معرفتها! فكَّرت وهي مسترخية في كرسيِّها. ما أقلَّ ما تعرفه عن أيِّ شيء! مثلاً هذا الفنجان، مدَّت يدها أمامها ممسكة به. مِمَّ هو مصنوع؟ من الذرَّات؟ وما هي الذرَّات؟ وكيف يبقى متلاصقاً بعضُها ببعض؟ لوهلة بدا لها السطح الصلب الأملس للأواني الخزفيَّة المزيَّن بالزهور الحُمر لغزاً عجيباً. إنَّما، هناك صوت آخر في البهو. كانت الرياح، لكن هناك صوت آخر، أحدهم يتكلَّم. لا بدَّ أنَّه مارتن. إنَّما، مع مَن يتكلَّم؟ تساءلت. أنصتت، لكنَّها لم تستطع سماع كلامه بسبب الرياح. ولماذا، سألت نفسها، قال لا يمكننا الكذب لننقذ أرواحنا؟ كان يفكِّر في نفسه، يمكن للمرء دوماً أن يعرف

متى يفكِّر الآخرون في أنفسهم من نبرة أصواتهم. ربَّما كان يسوِّغ رحيله عن الجيش. كان قراراً جريئاً، قالت لنفسها، لكن أليس غريباً، فكَّرتْ وهي تستمع إلى الأصوات، أعليه أن يكون متأنِّقاً كذلك؟ فهو يرتدي بذلة زرقاء جديدة مقلَّمة بالأبيض. وقد حلق شاربيه. ما كان ليصبح جنديّاً، قالت لنفسها. إنَّه أقرب إلى كونه مشاكساً... كانت الأصوات لا تزال تتحدَّث في البهو. لم تستطع سماع ما كان يقوله، لكن انتابها شعور -من نبرة صوته- بأنَّه مرَّ بالعديد من العلاقات الغراميَّة العظيمة. نعم، أصبح واضحاً تماماً لها، حين سماع صوته عبر فرجة الباب، أنَّه مرَّ بعلاقات غراميَّة كثيرة وعظيمة. لكن مع مَن؟ ولِمَ يعتقد الرجال أنَّ علاقات الحبِّ مهمَّة للغاية؟ سألت نفسها عندما فُتح الباب.

«مرحباً روز!»، هتفت، وقد دُهِشتْ لرؤية أختها تدخل معه، «ظننتُ أنَّك في مقاطعة نورثمبيرلاند!».

«أظننتِ أنِّي في نورثمبيرلاند!»، ضحكت روز وهي تقبِّلها، «لكن لماذا؟ قلتُ إنِّي قادمة في الثامن عشر من الشهر».

«لكن أليس اليوم الحادي عشر؟»، قالت إليانور.

«أنتِ متأخِّرة عن تاريخ اليوم بأسبوع يا نيل»، قال مارتن.

«إذاً، لا بدَّ أنِّي كتبتُ تاريخاً مغلوطاً على كلِّ رسائلي!»، هتفت إليانور. ورمقتْ طاولتها بتوجُّس. لم يعد أسد البحر الَّذي دُسَّتْ في شعره الخشن رقعة بالية، موجوداً عليها.

«أترغبين في احتساء الشاي يا روز؟»، سألتْ.

«لا، أرغب في الاستحمام»، قالت روز. وألقت قبَّعتها. ثمَّ خلَّلت أصابعها في شعرها.

«تبدين في حال جيِّدة للغاية»، قالت إليانور، وهي تفكِّر كم تبدو أختها جميلة. إنَّما، يوجد خدش على ذقنها.

«إنَّها ذات جمال حقيقيٍّ، أليس كذلك؟»، قال مارتن متهكِّماً.

رفعت روز رأسها بسرعة بحركة شبيهة بحركة الحصان. إنَّهما يتشاحنان على الدوام، قالت إليانور لنفسها، مارتن وروز. كانت روز جميلة، لكنَّها تتمنَّى أن ترتديَ ثياباً أفضل من ثيابها. كانت ترتدي معطفاً أخضرَ له وبر، وتنُّورة عليها أزرار جلديَّة، وكانت تحمل حقيبة لامعة. لقد عقدت اجتماعات في الشمال.

«أرغب في الاستحمام»، كرَّرت روز، «إنَّني متَّسخة. وما كلُّ هذا؟»، قالت وهي تشير إلى قصاصات الصحف الموضوعة على الطاولة، «أوه، العمّ ديغبي»، أضافت على نحو عابر، وهي تدفع بالقصاصات بعيداً. مضى على موته بضعة أشهر؛ فقد كانت القصاصات مصفرَّة ومفتولة.

«يقول مارتن إنَّ المنزل قد بيع»، قالت إليانور.

«حقاً؟»، قالت روز بلا مبالاة. قطعت قطعة من الكعكة وبدأت تمضغها. «لقد أفسدتُ عشائي»، قالت، «إنَّما، لم يكن لديَّ وقت لتناول الغداء».

«يا لها من امرأة عمليَّة!»، مازحها مارتن.

«والاجتماعات؟»، سألت إليانور.

«نعم. ماذا عن الشمال؟»، قال مارتن.

بدأت الاجتماعات لمناقشة السياسة. تكلَّمت فيها روز عن الانتخابات الفرعيَّة. ورماها أحدهم بحجر، قالت وهي تضع يدها على ذقنها. لكنَّها استمتعت برحلتها.

«أعتقد أنَّنا منحناهم شيئاً ليفكِّروا فيه»، قالت، وهي تقطع قطعة أخرى من الكعكة.

كان على روز أن تكون جندياً، ظنَّت إليانور. بدت تماماً مثل صورة العمّ بارغيتر في لوحة حصان بارغيتر. أمَّا مارتن، وقد حلق شاربيه الآن

وظهرت شفتاه، يجب أن يكون... ماذا؟ ربَّما مهندساً معمارياً، فكَّرت. إنَّه شديد... رفعت بصرها إليه. وها هو ذا ترحيب الآن؛ فقد سقطت قضبان بِيض على نافذة الغرفة الخلفيَّة. عصفت الرياح بشدَّة، فانتفضت الشجيرات الصغيرة المزروعة تحتها وانحنت. ودوَّت الرياح في غرفة نوم أمِّها في الطابق العلويِّ. ربَّما عليَّ الصعود وإغلاق النافذة، فكَّرتْ. لا بدَّ أنَّ المطر يوشك أن يتساقط.

«إليانور..»، قالت روز، «إليانور..»، كرَّرت.

بدأت إليانور.

«إنَّ إليانور كئيبة»، قال مارتن.

«لا، أبداً... أبداً»، اعترضت، «ما الَّذي تتكلَّمان عنه؟».

«كنتُ أسألكِ»، قالت روز، «هل تذكرين ذلك الشجار عندما كُسِر المجهر؟ حسناً، قابلتُ الصبيَّ في الشمال... ذاك الصبيَّ الفظيع الخبيث، إريدج».

«لم يكن فظيعاً»، قال مارتن.

«بلى»، أصرَّت روز، «الصغير الجبان الفظيع. ادَّعى أنِّي مَن كسر المجهر وكان هو من كسره... أتذكرين ذلك الشجار؟»، واستدارت نحو إليانور.

«لا أذكر ذلك الشجار»، قالت إليانور، «كانت الشجارات كثيرة»، أضافت.

«كان أحد أسوأ الشجارات»، قال مارتن.

«بالفعل»، قالت روز. وزمَّت شفتيها إلى بعضهما. وبدا عليها أنَّها استعادت بعض الذكريات. «وبعد أن انتهى الشجار»، قالت وهي تستدير إلى مارتن، «ظهرتَ فجأة في الروضة، وطلبتَ إليَّ أن أشاركَك في العراك عند بحيرة راوند. أتذكر؟»

توقَّفت لوهلة. كان هناك شيء غريب في تلك الذكرى، لاحظت إليانور. فقد تكلَّمت روز بحدَّة عجيبة.

«وقلتَ: سأطلب إليكِ ثلاث مرَّات، وإن لم تجيبي في المرَّة الثالثة، فسأذهب وحدي. وحلفتُ إنِّي سأتركُهُ يذهب وحده». واتَّقدت عيناها الزرقاوان.

«ما زلتُ أذكركِ»، قال مارتن، «وأنتِ ترتدين فستانك الورديَّ، وتحملين سكِّيناً بيدك».

«وذهبتَ»، قالت روز، تكلَّمت باحتدام مكبوت، «واندفعتُ داخل الحمَّام وأحدثتُ هذا الجرح البليغ»، ومدَّت معصمها. نظرت إليانور إليه. وجدتْ ندبة بيضاء رفيعة فوق مفصل المعصم تماماً.

متى فعلتْ ذلك؟ فكَّرت إليانور. لم تتذكَّر. أغلقت روز على نفسها في الحمَّام ومعها سكِّين وجرحت معصمها. لم تكن على علم بذلك. نظرتْ إلى العلامة البيضاء. لا بدَّ أنَّه نزف.

«أوه، لطالما كانت روز ثائرة!»، قال مارتن. ونهض. «أفعالها شيطانيَّة دائماً»، أضاف. وقف لوهلة ينظر حوله في الحجرة، مشوَّشاً من قطع أثاثها القبيحة، الَّتي تمنَّى التخلُّص منها لولا إليانور، فكَّر، وهو الآن مجبر على العيش هنا. إنَّما، قد لا تمانع إليانور هذه الأمور.

«أتتناولان العشاء في الخارج؟»، قالت. مارتن يتناول عشاءه في الخارج كلَّ مساء. أرادت أن تسأله أين كان يتناول عشاءه.

أومأ دون أن ينبس ببنت شفة. لقد عرف كلَّ أنواع البشر الَّذين لا تعرفهم، فكَّرتْ بإمعان، ولا يودُّ التكلُّم عنهم. استدار نحو الموقد.

«تحتاج تلك اللَّوحة إلى تنظيف»، قال وهو يشير إلى لوحة أمِّهم.

«إنَّها لوحة جميلة»، أضاف، ناظراً إليها بانتقاد، «إنَّما، ألم تكن ثمَّة زهرة في العشب؟».

نظرت إليانور إلى اللَّوحة. لم تكن تنظر إليها -حتَّى ترى الزهرة- لسنوات عدَّة.

«أكانت ثمَّة زهرة؟»، قالت.

«نعم، زهرة صغيرة زرقاء»، قال مارتن، «يمكنني تذكُّرها عندما كنتُ صغيراً...».

استدار. استعاد بعض الذكريات من طفولته عندما رأى روز تجلس هناك عند طاولة الشاي وهي لا تزال قابضة يدها بإحكام. تذكَّرها وهي تقف وقد أدارت ظهرها إلى باب غرفة الدراسة، ووجهها شديد الاحمرار، وشفتاها مطبقتان بشدَّة كما هما الآن. يومها، أرادتهُ أن يفعل شيئاً، لكنَّه جعَّد بيده ورقاً ليصنع منه كرة رماها بها.

«ما أفظع الحياة الَّتي يحياها الأطفال!»، قال ملوِّحاً بيده تجاهها وهو يعبر الغرفة، «أليس كذلك يا روز؟».

«نعم»، قالت روز، «ولا يمكنهم إخبار أيٍّ أحد»، أضافت.

عصفت الرياح مرَّة أخرى، وصدر صوت قرع الزجاج.

«أهو معهد الآنسة بايم الموسيقيُّ؟»، سأل مارتن، وقد توقَّف قليلاً واضعاً يده على الباب.

«الآنسة بايم؟»، قالت إليانور، «لقد توفِّيت منذ عشرين عاماً!»

١٩١٠

كان يوماً عاديّاً بما فيه الكفاية في الريف؛ يوماً من بكرة الأيَّام الَّتي انقلبت، مع مرور السنين، من الأخضر إلى البرتقاليِّ، من العشب إلى الحصاد. لم يكن الطقس حارّاً، كما أنَّه لم يكن بارداً، كان يوماً إنكليزيّاً ربيعيّاً، ساطعاً كفاية، إلَّا أنَّ سحابة أرجوانيَّة خلف التلِّ قد تعني قدوم المطر. تموَّجت الأعشاب مع الظلِّ، ثمَّ مع ضوء الشمس.

في لندن، في أيِّ حال، كان يمكن الشعور بالفعل بضغط الفصل وتقييده، ولا سيَّما في طرف لندن الغربيِّ، حيث رفرفت الأعلام، ونقرَت العصيُّ، وانسابتِ الفساتين، وكانت للمنازل حديثة الطلاء مظلَّات ممتدَّة وسلال متأرجحة من أزهار الغُرنُوقيّ حمراء اللون. كانت المتنزَّهات أيضاً - «ساينت جايمس»، «غرين بارك»، «هايد بارك»- تتهيَّأ وتستعدُّ. كانت الكراسي الخُضر متراصَّة بين سُرر الأزهار البنيَّة الممتلئة بأزهار الياقوتيَّة الملتفَّة، في الصباح السابق لوجود أيِّ فرصة لمرور موكب، كما لو كانت في انتظار حدوث أمر ما، في انتظار رفع ستارة ما، في انتظار قدوم الملكة أليكساندرا، وهي تنحني عبر البوَّابات. كانت تتمتَّع بوجه يماثل بتلة الورد، واتَّشحت على الدوام باللون الزهريِّ القرنفليِّ.

استلقى الرجال على العشب يقرؤون الصحف وهم يرتدون قمصاناً مفتوحة، وتجمَّع المتحدِّثون في المساحة الجرداء الـمُنظَّفة إلى جوار «القوس الرخاميِّ»، حدَّقت إليهم المربِّيات بشكل شاغر، في حين راقبت الأمَّهات أولادهنَّ وهم يلعبون، وهنَّ يجلسنَ القرفصاءَ على العشب. كانت الشاحنات الصغيرة، السيَّارات، وحافلات نقل الركَّاب تسير على امتداد «بارك لين» وشارع «بيكاديللي» كما لو كانت الشوارع أخاديد،

كانت تتوقَّف وتهتزُّ، كما لو أنَّ ثمَّة أحجية يجري حلُّها، ثمَّ إفسادها، لأنَّ الفصل كان قد حلَّ، وكانت الشوارع مزدحمة. أبقت السحب فوق بارك لين وشارع «بيكاديللي» على حرّيَّتها، متجوِّلة على نحو متقطِّع، مخلِّفةً بقعاً ذهبيَّة على النوافذ، طالية إيَّاها باللون الأسود، مرَّت واختفت، غير أنَّ الرخام في إيطاليا، متلألئاً في المحاجر، متشبِّعاً بعروق صفراء اللَّون، لم يكن يبدو أكثر صلابة من السحب فوق «بارك لين».

فكَّرت روز، وهي تنظر إلى الجانب الآخر من الطريق، في أنَّها ستنهض في حال توقَّفت الحافلة هنا. توقَّفت الحافلة فنهضت. بينما خطت على الرصيف ولمحت ومضة لشكلها معكوساً على نافذة محلِّ خيَّاط، فكَّرت في أنَّ من المؤسف كونها لا ترتدي ملابسَ أفضل شكلاً، ولا تبدو في هيئة أجمل. دائماً ما ترتدي الملابس المستعملة، ومعاطف وتنانير من مركز «وايتلي». غير أنَّها كانت ملابس موفِّرة للوقت، وبعد كلِّ شيء، فإنَّ السنين قد جعلت المرء يولي اهتماماً ضئيلاً جدّاً بما يعتقده الناس، وهي كانت قد تجاوزت الأربعين عاماً من العمر. اعتادوا القول، لمَ لا تتزوَّجين؟ لمَ تفعلين هذا الأمر أو ذاك، متدخِّلين في شؤوني. إنَّما، ليس بعد الآن.

بحكم العادة، توقَّفت قليلاً عند أحد التجاويف الَّتي حُفرت في الجسر. لطالما توقَّف الناس بغية النظر إلى النهر. كان يجري بسرعة، ذا لون ذهبيٍّ موحل في هذا الصباح، وذا اتّساع وتموّجات رقيقة، لأنَّ المدَّ كان عالياً. وكانت هناك القاطرة المعتادة والقوارب المعتادة عينها ذات المشمَّعات السود الَّتي تظهر تحتها أكواز الذرة. التفَّت المياه حول الأقواس. بينما وقفت هناك، تنظر إلى الماء، بدأ شعور دفين ما يرتِّب الدفق إلى نمط. كان النمط مؤلماً. تذكَّرت كيف وقفت هناك في ليلة خطوبة معيَّنة، باكية، كانت دموعها قد تساقطت، كانت سعادتها، كما بدا لها، قد انهارت. ثمَّ كانت قد استدارت -واستدارت هنا- ورأت الكنائس، والصواري وأسطح المدينة. ها هو ذا، قالت لنفسها. لقد كان منظراً بهيّاً بالفعل... نظرت، ثمَّ

استدارت من جديد. كان هناك مجلسا البرلمان. تشكَّل تعبير غريب على وجهها، نصف عبوس ونصف ابتسامة، وألقت بنفسها إلى الخلف قليلاً، كما لو كانت تقود جيشاً.

قالت بصوت عالٍ: «مخادعون لعينون!»، وهي تضرب بقبضتها على الدرابزين. نظر إليها موظَّف مارٌّ باستغراب، ما جعلها تضحك. لطالما تحدَّثت بصوت عالٍ. لِمَ لا؟ كان هذا أيضاً من وسائل المواساة، كما هي الحال مع معطفها وتنُورتها، والقبَّعة الَّتي ألصقتها برأسها من دون إلقاء نظرة إلى المرآة. إن أراد الناس أن يسخروا، فليفعلوا ذلك. تابعت السير بخطوات مديدة. كانت ستتناول الغداء في «هايمز بليس» مع بنات عمِّها. كانت قد سألت نفسها في خضمِّ اللحظة، حين التقت ماغي في أحد المحالِّ. سمعت صوتاً في البدء، ثمَّ رأت يداً. وقد كان من الغريب بالنسبة إليها، مع أخذ ضآلة معرفتها بهنَّ في الحسبان، إذ إنهنَّ كنَّ قد عشنَ في الخارج، الشعور القويّ الذي تولَّد فيها من صلة الدَّم الَّتي تجمعهنَّ، وقد تولَّد هذا الشعور ببساطة من جرَّاء سماع صوت ماغي فحسب، وهي تجلس عند المنضدة قبل أن تراها ماغي، أتراه كان الشعور بالعاطفة؟ كانت قد نهضَت وقالت، هل لي أن آتي وأراك؟ نظراً لكونها كانت مشغولة، فقد كرِهت أن تُجزِّئ يومها في منتصفه. تابعت مسيرها. كانتا تعيشان في «هايمز بليس»، إلى جوار النهر-«هايمز بليس، ذاك الهلال الصغير من المنازل القديمة مع الاسم المحفور في المنتصف حيث اعتادت المرور به كثيراً حين كانت تعيش في هذه المنطقة هنا. لقد اعتادت أن تسأل نفسها، في تلك الأيَّام التي مرَّت منذ زمن بعيد جدّاً، مَن يكون هايم؟ إلَّا أنَّها لم تتوصَّل قطُّ إلى حلٍّ ينال رضاها عن هذا السؤال. تابعت السير، وعبرت النهر.

كان الشارع المتهالك على الجانب الجنوبيِّ من النهر صاخباً جدّاً. إنَّ هناك، بين الفينة والأخرى، صوتاً يعزل نفسه عن الصخب العامِّ. نادت

امرأة جارتها، وبكى طفل. فتح رجل يُدحرج عربةً فمَه وصاح بصوت عالٍ وهو يمرُّ بالنوافذ. كانت هناك قوائم أسرَّة، وحواجز حديديَّة، وقضبان وقطع غريبة من الحديد الملويّ على عربته. إنَّما، كان يستحيل معرفة ما إذا كان يشتري الحديد القديم أو يبيعه، وقد استمرَّ الإيقاع، غير أنَّ الكلمات كادت تكون ممحيَّة.

وصل سرب الصوت، واندفاع حركة المرور، وصيحات الباعة المتجوّلين، والنداءات الفرديَّة والأخرى العامَّة، إلى الغرفة العلويَّة من المنزل الواقع في «هايمز بليس» حيث جلست سارة بارغيتر إلى البيانو. كانت تغنّي. ثمَّ توقَّفت، وراقبت أختها وهي تُهيّئ الطاولة.

تمتمت وهي تراقبها: «اذهبي وابحثي في الوديان، اقطفي كلَّ وردة». توقَّفت قليلاً. أضافت قائلة على نحو حالم: «إنَّ هذا لطيف جدّاً». كانت ماغي قد أخذت مجموعة من الأزهار، وقطعت الخيط المشدود الذي كان يجمعها معاً، ووضعتها جنباً إلى جنب على الطاولة، وكانت ترتِّبها في أصيص خزفيٍّ. لقد كانت ذات ألوان مختلفة، فمنها الزرقاء والبيضاء والبنفسجيَّة. راقبتها سارة وهي ترتِّبها. ضحِكت على نحو مفاجئ.

«علامَ تضحكين؟»، قالت ماغي وهي غائبة الذهن. أضافت زهرة بنفسجيَّة إلى المجموعة ونظرت إليها.

قالت سارة: «في حالة ذهول من نشوة التأمُّل، تُظلل عينيها بريش الطاووس المغموس في ندى الصباح-»، أشارت إلى الطاولة، قالت ماغي، ونهضت قافزة، ودارت في أرجاء الغرفة، «إنَّ ثلاثة مثل اثنين، إنَّ ثلاثة مثل اثنين». أشارت إلى الطاولة التي جُهِّزت عليها أماكن لثلاثة أشخاص.

قالت ماغي: «غير أنَّنا ثلاثة، إنَّ روز قادمة». توقَّفت سارة. بدت خيبة الأمل على وجهها.

«روز قادمة؟»، أعادت القول.

أجابت ماغي: «لقد أخبرتك، قلتُ لكِ إنَّ روز قادمة لتناول طعام الغداء في يوم الجمعة. اليوم هو يوم الجمعة. وروز قادمة لتناول طعام الغداء. في أيِّ لحظة الآن». نهضت وشرعت تطوي بعض الأقمشة التي كانت مُلقاة على الأرض.

«اليوم هو يوم الجمعة. وروز قادمة لتناول طعام الغداء»، كرَّرت سارة قائلة.

قالت ماغي: «لقد أخبرتكِ، كنتُ في محلٍّ. كنتُ أبتاع بعض الأقمشة. وثمَّة امرأة ما...» -توقَّفت قليلاً بغية جعل طيِّها أكثر دقَّة- «أتت من خلف المنضدة وقالت، "أنا ابنة عمِّك، أنا روز"، هذا ما قالته، "هل في وسعي القدوم ورؤيتكِ؟ في أيِّ وقت، وفي أيِّ يوم"، قالت لي. لذا أجبتها»، واضعة الأقمشة على كرسيٍّ، «تعالي لتناول الغداء».

نقَّلت نظرها في أنحاء الغرفة كي ترى أنَّ كلَّ شيء جاهز. كانت الكراسي ناقصة. لقد سحبت سارة كرسيّاً.

«إنَّ روز قادمة، وهذا هو مكان جلوسها»، قالت. وضعت الكرسيَّ عند الطاولة مواجهاً للنافذة. «وستنزع قفَّازيها، وستضع قفازاً على هذا الجانب، والآخر على ذاك الجانب، وستقول، لم يسبق لي أن أتيت إلى هذا الجزء من لندن قبلاً».

قالت ماغي وهي تنظر إلى الطاولة: «وماذا بعد ذلك؟».

«ستقولين، "إنَّه مناسب جدّاً للمسارح"».

«ومن ثمَّ؟»، قالت ماغي.

«ومن ثمَّ، ستقول بحزن، نوعاً ما، وهي مبتسمة، واضعة رأسها على أحد الجانبين، "هل تذهبين غالباً إلى المسرح يا ماغي؟"».

«كلَّا»، قالت ماغي، «إنَّ روز ذات شعر أحمر اللون».

هتفت سارة: «شعر أحمر؟ لقد اعتقدتُ أنَّها ذات شعر أشيب -خصلة صغيرة متناثرة تحت قلنسوة سوداء».

«كلَّا، إنَّها تمتلك شعراً كثيفاً بحقّ، وهو أحمر اللون»، قالت ماغي.

«شعر أحمر، روز حمراء»، هتفت سارة. دارت واقفة على إصبع قدمها.

«روز القلب المشتعل، روز الثدي المحترق، روز العالم الـمُنهك -روز حمراء، حمراء!»

صُفق باب في الأسفل، وسمعتا وقع أقدام تصعد الدرج. قالت ماغي: «ها هي ذي».

توقَّفت الخُطى. سمعتا صوتاً يقول، «إلى الأعلى أيضاً؟ إلى أعلى طابق؟ شكراً لك». ثمَّ عاودت الخُطى صعود الدرج من جديد.

«هذا هو أسوأ عذاب...»، بدأت سارة القول، وهي تشدُّ يديها معاً وتتشبَّث بأختها، «أن تكون الحياة...»

«لا تكوني وغدة»، قالت ماغي وهي تدفعها بعيداً، في حين فُتح الباب.

دخلت روز.

قالت وهي تصافحهما: «لقد مرَّ وقت طويل جدّاً مُذ التقينا».

تساءلَت عن السبب الَّذي دفعها للحضور. كان كلُّ شيء مختلفاً عمَّا توقَّعته. كانت الغرفة مشوبة بطابع الفقر إلى حدٍّ ما، السجَّادة لم تغطِّ الأرضيَّة. كانت توجد آلة خياطة في الزاوية، حتَّى ماغي أيضاً قد بدت مختلفة عمَّا كانت تبدو عليه في المحلِّ. إنَّما، كان هناك كرسيٌّ قرمزيٌّ ومذهَّب، فشعرت بالارتياح من جرَّاء تمييزها به.

قالت، واضعة حقيبتها على الكرسيِّ: «لقد كان هذا يوضع في الصالة عادة، أليس كذلك؟».

«أجل»، أجابت ماغي.

«وهذه المرآة...»، قالت روز وهي تنظر إلى مرآة إيطاليَّة عتيقة ضبابيَّة تعلوها البقع، وكانت معلَّقة بين نافذتين، «ألم تكن تلك هناك أيضاً؟».

ردَّت ماغي: «بلى، في غرفة نوم والدتي».

كان ثمَّة صمت قصير. بدا كأنَّه لا يوجد ما يُقال البتَّة.

تابعت روز القول محاولة خلق محادثة: «يا لها من غرفة جميلة تلك التي أعددتماها!». كانت غرفة كبيرة، وكانت أعمدة الباب تعلوها نقوش صغيرة. «إنَّما، ألا تجدانها صاخبة نوعاً ما؟»، واصلت حديثها.

كان الرجل يصيح تحت النافذة. نظرت إلى خارج النافذة. هناك في الجانب المقابل كان يوجد صفٌّ من الأسطح المبنيَّة بالصخور الأردوازيَّة، كما المظلَّات نصف المفتوحة، وكان هناك مبنىً ضخمٌ يعلو شاهقاً فوقها، وبدا أنَّه مصنوع بأكمله من الزجاج باستثناء العلامات السُّود الرفيعة الَّتي تعلوه. لقد كان مصنعاً. صاح الرجل في الشارع الواقع في الأسفل.

قالت ماغي: «أجل، إنَّها صاخبة، غير أنَّها ملائمة جداً».

«مناسبة جدّاً للمسارح»، قالت سارة وهي تضع اللَّحم.

ردَّت روز وهي تلتفت بغية النظر إليها: «وهذا ما أتذكَّر أنَّني اكتشفته حين عشتُ هنا بنفسي».

«هل عشتِ هنا؟»، سألت ماغي وقد بدأت بتقطيع اللَّحم.

«ليس هنا، بل في مكان قريب. مع صديق»، قالت.

قالت سارة: «كنَّا نعتقد أنَّكِ عشتِ في أبيركورن تيريس».

«أليس في وسع المرء أن يعيش في أكثر من مكان؟»، سألت روز وهي تشعر بالانزعاج على نحو مُبهم، لأنَّها قد سبق لها العيش في أماكن عدَّة، وشعرت بالعديد من العواطف، وفعلت الكثير من الأشياء.

قالت ماغي: «إنَّني أتذكَّر أبيركورن تيريس»، توقَّفت قليلاً، «أكانت هناك غرفة طويلة، وشجرة في النهاية، وصورة تعلو المدفأة لفتاة ذات شعر أحمر اللَّون؟»

أومأت روز إيجاباً: «إنَّها ماما، حين كانت صغيرة في السنِّ»، قالت.

تابعت ماغي القول: «وطاولة مستديرة في المنتصف؟»

أومأت روز إيجاباً.

«وكانت لديكم خادمة ذات عينين زرقاوين بارزتين جدّاً؟»

«كروسبي. إنَّها لا تزال معنا».

تناولنَ الطعام في صمت.

قالت سارة كما لو كانت طفلة تطالب بسرد قصَّة: «وماذا بعد ذلك؟»

«وماذا بعد ذلك؟»، قالت روز، «حسناً، بعد ذلك...»، نظرَت إلى ماغي وهي تفكِّر في كونها تشبه فتاة صغيرة ترغب في الثرثرة.

رأتهما تجلسان إلى الطاولة، وعاودها تفصيل لم يطرأ إلى بالها على مدى سنين من الزمن- الطريقة الَّتي اعتادت ميلي بها أن تنزع دبُّوس شعرها وتعبث بفتيل الإبريق. ورأت إليانور تجلس مع دفاتر حساباتها، ورأت نفسها تنهض وتقول: «إليانور، أريد الذهاب إلى متجر أسرة لاملي».

بدا كأنَّ ماضيها يرتقي فوق حاضرها. وأرادت، لسبب من الأسباب، أن تتحدَّث عن ماضيها، أن تخبرهما شيئاً ما عن نفسها لم يسبق لها أن أخبرت به أيَّ شخص آخر، شيئاً مخفيّاً. توقَّفت قليلاً، محدِّقة إلى الأزهار الموضوعة في منتصف الطاولة من دون أن تراها. لاحظت وجود عقدة زرقاء في البريق الأصفر.

«أتذكَّر العمَّ إيبل»، قالت ماغي، «لقد أعطاني قلادة، قلادة زرقاء ذات نقاط ذهبيَّة».

قالت روز: «إنَّه لا يزال في قيد الحياة».

تحدَّثنَ كما لو كانت «أبيركورن تيريس» مشهداً في مسرحيَّة، كما اعتقدت. لقد تحدَّثنَ كما لو أنهنَّ كنَّ يتحدَّثنَ عن أشخاص حقيقيِّين، إنَّما ليسوا حقيقيِّين بالطريقة عينها الَّتي شعرت فيها بأنَّها نفسها حقيقيَّة. أثار الأمر حيرتها، وجعلها تشعر بأنَّها كانت شخصين مختلفين في الوقت عينه، بأنَّها كانت تعيش في زمنين مختلفين في اللحظة نفسها. لقد كانت فتاة صغيرة ترتدي معطفاً ورديّاً، وها هي ذي موجودة في هذه الغرفة، الآن. إنَّما، كانت هناك قعقعة كبيرة تحت النوافذ. عبرت عربة نقل مصدرة صوتاً عالياً أشبه بالزئير. جلجلت الكؤوس على الطاولة. جفلت قليلاً، تخلَّصت من أفكارها حول طفولتها، وفصلت بين الكؤوس.

قالت: «ألا تجدان المكان صاخباً جدّاً هنا؟».

«أجل. غير أنَّه ملائم جدّاً بسبب المسارح»، قالت سارة.

رفعت روز نظرها. لقد أعادت ما قالته. إنَّها تعتقد بأنَّني عجوز حمقاء، فكَّرت روز، مُعيدة التعليق عينه مرَّتين. احمرَّت وجنتاها على نحوَ طفيف.

فكَّرت، ما الفائدة الَّتي تُرتجى من محاولة إخبار الناس حول ماضي المرء الخاصِّ؟ ما هو ماضي المرء؟ حدَّقت إلى الإناء ذي العقدة الزرقاء غير المحكمة في البريق الأصفر. لِمَ أتيت في حين أنَّهما تسخران منّي فحسب؟ فكَّرت. نهضت سالي وأزالت الأطباق.

بدأت ماغي القول، وهما تنتظران، «وديليا...». سحَبَت الإناء إليها، وبدأت ترتِّب الأزهار. لم تكن تستمع، كانت غارقة في أفكارها الخاصَّة. لقد ذكَّرت روز بديغبي، وهي تراقبها، منغمسة في ترتيب مجموعة من الأزهار، كما لو أنَّ ترتيب الأزهار، ووضع الأزهار البيض إلى جانب الزرق، كان الأمر الأكثر أهميَّة في الكون بأسره.

«لقد تزوَّجت رجلاً إيرلنديّاً»، قالت بصوتٍ عال.

أخذت ماغي زهرة زرقاء ووضعتها إلى جانب أخرى بيضاء اللون.

سألت: «وإدوارد؟»

«إدوارد...»، كانت روز قد شرعت تقولها حين أتت سالي مع حلوى البودينغ.

صاحت: «إدوارد!»، وقد التقط مسمعُها الكلمة.

«يا لعينَي شقيقة زوجتي المتوفَّاة الذاويتين، الدعامة الذابلة لشيخوختي البائدة...». وضَعت حلوى البودينغ. «هذا إدوارد»، قالت، «اقتباس من كتاب أعطاني إيَّاه، "شبابي الضائع، شبابي الضائع"...» كان الصوتُ صوت إدوارد، وكان في مقدور روز أن تسمعه وهو يقول الجملة. نظراً لكونه كان يمتلك طريقة خاصَّة في التقليل من شأن نفسه، في حين أنَّه كان يتمتَّع بثقة عالية بنفسه.

إنَّما، لم يكن إدوارد كاملاً. ولم تكن لتسمح بأن يُسخر منه، لأنَّها كانت بالغة الولع بشقيقها، وتفخر جدّاً به.

«لا يوجد الكثير من "شبابي الضائع" حول إدوارد الآن»، قالت.

قالت سارة، وهي تتَّخذ مكانها في الجهة المقابلة: «لم أعتقد ذلك».

خيَّم الصمت عليهنَّ. نظرت روز إلى الأزهار من جديد. لِمَ أتيت؟ واصلت طرح هذا السؤال على نفسها. لِمَ أخلَّت بصباحها وقاطعت يوم عملها، في حين أنَّه كان من الواضح بالنسبة إليها أنَّهما لم تكونا تتمنَّيان رؤيتها؟

«أكملي يا روز»، قالت ماغي وهي تقدِّم حلوى البودينغ، «هيَّا، أخبرينا عن أسرة بارغيتر».

قالت روز: «عن أسرة بارغيتر؟». رأت نفسها وهي تركض على طول الطريق الواسع في ضوء المصباح.

«أيّ أمر يمكن أن يكون عادياً أكثر؟»، قالت، «أسرة كبيرة، تعيش في منزل كبير...». غير أنَّها شعرت بأنَّها هي نفسها كانت مثيرة للاهتمام جدّاً. توقَّفت قليلاً. نظرت سارة إليها.

قالت: «إنَّها ليست أسرة عاديَّة، أسرة بارغيتر-». كانت تمسك شوكة في يدها ورسمت خطّاً على مفرش المائدة. «أسرة بارغيتر»، أعادت قولها، «إنَّها أسرة تمتدُّ وتمتدُّ على مدى سنين» -وهنا لمست شوكتها المملّحة- «إلى أن وصلوا إلى صخرة»، قالت، «وحينها روز» -نظرت إليها من جديد: رفعت روز نفسها قليلاً، «تضرب روز الحصان بمهمازيها، وتقوده مباشرة نحو رجل يرتدي معطفاً ذهبيّاً، وتقول "اللَّعنة على عينيك!" ألا تتصرَّف روز على هذا النحو يا ماغي؟»، قالت وهي تنظر إلى شقيقتها كما لو كانت ترسم صورتها هذه على مفرش المائدة.

إنَّ هذا صحيح، فكَّرت روز وهي تأخذ حلوى البودينغ خاصَّتها. هذه أنا نفسي. اجتاحها مرَّة أخرى الشعور الغريب المتمثِّل في كونها شخصين مختلفين في الوقت عينه.

قالت ماغي، وهي تدفع بطبقها بعيداً: «حسناً، لقد انتهينا. تعالي واجلسي على الكرسيِّ يا روز».

اتَّجهت إلى جانب المدفأة وسحبت كرسيّاً، كان يحوي نوابض أشبه بالحلقات على المقعد، كما لاحظت روز.

لقد كانتا فقيرتَي الحال. فكَّرت روز وهي تلقي بنظرة إلى محيطها. إنَّ هذا هو السبب الَّذي دفعهما إلى اختيار هذا المكان للعيش فيه- لأنَّه كان بخس الثمن. كانتا قد طهتا طعامهما بنفسيهما -كانت سالي قد ذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة. سحبَت كرسيّها ليصبح إلى جانب كرسيِّ ماغي.

«أنتما تخيطان ملابسكما بنفسيكما؟»، قالت وهي تشير إلى آلة الخياطة القابعة في الزاوية. كان ثمَّة حرير مطويٌّ عليها.

قالت ماغي ناظرة إلى آلة الخياطة: «نعم».

«لأجل حفل؟»، قالت روز. كان القماش حريراً، أخضرَ، وفيه خطوط زرق.

قالت ماغي: «ليلة الغد»، رفعت يدها، في حين علَت وجهَها إيماءة فضوليَّة، كما لو كانت ترغب في إخفاء أمر ما. إنَّها تريد أن تخفي نفسها عنِّي، فكَّرت روز، كما أرغب أنا في إخفاء نفسي عنها. راقبتها، كانت قد نهضت، أحضرت الحرير وآلة الخياطة، وكانت تدخل الخيط في الإبرة. لاحظت روز أنَّها كانت تتمتَّع بيدين كبيرتين ونحيلتين وقويَّتين.

«لم أستطع قطُّ خياطة ملابسي الخاصَّة»، قالت وهي تراقبها ترتِّب الحرير على نحو سلس أسفل الإبرة. بدأت تشعر بالراحة. خلعت قبَّعتها وألقت بها على الأرض. نظرت إليها ماغي نظرة موافقة. لقد كانت وسيمة، على نحو مشوَّه بسبب السنِّ، أقرب إلى أن تكون رجلاً من كونها امرأة.

«إنَّما»، قالت ماغي، وقد بدأت تدير المقبض بطريقة حذرة إلى حدٍّ ما، «لقد فعلتِ أموراً أخرى». تحدَّثت بنغمات صادرة من شخص منغمس في استخدام يديه.

أصدرت الآلة صوت طنين مريح في حين وخزت الإبرة الحرير.

قالت روز: «أجل، لقد فعلتُ أموراً أخرى»، وهي تمسح على القطَّة الَّتي مدَّدت نفسها على ركبتها، «حين عشتُ في هذه المنطقة».

«غير أنَّ هذا الأمر كان منذ سنوات مضت»، أضافت قائلة، «حين كنتُ أصغر سناً. عشتُ هنا مع صديق»، تنهَّدت، «وعلَّمت اللصوصَ الصغار».

لم تقل ماغي شيئاً، لقد كانت تعمل على الآلة مديرةً مقبضها مراراً وتكراراً.

أضافت روز قائلة بعد قليل من الوقت: «لطالما أحببتُ اللصوص أكثر من الأشخاص الآخرين».

«أجل»، قالت ماغي.

قالت روز: «لم أحبَّ يوماً أن أكون موجودةً في المنزل على الإطلاق، أحببتُ البقاء بمفردي أكثر بكثير».

«أجل»، قالت ماغي.

تابعت روز الحديث.

وجدَت أنَّ الحديث أمر سهل جدّاً، بالغ السهولة. ولم يكن ثمَّة حاجة إلى قول أيِّ شيءٍ ذكيٍّ، أو إلى الحديث عن أمور المرء الخاصَّة. لقد كانت تتحدَّث عن طريق «واترلو» كما تتذكَّره حين دخلت سارة مع القهوة.

«عمَّ كان ذلك حول التعلُّق برجل بدين في كامبانا؟»، سألت وهي تضع صينيَّتها.

قالت روز: «كامبانا؟ لم يكن ثمَّة شيء حول كامبانا».

«سمعتُ عبر الباب»، قالت سارة وهي تصبُّ القهوة، «يبدو الحديث غريباً جدّاً». أعطت روز كوبها.

«اعتقدتُ أنَّكما كنتما تتحدَّثان عن إيطاليا، عن كامبانا، عن ضوء القمر».

هزَّت روز رأسها. «لقد كنَّا نتحدَّث عن طريق واترلو»، قالت. إنَّما، ما الذي كانت تتحدَّث عنه؟ لم تكن تتحدَّث عن طريق واترلو ببساطة. ربَّما كانت تتفوَّه بالهراء. كانت تنطق بالأمر الأوّل الذي يطرأ على بالها.

قالت وهي تحرِّك قهوتها: «إنَّ كلَّ الكلام سيكون محض هراء لو كُتب، هذا في اعتقادي».

أوقفت ماغي الآلة للحظة، وابتسمت.

«حتَّى لو لم يُكتب»، قالت.

اعترضت روز قائلة: «غير أنَّها الطريقة الوحيدة الَّتي نمتلكها بغية معرفة الآخرين». نظرَت إلى ساعتها. كان الوقت متأخِّراً أكثر ممَّا كانت تعتقد، فنهضت.

«عليَّ الذهاب»، قالت، «إنَّما، لِم لا تأتيان معي؟»، أضافت القول في خضمِّ اللَّحظة.

نظرت ماغي إليها. «إلى أين؟»، قالت.

كانت روز صامتة. قالت على نحو مستفيض: «إلى اجتماع». أرادَت أن تُخفي أكثر أمر أثار اهتمامها، لقد شعرَت بالخجل على نحو استثنائيٍّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد أرادتهما أن تأتيا. إنَّما، ما السبب؟ سألت نفسها، في حين تقف هناك تنتظر بغرابة. كانت ثمَّة وقفة قصيرة.

«يمكنكما أن تنتظرا في الطابق العلويِّ»، قالت على نحو مفاجئ. أضافت قائلة: «وستريان إليانور، وستريان مارتن، أسرة بارغيتر، بشحمهما ولحمهما». تذكَّرت عبارة سارة، «القافلة التي تعبر الصحراء»، كما قالت.

نظرت إلى سارة. كانت توازن نفسها على ذراع الكرسيِّ، تحتسي قهوتها وتؤرجح رجلها صعوداً وهبوطاً.

«أيجب أن أذهب؟»، سألَت على نحو مبهم، ولا تزال تُؤرجح قدمها صعوداً وهبوطاً.

رفعت روز كتفيها. «إن رغبتِ في ذلك»، قالت.

«إنَّما، هل عليَّ أن أحبَّ الأمر؟»، تابعت سارة القول وهي لا تزال تؤرجح قدمها. «...هذا الاجتماع؟ ما رأيكِ يا ماغي؟»، قالت مناشدة شقيقتها، «هل عليَّ الذهاب، أو يجب ألَّا أفعل؟ هل أذهب، أو لا أذهب؟»، لم تقل ماغي شيئاً.

نهضت سارة بعد ذلك واتَّجهت إلى النافذة، ووقفت هناك للحظة وهي تهمهم لحناً. «اذهبي وابحثي في الوديان، اقطفي كلَّ وردة»، همهمت. كان الرجل مارّاً، وكان يصيح: «هل من حديد قديم؟ هل من حديد قديم؟». استدارت بانتفاضة مفاجئة.

«إنَّني قادمة»، قالت، كما لو كانت قد حسمت أمرها، «سأرتدي ملابسي وآتي».

هرعت إلى الأعلى ودخلت غرفة النوم. فكَّرت روز في أنَّها تشبه طيراً من طيور حديقة الحيوان، الَّتي لا تطير أبداً، لكنَّها تقفز بسرعة عبر العشب.

استدارت نحو النافذة. لقد كان شارعاً صغيراً مثيراً للكآبة، فكَّرت. كانت هناك حانة عند الزاوية. بدت المنازل في الجهة المقابلة قذرة جدّاً، وكان المكان صاخباً. «هل من حديد قديم للبيع؟»، كان الرجل يصيح أسفل النافذة، «هل من حديد قديم؟». كان الأطفال يصرخون في الطريق، وكانوا يلعبون لعبة باستخدام علامات الطبشور على الرصيف. وقفت هناك تنظر إليهم في الأسفل.

قالت: «يا للصعاليك المساكين الصغار!». التقطت قبَّعتها ومرَّرت دبُّوسين مخصَّصين للقبَّعات فيها بحدَّة. قالت، وهي تمنح قبَّعتها تربيتة خفيفة على أحد الجانبين، في حين نظرت في المرآة: «ألا تجدان أنَّ الرجوع إلى المنزل في وقت متأخِّر ليلاً في بعض الأوقات، مع وجود هذه الحانة عند الزاوية، أمراً بغيضاً إلى حدٍّ ما؟»

قالت ماغي: «هل تعنين الرجال السكارى؟».

«أجل»، قالت روز. زرَّرت صفَّ الأزرار الجلديَّة على بذلتها المصمَّمة خصيصاً، ومنحت نفسها تربيتة خفيفة هنا وهناك، كما لو كانت تستعدُّ.

«والآن، عمَّ تتحدَّثان؟»، قالت سارة وقد دخلت حاملة حذاءها، «زيارة أخرى إلى إيطاليا؟».

قالت ماغي: «لا»، تحدَّثت على نحو غير واضح لأنَّ فمَها كان ممتلئاً بالدبابيس، «الرجال السكارى الَّذين يتبعون المرء».

«الرجال السكارى الَّذين يتبعون المرء»، قالت سارة. جلَست وبدأت تنتعل حذاءها.

قالت: «غير أنَّهم لا يتبعونني». ابتسمت روز، إذ كان الأمر واضحاً. لقد كانت شاحبة، عاديَّة الهيئة، وذات عظام بارزة. «يمكنني السير عبر جسر واترلو في أيِّ ساعة، نهاراً أو ليلاً...»، تابعت القول وهي تجذب رباط حذائها، «دون أن يلحظ أيُّ شخص». كان رباط الحذاء في شكل عقدة، تلاعبت به. تابعت القول: «إنَّما، يسعني التذكُّر أنَّه قد قيل لي من قِبل امرأة -امرأة بالغة الجمال- لقد قالت...»

«أسرعي»، قاطعتها ماغي، «إنَّ روز تنتظر».

«... إنَّ روز تنتظر، حسناً، لقد قالت لي المرأة، حين ذهبَت إلى متنزَّه ريجنت بغية تناول بعض المثلَّجات» -نهضَت محاولة جعل حذائها مناسباً لقدمها- «لتناول بعض المثلَّجات، عند إحدى تلك الطاولات الصغيرة القابعة تحت الأشجار، واحدة من تلك الطاولات الصغيرة المستديرة الَّتي وُضعت عليها مفارش تحت الأشجار»- تقافزت في الأرجاء وهي تنتعل فردة واحدة في حين لم تنتعل الأخرى بعد- «العينان، كما قالت، اخترقتا كلَّ ورقة شجر كما سهام الشمس، وقد ذابت مثلَّجاتها، لقد ذابت مثلَّجاتها!»، أعادت القول وهي تنقر على كتف شقيقتها، في حين دارت حول إصبع قدمها.

أمسكت روز بيدها. «هل ستبقين وتنهين فستانكِ؟»، قالت، «ألن تأتي معنا؟». لقد كانت ترغب في قدوم ماغي بالتحديد.

«لا، لن آتي»، قالت ماغي وهي تصافحها. أضافت مبتسمة لروز بصراحة محيِّرة: «أعتقد أنَّني سأكره الأمر».

هل كانت تقصدني أنا؟ فكَّرت روز وهي تهبط الدرج. هل كانت تعني أنَّها كرهتني؟ في حين أنَّها أعجبتني جدّاً؟

كان هناك رجل مسنٌّ يبيع البنفسج، في الزقاق المؤدِّي إلى الساحة القديمة، قبالة «هولبورن»، وقد كان رثَّ الهيئة، وذا أنفٍ أحمر، كما لو كان قد صمد لسنوات عدَّة في زوايا الشارع. كان قد وضع إناءه قرب صفٍّ

من الأعمدة. اصطفَّت الطاقات على الصينيَّة، مربوطة بإحكام، كلٌّ منها بطوق أخضرَ من أوراق الشجر حول الأزهار الذابلة إلى حدٍّ ما، نظراً لأنَّه لم يبع العديد منها.

كرَّر على نحو تلقائيٍّ في حين كان الناس يعبرون، «بنفثج جميل، بنفثج نضر». مرَّ معظم الأشخاص دون أن ينظروا. غير أنَّه واصل ترديد صيغته على نحو تلقائيٍّ. «بنفثج جميل، بنفثج نضر»، كأنَّه نادراً ما يتوقَّع أن يشتريَ منه أحد. ثمَّ أتت سيِّدتان، فمدَّ أزهار البنفسج خاصَّته إليهما، وقال مرَّة أخرى، «بنفثج جميل، بنفثج نضر». ألقت إحداهما بقطعتين نحاسيَّتين على صينيَّته، فرفع نظره إلى الأعلى. توقَّفت السيِّدة الأخرى، وضعت يدها على العمود وقالت: «سأترك لكَ هذا». عقب قولها ذلك، ضربتها الأخرى، الَّتي كانت قصيرة وبدينة، على كتفها، وقالت: «لا تكوني وغدة!». وأطلقت السيِّدة الطويلة ضحكاً متقطِّعاً مفاجئاً أشبه بصوت الدَّجاج. أخذت مجموعة من أزهار البنفسج من الصينيَّة كما لو أنَّها قد دفعت ثمنها، ومشتا مبتعدتين. إنَّها مشترية غريبة، فكَّر -لقد أخذت البنفسج على الرَّغم من أنَّها لم تدفع ثمنه. راقبهما وهما تتمشَّيان حول الساحة، ثمَّ بدأ يتمتم من جديد، «بنفثج جميل، بنفثج نضر».

«هل هذا مكان لقائكم؟»، قالت سارة وهما تمشيان عبر الساحة.

كان المكان هادئاً جدّاً. لقد توقَّفت ضوضاء حركة المرور. لم تكن الأشجار مكتسية بالأوراق على نحو كامل بعد، وكان الحمام يهدل ويدندن على أعالي الأشجار. تساقطت قطع صغيرة من الأغصان على الرصيف في حين تنقَّلت الطيور بين الفنن. هبَّت نفحة من الهواء الرقيق على وجهيهما. تابعتا السير حول الساحة.

قالت روز وهي تشير: «ذاك هو المنزل هناك». توقَّفت حين وصلت إلى منزل ذي مدخل منحوت، بالإضافة إلى كثير من الأسماء على عمود الباب.

كانت النوافذ مفتوحة في الطابق الأرضيِّ، وتطايرت الستائر إلى الداخل والخارج، فكان في استطاعتهما أن تريا من خلالها صفّاً من الرؤوس، كما لو أنَّ هناك أشخاصاً يجلسون حول مائدة، يتحدَّثون.

توقَّفت روز قليلاً عند عتبة الباب.

«هل ستدخلين»، قالت، «أو أنَّك لن تدخلي؟».

تردَّدت سارة. حدَّقت إلى الداخل. ثمَّ لوَّحت بطاقة البنفسج خاصَّتها في وجه روز وصاحت، «حسناً!»، هتفت، «هيَّا بنا!»

كانت ميريام باريش تقرأ رسالة، وإليانور تسوّد الخطوط على ورق التنشيف خاصَّتها. لقد سمعتُ كلَّ هذا. كانت تفكِّر، لقد فعلتُ هذا في كثير من الأحيان. ألقت بنظرة في أرجاء الطاولة. حتَّى وجوه الناس بدت كأنَّها تكرِّر نفسها. هناك نوع من الأشخاص يشبهون جود، وآخرون يشبهون لازينبي، وها هي ذي ميريام، فكَّرت وهي ترسم على ورق التنشيف خاصَّتها. علمتُ ما الذي سيقوله، علمتُ ما الذي ستقوله، فكَّرتِ، وهي تحفر حفرة صغيرة في ورق التنشيف. هنا، تدخل روز. إنَّما، من تلك التي برفقتها؟ سألت إليانور. لم تستطع تمييزها. أيّاً كانت فقد أشارت إليها روز للجلوس على كرسيٍّ في الزاوية، واستمرَّ الاجتماع. لِمَ يتعيَّن علينا أن نفعل هذا؟ فكَّرت إليانور، وهي ترسم محور عجلة من الثقب الموجود في المنتصف. رفعت نظرها إلى الأعلى. كان ثمَّة شخص ما يخشخش بعصا على الدرابزين ويصفر، تأرجحت أغصان شجرة جيئة وذهاباً في الحديقة الخارجيَّة. كانت الأوراق تتفتَّح بالفعل. وضعت ميريام أوراقها، ونهض السيِّد سبايسر.

كما أفترض، ليس ثمَّة من طريقة أخرى، فكَّرت، وهي تلتقط قلمها من جديد. دوَّنت ملاحظة في حين تحدَّث السيِّد سبايسر. وجدَت أنَّ قلمها يستطيع تدوين ملاحظات على نحو دقيق للغاية، في حين فكَّرت هي نفسها في شأن أمر آخر. بدت كأنَّها قادرة على تقسيم نفسها إلى قسمين. أحد

هذين الشخصين كان يتابع النقاش -وفكَّرت في أنَّ السيِّد سبايسر يُناقش على نحو جيّد جدّاً، ونظراً لأنَّها كانت فترة ما بعد ظهيرة لطيفة، ورغبَت في الذهاب إلى «كيو»، فإنَّ القسم الآخرَ منها تمشَّى عبر فسحة خضراء وتوقَّف أمام شجرة مزهرة. هل هذه زهرة الماغنوليا؟ سألت نفسها، أم أنَّ موسمها قد انتهى بالفعل؟ تذكَّرت أنَّ أزهار الماغنوليا ليست ذات أوراق، بل مجموعات من الورد الأبيض -رسمَت خطّاً على ورق التنشيف.

الآن، بيكفورد... قالت وهي ترفع نظرها من جديد. تحدَّث السيِّد بيكفورد. رسمت المزيد من أجزاء العجلات وسوَّدتها. ثمَّ نظرت، بسبب وجود تغيُّر في نغمة الصوت.

كانت الآنسة آشفورد تقول: «إنَّني أعرف ويستمنستر على نحو جيِّد جدّاً».

«وأنا أيضاً!»، قال السيِّد بيكفورد، «لقد عشتُ هناك مدَّة أربعين عاماً».

بدت إليانور دَهِشة. لطالما فكَّرت في أنَّه عاش في «إيلينغ». لقد عاش في «ويستمنستر»، أليس كذلك؟ كان رجلاً ضئيلاً، أنيقاً وحليقاً على نحو نظيف، رجلاً لطالما رأته في عين ذهنها وهو يركض بغية اللحاق بقطار، متأبِّطاً جريدة أسفل ذراعه. إلَّا أنَّه عاش في «ويستمنستر»، أليس كذلك؟ فكَّرت في كون هذا الأمر غريباً.

ثمَّ تابعوا النقاش من جديد. أصبح صوت الحمام الهادل مسموعاً. اهدلي مرَّتين، اهدلي مرَّتين، اهدلــ.. كان يدندن. كان مارتن يتحدَّث. وفكَّرت في أنَّه يتحدَّث على نحو جيّد جداً... إنَّما عليه ألَّا يكون ساخراً، إنَّه أمر يثير إزعاج الآخرين. رسمَت خطاً آخرَ.

ثمَّ سمعت ضوضاء سيَّارة في الخارج، توقَّفت خارج النافذة. توقَّف مارتن عن الحديث. كان هناك توقُّف لحظيٌّ قصير. ثمَّ فُتح الباب ودخلت امرأة طويلة ترتدي فستان سهرة. رفع كلٌّ منهم نظره إلى الأعلى.

«ليدي لاسودي!»، قال السيِّد بيكفورد وهو ينهض، وأعاد دفع كرسيِّه.

صاحت إليانور: «كيتي!». نهضت جزئيّاً، غير أنَّها عاودت الجلوس من جديد. كانت هناك حركة بسيطة. عُثِر على كرسيٍّ لأجلها. اتَّخذت الليدي لاسودي مكانها قبالة إليانور.

اعتذرت قائلة: «إنَّني بالغة الأسف على تأخُّري إلى هذا الحدِّ، وعلى قدومي بهذه الملابس السخيفة»، أضافت وهي تلمس عباءتها. لقد بدت غريبة بالفعل، مرتدية فستان سهرة في وضح النهار. كان هناك شيء يلمع في شعرها.

«الأوبرا؟»، قال مارتن، في حين كانت تجلس إلى جانبه.

«أجل»، أجابت على نحو مقتضب. وضعَت قفَّازيها الأبيضين بطريقة عمليَّة على الطاولة. فُتحت عباءتها وأظهرت بريق ثوب فضّيٍّ تحتها. لقد بدت غريبة بالفعل مقارنة بالآخرين، إلَّا أنَّه كان من حُسن أخلاقها أن تأتي، فكَّرت إليانور، وهي تنظر إليها، آخذةً في الحسبان أنَّها ذاهبة إلى الأوبرا. بدأ الاجتماع من جديد.

تساءلت إليانور، منذ متى هي متزوِّجة؟ كم مضى من الوقت مُذ كسرنا الأرجوحة معاً في «أكسفورد»؟ رسمَت خطّاً آخر على ورق التنشيف. كانت النقطة الآن محاطة بالخطوط.

«... وقد ناقشنا المسألة بأكملها بصراحة تامَّة»، كانت كيتي تقول. استمعت إليانور. فكَّرت، هذا هو الأسلوب الذي أحبُّه. كانت ستلتقي السير إدوارد على العشاء... فكَّرت إليانور، إنَّه أسلوب السيِّدات العظيمات... رسميٌّ وطبيعيٌّ. أنصتت من جديد. لقد سُحر السيِّد بيكفورد بسلوك السيِّدات العظيمات، إلَّا أنَّه أمر أثار حنق مارتن، لقد علمَت ذلك. كان يزدري السير إدوارد وصراحته، ثمَّ انطلق السيِّد سبايسر بعد ذلك مجدَّداً، وكانت كيتي قد انضمَّت. الآن، هناك روز. كانوا جميعاً على طرفي نقيض. استمعت إليانور، أصبحت أكثر انزعاجاً شيئاً فشيئاً. كلُّ ما يؤول إليه الأمر

هو: أنا على حقٍّ وأنت على خطأ، فكَّرت. إنَّ هذه المشاحنات محض مضيعة للوقت. لو كان في مقدورنا الوصول إلى أمر ما، أمر أعمق، أكثر عمقاً، فكَّرت، وهي تدفع قلمها على ورق التنشيف. فجأة، رأت النقطة الوحيدة الَّتي كانت تحمل أيَّ أهميَّة. كانت الكلمات تقبع على طرف لسانها. فتحت فمها بغية الكلام. إنَّما، ما إن تنحنحت، جمع السيِّد بيكفورد أوراقه معاً ونهض. قال، هلَّا عذرتموني؟ كان عليه الحضور في المحكمة، فنهض، وذهب.

طال أمد الاجتماع. أصبحت منفضة السجائر الموجودة في منتصف الطاولة ممتلئة بأعقاب السجائر، وصار الهواء مثقلاً بالدُّخان، ثمَّ ذهب السيِّد سبايسر، وذهبت الآنسة بودهام، ولفَّت الآنسة آشفورد وشاحاً بإحكام حول رقبتها، وأخذت حقيبتها الصغيرة أيضاً، ثمَّ خطَت إلى خارج الغرفة. خلعت ميريام باريش نظَّارتها وثبَّتتها على خطَّاف قد خيط على مقدّمة فستانها. كان الجميع يرحل، لقد انتهى الاجتماع. نهضت إليانور. لقد أرادت أن تتحدَّث إلى كيتي، إلَّا أنَّ ميريام اعترضتها.

بدأَت القول: «بشأن القدوم لرؤيتكِ يوم الأربعاء»،

«أجل»، قالت إليانور.

«لقد تذكَّرت توّاً أنَّني وعدتُ أن أصطحب ابنة أختي إلى طبيب الأسنان»، قالت ميريام.

قالت إليانور: «إنَّ يوم السبت يناسبني بالقدر عينه».

توقَّفت ميريام قليلاً. تأمَّلت.

«هل سيكون يوم الاثنين مناسباً بدلاً من ذلك؟»، قالت.

«سأدوِّن هذا»، قالت إليانور بغضب لم تستطع أن تخفيه، على الرَّغم من كون ميريام صالحةً للغاية. وأسرعت ميريام مبتعدة وملامحها ممتلئة بالذنب كما لو كانت جرواً صغيراً أُمسك به وهو يسرق.

استدارت إليانور. كان البقيَّة لا يزالون يتناقشون.

كان مارتن يقول: «سوف توافقونني الرأي في أحد هذه الأيَّام».

«أبداً! أبداً!»، قالت كيتي وهي ترمي قفَّازيها على الطاولة. لقد بدت جميلة للغاية، إنَّما سخيفة في الوقت عينه وهي ترتدي فستان السهرة خاصَّتها.

«لِمَ لَمْ تتحدَّثي يا نيل؟»، قالت وهي تستدير إليها.

«لأنَّه-»، بدأت إليانور القول، «لا أعلم»، أضافت القول بضعف إلى حدٍّ ما. شعرَت على نحو مفاجئ بأنَّها كانت رثَّة الهيئة، وزريَّة الملبس بالمقارنة مع كيتي، الَّتي وقفت هناك مرتدية فستان سهرة كاملاً مع شيء لامع في شعرها.

«حسناً»، قالت كيتي وهي تستدير مبتعدة، «عليَّ الذهاب. إنَّما هل يمكنني إيصال أيِّ شخص في طريقي؟»، قالت وهي تشير إلى النافذة. كانت سيَّارتها هناك.

قال مارتن، ناظراً إليها، وصوته يحمل قدراً من السخرية، «يا لها من سيَّارة رائعة!»

«إنَّها سيَّارة تشارلي»، قالت كيتي بحدَّة نوعاً ما.

«ماذا بشأنكِ يا إليانور؟»، قالت وهي تستدير نحوها.

«شكراً لكِ»، قالت إليانور، «-لحظة واحدة».

كانت قد بعثَرت أغراضها. تركت قفَّازيها في مكان ما. هل جلبَت مظلَّة أو أنَّها لم تفعل؟ لقد شعرَت بأنَّها مرتبكة وزريَّة الملبس، كما لو كانت طالبة مدرسة فجأة. كانت هناك سيَّارة رائعة في الانتظار، وفتح السائق الباب حاملاً خرقة في يده.

قالت كيتي: «اصعدي». صعدت في السيَّارة ووضع السائق الخرقة على ركبتيها.

«سنتركهم»، قالت كيتي وهي تلوّح بيدها، «يتآمرون». وانطلقت السيَّارة مبتعدة.

«يا لهم من مجموعة أشخاص بالغي العناد!»، قالت كيتي وهي تلتفت إلى إليانور.

«إنَّ استخدام القوَّة هو أمر خطأ دائماً -ألا تتفقين معي؟- أمر خطأ دائماً!»، كرَّرت القول وهي تسحب الخرقة على ركبتيها. كانت لا تزال تحت تأثير الاجتماع. إلَّا أنَّها رغبت في الحديث مع إليانور. نادراً ما التقيتا، وكانت معجبة بها للغاية. غير أنَّها كانت خجلى، تجلس هناك مرتدية ملابسها السخيفة، ولم تستطع أن تنزع من ذهنها مجرى الاجتماع الذي كان جارياً.

«يا لهم من مجموعة أشخاص بالغي العناد!»، أعادت القول. ثمَّ بدأت تقول:

«أخبريني...»

كان هناك العديد من الأمور التي رغبت في السؤال عنها، إلَّا أنَّ المحرِّك كان بالغ القوّة، وتأرجحت السيَّارة داخلة وخارجة عبر الازدحام المروريِّ بسلاسة عالية، قبل أن يتسنَّى لها وقت كي تقول أيَّ أمر من الأمور التي رغبت في قولها، كانت إليانور قد مدَّت يدها، لأنَّهما قد وصلتا إلى محطَّة «تيوب».

«هلَّا توقَّف هنا؟»، قالت وهي تنهض.

بدأت كيتي القول: «إنَّما، هل عليكِ الخروج؟». لقد أرادت أن تتحدَّث إليها.

قالت إليانور: «عليَّ ذلك، عليَّ ذلك». «إنَّ بابا في انتظاري». شعرت كما لو أنَّها طفلة من جديد إلى جانب هذه السيِّدة العظيمة والسائق، الَّذي كان يفتح الباب لها.

«تعالي لرؤيتي، افعلي ذلك، فلنلتقِ مجدَّداً عمَّا قريب يا نيل»، قالت كيتي وهي تمسك بيدها.

بدأت السيَّارة تتحرَّك من جديد. عاودت الليدي لاسودي الجلوس في زاويتها. تمنَّت لو أنَّها قضت مزيداً من الوقت مع إليانور، فكَّرت، إلَّا أنَّها لم تتمكَّن من إقناعها بالمجيء وتناول العشاء. دائماً ما كانت تقول عبارة،

«إنَّ بابا يتوقَّع قدومي»، أو تقدِّم عذراً آخرَ ما، فكَّرت بمرارة نوعاً ما. كانتا قد سلكتا اتِّجاهين مختلفين جدّاً، عاشتا حياتين مختلفتين، منذ «أكسفورد»... تباطأت السيَّارة، إذ كان عليها أن تتَّخذ مكانها في صفٍّ طويل من السيَّارات التي تتحرَّك بوتيرة خطوات الأقدام، الآن، تتوقَّف تماماً، الآن تتحرَّك ببطء على طول الشارع الضيِّق، الذي تغلقه عربات التسوُّق، وكان يؤدِّي إلى دار الأوبرا. كانت النساء والرجال يرتدون ملابس سهرة كاملة ويسيرون على طول الرصيف. كانوا يبدون غير مرتاحين وخجولين، في حين يعبرون بين عربات اليد، مع شعورهنَّ المرفوعة عالياً ومعاطف السهرة، مع ثقوب الأزرار والصدريَّات البيض، في بريق شمس الظهيرة. تعثَّرت السيِّدات على نحو غير مريح وهنَّ يرتدين أحذيتهنَّ من ذات الكعب العالي، ويضعنَ أيديهنَّ على رؤوسهنَّ بين الفينة والأخرى. بقي السادة على مقربة منهنَّ كما لو كان ذلك لحمايتهنَّ. إنَّه لأمر سخيف، فكَّرت كيتي، إنَّ من التافه الخروج مرتديات ملابس سهرة كاملة في هذا الوقت من النهار. عادت إلى ركنها. كان حمَّالو حديقة «كوفينت»، وموظفون صغار هيئاتهم رثَّة ويرتدون ملابس العمل العاديَّة خاصَّتهم، ونساء ذوات مظهر فجٍّ يرتدينَ مراييلهنَّ، جميعهم يحدِّقون إليها. كانت رائحة الجوِّ مثقلة جدّاً بالبرتقال والموز. غير أنَّ السيَّارة كانت تؤول إلى التوقُّف الكامل. عبرت أسفل القنطرة، ودفعَت الأبواب الزجاجيَّة ثمَّ ولجَت إلى الداخل.

غمرها شعور بالارتياح على الفور. الآن بعد أن انطفأ ضوء النهار، وتوهَّج الجوُّ باللونين الأصفر والقرمزيِّ، لم تعد تشعر بأنَّها سخيفة بعد الآن، بل على النقيض من ذلك، لقد شعرت بأنَّها مناسبة. كانت السيِّدات والسادة، الَّذين يصعدون الدَّرج، يرتدون الملابس عينها الَّتي كانت ترتديها. استُبدِلت رائحة البرتقال والموز برائحة أخرى، مزيج غامضٌ من الملابس والقفَّازات والأزهار، وقد أثَّر فيها على نحو لطيف. كانت السجَّادة

سميكة تحت قدميها. مشت على طول الممرِّ إلى أن وصلَت إلى مقصورتها الخاصَّة الَّتي تعلوها البطاقة. ولجَت إلى الدَّاخل وانفتحت دار الأوبرا بأكملها أمامها. بعد كلِّ شيء، لم تكن قد تأخَّرت. كان عازفو الأوركسترا لا يزالون يضبطون أوزان نغمات آلاتهم، وكانوا يضحكون، يتحدَّثون ويلتفتون في الأرجاء جالسين في مقاعدهم، في حين يعبثون بآلاتهم بانشغال. وقفَت تنظر إلى المقاعد القابعة في الأسفل. كانت أرضيَّة الدَّار في حالة كبيرة من التقلقل. كان الأشخاص يمرُّون للوصول إلى مقاعدهم، يجلسون وينهضون من جديد، يخلعون عباءاتهم ويشيرون إلى الأصدقاء. كانوا كما الطيور الَّتي تستقرُّ في حقل. أمَّا في المقصورات، فقد كانت هيئات بيضٌ تظهر هنا وهناك، استقرَّت أذرع بيضٌ على حوافّ المقصورات، وأشعَّت قمصان لها مقدِّمات بِيض إلى جانبها. تألَّقت الدار بأكملها بالألوان -الأحمر، الذهبيّ، القشديّ- عبِقت برائحة الملابس والأزهار، وتردَّدت أصداء أصوات صرير وتغريد الآلات مع أزيز ودندنة الأصوات. ألقت نظرة على البرنامج الَّذي كان موضوعاً على حافَّة مقصورتها. لقد كانت «سيغفريد»، الأوبرا المفضَّلة لديها. في مساحة صغيرة ضمن الحدِّ المزيَّن على نحو بالغ قد كُتبت أسماء طاقم التمثيل. انحنت كي تقرأها، ثمَّ طرأت لها فكرة فألقت بنظرة على المقصورة الملكيَّة. لقد كانت خالية. بينما نظرَت فُتح الباب ودخل رجلان، كان أحدهما ابن عمِّها إدوارد، أمَّا الآخر فكان صبيّاً من أقرباء زوجها.

«لم يؤجِّلوها؟»، قال وهو يصافحها، «لقد كنتُ أخشى أن يفعلوا ذلك». لقد كان يعمل في منصب ما في وزارة الخارجيَّة، برأس رومانيٍّ وسيم.

نظروا جميعاً إلى المقصورة الملكيَّة على نحو غريزيٍّ. وُضعت البرامج على طول الحافَّة، إنَّما لم تكن هناك طاقةٌ من أزهار القرنفل الزهريَّة. كانت المقصورة خالية.

«لقد تخلَّى عنه الأطبّاء»، قال الشابُّ الصغير وهو يبدو بالغ الأهميَّة. إنَّ جميعهم يعتقدون أنَّهم يعلمون كلَّ شيء، فكَّرت كيتي وهي تبتسم عقب إدلائه بمعلومات خاصَّة.

«إنَّما، في حال وفاته؟»، قالت وهي تنظر إلى المقصورة الملكيَّة، «هل تعتقدون أنَّهم سيوقفون الأمر؟»

رفع الشابُّ الفتيُّ كتفيه. من الواضح أنَّه لم يستطع أن يكون إيجابيّاً حول ذلك. كانت الدار تمتلئ بالحضور. ومضت الأضواء على أذرع السيِّدات حين استدرنَ، لمعت تموُّجات الضوء، توقَّفت، ثمَّ لمعت في الجانب الآخر حين أدرنَ رؤوسهنَّ.

إنَّما، الآن كان المايسترو يشقُّ طريقه عبر الأوركسترا بغية الوصول إلى مقعده المرتفع. كان هناك انفجار من التصفيق، التفت، انحنى للجمهور، استدار من جديد، خفتت كلُّ الأضواء، وبدأ العرض.

استندت كيتي إلى جدار المقصورة، وبدا وجهها مُظلَّلاً بطيَّات الستائر. كانت سعيدة بكونها مظلَّلة. بينما عزفوا التمهيد نظرَت إلى إدوارد. كان في مقدورها أن ترى خطوط وجهه فقط في الوهج الأحمر، لقد كان أقسى ممَّا كان عليه، غير أنَّه بدا مُثقَّفاً، وسيماً وبعيداً قليلاً، حين استمع إلى التمهيد. فكَّرت، لم يكن ليحصل الأمر، إنَّني كثيراً... لم تُنهِ الجملة. لم يسبق له الزواج، فكَّرت، في حين سبق لها ذلك. ولديَّ ثلاثة أولاد. ذهبتُ إلى أستراليا، ذهبتُ إلى الهند... جعلَتها الموسيقا تفكِّر في نفسها وفي حياتها الخاصَّة، وقلَّما فعلَت ذلك. إنَّ ماضيها قد أَجَلَّها، ألقى بضوء ساحر عليها. إنَّما، لِمَ سخر مارتن منِّي بسبب امتلاك سيَّارة؟ فكَّرت. ما فائدة السخرية؟ سألت.

هنا، ارتفعت الستارة. انحنت إلى الأمام ونظرت نحو المسرح. كان القزم يدقُّ السيف بالمطرقة. يدقُّ ويدقُّ، كان يستخدم ضربات صغيرة، قصيرة وحادَّة. أنصتت. لقد تغيَّرت الموسيقا. إنَّه، فكَّرت وهي تنظر إلى

الشابِّ الوسيم، يعلم تماماً ما تعنيه الموسيقا. لقد كانت الموسيقا مستحوذة عليه برمَّته بالفعل. أحبَّت نظرة الاستغراق التامِّ الَّتي كانت تعلو احترامه الصرف، ما جعله يكاد يبدو حازماً إلى حدٍّ ما... إنَّما، ها هو ذا سيغفريد في الأوبرا -انحنت إلى الأمام- مرتدياً جلود الفهد، بالغ البدانة، ذا فخذين بلون الجوز، يقود دبّاً، ها هو ذا. لقد أحبَّت الشابَّ الفتيَّ السمين معتمراً شعره المستعار الكتّانيَّ، كان صوته مذهلاً. انطلق يدقُّ ويدقُّ ويدقُّ. مالت إلى الخلف من جديد. فيمَ جعلها هذا الأمر تفكِّر؟ دخل شابٌّ فتيٌّ، وثمَّة نشارة خشب في شعره إلى غرفة... حين كانت فتيَّة جدّاً. في «أكسفورد»؟ كانت قد ذهبَت لتناول الشاي معهم، جلست على كرسيٍّ صلب، في غرفة مضاءة جيّداً، وكان هناك صوت طرق في الحديقة. ثمَّ دخل شابٌّ يحوي شعره نشارة. وقد تمنَّت أن يُقبِّلها، أم كان عالم المزرعة في مزرعة كارتر، حين اقترب كارتر العجوز وهو يقود ثوراً ذا حلقة في أنفه؟

«هذا هو نوع الحياة الَّذي أحبُّه»، فكَّرت وهي تلتقط نظَّارة الأوبرا خاصَّتها، «هذا هو نوع الشخص الَّذي أنا عليه...»، أنهت جملتها.

ثمَّ وضعت نظَّارة الأوبرا على عينيها. أصبح المشهد فجأةً قريباً وساطعاً، وبدا كأنَّ العشب مصنوع من صوف أخضر سميك، وكان في مقدورها أن ترى ذراعَي سيغفريد السمينتين البنّيّتين تتوهَّجان بالطلاء. كان وجهه لامعاً. أنزلت النظَّارة ومالت إلى الخلف، إلى ركنها.

ولوسي كرادوك العجوز -رأت لوسي تجلس إلى طاولة، مع أنفها الأحمر، بعينيها الصبورين اللطيفتين. «إذاً، لم تكتبي أيّاً من وظائفكِ هذا الأسبوع مجدَّداً، يا كيتي!»، قالت معاتبة. كم أحببتها! فكَّرت كيتي. ثمَّ كانت قد عادَت إلى النُّزل، وكانت هناك شجرة ذات دعامة في المنتصف، وكانت والدتها تسوّي دِرباساً... أتمنَّى لو أنَّني لم أتنازع كثيراً مع والدتي، فكَّرت، وقد اجتاحها إحساس مفاجئ بمرور الوقت ومأساويَّته. ثمَّ تغيَّرت الموسيقا.

نظرَت إلى المسرح مجدَّداً. كان الرحَّالة قد دخل. كان جالساً على ضفَّةٍ مرتدياً جلباباً طويلاً رماديَّ اللَّون، وثمَّة رقعة تذبذبت فوق إحدى عينيه على نحو غير مريح. مضى يتحدَّث دون توقُّف. فتر انتباهها. ألقت نظرة في أنحاء الدار ذات الضوء الأحمر الخافت، ولم يكن في استطاعتها أن ترى سوى المرافق البِيض الـمُسندة على حوافِّ المقصورات. ظهر بين الفينة والأخرى ضوء مُسلَّط حادٌّ، في حين تبع شخص ما التوزيع الموسيقيَّ حاملاً شعلة. خطف نظرها الشكلُ الجانبيُّ الحسنُ لإدوارد من جديد. كان ينصت على نحو دقيق وباهتمام. لم يكن لينجحَ الأمر، فكَّرت، لم يكن لينجحَ الأمر على الإطلاق.

أخيراً، رحل الرحَّالة. والآن؟ سألت نفسها وهي تميل إلى الأمام. دخل سيغفريد مقتحماً. مرتدياً جلود الفهد خاصَّته، يضحك ويغنِّي، ها هو ذا من جديد. جعلتها الموسيقا تشعر بالحماس، إذ كانت مذهلة. أخذ سيغفريد القطع المكسورة من السيف ونفخ في النار، ودقَّ بالمطرقة مرَّة تلوَ الأخرى. تواصل كلٌّ من الغناء والطرق واشتعال النار جميعها مع بعضها بعضاً. أسرع فأسرع، أكثر فأكثر على نحو إيقاعيٍّ، وعلى نحو ظافر أكثر شيئاً فشيئاً تابع الدقَّ بالمطرقة، إلى أن أرجح أخيراً السيف عالياً فوق رأسه وأنزله إلى الأسفل- تحطُّم! انفجر السندان إرباً إرباً. ثمَّ لوَّح بالسيف فوق رأسه وصرخ وغنَّى، وتسارعت الموسيقا بصوت أعلى شيئاً فشيئاً، وأُسدلت الستارة.

أُضيئت الأضواء في منتصف الدار. عادت كلُّ الأضواء. قفزت دار الأوبرا بأكملها إلى الحياة من جديد مع وجوهها وماساتها ورجالها ونسائها. كانوا يصفِّقون ويلوِّحون ببطاقات البرنامج الَّتي تخصُّهم. بدا كأنَّ الدار بأكملها ترفرف بمربَّعات بِيض من الورق. أُسدلت الستائر جزئيّاً، وأوقفها الخدم طويلو القامة، الَّذين يرتدون السراويل القصيرة الَّتي تصل إلى الركبة. وقفت كيتي وصفَّقت. أُسدلت الستائر مرَّة أخرى، ثمَّ فُتحت من جديد، إذ أوشكت طيَّاتها الثقيلة الَّتي كان يتعيَّن على الخدم إمساكها، أوشكت أن تسحبهم. أمسكوا بالستائر مراراً وتكراراً، حتَّى حين سمحوا لها بالانسدال،

واختفى المغنُّون، وكان أعضاء الأوركسترا يغادرون مقاعدهم، فإنَّ الحضور لا يزالون واقفين ويصفِّقون ويلوِّحون ببطاقات البرنامج خاصَّتهم.

التفتت كيتي إلى الشابِّ الفتيِّ في مقصورتها. كان يميل فوق الحافَّة. كان لا يزال يصفِّق، ويصرخ «أحسنتم! أحسنتم!». لقد نسي أمرها. لقد نسي بشأن نفسه.

«ألم يكن هذا بديعاً؟»، قال أخيراً وهو يستدير.

كانت هناك نظرة غريبة تعلو وجهه كما لو أنَّه كان موجوداً في عالَمين في الوقت عينه، وكان عليه أن يجمعهما معاً.

«بديع!»، قالت موافقة. نظرت إليه بغصَّة حسد.

قالت وهي تجمع أغراضها: «والآن، فلنتناول العشاء».

كانوا قد انتهوا من تناول العشاء في «هايمز بليس». أُخليت الطاولة، وتبقَّى القليل من الفتات فحسب، ووقف إناء الزهور في منتصف الطاولة مثل خفير. كان الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت خياطة الإبرة، تخترق الحرير، لأنَّ ماغي كانت تخيط. جلست سارة منحنية على كرسيِّ الموسيقا، غير أنَّها لم تكن تعزف.

«فلتغنِّي شيئاً ما»، قالت ماغي على نحو مفاجئ. التفتت سارة ونقرت النوتات.

«أشهر سيفي وألوِّح به في يدي...» غنَّت. كانت الكلمات هي كلمات مُفخَّمة لنشيد يعود إلى القرن الثامن عشر، إلَّا أنَّ صوتها كان رقيقاً ومزعجاً، ثمَّ أصبح أكثر عمقاً، وتوقَّفت عن الغناء.

جلست بصمت ويداها فوق النوتات. «ما نفع الغناء إن لم يكن المرء يمتلك أيَّ صوت؟»، تمتمت قائلة. تابعت ماغي الخياطة.

قالت على نحو مطوَّل، وقد نظرت إلى الأعلى فجأة: «ما الَّذي فعلتِه اليوم؟».

«خرجتُ مع روز»، قالت سارة.

«وما الّذي فعلتِه مع روز؟»، قالت ماغي. كانت تتحدَّث وهي غائبة الذهن. التفتت سارة وألقت نظرة عليها. ثمَّ بدأت تعزف من جديد. تمتمت: «وقفتُ على الجسر ونظرتُ إلى الماء».

«وقفتُ على الجسر ونظرتُ إلى الماء»، دندنَت بالتزامن مع الموسيقا، «المياه الجارية، المياه المتدفِّقة. لعلَّ عظامي تتحوَّل إلى مرجان، وتضيء الأسماك مصابيحها، تضيء الأسماك مصابيحها الخُضر في عينيَّ». التفتت نصف التفاتة، ونظرت في الأرجاء نحو ماغي. إلَّا أنَّها لم تكن حاضرة الذهن. كانت سارة صامتة. نظرَت إلى النوتات مرَّة أخرى. إلَّا أنَّها لم ترَ النوتات، رأت حديقة، أزهاراً وشقيقتها، وشاباً فتيّاً ذا أنف كبير انحنى ليقطفَ زهرة كانت تلمع في الظلام. وأمسك الزهرة بيده في ضوء القمر... قاطعتها ماغي.

«ذهبتِ مع روز»، قالت، «إلى أين؟».

تركت سارة البيانو، ووقفت أمام المدفأة.

«لقد ركبنا حافلةً وذهبنا إلى هولبورن»، قالت، «ومشينا على امتداد الشارع»، تابعت القول، «وفجأة»، نفضت يدها، «شعرتُ بصفقة على كتفي». قالت روز. «كاذبة لعينة! وأخذتني، وقذفت بي على جدار حانة!»

خاطت ماغي في صمت.

«أخذتما الحافلة وذهبتما إلى هولبورن»، كرَّرت على نحو تلقائيٍّ بعد قليل من الوقت، «وماذا بعد ذلك؟».

تابعت سارة القول: «ثمَّ دخلنا غرفة، وكان يوجد هناك أشخاص - حشود من الأشخاص. وقلتُ لنفسي...»، توقَّفت قليلاً.

«اجتماع؟»، قالت ماغي، «أين؟».

أجابت سارة: «في غرفة». «ضوء أخضر شاحب. امرأة تعلِّق الملابس على حبل غسيل في الحديقة الخلفيَّة، واستمرَّ شخص في القعقعة على الدرابزين بعصا».

قالت ماغي: «لقد فهمت». تابعت الخياطة بسرعة.

«قلتُ لنفسي»، أكملت سارة، «إلى مَن تنتمي هذه الرؤوس...»، توقَّفت.

«اجتماع»، قاطعتها ماغي، «لأيٍّ سبب؟ عمَّ كان؟».

«كانت هناك حمامات تهدل»، تابعت سارة القول، «اهدلي مرَّتين يا تافي. اهدلي مرَّتين... اهدلـ.. ثمَّ سوّد جناح الجوِّ، ودخلت كيتي مرتدية ضوء النجوم، وجلست على كرسيٍّ».

توقَّفت قليلاً. كانت ماغي صامتة. تابعت الخياطة للحظة.

سألت مطوَّلاً: «مَن الَّتي دخلت؟»

«امرأة جميلة جدّاً، مرتدية ضوء النجوم، وهناك لون أخضر في شعرها»، قالت سارة، «عندئذ»، غيَّرت صوتها هنا وحاكت النغمات الَّتي يُفترض برجل من الطبقة الوسطى أن يستخدمها للترحيب بامرأة أنيقة، «يقفز السيِّد بيكفورد ويقول، أيَّتها الليدي لاسودي، هلَّا جلستِ على هذا الكرسيِّ؟».

دفعَت كرسيّاً أمامها.

تابعت القول وهي تومئ بيديها: «بعد ذلك، جلست الليدي لاسودي، واضعة قفَّازيها على الطاولة». -ربَّتت على مخدَّة- «هكذا».

رفعت ماغي نظرها إلى الأعلى من الخياطة. كان لديها انطباع عامٌّ عن غرفة ممتلئة بالأشخاص، عُصيّ تقعقع على الدرابزين، ملابس مُعلَّقة على الحبل كي تجفَّ، وامرأة تدخل وأجنحة الخنافس في شعرها.

سألَت: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

«ثمَّ روز الذابلة، روز الشائكة، روز السمراء، روز الشوكيَّة»، انفجرت سارة ضاحكة، «نزلت منها دمعة».

«كلَّا، كلَّا»، قالت ماغي. كان ثمَّة خطب ما في القصَّة، أمر مستحيل. رفعت نظرها إلى الأعلى. عبَر ضوء من سيَّارة مارَّة على طول السقف. كان المكان يصبح معتماً إلى حدٍّ تصعب معه الرؤية. شكَّل المصباح من الحانة المقابلة وهجاً أصفرَ اللَّون في الغرفة، وارتجف السقف بأنماط مائيَّة من الضوء المتبدِّل. كان هناك صوت شجار في الشارع، في الخارج، تنازعٌ ودوسٌ كما لو أنَّ رجال الشرطة كانوا يجرُّون شخصاً ما على امتداد الشارع ضدَّ رغبته. سخرت منه الأصوات وصاحت فيه.

«شجار آخر؟»، تمتمت ماغي وهي تخز إبرتها في القماش.

نهضت سارة واتَّجهت نحو النافذة. كان ثمَّة حشد قد تجمَّع خارج الحانة. كان هناك رجل يُلقى إلى الخارج. ها هو ذا قد أتى، مترنِّحاً. سقط بالقرب من عمود المصباح، وتشبَّث به. كان المشهد مضاءً بوهج المصباح الموجود أعلى باب الحانة. وقفت سارة عند النافذة تراقبهم للحظة. ثمَّ استدارت، بدا وجهها شديد الشحوب ومُرهقاً في الضوء المختلِط، كما لو أنَّها لم تعد فتاةً بعد الآن، بل امرأة عجوزاً منهكَةً بسبب حياة من الولادة، والدعارة والجريمة. وقفت هناك منحنية الظهر، ويداها مجموعتان معاً.

«حينما يحين وقت الدخول»، قالت وهي تنظر إلى شقيقتها، «فالأشخاص، وهم ينظرون إلى داخل هذه الغرفة، هذا الكهف، هذا المدخل الصغير، الَّذي جُوِّف من الطين والروث، سيضعون أصابعهم على أنوفهم» -أمسكَت أصابعها مغطيةً أنفها- «ويقولون، "يا للهول! إنَّ الرائحة مقرفة!"». سقطت على كرسيٍّ.

نظرت ماغي إليها. متكوِّرةً على نفسها، وشعرها يسقط على وجهها، ويداها مضمومتان بإحكام إلى بعضهما بعضاً، وقد بدت كما لو أنَّها قرد

كبير، يربض في كهف صغير من الطين والروث. «يا للهول!»، أعادت ماغي قولها، «إنَّ الرائحة مقرفة»... دفعت إبرتها عبر الأغراض في تشنُّج ناتج عن القرف. لقد كان الأمر صحيحاً، فكَّرت، لقد كانوا مخلوقات صغيرة مقرفة، مدفوعة بوساطة الشهوات الَّتي لا يمكن السيطرة عليها. كانت اللَّيلة ممتلئة بالزئير والسُّباب، بالعنف والتقلقل، وبالجمال والمتعة أيضاً. نهضت وهي تمسك الفستان بين يديها. تساقطت طيَّات الحرير على الأرض ومرَّرت يدها عليها.

«لقد انتهى. لقد اكتمل»، قالت وهي تضع الفستان على الطاولة. لم يكن ثمَّة شيء آخر تستطيع فعله بيديها. طوت الفستان ووضعته بعيداً. ثمَّ نهضت القطَّة، الَّتي كانت نائمة، على مهل، قوَّست ظهرها ومدَّدت نفسها إلى أقصى طول لها.

قالت ماغي: «أنتِ تريدين تناول العشاء، أليسَ كذلك؟». دخلت المطبخ وعادت تحمل صحناً صغيراً من الحليب. «تفضَّلي، أيَّتها القطَّة المسكينة»، قالت وهي تضع الصحن على الأرض. وقفت تراقب القطَّة وهي تلعق الحليب خاصَّـتها، رشفة تلو الأخرى، ثمَّ مدَّدت نفسها مجدَّداً بأناقة استثنائيَّة.

راقبتها سارة وهي تقف على مسافة قريبة. ثمَّ قلَّدتها.

«تعالي أيَّتها القطَّة المسكينة، تعالي أيَّتها القطَّة المسكينة»، أعادت القول، «بينما تهزِّينَ الأرجوحة يا ماغي»، أضافت.

رفعت ماغي ذراعيها كما لو كانت تتحاشى قدَراً عنيداً، ثمَّ تركتهما تسقطان. ابتسمت سارة وراقبتها، ثمَّ فاضت دموعها، تساقطت ونزلت بهدوء على خدَّيها، إنَّما، بينما رفعت يدها كي تمسح عليهما كان هناك صوت طرقٍ، كان هناك شخص ما يدقُّ بعنف شديد على الباب في المنزل المجاور. توقَّف الطرق. ثمَّ بدأ من جديد واستمرَّ من دون توقُّف.

أنصتتا.

«عاد أبشير إلى المنزل مخموراً ويريد أن يُفتح له الباب»، قالت ماغي. توقَّف الطرق. ثمَّ بدأ من جديد.

جفَّفت سارة عينيها، بعنف، بنشاط.

«فلتربِّ أولادكَ على جزيرة صحراويَّة حيث تأتي السفن حين يكون القمر مكتملاً فقط!»، صاحت.

قالت ماغي: «أو لا تنجب أطفالاً؟». فُتحت نافذة. سُمع صوت امرأةٍ تطلق الشتائم على الرجل. ردَّ عليها صارخاً بصوت رخيم مخمور من عتبة الباب. ثمَّ صُفق الباب.

أنصتتا.

«الآن، سيترنَّح على الجدار ويتقيَّأ»، قالت ماغي. كان في مقدورهما سماع خطوات الأقدام الثقيلة الَّتي تصعد الدرج في المنزل المجاور. ثمَّ حلَّ الصمت.

عبرت ماغي الغرفة كي تغلقَ النافذة. كانت نوافذ المصنع الكبيرة في الجانب المقابل مضاءة بأكملها، وبدا كأنَّ المكان قصرٌ من الزجاج مع قضبان سُود رفيعة على امتداده. أضاء وهج من الضوء الأصفر الأنصاف السفليَّة من المنازل الواقعة على الجهة المقابلة، وأشعَّت الأسقف الأردوازيَّة باللَّون الأزرق، لأنَّ السماء قد تدلَّت مشكِّلة مظلَّة ثقيلة من الضوء الأصفر. نقرت خطوات الأقدام على الرصيف، نظراً لكون الأشخاص مازالوا يمشون في الشارع. كان هناك صوت يصيح بصوتٍ أجشَّ من بُعد. مالت ماغي إلى الخارج. كانت الليلة عاصفة ودافئة.

«ما الَّذي يصيح به؟»، قالت.

أصبح الصوت أقرب شيئاً فشيئاً.

قالت: «موت...؟».

«موت...؟»، قالت سارة. مالتا إلى خارج النافذة. غير أنَّهما لم تستطيعا سماع بقيَّة الجملة. ثمَّ صاح نحوهما رجل كان يجرُّ عربة نقل على طول الشارع قائلاً:

«لقد مات الملك!»

١٩١١

كانت الشمس تشرق. تصاعدت فوق الأفق على نحو بطيء للغاية وهي تهتزُّ ناشرةً الضوء. غير أنَّ السماء كانت شاسعة جدّاً، خالية من الغيوم جدّاً، إلى الحدِّ الَّذي استغرق معه ملؤها بالضوء وقتاً. استحالت الغيوم إلى اللَّون الأزرق تدريجيّاً، وتلألأت الأوراق على أشجار الغابة، هناك في الأسفل أشعَّت زهرة، لمعت عيون الحيوانات من نمور وقرود وطيور. انبثق العالم من الظلام على نحو بطيء. أصبح البحر أشبه بجِلد عدد لا حصر له من الأسماك ذوات الحراشف، تتوهَّج باللَّون الذهبيِّ. هنا، في الجنوب من فرنسا، التقطت كروم العنب الـمُتغضِّنة الضوء، وتحوَّلت العرائش الصغيرة إلى الأصفر والأرجوانيِّ، ورسمت الشمس، الَّتي عبرت عبر الستائر، خطوطاً على الجدران بيضاء اللَّون. وقفت ماغي عند النافذة، نظرت إلى الأسفل نحو الفناء، ورأت كتاب زوجها مفتوحاً تحت ظلِّ دالية فوقه، وتألَّقت الكأس المتوضِّعة إلى جانبه باللَّون الأصفر. عبرت صيحات الفلَّاحين العاملين النافذة المفتوحة.

ضربت الشمس عبثاً، وهي تعبر القناة، على حجاب من ضباب البحر الكثيف. تغلغل الضوء ببطء في الضباب الَّذي يعلو لندن، ضرب التماثيل في ساحة البرلمان، وعلى القصر حيث رفرفت الأعلام على الرَّغم من كون الملك، المرفوع أسفل راية الاتِّحاد، ذات اللَّونين الأبيض والأزرق، كان يرقد في الكهوف في «فرغمور». كان الجوُّ أكثر حرارة من أيِّ وقت مضى. هسهست أنوف الخيول بينما شربت من الأحواض، جعلت حوافرها الأحرف صلبة وجافّة مثل جصٍّ على الطرق الريفيَّة. خلَّفت الحرائق الَّتي اندلعت فوق المستنقعات أغصاناً من الفحم وراءها. كان الشهر أغسطس،

موسم الأعياد. كانت الأسطح الزجاجيَّة لمحطَّات السكك الحديديَّة الكبرى عبارة عن كرات متوهِّجة بالضوء. راقب المسافرون عقارب الساعات الصُّفر المستديرة في حين تبعوا الحمَّالين، يدفعون العربات، والكلاب في رُسنها. كانت القطارات في جميع المحطَّات مستعدَّة لشقِّ طريقها عبر إنكلترا، نحو الشمال، نحو الجنوب، نحو الغرب. الآن، أسقط الحارس الَّذي يقف ويده مرفوعة علمه، وانزلقت غلَّاية الشاي. على القطار، تأرجحت الحدائق العامَّة مع الطرق الإسفلتيَّة، خلال المصانع، نحو الريف المفتوح. ثمَّة رجال يقفون على الجسور يصطادون رفعوا أنظارهم، ومشت الخيول بطريقة منتظمة، وقدمت النساء إلى الأبواب وهنَّ يغطِّينَ عيونهنَّ، وطاف ظلُّ الدُّخان عبر الذرة، يلتفُّ إلى الأسفل، ويمسك بشجرة. ثمَّ عبروا.

في ساحة المحطَّة في «ويترينغ»، وقفت سيَّارة السيِّدة شينري الفيكتوريَّة المكشوفة القديمة تنتظر. كان القطار متأخِّراً عن موعده، والجوُّ بالغ الحرارة. جلس ويليام البستانيُّ على الصندوق مرتدياً معطفه ذا اللَّون البرتقاليِّ والأزرار المطليَّة، وهو يبعد الذباب، إذ إنَّه كان مصدر إزعاج بالغ. كان قد تجمَّع في هيئة كتل صغيرة بنّيَّة اللَّون على آذان الأحصنة. نفض سوطه، وداست الفرس العجوز بحوافرها، وهزَّت أذنيها، لأنَّ الذباب كان قد استقرَّ من جديد. كان الجوُّ بالغ الحرارة. غربَت الشمس على فناء المحطَّة، على العربات والذباب والمسافرين الَّذين ينتظرون القطار. في نهاية المطاف، نزلت الإشارة، ونُفِثت نفثة من الدُّخان عبر السياج، وفي غضون دقيقة خرج الناس مندفعين خارجين من الفناء، وها هي ذي الآنسة بارغيتر حاملة حقيبتها في يدها ومظلَّة بيضاء. لمس ويليام قبَّعته.

«أعتذر جدّاً عن تأخري»، قالت إليانور وهي تبتسم له، لأنَّها كانت تعرفه، إذ كانت تأتي كلَّ عام.

وضعت حقيبتها على المقعد وجلست تحت ظلّ مظلّتها البيضاء. كان جلد العربة حارّاً خلف ظهرها، كان بالغ الحرارة، أكثر حرارة من «توليدو» حتّى. اتَّجها نحو «هاي ستريت»، بدا كأنَّ الحرارة تجعل كلَّ شيء نعساً وصامتاً. كان الشارع العريض ممتلئاً بالمسافرين والعربات في حين كانت الأعنَّة مرخيّة، ورؤوس الخيول متدلِّية. إنَّما، بعد صخب الأسواق الأجنبيَّة، كم بدا المكان هادئاً! كان الرجال في جراميقهم يميلون على الجدران، والمحالُّ قد فتحت مظلَّاتها، وكان الرصيف مُقلَّماً بالظلّ. لديهما طرود يتعيَّن تسلُّمها. توقَّفا عند بائع السَّمك، وسُلِّم طرد أبيض مبلَّل إليهما. توقَّفا عند تاجر الحديد، وعاد ويليام مع منجل. ثمَّ توقَّفا عند الصيدلانيِّ، إنَّما عليهما الانتظار، لأنَّ المستحضر لم يكُ جاهزاً بعدُ.

جلست إليانور تحت ظلِّ مظلَّتها البيضاء. بدا كأنَّ الجوَّ يهمهم بالحرارة. بدا كأنَّ الهواء عبق برائحة الصابون والموادِّ الكيميائيَّة. يا للدقَّة الَّتي يغتسل بها الناس في إنكلترا، فكَّرت، وهي تنظر إلى الصابون الأصفر، والصابون الأخضر، والصابون الزهريِّ في نافذة الصيدلانيِّ. كادت تستحمُّ في إسبانيا على الإطلاق، وقد جفَّفت نفسها باستخدام منديل جيب وهي تقف بين الصخور البيض الجافَّة في الوادي الكبير. كان كلُّ شيء جافّاً وذابلاً في إسبانيا. إنَّما هنا - نظرت عبر «هاي ستريت»- كلُّ متجر ممتلئ بالخضراوات، وبالسمك الفضيِّ المشعِّ، وبالدَّجاج ذي المخالب الصُّفر، ذي الصدور الطريَّة، وبالدلاء والجراريف والعربات ذوات العجلات. لَكَم كان الناس ودودين!

لاحظت كم تكرَّر لمس القبَّعات، وإمساك الأيدي، وكم توقَّف الناس، في منتصف الطريق، وتحدَّثوا. غير أنَّ الصيدلانيَّ قد خرج الآن حاملاً زجاجة كبيرة ملفوفة بالمناديل الورقيَّة. كانت مخبَّأة تحت المنجل.

«هل البعوض سيِّئ جدّاً هذا العام يا ويليام؟»، سألت بعد تمييزها للمستحضر.

قال وهو يلمس قبّعته: «بالغ السوء يا آنسة، بالغ السوء». فهمت من قوله أنّه لم يكن ثمّة جفاف كهذا منذ اليوبيل، غير أنَّ لكنته، ورخامة صوته، وإيقاع «دورستشاير» خاصّته، جعلت من الصعب فهم ما يقوله. ثمَّ نفض سوطه وأكملا القيادة، عبر تقاطع السوق، عبر مبنى البلديَّة ذي القرميد الأحمر، الَّذي تتوضَّع أقواسٌ أسفله، على طول شارع من المنازل ذوات النوافذ المنحنية الَّتي تعود إلى القرن الثامن عشر، منازل الأطبّاء والمحامين، عبر البركة ذات السلاسل الَّتي تربط الأعمدة البيض معاً وحصان يشرب، وهكذا انطلقا إلى الريف. كانت الطريق معبَّدة بالغبار الأبيض الناعم، كما بدت الأسيجة، المعلَّقة بأكاليل فرح المسافرين، مثقلة جدّاً بالغبار. واصل الحصان العجوز هرولته الميكانيكيَّة، وعادت إليانور إلى تحت مظلَّتها البيضاء.

كانت تأتي كلَّ صيف لزيارة موريس في منزل والدة زوجته. أحصت سبع مرَّات، ثماني مرَّات قد أتت، غير أنَّ الأمر كان مختلفاً هذه السنة. كان كلُّ شيء مختلفاً في هذه السنة. كان والدها قد مات، ومنزلها كان مغلقاً، ولم يكن لديها أيُّ ارتباط بأيِّ مكان في الوقت الحالي. بينما كانت تمرُّ عبر الممرَّات الساخنة فكَّرت نعِسة، ما الَّذي عليَّ فعله الآن؟ أعيش هناك؟ سألت نفسها حين عبرت فيلَّا جورجيَّة كبيرة في منتصف الشارع. كلَّا، ليس في فيلَّا، قالت لنفسها، ثمَّ اجتازا القرية. ماذا بشأن ذاك المنزل إذاً، قالت لنفسها، وهي تنظر إلى منزل ذي شرفة بين الأشجار. غير أنَّها فكَّرت حينها، سوف أتحوَّل إلى سيِّدة ذات شعر أشيب تقطِّع الأزهار بمقصٍّ وتطرق على أبواب الكوخ. لم تكن ترغب في أن تطرق على أبواب الكوخ. ورجل الدين - كان هناك رجل دين يقود درَّاجته صعوداً على التلّ- سيأتي إليها لشرب الشاي. غير أنَّها لم ترغب في أن يأتي رجل الدين لتناول الشاي معها. فكَّرت، كم كلُّ شيء في غاية النظافة والترتيب، لأنَّهما كانا يمرَّان عبر القرية. كانت الحدائق الصغيرة ساطعة بالأزهار الحُمر والصُّفر. ثمَّ بدأا يلتقيان سكَّان

القرية، كان موكباً. حملت بعض النساء الطرود، وكان هناك غرض فضيٌّ لامع على لحاف عربة متنقِّلة، وعلَّق رجل مسنٌّ جوزة هند كثيفة الشعر على صدره. افترضت أنَّ هناك مهرجاناً، ها هو ذا، قد عاد. انسحبا إلى جانب الطريق حين مرَّت العربة إلى جانبهما، وألقيا نظرات فضوليَّة على السيِّدة الَّتي تجلس تحت مظلَّتها الخضراء والبيضاء. الآن، وصلا إلى بوَّابة بيضاء، فأسرعا بخفَّة على امتداد طريق قصير، وانسحبا بسرعة مع تلويح من السوط أمام عمودين أسطوانيَّين، وكاشطات الأحذية عند الأبواب، الشبيهة بالقنافذ ذوات الشعر الخشن، وباب صالة مفتوح على مصراعيه.

انتظرت للحظة في الصالة. كانت عيناها خافتتين بعد وهج الطريق. بدا كأنَّ كلَّ شيء شاحب وواهن وودود. كان السجَّاد باهتاً، والصور باهتة. حتَّى الأدميرال الَّذي كان يرتدي قبَّعته ذات الحافّة المطويَّة نحو الأعلى فوق المدفأة، علت وجهه نظرة فضوليَّة لحضارة باهتة. في اليونان، المرءُ دائماً ما يعود إلى ألفي عام مضى. هنا، كان دائماً ما يعود إلى القرن الثامن عشر. كما كلُّ شيء في إنكلترا، فكَّرت في أنَّ الماضي بدا قريباً، أليفاً، ودوداً، واضعة مظلَّتها على طاولة الطعام إلى جانب إناء خزفيٍّ، مع أوراق ورد مجفَّفة داخله.

فُتح الباب. صاحت زوجة شقيقها: «أوه، إليانور!»، وهي تركض إلى الصالة بملابسها الصيفيَّة المتطايرة، «لَكَم من اللطيف رؤيتكِ! كم تبدين مسمرَّة! ادخلي المكانَ البارد!»

قادتها إلى غرفة المعيشة. كان يعلو البيانو الموجود في غرفة المعيشة بياضات كتانيَّة للأطفال، بيضاء اللَّون، وتألَّقت فواكه زهريَّة وخضراء في قوارير زجاجيَّة.

قالت سيليا وهي تغوص في الأريكة: «إنَّنا في فوضى عارمة. كان هذا ملكاً لليدي سانت أوستل منذ دقيقة مضت فقط، والأسقف».

حرّكت قطعة من الورق في شكل مروحة لنفسها.

«غير أنَّه كان نجاحاً كبيراً. لقد أقمنا البازار في الحديقة. ومثَّلوا». كانت قطعة الورق الَّتي تهوِّي بها عبارة عن برنامج.

قالت إليانور: «مسرحيَّة؟»

«أجل، مشهد من مسرحيَّة شكسبير»، قالت سيليا، «حلم ليلة منتصف صيف؟ ألا تحبِّينها؟ لقد نسيت أيّاً من مسرحيَّاته تحبِّين. أشرفت الآنسة غرين على الأمر. لحسن الحظِّ سارت على نحو جيِّد جدّاً. لقد أمطرت السماء بغزارة السنة الماضية. إنَّما، لكَم تؤلمني قدماي!». فُتحت النافذة الطويلة على المرج. استطاعت إليانور أن ترى الناس وهم يسحبون الطاولات.

«يا له من مشروع!»، قالت.

«لقد كان كذلك!»، قالت سيليا لاهثة، «كانت لدينا ليدي سانت أوستل والأسقف، قشور جوز الهند وخنزير، غير أنَّني أعتقد أنَّ الأمر سار على نحو جيِّد جدّاً. لقد استمتعا به».

سألت إليانور: «لأجل الكنيسة؟»

«أجل. برج الكنيسة الجديد»، قالت سيليا.

«يا له من مشروع!»، قالت إليانور من جديد. نظرت نحو المرج. كان العشب قد احترق واستحال أصفرَ اللَّون، وبدت شجيرات الغار ذابلة. كانت الطاولة متوضِّعة مقابل شجيرات الغار. مرَّ موريس وهو يسحب طاولة.

«هل كان الأمر لطيفاً في إسبانيا؟»، كانت سيليا تسأل، «هل رأيتِ أموراً رائعة؟».

صاحت إليانور: «أوه، نعم! لقد رأيت...»، توقَّفت عن الكلام. كانت قد رأت أشياء رائعة؛ مبانٍ، جبال، مدينة حمراء في سهل. إنَّما، كيف لها أن تصف هذا؟

«لا بُدَّ أن تخبريني بالأمر لاحقاً»، قالت سيليا وهي تنهض، «لقد حان وقت أن نتجهَّز. غير أنَّني أخشى أنَّه»، قالت وهي تكدح على نحو مؤلم نوعاً ما لتصعد الدرج العريض، «عليَّ أن أطلب إليكِ أن تتوخّي الحذر، لأنَّنا نعاني من نقص شديد في المياه. إنَّ البئر...»، توقَّفت. إنَّ البئر، تذكَّرت إليانور، لطالما توقَّفت عن العطاء في فصل الصيف الحارِّ. مشتا معاً عبر الممرِّ الواسع، مارَّتين بالكرة الصفراء الَّتي كانت تقف تحت الصورة الجميلة الَّتي تعود إلى القرن الثامن عشر لجميع أطفال شينير، سراويل طويلة وبناطيل من نوع (نانكين)، ويقفون حول والدهم ووالدتهم في الحديقة. توقَّفت سيليا قليلاً واضعةً يدها على باب غرفة النوم. دخل صوت هديل الحمام عبر النافذة المفتوحة.

«هذه المرَّة، سنُنزلكِ في الغرفة الزرقاء»، قالت. عادة ما أقامت إليانور في الغرفة الزهريَّة. ألقت نظرة إلى الداخل. «أتمنَّى أنَّ كلَّ ما تحتاجين إليه موجود...»، بدأت القول.

«أجل، إنَّني على ثقة من أنَّ كلَّ شيء موجود»، قالت إليانور، وغادرتها سيليا.

كانت الخادمة قد أفرغت أغراضها بالفعل. ها هي ذي -موضوعة على السرير. خلعت إليانور فستانها، ووقفت في ثوبها الأبيض تغسل نفسها، على نحو ممنهج، إنَّما حذر، نظراً لكونهم يعانون من نقص المياه. كانت الشمس الإنكليزيَّة لا تزال تجعل وجهها خدراً في كلِّ أنحائه حيث أحرقته الشمس الإسبانيَّة. كانت رقبتها ذات لون مختلف عن صدرها كما لو أنَّها لُوِّنت باللَّون البنّيِّ، فكَّرت، وهي ترتدي فستان السهرة خاصَّتها بسلاسة أمام المرآة. لفَّت شعرها الكثيف بسرعة في شكل لفيفة، مع وجود الخصلة الرماديَّة فيه، وتحلَّت بجواهرها، كتلة حمراء شبيهة بمربَّى توت أحمر متخثِّر مع بذرة ذهبيَّة في المنتصف، واضعة إيَّاها حول عنقها، وألقت

نظرة واحدة إلى المرأة الَّتي كانت مألوفة بالنسبة إليها لمدَّة خمسة وخمسين عاماً، إلى الحدِّ الَّذي لم تعد فيه تراها، إليانور بارغيتر. كان تقدُّمها في العمر أمراً واضحاً، إذ كانت ثمَّة تجاعيدُ تعلو جبهتها، تجاويفُ وثنيات حيث اعتاد اللَّحم أن يكون متماسكاً.

وماذا كان الجزء الجيِّد فيَّ؟ سألت نفسها، وهي تُمرِّر المشط مرَّة أخرى عبر شعرها. عيناي؟ ضحكت عيناها منها وهي تنظر إليهما. عيناي، أجل، فكَّرت. لقد مدح شخص ما عينيها ذات مرَّة. أجبرت نفسها على فتحهما بدلاً من إغلاقهما بإحكام. كان هناك العديد من الخطوط البيض الصغيرة حول كلِّ عين، حيث كانت قد جعَّدتهما لتجنُّب الوهج في «الأكروبوليس»، في «نابولي»، في «غرناطة» و«توليدو». غير أنَّ مديح الأشخاص لعينيها قد انتهى، فكَّرت، وأنهت ارتداءها لملابسها.

وقفت للحظة تنظر إلى المرج المحترق الجافِّ. كان العشب يكاد يكون أصفرَ اللون، وبدأت أشجار الدردار تتحوَّل إلى اللَّون البنّيِّ، والأبقار الحُمر والبيض تجترُّ في الجانب البعيد من السياج ذي الجدار الحاجز. غير أنَّ إنكلترا كانت مخيِّبة للأمل، فكَّرت، لقد كانت صغيرة، كانت جميلة، لم تشعر بأيِّ عاطفة تجاه وطنها، لا شيء على الإطلاق. ثمَّ نزلت، لأنَّها أرادت أن ترى موريس على انفراد في حال كان الأمر ممكناً.

غير أنَّه لم يكن بمفرده. نهض حين دخلت وقدَّمها إلى رجل مسنٍّ ضخم، ذي شعر أشيب يرتدي سترة عشاء.

«أنتما يعرف أحدكما الآخر، أليس كذلك؟»، قال موريس.

«إليانور، السير ويليام واتني». وضع القليل من التشديد على نحو لعوب على كلمة «السير»، الأمر الَّذي حيَّر إليانور للحظة.

«اعتدنا أن يعرف أحدنا الآخر»، قال السير ويليام وهو يتقدَّم إلى الأمام مبتسماً وقد أمسك بيدها.

نظرَت إليه. هل يعقل أن يكون ويليام واتني -دبين العجوز- الَّذي اعتاد أن يأتي إلى «أبيركورن تيريس» منذ سنواتٍ مضت؟ لقد كان هو. لم تكن قد رأته مُذ ذهب إلى الهند.

إنَّما، هل نحن جميعاً هكذا؟ سألت نفسها وهي تنقِّل نظرها من الوجه الشنيع، المجعَّد، ذي اللَّونين الأحمر والأصفر لصبيٍّ كانت تعرفه - كاد يكون أجردَ- إلى وجه شقيقها موريس. لقد بدا أصلعَ ونحيلاً، غير أنَّه كان بكلِّ تأكيد في مقتبل العمر، كما كانت هي نفسها كذلك؟ أم أنَّهم هرموا جميعاً فجأةً مثل السير ويليام؟ ثمَّ دخل ابن شقيقها نورث وابنة شقيقها بيغي الغرفةَ مع والدتهما، وذهبوا لتناول العشاء. تناولت السيِّدة شينري العجوز العشاء في الطابق العلويِّ.

كيف أصبح دبين السيرَ ويليام واتني؟ تساءلت وهي تختلس النظر إليه، في حين تناولوا السمك الَّذي كان قد جُلب في الطرد الرطب. رأته آخر مرَّة على زورق في النهر. كانوا قد ذهبوا في نزهة، تناولوا العشاء على جزيرة في منتصف النهر. هل كان اسمها «ميدينهيد»؟

كانوا يتحدَّثون عن المهرجان. كان كريستر قد ربح الخنزير، فازت السيِّدة غريس بالصينيَّة الفضيَّة.

«هذا ما رأيتُه على العربة المتنقِّلة»، قالت إليانور، «لقد التقيت بالمهرجان في طريق عودته»، شرحت. وصفت الموكب. وتحدَّثوا عن المهرجان.

قالت سيليا وهي تلتفت نحو السير ويليام: «ألا تشعر بالحسد تجاه شقيقة زوجي؟ لقد عادت توّاً من جولة في اليونان».

«حقّاً!»، قال السير ويليام، «أيّ جزء من اليونان؟»

«لقد ذهبنا إلى أثينا، ثمَّ إلى أولمبيا، ثمَّ إلى دلفي»، بدأت إليانور الحديث وهي تُلقي الصيغة المعتادة. كانا، على نحو واضح، يتصرَّفان على نحو رسميٍّ بحت، هي ودبين.

شرَحت سيليا: «إنَّ شقيق زوجي، إدوارد، يجول مثل هذه الجولات الممتعة».

«هل تتذكَّر إدوارد؟»، قال موريس، «ألم تكن معه؟»

«كلَّا، لقد كان أصغر منِّي سنّاً»، قال السير ويليام، «غير أنَّني سمعتُ بشأنه، بالطبع. إنَّه -دعني أفكِّر- ما هو- شخص رائع جدّاً، أليس كذلك؟».

قال موريس: «أوه، إنَّه من أكثر الأشخاص نجاحاً».

لم يكن يشعر بالغيرة من إدوارد، فكَّرت إليانور، غير أنَّ صوته كان يحمل نغمة معيَّنة الأمر الَّذي أفادها أنَّه كان يقارن مسيرته المهنيَّة بتلك الخاصَّة بإدوارد.

قالت: «لقد أحبُّوه». ابتسمَت، كانت قد رأت إدوارد وهو يحاضر في مجموعات من سيِّدات المدرسة الدينيَّة في «الأكروبوليس». أخرجنَ دفاترهنَّ ودوَّنَّ كلَّ كلمة قالها. غير أنَّه كان بالغ الكرم، لطيفاً جدّاً، ولطالما اعتنى بها.

«هل التقيتِ أيَّ شخص في السفارة؟»، سألها السير ويليام، ثمَّ صحَّح ما قاله، «غير أنَّها ليست سفارة، أليس كذلك؟».

«لا، إنَّ أثينا ليست سفارة»، قال موريس. هنا، كان ثمَّة إلهاء، ما الفرق بين السفارة والمفوضيَّة؟ ثمَّ بدؤوا يناقشون الوضع في البلقان.

«سوف تحدث مشكلات عدَّة هناك في المستقبل القريب»، كان السير ويليام يقول. التفت نحو موريس، وناقشا الوضع في البلقان.

جالَ تفكير إليانور. ما الَّذي فعله؟ تساءلت. أعادته بعض الإيماءات والكلمات المعيَّنة إليها كما كان منذ ثلاثين عاماً مضت. كانت هناك بقايا من دبين القديم، إن أغمض المرء عينيه نصف إغماضة. أغمضت عينيها نصف إغماضة. فجأةً، تذكَّرت، لقد كان هو من أثنى على عينيها. «إنَّ شقيقتك تمتلك أكثر عينين ساطعتين سبق لي أن رأيتهما»، قال. أخبرها

موريس ذلك. وكانت قد أخفت وجهها خلف صحيفة في القطار الذَّاهب إلى المنزل بغية إخفاء سعادتها. نظرت إليه من جديد. كان يتحدَّث، فأنصتت إليه. كان يبدو ضخماً جدّاً بالمقارنة مع غرفة الطعام الإنكليزيَّة الهادئة، تردَّد دوّي صوته. كان يريد جمهوراً.

كان يحكي قصَّة. تحدَّث مستخدماً جملاً مقتطعة ومتوتِّرة كما لو كان هناك حشد يحيط بهم، وهي طريقة كانت معجبة بها، غير أنَّ البداية كانت قد فاتتها. كانت كأسه فارغةً.

«صبُّوا المزيد من النبيذ للسير ويليام»، همست سيليا لخادمة الصالون المتوتِّرة. كانت هناك بعض القرقعة الصادرة من أواني الطعام في الجانب. عبست سيليا على نحو متوتِّر. فكَّرت إليانور، فتاة من القرية لا تعرف عملها. كانت قصَّته تصل إلى ذروتها، إلَّا أنَّ روابطَ عدَّة كانت قد فاتتها.

«... ووجدتُ نفسي أرتدي بنطالاً قديماً مخصَّصاً لركوب الخيل، وأقف هناك تحت مظلَّة من ريش الطاووس، وكان جميع الأشخاص الطيِّبين رابضين ورؤوسهم على الأرض، "يا إلهي" قلتُ لنفسي، "إن علموا كم أشعر بأنَّني وغد لعين!"»، أمسك بكأسه كي تُملأ، «هكذا جرى تعليمنا إنجاز عملنا في تلك الأيَّام»، أضاف قائلاً.

كان يتباهى بكلِّ تأكيد، وكان الأمر طبيعيّاً. لقد عاد إلى إنكلترا بعد أن حكَم منطقة «بحجم أيرلندا تقريباً»، كما كانوا يقولون على الدوام، ولم يسمع به أحد على الإطلاق. كانت تمتلك شعوراً بأنَّها ستسمع، حتَّى نهاية الأسبوع، الكثير جدّاً من القصص الَّتي أبحرت نحو مصلحته الخاصَّة على نحو هادئ. إلَّا أنَّه تحدَّث على نحو جيِّد جدّاً. لقد فعل العديد من الأمور المثيرة للاهتمام. تمنَّت لو أنَّ موريس كان يقصُّ قصصاً أيضاً. تمنَّت لو أنَّه يؤكِّد على وجوده بدلاً من الانحناء إلى الخلف وتمرير يده -اليد التي تحوي الجرح- على جبهته.

هل كان عليَّ أن أحثَّه على الذهاب إلى نقابة المحامين؟ فكَّرت. كان والدها معارضاً للأمر. إنَّما حين انتهى الأمر، فها هو ذا، تزوَّج، وأنجب أطفالاً، وكان عليه الاستمرار، سواء أرغب في ذلك أم لم يفعل. كم قطعيَّة هي الأمور، فكَّرت. إنَّنا نصنع تجاربنا الخاصَّة، ثمَّ تصنع هي تجاربها الخاصَّة. نظرَت إلى ابن شقيقها نورث وابنة شقيقها بيغي. كانا يجلسان قبالتها والشمس على وجهيهما. بدا وجهاهما بيضويَّي الشكل، ويافعَين على نحو استثنائيٍّ. برز فستان بيغي ذو اللَّون الأزرق كما فستان طفلة من قماش الموسلين، كان نورث لا يزال صبيّاً يلعب الكريكت، ذا عينين بنّيّتين. كان يستمع باهتمام، وكانت بيغي تنظر إلى الأسفل نحو طبقها. كانت تعلو وجهها النظرة غير المهتمَّة الَّتي يمتلكها الأطفال حسنو التربية حين يستمعون إلى أحاديث من هم أكبر سنّاً. هل تشعر بالتسلية أو بالملل؟ لم تستطع إليانور الجزم أيّهما كان سائداً.

«ها هو ذا»، قالت بيغي وهي تنظر إلى الأعلى فجأة، «البومة...»، قالت، وقد لفتت نظر إليانور. التفتت إليانور كي تنظر من النافذة وراءها. لقد فوَّتت رؤية البومة، رأت الأشجار الكثيفة، واللَّون الذهبيَّ في الشمس الغاربة، والأبقار تتحرَّك ببطء بينما مضغت طريقها عبر المرج.

«في استطاعتكِ تحديد وقته»، قالت بيغي، «إنَّه منتظم جدّاً». ثمَّ تحرَّكت سيليا.

قالت: «هلَّا تركنا السيدين لأمورهما السياسيَّة واحتسينا قهوتنا على الشرفة؟»، وأغلقوا الباب على السيِّدين وأمورهما السياسيَّة.

«سأحضر نظَّارتي»، قالت إليانور، وصعدت إلى الطابق العلويِّ.

لقد أرادت أن ترى البومة قبل أن يحلَّ الظلام فلا تستطيع فعل ذلك. كان اهتمامها بالطيور يتزايد شيئاً فشيئاً. لقد كانت علامة من علامات التقدُّم في السنِّ، كما افترضت، في حين دلفت إلى غرفتها. عانس

عجوز تغتسل وتراقب الطيور، قالت لنفسها وهي تنظر إلى المرآة. كانت هناك عيناها -لا تزالان تبدوان ساطعتين إلى حدٍّ ما بالنسبة إليها، على الرَّغم من التجاعيد المحيطة بهما- العينان اللَّتان أخفتهما في عربة القطار لأنَّ دبين قد أثنى عليهما. إنَّما الآن، أنا موسومة، فكَّرت -عانس عجوز تغتسل وتراقب الطيور. هذا ما يعتقدون أنَّني عليه. غير أنَّني لستُ كذلك، إنَّني لستُ كذلك على الإطلاق، قالت. هزَّت رأسها، واستدارت بعيداً عن المرآة. لقد كانت غرفة جميلة، مُظلّلة، مدنيَّة، باردة على غرار غرف النوم في النُّزل الأجنبيَّة، ذاتِ علامات على الحائط حيث عمد أحدهم إلى سحق الحشرات، بالإضافة إلى وجود رجال يتشاجرون تحت النافذة. إنَّما، أين كانت نظَّارتها؟ موضوعة في درج من الأدراج؟ التفتت بغية البحث عنها.

«هل قال والدي إنَّ السير ويليام كان واقعاً في غرامها؟»، سألت بيغي وهي تنتظر على الشرفة.

«أوه، إنَّني لا أعلم بخصوص هذا الشأن»، قالت سيليا، «غير أنَّني أتمنَّى لو أنَّهما تزوَّجا. أتمنَّى لو أنَّها أنجبت أطفالاً من صلبها. ثمَّ كان بإمكانهما أن يستقرّا هنا»، أضافت قائلة، «إنَّه لرجل مبهج».

كانت بيغي صامتة، وساد الصمت قليلاً.

تابعت سيليا القول:

«أتمنَّى لو كنتِ لطيفة مع أسرة روبنسن ظهيرة اليوم، على الرَّغم من كونهم مروّعين...».

«إنَّهم يقيمون حفلات رائعة في أيِّ حال»، قالت بيغي.

«رائعة، رائعة»، اشتكت والدتها نصف ضاحكة، «أتمنَّى ألَّا تحفظي كلَّ ألفاظ نورث العاميَّة، يا عزيزتي... أوه، ها هي ذي إليانور»، توقَّفت عن إكمال حديثها.

خرجت إليانور إلى الشرفة مع نظَّارتها وجلست إلى جانب سيليا. كان الجوُّ لا يزال دافئاً، وكان لا يزال مضيئاً بما فيه الكفاية كي ترى التلال البعيدة.

«سيعود في غضون دقيقة»، قالت بيغي وهي تسحب كرسيّاً، «سيعود على امتداد ذاك السياج».

أشارت إلى الخطِّ الغامق للسياج الَّذي امتدَّ عبر المرج. ركَّزت إليانور نظَّارتها وانتظرت.

قالت سيليا وهي تصبُّ قهوتها: «الآن، إنَّ هناك العديد من الأمور التي أرغب في سؤالكِ عنها». توقَّفت قليلاً. لطالما كانت تمتلك مجموعة من الأسئلة الَّتي ترغب في طرحها، لم ترَ إليانور منذ شهر إبريل. لقد تكوَّمت الأسئلة في أربعة أشهر، فخرجت واحداً تلو الآخر على مهل.

«بادئ ذي بدء»، بدأت القول، «كلَّا...». نبذت هذا السؤال لصالح آخر.

«ما كلُّ هذا الأمر مع روز؟»، سألت.

«ماذا؟»، قالت إليانور وهي غائبة الذهن، محوِّلةً تركيز نظَّارتها، «إنَّ السماء تصبح مظلمة جدّاً»، قالت، وكان الحقل يصير غير واضح.

قالت سيليا: «موريس يقول إنَّها مثلت في محكمة الشرطة». خفضت صوتها قليلاً على الرَّغم من أنَّهما كانتا بمفردهما.

«لقد رمت قطعة قرميد...»، قالت إليانور. ركَّزت نظَّارتها على السياج من جديد. أمسكت بها في حالة تأهُّب في حال عودة البومة من ذاك الاتِّجاه مجدَّداً.

«هل ستُوضع في السجن؟»، سألت بيغي بسرعة.

«ليس في هذه المرَّة»، قالت إليانور، «في المرَّة القادمة... آه، ها هو ذا قد أتى!»، قطعت قولها. أتى الطائر ذو الرأس المفلطح متأرجحاً على طول

السياج. بدا كأنَّ لونه أبيض في الغسق. رأته إليانور ضمن دائرة عدستها. كان يحمل نقطة سوداء صغيرة أمامه.

«إنَّه يمسك بفأر بين مخالبه!»، صاحت، «إنَّه يمتلك عشّاً في برج الكنيسة»، قالت بيغي. انزلقت البومة خارجاً من نطاق الرؤية.

قالت إليانور: «لا أستطيع أن أراه بعد الآن». أنزلت نظّارتها. ساد الصمت للحظة، فجلسن يحتسين قهوتهنَّ. كانت سيليا تفكِّر في سؤالها التالي، وتوقَّعت إليانور ذلك منها.

«أخبريني بشأن ويليام واتني»، قالت، «لَمَّا رأيته آخر مرَّة كان شابّاً نحيلاً ويافعاً على متن قارب». انفجرت بيغي ضاحكة.

قالت: «لا بُدَّ أنَّ هذا كان منذ عصور مضت».

«ليس منذ وقت بعيد جدّاً»، قالت إليانور. شعرت بالانزعاج إلى حدٍّ ما، «حسناً...»، فكَّرت، «إنَّها عشرون عاماً، وربَّما خمسة وعشرون عاماً».

بدت كأنَّها فترة قصيرة جدّاً من الزمن بالنسبة إليها، إنَّما حينها، فكَّرت، في أنَّ هذا كان سابقاً لولادة بيغي. لم تكن تتجاوز السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها.

«أليس رجلاً مبهجاً؟»، صاحت سيليا، «لقد كان في الهند كما تعلمين. الآن، تقاعد، ونحن نأمل بالفعل في أنَّه سيتَّخذ له منزلاً هنا، غير أنَّ موريس يعتقد أنَّه سيجد المكان مملّاً جدّاً».

جلسنَ في صمت للحظة، ينظرنَ نحو المرج. سعلت الأبقار كلَّ حين وآخر، في حين مضغت وتحرّكت خطوة أبعد عبر العشب. هبَّت نحوهنَّ رائحة طيِّبة من الأبقار والعشب.

قالت بيغي: «سيكون غداً يوماً حارّاً آخر». كانت السماء صافية على نحو مثاليٍّ، بدت كأنَّها مصنوعة من ذرَّات رماديَّة مزرقَّة لا حصر لها كلون عباءة ضابط إيطاليٍّ، إلى أن وصلت إلى الأفق حيث كان هناك شريط طويل من

اللَّون الأخضر الخالص. بدا كلُّ شيء مستقراً للغاية، هادئاً للغاية، نقيّاً للغاية. لم تكن ثمَّة سحابة واحدة، ولم تكن النجوم قد ظهرت بعد.

كان المكان صغيراً، كان المكان نظيفاً، كان تافهاً بعد إسبانيا، إنَّما على الرّغم من ذلك، الآن، وقد غربت الشمس، وبدت الأشجار متجمِّعة إلى بعضها بعضاً دون انفصال أيِّ أوراق، كان أمراً يحمل جماله الخاصَّ، فكَّرت إليانور. كان غروب الشمس المتكرِّر يوماً تلو الآخر يصبح أكبر وأبسط، إذ غدا جزءاً من السماء.

«كم هذا جميل!»، صاحت كما لو كانت تمنح تعويضاً لإنكلترا بعد إسبانيا.

قالت سيليا متنهِّدة: «لو أنَّ السيِّد روبنسن لا يبني فحسب!»، وتذكَّرت إليانور، لقد كانوا البليَّة المحليَّة، أشخاصاً أغنياء يهدِّدون بالبناء. «لقد بذلتُ قصارى جهدي كي أكون لطيفة معهم في البازار اليوم»، تابعت سيليا القول، «بعض الأشخاص لن يطلبوا منهم، إلَّا أنَّني أعتقد أنَّ على المرء أن يكون مهذَّباً مع الجيران في الريف...»

ثمَّ توقَّفت قليلاً. «هناك العديد من الأمور الَّتي أرغب في سؤالكِ عنها»، قالت. كانت القارورة مائلة نحو نهايتها من جديد. انتظرت إليانور بخضوع.

«ألم تتلقَّي عرضاً لأجل أبيركورن تيريس بعد؟»، سألت سيليا مطالبة بإجابة. سؤال تلو الآخر خرجت أسئلتها.

«ليس بعد»، قالت إليانور، «يريد سمساريَ الخاصُّ أن أقسمه إلى شقق».

تأمَّلت سيليا. ثمَّ أكملت الأسئلة مجدَّداً.

«والآن، بشأن ماغي- متى سيُولد طفلها؟».

قالت إليانور: «في شهر نوفمبر، كما أعتقد»، أضافت قائلة، «في باريس».

«آمل أنَّ الأمر سيسير على خير ما يرام»، قالت سيليا، «غير أنَّني كنتُ آمل لو يولد في إنكلترا». فكَّرت من جديد. قالت: «سوف يكون أطفالها فرنسيِّين كما أفترض؟».

قالت إليانور: «أجل، فرنسيِّين، كما أفترض». كانت تنظر إلى الشريط الأخضر، لقد كان يتلاشى، كان يتحوَّل إلى اللَّون الأزرق. كان الليل يحلُّ.

«إنَّ الجميع يقول إنَّه شخص بالغ اللطف»، قالت سيليا، «إنَّما رينيه - رينيه»، كانت لكنتها سيِّئة للغاية، «-إنَّه لا يبدو كاسم رجل».

«يمكنكِ أن تناديه ريني»، قالت بيغي ناطقة الاسم بطريقة إنكليزيَّة.

«غير أنَّ هذا يذكِّرني بروني، وأنا لا أحبُّ روني. كان لدينا صبيٌّ إصطبل يُدعى روني».

«كان يسرق القشَّ»، قالت بيغي. عمَّ الصمت من جديد، «إنَّه لأمر مؤسف...»، بدأت سيليا حديثها. ثمَّ توقَّفت. كانت الخادمة قد جاءت لأخذ القهوة.

«إنَّها ليلة رائعة، أليس كذلك؟»، قالت سيليا، وهي تؤقلم صوتها لوجود الخدم. «يبدو كأنَّ السماء لن تمطر من جديد. في حالة كهذه، لا أعلم...»، ثمَّ تابعت كلامها مثرثرة عن الجفاف، عن شحِّ المياه. لطالما جفَّت البئر. إليانور، الَّتي كانت تنظر نحو التلال، كادت تستمع. سمِعت سيليا وهي تقول، «أوه، إنَّما هناك ما يكفي للجميع في الوقت الحاضر». ولسبب من الأسباب، أبقت الجملة في أذن ذهنها دون وجود أيِّ معنى مرتبط بها، «-هناك ما يكفي للجميع في الوقت الحاضر»، كرَّرت قولها. بعد كلِّ اللُّغات الأجنبيَّة الَّتي كانت تسمعها، بدت هذه الجملة لها إنكليزيَّة خالصة. يا لها من لغة محبَّبة! فكَّرت وهي تقول لنفسها مراراً وتكراراً الكلمات الشائعة، الَّتي تنطقها سيليا ببساطة بالغة، إنَّما مع طنين غير قابل للوصف حين نطق حرف الرَّاء، لأنَّ أفراد أسرة شينري قد عاشوا في «دورسيتشاير» منذ زمن طويل جدّاً.

كانت الخادمة قد ذهبت.

«ما الَّذي كنت أقوله؟»، تابعت سيليا، «كنتُ أقول، إنَّه لأمر مؤسف. أجل...». إنَّما كان هناك رنين أصوات، رائحة دخان سيجار، كان السادة آتين نحوهنَّ. «أوه، ها هم أولاء!»، قاطعت قولها. وسُحبت الكراسي وأُعيد ترتيبها.

جلسوا في شكل شبه دائرة ينظرون عبر المرج إلى التلال الباهتة. الشريط العريض من اللَّون الأخضر الَّذي كان يكمن عبر الأفق قد تلاشى، ولم تتبقَّ سوى مسحة منه في السماء. كانت قد أصبحت السماء هادئة وباردة، وبدا أنَّ هناك أمراً ما لديهم أيضاً قد هدأ. لم تكن ثمَّة حاجة إلى الكلام. حلَّق الغيار عبر المرج من جديد، وكاد يكون في استطاعتهم أن يروا بياض جناحيه على سواد السياج.

«ها هو ذا»، قال نورث، نافخاً دخان سيجار. كان أوَّل سيجار يدخِّنه، كما خمَّنت إليانور، وقد كان هديَّة من السير ويليام. كانت قد أصبحت أشجار الدردار ذات لون أسود حالك عبر السماء. تدلَّت أوراقها في نمط بالٍ كما لو كانت قماش دانتيل أسود يحتوي ثقوباً. رأت إليانور، عبر ثقب، نقطة تمثِّل نجمة. رفعت نظرها. كانت هناك أخرى.

«سيكون غداً يوماً جميلاً»، قال موريس وهو يطرق غليونه على حذائه. كانت هناك حشرجة عربة ذات عجلات بعيداً على طريق بعيد، ثمَّ جوقة من الأصوات المغنِّية، إذْ كان الريفيُّون يعودون إلى منازلهم. هذه هي إنكلترا، فكَّرت إليانور في نفسها، لقد شعرت كما لو أنَّها تغوص ببطء في تعشيقة بديعة من الأغصان المهتزَّة، التلال المتحوِّلة إلى اللَّون الأسود، والأوراق المتدلِّية كما قماش الدانتيل الأسود والنجوم تحيط بها. غير أنَّ خفَّاشاً حلَّق بسرعة على ارتفاع منخفض فوق رؤوسهم.

«إنَّني أكره الخفافيش!»، صاحت سيليا، وهي ترفع يدها نحو رأسها بتوتُّر.

«أحقّاً تكرهينها؟»، قال السير ويليام، «إنَّني أحبُّها إلى حدٍّ ما». كان صوته هادئاً ويكاد يكون سوداويّاً. الآن، ستقول سيليا، إنَّها تدخل في شَعر المرء، فكَّرت إليانور.

قالت سيليا: «إنَّها تدخل في شَعر المرء».

«غير أنَّني لا أمتلك أيَّ شَعر»، قال السير ويليام. توهَّج رأسه الأصلع ووجهه العريض في الظلام.

انقضَّ الخفَّاش من جديد عبر الأرض عند أقدامهم، فتحرَّك القليل من الهواء البارد عند كواحلهم. كانت الأشجار قد أصبحت جزءاً من السماء. لم يكُ ثمَّة قمر، غير أنَّ النجوم كانت تظهر. ها هي ذي نجمة أخرى، فكَّرت إليانور، وهي تحدِّق إلى الضوء المتلألئ أمامها. إلَّا أنَّه كان خافتاً للغاية، أصفر للغاية، أدركت أنَّه كان منزلاً آخر، لا نجمة. وحينها بدأت سيليا الحديث مع السير ويليام، الَّذي أرادته أن يستقرَّ بالقرب منهم، وكانت الليدي سانت أوستل قد أخبرتها أنَّ منزل «غرانج» كان معروضاً للإيجار. تساءلت إليانور، وهي تنظر إلى الضوء، عمَّا إذا كان هذا هو «غرانج» أم كان نجمة؟ وتابعوا الحديث.

كانت السيِّدة شينري العجوز قد نزلت إلى الطابق السفليِّ في وقت سابق نظراً لشعورها بالملل من البقاء بمفردها. ها هي ذي جالسة في غرفة المعيشة منتظرة. كانت قد دخلت على نحو رسميٍّ، إنَّما لم يكن ثمَّة أيُّ شخص هناك. جلست تنتظر وهي تبدو مرتَّبة بارتدائها فستانها الخاصّ بالسيِّدات العجائز المصنوع من قماش الساتان الأسود مع قبَّعة من الدَّانتيل على رأسها. كان أنفها الشبيه بالخطَّاف معقوفاً بين خدَّيها المنكمشين، وظهرت حافَّة حمراء صغيرة على أحد جفنيها المتدلِّيين.

«لِمَ لا يدخلون؟»، قالت لإلين على نحوٍ مشاكس، الخادمة سوداء البشرة الرصينة الَّتي وقفت خلفها. ذهبت إلين إلى النافذة ونقرت على لوح الزجاج.

توقَّفت سيليا عن الحديث والتفتت. «إنَّها ماما»، قالت، «علينا الدخول». نهضت ودفعت كرسيَّها.

بعد حلول الظلام، كانت غرفة المعيشة بمصابيحها المضاءة تحمل طابعاً مسرحيّاً. بدت السيِّدة شينري العجوز جالسة في كرسيِّها المتحرِّك واضعة سمَّاعة الأذن خاصَّتها كأنَّها جالسة هناك في انتظار التكريم. كانت تبدو كما كانت تماماً، كأنَّها لم تكبر يوماً واحداً، صارمة كما كانت في السابق تماماً. بينما انحنت إليانور بغية منحها القبلة المعتادة، اتَّخذت الحياة أبعادها المألوفة مرَّة أخرى. كما كانت قد انحنت، ليلة تلو الأخرى، لتقبيل يد والدها. كانت سعيدة بانحنائها، إذ جعلها هذا تشعر بأنَّها أصغر سنّاً. كانت قد حفظت الإجراء بأكمله عن ظهر قلب. هُم، البالغون منتصف العمر، يذعنون إلى كبار السنِّ، وكان كبار السنِّ لطيفين معهم، ثمَّ أتت الوقفة القصيرة المعتادة. لم يكونوا يمتلكون شيئاً يقولونه لها، وهي لم تكن تمتلك شيئاً تقوله لهم. ما الذي حدث بعد ذلك؟ رأت إليانور عينَي السيّدة العجوز تشرقان على نحو مفاجئ. ما الَّذي جعل عينَي سيِّدة عجوز تبلغ من العمر تسعين عاماً تتحوَّلان إلى اللَّون الأزرق؟ الكوتشينة؟ أجل. كانت سيليا قد جهَّزت طاولة الجوخ الخضراء، إذ حملت السيِّدة شينري شغفاً تجاه لعبة «الهويست». غير أنَّها أيضاً كانت تمتلك مراسمها الخاصَّة، كانت هي أيضاً تتَّسم بالأدب.

«ليس الليلة»، قالت وهي تومئ إيماءة صغيرة كما لو أنَّها تدفع الطاولة بعيداً، «أنا على ثقة بأنَّ هذا سيثير الملل في نفس السير ويليام؟». أدلت بإيماءة في اتجاه الرجل الضخم الَّذي كان واقفاً هناك وهو يبدو غريباً قليلاً عن الحفل الأسريِّ.

«كلَّا، على الإطلاق. كلَّا، على الإطلاق»، قال بلهفة، «لن يسعدني أمر أكثر من هذا»، قال بغية طمأنتها.

إنَّكَ لشخص جيِّد يا دبين، فكَّرت إليانور. وسحبوا الكراسي، ووزَّعوا أوراق الكوتشينة، ومازح موريس والدة زوجته في سمَّاعة أذنها، ولعبوا لعبة «البريدج» جولة حاسمة تلو أخرى. قرأ نورث كتاباً، وعزفت بيغي على البيانو، وسيليا، وهي تغفو فوق قطعة التطريز خاصَّتها، كانت تجفل فجأة بين الفينة والأخرى وتضع يدها على فمها. في نهاية المطاف، فُتح الباب خلسة. وقفت إلين، الخادمة الرصينة سوداء البشرة، خلف كرسيِّ السيّدة شينري، تنتظر. تظاهرت السيِّدة شينري بأنَّها تتجاهلها، إلَّا أنَّ الآخرين كانوا سعيدين بالتوقُّف. خطَت إلين إلى الأمام ودُفع كُرسيُّ السيِّدة شينري، على نحو خاضع، نحو الغرفة العلويَّة الغامضة الخاصَّة بكبار السنِّ. لقد انتهى استمتاعها.

تثاءبت سيليا علانيَّة.

«البازار»، قالت وهي تلفُّ قطعة التطريز، «عليَّ الذهاب إلى النوم. تعالي يا بيغي. تعالي يا إليانور».

قفز نورث بابتهاج كي يفتح الباب. أضاءت سيليا الشمعدانات النحاسيَّة وبدأت تصعد الدرج، بتثاقل إلى حدٍّ ما، وتبعتها إليانور. غير أنَّ بيغي تخلَّفت عنهما. سمعتها إليانور وهي تهمس إلى شقيقها في الصالة.

«تعالي يا بيغي»، نادت سيليا مرَّة أخرى من فوق الدرابزين وهي تكدح صاعدة إلى الطابق العلويِّ. لَمَّا بلغت الممرَّ الفوقيَّ في الطابق العلويِّ توقَّفت تحت صورة أطفال أسرة شينري، ونادت من جديد بحدَّة نوعاً ما:

«تعالي يا بيغي». كانت هناك وقفة قصيرة. ثمَّ أتت بيغي، على الرغم من أنفها. قبَّلت والدتها بطاعة، غير أنَّها لم تبدُ نعسةً على الإطلاق. بدت بالغة الجمال ومتورِّدة إلى حدٍّ ما. لم تكن تنوي الذهاب إلى النوم، شعرت إليانور متيقِّنةً.

دخلت الغرفة وخلعت ملابسها. كانت جميع النوافذ مفتوحة، وسمعت الأشجار تتصارع في الحديقة. كان الجوُّ لا يزال بالغ الحرارة إلى درجة أنَّها استلقت على السرير مرتدية قميص نومها وفوقها الملاءة فقط. أحرَقت الشمعةُ، المتوضِّعة على الطاولة إلى جانبها، لهبَها الَّذي يتَّخذ شكل الإجاصة. استلقت تستمع بإبهام إلى الأشجار في الحديقة، وشاهدت ظلَّ فراشة بشارة أسرعت جيئة وذهاباً في الغرفة. فكَّرت نعِسة، إمَّا أن أنهض وأغلق النافذة وإمَّا أُطفئ الشمعة. لم تكن ترغب في فعل أيٍّ من الأمرين. لقد أرادت أن تستلقي بثبات. كان من المريح الاستلقاء في المكان شبه المظلم بعد الحديث، بعد لعب الورق. كانت لا تزال تستطيع أن ترى الأوراق وهي تتساقط، الأسود، الأحمر والأصفر، الملوك، الملكات والأولاد، على طاولة الجوخ الخضراء. نظرت بوسنٍ في الأرجاء. توضَّع إناء جميل من الأزهار على طاولة التبرُّج، وكانت هناك خزانة ملابس ملمَّعة وعلبة خزفيَّة إلى جانب سريرها. رفعت الغطاء. أجل، أربع قطع من البسكويت وقطعة شوكولاتة شاحبة، في حال شعرت بالجوع في الليل. أمَّنت سيليا الكتب أيضاً، «مذكِّرات لا أحد»، «جولة راف في نورثمبرلاند» ومجلَّد غريب لدانتي، في حال رغبت في القراءة في الليل. أخذت واحداً من الكتب ووضعته على اللحاف إلى جانبها. ربَّما نظراً لكونها كانت تسافر فقد بدا كما لو أنَّ السفينة كانت لا تزال تهتزُّ بنعومة عبر البحر، كما لو أنَّ القطار لا يزال يتأرجح من جانب إلى آخر، في حين يهتزُّ عابراً فرنسا. شعرت كما لو كانت الأغراض تتحرَّك متجاوزة إيَّاها، في حين استلقت متمدِّدة على السرير تحت الملاءة المفردة. غير أنَّها ليست المناظر الطبيعيَّة بعد الآن، فكَّرت، إنَّها حيوات الناس، إنَّها حيواتهم المتغيِّرة.

أُغلق باب الغرفة الورديَّة. سعل ويليام واتني في الغرفة المجاورة. سمعته عبر الغرفة. الآن، كان يقف إلى جانب النافذة، يدخِّن السيجار الأخير. ما الَّذي كان يفكِّر فيه، تساءلت -بشأن الهند؟- كيف وقف تحت

المظلَّة المصنوعة من ريش الطاووس؟ ثمَّ بدأ يتحرَّك في أرجاء الغرفة، يخلع ملابسه. كان في استطاعتها أن تسمعه يأخذ فرشاة ويضعها مجدَّداً على طاولة الزينة خاصَّته. وبينما كانت تتذكَّر المدى العريض لذقنه والخصل المتطايرة من اللَّونين الورديِّ والأصفر، الَّتي تقبع خلفه، فكَّرت في أنَّها مَدينة له بتلك اللَّحظة، الَّتي كانت أكثر من متعة، حين خبَّأت وجهها خلف الصحيفة في ركن عربة قطار من الدرجة الثالثة.

الآنَ، هناك ثلاث فراش بشارة تتجوَّل في أرجاء السقف. كانت تصدر أصوات نقرٍ خفيفة، في حين تجوَّلت في الأنحاء من زاوية إلى أخرى. في حال تركت النافذة مفتوحة لفترة أطول فإنَّ الغرفة ستمتلئ بالفَراش. أصدر لوح خشبيٌّ صريراً في الممرِّ الخارجيِّ، فأنصتت. لقد كانت بيغي، تهرب، كي تنضمَّ إلى شقيقها؟ شعرت متيقِّنة أنَّ هناك مخططاً يجري على قدم وساق. غير أنَّها لم تتمكَّن سوى من سماع الأغصان الثقيلة وهي تتحرَّك صعوداً وهبوطاً في الحديقة، خوار بقرة، زقزقة عصفور، وحينها، لسعادتها، النداء العذب لبومة تنتقل من شجرة إلى أخرى مزيِّنة إيَّاها باللَّون الفضيِّ.

استلقت تنظر إلى السقف. ظهرت هناك علامة مائيَّة خفيفة. كانت تشبه التلَّ. ذكَّرتها بأحد الجبال الضخمة الموحشة في اليونان أو في إسبانيا، الَّتي بدت كما لو أنَّ أحداً لم يطأها منذ بداية الزمن.

فتحت الكتاب الـمُلقى على اللحاف. أمِلت في أن يكون «جولة راف»، أو «مذكّرات لا أحد»، غير أنَّه كان دانتي، وكانت تشعر بالكسل إلى الحدِّ الَّذي لم تبدِّل معه الكتاب. قرأت بضعة أسطر، هنا وهناك. غير أنَّ لغتها الإيطاليَّة كانت قد أصبحت ضعيفة لقلَّة استخدامها إيَّاها، كان المعنى يفوتها. إنَّما كان المعنى موجوداً، وبدا كأنَّ عبارة افتتاحيَّة قد خدشت سطح ذهنها.

chè per quanti si dice più lì nostro tanto possiede più di ben ciascuno

ما الَّذي يعنيه هذا؟ قرأتِ الترجمة الإنكليزيَّة.

«لأنَّه من قِبل الكثيرين جدّاً الذين يقولون "ملكنا"/ هناك كثير جداً من الخير الذي يمتلكه كلٌّ منهم».

مشوَّشة قليلاً بذهنها الَّذي كان يراقب فراش البشارة على السقف، والاستماع إلى نداء البومة بينما كانت تنتقل من شجرة إلى أخرى مصدرةً نداءها العذب، لم تُفصح الكلمات عن معناها الكامل، إنَّما بدت كأنَّها تحمل شيئاً مخفيّاً في القشرة الصلبة للغة الإيطاليَّة البائدة. سوف أقرؤه في يوم ما، فكَّرت، وهي تغلق الكتاب. حين أُرسل كروسبي إلى التقاعد، حين... هل يجب أن تبتاع منزلاً آخر؟ هل يجب أن تسافر؟ هل يجب أن تذهب إلى الهند، أخيراً؟ كان السير ويليام يخلد إلى سريره في الغرفة المجاورة، لقد انتهت حياته، كانت حياتها تبدأ توّاً. كلَّا، لا أريد أن أبتاع منزلاً آخر، ليس منزلاً آخر، فكَّرت، وهي تنظر إلى البقعة على السقف. مرَّة أخرى، عاد إليها الإحساس بسفينة تهتزُّ بنعومة عبر الأمواج، بقطار يتأرجح من جانب إلى آخر على خطِّ السكَّة الحديديَّة. لا يمكن للأمور أن تستمرَّ إلى الأبد، فكَّرت. إنَّ الأمور تمرُّ، الأمور تتغيَّر، فكَّرت، وهي تنظر إلى السقف. وإلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين؟ إلى أين؟... كان فراش البشارة يتجوَّل في أرجاء السقف، وانزلق الكتاب إلى الأرض. كان كريستر قد ربح الخنزير، إنَّما مَن ربح الطبق الفضيَّ؟ تساءلت، بذلت مجهوداً، تقلَّبت، وأطفأت الشمعة، فساد الظلام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٩١٣

كان الشهر يناير، والثلج يتساقط. لقد تساقط طوال اليوم. امتدَّت السماء كجناح إوزَّة رماديَّة كان الريش يتساقط منها فوق أرجاء إنكلترا. لم تكن السماء سوى تفجُّرٍ من بشارات الثلج المتساقطة. مُهِّدت الشوارع، وامتلأت التجاويف، وسدَّ الثلج المجاري، وحجب النوافذ، واستلقى مرصوصاً عند الأبواب. كانت ثمَّة هسهسة بسيطة في الجوِّ، فرقعة بسيطة، كما لو أنَّ الهواء نفسه كان يتحوَّل إلى ثلج، خلافاً لذلك، كان كلُّ شيء صامتاً، باستثناء سُعال غنمة، وانقلاب الثلج من فوق غصن، أو انزلاق في شكل انهيار ثلجيٍّ من أعلى أحد الأسقف في لندن. انتشر، بين الفينة والأخرى، عمود من الضوء ببطء عبر السماء، في حين مرَّت سيَّارة عبر الشوارع المكتومة. إنَّما، بينما حلَّ الليل، غطَّى الثلج أخاديد العجلة، وخفَّف من آثار حركة المرور محوِّلاً إيَّاها إلى العدم، وغطَّى المعالم، وبدت القصور والمنحوتات في حلَّة سميكة من الثلج.

كان لا يزال الثلج يتساقط حين أتى الشابُّ اليافع من مكتب وكيل العقارات بغية معاينة «أبيركورن تيريس». ألقى الثلج بوهج ثقيل أبيض على جدران الحمَّام، ما أظهر الصدوع على حوض الاستحمام المصنوع من السيراميك المسلَّح، والبقع على الجدار. وقفت إليانور تنظر خارج النافذة. كانت الأشجار في الحديقة الخلفيَّة مثقلة بالثلج، وكانت كلُّ الأسقف مقولبة بالثلج، إذ إنَّه كان لا يزال يتساقط. استدارت، فاستدار الشابُّ اليافع أيضاً. كان الضوء يُضفي على كلٍّ منهما مظهراً غير حسن، غير أنَّ الثلج -رأته عبر النافذة في نهاية الممرِّ- كان جميلاً، متساقطاً.

استدار السيِّد غرايس إليها حين هبطا إلى الطابق السفليِّ.

«الحقيقة هي أنَّ زبائننا يتوقَّعون مسكناً يحوي مراحيضَ أكثر في هذه الأيَّام»، قال وهو يتوقَّف عند باب غرفة النوم.

لِمَ لا يستطيع أن يقول «حمَّامات» وينتهي من الأمر، فكَّرت. هبطت ببطء إلى الطابق السفليِّ. الآن، كان بإمكانها أن ترى الثلج يتساقط عبر ألواح باب الصالة الزجاجيَّة. بينما هبط إلى الطابق السفليِّ، لاحظت الأذنين الحمراوين اللَّتين انتصبتا فوق ياقته العالية، والعنق الَّذي كان قد غُسل على نحو غير كامل في مغسلة ما في «ووندسورث». كانت تشعر بالانزعاج، حين تجوَّل في أنحاء المنزل، يشتَمُّ ويحدِّق، كان قد اتَّهم نظافتهم، إنسانيَّتهم، واستخدم كلمات سخيفة طويلة. كان يدفع بنفسه إلى طبقة أعلى من طبقته من خلال استخدام الكلمات الطويلة، كما افترضت. الآن، خطا بحذر فوق جسد الكلب النائم، أخذ قبَّعته من على طاولة الصالة، واتَّجه نزولاً نحو درجات الباب الأماميِّ مرتدياً جزمة رجال الأعمال المزرَّرة خاصَّته، مخلِّفاً آثارَ أقدام صفراء اللَّون في اللبَّادة السميكة البيضاء المصنوعة من الثلج. كانت ثمَّة مركبة ذات أربع عجلات في الانتظار.

استدارت إليانور. ها هي ذي كروسبي، تتجوَّل في الأنحاء مرتدية أفضل قبَّعاتها وأوشحتها. لقد كانت تتبع إليانور في أنحاء المنزل طيلة الصباح كما لو أنَّها كلب، لم يعد بالإمكان تأجيل اللَّحظة البغيضة بعد الآن. كانت مركبتها ذات العجلات الأربع عند الباب، وكان عليهما تبادل كلمات الوداع.

«حسناً يا كروسبي، إنَّه يبدو فارغاً للغاية أليس كذلك؟»، قالت إليانور وهي تنظر إلى غرفة المعيشة الفارغة. توهَّج الضوء الأبيض للثلج داخلاً حتَّى الجدران فأظهر العلامات على الجدران حيث كانت قطع الأثاث موضوعة، وحيث كانت الصورة معلَّقة.

«بالفعل يا آنسة إليانور»، قالت كروسبي. وقفت تنظر أيضاً. علمت إليانور أنَّها كانت توشك أن تبكي، لكنَّها لم ترغب في أن تبكي. لم ترغب في أن تبكي هي نفسها.

«لا يزال في مقدوري أن أراكم جميعاً تجلسون حول الطاولة يا آنسة إليانور»، قالت كروسبي. غير أنَّ الطاولة كانت قد اختفت. أخذ موريس هذا الغرض، ديليا أخذت ذاك الغرض، جرى تشارك كلّ شيء وفصله.

«والإبريق الَّذي لا يغلي»، قالت إليانور، «هل تتذكَّرين ذلك؟». حاولت أن تضحك.

«أوه يا آنسة إليانور»، قالت كروسبي وهي تصافحها، «إنَّني أتذكَّر كلَّ شيء!». كانت الدموع تتشكَّل، أشاحت إليانور بنظرها بعيداً نحو الغرفة التالية.

كانت هناك، أيضاً، علامات على الجدار، حيث كانت المكتبة موجودة، وحيث كانت طاولة الكتابة موجودة. فكَّرت في نفسها وهي تجلس هناك، ترسم نمطاً على ورق التنشيف، وتثقب حفرة فيه، وتجري عمليّات حسابيَّة في دفاتر الحسابات التجاريَّة... ثمَّ استدارت. ها هي ذي كروسبي. كانت كروسبي تبكي. كان خليط المشاعر مؤلماً على نحو إيجابيٍّ، وكانت تشعر بسعادة عارمة لكونها قد انتهت من كلِّ هذا الأمر، إنَّما، بالنسبة إلى كروسبي، فهذا هو نهاية كلِّ شيء.

كانت تعرف كلَّ خزانة، بلاطة، كرسيٍّ وطاولة في ذاك المنزل الضخم الممتلئ بالثرثرة، ليس على ارتفاع خمس أو ستِّ أقدام كما كانوا يعرفونه هم، بل وهي جاثية على ركبتيها، حين كانت تفرك وتلمِّع؛ كانت تعرف كلَّ ثلم، بقعة، شوكة، سكِّين، منديل وخزانة. لقد شكَّلوا هم وأفعالهم عالمها بأسره. والآن، سوف تنطلق، وحيدة، إلى غرفة مفردة في «ريتشموند».

قالت إليانور، وهي تستدير متَّجهة نحو الصالة من جديد: «أعتقد أنَّكِ ستكونين سعيدة بخروجكِ من ذاك القبو في أيِّ حال يا كروسبي». لم يسبق لها أن أدركت قبلاً كم كان مظلماً، كم كان منخفضاً، إلى أن شعرت بالعار وهي تنظر إليه مع «السيِّد غرايس خاصَّتنا».

قالت كروسبي: «لقد كان منزلي لمدَّة أربعين عاماً يا آنسة». كانت دموعها تهطل. لمدَّة أربعين عاماً! فكَّرت إليانور وقد جفلت. كانت فتاة صغيرة تبلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر حين أتت كروسبي إليهم، بمظهرها الصارم والذكيِّ جدّاً. الآن، عيناها الصغيرتان الزرقاوان قد برزتا، وكان خدَّاها قد غاصا.

انحنت كروسبي لوضع السلسلة حول رقبة روفر.

«هل أنتِ واثقة من أنَّكِ تريدينه؟»، قالت إليانور وهي تنظر إلى الكلب المسنِّ غير الجذَّاب، ذي الرائحة السيِّئة إلى حدٍّ ما، الَّذي يُصدر أزيزاً، «في مقدورنا أن نجد له منزلاً جميلاً في الريف بكلِّ سهولة».

قالت كروسبي: «أوه يا آنسة، لا تطلبي منِّي التخلِّي عنه!». أعاقت الدموع حديثها. كانت الدموع تنزل بحرّيَّة على خدَّيها. على الرَّغم من كلِّ ما فعلته إليانور لمنع الأمر، إلَّا أنَّ دموعاً تشكَّلت في عينيها أيضاً.

«عزيزتي كروسبي، الوداع»، قالت. انحنت وقبَّلتها. لاحظت أنَّها تمتلك نوعَ جلدٍ جافّاً غريباً. غير أنَّ دموعها هي كانت تتساقط. ثمَّ بدأت كروسبي، وهي تمسك روفر من سلسلته، تتأرجح نزولاً على الدرجات الزلقة. نظرت إليها إليانور وهي تمسك الباب مفتوحاً. كانت لحظة مروِّعة، تعسة، مُشوَّشة، مغلوطة في العموم. كانت كروسبي تعسة جدّاً إلى حدٍّ جعلها هي تشعر بالسعادة. على الرَّغم من ذلك، بينما أبقت الباب مفتوحاً كانت دموعها قد تشكَّلت ونزلت. لقد عاشوا جميعاً هنا، لقد وقفت هنا ولوَّحت لموريس حين ذهابه إلى المدرسة، وكانت هناك الحديقة الصغيرة الَّتي اعتادوا أن يزرعوا الزعفران فيها. والآن كروسبي، مع بشارات الثلج تتساقط على قبَّعتها السوداء، تصعد في مركبتها ذات العجلات الأربع، وتمسك روفر بين ذراعيها. أغلقت إليانور الباب، ودخلت.

كان الثلج يتساقط حين تسارعت سيَّارة الأجرة عبر الشوارع. كانت هناك أخاديد صفراء اللَّون طويلة على امتداد الرصيف حيث كان الناس،

وهم يتسوَّقون، قد داسوا عليها وحوَّلوها إلى طين. كان قد بدأ يذوب قليلاً، وانزلق كثيرٌ من الثلج من أعلى الأسطح، وتساقط على الرصيف. كان الصبية الصغار أيضاً يلعبون بكرات الثلج، وقد رمى أحدهم كرة أصابت سيَّارة الأجرة حين مرَّت. إنَّما، لـمَّا استدارت متَّجهة إلى «ريتشموند غرين»، كان الفراغ الواسع بأكمله أبيض بالكامل. لم يبدُ أنَّ أيَّ شخص قد عبر الثلج هناك، فكلُّ شيء أبيض اللَّون. كان العشب أبيض اللَّون، والأشجار بيضاء اللَّون، والدرابزين أبيض اللَّون، والعلامات الوحيدة في المشهد هي الغربان، تجلس منحنية على قمم الأشجار. أكملت سيَّارة الأجرة تسارعها.

كانت العربات قد مخضت الثلج محوِّلة إيَّاه إلى خليط متخثِّر أصفر اللَّون بحلول الوقت الَّذي توقَّفت فيه سيَّارة الأجرة أمام المنزل الصغير في شارع «غرين». صعدت كروسبي الدَّرجات وهي تحمل روفر بين ذراعيها كي لا تترك قوائمه آثاراً على الدرجات. كانت لويزا برت تقف هناك بغية الترحيب بها، والسيِّد بيشوب، المستأجر من الطابق العلويِّ، الَّذي كان يعمل ككبير خدم. قدَّم لها المساعدة في نقل الحقائب إلى غرفتها الصغيرة، وتبعته كروسبي بعد ذلك.

كانت غرفته في الأعلى، وفي الجزء الخلفيِّ، ذات إطلالة على الحديقة. كانت صغيرة، إنَّما لَمَّا أفرغت حقائبها بدت مريحة بما فيه الكفاية. كانت تحمل طابعاً شبيهاً «بأبيركورن تيريس». في الواقع، كانت قد جمعت العديد من الأغراض الصغيرة التافهة تمهيداً لتقاعدها؛ الأفيال الهنديَّة، الزهريَّات الفضيَّة، الفقمة الَّتي وجدتها في سلَّة المخلَّفات الورقيَّة ذات صباح، حين كانت البنادق تطلق النار لأجل جنازة الملكة المسنَّة. لقد كانت هناك جميعها. رتَّبت الأغراض بشكل مائل على رفِّ المدفأة، ولـمَّا كانت قد علَّقت لوحات للأسرة -بعضهم يرتدون ملابس الزفاف، بعضهم يرتدون الشعر المستعار وفساتين السهرة، والسيِّد مارتن مرتدياً بذلته الرسميَّة في المنتصف لأنَّه كان المفضَّل لديها- بدا كأنَّ المكان شبيه بالمنزل جدّاً.

إنَّما، سواء أكان تغيير المكان إلى «ريتشموند»، أم أنَّه قد أصيب بالبرد في الثلج، فقد مرض روفر على الفور. رفض تناول طعامه، وكان أنفه ساخناً. انتشرت الأكزيما خاصَّته مجدّداً. لـمَّا حاولت أن تصطحبه إلى التسوُّق معها في صباح اليوم التالي، استدار رافعاً قوائمه في الهواء كما لو أنَّه يتوسَّل لأجل أن يُترك وشأنه. كان يتعيَّن على السيِّد بيشوب أن يخبر الآنسة كروسبي -نظراً لكونها تحمل اللَّقب التقديريَّ في ريتشموند- بأنَّه، وبحسب رأيه، فإنَّ الأفضل بالنسبة إلى الكلب المسنِّ المسكين (هنا، ربَّت على رأسه) أن يُقتل قتلاً رحيماً.

«تعالي معي يا عزيزتي»، قالت السيِّدة برت، واضعة ذراعها على كتف كروسبي، «واتركي بيشوب ينجز الأمر».

قال السيِّد بيشوب، وهو ينهض من على ركبتيه: «لن يعاني، يمكنني أن أطمئنكِ إلى ذلك». كان قد أنجز القتل الرحيم لكلاب السيِّدة مرَّات عدَّة قبل هذه المرَّة. «سيأخذ شمَّة واحدة فقط» -كان السيِّد بيشوب يمسك منديل جيبه في يده- «وسيفارق الحياة في وقت قصير جدّاً».

«سيكون هذا الأمر لصالحه يا آني»، أضافت السيِّدة برت، محاولة أن تسحبها بعيداً.

لقد بدا الكلب المسنُّ المسكين تعساً للغاية بالفعل. غير أنَّ كروسبي هزَّت رأسها. لقد هزَّ ذنبه، وكانت عيناه مفتوحتين. كان في قيد الحياة. كان هناك تألُّق، ما عدَّته لفترة طويلة ابتسامة على وجهه. كان يعتمد عليها، كما شعرت. لم تكن لتسلِّمه إلى أشخاص غرباء. جلست إلى جانبه لثلاثة أيام وليالٍ، أطعمته مستخلص الدجاج باستخدام ملعقة الشاي، غير أنَّه، في نهاية المطاف، رفض أن يفتح شدقيه، وأصبح جسده أكثر تصلُّباً شيئاً فشيئاً، ومشت ذبابة على أنفه دون أن ينتفض. حدث هذا الأمر في الصباح الباكر مع زقزقة عصافير الدوري على الأشجار في الخارج.

«إنَّه لمن الرحيم أنَّها تمتلك شيئاً لتشتيت انتباهها»، قالت السيِّدة برت، في حين عبرت كروسبي نافذة المطبخ في اليوم التالي للجنازة مرتدية أفضل

أوشحتها وقبّعاتها، نظراً لكونه يوم الخميس، حيث كانت تحضر جوارب السيِّد بارغيتر من «إيبوري ستريت». «إنَّما كان يتعيَّن أن يُقتل قتلاً رحيماً منذ فترة طويلة جدّاً»، أضافت قائلة، مستديرة نحو المغسلة. كان نفَسُه ذا رائحة كريهة.

استقلَّت كروسبي قطار المقاطعة متَّجهة إلى ساحة «سلون» ثمَّ مشت. مشت ببطء، ومرفقاها يبرزان إلى جانبيها كما لو كانت تحمي نفسها من عشوائيَّة الشوارع. كانت لا تزال تبدو حزينة، غير أنَّ التغيير من «ريتشموند» إلى «إيبوري ستريت» كان في صالحها، إذ شعرت بأنَّها على سجيَّتها على نحو أكبر في «إيبوري ستريت» من شعورها بذلك في «ريتشموند». لطالما شعرت بأنَّ نوعاً عاديّاً من الأشخاص قد عاشوا في «ريتشموند». إنَّما هنا، كان السادة والسيِّدات يتَّسمون بسِمة معيَّنة. أجالت النظر موافِقة إلى المحالِّ وهي مارَّة. وقد عاش جنرال أربوثنوت، الَّذي اعتاد زيارة السيِّد، في «إيبوري ستريت»، كان هذا ما فكَّرت فيه وهي تتَّجه نحو ذاك الشارع الرئيس الكئيب. لقد كان ميتاً الآن، أرتها لويزا النعي في الجرائد. إنَّما، لـمَّا كان في قيد الحياة، كان يعيش هنا. كانت قد وصلت إلى مساكن السيِّد مارتن. توقَّفت قليلاً على الدرجات وعدَّلت قبّعتها. لطالما تبادلت كلمات قليلة مع مارتن حين كانت تأتي لأخذ جواربه، وكان هذا يشكِّل متعة بالنسبة إليها، واستمتعت بتبادل النميمة مع السيِّدة بريغز، صاحبة المكان الَّذي يُقيم فيه. اليوم، كانت تمتلك متعة إخبارها بموت روفر. مشت بحذر على درجات المنطقة الَّتي كانت زلقة بسبب الجليد المتجمِّد، ثمَّ وقفت عند الدرج وقرعت الجرس.

جلس مارتن في غرفته يقرأ صحيفته. لقد انتهت الحرب في البلقان، إنَّما، كان هناك المزيد من المشكلات في حالة تخمُّر، وكان واثقاً بهذا الأمر. واثقاً للغاية. قلب الصفحة. كانت الغرفة مظلمة جدّاً مع تساقط المطر الثلجيِّ. ولم يكن في استطاعته قطُّ أن يقرأ حين كان ينتظر. كانت كروسبي قادمة،

في مقدوره سماع الصوتين في الردهة. كم كانتا تتبادلان النميمة! كم كانتا تثرثران! فكَّر بصبر فارغ. أنزل الصحيفة وانتظر. الآن، كانت آتية، كانت يدها على الباب. إنَّما، ما الَّذي سيقوله لها؟ تساءل، حين رأى القبضة تستدير. وضع الصحيفة. استفاد من الصيغة المعتادة، «حسناً يا كروسبي، كيف حال العالم معكِ؟»، وهي داخلة.

تذكَّرت روفر، فتسارعت الدموع إلى عينيها.

أنصت مارتن إلى القصَّة، وجعَّد حاجبه على نحو متعاطف. ثمَّ نهض، ودخل غرفة نومه، ثمَّ عاد حاملاً سترة بيجاما في يده.

«ماذا تدعين هذه يا كروسبي؟»، قال. أشار إلى ثقب أسفل الياقة، مُحدَّد باللَّون البنيِّ. عدَّلت كروسبي نظَّارتها ذات الحافَّة الذهبيَّة.

قالت بتيقُّن: «إنَّه حرق يا سيِّدي».

«إنَّها بيجاما جديدة تماماً، لم أرتدِها سوى مرَّتين»، قال مارتن وهو يمسكها ممدِّداً إيَّاها. لمستها كروسبي. كانت مصنوعة من أفضل أنواع الحرير، وكان في مقدورها معرفة ذلك.

«يا للأسف!»، قالت وهي تهزُّ رأسها.

«رجاءً، هلَّا أخذتِ هذه البيجاما إلى السيِّدة الَّتي لا أعرف اسمها»، تابع حديثه، وهو يمسكها أمامه. لقد أراد أن يستخدم استعارة، إنَّما يتعيَّن أن يكون المرء حرفيّاً جدّاً وأن يستخدم أبسط الكلمات فقط حين يتحدَّث إلى كروسبي، كما تذكَّر.

«أخبريها أن تحضر غسَّالة جديدة، وأن ترسل القديمة إلى الشيطان»، قال على نحو حاسم.

جمعت كروسبي البيجاما المعطوبة بلطف إلى صدرها، وتذكَّرت أنَّ السيِّد مارتن لم يكن يستطيع قطُّ أن يرتدي الصوف على جلده مباشرة. توقَّف

مارتن قليلاً. على المرء أن يُجري محادثة قصيرة لطيفة مع كروسبي، إلَّا أنَّ موت روفر قد حدَّ من موضوعات الأحاديث بينهما على نحو جدّيٍّ.

«ما أخبار الروماتيزم؟»، سأل حين وقفت منتصبة جدّاً عند باب الغرفة واضعة البيجاما على ذراعها. كانت قد أصبحت أصغر حجماً على نحو واضح، فكَّر. هزَّت رأسها، كانت «ريتشموند» منخفضة جدّاً إذا ما قورنت «بأبيركورن تيريس»، قالت. تغيَّر لون وجهها. كانت تفكِّر في روفر، كما افترض. عليه أن يحوِّل تفكيرها عن ذلك، إذ لم يكن في مقدوره تحمُّل الدموع.

سأل: «هل رأيتِ شقَّة الآنسة إليانور الجديدة؟». كانت كروسبي قد رأتها. غير أنَّها لم تحبَّ الشقق. بحسب رأيها، فقد أنهكت الآنسة إليانور نفسها.

«والناس لا يستحقُّون هذا الأمر يا سيّدي»، قالت، مشيرة إلى أسرة زوينغلر، بارافيسيني، وكوب، الَّذين اعتادوا أن يأتوا إلى الباب الخلفيِّ بغية الحصول على الملابس المستعملة في الأيام الخوالي.

هزَّ مارتن رأسه. لم يستطع أن يفكِّر فيما يقوله لاحقاً. لقد كره التحدُّث إلى الخدم، فلطالما جعله هذا الأمر يشعر بأنَّه مُراءٍ. سواء ابتسم ابتسامة متكلِّفة، أو تصرَّف برقَّة، فإنَّه كان مزيَّفاً في كلتا الحالتين.

«وهل تُحسن الاهتمام بنفسكَ يا سيِّد مارتن؟»، سألته كروسبي، مستخدمة اسم التصغير، وقد كان هذا أمراً اكتسبته من جرَّاء سنوات خدمتها الطويلة. مكتبة سُر مَن قرأ

قال مارتن: «لم أتزوَّج بعدُ يا كروسبي».

أجالت كروسبي عينيها في أرجاء الغرفة. لقد كانت شقَّة رجل عَزَبٍ، تحوي كراسي جلديَّة، وبيادق شطرنج تعلو كومة من الكتب، ومصبَّ ماء الصودا خاصَّته على صينيَّة. تجرَّأت على قول إنَّها كانت واثقة بوجود العديد من السيِّدات اليافعات اللَّطيفات اللَّواتي سيكنَّ سعيدات بالاعتناء به.

«آهٍ، غير أنَّني أحبُّ الاستلقاء في السرير صباحاً»، قال مارتن.

«لطالما فعلتَ يا سيِّدي»، قالت وهي تبتسم. ثمَّ كان بإمكان مارتن أن يخرج ساعته، وأن يخطو بنشاط نحو النافذة ويصيح كما لو كان قد تذكَّر موعداً على نحو مفاجئ.

«يا للعجب يا كروسبي، عليَّ الذهاب!»، وأُغلق الباب على كروسبي.

لقد كانت كذبة. لم يكن لديه أيُّ ارتباط. المرء يكذب على الخدم على الدوام، فكَّر وهو ينظر إلى خارج النافذة. برزت المعالم المتواضعة لمنازل «إيبوري ستريت» عبر المطر الثلجيِّ المتساقط. فكَّر، إنَّ الجميع يكذب. لقد كذب والده، إذ إنَّهم وجدوا بعد وفاته رسائل مربوطة وموضوعة في درج مكتبه من امرأة تُدعى ميرا. وكان قد رأى ميرا، سيِّدة بدينة محترمة طلبت المساعدة بخصوص سقفها. لِمَ كذب والده؟ ما كان الضرر في أن تكون لديه عشيقة؟ وقد كذب هو نفسه بشأن الغرفة في «فولهام رود» حيث اعتاد هو ودودج وإيردج تدخين السيجار الرخيص وسرد القصص البذيئة. لقد كان نظاماً مقيتاً، فكَّر، الحياة الأسريَّة، «أبيركورن تيريس». لا عجب في أنَّ المنزل لا يُؤجَّر. كان يحوي حمَّاماً واحداً، وقبواً، وقد عاش هناك مختلف أنواع الأشخاص، مكتظِّين إلى بعضهم بعضاً، ينطقون بالكذب.

ثمَّ، بينما وقف عند النافذة ينظر إلى الأشكال الصغيرة تتسرَّب على امتداد الرصيف المبتلِّ، رأى كروسبي تصعد درجات المنطقة وهي تحمل طرداً تحت ذراعها. وقفت للحظة، كحيوان صغير مذعور، تنظر حولها قبل أن تتجرأ على تحدِّي أخطار الشارع. في نهاية المطاف، انطلقت مهرولة. رأى الثلج يتساقط على قبَّعتها السوداء حين اختفت. استدار بعيداً.

١٩١٤

كان فصلَ ربيع مذهلاً، وكان اليوم مشعّاً. حتّى الهواء، بدا وكأنّه يحمل طنيناً فيه، فكلّما لامس أعالي الأشجار، اهتزَّ، وتموَّج. كانت الأوراق دقيقة وخضراء. في الريف، تمتمت ساعات الكنيسة القديمة بصوت خفيض معلنةً الوقت، وتردَّد الصوت الصدئ عبر الحقول الَّتي اكتست باللَّون الأحمر من البرسيم، وصعدت الغربان كما لو أنّها قد قُذفت بوساطة الأجراس. تحرّكت على نحو دائريٍّ، ثمَّ استقرَّت على قمم الأشجار.

في لندن، كان كلُّ شيء أنيقاً ورنَّاناً، إذ كان الفصل يبدأ؛ صدحت الأبواق، وزأرت الحركة المروريَّة، وحلَّقت الأعلام متوتِّرة كأنَّها سمك سلمون مرقَّط يسبح في تيَّار. أُعلنت الساعة من كلِّ القمم المدبَّبة لجميع كنائس لندن. القدِّيسون المألوفون في «مايفير»، القدِّيسون الرثُّون في «كينسينغتون»، قدِّيسو المدينة الوقورون. بدا الهواء فوق لندن كما لو أنَّه بحر هائج من الصوت الَّذي تسافر عبره الأمواج. غير أنَّ الساعات كانت غير منتظمة، كما لو أنَّ القدِّيسين أنفسهم كانوا في حالة انقسام. كانت هناك وقفات قصيرة، وحالات صمت... ثمَّ دقَّت الساعات من جديد.

هنا، في «إيبوري ستريت»، كانت تدقُّ ساعة ما ذات صوت واهن وبعيد. كانت الساعة تبلغ الحادية عشرة. مارتن، الواقف عند نافذته، نظر إلى الأسفل نحو الشارع الضيِّق. كانت الشمس ساطعةً، لقد كان في أفضل حالاته النفسيَّة، كان ذاهباً لزيارة سمسار البورصة خاصَّته في المدينة. لقد اتَّضح أنَّ شؤونه تسير على خير ما يرام. في أحد الأوقات، كان يفكِّر في أنَّ والده قد كسب الكثير من المال، ثمَّ خسره، ومن بعد ذلك كسب هو المال، غير أنَّه أحسن صنعاً للغاية في نهاية المطاف.

وقف عند النافذة للحظة مبدياً إعجابه بسيِّدة تتَّسم بحسِّ الأناقة، ترتدي قبَّعةً ساحرةً، وتنظر إلى قِدر في متجر للأغراض الغريبة قبالته. كانت قدراً زرقاء اللَّون على قاعدة خزفيَّة مع استبرق أخضرَ خلفه. الهيكل المائل المتناظر، عمق اللَّون الأزرق، والشقوق الصغيرة في التزجيج كانت أموراً أسعدته. وكانت السيِّدة الَّتي تنظر إلى الإناء ساحرةً على حدٍّ سواء.

أخذ قبَّعته وعصاه، واتَّجه خارجاً إلى الشارع. كان سيمشي جزءاً من الطريق نحو المنطقة التجاريَّة. «ابنة ملك إسبانيا»، دندن وهو يتَّجه نحو شارع «سلون»، «قد جاءت لزيارتي. كلُّ هذا لأجل...». نظر إلى نوافذ المحالِّ وهو مارٌّ. كانت ممتلئة بالفساتين الصيفيَّة، تشكيلات ساحرة من الأخضر وأثواب الحرير، وكانت هناك مجموعات من القبَّعات معلَّقة على قضبان صغيرة، «... كلُّ هذا لأجل»، دندن حين تابع سيره، «شجرة جوز الطيب الفضِّيَّة خاصَّتي». غير أنَّه تساءل عمَّا تكونه شجرة جوز الطيب الفضِّيَّة؟ كانت آلة أرغن تزمِّر مطلقة اهتزازها الخفيف بعيداً عبر الشارع. تحرَّك الأرغن في الأرجاء، وانتقل من هذا المكان إلى ذاك، كما لو كان الرجل المسنُّ الَّذي يعزف عليه يرقص نصف رقصة على اللحن. ركضت فتاة خادمة جميلة على درجات المنطقة وأعطته بنساً. تجعَّد وجهه الإيطاليُّ المرن في كلِّ أرجائه، حين انتزع قبَّعته وانحنى لها. ابتسمت الفتاة وعادت بسرعة إلى المطبخ.

دندن مارتن، «... كلُّ هذا لأجل شجرة جوز الطيب الفضِّيَّة خاصَّتي»، وهو ينظر عبر درابزين المنطقة إلى داخل المطبخ حيث كانوا جالسين. لقد بدوا مرتاحين جدّاً، مع أباريق الشاي والخبز والزُّبد على طاولة المطبخ. تأرجحت عصاه من جانب إلى آخر مثل ذيل كلب مبتهج. بدا الجميع خالياً من الهموم ولامبالياً، مندفعين خارجين من منازلهم، مختالين في الشوارع مع بنسات لعازفي الأرغن وبنسات للمتسوِّلين. بدا كأنَّ الجميع يمتلك مالاً بغية إنفاقه. تجمَّعت النسوة حول النوافذ الزجاجيَّة. توقَّف هو أيضاً، نظر إلى أنموذج قاربٍ لعبة، وحقائب الزينة، واللون الأصفر

اللامع الصادر عن صفوف من القوارير الفضّيّة. إنّما، مَن الّذي كتب تلك الأغنية عن ابنة ملك إسبانيا، تساءل حين واصل مسيره، الأغنية الّتي اعتادت بيبي أن تغنّيها له، حين كانت تمسح أذنيه بالفوطة الصغيرة اللّزجة؟ اعتادت أن تضعه على ركبتها، وتنعب بصوتها ذي الأزيز، والشبيه بالحشرجة، «أتت ابنة ملك إسبانيا لزيارتي، كلُّ هذا لأجل...». ثمَّ على نحو مفاجئ تستسلم ركبتها، وهو، يسقط هو متعثِّراً على الأرض.

ها هو ذا عند زاوية «هايد بارك». كان المشهد حيوياً إلى حدٍّ كبير. كانت عربات النقل والسيَّارات وحافلات نقل الركَّاب تتدفَّق إلى أسفل التلّ. حملت الأشجار في المتنزَّه أوراقاً خضراً صغيرة عليها. كانت السيَّارات التي تستقلُّها سيِّدات سعيدات يرتدينَ فساتينَ شاحبة تمرُّ عبر البوَّابة بالفعل. كان الجميع يتولَّى شؤونه الخاصَّة. وقد كتب شخص ما، كما لاحظ، «الإله هو الحبُّ» بطبشور ذي لون ورديٍّ على بوَّابات «أبسلي هاوس». فكَّر في أنَّ الأمر يتطلَّب جسارةً لكتابة «الإله هو الحبُّ» على بوَّابات «أبسلي هاوس» في حين يمكن لأيِّ شرطيٍّ أن يعتقلك في أيِّ لحظة. إنَّما، ها هي ذي الحافلة قد أتت، واستقلَّها.

«إلى كاتدرائيَّة سانت بول»، قال وهو يعطي نقوده النحاسيَّة إلى الجابي.

كانت الحافلات العامَّة تدور وتلفُّ في تيَّار مستمرٍّ حول درجات كاتدرائيَّة «سانت بول». بدا تمثال الملكة آن كأنَّه يترأس الفوضى ويزوِّدها بمزيد من المركزيَّة، مثل محور عجلة. بدا الأمر كما لو أنَّ السيِّدة البيضاء كانت تحكم الحركة المروريَّة باستخدام صولجانها، وتوجِّه نشاطات الرجال الصغار الَّذين يرتدون القبَّعات السود والمعاطف الباهظة، ونشاطات النساء اللواتي يحملنَ الحقائب الصغيرة، العربات، الشاحنات والحافلات العامَّة. بين الفينة والأخرى، تبرز هيئات منفردة عن البقيَّة وتصعد الدرجات متَّجهة إلى الكنيسة. كانت أبواب الكاتدرائيَّة تُفتح وتُغلق باستمرار. مراراً وتكراراً، وكانت نفحات من

موسيقا الأرغن تُنفث في الجوّ. تهادت الحمامات، ورفرفت عصافيرُ الدوري. بعد منتصف النهار بقليل، أخذ رجل مسنٌّ ضئيل، يحمل كيساً ورقيّاً، محطَّته في منتصف الطريق على الدَّرجات، وتابع إطعام الطيور. أخرج قطعة من الخبز. تحرَّكت شفتاه. بدا كأنَّه يغريها ويسايرها. سرعان ما أصبح محاطاً بدائرة من الأجنحة المرفرفة. جثمت عصافير الدوري على رأسه ويديه. تهادت الحمامات بالقرب من قدميه. تجمَّع حشد صغير لمشاهدته وهو يطعم عصافير الدوري. ألقى بخبزه من حوله في دائرة. ثمَّ كان ثمَّة تموُّج في الهواء. بدا كأنَّ الساعة العظيمة، كلَّ ساعات المدينة، تجمِّع قواها مع بعضها بعضاً، بدا وكأنَّها تطنُّ مطلقةً تحذيراً مبدئيّاً. ثمَّ دقَّتِ الدقَّة. أعلنت بصوتٍ عالٍ «الواحدة». تطايرت كلُّ عصافير الدوري في الجوِّ، حتَّى الحمامات قد فزعت، فحلَّق بعضها تحليقاً بسيطاً حول رأس الملكة آن.

بينما تلاشى التموُّج الأخير للدقَّة، خرج مارتن إلى المساحة المفتوحة أمام الكاتدرائيَّة.

عبر، ثمَّ وقف وظهره إلى نافذة محلٍّ وهو ينظر إلى الأعلى نحو القبَّة الضخمة. بدا كأنَّ وزن جسمه بأكمله قد انتقل. كان يراوده إحساس غريب بشيء يتحرَّك بتناغم في جسمه مع المبنى، قوَّم نفسه، وتوقَّف توقُّفاً كاملاً. لقد كان هذا التغيُّر في النسبة مثيراً للحماسة. تمنَّى لو كان مهندساً معماريّاً. وقف وظهره مستند إلى المتجر يحاول أن يرى الكاتدرائيَّة بأكملها على نحو واضح. غير أنَّه كان من الصعب فعل ذلك مع وجود العديد من المارَّة. اصطدموا به واندفعوا أمامه. كان وقت ازدحام، بكلِّ تأكيد، حين كان رجال المنطقة التجاريَّة يمضون لتناول غداءاتهم. كانوا يسلكون طرقاً مختصرة عبر الدَّرجات. كانت الحمامات تلتفُّ في الأعلى ثمَّ تستقرُّ مجدَّداً في الأسفل. كانت الأبواب تُفتح وتُغلق حين تسلَّق الدَّرجات. كانت الحمامات مزعجة، فكَّر، إذ إنَّها تشكِّل فوضى

على الدرجات. صعد إلى الأعلى ببطء. «ومن تكون تلك؟»، فكَّر وهو ينظر إلى امرأة كانت تقف عند أحد الأعمدة. «ألا أعرفها؟»

كانت شفتاها تتحرَّكان. لقد كانت تتحدَّث إلى نفسها.

فكَّر، «إنَّها سالي!»، تردَّد، أيتعيَّن عليه التحدُّث إليها، أم لا؟ غير أنَّ رفقتها كانت ممتعة، وكان تعباً من البقاء بمفرده.

«بنت من بنات أفكارِك يا سال!»، قال وهو ينقر على كتفها.

استدارت، فتغيَّر تعبيرها على الفور. «تماماً حين كنتُ أفكِّر فيك يا مارتن!»، صاحت.

«يا لها من كذبة!»، قالت وهو يصافحها.

قالت: «دائماً ما أرى الأشخاص حين أفكِّر فيهم». أدَّت حركتها الغريبة، إذ جرَّت رجليها قليلاً كما لو كانت طيراً، دجاجة شعثاء إلى حدٍّ ما، حيث لم يكن معطفها مواكباً للموضة. وقفا للحظة على الدرجات، ينظران إلى الشارع المكتظِّ القابع في الأسفل. خرجت هبَّة من موسيقا الأرغن من الكاتدرائيَّة خلفهما حين فُتحت الأبواب وأُغلقت. كانت الهمهمة الكنسيَّة الخافتة مثيرة للإعجاب على نحو غامض، وكان بالإمكان رؤية المساحة المظلمة للكاتدرائيَّة عبر الباب.

بدأ الحديث، «فيمَ كنتِ تفكِّرين...؟»، غير أنَّه توقَّف عن الكلام، «تعالي وتناولي الغداء معي»، قال، «سأصطحبكِ إلى مطعم لحوم في المنطقة التجاريَّة»، ووجَّهها إلى أسفل الدرجات، على امتداد الزقاق الضيِّق، المسدود بالعربات الَّتي كانت تُلقى الطرود فيها من المخازن. دخلا مندفعَين عبر الأبواب الدوَّارة إلى مطعم اللحوم.

«إنَّ المكان مكتظٌّ للغاية اليوم يا ألفريد»، قال مارتن بدماثة، حين أخذ النادل منه معطفه وقبَّعته وعلَّقهما على الشمَّاعة. كان يعرف النادل، فلطالما تناول الغداء هنا، وكان النادل يعرفه أيضاً.

«مكتظٌّ جدّاً أيُّها النقيب»، قال.

قال وهو يجلس: «والآن، ماذا سنأكل؟».

كانت هناك قطعة لحم ضخمة ذات لون أصفر بنّيٍّ تُنقل من طاولة إلى أخرى على عربة.

«تلك»، قالت سارة وهي تلوِّح بيدها نحوها.

«وماذا نشرب؟»، قال مارتن. أخذ قائمة النبيذ واستشارها.

«الشراب...»، قالت سارة، «الشراب، أترك لكَ اختياره». خلعت قفّازيها ووضعتهما على كتاب صغير ذي لون بنّيٍّ محمرٍّ كان من الواضح أنَّه كتاب صلوات.

«تتركين أمرَ اختيار الشراب لي»، قال مارتن. تساءل، لِمَ أوراق كتب الصلوات دائماً ما تكون مذهَّبة بالأحمر والذهبيِّ؟ اختار النبيذ.

«وما الَّذي كنتِ تفعلينه في سانت بول؟»، قال وهو يصرف النادل.

«أستمع إلى الصلاة»، قالت. نظرت من حولها. كانت الغرفة بالغة الحرارة ومكتظَّة، والجدران مغطَّاة بالأوراق الذهبيَّة الـمُلبَّسة على سطح بنّيٍّ، والأشخاص يمرُّون إلى جانبهما ويدخلون ويخرجون طيلة الوقت. أحضر النادل النبيذ. صبَّ مارتن كأساً لها.

«لم أكن أعلم أنَّكِ تذهبين إلى الصلوات»، قال وهو ينظر إلى كتاب الصلوات الَّذي يخصُّها.

لم تجب. واصلت النظر من حولها، تراقب الأشخاص يدخلون ويخرجون. ارتشفت نبيذها. كان اللون ينتقل إلى خدَّيها. التقطت شوكتها وسكينها وبدأت تأكل لحم الضأن المثير للإعجاب. أكلا في صمت لقليل من الوقت.

أراد أن يدفعها إلى الحديث.

«وماذا يا سال؟»، قال وهو يلمس الكتاب الصغير، «ما الَّذي استخلصتِه منه؟».

فتحت كتاب الصلوات على نحو عشوائيٍّ وبدأت تقرأ:

«الأب لا يُسبر غوره، الابن لا يُسبر غوره...»، تحدَّثت بصوتها العاديِّ.

«كفى!»، أوقفها عن الحديث، «إنَّ هناك مَن يُنصت».

مراعاة له تصنَّعت اللياقة الَّتي يتعيَّن على سيِّدة أن تتسمَّ بها وهي تتناول الغداء مع سيِّد في مطعم في المنطقة التجاريَّة.

سألت: «وما الَّذي كنتَ أنتَ تفعله في كاتدرائيَّة سانت بول؟»

«كنتُ أتمنَّى لو كنتُ مهندساً معماريّاً»، قال، «إلَّا أنَّهم أرسلوني إلى الجيش بدلاً من ذلك، وهو أمر أبغضته». تحدَّث على نحو حاسم.

«صمتاً!»، همسَت. «إنَّ هناك من يُنصت».

نظر حوله بسرعة، ثمَّ ضحك. كان النادل يضع الفطيرة خاصَّتهما أمامهما. أكلا في صمت. ملأ كأسها من جديد. كان خدَّاها متورِّدين، وكانت عيناها مشرقتين. لقد حسدها على الإحساس العامِّ بالرفاه العالميِّ الَّذي اعتاد أن يحسَّ به من جرَّاء احتساء كأس من النبيذ. كان النبيذ طيّباً - وأزال الحواجز. أراد أن يدفعها إلى الحديث.

«لم أكن أعلم أنَّكِ تذهبينَ إلى الصلوات»، قال وهو ينظر إلى كتاب الصلوات الَّذي يخصُّها. «وما رأيكِ في الأمر؟». نظرَت إلى الكتاب أيضاً. ثمَّ نقرَت عليه بشوكتها.

«ما رأيهما هما به يا مارتن؟»، سألَت، «المرأة الَّتي تصلِّي والرَّجل ذو اللحية البيضاء الطويلة؟»

«إلى حدٍّ كبير الأمر عينه الَّذي تعتقده كروسبي حين تأتي لرؤيتي»، قال. فكَّر في المرأة المسنَّة وهي تقف عند باب غرفته وسترة البيجاما فوق ذراعها، والنظرة الورعة التي تعلو وجهها.

«إنَّني إله كروسبي»، قال وهو يضع لها كرنباً مسلوقاً.

«إله كروسبي! أيُّها العظيم، يا مالك كلِّ القوى يا سيِّد مارتن!». ضحِكَت.

رفعت كأسها إليه. هل كانت تسخر منه؟ تساءل. كان يأمل في ألَّا تعتقد أنَّه كبير في السنِّ. «أنتِ تتذكَّرين كروسبي، أليس كذلك؟ لقد تقاعدت، ومات كلبها»، قال.

كرَّرت قوله، «تقاعدت، ومات كلبها؟». نظرت من فوق كتفها من جديد. كان من المستحيل إجراء محادثة في مطعم، كان مقسَّماً إلى أجزاء صغيرة، ورجال المنطقة التجاريَّة الَّذين يرتدون بدلاتهم الأنيقة المخطَّطة ويعتمرون قبَّعاتهم السود، يمرُّون بهما طيلة الوقت.

«إنَّها كنيسة جميلة»، قالت وهي تتلفَّت في الأرجاء. كانت قد عادت إلى كاتدرائيَّة «سانت بول»، كما افترض.

«مذهلة»، أجاب، «هل كنتِ تنظرينَ إلى المعالم الأثريَّة؟»

دخل شخص ما كان قد ميَّزه، إنَّه إيريدج، سمسار البورصة. رفع إصبعاً وأشار. نهض مارتن وذهب ليتحدَّث إليه. لَمَّا عاد كانت قد ملأت كأسها من جديد. كانت تجلس هناك، تنظر إلى الأشخاص، كما لو أنَّها طفلة اصطحبها لمشاهدة التمثيليَّات الإيمائيَّة.

«وما الَّذي تفعلينَه في ظهيرة هذا اليوم؟»، سأل.

«بحيرة راوند عند الساعة الرابعة»، قالت. نقرت على الطاولة، «بحيرة راوند عند الساعة الرابعة». الآن، قد عبَرت، بحسب تخمينه، نحو الإحسان النعس الَّذي ينتظر المرء بعد تناول عشاء شهيٍّ وكأس من النبيذ.

سأل: «هل ستلتقين شخصاً ما؟»

«أجل. ماغي»، قالت.

تناولا الطعام في صمت. وصلت إليهما شذرات من أحاديث الأشخاص الآخرين في هيئة جمل متقطِّعة. ثمَّ لمس الرجل الَّذي تحدَّث إليه مارتن كتفَه في طريقه إلى الخارج.

«يوم الأربعاء عند الساعة الثامنة»، قال.

«بكلِّ تأكيد»، قال مارتن، ودوَّن ملاحظة في كتاب جيبه.

سألت: «وما الَّذي تفعله في ظهيرة هذا اليوم؟».

«عليَّ أن أزورَ شقيقتي في السجن»، قال وهو يشعل سيجارة.

«في السجن؟»، سألت.

«روز. بسبب رمي قطعة طوب»، قال.

«روز الحمراء، روز السمراء»، بدأت القول وهي تمدُّ يدها نحو النبيذ من جديد، «روز الجامحة، روز ذات الأشواك...»

«كلَّا»، قال، واضعاً يده على فوهة الزجاجة، «لقد شربتِ بما فيه الكفاية». أغضبها هذا الأمر قليلاً. عليه إخماد غضبها. كان ثمَّة أشخاص يستمعون.

قال: «يا له من أمر لعين وبغيض أن تكون في السجن!».

عاودت سحب كأسها وجلست تحدِّق إليها، كما لو أنَّ محرِّك الدماغ قد توقَّف على نحو مفاجئ. كانت تشبه والدتها إلى حدٍّ كبير جدّاً، إلَّا حين تضحك.

كان يرغب في أن يتحدَّث إليها عن والدتها، غير أنَّ الكلام كان مستحيلاً. كان كثير من الأشخاص يستمعون، وكانوا يدخِّنون. امتزج الدخان برائحة اللَّحم ما جعل الهواء ثقيلاً. كان يفكِّر في شأن الماضي حين صاحت:

«الجالسة على الكرسيِّ ذي الأرجل الثلاث لديها قطعة لحم محشورة في حلقها!»

عاد بأفكاره. لقد كانت تفكِّر في شأن روز، أليس كذلك؟

«قطعة طوب سبَّبت اصطداماً!» ضحكت، ملوِّحة بشوكتها.

«"لفَّ خريطة أوروبا". قال الرجل للخادم، "إنَّني لا أؤمن بالقوَّة!"». أنزلت شوكتها. قفزت بذرة خوخ. نظر مارتن في الأرجاء. وكان الناس يستمعون. نهض.

«هلَّا ذهبنا؟»، قال، «-في حال اكتفيتِ؟»

نهضت وبحثت عن معطفها.

«حسناً، لقد استمتعتُ بالأمر»، قالت وهي تأخذ معطفها، «شكراً يا مارتن لأجل الغداء الشهيِّ».

أشار إلى النادل الَّذي جاء بخفَّة وصار يحسب الفاتورة. ألقى مارتن جنيهاً إنكليزيّاً ذهبيّاً على الطبق. بدأت سارة تدفع ذراعيها في كُمَّي معطفها.

«هلَّا رحتُ معكِ»، سأل وهو يساعدها، «إلى بحيرة راوند عند الساعة الرابعة؟».

«أجل!»، قالت وهي تستدير على حذائها ذي الكعب العالي، «إلى بحيرة راوند عند الساعة الرابعة!»

مشت، بخطىً غير ثابتة كما لاحظ، مارَّة برجال المنطقة التجاريَّة الَّذين كانوا لا يزالون يأكلون.

هنا، جاء النادل مع المال المتبقِّي وبدأ مارتن يضعه في جيبه. أبقى على قطعة عملة واحدة من أجل البقشيش. إنَّما، لَمَّا أوشك أن يعطيه إيَّاها، صُدم بأمر مراوغ حسب تعبير ألفريد. نقف طرف الفاتورة، فكانت هناك قطعة شلنين أسفلها. لقد كانت الحيلة المعتادة. فقدَ أعصابه.

قال بغضب: «ما هذا؟».

تأتأ النادل قائلاً: «لم أكن أعلم أنَّها هنا يا سيِّدي».

شعر مارتن بالدَّم يتصاعد إلى أذنيه. شعر تماماً كما لو كان والده في نوبة غضب، كما لو أنَّه كان يمتلك بقعاً بيضاً تعلو صدغيه. أعاد إلى جيبه القطعة المعدنيَّة الَّتي أوشك أن يعطيها للنادل، وهرع مسرعاً متجاوزاً إيَّاه، وتراجع الرجل وهو يتمتم.

«فلنذهب»، قال وهو يستعجل سارة عبر الغرفة المكتظة، «فلنخرج من هذا المكان».

أسرع بها إلى الشارع. كان الجوُّ الفاسد لقلَّة التهوية، ورائحة اللَّحم الدافئة لمطعم لحوم المنطقة التجاريَّة قد أصبحا أمرين غير محتملين.

«لكَم أكره أن أُخدع!»، قال وهو يضع قبَّعته.

«المعذرة يا سارة»، اعتذر قائلاً، «لم يكن عليَّ أخذك إلى هناك. إنَّها حفرة كريهة».

استنشق نفساً من الهواء الصافي. ضوضاء الشارع، الأمور الفاترة الَّتي تحمل هيئة الأعمال، كانت أموراً منعشة بعد الغرفة بالغة الحرارة. كانت هناك عربات تنتظر، على طول الشارع، والطرود تنزلق نزولاً إليها من المستودعات. مرَّة أخرى، وصلا إلى كاتدرائيَّة «سانت بول». رفع نظره. كان هناك الرجل المسنُّ عينه لا يزال يطعم عصافير الدوري. وها هي ذي الكاتدرائيَّة. تمنَّى لو استطاع أن يحسَّ من جديد بشعور تغيُّر الأوزان في جسمه والوصول إلى حالة من التوقُّف، غير أنَّ الحماسة الغريبة لبعض التجانس بين جسده الخاصِّ والحجر لم تعد تراوده بعد الآن. لم يشعر بأيِّ شيء باستثناء الغضب. بالإضافة إلى أنَّ سارة قد شتَّتت انتباهه. لقد أوشكت أن تقطع الشارع المزدحم. مدَّ يده لإيقافها. قال، «احذري». ثمَّ عبرا.

«هلَّا مشينا؟»، سأل. أومأت. بدأا يمشيان عبر شارع «فليت». كان من المستحيل إجراء محادثة. كان الرصيف ضيِّقاً جدّاً إلى درجة أنَّه اضطرَّ إلى أن يخطو فوقه تارة وأن ينزل عنه تارةً أخرى كي يبقى إلى جانبها. لا يزال يشعر

بانزعاج ناتج عن الغضب، غير أنَّ الغضب نفسه كان أمراً مُهدِّئاً. ما الَّذي كان عليَّ أن أفعله؟ فكَّر، وهو يرى نفسه يمرُّ إلى جانب النادل دون أن يعطيه بقشيشاً. ليس هذا الأمر، فكَّر، كلَّا، ليس ذلك. دفعه الناس المارُّون به إلى النزول عن الرصيف. بعد كلِّ شيء، كان على الشيطان الصغير أن يكسب قوته. لقد أحبَّ أن يكون كريماً، أحبَّ أن يترك الناس مبتسمين، وشلنان لا يعنيان أيَّ شيء له. فكَّر، إنَّما، ما الفائدة الآن وقد تمَّ الأمر؟ بدأ يدندن أغنيته الصغيرة، ثمَّ توقَّف، متذكِّراً أنَّه كان برفقة شخص ما.

«انظري إلى هذا يا سال»، قال متشبِّثاً بذراعها، «انظري إلى هذا!».

أشار إلى الشكل المفلطح عند حيِّ «تيمبل بار»، كان يبدو سخيفاً كالمعتاد -شيئاً ما بين الثعبان والطير.

«انظري إلى هذا!»، كرَّر وهو يضحك. توقَّفا للحظة لإلقاء نظرة على الأشكال المسطَّحة الصغيرة الَّتي استقرَّت على نحو غير مريح على قوس «تيمبل بار»: الملكة فيكتوريا، الملك إدوارد. ثمَّ تابعا مسيرهما. كان الحديث أمراً مستحيلاً بسبب الزحام. أسرع الرجال مرتدين الشعر المستعار والأثواب عبر الشارع، حمل بعضهم حقائبَ حمراء اللَّون، وآخرون حملوا حقائبَ زرقاً.

«المحاكم القانونيَّة»، قال وهو يشير إلى الكتلة الباردة من الحجر المزخرف. كانت تبدو كئيبة وجنائزيَّة للغاية، «... حيث يمضي موريس وقته»، قال بصوتٍ عالٍ.

كان لا يزال يشعر بالانزعاج لأنَّه فقد أعصابه. غير أنَّ هذا الشعور كان عابراً. لم يتبقَّ سوى القليل من الهياج في ذهنه.

«هل تعتقدين أنَّه كان عليَّ أن...»، بدأ قوله، يتقصَّد الحديث كما لو كانت مرافعة، إنَّما هل كان عليَّ فعل ذلك -أي فقدُ أعصابه مع النادل.

«أكان عليَّ أن أكون، أكان عليَّ أن أفعل؟»، سألت وهي تميل نحوه. لم تكن قد فهمت ما يعنيه في خضمِّ زئير حركة المرور. كان الحديث أمراً

مستحيلاً، إنّما، في أيِّ حال، كان الشعور بأنّه قد فقد أعصابه يتلاشى. كانت تلك النخزة الصغيرة الَّتي تزعجه في طريقها إلى الهدوء. ثمَّ عادت إليه لأنَّه رأى متسوِّلة تبيع أزهار البنفسج. وذاك الشيطان المسكين، فكَّر، عليه المضيُّ دون الحصول على بقشيشه لأنَّه غشَّني... ثبَّت عينيه على صندوق بريد، ثمَّ نظر إلى سيَّارة. فكَّر في أنَّ السرعة الَّتي يعتاد فيها المرء على السيَّارة بدلاً من الأحصنة كانت أمراً غريباً. بدت الفكرة سخيفة. مرَّا بالمرأة الَّتي تبيع البنفسج. كانت تعتمر قبَّعة تغطِّي وجهها. ألقى نصف شلن في صينيَّتها بغية التعويض عن الموقف مع النادل. هزَّ رأسه. لم يُرِدِ البنفسج، هذا ما عناه، وكان قد ذبل أصلاً. غير أنَّه التقط لمحة لوجهها. ليس لديها أنف، وكان وجهها مربوطاً بالرقع البيض، وكانت هناك حافَّتان حمراوان في مكان فتحتَي أنفها. ليس لديها أنف، كانت قد دفعت قبَّعتها إلى الأسفل بغية إخفاء ذاك الوجه.

«فلنعبر الشارع»، قال على نحو مفاجئ. أمسك بذراع سارة وجعلها تعبر بين الحافلات العامَّة. لا بُدَّ أنَّها قد رأت مشاهد مماثلة قبلاً، غالباً ما رأى هو تلك المشاهد، إنَّما ليس معاً، لقد شكَّل هذا فارقاً. أسرع بها إلى الرصيف الأبعد.

«سنستقلُّ الحافلة»، قال، «تعالي معي».

أمسك بمرفقها بغية جعلها تمشي بخفَّة. غير أنَّ الأمر كان مستحيلاً، إذ أغلقت عربة الطريق، كان هناك أشخاص يمرُّون. كانا يقتربان من «تشارينغ كروس». الأمر أشبه بركائز جسر، غير أنَّ الرجال والنساء كانوا يتدفَّقون إلى الداخل بدلاً من تدفُّق الماء. عليهما التوقُّف. ثبَّت الصبيانُ الَّذين يبيعون الجرائد لافتات على أرجلهم. كان الرجال يبتاعون الجرائد، وقد تريَّث بعضهم، حين اختطفها آخرون. اشترى مارتن جريدة وأمسكها بيده.

«سننتظر هنا»، قال، «ستأتي الحافلة». قبَّعة قشٍّ قديمة تعلوها أنشوطة أرجوانيَّة اللَّون، فكَّر وهو يفتح جريدته. استمرَّ المشهد. رفع

نظره إلى الأعلى. لطالما كانت ساعة المحطَّة سريعة، طمأن رجلاً كان يسرع بغية اللحاق بقطار. إنَّها سريعة دائماً، قال لنفسه وهو يفتح الجريدة. إنَّما، لم تكن ثمَّة ساعة. التفت كي يقرأ الأخبار القادمة من إيرلندا. كانت الحافلات العامَّة تتوقَّف واحدة تلو الأخرى، ثمَّ تنطلق من جديد. كان من الصعب التركيز على الأخبار القادمة من إيرلندا، نظر إلى الأعلى.

«هذه هي حافلتنا»، قال حين أتت الحافلة الصحيحة. صعدا إلى الأعلى وجلس أحدهما إلى جانب الآخر متجاوزَين السائق.

«تذكرتان إلى زاوية هايد بارك»، قال مقدِّماً يداً ممتلئة بالعملات الفضِّيَّة، ونظر عبر صفحات الجريدة المسائيَّة، غير أنَّها كانت النسخة المبكرة فحسب.

«لا شيء فيها»، قال وهو يحشر الجريدة أسفل مقعده، «والآن-»، بدأ حديثه وهو يملأ غليونه. كانوا يسيرون بسلاسة نزولاً على منحدر «بيكاديللي» «-حيث اعتاد والدي المسنُّ أن يجلس»، توقَّف عن الكلام ملوِّحاً بغليونه نحو نوافذ النادي. «... والآن»- أشعل عود ثقاب -«... والآن يا سالي، يمكنكِ أن تقولي ما ترغبين في قوله. ليس ثمَّة من ينصت. قولي شيئاً ما»، أضاف قائلاً وهو يرمي عود الثقاب، «شيئاً عميقاً جدّاً».

استدار نحوها. أرادها أن تتحدَّث. غاصوا إلى الأسفل، ثمَّ انطلقوا صعوداً من جديد. لقد أرادها أن تتحدَّث، أم عليه هو الحديث. وما الَّذي يسعه قوله؟ كان قد دفن مشاعره. غير أنَّ بعض المشاعر قد ظلَّ. أرادها أن تتحدَّث عن الأمر، غير أنَّها كانت صامتة. كلَّا، فكَّر، وهو يمضغ جذع غليونه. لن أقولها. إن فعلتُ ذلك فستعتقد أنَّني...

نظر إليها. كانت الشمس تتوهَّج على نافذة مستشفى «سانت جورج». كانت تنظر إليها بنشوة. إنَّما، لِمَ مع نشوة؟ تعجَّبَ، بينما توقَّفت الحافلة ونزل منها.

تغيَّر المشهد قليلاً منذ الصباح. كانت الساعات في البعيد تدقُّ معلنةً الساعة الثالثة. كانت هناك سيَّارات أكثر، المزيد من النساء اللواتي يرتدينَ الفساتين الصيفيَّة الشاحبة، المزيد من الرجال الَّذين يرتدون المعاطف من ذات الذيل، ويعتمرون القبَّعات الرماديَّة. كانت المسيرة تبدأ عبر البوَّابات نحو المتنزَّه. حمل الجميع مظهراً احتفاليّاً. حتَّى المتدرِّبات صانعات الأثواب الصغيرات وهنَّ يحملنَ صناديقهنَّ كنَّ يبدونَ كما لو أنَّهنَّ يشاركنَ في بعض الاحتفالات. كانت الكراسي الخُضر قد وُضعت على جوانب الصفِّ. كانت ممتلئة بالناس الَّذين ينظرون من حولهم كما لو أنَّهم كانوا قد اتَّخذوا أماكنهم بغية مشاهدة مسرحيَّة. تحرَّك راكبو الأحصنة في اتِّجاه واحد نحو نهاية الصفِّ، وأوقفوا أحصنتهم، ثمَّ استداروا وسلكوا الاتِّجاه الآخر. حرَّكت الرياح، القادمة من الغرب، السحب البيض المكسوَّة بحبيبات من اللَّون الذهبيِّ عبر السماء. لمعت نوافذ متنزَّه لين بالانعكاسات الزُّرق والذهبيَّة.

خطا مارتن بخفَّة.

«تعالي معي»، قال، «تعالي، تعالي!». تابع السير. فكَّر، إنَّني يافع، إنَّني في أوج الحياة. كانت هناك نكهة من الأرض في الجوِّ، حتَّى في المتنزَّه كانت هناك رائحة خفيفة للربيع، للريف.

«لكَم أحبُ...»، قال بصوتٍ عالٍ. نظر من حوله. تحدَّث إلى الهواء الخالي، فسارة كانت تخلَّفت عنه، ها هي ذي، تعقد أنشوطة حذائها. غير أنَّه أحسَّ كما لو كان قد فوَّت خطوة وهو ينزل الدرج.

«كم يشعر المرء بأنَّه أحمق حين يتحدَّث إلى نفسه بصوتٍ عالٍ»، قال حين صعدت. أشارت.

«إنَّما، انظر»، قالت، «جميعهم يفعلون ذلك».

كانت امرأة في منتصف العمر قادمة نحوهما، وهي تتحدَّث إلى نفسها. تحرّكت شفتاها، كانت تومئ بيدها.

«إنَّه فصل الربيع»، قال حين مرَّت المرأة بهما.

«كلَّا. لقد أتيت إلى هنا مرَّة في فصل الشتاء»، قالت، «وكان هناك زنجيٌّ يضحك بصوت عالٍ في الثلج».

«في الثلج»، قال، «زنجيٌّ». كانت الشمس ساطعة على العشب، وكانا يعبران سريراً يحوي زنابق ملتفّة ولامعة ذات ألوان متعدِّدة.

«لا تجعلينا نفكِّر في الثلج»، قال، «دعينا نفكِّر في...». كانت ثمَّة امرأة شابَّة تدفع عربة أطفال. خطرت في باله فكرة طارئة. قال، «ماغي». «أخبريني. أنا لم أرَها منذ وُلد طفلها. ولم ألتقِ الفرنسيَّ قبلاً، ما اسمه؟ رينيه؟».

قالت: «ريني». كانت لا تزال تحت تأثير النبيذ، تحت تأثير الأجواء الهائمة وعبور الناس. شعر هو أيضاً ببعض التشتُّت، غير أنَّه أراد أن يُنهي هذا.

«أجل. كيف هو، ذاك الرجل رينيه، ريني؟»

نطق الكلمة بالطريقة الفرنسيَّة أوَّلاً، ثمَّ بالإنكليزيَّة، على غرار ما فعلته. لقد أراد أن يوقظها. أمسك بذراعها.

«ريني!»، أعادت سارة. أرجعت رأسها إلى الخلف وضحكت. «دعني أرَ»، قالت، «إنَّه يرتدي ربطة عنق حمراء منقَّطة بنقط بيضاء اللَّون. ذو عينين غامقتين. ويأخذ برتقالة -فلنفترض أنَّنا نتناول العشاء، وسيقول، وهو ينظر إليكَ مباشرة، "هذه البرتقالة يا سارة-"»، شدَّدت على حرف الراء. ثمَّ توقَّفت قليلاً.

«هناك شخص آخر يتحدَّث إلى نفسه»، قاطعت حديثها قائلة. مرَّ بهما شابٌّ يافع يرتدي معطفاً مزرَّراً بإحكام كما لو أنَّه لم يكن يرتدي قميصاً. كان يتمتم وهو يمشي. عبس فيهما حين مرَّ بهما.

«إنَّما، ريني؟»، قال مارتن.

«لقد كنَّا نتحدَّث عن ريني»، ذكَّرها قائلاً، «إنَّه يأخذ برتقالة...».

«ويصبُّ لنفسه كأساً من النبيذ»، تابعت حديثها، «"إنَّ العلم هو دين المستقبل!"»، صاحت وهي تلوِّح بيدها كما لو أنَّها تمسك بكأس من النبيذ.

«من النبيذ؟»، قال مارتن وهو يستمع نصف استماع، كان قد تخيَّل بروفسوراً فرنسيّاً جادّاً -صورة صغيرة لا بُدَّ له الآن أن يضيفَ إليها كأساً من النبيذ على نحو غير ملائم.

«أجل، النبيذ»، أعادت، «لقد كان والده تاجراً»، تابعت حديثها. «رجل ذو لحية سوداء، تاجر في بوردو. وفي أحد الأيَّام»، أكملت، «لَمَّا كان صبيّاً صغيراً، يلعب في الحديقة، كان هناك نقر على النافذة. "لا تصدر الكثير من الضوضاء. اذهب والعب بعيداً"، قالت امرأة ترتدي رداءً أبيضَ. كانت والدته ميتة.. وكان خائفاً إخبار والده بأنَّ الحصان كان أكبر من أن يستطيع امتطاءه... وأرسلوه إلى إنكلترا...»

كانت تقفز فوق الدرابزين.

«وما الَّذي حدث بعد ذلك؟»، قال مارتن منضمّاً إليها، «عقدا خطبتهما؟»

كانت صامتة. انتظر منها أن تشرح -لِمَ تزوَّجا- ماغي وريني. انتظر، غير أنَّها لم تقل المزيد. حسناً، لقد تزوَّجته وهما سعيدان، فكَّر. شعر بالغيرة للحظة. كان المتنزَّه غاصّاً بالأزواج الَّذين يمشون مع بعضهم. بدا كلُّ شيء نضراً وممتلئاً بالحلاوة. هبَّ الهواء بنعومة على وجهيهما. كان محمَّلاً بالهمهمات، بحركة الأغصان، تسارع العجلات، نباح الكلاب، والأغنية المتقطعة الصادرة من طائر السُّمانى بين الفينة والأخرى.

هنا، مرَّت بينهما سيِّدة، تتحدَّث إلى نفسها. بينما نظرا إليها، استدارت وصفَّرت، كما لو كانت تصفِّر لكلبها. غير أنَّ الكلب الَّذي صفَّرت له كان كلب شخص آخر. قفز مبتعداً في الاتِّجاه المعاكس. انطلقت السيِّدة مسرعة وهي تزمُّ شفتيها إلى بعضهما.

قالت سارة: «لا يحبُّ الناس أن يُنظر إليهم وهم يتحدَّثون إلى أنفسهم».

رفع مارتن نفسه.

«انظري إلى هنا»، قال، «لقد سلكنا الاتِّجاه الخطأ». طفت الأصوات متَّجهةً نحوهما.

لقد كانا يمشيان في الاتِّجاه الخطأ. كانا قرب مساحة جرداء مكشوطة حيث يتجمَّع الخطباء. كانت الاجتماعات على قدم وساق. تجمَّعت المجموعات حول الخطباء المختلفين. ممتطين منصَّاتهم، أو يقفون على صناديق فقط في بعض الأحيان، كان الخطباء صامدين. أصبحت الأصوات أعلى شيئاً فشيئاً مع اقترابهما.

قال مارتن: «فلنستمع». كان ثمَّة رجل نحيل يميل إلى الأمام ويمسك لوحة في يده. كان بإمكانهما أن يسمعاه يقول، «أيُّـها السيِّدات والسادة...»، وقفا أمامه، «ثبِّتوا أنظاركم عليَّ»، قال. ثبتا نظرهما عليه. قال وهو يثني إصبعه، «لا تخافوا». كان يتمتَّع بأسلوب مُداهن. أدار لوحته. «هل أبدو كيهوديٍّ؟»، سأل. ثمَّ أدار لوحته ونظر إلى الطرف الآخر. وسمعاه يقول إنَّ والدته قد وُلدت في «بيرموندسي»، حين تابعا مسيرهما، ووُلد والده في جزيرة... تلاشى الصوت.

«ماذا بشأن هذا الرجل؟»، قال مارتن. هنا، كان رجل ضخم، يقرع على درابزين منصَّته.

«أيُّها الرفاق المواطنون!»، كان يصيح. توقَّفا. وقف حشد من المتسكِّعين، من موصلي الطلبات والمربِّيات، فاغرين أفواههم نحوه وأعينهم تحدِّق على نحو فارغ. مشَّطت يده صفَّ السيَّارات الَّتي كانت تمرُّ بإيماءة ازدراء رائعة. برز قميصه من تحت صدريَّته.

«عدالة وحرِّيَّة»، قال مارتن مكرِّراً كلماته، مع ارتطام القبضة على الدرابزين. انتظرا. ثمَّ عاد كلُّ شيء من جديد.

«غير أنَّه خطيب جيِّد ومرح»، قال مارتن وهو يستدير. تلاشى الصوت. «والآن، ما الَّذي كانت تقوله السيِّدة المسنَّة؟». واصلا مسيرهما.

كان جمهور السيِّدة المسنَّة قليلاً جدّاً. كاد صوتها يكون مسموعاً. أمسكت كتاباً صغيراً في يدها وكانت تقول شيئاً حول عصافير الدوري. غير أنَّ صوتها تضاءل كما لو كان آتياً من أنبوب ضيِّق هشٍّ. قلَّدتها مجموعة من الصبيان الصغار.

استمعا لقليل من الوقت. ثمَّ استدار مارتن من جديد. «تعالي يا سال»، قال وهو يضع يده على كتفها.

أصبحت الأصوات ضعيفة أكثر فأكثر، وسرعان ما توقَّفت كلُّها تماماً. تابعا مشيهما عبر المنحدر الأملس الَّذي تصاعد وهبط كاتِّساع قطعة قماش خضراء مخطَّطة بممرَّات بنّيَّة مستقيمة أمامهما. كانت الكلاب البيض الكبيرة تتقافز، وأشعَّت مياه بحيرة «سيربنتين» عبر الأشجار، وقد جُهِّزت في أرجائها قوارب صغيرة. إنَّ الطابع الحضريَّ للمتنزَّه، وتوهُّج المياه، ومنحنيات والتفافات وتكوين المشهد، كما لو أنَّ شخصاً ما قد صمَّمه، لقد كانت أموراً أثَّرت في مارتن على نحو لطيف.

«العدالة والحرّيَّة»، قال كما لو كان يهمس إلى نفسه، في حين وصلا إلى حافَّة المياه ووقفا للحظة، يراقبان النوارس تقطع الهواء إلى أنماط بِيض حادَّة باستخدام أجنحتها.

«هل وافقتِه الرأي؟»، سأل وهو يمسك بذراع سارة لمساعدتها في النهوض، لأنَّ شفتيها كانتا تتحرَّكان، لقد كانت تتحدَّث إلى نفسها. قال موضِّحاً، «ذاك الرجل البدين الَّذي كان يومئ بذراعه». جفِلت.

«كلَّا، كلَّا، كلَّا!»، صاحت محاكية لهجة شرقي لندن خاصَّته.

أجل، فكَّر مارتن حين تابعا مشيهما. كلا، كلا، كلا، كلا، كلا. لطالما كان الأمر كذلك. لن يكون ثمَّة كثير من العدالة أو الحرّيَّة لأمثاله في حال سارت الأمور كما يرغب الرجل البدين، أو في حال كان جميلاً أيضاً.

«والسيِّدة المسنَّة المسكينة الَّتي لم يستمع إليها أحد وهي تتحدَّث عن عصافير الدوري؟»، قال.

كان لا يزال يستطيع أن يرى، في عين ذهنه، الرجل النحيل يثني إصبعه على نحو مقنع، الرجل البدين الَّذي أومأ بذراعيه فظهرت حمَّالاته، والسيِّدة المسنَّة الضئيلة الَّتي حاولت جعل صوتها مسموعاً مقارنة بنداءات التحرُّش والصفير. كان هناك مزيج من الكوميديا والتراجيديا في المشهد.

غير أنَّهما قد وصلا إلى بوَّابة حدائق «كينسينغتون». توضَّع صفٌّ طويل من السيَّارات والعربات إلى جوار الرصيف. كانت المظلَّات المخطَّطة تُفتح فوق الطاولات المستديرة الصغيرة حيث كان الناس يجلسون بالفعل، منتظرين الشاي خاصَّتهم. كانت النادلات يُسرعنَ داخلات وخارجات محمَّلات بالصواني، لقد بدأ الموسم. كان المشهد سعيداً للغاية.

كانت هناك سيِّدة ترتدي ملابس تواكب الموضة مع قبَّعة تعلوها ريشة أرجوانيَّة متدلّية على جانب واحد من قبَّعتها، وقد جلست تحتسي شراباً مثلَّجاً. غطَّت الشمس الطاولة ومنحتها مظهراً غريباً من الشفافيَّة، كما لو أنَّ السيِّدة كانت عالقة في شبكة من الضوء، كما لو أنَّها كانت مكوَّنة من معيَّنات من الألوان الطافية. ظنَّ مارتن لوهلة أنَّه يعرفها، أوشك أن يرفع قبَّعته. غير أنَّها جلست هناك تنظر أمامها، وترتشف شرابها البارد. كلَّا، فكَّر، إنَّه لا يعرفها، وتوقَّف للحظة بغية إشعال غليونه. كيف سيكون العالم، قال لنفسه -كان لا يزال يفكِّر في شأن الرجل البدين وهو يلوِّح بذراعه- من دون «الأنا» فيه؟ أشعل عود ثقاب. نظر إلى اللَّهب الَّذي كاد يصبح غير مرئيٍّ في الشمس. وقف لثانية يسحب من غليونه. كانت سارة قد واصلت المشي. هي أيضاً منسوجة مع الألوان الطافية من بين أوراق الأشجار. بدا كأنَّ هناك براءة بدائيَّة تكتنف المشهد. أطلقت الطيور تغريداً حلواً متقطِّعاً على الأغصان، وطوَّق زئير لندن المساحة المفتوحة في حلقة من الصوت البعيد، لكن المكتمل. تصاعدت وهبطت أزهار الكستناء

الزهريَّة والبيضاء حين تحرَّكت الأغصان في النسيم. منح ترقيطُ الشمس للأوراق كلَّ شيء مظهراً غريباً من الخيال كما لو أنَّها قُسمت إلى نقاط منفصلة من الضوء. هو أيضاً، نفسه، بدا مبعثراً. كان ذهنه خالياً للحظة. ثمَّ عاد بتفكيره، فألقى عود ثقابه بعيداً، ولحق بسالي.

«تعالي!»، قال، «تعالي... بحيرة راوند عند الساعة الرابعة!».

مشيا في صمت وذراعاهما متشابكتان، على امتداد الجادَّة الطويلة مع وجود القصر والكنيسة الوهميَّة في نهاية أفقه. بدت أحجام الهيئات البشريَّة كما لو أنَّها قد تقلَّصت. كان الأطفال هم الأغلبيَّة الآن بدلاً من الأشخاص مكتملي النموِّ. كثرت الكلاب من جميع الأنواع. كان الجوُّ ممتلئاً بالنباح والصرخات الحادَّة الفجائيَّة. دفعت أسراب من المربِّيات عربات الأطفال على طول الممرَّات. خلد الأطفال بسرعة إلى النوم فيها كصور من الشمع الملوَّن الباهت، وغطَّت أجفانهم الناعمة بمثاليَّة أعينهم كما لو أنَّها ختمتها تماماً. نظر إلى الأسفل، لقد أحبَّ الأطفال. كانت سالي تبدو مثل المرَّة الأولى الَّتي رآها فيها، نائمة في عربتها في صالة شارع «براون».

توقَّف قليلاً. كانا قد وصلا إلى البحيرة.

قال: «أين هي ماغي؟»، «هناك -هل تلك هي؟». أشار إلى سيّدة شابَّة كانت ترفع طفلاً من عربته أسفل شجرة.

«أين؟»، قالت سارة. نظرت في الاتِّجاه الخطأ.

أشار.

«هناك، أسفل الشجرة».

قالت: «أجل، تلك ماغي».

مشيا في ذاك الاتِّجاه.

«إنَّما، هل هي تلك؟»، قال مارتن. كان مترعاً بالشكِّ على نحو مفاجئ، لأنَّها كانت تمتلك لا وعي شخص غير مدركٍ أنَّه يجري النظر إليه. جعلها هذا تبدو

غير مألوفة. أمسكت بالطفل بإحدى يديها، في حين عدَّلت اليد الأخرى وسائدَ العربة. كانت هي أيضاً مرقَّطة بمعيَّنات من الألوان الطافية.

«أجل»، قال وهو يلاحظ أمراً بشأن إيماءاتها، «تلك هي ماغي».

استدارت ورأتهما.

رفعت يدها كما لو كانت ترغب في تحذيريهما كي يقتربا بهدوء. وضعت إصبعاً على شفتيها. اقتربا بصمت. بينما وصلا إليها، كان الصوت البعيد للساعة، الَّتي تدقُّ، آتياً مع النسيم. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة قد دقَّت... ثمَّ توقَّفت.

«التقينا في ساحة الكاتدرائيَّة»، قال مارتن هامساً. سحب كرسيَّين وجلس. كانوا صامتين للحظة. لم يكن الطفل نائماً. ثمَّ انحنت ماغي ونظرت إلى الطفل.

«لا حاجة إلى الحديث بهمس»، قالت بصوت عالٍ، «إنَّه نائم».

«التقينا في ساحة كاتدرائيَّة سانت بول»، أعاد مارتن قوله بصوته العاديِّ، «كنت أقابل سمسار البورصة خاصَّتي»، خلع قبَّعته ووضعها على العشب، «ولَمَّا خرجت، كانت سالي هناك...»، تابع قوله. نظر إليها. تذكَّر أنَّها لم تخبره قطُّ عمَّا كانت تفكِّر فيه بينما كانت واقفة هناك وشفتاها تتحرَّكان على درجات كاتدرائيَّة «سانت بول».

الآن، كانت تتثاءب. بدلاً من أخذ الكرسيِّ الأخضر الَّذي كان قد سحبه لأجلها، ألقت بنفسها على العشب. طوت نفسها مثل جندب واضعة رجليها على شجرة. كان كتاب الصلوات، ذو الأوراق الذهبيَّة والحمراء، موضوعاً على الأرض مظلَّلاً بالأعشاب الطويلة المرتجفة. تثاءبت، تمطَّت. كانت نصف نائمة بالفعل.

سحب كرسيَّه إلى القرب من كرسيِّ ماغي، ونظر إلى المشهد أمامه.

كان متناغماً على نحو مثير للإعجاب. هناك تماثيل بِيض للملكة فيكتوريا على ضفَّة خضراء، أبعد من ذلك، والطوب الأحمر للقصر القديم، وارتقت أبراج الكنيسة الوهميَّة، وشكَّلت بحيرة «راوند» حوضاً من اللَّون الأزرق. كان هناك سباق لليخوت يمضي قدماً. مالت القوارب على جوانبها فلامست أشرعتها الماء. ثمَّة نسيم خفيف لطيف.

«وعمَّ تحدَّثتما؟»، قالت ماغي.

لم يستطع مارتن أن يتذكَّر. «كانت مخمورة قليلاً»، قال وهو يشير إلى سارة، «والآن، ستنام». شعر هو نفسه بالنعاس. لأوَّل مرَّة، كانت الشمس تكاد تكون حارَّة على رأسه.

ثمَّ أجاب عن السؤال.

«عن العالم بأكمله»، قال، «السياسة، الدين، الأخلاقيَّات». تثاءب. كانت طيور النورس تصرخ في حين ارتفعت وغاصت فوق سيِّدة كانت تطعمها. كانت ماغي تراقبها. نظر إليها.

قال: «لم أرَكِ منذ ولادة طفلك». فكَّر في أنَّ هذا قد غيَّرها، إنجاب طفل. لقد حسَّنها، فكَّر. إلَّا أنَّها كانت تراقب النوارس، إذ كانت السيِّدة قد ألقت بحفنة كبيرة من السمك. انزلقت النوارس إلى الأسفل ودارت حول رأسها.

«هل تحبِّين أن يكون لديك طفل؟»، قال.

«أجل»، قالت وهي تُهيِّئ نفسها للإجابة عن سؤاله، «غير أنَّه بمنزلة رابط».

«إنَّما، لطيف امتلاك رابط، أليس كذلك؟»، قال مستفسراً. كان مولعاً بالأطفال. نظر إلى الطفل النائم مع عينيه المغلقتين وإبهامه في فمه.

«هل تريد إنجاب أطفال؟»، سألت.

«هذا ما كنتُ أسأله لنفسي»، قال، «قبل...»

أصدرت سارة قرقعة من مؤخِّرة حنجرتها، وخفض من صوته إلى مستوى الهمس، «قبل أن ألتقيها في سانت بول»، قال. كانا صامتَين. كان الطفل نائماً، وكانت سارة نائمة، وبدا كأنَّ حضور النائمَين قد أحاطهما بحلقة من الخصوصيَّة. كان اثنان من اليخوت المتسابقة يقترب أحدهما من الآخر كما لو أنَّهما سيتصادمان، غير أنَّ أحدهما تجاوز الآخر بقليل. راقبهما مارتن. كانت الحياة قد تابعت نسبها المعتادة. عاد كلُّ شيء إلى موضعه مرَّة أخرى. القوارب تبحر، والرجال يمشون، وتبلَّل الصبيان الصغار في البحيرة بحثاً عن أسماك المنوة، وتموَّجت مياه البركة باللون الأزرق الساطع. كان كلُّ شيء ممتلئاً بإثارة وقوَّة وخصوبة الربيع.

قال بصوت عالٍ على نحو مفاجئ:

«إنَّ حبَّ التملُّك هو الشيطان».

نظرت ماغي إليه. هل كان يعنيها، هي والطفل؟ كلا. كانت هناك نغمة في صوته أخبرتها أنَّه لم يكن يفكِّر فيها.

سألت: «بمَ تفكِّر؟»

«بشأن المرأة الواقع في غرامها»، قال، «ألا تعتقدين أنَّ الحبَّ يجب أن يعتمد على كلا الطرفين في الوقت عينه؟». تحدَّث من دون التشديد على الكلمات، كي لا يوقظ النائمَين. «غير أنَّ هذا لن يحدث -هو ذا الشرّير الصغير»، أضاف بالنبرة الخافتة عينها.

«تشعر بالملل، أليس كذلك؟»، تمتمت.

«إلى حدٍّ كبير»، قال، «أشعر بالملل إلى حدٍّ كبير». انحنى وأزال حصاة مدفونة في العشب.

«وتشعر بالغيرة؟»، تمتمت. كان صوتها خفيضاً وناعماً جدّاً.

«على نحو فظيع»، همس. لقد كانت الحقيقة، الآن وقد أشارت إليها. هنا، أصبح الطفل نصف مستيقظ ويمدُّ يده. هزَّت ماغي العربة. تحرَّكت

سارة. تعرَّضت خصوصيَّتهما للخطر. سوف تُدمَّر في أيِّ لحظة، كما شعر، وقد أراد الحديث.

ألقى نظرةً على النائمَين. كانت عينا الطفل مغلقتين، وعينا سارة أيضاً. بدا كأنَّهما لا يزالان محاطين بحلقة من العزلة. متحدِّثاً بصوت خفيض، ومن دون لكنة، أخبرها قصَّته، قصَّة السيِّدة، وكيف أرادت الحفاظ عليه، وأراد أن يكون حرّاً. لقد كانت قصَّة عاديَّة، غير أنَّها مختلطة بالألم. إنَّما، لَمَّا أخبرها، شعر بأنَّ الأمر لم يعد مؤلماً كما كان قبلاً. جلسا في صمت، ينظران أمامهما.

كان هناك سباق آخر يبدأ، جلس رجال القرفصاء على أطراف البركة، كلٌّ منهم مع عصاه الَّتي تستقرُّ على زورق لعبة. كان مشهداً ساحراً، سعيداً، بريئاً وسخيفاً قليلاً. أُعطيت الإشارة، فانطلقت القوارب. فكَّر مارتن وهو ينظر إلى الطفل النائم، وهل سيمرُّ بالأمر نفسه هو أيضاً؟ لقد كان يفكِّر في شأن نفسه، في شأن غيرته.

«إنَّ والدي»، قال فجأة، إنَّما برقَّة، «كان يعرف سيِّدة... كانت تدعوه بوغي». وأخبرها قصَّة السيِّدة الَّتي كانت تمتلك نُزلاً في «بوتني»، السيِّدة المحترمة جدّاً، الَّتي أضحت سمينةً، وكانت في حاجة إلى مساعدة بخصوص السقف خاصَّتها. ضحكت ماغي، إنَّما بلطافة بالغة، كي لا توقظ النائمَين. كان كلاهما لا يزالان نائمين بعمق.

«هل كان واقعاً في غرام والدتكِ؟»، سألها مارتن.

كانت تنظر إلى النوارس، تقطع بأجنحتها أنماطاً على البعد الأزرق. بدا كأنَّ سؤاله قد غاص عبر ما كانت تراه، ثمَّ وصل إليها على نحو مفاجئ.

«هل نحن شقيقان؟»، قالت وضحكت بصوت عالٍ. فتح الطفل عينيه، وفتح أصابعه المضمومة.

قال مارتن: «لقد أيقظناه». بدأ يبكي. تعيَّن على ماغي أن تهدِّئه. لقد انتهت خصوصيّتهما. بكى الطفل، وبدأت الساعات تدقُّ. هبَّ الصوت بلطافة نحوهما مع النسيم. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

«لقد حان وقت الذهاب»، قالت ماغي، في حين تلاشت الدقَّة الأخيرة. وضعت الطفل على وسادته من جديد، واستدارت. كانت سارة لا تزال نائمة. استلقت مكوَّمة وظهرها إلى الشجرة. انحنى مارتن وألقى عليها غصيناً. فتحت عينيها لكنَّها أغلقتهما من جديد.

«كلَّا، كلَّا»، قالت محتجَّة وهي تمدِّد ذراعيها فوق رأسها.

قالت ماغي: «لقد حان الوقت». رفعت نفسها. «هل حان الوقت؟»، تنهَّدت، «كم هو أمر غريب!»، تمتمت. جلست وفركت عينيها.

صاحت: «مارتن!». نظرت إليه، في حين وقف فوقها مرتدياً بذلته الزرقاء، وممسكاً بعصاه في يده. نظرت إليه كما لو أنَّها كانت تعيده إلى حقل الرؤية.

«مارتن!»، قالت من جديد.

«أجل، مارتن!»، أجاب، «هل سمعتِ ما كنَّا نقوله؟»، سألها.

«مجرَّد أصوات»، تثاءبت وهي تهزُّ رأسها، «أصوات فحسب».

توقَّف للحظة ينظر إليها، إلى الأسفل. «حسناً، سأذهب»، قال وهو يلتقط قبَّعته، «لتناول العشاء مع قريب في ميدان غروسفينور»، أضاف قائلاً، ثمَّ استدار وتركهما.

عاود النظر إليهما بعد أن قطع مسافة قصيرة. كانتا لا تزالان تجلسان إلى جوار عربة الأطفال تحت الأشجار. تابع سيره. ثمَّ عاود النظر من جديد. كانت الأرض قد انحدرت، والأشجار غدت مختفية. كانت ثمَّة سيّدة بدينة للغاية يجذبها على امتداد الطريق كلبٌ صغيرٌ مربوط بسلسلة. لم يعد يستطيع أن يراهما بعد الآن.

كانت الشمس تغرب حين مرَّ عبر المتنزَّه، بعد ساعة أو اثنتين. كان يفكِّر في أنَّه قد نسي أمراً ما، إنَّما، ما هو، لم يعرف. مرَّ مشهد بعد مشهد، كلُّ واحد منها طمس الآخر. الآن، كان يعبر الجسر فوق بحيرة «سيربنتين». أشعَّت المياه بضوء غروب الشمس، واستلقى الضوء القادم من مصابيح أعمدة الإنارة المنحنية على الماء، وهناك، في نهاية المطاف، شكَّل الجسر الأبيض المشهد. دخلت سيَّارة الأجرة في ظلال الأشجار، وانضمَّت إلى الصفِّ الطويل من سيَّارات الأجرة الَّتي كانت تتدفَّق نحو «القوس الرخاميِّ». كان الأشخاص الَّذين يرتدون ملابسَ السهرة يتَّجهون إلى المسرحيَّات والحفلات. أصبح الضوء أصفرَ أكثر شيئاً فشيئاً. كانت الطريق تتحوَّل إلى اللَّون الفضيِّ المعدنيِّ. بدا كلُّ شيء احتفاليّاً.

غير أنَّني سأتأخر، فكَّر، لأنَّ سيَّارة الأجرة كانت عالقة عند حاجز إلى جوار «القوس الرخاميِّ». نظر إلى ساعته، وكانت تشير إلى الساعة الثامنة والنصف. إلَّا أنَّ الساعة الثامنة والنصف تعني الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، فكَّر، في حين تحرَّكت سيَّارة الأجرة. في الواقع، لَمَّا وصل إلى الميدان كانت هناك سيَّارة عند الباب، ورجل ينزل منها. إذاً، أنا على الوقت تماماً، فكَّر، ودفع الأجرة للسائق.

فُتح الباب مباشرة قبل أن يلمس الجرس، كما لو أنَّه قد داس على زنبرك. فُتح الباب، وشرع خادمان يتقدَّمان بغية أخذ أغراضه حين دخل مباشرة إلى الصالة المرصوفة باللونين الأبيض والأسود. تبع رجلاً آخر صعوداً الدرج المهيب المصنوع من الرخام الأبيض، الَّذي يلتفُّ في منحنى. عُلِّقت سلسلة متتالية من الصور الكبيرة الداكنة على الحائط، وفي القمَّة خارج الباب، كانت هناك صورة صفراء وزرقاء لقصور البندقيَّة والقنوات الخُضر الباهتة.

«كاناليتو أم من متَّبعي مدرسته؟»، فكَّر وهو يتوقَّف قليلاً ليدع الرجل الآخر يسبقه. ثمَّ أعطى اسمه للخادم.

«النقيب بارغيتر»، صاح الرجل، وها هي ذي كيتي تقف عند الباب. بدت رسميَّة، مواكبة للموضة، مع لمسة من اللَّون الأحمر على شفتيها. أعطته يدها، غير أنَّه مضى قدماً نظراً لوصول ضيوف آخرين. «صالون؟»، قال لنفسه، لأنَّ الغرفة الَّتي تحوي ثريَّات ولوحات صُفر، والأرائك والكراسي المتناثرة في الأرجاء، كانت تحمل طابع غرفة انتظار متكلّفة. هناك سبعة أو ثمانية أشخاص موجودون بالفعل. لن ينجح الأمر هذه المرَّة، قال لنفسه وهو يثرثر مع مضيفه الَّذي كان منخرطاً في السباق. أشعَّ وجهه كما لو أنَّه قد خرج من تحت أشعَّة الشمس في تلك اللحظة تماماً. يكاد يتوقَّع المرء، فكَّر مارتن، حين وقف يتحدَّث، أن يرى زوجاً من النظَّارات المتدلية حول كتفيه، تماماً كما كانت هناك علامة حمراء حول جبهته حيث كان يعتمر قبَّعته. كلَّا، لن ينجح الأمر، فكَّر مارتن حين تحدَّثا عن الأحصنة. سمع الصبيَّ الَّذي يبيع الجرائد وهو ينادي في الشارع في الأسفل، وصوت تزمير أبواق السيَّارات. لقد حافظ بوضوح على إحساسه بهويَّة الأشياء المختلفة واختلافاتها. حينما يبدأ الحفل، فإنَّ كلَّ الأشياء، كلَّ الأصوات تندمج إلى واحد. نظر إلى امرأة مسنَّة ذات وجه إسفينيِّ الشكل، وحجريِّ اللَّون، تجلس محجوبة في أريكة. نظر إلى لوحة كيتي الَّتي رسمها رسَّامُ لوحات عصريٌّ، حين كان يثرثر، واقفاً على هذه القدم أوّلاً، ثمَّ على تلك، مع الرجل الأشيب ذي العينين الشبيهتين بعينَي الكلب البوليسيِّ، والرجل الحضريِّ الَّذي كانت كيتي قد تزوَّجته بدلاً من إدوارد. ثمَّ جاءت وقدَّمته إلى فتاة ترتدي الأبيض الكامل، وكانت تقف وحيدة واضعة يدها على ظهر الكرسيِّ.

«الآنسة آن هيلير»، قالت، «إنَّها قريبتي أيُّها النقيب بارغيتر».

وقفتْ للحظة إلى جانبهما كما لو أنَّها قد فعلت ذلك بغية تسهيل تعارفهما. غير أنَّها لطالما كانت متصلِّبة قليلاً، لم تفعل أيَّ شيء سوى تحريك مروحتها صعوداً وهبوطاً.

«هل ذهبتِ إلى السباقات يا كيتي؟»، قال مارتن، لأنَّه كان يعرف أنَّها تكره السباقات، ولطالما شعر برغبة في إغاظتها.

«أنا؟ كلَّا، أنا لا أذهب إلى السباقات»، أجابت باقتضاب إلى حدٍّ ما. استدارت مبتعدة لأنَّ شخصاً آخر كان قد جاء -رجل يرتدي الدانتيل الذهبيَّ مع نجمة.

لكنتُ أفضل حالاً لو أنِّي لم آتِ، وقرأتُ في كتابي، فكَّر مارتن.

«هل ذهبتِ إلى السباقات؟»، قال بصوتٍ عالٍ للفتاة الَّتي كان سيأخذها لتناول العشاء. هزَّت رأسها. كانت ذراعاها بيضاوين. فستان أبيض، وعقد من اللؤلؤ. عذريَّة صرفة، قال لنفسه، ومنذ ساعة مضت فحسب كنتُ أستلقي عارياً تماماً في حمَّامي في شارع «إيبوري»، فكَّر.

«كنتُ أشاهد رياضة البولو»، قالت. نظر إلى الأسفل، إلى حذائه، ولاحظ أنَّ هناك طيَّات عبره، لقد كان قديماً، كان ينوي أن يشتري زوجاً جديداً، غير أنَّه قد نسي ذلك. كان هذا هو الأمر الَّذي نسيه، فكَّر، وهو يرى نفسه في سيَّارة الأجرة من جديد، يعبر الجسر فوق بحيرة «سيربنتين».

غير أنَّهما كانا ينزلان لتناول العشاء. أعطاها ذراعه. بينما كانا ينزلان الدرج، راقب هو فساتين السيِّدات أمامه، تتبَّعهنَّ من درجة إلى أخرى، فكَّر، ماذا سأقول لها بحقِّ الإله؟ ثمَّ عبرا المربَّعات البيض والسود، ودخلا غرفة الطعام. لقد كانت مغطَّاة على نحو متناغم، لوحات مع قضبان مغطَّاة من الضوء الذي يشعُّ أسفل اللوحات، وتوهَّجت طاولة العشاء، إنَّما لم يشعَّ أيُّ ضوء على وجوههم مباشرة. فكَّر، وهو ينظر إلى لوحة رجل نبيل ذي معطف قرمزيٍّ ونجمة تدلَّت ساطعة أمامه، إن لم ينجح هذا الأمر فلن أفعله من جديد أبداً. ثمَّ هيّأ نفسه للحديث مع الفتاة البريئة الَّتي جلست إلى جانبه. غير أنَّه اضطرَّ إلى نبذ كلِّ شيء خطر في باله تقريباً، لقد كانت يافعة جدّاً.

«لقد فكَّرتُ في ثلاثة موضوعات لنتحدَّث فيها»، بدأ يقول على نحو مباشر، دون التفكير في الطريقة الَّتي ستنتهي إليها الجملة، «السباق، الباليه الروسيّ، و...»، تردَّد للحظة، «إيرلندا. أيُّها يثير اهتمامكِ؟». فرَدَ منديله.

«رجاءً»، قالت وهي تنحني نحوه قليلاً، «أعد ما قلته».

ضحك. كانت تمتلك طريقة ساحرة في وضع رأسها على جانب واحد والانحناء نحوه.

«دعينا لا نتحدَّث عن أيٍّ منها»، قال، «فلنتحدَّث عن أمر مثير للاهتمام. هل تستمتعين بالحفلات؟»، سألها. كانت تغمس ملعقتها في الحساء خاصَّتها. نظرت إليه حين رفعتها مع عينين بدتا كحجرين مشعّين تحت غشاوة من الماء. إنَّهما مثل قطرتَي زجاج تحت الماء، فكَّر. لقد كانت جميلة على نحو استثنائيٍّ.

إلَّا أنَّني لم أذهب سوى إلى ثلاث حفلات في حياتي!»، قالت. ضحكت ضحكة صغيرة ساحرة.

«لا بُدَّ أنَّكِ تمزحين!»، صاح، «إذاً، هل هذه هي الثالثة، أو الرابعة؟»

استمَع إلى الأصوات في الشارع. كان بإمكانه أن يسمع أصوات أبواق السيَّارات، غير أنَّها ابتعدت كثيراً، كانت تصدر ضوضاء مستمرَّة وهي مسرعة. بدأ الأمر ينجح. أمسك كأسه. فكَّر، حين مُلئت كأسه، في أنَّه يودُّها أن تقول، «يا له من رجل ساحر ذاك الَّذي جلستُ إلى جانبه!»، حين تخلد إلى السرير تلك الليلة.

«هذا هو حفلي الثالث الحقيقيُّ»، قالت، وهي تشدِّد على كلمة «الحقيقيُّ» بطريقة بدت له مثيرة للشفقة قليلاً. لا بُدَّ أنَّها كانت في الحضانة منذ ثلاثة أشهر مضت تتناول الخبز والزُّبد، فكَّر.

قال: «وأنا كنتُ أفكِّر، وأنا أحلق، في أنَّني لن أذهب إلى حفل مرَّة أخرى أبداً». لقد كان هذا صحيحاً، رأى فراغاً في خزانة الكتب. مَن أخذ

كتاب حياة طائر الدُّعْوَيْقة خاصَّتي؟ كان قد فكَّر، وهو يمسك موسى الحلاقة، وأراد أن يبقى ويقرأ، وحيداً. إنَّما الآن، أيُّ جزء صغير من تجربته الواسعة يمكنه أن يقتطعه ويمنحه إيَّاها، تساءل؟

«هل تعيش في لندن؟»، سألت.

«شارع إيبوري»، قال لها. وكانت تعرف شارع «إيبوري»، لأنَّه كان على الطريق نحو «فيكتوريا»، وغالباً ما ذهبت إلى «فيكتوريا» لأنَّهم يمتلكون منزلاً في «ساسِكس».

«والآن، أخبريني»، قال وهو يشعر بأنَّ توتُّر اللقاء الأوَّل ما بينهما قد تلاشى -حين أدارت رأسها بغية الإجابة عن بعض الملاحظات الَّتي قالها الرجل على الطرف الآخر. شعر بالانزعاج. إنَّ النسيج الَّذي كان يبنيه بأكمله قد تحطَّم على الأرض، كلعبة التقاط العيدان الَّتي تحوي عظمة متضعضعة صغيرة معلَّقة على أخرى. كانت آن تتحدَّث كما لو أنَّها قد عرفت الرجل الآخر طيلة حياتها، كان يتمتَّع بشَعر بدا كما لو أنَّ مجرفة قد سُحبت من خلاله، كان يافعاً للغاية. جلس مارتن بصمت. نظر إلى اللوحة الكبيرة في الطرف المقابل. كان هناك خادم يقف تحتها، حجب صفٌّ من الدوارق طيَّات المعطف على الأرض. أكان هذا الإيرل الثالث، أم الرابع؟ سأل نفسه. كان يعرف المعلومات كافة المتعلِّقة بالقرن الثامن عشر، لقد كان الإيرل الرابع الَّذي عقد الزواج العظيم. إنَّما، بعد كلِّ شيء، فكَّر، وهو ينظر إلى كيتي على رأس الطاولة، في أنَّ أسرة ريغبي كانت أسرة أفضل من أسرتهم. ابتسم، أوقف هذه الأفكار. إنَّني أفكِّر في شأن «الأُسر الفضلى» حين أتناول العشاء في مكان كهذا فحسب، فكَّر. نظر إلى اللوحة الأخرى، سيِّدة ترتدي اللون الأخضر البحريَّ، الرسَّام الشهير جينزبورو. إنَّما هنا، التفتت إليه المرأة الجالسة إلى يساره، الليدي مارغريت.

«إنَّني على ثقة بأنَّكَ ستوافقني الرأي أيُّها النقيب بارغيتر»، قالت - لاحظ بأنَّها قد نقَّلت عينيها إلى الاسم المكتوب على بطاقته قبل أن تنطق

به، على الرغم من كونهما قد التقيا مراراً قبلاً- «بأنَّ فِعل ذلك هو أمر شيطانيٌّ».

تحدَّثت بانقضاض كبير إلى درجة أنَّ الشوكة الَّتي أمسكتها منتصبة قد بدت كسلاح كانت توشك أن تهاجمه باستخدامها. أقحم نفسه في محادثتهم. كانت حول الأمور السياسيَّة بالطبع، حول إيرلندا. «أخبرني، ما رأيك؟»، سألت، وشوكتها مستعدَّة. راوده للحظة الوهم المتمثِّل في كونه هو أيضاً كان خلف الكواليس. أُنزلت الشاشة، رُفعت الأضواء، وكان هو أيضاً خلف الكواليس. كان وهماً بالطبع، إذ كانوا يلقون إليه بفتات أطعمتهم، غير أنَّه كان شعوراً لطيفاً طيلة استمراره. أنصت. الآن، كانت تتحدَّث بحزم مع رجل مسنٍّ متميِّز يجلس في نهاية الطاولة. راقبه. كان قد أرخى قناع التسامح الحكيم غير المتناهي على وجهه حين حاضرَت بهم. كان يسوِّي ثلاث قطع من الخبز إلى جانب طبقه كما لو كان يلعب لعبة غامضة صغيرة ذات أهميَّة عميقة. «إذاً»، بدا وكأنَّه يقول، «إذاً»، كما لو أنَّ تلك القطعَ هي أجزاء من مصير إنسانيٍّ كان يمسك به في أصابعه، لا قِطعاً من الخبز. هل يخفي القناع أيَّ شيء، أو لا يخفي شيئاً؟ في أيِّ حال، كان قناعاً مميَّزاً جدّاً. إنَّما هنا، هاجمته الليدي مارغريت أيضاً بشوكتها، ورفع حاجبيه وحرَّك إحدى قطع الخبز قليلاً إلى أحد الجانبين قبل أن يتحدَّث. مال مارتن إلى الأمام كي ينصت.

«لَمَّا كنتُ في إيرلندا، عام ١٨٨٠...»، بدأ حديثه. لقد تحدَّث ببساطة بالغة، كان يقدِّم إليهم ذكرى، سرَد قصَّته على نحو مثاليٍّ، وكانت تحمل معناها من دون أن يكشف أيَّ معلومات سرّيَّة. كان قد لعب دوراً عظيماً. أنصت مارتن بكلِّ اهتمام. أجل، إنَّها جذَّابة. ها نحن أولاء، فكَّر، نستمرُّ من دون توقُّف... مال إلى الأمام في محاولة منه لسماع كلِّ كلمة. إلَّا أنَّه كان واعياً بشأن مقاطعة ما، إذ كانت آن قد التفتت نحوه.

«أخبرني»، -كانت تسأله- «من يكون هو؟». أمالت رأسها إلى اليمين. من الواضح أنَّ لديها انطباعاً بأنَّه كان يعرف الجميع. شعر بالإطراء. نظر على امتداد الطاولة. من يكون؟ شخصاً قد التقاه، خمَّن، شخصاً لم يكن مرتاحاً تماماً.

«أنا أعرفه»، قال، «أنا أعرفه...». كان لديه وجه أبيض ممتلئ إلى حدٍّ ما، وكان منطلقاً بالكلام إلى حدٍّ كبير. باتت السيِّدة الشابَّة المتزوِّجة الَّتي كان يتحدَّث إليها تقول، «لقد فهمت، لقد فهمت»، مع إيماءات خفيفة من رأسها. إلَّا أنَّ نظرة إرهاق طفيفة كانت تعلو وجهها. ليس ثمَّة داعٍ إلى أن تكلِّف نفسكَ كلَّ هذا العناء، يا صديقي الصالح. شعر مارتن بميل إلى قول ذلك له. إنَّها لا تفهم أيَّ كلمة ممَّا تقوله.

«لا أستطيع أن أتذكَّر اسمه غير أنَّني قد التقيته -دعيني أرَ- أين؟ في أكسفورد أو كِمبريدج؟»، قال بصوتٍ عالٍ.

ظهرت نظرة خافتة من التسلية في عينَي آن. كانت قد لمحت الفارق. لقد ربطتهما معاً. ليسوا عالَمَها، كلَّا.

«هل رأيتَ الراقصين الروسيِّين؟»، كانت تقول. كانت موجودة برفقة زوجها اليافع كما بدا. وما هو عالمكِ، فكَّر مارتن، في حين شرعت تنطق بسرعة مخزونها الهزيل من الصفات، «مبهجون»، «مذهلون»، «مدهشون»، وهكذا دواليك. هل كان «ذاك» العالم؟ تأمَّلَ. نظر إلى الطاولة. في أيِّ حال، لم يمتلك أيُّ عالم آخر أيَّ فرصة في مواجهته، فكَّر. وهو عالم جيِّد أيضاً، أضاف، فسيح، كريم، مضياف. وحسن المظهر للغاية. نقَّل نظره من وجه إلى آخر. كان العشاء يوشك أن ينتهي. بدوا جميعاً كما لو أنَّهم قد فُركوا بجلد الشامواه، مثل الأحجار الكريمة، غير أنَّ البريق بدا عميقاً، لقد اخترق الحجر. وكان الحجر محدَّد القطع، لم يكن ثمَّة ضبابيَّة، لم يكن ثمَّة تردُّد. هنا، أوقع خادم يرتدي قفَّازين أبيضين كأساً من النبيذ

وهو يزيل الأطباق. وقعت لطخة حمراء على فستان السيِّدة. غير أنَّها لم تتحرَّك إطلاقاً، بل تابعت حديثها. ثمَّ عدَّلت منديلاً نظيفاً كان قد أُحضر لها واضعة إيَّاه فوق البقعة، دون اكتراث.

فكَّر مارتن، هذا ما يعجبني. لقد أُعجب بذلك. كانت لتضع أصابعها على أنفها وتنفخ كما لو كانت بائعة تفَّاح إن رغبت في ذلك، فكَّر. غير أنَّ آن كانت تتكلَّم.

«ولَمَّا أدَّى تلك القفزة!»، صاحت -رفعت يدها في الهواء بإيماءة محبَّبة- «ثمَّ هبط!». سمحت ليدها بالسقوط على حضنها.

«مدهش!»، قال مارتن موافقاً. فكَّر في أنَّ سمعه قد التقط اللكنة عينها الَّتي سمعها من الشابِّ اليافع الَّذي بدا شعره كأنَّ مجرفة قد مرَّت من خلاله.

«أجل، إنَّ نيجينسكي مدهش»، قال موافقاً، «مدهش»، أعاد قائلاً.

قالت آن: «وقد طلبت إليَّ عمَّتي أن أقابله في حفلٍ».

«عمَّتكِ؟»، قال بصوتٍ عالٍ.

ذكرتْ اسماً معروفاً جدّاً.

«أوه، إنَّها عمَّتكِ إذاً، أليس كذلك؟»، قال. وضعها في موضعها. إذاً، كان ذاك هو عالمها. أراد أن يسألها -لأنَّه وجدها ساحرة بشبابها، ببساطتها- إلَّا أنَّ الأوان كان قد فات. كانت آن تنهض.

بدأ القول: «إنَّني آمل...». حنت رأسها نحوه كما لو أنَّها كانت تتوق إلى البقاء، التقاط كلماته الأخيرة، كلماته القليلة، إلَّا أنَّها لم تستطع ذلك، لأنَّ الليدي لاسودي قد نهضت، وقد حان موعد ذهابها.

نهضت الليدي لاسودي، فنهض الجميع. مدَّدت كلَّ الأثواب الملوَّنة بالورديِّ والرماديِّ والأزرق البحريِّ أنفسها، وللحظة بدت المرأة الطويلة

الَّتي تقف إلى جوار الطاولة مثل لوحة جينزبورو الشهيرة المعلَّقة على الحائط. لم يتبقَّ للطاولة الممتلئة بالمناديل وكؤوس النبيذ سوى الهواء حين غادروها. تجمَّعت السيِّدات للحظة عند الباب، ثمَّ تجاوزتهنَّ السيِّدة المسنَّة الضئيلة الَّتي ترتدي اللَّون الأسود وهي تعرج بكرامة ملحوظة، ووضعت كيتي، الَّتي أتت أخيراً، ذراعها حول كتف آن وقادتها إلى الخارج. أُغلق الباب على السيِّدات.

توقَّفت كيتي للحظة.

«آمل أنَّكِ قد أحببتِ قريبي المسنَّ؟»، قالت لآن حين صعدتا إلى الطابق العلويِّ معاً. وضعت يدها على فستانها وسوَّت شيئاً حين تجاوزتا المرآة.

«أعتقد أنَّه كان ساحراً!»، صاحت آن، «ويا لها من شجرة جميلة!». تحدَّثت عن مارتن وعن الشجرة بالنغمة عينها تماماً. توقَّفتا للحظة بغية النظر إلى شجرة كانت مغطَّاة بالبراعم الورديَّة في حوض خزفيٍّ يتوضَّع عند الباب. كانت بعض الأزهار قد تشكَّلت بالكامل، في حين لم يتفتَّح بعضها الآخر. بينما كانتا تنظران، سقطت بتلة.

«إنَّ لمن الوحشيِّ إبقاءها هنا، في هذا الجوِّ الحارِّ»، قالت كيتي.

دخلتا. بينما تناولنَ العشاء كان الخدم قد فتحوا الأبواب القابلة للطيِّ وأشعلوا الأضواء في غرفة بعيدة بحيث بدا كأنّهنَّ دخلنَ غرفة أخرى مُهيِّئة حديثاً لأجلهنَّ. كانت هناك نار كبيرة تتوهَّج بين مسندين فخمين للخشب المشتعل، غير أنَّها بدت ودوداً وتزيينيَّة بدلاً من كونها حارَّة. وقفت سيِّدتان أو ثلاث أمامها، يفتحنَ ويغلقنَ أصابعهنَّ في حين يمددنَها نحو الوهج، إلَّا أنَّهنَّ استدرنَ بغية الإفساح في المجال للمضيفة.

«لكَم أحبُّ صورتكِ تلك يا كيتي!»، قالت السيِّدة أيسلابي وهي تنظر إلى الأعلى نحو لوحة لليدي لاسودي حين كانت شابَّة يافعة. كان شعرها

أحمرَ اللَّون جدّاً في تلك الأيَّام، كانت تلاعب سلَّة من الورد. بدت ناريَّة لكن رقيقة وهي تنبثق من سحابة من قماش الموسلين الأبيض.

نظرت كيتي إليها ثمَّ استدارت مبتعدة.

قالت: «إنَّ المرء لا يحبُّ صوره الخاصَّة على الإطلاق».

«إلَّا أنَّها صورتكِ!»، قالت سيِّدة أخرى.

«ليس الآن»، قالت كيتي وهي تتجاوز الإطراء ضاحكة على نحو غريب إلى حدٍّ ما. فكَّرت في أنَّه دائماً بعد العشاء تقدِّم النساء الإطراءات المتعلِّقة بملابسهنَّ أو مظهرهنَّ لبعضهنَّ بعضاً. لم تحبَّ أن تبقى بمفردها مع النساء بعد العشاء، لقد جعلها هذا تشعر بالحياء. وقفت هناك، منتصبة القامة بينهنَّ، في حين تجوَّل الخدم في الأرجاء محمَّلين بصواني القهوة.

«بالمناسبة، آمل أنَّ النبيذ...»، توقَّفت قليلاً وصبَّت القهوة لنفسها، «لم يخلِّف بقعة على فستانكِ يا سينثيا؟»، قالت مخاطبة المرأة الشابَّة المتزوِّجة الَّتي استقبلت الكارثة بهدوء بالغ.

«ويا له من فستان جميل»، قالت الليدي مارغريت، وهي تداعب طيَّات الساتان الذهبيِّ بين إصبعها وإبهامها.

قالت السيِّدة الشابَّة: «هل يعجبكِ؟».

«إنَّه جميل على نحو مثاليٍّ! كنتُ أنظر إليه طيلة فترة المساء!»، قالت السيِّدة ترايز، امرأة شرقيَّة المظهر، مع وجود ريشة تطفو من رأسها في تناغم مع أنفها، الَّذي كان كأنوف اليهود.

نظرت كيتي إليهنَّ مبدية إعجابها بالفستان الجميل. فكَّرت في أنَّ إليانور كانت لتخلعه. لقد رفضت دعوتها إلى العشاء. أزعجها هذا الأمر.

«أخبريني»، قاطعت الليدي سينثيا تفكيرها قائلة، «مَن كان الرجل الَّذي جلستُ إلى جانبه؟ دائماً ما يلتقي المرء أشخاصاً مثيرين للاهتمام في منزلكِ»، أضافت.

قالت كيتي: «الرجل الَّذي جلستِ إلى جانبه؟»، فكَّرت للحظة، «إنَّه توني آشتون».

«هل هو ذاك الرجل الَّذي كان يحاضر في الشعر الفرنسيِّ في بيت مورتيمر؟»، انضمَّت السيِّدة أيسلابي إلى الحوار، «كنتُ أتوق إلى الذهاب إلى تلك المحاضرات. سمعتُ أنَّها مثيرة للاهتمام على نحو رائع».

«لقد ذهبت ميلدريد»، قالت السيِّدة ترايِر.

«لِمَ علينا الوقوف جميعاً؟»، قالت كيتي. أدَّت حركة بيديها نحو المقاعد. كانت تفعل أموراً كهذه على نحو مباغت جدّاً إلى درجة أنَّهم أطلقوا عليها، من وراء ظهرها، «رامية القنابل اليدويَّة». تحرَّكنَ جميعاً في هذا الاتِّجاه وذاك، وهي نفسها، بعد رؤية توزيع الأزواج لأنفسهنَّ، جلست إلى جوار العمَّة واربورتون المسنَّة، الَّتي اعتلت الكرسيَّ الكبير.

«احكي لي عن ابني الروحيِّ المبهج»، بدأت السيِّدة المسنَّة الحديث. كانت تعني ابن كيتي الثاني، الَّذي كان مع الأسطول في مالطا.

«إنَّه في مالطا...»، شرعت تقول. جلست على كرسيٍّ منخفض وأخذت تجيب عن أسئلتها. غير أنَّ النار كانت بالغة الحرارة بالنسبة إلى العمَّة واربورتون. رفعت يدها المجعَّدة المسنَّة.

«إنَّ بريستلي يرغب في شيِّنا أحياء جميعاً»، قالت كيتي. نهضت وذهبت إلى النافذة. ابتسمت السيِّدات حين تمشَّت بخطىً واسعة عبر الغرفة، وفتحت الجزء العلويَّ من النافذة الطويلة. للحظة فحسب، بينما ابتعدت الستائر عن بعضها، نظرت إلى الميدان في الخارج. كان هناك تناثر من ظلِّ الأوراق وضوء المصباح على الرصيف، كان الشرطيُّ المعتاد يوازن نفسه وهو يقوم بدوريَّته، وكلٌّ من الرجال والنساء الضئيلين المعتادين، وهم يبدون مقزَّمين من هذه المسافة، أسرعوا مشياً على امتداد الدرابزين. وكذلك رأتهم يسرعون في الاتِّجاه المعاكس حين كانت تغسل أسنانها في الصباح. ثمَّ عادت

وجلست على الكرسيِّ القصير إلى جانب العمَّة واربورتون المسنَّة. كانت السيِّدة المسنَّة الخبيرة بشؤون الناس صادقة، بطريقتها الخاصَّة.

«والشرِّير الصغير ذو الشَّعر الأحمر الَّذي أحبُّه؟»، سألت. لقد كان المفضَّل لديها، الصبيُّ الصغير في «إيتون».

«لقد وقع في المشكلات»، قالت كيتي، «عُوقب ضرباً بالسوط». ابتسمت. لقد كان المفضَّل لديها أيضاً.

ابتسمت السيِّدة المسنَّة. لقد أحبَّت الصبيان الَّذين يقعون في المشكلات. كانت تمتلك وجهاً أصفرَ اللَّون، إسفينيَّ الشكل مع وجود شعرات عرضيَّة على ذقنها، وكانت تتجاوز الثمانين من عمرها، إلَّا أنَّها جلست كما لو كانت تمتطي حصان صيد، فكَّرت كيتي، وهي تنظر إلى يديها. كانت تمتلك يدين خشنتين، لهما براجم أصابع كبيرة. أشعَّت ومضات حُمر وبيض من خواتمها حين حرَّكتها.

«وأنتِ يا عزيزتي»، قالت السيِّدة المسنَّة وهي تنظر إليها بدهاء من تحت حاجبيها الكثيفين، «مشغولة كالمعتاد؟».

«أجل. بالقدر المعتاد»، قالت كيتي، متجنِّبة العينين الفطنتين المسنَّتين، نظراً لكونها كانت تفعل أموراً خلسة لم تكن السيِّدات الموجودات هناك ليوافقنَ عليها.

كنَّ يثرثرنَ مع بعضهنَّ بعضاً. إنَّما، على الرَّغم من أنَّها بدت ثرثرة مفعمة بالحيويَّة، إلَّا أنَّها افتقرت إلى الفحوى بالنسبة إلى أذن كيتي. كان حديثاً أشبه بقذف الريشة جيئة وذهاباً، بغية إبقاء الحديث مستمرّاً إلى أن فُتح الباب ودخل السادة. ثمَّ توقَّف الحديث. كانوا يتحدَّثون عن الانتخابات الفرعيَّة. كان في مقدورها سماع الليدي مارغريت تسرد قصَّة ما افترضت بأنَّها كانت فظَّة إلى حدٍّ ما، بالنسبة إلى القرن الثامن عشر، نظراً لكونها قد خفضت من صوتها.

كان بإمكانها أن تسمعها تقول، «... قلبَها رأساً على عقب وصفعها». كانت هناك مجموعة من الضحكات نصف المكبوتة.

«إنَّني بالغة السعادة لأنَّه قد دخل على الرَّغم منهم»، قالت السيِّدة ترايِر. ثمَّ خفضنَ أصواتهنَّ.

قالت العمَّة واربورتون وهي ترفع إحدى يديها المجعَّدتين إلى كتفها: «إنَّني امرأة عجوز مُتعِبة، غير أنَّني سأطلب إليكِ الآن أن تغلقي تلك النافذة». لقد كان تيَّار الهواء يُؤثِّر في مفصلها المصاب بالروماتيزم.

تمشَّت كيتي نحو النافذة، «اللعنة على هؤلاء النسوة!»، قالت لنفسها. أمسكت بالعصا الطويلة الَّتي تنتهي بمقبض معقوف ووقفت أمام النافذة ولكزتها، إلَّا أنَّ النافذة كانت عالقة. لكَم كانت تحبُّ أن تجرِّدهنَّ من ملابسهنَّ، من حليِّهنَّ، من دسائسهنَّ، من نميمتهنَّ. انغلقت النافذة بعد أن هزَّتها قليلاً. ها هي ذي آن تقف في الأرجاء ولا أحد معها تتحدَّث إليه.

«تعالي وتحدَّثي إلينا يا آن»، قالت وهي تومئ إليها. وضعت آن مسنداً للأقدام وجلست عند قدمَي العمَّة واربورتون. ساد صمت قصير. لقد كرهت العمَّة واربورتون المسنَّة الشابات اليافعات، غير أنَّهما كانتا تمتلكان روابط مشتركة.

«أين هو تيمي يا آن؟»، سألت.

«في هارو»، قالت آن.

«آه، لطالما ذهبتم إلى هارو»، قالت العمَّة واربورتون. ثمَّ عمدت السيِّدة المسنَّة، الَّتي تمتَّعت بتربية حسنة حاكت أمراً أقرب ما يكون إلى الصدَقَة البشريَّة، إلى إطراء الفتاة، مشبِّهة إيَّاها بجدَّتها، الَّتي كانت مشهورة بجمالها.

«لكم وددتُ لو عرفتها!»، صاحت آن، «أخبريني، أيَّ نوع من الأشخاص كانت؟»

بدأت السيِّدة المسنَّة تنتقي خياراً من ذكرياتها، لقد كان مجرَّد خيار، نسخة تحوي أجزاءً محذوفة، لأنَّها كانت قصَّة يكاد بالإمكان قصُّها على فتاة ترتدي قماش الساتان الأبيض. سرح ذهن كيتي. لو بقي تشارلز لمدَّة أطول في الطابق السفليِّ، فكَّرت وهي تنظر إلى الساعة، فسوف يفوتها قطارها. هل يمكن الثقة بريستلي كي يهمس برسالة في أذنيه؟ ستمنحهم عشر دقائق إضافيَّة، التفتت إلى العمَّة واربورتون مجدَّداً.

«لا بُدَّ أنَّها كانت مذهلة!»، كانت آن تقول. جلست ويداها متشابكتان حول ركبتيها وتنظر إلى الأعلى في وجه الأرملة العجوز المشعرة. شعرت كيتي بلحظة من الشفقة. سيصبح وجهها كوجوههنَّ، فكَّرت وهي تنظر إلى المجموعة الصغيرة في الطرف الآخر من الغرفة. لقد بدت وجوههنَّ مرهقة، قلقة، وتحرَّكت أيديهنَّ باضطراب. غير أنَّهنَّ كنَّ، وعلى الرَّغم من ذلك، شجاعات وكريمات، فكَّرت. لقد منحن بقدر ما أخذن. هل كانت إليانور تمتلك أيَّ حقٍّ لاحتقارهنَّ بعد كلِّ شيء؟ هل فعلت في حياتها أكثر مما فعلته مارغريت ماربل؟ وأنا؟ فكَّرت. وأنا؟ من على حق؟ فكَّرت. من على خطأ؟... لحسن الحظ، فُتح الباب هنا.

دخل السادة. كانوا يدخلون بتردُّد، على نحو بطيء تقريباً، كما لو كانوا قد توقَّفوا عن الحديث توّاً، واضطرُّوا إلى تغيير سلوكاتهم بما يتناسب مع غرفة المعيشة. كانوا متورِّدين قليلاً ومازالوا يضحكون، كما لو أنَّهم قد توقَّفوا في منتصف ما كانوا يقولونه. تقدَّموا، وتحرَّك الرجل المسنُّ المميَّز عبر الغرفة على نحو مماثل لسفينة تشقُّ طريقها نحو الميناء، وتحرّكت جميع السيِّدات دون أن ينهضنَ. لقد انتهت اللّعبة، وُضع المضرب والريشة بعيداً. كنَّ يشبهنَ نوارس تستقرُّ على سمكة، فكَّرت كيتي. كان هناك نهوض وتجوُّل. سمح الرجل العجوز لنفسه بالجلوس ببطء على كرسيٍّ بالقرب من صديقته المسنَّة الليدي واربورتون. وضع أطراف أصابعه على بعضها بعضاً وبدأ القول، «حسناً...؟»، كما لو كان يكمل حواراً تُرك

غير منتهٍ في الليلة السابقة. أجل، فكَّرت، كان هناك أمر ما يتعلَّق بالزوجين العجوزين وهما يتحدَّثان كما لو كانا قد تبادلا الكلام على مدى السنوات الخمسين الماضية... هل كان أمراً إنسانيّاً؟ متحضّراً؟ لم تستطع أن تجد الكلمة الَّتي أرادتها. لقد كان الجميع يتحدَّث. كانوا جميعاً قد استقرُّوا بغية إضافة جملة أخرى إلى القصَّة الَّتي أوشكت أن تنتهي، أو في منتصفها، أو توشك أن تبدأ.

إنَّما، ها هو ذا توني آشتون يقف بمفرده دون امتلاك جملة لإضافتها إلى القصَّة. لهذا السبب، اتَّجهت نحوه.

«هل رأيتِ إدوارد مؤخَّراً؟»، سألها كالمعتاد.

«أجل، اليوم»، قالت، «لقد تناولتُ الغداء معه. تمشَّينا في المتنزَّه...». توقَّفت عن الحديث. كانا قد تمشَّيا في المتنزَّه. كان هناك طائر سُمانى يغرِّد، فتوقَّفا بغية الاستماع إليه. «هذا هو طائر السُّمانى الحكيم الَّذي يغرِّد كلَّ لحن مرَّتين متواليتين...»، كان قد قال. سألَته ببراءة، «أيفعل ذلك؟». كان هذا اقتباساً.

لقد شعرَت بالحماقة، لطالما جعلتها «أكسفورد» تشعر بالحماقة. كانت تبغض «أكسفورد»، وعلى الرغم من ذلك فقد احترمت إدوارد وتوني أيضاً، فكَّرت وهي تنظر إليه. متعجرف في الظاهر، باحث في العمق... كانا يمتلكان مبدأ... غير أنَّها عادت بتفكيرها.

لَكَم كان يرغب في التحدُّث إلى امرأة ذكيَّة، السيِّدة أيسلابي، أو مارغريت ماربل. غير أنَّ كلتيهما كانت مخطوبة، كلتيهما كانت تضيف جملاً ذات حيويَّة هائلة. ساد صمت قصير. لم تكن مضيفة جيِّدة، تأمَّلت، لطالما حدث هذا النوع من العقبات في حفلاتها. كانت هناك آن، يوشك شابٌّ كانت تعرفه أن يأسر آن. غير أنَّ كيتي أومأت إليها. جاءت آن على نحو فوريٍّ وخاضع.

قالت: «تعالي كي تُقدَّمي إلى السيِّد آشتون. لقد كان يُحاضر في بيت مورتيمر»، شرحت، «حول...». تردَّدت.

«مالارميه»، قال مصدراً صريره الخفيف الغريب، كما لو أنَّ صوته قد انكمش.

استدارت كيتي. أتى مارتن إليها.

«يا له من حفل رائع أيَّتها الليدي لاسودي!»، قال بسخريته المملَّة المعتادة.

قالت بفظاظة: «هذه؟ أوه، كلَّا على الإطلاق». لم يكن ذلك حفلاً. لم تكن حفلاتها رائعة قطُّ. كان مارتن يحاول إغاظتها كما هو معتاد. نظرت إلى الأسفل ورأت حذاءه البالي.

«تعالَ وتحدَّث معي»، قالت وهي تشعر بعودة العاطفة الأسريَّة القديمة. لاحظت باستمتاع أنَّه كان متورِّداً قليلاً، وأنَّه، كما اعتادت الممرضات أن يقلنَ، «يضع نفسه في مكانة أعلى من مكانته الحقيقيَّة»، قليلاً. تساءلت كم «حفلاً» سيتطلَّب الأمر بغية تحويل قريبها الساخر المتصلِّب إلى عضو خاضع في المجتمع؟

«فلنجلس ونتحدَّث بعقلانيَّة»، قالت وهي تغوص في الأريكة الصغيرة. جلس إلى جانبها.

سألت: «أخبرني كيف هي حال نيل؟»

«إنَّها ترسل محبَّتها»، قال مارتن، «أخبرتني أن أقول كم كانت ترغب في رؤيتكِ».

«إذاً، لِمَ لَمْ تأتِ الليلة؟»، سألت كيتي. كانت تشعر بالإهانة. لم يكن في مقدورها فعل شيء حيال ذلك.

«لم يكن لديها النوع المناسب من دبابيس الشعر»، قال ضاحكاً وهو ينظر إلى حذائه. خفضت كيتي نظرها نحو حذائه أيضاً.

«إنَّ حذائي غير مهمٍّ، كما ترين»، قال، «غير أنَّني رجل».

«هذا محض هراء...»، بدأت كيتي القول، «ما الَّذي يهمُّ...»

غير أنَّه كان ينظر من حوله إلى مجموعات من النساء اللواتي يرتدينَ ملابس جميلة، ثمَّ إلى الصورة.

«إنَّها لوحة مروّعة لكِ فوق رفِّ الموقد»، قال وهو ينظر إلى لوحة الفتاة ذات الشعر الأحمر، «من الذي رسمها؟».

قالت: «لقد نسيت... دعنا لا ننظر إليها».

«فلنتحدَّث...»، ثمَّ توقَّفت.

كان ينظر في أنحاء الغرفة. تبدو مكتظَّة، وهناك طاولات صغيرة تعلوها صور، خزانات مزخرفة تحوي زُهريَّات من الأزهار، وألواحٌ من الديباج الأصفر تُركت تنسدل على الجدران. شعرت بأنَّه كان ينتقد الغرفة وينتقدها هي أيضاً.

قالت: «لطالما رغبتُ في إحضار سكِّين وكشطِ كلِّ شيء». غير أنَّها فكَّرت، وما النفع؟ إن حرَّكَت لوحة لكان زوجها قال، «أين العمُّ بيل على الجواد المسنِّ ذي القوائم القصيرة؟»، ولا بُدَّ أن تُعلَّق مرَّة أخرى.

تابعت القول: «إنَّها تبدو مثل فندق، أليس كذلك؟».

«صالون»، علَّق. لم يكن يعلم لِمَ رغب في أذيَّتها على الدوام، غير أنَّه فعل، وكان هذا أمراً واقعاً.

«كنتُ أسأل نفسي»، خفض من صوته، «لِمَ تضعين صورة كهذه» -أومأ برأسه إلى اللوحة- «في حين يمتلكون لوحة لجينزبورو...»

«ولِمَ»، خفضت من صوتها، محاكية نغمته الَّتي كانت نصف احتقاريَّة، ونصف فكاهيَّة، «تأتي وتتناول طعامهم في حين أنَّكَ تبغضهم؟»

«إنَّني لا أبغضهم! على الإطلاق!»، صاح، «إنَّني مستمتع إلى حدٍّ هائل. أنا أحبُّ رؤيتكِ يا كيتي»، أضاف قائلاً. كانت هذه حقيقة،

فلطالما كان معجباً بها. «أنتِ لم تتخلّي عن أقاربكِ الفقراء. هذا لطف بالغ من قِبلكِ».

«إنَّهم هم من تخلَّوا عنِّي»، قالت.

«أوه، إليانور»، قال، «إنَّها سيِّدة مسنَّة غريبة».

«إنَّ الأمر كلَّه...»، بدأت كيتي القول. غير أنَّه كان ثمَّة خَطب يتعلَّق بتنظيم حفلها. توقَّفت في منتصف جملتها. «يجب أن تأتي وتتحدَّث إلى السيِّدة ترايز»، قالت وهي تنهض.

لِمَ يفعل المرء هذا؟ تساءل وهو يتبعها. لقد كان يرغب في الحديث مع كيتي، لم يكن لديه ما يقوله لتلك المرأة العجوز ذات المظهر الشرقيِّ وريشة الدرَّاج الَّتي تطفو في مؤخِّرة رأسها. على الرَّغم من ذلك، إن احتسيت نبيذ الكونتيسة النبيلة الشهيَّ، قال وهو ينحني، فحينها عليكَ بتسلية أصدقائها المرغوبين على نحو أقلَّ. مشى أمامها كما لو كان يقتادها.

عادت كيتي نحو الموقد. حرَّكت الفحم قليلاً، وانطلقت الشرارات متسارعة أعلى المدخنة. كانت مُنفعلة، وكانت مضطربة. كان الوقت يمرُّ، ولو بقيا لوقت أطول فسوف يفوتها قطارها. لاحظت، خلسة، أنَّ عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة تقريباً.

ألقت نظرة على المجموعات الَّتي بدت ثابتة. ثمَّ دقَّت الساعة سلسلة متتالية من الدقَّات الصغيرة العنيفة، فُتح الباب مع آخرها وتقدَّم بريستلي، بعينَي كبير الخدم الغامضتين، اللتين يتمتَّع بهما، وسبَّابته المعقوفة، ثمَّ استدعى آن هيلير.

«إنَّها ماما، تستدعيني»، قالت آن وهي تتقدَّم في الغرفة برفرفة خفيفة.

«هل ستصطحبكِ؟»، قالت كيتي. أمسكت بيدها للحظة. لماذا؟ سألَت نفسها، وهي تنظر إلى الوجه المحبَّب، الخالي من المعنى، أو الشخصيَّة، كورقة لم يُكتب عليها أيُّ شيء سوى الشباب. أمسكت بيدها للحظة.

«أيتعيَّن عليكِ الذهاب؟»، قالت.

«أخشى أنَّه يجب أن أفعل»، قالت آن وهي تسحب يدها.

كان هناك نهوض وحركة عامَّة، كرفرفة من نوارس بيضاء الجناحين.

«هل ستأتي معنا؟»، سمع مارتن آن وهي تقول للشابِّ الَّذي بدت كأنَّ مجرفة قد مرَّت عبر شعره. استدارا بغية المغادرة معاً. ومرَّت إلى جوار مارتن، الَّذي وقف ويده ممدودة، فمنحته آن أخفَّ انحناءة ممكنة من رأسها، كما لو أنَّ صورته قد مُسحت بالفعل من ذهنها. كان محطَّماً، لقد كان شعوره لا يتناسب إطلاقاً مع الموضوع. شعر برغبة قويَّة في الذهاب معهما، أينما كان ذاك المكان. غير أنَّه لم يُدعَ، لقد دُعي آشتون، وكان يسير في عقبيهما.

«يا له من يوم!»، فكَّر لنفسه بمرارة فاجأته. كان مقدار الغيرة الَّتي شعر بها للحظة أمراً غريباً. بدا كأنَّهم جميعاً كانوا «يتابعون طريقهم». تسكَّع في الأرجاء على نحو غريب قليلاً. لم يتبقَّ سوى الأشخاصِ المملِّين من كبار السنِّ، كلَّا، حتَّى الرجل العجوز كان يتابع طريقه، كما بدا. لم تتبقَّ سوى السيِّدة المسنَّة. كانت تعرج في أنحاء الغرفة مستندةً إلى ذراع لاسودي. لقد أرادت أن تتأكَّد من أمر كانت تقوله حول الـمُنَمْنَمات. كانت لاسودي قد أزالتها من الجدار، أمسكتها تحت المصباح كي تتمكَّن من النطق بحكمها. أكان الجدُّ هو من يمتطي الحصانَ ذا القوائم القصيرة، أم كان العمّ ويليام؟

قالت كيتي: «اجلس يا مارتن، دعنا نتحدَّث». جلس، غير أنَّ شعوراً انتابه بأنَّها أرادته أن يذهب. لقد رآها وهي تسترق النظر إلى الساعة. ثرثرا للحظة. أمَّا الآن، فقد عادت السيِّدة المسنَّة، كانت تثبت، بما لا يدع مجالاً للشكِّ، من مخزون الحكايات الفذِّ خاصَّتها، بأنَّه لا بُدَّ أنَّ العمَّ ويليام هو من كان يمتطي الحصان ذا القوائم القصيرة، لا الجدَّ. كانت ذاهبة. غير أنَّها قد أخذت وقتها. انتظر مارتن إلى أن وصلَت تقريباً إلى

المدخل، وهي تستند إلى ذراع ابن أختها. تردَّد، كانا بمفردهما الآن، هل عليه البقاء، أو عليه الذهاب؟ غير أنَّ كيتي كانت واقفة. كانت تمدُّ يدها.

«تعالَ مرَّة أخرى عمَّا قريب وقابلني على انفراد»، قالت. لقد صرفته، فغادر.

هذا ما يقوله الناس دائماً، قال لنفسه حين شقَّ طريقه ببطء نزولاً إلى الطابق السفليِّ خلف الليدي واربورتون. تعالَ من جديد، إنَّما لا أعلم إن كان عليَّ فعل ذلك... نزلت الليدي واربورتون الدرج مثل سلطعون، تتمسَّك بالدرابزين بإحدى يديها، وبذراع لاسودي باليد الأخرى. تباطأ خلفها. نظر إلى لوحة كاناليتو مرَّة أخرى. إنَّها لوحة جميلة: غير أنَّها كانت نسخة، فكَّر في نفسه. أطلَّ من خلال الدرابزين ورأى البلاط الأبيض والأسود على أرضيَّة الصالة في الأسفل.

لقد نجح الأمر بالفعل، قال لنفسه وهو يهبط درجة تلو الأخرى نحو الصالة. على نحو متقطِّع، بالتناوب. إنَّما، هل كان الأمر يستحقُّ كلَّ هذا العناء؟ سأل نفسه، وهو يسمح للخادم بمساعدته في ارتداء معطفه. فُتح الباب المزدوج على مصراعيه نحو الشارع. كان هناك شخص أو اثنان يمرَّان، ألقيا نظرة إلى الداخل بفضول، ينظران إلى الخادم، إلى الصالة الساطعة الكبيرة، وإلى السيِّدة المسنَّة الَّتي توقَّفت للحظة على المربَّعات البيض والسود. كانت تُلبس نفسها. الآن، كانت تأخذ معطفها ذا الشقِّ البنفسجيِّ فيه، الآن، الفرو خاصَّتها. تدلَّت حقيبة من معصمها. كانت ترتدي الكثير من السلاسل، وأصابعها مجعَّدة بسبب خواتمها. أطلَّ وجهها الحادُّ ذو اللَّون الحجريِّ، الممتلئ بالخطوط والمجعَّد في شكل طيَّات، من عشِّه الناعم المكوَّن من الفرو والأربطة. كانت العينان لا تزالان ساطعتين.

سيخلد القرن التاسع عشر إلى النوم، قال مارتن لنفسه حين شاهدها تعرج نزولاً على الدرجات متَّكئةً على ذراع خادمها. تلقَّت المساعدة للصعود في عربتها. ثمَّ صافح يد ذاك الرفيق الصالح، مضيفه،

الَّذي كان قد شرب من النبيذ ما يتناسب مع مصلحته تماماً، ومشى عبر ميدان «غروسفينور».

كانت باكستر، خادمة كيتي، تنظر من النافذة في الطابق العلويّ في غرفة النوم الواقعة في أعلى المنزل، مراقبة الضيوف وهم يقودون مبتعدين. ذاك، ها هي ذي السيِّدة المسنَّة تنطلق. تمنَّت لو أنَّهم يسرعون، لو كان الحفل قد استمرَّ لوقت أطول، لكان أمر الرحلة القصيرة خاصَّتها قد انتهى. كانت ستسير وصولاً إلى النهر غداً مع صديقها اليافع. استدارت ونظرت في محيطها. كانت قد أعدَّت كلَّ شيء، معطف السيِّدة خاصَّتها، التنّورة، والحقيبة مع البطاقة في داخلها. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بكثير. وقفت منتظرة عند طاولة الزينة. عكست المرآة المقسَّمة إلى ثلاثة أجزاء الأواني الفضيَّة، نفحات البودرة، الأمشاط والفرش. انحنت باكستر إلى الأسفل وابتسمت لنفسها في المرآة -هكذا ستبدو حين تذهب إلى النهر- ثمَّ سحبت نفسها إلى الأعلى، سمعت خطوات أقدام في الممرِّ. كانت سيِّدتها قادمة. هي ذي.

دخلت الليدي لاسودي تسحب الخواتم من أصابعها. «المعذرة على التأخُّر الكبير يا باكستر»، قالت، «الآن، عليَّ أن أسرع».

حلَّت باكستر فستانها، من دون أن تتكلَّم، زلقته نحو قُدميها على نحو بارع، وحملته بعيداً. جلست كيتي على منضدة زينتها وركلت حذاءها لتخلعه من قدميها. لطالما كانت الأحذية الساتانيَّة ضيِّقة للغاية. نظرت إلى الساعة على منضدة الزينة خاصَّتها. لقد أدركت الوقت توّاً.

كانت باكستر تناولها معطفها. الآن، كانت تناولها حقيبتها.

«إنَّ التذكرة في الداخل يا سيِّدتي»، قالت وهي تلمس الحقيبة.

قالت كيتي: «والآن، قبَّعتي». انحنت بغية تعديلها أمام المرآة. لقد جعلتها قبَّعة السفر الصغيرة المصنوعة من نسيج التويد والمتَّزنة على قمَّة

شعرها تبدو كشخص مختلف تماماً، الشخص الَّذي كانت تحبُّ أن تكونه. وقفت مرتدية فستان السفر خاصَّتها، متسائلةً إن كانت قد نسيت أيَّ شيء. كان ذهنها خالياً تماماً للحظة. أين أنا؟ تساءلت. ما الَّذي أفعله؟ إلى أين أنا ذاهبة؟ ثبَّتت عينيها نفسيهما على منضدة الزينة، وتذكَّرت بإبهام غرفة أخرى، وزماناً آخرَ حين كانت فتاة صغيرة. كان ذلك في «أكسفورد»، أليس كذلك؟

«التذكرة يا باكستر؟»، قالت على نحو مملٍّ.

«إنَّها في حقيبتكِ يا سيِّدتي»، ذكَّرتها باكستر. كانت تمسكها في يدها.

قالت كيتي وهي تنظر من حولها: «إذاً، هذا كلُّ شيء».

شعرت للحظة بوخز الضمير.

«شكراً لكِ يا باكستر»، قالت، «آمل أن تستمتعي بــ...»، تردَّدت -إذ لم تكن تعرف ما الَّذي تفعله باكستر في يوم عطلتها- «... مسرحيَّتكِ»، قالت في مغامرة منها. ابتسمت باكستر ابتسامة صغيرة مُتجاهِلة غريبة. لقد كانت كيتي تشعر بالإزعاج من الخادمات ولطفهنَّ الرزين، ووجوههنَّ الغامضة المزمومة. غير أنّهنَّ كنَّ مفيدات جدّاً.

«تصبحين على خير!»، قالت لباكستر عند باب غرفة النوم، لأنَّ باكستر كانت قد استدارت كما لو أنَّ مسؤوليَّتها تجاه سيِّدتها قد انتهت. كان ثمَّة شخص آخر يتولَّى مسؤوليَّة الدرج.

نظرت كيتي في غرفة المعيشة، في حال كان زوجها هناك. غير أنَّ الغرفة كانت خالية. كانت لا تزال النار متَّقدة، لا تزال تبدو الكراسي، الموضوعة في شكل دائرة، كما لو كانت تحمل هيكل الحفل العظميّ بين أذرعتها الخالية. إلَّا أنَّ السيَّارة كانت تنتظرها عند الباب.

«ألدينا الكثير من الوقت؟»، قالت للسائق حين وضع بطانيَّة على ركبتيها. ثمَّ انطلقا.

كانت ليلة صافية وهادئة، وكانت كلُّ شجرة في الميدان مرئيَّة، بعضها أسود اللَّون، وبعضها الآخر مرشوش ببقع غريبة من الضوء الأخضر الصناعيِّ. ارتفعت أعمدة من الظلام فوق المصابيح المقوَّسة. على الرَّغم من أنَّ الوقت قد قارب منتصف الليل، إلَّا أنَّه كاد يبدو ليلاً، بل بالأحرى كيومٍ أثيريٍّ مفصول، نظراً لوجود كثير من المصابيح في الشوارع، والسيَّارات العابرة، والرجال المرتدين أوشحتهم الملفوفة البيضاء ومعاطفهم الخفيفة مفتوحة وهم يمشون على طول الرصيف النظيف الجافِّ، ولا يزال العديد من المنازل مضاءً، لأنَّ الجميع كان يقيم الحفلات. تغيَّرت المدينة حين شقَّا طريقهما بسلاسة عبر «مايفير». كانت الحانات تغلق، وثمَّة مجموعة متجمِّعة حول عمود إنارة عند الزاوية. كان رجل مخمور يصدح بأغنية ما بصوتٍ عالٍ، وفتاة ثملة قليلاً مع ريشة تنقر عينيها برفق تترنَّح، في حين تمسَّكت بعمود الإنارة... إلَّا أنَّ عينَي كيتي سجَّلتا ما رأته فحسب. بعد الحديث والجهد والعجلة، لم تكن تستطيع إضافة أيِّ شيء إلى ما رأته. تجاوزا المكان بسرعة. الآن، قد سلكا منعطفاً، وكانت السيَّارة تنطلق بسرعتها الكاملة في جادَّة طويلة ساطعة من المحالِّ الكبيرة المغلقة. كانت الشوارع تكاد تكون مغلقة. أظهرت ساعة المحطَّة الصفراء أنَّ لديهما خمس دقائق إضافيَّة.

قالت لنفسها، في الوقت تماماً. تصاعد الابتهاج المعتاد في داخلها حين مشت على طول المنصَّة. انسكب ضوء متناثر قادم من ارتفاع كبير. تردَّدت أصداء صيحات الرجال وصلصلة تفريغ العربات في الفراغ الهائل. كان القطار ينتظر، والمسافرون يستعدُّون للانطلاق. بعضهم بدا واقفاً على قدم واحدة على درجة العربة، يشربون من أكواب سميكة كما لو كانوا خائفين من الابتعاد عن مقاعدهم. نظرت إلى طول القطار ورأت المحرِّك يمتصُّ الماء من خرطوم. لقد بدا كهيكل فقط، عضلات فحسب، حتَّى الرقبة قد استُهلِكت متحوِّلة إلى برميل سلس يشكِّل الهيكل. كان هذا هو القطار «الفَريد»، بدت كلُّ القطارات الأخرى كالألعاب مقارنة به. استنشقت

الهواء الكبريتيّ، الَّذي ترك مسحة طفيفة من المذاق الحمضيّ في مؤخِّرة الحلق، كما لو كان يحمل أثراً من الشمال بالفعل.

كان الحارس قد رآها، فتوجَّه نحوها وهو يحمل صافرته بيده.

«مساءً سعيداً يا سيِّدتي»، قال.

«مساءً سعيداً يا بورفيس. إنَّه يسير على نحو جيِّد إلى حدٍّ ما»، قالت حين فتح قفل باب عربتها.

«أجل يا سيِّدتي. في الوقت المناسب تماماً»، أجاب.

أقفل الباب. استدارت كيتي ونظرت في أرجاء الغرفة الصغيرة الـمُضاءة الَّتي كانت ستقضي ليلتها فيها. كان كلُّ شيء مهيَّأً، وكان السرير مرتَّباً، والملاءات مُعدَّة، وحقيبتها على المقعد. مرَّ الحارس عند النافذة، ممسكاً بعلمه في يده.

ركض عبر المنصَّة رجل لحق بالقطار بعد عناء، وذراعاه ممدودتان. صُفق باب ما.

«في الوقت تماماً»، قالت كيتي لنفسها حين وقفت هناك. ثمَّ أصدر القطار هزَّة لطيفة. كادت تستطيع تصديق أنَّ وحشاً بهذه الضخامة بإمكانه بدء رحلة طويلة كتلك بهذا القدر من اللطافة. ثمَّ رأت جرَّة الشاي تتجاوزها.

«لقد انطلقنا»، قالت لنفسها وهي تغوص في المقعد، «لقد انطلقنا!»

خرج كلُّ التوتر من جسمها. إنَّها الآن بمفردها، والقطار يتحرَّك. ابتعد المصباح الأخير على المنصَّة. اختفى الشكل الأخير على المنصَّة.

«كم هذا ممتع!»، قالت لنفسها كما لو كانت فتاةً صغيرةً هربت من مربِّيتها وفرَّت بعيداً، «لقد انطلقنا!»

جلست ساكنة للحظة في مقصورتها الـمُضاءة على نحو ساطع، ثمَّ أغلقت الستائر ما أنتج هزَّة. تجاوزوا الأضواء المتطاولة، الأضواء في المصانع

والمستودعات، الأضواء في الشوارع الخلفيَّة الغامضة. ثمَّ كانت هناك طرق إسفلتيَّة، المزيد من الأضواء في الحدائق العامَّة، ومن ثمَّ شجيرات وسور في حقل. كانوا يغادرون لندن تاركينَها خلفهم، مغادرين وهج الضوء ذاك الَّذي بدا، مع تسارع القطار نحو الظلام، كأنَّه يُقلِّص نفسه متحوِّلاً إلى دائرة ناريَّة. أسرع القطار عبر نفق مصدراً هديراً. بدا كما لو أنَّه يؤدِّي فعل بتر، الآن، فُصلِت عن دائرة الضوء.

نظرت في أرجاء المقصورة الضيِّقة الَّتي كانت معزولة في داخلها. اهتزَّ كلُّ شيء قليلاً. كان هناك اهتزاز خافت مستمرٌّ. بدا كأنَّها كانت تعبر من عالم نحو الآخر، هذه هي لحظة التحوُّل. جلست ساكنة للحظة، ثمَّ خلعت ملابسها، وتوقَّفت قليلاً واضعة يدها على الستارة. كان القطار قد دخل في سيره السريع الآن، ينطلق بسرعته القصوى عبر الريف. تلألأت أضواء قليلة بعيدة هنا وهناك. وقفت تجمُّعات سُود من الأشجار في الحقول الصيفيَّة الرماديَّة، وكانت الحقول ممتلئة بالأعشاب الصيفيَّة. أضاء الضوء القادم من المحرِّك مجموعة هادئة من الأبقار، وسياجاً من الزعرور البريِّ. لقد أصبحوا في الريف المفتوح الآن.

أنزلت الستائر وخلدت إلى سريرها. ألقت نفسَها على الرفِّ الصلب إلى حدٍّ ما وظهرها يستند إلى جدار العربة، لهذا السبب شعرت باهتزاز خفيف على مؤخِّرة رأسها. استلقت تستمع إلى أصوات الهمهمة الَّتي أصدرها القطار، الآن وقد دخل في سيره السريع. كانت تُسحب عبر إنكلترا نحو الشمال بسلاسة وقوَّة. فكَّرت، لستُ مضطرَّة إلى فعل أيِّ شيء، لا شيء، لا شيء، سوى أن أسمح لنفسي بأن أُجذب. استدارت وسحبت حاجز الضوء الأزرق فوق المصباح. أصبح صوت القطار أكثر علوّاً في الظلام، وبدا كأنَّ زئيره، اهتزازه، يندرج في إيقاع منتظم من الصوت، منفِّذاً بحثاً دقيقاً في ذهنها، ومستخرجاً أفكارها.

آه، إنَّما ليس جميعها، فكَّرت وهي تنقلب بقلق على رفِّها. على الرَّغم من ذلك فقد توسَّع بعضها. فكَّرت، وهي تحدِّق إلى الضوء تحت الحاجز

الأزرق، في أنَّ المرء لم يعد طفلاً بعد الآن. لقد غيَّرت السنوات أموراً، دمَّرت أموراً، راكمت أموراً، الهموم والمشكلات، هي ذي من جديد. واصلت أجزاء من الحديث العودة إليها، حضرت مشاهدُ أمامها. رأت نفسها وهي ترفع النافذة بهزَّة، والشعيرات على ذقن العمَّة واربورتون. رأت النساء ينهضنَ، والرجال يدخلون. تنهَّدت حين استدارت على جانبها. كلُّ ثيابهم متماثلة، فكَّرت، كلُّ حيواتهم متماثلة. وأيُّها صحيح؟ فكَّرت وهي تتقلَّب بقلق على رفِّها. أيُّها خطأ؟ استدارت من جديد.

هرع القطار بها. لقد أصبح الصوت أكثر عمقاً، أصبح زئيراً متواصلاً. كيف في مقدورها النوم؟ كيف في مقدورها منع نفسها من التفكير؟ استدارت بعيداً عن الضوء. الآن، أين نحن؟ قالت لنفسها. أين القطار في هذه اللحظة؟ الآن، تمتمت وهي تغلق عينيها، إنَّنا نجتاز المنزل الأبيض على التلِّ، الآن، إنَّنا نعبر النفق. الآن، إنَّنا نعبر الجسر فوق النهر... تدخَّل فراغ، تباعدت أفكارها، أصبحت مشوَّشة. أصبح الماضي والحاضر مختلطين مع بعضهما بعضاً. رأت مارغريت ماربل تقبض على الفستان بين أصابعها، غير أنَّها كانت تقود ثوراً ذا حلقة معلَّقة في خطمه... هذا هو النوم، فكَّرت لنفسها، وهي تفتح عينيها نصفيّاً، الحمد للربِّ، قالت لنفسها، وهي تغلقهما من جديد، إنَّ هذا هو النوم. وسلَّمت نفسها لمسؤوليَّة القطار، الَّذي أصبح زئيره الآن بليداً وبعيداً.

كانت ثمَّة نقرة على بابها. استلقت للحظة، تتساءل لِمَ اهتزَّت الغرفة بهذا القدر الكبير، ثمَّ استقرَّ المشهد بنفسه، لقد كانت في القطار، لقد كانت في الريف، كانوا يقتربون من المحطَّة. نهضت.

ارتدت ملابسها على عجل ووقفت في الممرِّ. كان الوقت لا يزال مبكراً. راقبت الحقول وهم يتجاوزونها. كانت حقولاً جرداء، حقول الشمال العجفاء. كان الربيع يحلُّ متأخِّراً هنا، ولم تكن الأشجار قد اكتست بالكامل بعد. التفَّ الدخان نحو الأسفل وأمسك بشجرة في سحابته

البيضاء. لَمَّا ارتفعت، فكَّرت في مقدار جمال الضوء، صاف وحادّ، أبيض ورماديّ. لم تتمتَّع الأرض بأيِّ نعومة، أيٍّ من الخُضرة الَّتي تتمتَّع بها أراضي الجنوب. إنَّما، يوجد هنا مفترق طرق، ها هو ذا مقياس للغاز، كانوا يُسارعون نحو المحطَّة. أبطأ القطار من سرعته، وأصبحت كلُّ أعمدة الإنارة على المنصَّة ثابتة تدريجيّاً.

خرجت واستنشقت نفساً عميقاً من الهواء الخامِّ البارد. كانت السيَّارة في انتظارها، وتذكَّرت مباشرة حين رأتها، لقد كانت السيَّارة الجديدة، هديَّة عيد ميلاد من زوجها. لم تكن قد ركبتها بعدُ على الإطلاق. لمس كول قبَّعته.

«فلنفتحه يا كول»، قالت. ففتح غطاء محرِّك السيَّارة الصلب الجديد، ثمَّ ركبت إلى جانبه. تحرَّكا ببطء شديد، لأنَّ المحرِّك بدا كأنَّه ينبض على نحو متقطِّع، يدور ويتوقَّف، ثمَّ يبدأ من جديد. قادا عبر البلدة، وكانت جميع المحالِّ لا تزال مغلقة، والنساء على ركبهنَّ يفركنَ عتبات الأبواب، أمَّا الستائر فلا تزال مسدلة في غرف النوم وغرف الجلوس، وكانت ثمَّة حركة مروريَّة قليلة جدّاً في الأرجاء. لم تمرَّ سوى عربات الحليب بهما مصدرة حشرجة. تجوَّلت الكلاب في منتصف الشارع سعياً إلى إنجاز مهمَّات خاصَّة بها. كان على كول أن يستخدم بوق السيَّارة مراراً وتكراراً.

«سوف تتعلَّم مع مضيِّ الوقت يا سيِّدتي»، قال حين طُرد كلب هجين رماديٌّ مخطَّط كبير الحجم من طريقهما. قاد بحذر في البلدة، غير أنَّه زاد من سرعته حين أصبحا خارجها. شاهدت كيتي العقرب وهو يتقافز إلى الأمام على عدَّاد السرعة.

«هل تفعل هذا بسهولة؟»، سألت وهي تستمع إلى خرخرة المحرِّك الناعمة.

رفع كول قدمه كي يُظهر مقدار الخفّة الَّتي لامست بها دوَّاسة البنزين. ثمَّ لمسها من جديد فانطلقت السيَّارة مسرعة. كانا يقودان بسرعة عالية أكثر من اللازم، فكَّرت كيتي، غير أنَّ الطريق -الذي أبقت عينيها عليه-

كان لا يزال خالياً. لم تمرَّ سوى عربتين أو ثلاث من عربات مزارع الأخشاب، واتَّجه الرجال نحو رؤوس الأحصنة وأمسكوا بها حين تجاوزاهم. امتدَّ الطريق ذو اللَّون الأبيض اللؤلؤيِّ أمامهما، وكانت الأسيجة مزيَّنة بالأوراق المدبَّبة الصغيرة للربيع المبكر.

«لقد تأخَّر قدوم الربيع جدّاً هنا»، قالت كيتي، «بسبب الرياح الباردة كما أفترض؟»

أومأ كول برأسه. لم يكن يتَّسم بالطرائق الخانعة الَّتي يتمتَّع بها الخدم في لندن. كانت تشعر بالراحة برفقته، إذ كان بإمكانها أن تكون صامتة. بدا كأنَّ الهواء يحمل تدرُّجات مختلفة من الدفء والبرد فيه، الآن، حلو، أمَّا الآن -بينما مرَّا بزريبة- فهو قويُّ الرائحة، لاذع من رائحة السماد الحامضة. مالت إلى الخلف، ممسكة بقبَّعتها إلى رأسها حين أسرعا عبر تلٍّ. «لن تستطيع أن تصعد بها إلى القمَّة يا كول»، قالت. تباطأت الوتيرة قليلاً، كانا يصعدان تلَّ «كرابس» المألوف، ذا الخطوط الصُّفر، حيث ضغط متعهِّدو النقل على كوابحهم. في الأيَّام الخوالي، لَمَّا كانت تمتطي الأحصنة، اعتادوا الصعود إلى هناك والمشي. لم يقل كول أيَّ شيء، إذ أراد أن يستعرض المحرِّك خاصَّته، بحسب افتراضها. صعدت السيَّارة على نحو جيِّد. إلَّا أنَّ التلَّ كان طويلاً، وكان هناك امتداد مستوٍ، ثمَّ تصاعد الطريق مرَّة أخرى. تباطأت السيَّارة. حثَّها كول على التحرُّك. رأته كيتي وهو ينفض بدنه على نحو خفيف إلى الخلف والأمام كما لو كان يشجِّع أحصنة. شعرت بالتوتُّر في عضلاته. أبطأا سرعتهما، وكادا يكونان في حالة توقُّف. كلَّا، الآن، كانا على ذروة التلِّ. لقد نجحت في الصعود إلى القمَّة!

«عمل رائع!»، صاحت. لم يقل أيَّ شيء، غير أنَّه كان فخوراً جدّاً، لقد علِمت ذلك.

«لم نكن لنستطيع الصعود باستخدام السيَّارة القديمة»، قالت.

قال كول: «آه، إلَّا أنَّ هذا لم يكن ذنبها».

كان رجلاً إنسانيّاً جدّاً، نوعَ الرجال الَّذي كانت تحبُّه، تأمَّلت، إنَّه صامت ومتحفِّظ. تابعا تقدُّمهما بسرعة. الآن، كانا يتجاوزان المنزل ذا الحجارة الرماديَّة حيث عاشت السيِّدة المجنونة بمفردها مع طواويسها وكلابها البوليسيَّة. لقد تجاوزاه. الآن، كانت الغابات إلى جهة اليد اليمنى منهما، وبدا كما لو أنَّ الهواء يغنِّي عبرها. كانت أشبه بالبحر، فكَّرت كيتي، حين تجاوزاها، وهي تنظر إلى طريق أخضر قاتم مرقَّع بضوء الشمس الأصفر. انطلقا من جديد. الآن، استلقى كثير من الأوراق البنيَّة المحمرَّة إلى جوار الطريق، محوّلة البرك إلى اللَّون الأحمر.

«هل كان الجوُّ ممطراً؟»، سألت. أومأ برأسه. انطلقا فوق سلسلة من التلال المرتفعة الَّتي تمتدُّ غابات في أسفلها، وكان هناك برج القلعة الرماديُّ رابضاً في مساحة خالية بين الأشجار. لطالما بحثت عنه وحيَّته كما لو كانت ترفع يداً تحيَّة لصديق. لقد كانا الآن على أراضي بلدتهما الخاصَّة. كانت أعمدة البوَّابة موسومة بأحرفهم الأولى. تأرجح ذراعا البوَّابة فوق مداخل النُّزل، وكان شعارهم مثبَّتاً فوق بابَي الكوخ. نظر كول إلى الساعة. قفز العقرب من جديد.

أسرع من الحدِّ، أسرع من الحدِّ! قالت كيتي لنفسها. غير أنَّها أحبَّت اندفاع الريح في وجهها. الآن، قد وصلا إلى بوَّابة النُّزل. كانت السيِّدة بريدي تبقيها مفتوحة مع طفل ذي شعر أبيض على ذراعها. اندفعا عبر المتنزَّه. نظر الغزال إلى الأعلى وراح يقفز بعيداً بخفَّة عبر أعشاب السرخس.

«دقيقتان حتَّى الربع يا سيِّدتي»، قال كول وهما ينزلقان في دائرة ويتوقَّفان عند الباب. وقفت كيتي تنظر إلى السيَّارة للحظة. وضعت يدها على غطاء المحرِّك. لقد كان ساخناً. ربَّتت عليه تربيتة خفيفة. «لقد سارت سيراً جميلاً يا كول»، قالت، «سأخبر سيادته بهذا». ابتسم كول، لقد كان سعيداً.

ولجت إلى الداخل. لم يكُ ثمَّة أيُّ شخص في الأرجاء، كانوا قد وصلوا في وقت مبكر أكثر ممَّا توقَّعت. عبرت الصالة الضخمة ذات البلاط الحجريِّ اللوحيِّ، ذات الدروع والتماثيل النصفيَّة، ودخلت الغرفة النهاريَّة حيث كانت وجبة الفطور موضوعة.

بهرها الضوء الأخضر حين دخلت. كان الأمر كما لو أنَّها قد وقفت في تجويف من حجر الزمرُّد. كان كلُّ شيء أخضرَ اللَّون في الخارج. وقفت تماثيل السيِّدات الفرنسيَّات الرماديَّات على الشرفة، وهنَّ يمسكنَ بسلالهنَّ، غير أنَّ السلال كانت فارغة. في الصيف، تحترق الأزهار هناك. امتدَّت طبقات العشب على مساحات واسعة بين أشجار الطقسوس الصنوبريَّة المقلَّمة، وصولاً إلى النهر، ثمَّ يرتفع من جديد إلى التلِّ الَّذي كان متوَّجاً بالغابات. الآن، كانت هناك لفَّة من الضباب على الغابات، الضباب الخفيف الَّذي يتَّسم به الصباح المبكر. بينما كانت تحدِّق، طنَّت نحلة عند أذنها، ظنَّت أنَّها سمعت همهمة النهر فوق الحجارة، وهدلت الحمامات في أعالي الأشجار. لقد كان صوت الصباح المبكر، صوت الصيف. غير أنَّ الباب قد فُتح، وها هو ذا طعام الفطور.

تناولت وجبة الفطور خاصَّتها، وشعرت بالدفء، بأنَّها مصونة، ومرتاحة حين جلست في كرسيِّها. ولم تكن تمتلك أيَّ شيء لتفعله، لا شيء على الإطلاق. كان اليوم بأكمله ملكاً لها. كان يوماً جميلاً أيضاً. تسارع ضوء الشمس داخلاً الغرفةَ على نحو فجائيٍّ، وألقى شريطاً عريضاً من الضوء عبر الأرضيَّة. كانت الشمس ساطعة على الأزهار في الخارج. رفرفت فراشة صدفةِ السلحفاة بجناحيها عبر النافذة، ورأتها تستقرُّ على ورقة، وقفت هناك تفتح جناحيها وتغلقهما، تفتحهما وتغلقهما، كما لو كانت تتغذَّى من أشعَّة الشمس. راقبتها. كان الجزء السفليُّ من جناحيها ذا لون أحمر صدئ ناعم. رفرفت مبتعدةً من جديد. ثمَّ تعقَّبها الكلب صينيُّ الأصل، الَّذي سمحت يدٌ خفيَّة بدخوله، وبدأ يشمُّ تنُّورتها، وألقى بنفسه في بقعة ساطعة من ضوء الشمس.

بهيمة عديمة القلب! فكَّرت، إلَّا أنَّ عدم اكتراثه أرضاها. لم يطلب أيَّ شيء منها أيضاً. مدَّت يدها للحصول على سيجارة. وماذا كان ليقول مارتن، تساءلت، في حين التقطت الصندوق المطليّ بالورنيش وقد تحوَّل من اللَّون الأخضر إلى الأزرق، وفتحته. مروِّع؟ سوقيّ؟ هذا محتمل، إنَّما، لِمَ كان ما يقوله الناس أمراً مهمّاً؟ بدا الانتقاد خفيفاً مثل الدخان في هذا الصباح. لِمَ كان ما يقوله أمراً مهمّاً، ما يقولونه، ما يقوله أيُّ شخص، في حين أنَّها تمتلك يوماً كاملاً خاصّاً بها؟ في حين أنَّها كانت بمفردها؟ وها هم أولاء في منازلهم، لا يزالون نائمين بعد رقصاتهم، وبعد حفلاتهم، فكَّرت وهي تقف إلى جوار النافذة وتنظر إلى العشب الرماديِّ المخضرِّ... لقد أسعدتها الفكرة. ألقت السيجارة بعيداً وصعدت إلى الطابق العلويِّ بغية تغيير ملابسها.

كانت الشمس أكثر حدَّة بكثير ممَّا كانت عليه حين نزلت من جديد. خسرت الحديقة بالفعل مظهر النقاء خاصَّتها، كان الضباب قد ارتفع عن الغابات. بإمكانها سماع صرير جزَّازة العشب حين خرجت من النافذة. كان المهر ذو الحدوة المطَّاطيَّة يُسرع صعوداً ونزولاً على المروج مخلِّفاً أثراً باهتاً وراءه في العشب. العصافير تغنِّي بطريقتها المبعثرة. الزرازير مكتسية دروعها الساطعة من الريش وتتغذَّى على العشب. أشعَّ الندى، أحمرَ، أرجوانيّاً، ذهبيّاً على أطراف العشب المرتعشة. كان صباحاً مثاليّاً من صباحات شهر مايو.

تسكَّعت ببطء على طول الشرفة. بينما مرَّت، ألقت نظرة إلى الداخل نحو نوافذ المكتبة الطويلة. كان كلُّ شيء محجوباً وصامتاً. غير أنَّ الغرفة الطويلة بدت مهيبة أكثر من المعتاد، فأبعادها مناسبة، وبدت الكتب البنّيَّة المستقرَّة في صفوفها الطويلة أنَّها حاضرة بصمت، بكرامة، منفردة بنفسها، لأجل نفسها. غادرت الشرفة وتمشَّت نزولاً على الطريق العشبيِّ الطويل. كانت الحديقة لا تزال فارغة، ولم يكن هناك سوى رجل يرتدي قميصاً بكُمَّين، يفعل أمراً ما لشجرة، إلَّا أنَّها لم تكن في حاجة إلى الحديث إلى أيِّ شخص. لحق بها الكلب صينيُّ الأصل، وكان هو أيضاً صامتاً. تمشَّت

مجتازة سُرر الأزهار باتّجاه النهر. لطالما توقَّفت هناك، على الجسر، وصارت تقفز بفواصل محدَّدة. لطالما سحرها الماء. نزل النهر الشماليُّ السريع من المستنقعات، ولم يكن أخضرَ وسلساً قطُّ، لم يكن عميقاً وهادئاً كما الأنهار الجنوبيَّة قطُّ. تسارعَ، واستعجل. مدَّ نفسه، أحمر اللَّون، أصفر اللَّون، وذا لون بنّيٍّ صافٍ، فوق الحصى الموجودة في القاع. واضعة مرفقيها على الدرابزين، راقبته يدور حول الأقواس، راقبته يصنع أشكالاً ماسيَّة وخطوطَ أسهم حادَّة فوق الحجارة. أنصتت. علمت الأصوات المختلفة الَّتي أصدرها في الصيف والشتاء، الآن، قد استعجل، قد تسارع.

غير أنَّ الكلب صينيَّ الأصل كان قد شعر بالملل، فسبقها. لحقت به. صعدت في الطريق الأخضر متَّجهة نحو النصب التذكاريِّ في شكل أداة إطفاء الشموع، الرابض على قمَّة التلِّ. كان لكلِّ طريق عبر الغابات اسم خاصٌّ به. هناك مسار الحرَّاس، وممشى العشَّاق، ومِيل السيِّدات، وها هو ذا طريق الإيرل. غير أنَّها توقَّفت ونظرت إلى الخلف نحو المنزل قبل أن تدخل في الغابات. توقَّفت هنا مرَّات عدَّة، وبدت القلعة رماديَّة وفخمة، نائمة في هذا الصباح، والستائر مسدلة، وليس ثمَّة علم مرفوع على السارية. لقد بدت نبيلة، قديمة، وراسخة جدّاً. ثمَّ تابعت مسيرها إلى داخل الغابة.

بدا كأنَّ الريح ترتفع حين مشت تحت الأشجار. غنَّت في قممها، غير أنَّها كانت صامتة في الأسفل. أصدرت الأوراق اليابسة حشرجةً تحت القدم، برزت بينها أزهار الربيع الباهتة، أكثر الأزهار جمالاً في السنة، أزهار زرق وأزهار بيض، ترتجف على وسائد من الطحلب الأخضر. لطالما كان الربيع حزيناً، فكَّرت، إذ إنَّه يعيد الذكريات. فكَّرت في أنَّ كلَّ شيء يمرُّ، كلَّ شيء يتغيَّر، حين صعدت الدرب القصير الواقع بين الأشجار. لم ينتمِ أيُّ شيء من هذا إليها، سيرث ابنها، ستتمشَّى زوجته هنا من بعدها. كسرت غُصيناً، وقطفت زهرة وقرَّبتها إلى شفتيها. غير أنَّها كانت في ريعان الحياة، لقد كانت قويَّة. تابعت سيرها بخطوات كبيرة. ارتفعت الأرض على نحو حادٍّ،

وشعرت بأنَّ عضلاتها قويَّة ومرنة حين ضغطت بحذائها ذي النعل السميك على الأرض. رمت زهرتها بعيداً. أصبحت الأشجار أقلَّ عدداً حين اتَّجهت إلى الأعلى أكثر فأكثر. فجأة، رأت السماء زرقاء اللَّون على نحو استثنائيٍّ، تطلُّ من بين جذعَي شجرتين مخطَّطين. لقد وصلت إلى القمَّة. توقَّفت الرياح، وامتدَّ الريف واسعاً من حولها. بدا كأنَّ جسدها تقلَّص، واتَّسعت عيناها. ألقت بنفسها على الأرض، ونظرت إلى الأراضي المتموِّجة الَّتي استمرَّت تصعد وتهبط، بعيداً جدّاً، إلى أن وصلت إلى البحر في مكان بالغ البُعد. غير مزروعة، غير مأهولة، موجودة بنفسها، موجودة لأجل نفسها، بدت خالية من أيِّ بلدات أو منازل من هذا الارتفاع. كانت ثمَّة أوتاد قامّة من الظلِّ، واتِّساعات ساطعة من الضوء موجودة جنباً إلى جنب. ثمَّ، بينما راقبت، تحرَّك الضوء، وتحرَّك الظلام، وانطلق الضوء والظلُّ يسافران فوق التلال وفوق الوديان. غنَّت همهمة عميقة في أذنيها، الأرض نفسها، تُغنِّي لنفسها، جوقة، بمفردها. استلقت هناك منصتة. كانت سعيدة، على نحو تامٍّ. لقد توقَّف الوقت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٩١٧

إنَّها ليلة شتويَّة بالغة البرودة، صامتة إلى الحدِّ الذي بدا معه أنَّ الهواء قد تجمَّد، وتصلَّب مماثلاً سكونَ زجاج قد امتدَّ فوق إنكلترا، نظراً لعدم وجود قمر. كانت البرك والخنادق متجمِّدة، وشكَّلت البرك عيوناً زجاجيَّة في الطرق، وكوَّن الصقيع على الرصيف عقداً زلقة. طُبع الظلام على النوافذ، ودمجت البلدات نفسها في الريف المفتوح. لم يشعَّ أيُّ ضوء، باستثناء حين سطع ضوء كشَّاف عبر السماء، ثمَّ توقَّف، هناك وهناك، كما لو كان يريد التأمُّل في رقعة ما شبيهة بالصوف.

«في حال كان ذاك هو النهر»، قالت إليانور وهي تتوقَّف قليلاً في الشارع المظلم خارج المحطَّة، «لا بُدَّ أنَّ ويستمنستر هناك». إنَّ الحافلة العامَّة الَّتي أتت بها، مع ركَّابها الصامتين الشبيهين بالجثث في الضوء الأزرق، كانت قد اختفت بالفعل. أمَّا هي، فقد استدارت.

كانت ستتناول العشاء مع ريني وماغي، اللذين عاشا في أحد الشوارع الصغيرة الغامضة الواقعة تحت ظلال الدِّير. تابعت مسيرها. كان الجانب الأبعد للشارع يكاد يكون غير مرئيٍّ. والمصابيح مكتنفة باللَّون الأزرق. وجَّهت مشعلها إلى اسم موجود على زاوية شارع. وجَّهت مشعلها من جديد. هنا، أضاء على جدار قرميديٍّ، هناك، خصلة خضراء داكنة من اللبلاب. أخيراً، أشعَّ الرقم ثلاثون، وهو الرقم الَّذي كانت تبحث عنه. قرعت الباب ورنَّت الجرس في اللَّحظة عينها، إذ بدا وكأنَّ الظلام قد كتم الصوت بالإضافة إلى الرؤية. ألقى الصمت بثقله عليها حين وقفت هناك تنتظر. ثمَّ فُتح الباب وقال صوت رجل، «تفضَّلي بالدخول!»

أغلق الباب من خلفه، على عجل، كما لو أنَّه فعل ذلك بغية حجب الضوء. لقد بدا الأمر غريباً بعد الشوارع، عربة الأطفال في الصالة، المظلّات في الحامل، السجَّادة، اللَّوحات، بدت كلُّها متكثِّفة.

قال ريني من جديد: «تفضَّلي بالدخول!»، وقادها إلى غرفة الجلوس المتوهِّجة بالنور. ثمَّة رجل آخر يجلس في الغرفة، وفوجِئت لأنَّها توقَّعت أن تجدهما بمفردهما. غير أنَّ الرجل كان شخصاً لم تعرفه.

حدَّق أحدهما إلى الآخر للحظة، ثمَّ قال ريني: «أنتِ تعرفين نيكولاس...»، غير أنَّه لم ينطق لقبه على نحو واضح، بالإضافة إلى أنَّه كان طويلاً جدّاً فلم تستطع أن تحفظه. إنَّه اسم أجنبيٌّ، فكَّرت. إنَّه أجنبيٌّ. من الواضح أنَّه لم يكن إنكليزيّاً. صافحها مع انحناءة كما يفعل شخص أجنبيٌّ، وتابع الحديث، كما لو أنَّه كان في منتصف جملة رغب في إنهائها... «لقد كنَّا نتحدَّث عن نابليون...»، قال وهو يستدير نحوها.

قالت: «لقد فهمت». إلَّا أنَّها لم تمتلك أدنى فكرة عمَّا كان يقوله. كانا في منتصف نقاش، بحسب افتراضها. غير أنَّه آل إلى نهاية دون أن تفهم كلمة واحدة منه، باستثناء أنَّه كان يتعلَّق بنابليون. خلعت معطفها ووضعته جانباً. توقَّفا عن الحديث.

«سأذهب وأخبر ماغي»، قال ريني. غادرهما بغتةً.

قالت إليانور: «أكنتما تتحدَّثان عن نابليون؟». نظرت إلى الرجل الَّذي لم تسمع لقبه. كان داكن البشرة جدّاً، ذا رأس مستدير وعينين داكنتين. هل أعجبها أو لا؟ لم تعرف.

لقد قاطعتُهما، كما شعرَت، وليس لديَّ أيُّ شيء كي أقوله. شعرَت بالبرد وبالدوار. مدَّت يديها فوق النار. لقد كانت ناراً حقيقيَّة، والكتل الخشبيَّة متَّقدة، ركض اللَّهب على طول خطوط القطران اللامع. كان كلُّ ما تبقَّى لها في المنزل مجرىً ضئيلاً من الغاز الضعيف.

«نابليون»، قالت وهي تدفِّئ يديها. تحدَّثت من دون أيِّ معنى.

«لقد كنَّا نفكِّر في نفسيَّة رجل عظيم»، قال، «في ضوء العلم الحديث»، أضاف قائلاً مع ضحكة صغيرة. تمنَّت لو كان النقاش ضمن حدود فهمها على نحو أكبر.

«إنَّ هذا مثير للاهتمام للغاية»، قالت وهي تشعر ببعض الخجل.

«أجل، لو كنَّا نعرف أيَّ شيء حيال الأمر»، قال.

أعادت قوله: «لو كنَّا نعرف أيَّ شيء حيال الأمر...». كانت هناك وقفة قصيرة. شعرت بالخدر في أنحاء جسدها، ليس في يديها فحسب، بل في عقلها أيضاً.

«نفسيَّة رجل عظيم...»، قالت، لأنَّها لم تكن ترغب في أن يعتقد بأنَّها حمقاء، «...أكان هذا هو الأمر الَّذي ناقشتماه؟»

«لقد كنَّا نقول...». توقَّف قليلاً. خمَّنت أنَّه قد وجد تلخيص نقاشهما أمراً صعباً، إذ إنَّ من الواضح أنَّهما كانا يتحدَّثان لوقت طويل، نظراً إلى الجرائد الـمُلقاة في الأرجاء وأعقاب السجائر على الطاولة.

«كنتُ أقول»، تابع حديثه، «كنتُ أقول إنَّنا لا نعرف أنفسنا، أي الأشخاص العاديِّين، وفي حال كنَّا لا نعرف أنفسنا، فكيف لنا أن نصوغ الأديان، القوانين، الَّتي...»، استخدم يديه كما يفعل الأشخاص الَّذين يجدون اللُّغة متصلِّبة، «الَّتي...»

«تُعدُّ ملائمة، تُعدُّ ملائمة»، قالت، مزوِّدة إيَّاه بكلمة كانت على ثقة بأنَّها لم تكن موجودة في معجم الكلمات الَّذي لطالما استخدمه الأجانب.

«تُعدُّ ملائمة، تُعدُّ ملائمة»، قال وهو يأخذ الكلمة ويعيدها كما لو كان يشعر بالامتنان على مساعدتها.

«... تُعدُّ ملائمة»، كرَّرت قولها. لم يكن لديها أدنى فكرة عمَّا كانا يتحدَّثان. ثمَّ، على نحو مفاجئ، بينما انحنت كي تُدفِّئ يديها فوق النار،

طفت الكلمات مع بعضها بعضاً في ذهنها وشكَّلت جملة مفهومة واحدة. بدا لها كأنَّ ما قاله هو، «ليس في مقدورنا صياغة القوانين والأديان الَّتي تُعدُّ ملائمة لأنَّنا لا نعرف أنفسنا».

«لَكَم من الغريب أن تقول ذلك!»، قالت وهي تبتسم له، «لأنَّني أنا نفسي فكَّرت في هذا الأمر كثيراً!»

«لِمَ هذا الأمر غريب؟»، قال، «إنَّنا جميعاً نفكِّر في الأمور عينها، غير أنَّنا لا نقولها فحسب».

«وأنا قادمة بالحافلة العامَّة في هذه الليلة»، بدأت حديثها، «كنتُ أفكِّر في شأن هذه الحرب، أنا لا أشعر بهذا، غير أنَّ أشخاصاً آخرين يفعلون...». توقَّفت عن الكلام. لقد بدا محتاراً، في الغالب أنَّها قد أساءت فهم ما قاله، ولم تستطع إيصال المعنى الَّذي تريده على نحو واضح.

بدأت القول من جديد: «إنَّني أعني، كنتُ أفكِّر وأنا قادمة على متن الحافلة...»

غير أنَّ ريني قد دخل هنا.

كان يحمل صينيَّة عليها قوارير وكؤوس.

قال نيكولاس: «إنَّه لأمر عظيم أن تكون ابن تاجر نبيذ».

بدت الجملة كأنَّها اقتباس من قواعد في اللغة الفرنسيَّة.

ابن تاجر نبيذ، أعادت إليانور قائلة لنفسها، وهي تنظر إلى خدَّيه الأحمرين، وعينيه الدَّاكنتين، وأنفه العريض. لا بُدَّ أنَّ الرجل الآخر روسيٌّ، فكَّرت، روسيٌّ، بولنديٌّ، يهوديٌّ؟ لم يكن لديها أيُّ فكرة ما يكون، أو مَن كان.

شربت، وبدا كأنَّ النبيذ يداعب عقدة في عمودها الفقريِّ. هنا، دخلت ماغي.

«مساءً سعيداً»، قالت متجاهلة انحناءة الأجنبيِّ كما لو كانت تعرفه تمام المعرفة فلا يتعيَّن عليها إلقاء التحيَّة عليه.

«جرائد»، قالت محتجَّة وهي تنظر إلى القمامة على الأرض، «جرائد، جرائد». كانت الأرضيَّة مكسوَّة بالجرائد.

«سنتناول العشاء في القبو»، تابعت قولها وهي تلتفت نحو إليانور، «لأنَّنا لا نمتلك أيَّ خدم». قادت الطريق نزولاً الدَّرجات المائلة الصغيرة.

«إنَّما، يا ماغدالينا»، قال نيكولاس، حين وقفوا في الغرفة الصغيرة ذات السقف المنخفض الَّتي حُضِّر العشاء فيها، «قالت سارة، "سنلتقي ليلة الغد في منزل ماغي..."، إنَّها ليست موجودة هنا».

بقي واقفاً، وكان الآخرون قد جلسوا.

قالت ماغي: «ستأتي في الوقت المحدَّد».

«عليَّ أن أهاتفها»، قال نيكولاس، وغادر الغرفة.

قالت إليانور وهي تأخذ صحنها: «أليس عدم امتلاك خدم ألطف بكثير...»

«لدينا امرأة لأجل أعمال التنظيف»، قالت ماغي.

«ونحن قذران للغاية»، قال ريني.

رفع شوكة وفحص ما بين تشعُّباتها.

«كلَّا، يُصادف أنَّ هذه الشوكة نظيفة»، قال، ووضعها من جديد.

عاد نيكولاس إلى الغرفة. بدا منزعجاً. «إنَّها ليست هناك»، قال لماغي، «لقد هاتفتها، غير أنَّني لم أستطع الحصول على إجابة».

«في الغالب أنَّها قادمة»، قالت ماغي، «أو قد تكون نسيت...»

ناولته حساءه. إلَّا أنَّه جلس ينظر إلى طبقه دون حراك. تشكَّلت تجاعيد على جبهته، ولم يبذل أيَّ محاولة لإخفاء قلقه. كان متجرِّداً من الإدراك الذاتيِّ. «ها هي ذي!»، صاح فجأة، مقاطعاً إيَّاهم وهم يتحدَّثون. «إنَّها قادمة!»، أضاف قائلاً. وضع ملعقته وانتظر. كان هناك شخص ما ينزل الدرج على مهل.

فُتح الباب ودخلت سارة. بدَت نحيلة وباهتة من جرَّاء البرد. كان خدَّاها أبيضين في مكان وأحمرين في آخر، ورمشت كما لو كانت لا تزال تشعر بالدوار بسبب سيرها عبر الشوارع المكتنفة باللَّون الأزرق. مدَّت يدها إلى نيكولاس وقبَّلها. إلَّا أنَّها لم تكن تضع خاتم خطوبة، بحسب ما لاحظته إليانور.

«أجل، إنَّنا قذران»، قالت ماغي وهي تنظر إليها، كانت ترتدي ملابسها النهاريَّة. «في ملابس بالية»، أضافت قائلة، لأنَّ عقدة من خيط ذهبيٍّ قد تدلَّت من كمِّها حين قدَّمت الحساء.

«كنتُ أفكِّر كم هو جميل...»، قالت إليانور، لأنَّ عينيها كانتا تستقرَّان على الفستان الفضيِّ الَّذي يحتوي خيوطاً ذهبيَّة. «من أين ابتعتِه؟».

«في القسطنطينيَّة، من شخص تركيٍّ»، قالت ماغي.

«شخص تركيّ رائع يضع عمامة»، تمتمت سارة وهي تمسِّد الكمَّ حين أخذت طبقها. كانت لا تزال تشعر بالدوار.

«والأطباق»، قالت إليانور وهي تنظر إلى الطيور الأرجوانيَّة على طبقها، «أنا لا أتذكَّرها؟»، سألت.

«إنَّها في الخزانة في غرفة المعيشة في المنزل»، قالت ماغي، «غير أنَّه بدا من السخف الاحتفاظ بها في الخزانة».

قال ريني: «إنَّنا نكسر طبقاً كلَّ أسبوع».

«ستبقى طيلة فترة الحرب»، قالت ماغي.

لاحظت إليانور تعبيراً فضوليّاً شبيهاً بالقناع يرتسم على وجه ريني حين قالت، «الحرب». فكَّرت، كما هي الحال مع جميع الفرنسيِّين، فقد اهتمَّ ببلده بشغف. غير أنَّها شعرت بنقيض ذلك وهي تنظر إليه. لقد كان صامتاً. جعلها صمته تشعر بالانقباض. كان هناك أمر هائل حيال صمته.

«ولِمَ تأخَّرتِ إلى هذا الحدِّ؟»، قال نيكولاس، وهو يلتفت إلى سارة. تحدَّث بلطف بالغ، بتأنيب، كما لو كانت طفلة إلى حدٍّ ما. صبَّ لها كأساً من النبيذ.

حاذري، شعرت إليانور برغبة في القول لها، إنَّ النبيذ يُسكر المرء. لم تشرب النبيذ منذ أشهر. كانت تشعر بقليل من الضبابيَّة بالفعل، بدوار خفيف. لقد كان الضوء بعد الظلام، الحديث بعد الصمت، ربَّما تكون الحرب قد أزالت الحواجز.

غير أنَّ سارة شربت. ثمَّ انفجرت قائلة:

«بسبب ذاك الأحمق اللعين».

«الأحمق اللعين؟»، قالت ماغي، «أيُّهم؟»

«ابن أخ إليانور»، قالت سارة، «نورث. ابن أخ إليانور، نورث». أمسكت كأسها نحو إليانور، كما لو كانت توجِّه حديثها إليها. «نورث...»، ثمَّ ابتسمت، «ها أنا ذي، أجلس بمفردي. رنَّ الجرس. قلتُ، "ها هي ذي الغسَّالة". صعدت خطوات أقدام الدَّرج. ها هو ذا نورث، نورث»، رفعت يدها نحو رأسها كما لو كانت في حالة تحيَّة، «يظهر على هذا النحو، "ما الَّذي استدعى فعل هذا بحقِّ الشيطان؟" سألته. "سأغادر للالتحاق بالجبهة الأماميَّة الليلة"، قال، وهو يطرق نعليه معاً. "إنَّني ملازم أوَّل في..." -أيّاً كان ذاك- الفوج الملكيِّ لصائدي الفئران أو أمر من هذا القبيل... وعلَّق قبَّعته على تمثال جدِّنا النصفيِّ. وصببتُ أنا الشاي لنا. "كم قطعة من السكَّر يريد الملازم الأوَّل في الفوج الملكيِّ لصائدي الفئران؟" سألت. "قطعة. اثنتين. ثلاث. أربع...»

أسقطت كريَّات من الخبز على الطاولة. بينما سقطت كلُّ واحدة، بدت كأنَّها تؤكِّد مرارتها. كانت تبدو أكبر سنّاً، وأكثر إنهاكاً، على الرَّغم من أنَّها ضحكت، إلَّا أنَّها كانت تشعر بالمرارة.

سأل نيكولاس: «من هو نورث؟». نطق كلمة «نورث» كما لو كانت نقطة على البوصلة.

«إنَّه ابن أخي. ابن أخي موريس»، شرحت إليانور.

«لقد جلس هناك»، تابعت سارة القول، «مرتدياً بذلته الملوَّنة بلون الوحل، وسوطه بين رجليه، وأذناه بارزتان على جانبَي وجهه الورديِّ الأحمق، وأيّاً كان ما قلتُه، "جيّد" كان يقول، "جيّد"، "جيّد"، إلى أن التقطتُ المِحراك والملقط»، -رفعت سكّينها وشوكتها- «وعزفت، "فليحمِ الإله الملك، سعيداً ومجيداً، فليدمْ حكمه طويلاً علينا..."». كانت تمسك بشوكتها وسكينها كما لو كانا سلاحين.

إنَّني آسفة لأنَّه رحل، فكَّرت إليانور. حضرت صورة أمام عينيها، صورة صبيٍّ لطيف يلعب الكريكت ويدخِّن السيجار على الشرفة. إنَّني آسفة... تشكَّلت صورة أخرى بعد ذلك. لقد كانت تجلس على الشرفة عينها، غير أنَّ الشمس كانت تغرب الآن، أتت خادمة وقالت، «إنَّ الجنود يحرسون الجبهة بحراب ثابتة!». لقد كانت هذه هي الطريقة الَّتي سمعت من خلالها بالحرب، منذ ثلاث سنوات مضت. وكانت قد فكَّرت، وهي تضع كوب القهوة خاصَّتها على الطاولة الصغيرة، ليس وأنا في وسعي المساعدة! وقد تغلَّبت عليها رغبة سخيفة، لكنَّها شديدة، في حماية تلك التلال، كانت قد نظرت إلى التلال عبر المرج... الآن، نظرت إلى الأجنبيِّ قبالتها.

«كم أنتِ ظالمة»، كان نيكولاس يقول لسارة، «متحيِّزة، ضيِّقة الأفق، ظالمة»، أعاد قوله وهو ينقر على يدها بإصبعه.

كان يقول ما شعرت به إليانور نفسها.

«أجل. أليس الأمر طبيعيّاً...»، شرعت تقول، «هل في وسعك السماح للألمان باجتياح إنكلترا دون أن تفعل شيئاً؟»، قالت وهي تلتفت نحو ريني. لقد كانت تشعر بالأسف لأنَّها تحدَّثت، ولم تكن تلك الكلمات هي

ما كانت تقصد استخدامها. كان ثمَّة تعبير من المعاناة، أم كان الغضب؟ على وجهه.

«أنا؟»، قال، «سوف أساعدهم في صنع القنابل».

وقفت ماغي خلفه. كانت قد أحضرت اللَّحم. «قطِّع»، قالت. كان يُحدِّق إلى اللَّحم الذي وضعته أمامه. التقط السكّين وبدأ يقطِّع اللَّحم آليّاً.

«الآن، نيرس»، ذكَّرته. قطَّعت قطعة أخرى.

«أجل»، قالت إليانور على نحو غريب حين أخذت ماغي الطبق بعيداً. لم تكن تعرف ما يتعيَّن قوله. لقد تحدَّثت من دون تفكير. «فلننهِ هذا بأسرع ما يمكن، وبعدها...». نظرَت إليه. لقد كان صامتاً، التفت بعيداً. كان قد التفت بغية الاستماع إلى ما كان الآخران يقولانه، كما لو كان يرغب هو نفسه في اتِّخاذ ملجأ من الحديث.

«مجرَّد هراء، مجرَّد هراء... لا تتفوَّه بمثل هذا الهراء اللعين -هذا ما قلتِه حقّاً»، كان نيكولاس يقول. كانت يداه عريضتين ونظيفتين، وأظافر يديه مقلَّمتين جدّاً، بحسب ما لاحظته إليانور. فكَّرت في أنَّه قد يكون طبيباً.

«ماذا تعني بكلمة "هراء؟"»، سألت واستدارت نحو ريني. لأنَّها لم تكن تعرف الكلمة.

«أمريكيٌّ»، قال ريني، «إنَّه أمريكيٌّ»، قال وهو يشير إلى نيكولاس.

«كلَّا»، قال نيكولاس وهو يستدير، «إنَّني بولنديٌّ».

قالت ماغي كما لو كانت تغيظه: «لقد كانت والدته أميرة». فكَّرت إليانور في أنَّ هذا يشرح الختم على سلسلته. كان يضع ختماً ضخماً قديماً على سلسلته.

«لقد كانت كذلك»، قال على نحو جدّيٍّ جدّاً، «واحدة من أكثر الأسر نبلاً في بولندا. إلَّا أنَّ والدي كان رجلاً عاديّاً، رجلاً من العامَّة... كان عليكِ

أن تمتلكي قدراً أكبر من السيطرة على النفس»، أضاف قائلاً وهو يلتفت نحو سارة من جديد.

«أجل، كان عليَّ ذلك»، تنهَّدَت، «غير أنَّه هزَّ لجام فرسه، وقال، "وداعاً إلى الأبد، وداعاً إلى الأبد!"». مدَّت يدها وصبَّت لنفسها كأساً أخرى من النبيذ.

«يجب ألَّا تشربي المزيد»، قال نيكولاس وهو يُبعد الزجاجة، «لقد رأت نفسها، على قمَّة برج، تلوِّح بمنديل أبيض إلى فارس يرتدي درعاً»، وضَّح وهو يلتفت نحو إليانور.

«وكان القمر يرتفع فوق أرضٍ بورٍ مظلمة»، تمتمت سارة وهي تلمس وعاء الفلفل.

إنَّ وعاء الفلفل هو أرض بور مظلمة، فكَّرت إليانور وهي تنظر إليه. تشكَّل القليل من الضبابيَّة حول حوافِّ الأشياء. لقد كان تأثير النبيذ، لقد كانت الحرب. بدت الأغراض كأنَّها تفقد قشرتها الخارجيَّة، كأنَّها تحرَّرت من بعض الصلابة السطحيَّة، حتَّى الكرسيُّ ذو الذراعين المذهَّبتين، الَّذي كانت تنظر إليه، بدا مسامياً، لقد بدا كأنَّه يشعُّ ببعض الدفء، ببعض الفتنة، حين نظرت إليه.

«إنَّني أتذكَّر ذاك الكرسيَّ»، قالت لماغي، «ووالدتكِ...»، أضافت قائلة. غير أنَّها لطالما رأت يوجين تتحرَّك ولا تهدأ.

أضافت: «... ترقص».

كرَّرت سارة: «ترقص...». بدأت تقرع بشوكتها على الطاولة.

«لقد اعتدتُ أن أرقص حين كنتُ أصغر سنّاً»، همهمتْ.

«لقد أحبَّني جميع الرجال حين كنتُ أصغر سنّاً. تدلَّى الوردُ وأزهار الليلك، حين كنتُ أصغر سنّاً، حين كنتُ أصغر سنّاً. هل تتذكَّرين يا ماغي؟». نظرت إلى شقيقتها كما لو أنَّهما تذكَّرتا كلتاهما الأمر عينه.

أومأت ماغي: «في غرفة النوم. رقصة فالس»، قالت.

«رقصة فالس...»، قالت إليانور. كانت سارة تنقر لحن فالس على الطاولة. بدأت إليانور تدندن بالتزامن معه، «يا للحماقة، حماقة، يا للحماقة...»

صدح صوتٌ أجوف مطوّلاً.

«كلّا، كلّا!»، اعترضت، كما لو أنَّ شخصاً ما قد أعطاها النوتة الخطأ. غير أنَّ الصوت صاح من جديد.

«صفّارة ضبابيّة؟»، قالت، «على النهر؟».

غير أنَّها عرفت ما كان حين قالت الجملة.

صدحت صفّارة الإنذار من جديد.

«إنَّهم الألمان!»، قال ريني، «أولئك الألمان اللعينون!». وضع شوكته وسكينه بإيماءة مبالغ فيها تدلُّ على الضجر.

قالت ماغي وهي تنهض: «غارة أخرى». غادرت الغرفة، تبعها ريني.

«الألمان...»، قالت إليانور حين أُغلق الباب. لقد شعرت كما لو أنَّ شخصاً ثقيل الظلِّ، مملّاً، قاطع محادثة مثيرة للاهتمام. بدأت الألوان تتلاشى. كانت تنظر إلى الكرسيِّ الأحمر. لقد فقد وهجه حين نظرت إليه، كما لو أنَّ ضوءاً في الأسفل قد أُطفئ.

سمعوا تسارعاً من العجلات في الشارع. بدا كأنَّ كلَّ شيء يمرُّ بسرعة كبيرة. كانت هناك سلسلة من الأقدام تنقر على الرصيف. نهضت إليانور وسحبت الستائر مُبعدةً إيّاها قليلاً. كان القبو غارقاً أسفل الرصيف، لذا لم تتمكّن سوى من رؤية أرجل الناس والتنانير حين تجاوزوا درابزين المنطقة. أتى رجلان يمشيان بسرعة كبيرة، ثمَّ مرَّت امرأة عجوز، وكانت تنُّورتها تتأرجح من جانب إلى آخر.

«ألا يجب أن نطلب إلى الناس الدخول؟»، قالت وهي تستدير. إنَّما، لَمَّا عاودت النظر كانت المرأة العجوز قد اختفت. وكذلك الرجلان. الآن، كان الشارع خالياً تماماً. كانت الستائر في المنازل المقابلة مسدلة بالكامل. سحبت الستارة بحذر. بينما استدارت بدت الطاولة، الَّتي تعلوها الأواني الخزفيَّة الزاهية والمصباح، محاطة بحلقة من الضوء الساطع.

جلست من جديد. «هل تنزعجين من الغارات الجويَّة؟»، سأل نيكولاس وهو ينظر إليها ويعلو وجهه تعبيره الفضوليُّ، «إنَّ الناس يختلفون في ذا الأمر للغاية».

«كلَّا، على الإطلاق»، قالت. كانت ستفتُّ قطعة من الخبز كي تُظهر له بأنَّها كانت في حالة طمأنينة، غير أنَّها لم تكن خائفة، لذا بدا هذا الفعل غير ضروريٍّ بالنسبة إليها.

«إنَّ فرص تعرُّض المرء للإصابة ضئيلة جدّاً في حدِّ ذاتها»، قالت، ثمَّ أضافت، «ماذا كنَّا نقول؟».

بدا لها كأنَّهم كانوا يقولون أمراً مثيراً للاهتمام على نحو بالغ، إلَّا أنَّها لم تستطع أن تتذكَّر ما هو. جلسوا في صمت للحظة. ثمَّ سمعوا ضوضاء على الدرج.

قالت سارة: «إنَّ الأطفال...». سمعوا انفجاراً شاحباً قادماً من مدفع على مسافة بعيدة.

هنا، دخل ريني.

قال: «أحضروا أطباقكم».

«هنا». قادهم إلى داخل سرداب. لقد كان سرداباً كبيراً. كان يحمل مَظْهراً كنسيّاً رطباً مع سقفه الشبيه بالضريح وجدرانه الحجريَّة. كان يُستخدم لأجل الفحم جزئيّاً، والجزء الآخر لأجل النبيذ. أشعَّ الضوء في المنتصف على أكوام متألِّقة من الفحم، زجاجات من النبيذ ملفوفة بالقشِّ وموضوعة على جوانبها على رفوف حجريَّة. كانت هناك رائحة عفنة آتية

من النبيذ، القشّ والرطوبة. كان المكان بارداً بعد غرفة الطعام. دخلت سارة وهي تحمل منامات وأغطية كانت قد أحضرتها من الطابق العلويّ. كانت إليانور سعيدة بلفٍّ نفسها في منامة زرقاء اللَّون، لفَّتها حول نفسها وجلست تمسك بطبقها على ركبتيها. كان المكان بارداً.

«والآن؟»، قالت سارة وهي تمسك بشوكتها منتصبة.

لقد بدوا جميعاً كما لو أنَّهم ينتظرون حدوث أمر ما. دخلت ماغي وهي تحمل بودينغ الخوخ.

«في وسعنا أن نكمل عشاءنا أيضاً»، قالت. على الرَّغم من أنَّها تحدَّثت بعقلانيَّة بالغة، إلَّا أنَّها كانت قلقة بشأن الأطفال، خمَّنت إليانور، لقد كانوا في المطبخ. رأتهم حين مرَّت.

سألت: «هل هم نيام؟».

«أجل. إنَّما، في حال المدافع...»، بدأت القول وهي توزِّع البودينغ في الأطباق. دوى انفجار آخر. لقد كان أعلى هذه المرَّة على نحو واضح.

قال نيكولاس: «لقد اخترقوا الدفاعات».

بدؤوا يتناولون البودينغ خاصَّتهم.

دوى مدفع من جديد. هذه المرَّة، كان دويُّه أعظم.

«هامبستيد»، قال نيكولاس. أخرج ساعته. كان الصمت عميقاً. لم يحدث أيُّ شيء. نظرت إليانور إلى الكتل الحجريَّة المقوَّسة فوق رؤوسهم. لاحظت شبكة عنكبوت في إحدى الزوايا. دوى مدفع آخر. اندفعت نفحة من الهواء معه. لقد كان فوقهم مباشرة هذه المرَّة.

«الساتر»، قال نيكولاس. وضعت ماغي طبقها وذهبت إلى المطبخ.

كان ثمَّة صمت عميق. لم يحدث أيُّ شيء. نظر نيكولاس إلى ساعته كما لو كان يؤقّت المدافع. كان ثمَّة أمر غريب متعلِّق به، فكَّرت إليانور، طبّيٌّ،

كهنوتيٌّ؟ كان يرتدي ختماً تدلَّى من سلسلة ساعته. الرقم على الصندوق المقابل كان ١٣٩٧. لقد لاحظت كلَّ شيء. لا بُدَّ أنَّ الألمان في الأعلى الآن. شعرت بثقل غامض فوق رأسها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، عدَّت وهي تنظر إلى الأعلى نحو الأحجار الرماديَّة المخضرَّة. ثمَّ كان هناك صوت طقطقة عنيفة، مثل انشطار البرق في السماء. تذبذبت شبكة العنكبوت.

قال نيكولاس وهو ينظر إلى الأعلى: «فوقنا». نظروا جميعاً إلى الأعلى. قد تسقط قنبلة في أيٍّ لحظة. كان هناك صمت مميت. سمعوا صوت ماغي في المطبخ عبر الصمت المميت.

«لم يكن هذا شيئاً. عودوا واخلدوا إلى النوم». تحدَّثت على نحو لطيف ومُهدِّئ للغاية.

عدَّت إليانور، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. كانت شبكة العنكبوت تتأرجح. قد يسقط هذا الحجر، فكَّرت وهي تثبِّت حجراً معيَّناً بوساطة عينيها. ثمَّ دوى مدفع من جديد. كان صوته باهتاً أكثر، أكثر بُعداً.

«لقد انتهى الأمر»، قال نيكولاس. أغلق ساعته بضغطة. واستداروا جميعاً وتحرَّكوا على كراسيهم الصلبة كما لو كانوا محشورين.

دخلت ماغي.

«حسناً، لقد انتهى الأمر»، قالت. («لقد استيقظ للحظة، غير أنَّه خلد إلى النوم من جديد»، قالت بصوت خافت لريني، «إلَّا أنَّ الطفل نام تماماً مع كلِّ هذي الضجَّة»). جلست وأخذت الطبق الَّذي كان ريني يمسكه لأجلها.

قالت وهي تتحدَّث بصوتها الطبيعيِّ: «الآن، هيَّا فلننهِ حلوى البودينغ خاصَّتنا».

«الآن، سنشرب بعض النبيذ»، قال ريني. فحص إحدى الزجاجات، ثمَّ أخرى، والتقط زجاجة ثالثة أخيراً ومسحها بحذر باستخدام الجزء السفليِّ من منامته. وضع الزجاجة على صندوق خشبيٍّ وجلسوا في شكل حلقة.

«لم يكن الأمر مهمّاً إلى حدٍّ كبير، أليس كذلك؟»، قالت سارة. كانت تُميل بكرسيها إلى الخلف حين أمسكت بكأسها.

«آهٍ، غير أنَّنا كنَّا خائفين»، قال نيكولاس، «انظري، كم نبدو شاحبين جميعاً».

نظروا إلى بعضهم بعضاً. لقد بدوا، وهم مُدَّثِّرون جميعاً بمناماتهم ولحافاتهم، على خلفيَّة من الجدران الرماديَّة المخضرَّة، وكأنَّ ألوانهم أقرب إلى الأبيض، الأخضر.

«هذا بسبب الضوء على نحو جزئيٍّ»، قالت ماغي، «إنَّ إليانور تبدو كرئيسة دير»، قالت وهي تنظر إليها.

إنَّ المنامة ذات اللَّون الأزرق الغامق الَّتي أخفت الحليَّ الصغيرة السخيفة، وقصاصات المخمل والساتان على فستانها، قد حسَّنت من مظهرها. كان وجهها البالغ منتصف العمر مجعَّداً مثل قفَّاز قديم جُعِّد فتحوَّل إلى العديد من الخطوط الرفيعة الَّتي تشكَّلت نتيجة إيماءات اليد.

«إنَّني غير مرتَّبة، أليس كذلك؟»، قالت وهي تضع يدها على شعرها.

قالت ماغي: «كلَّا. لا تمسِّيه».

«وعمَّ كنَّا نتحدَّث قبل وقوع الغارة؟»، سألت إليانور. لقد شعرت من جديد كما لو أنَّهم كانوا قد أوشكوا أن يقولوا أمراً مثيراً للاهتمام على نحو بالغ حين جرت مقاطعتهم.

إنَّما، كان هناك انقطاع تامٌّ، ولم يستطع أيٌّ منهم تذكُّر ما كانوا يقولون.

«حسناً، لقد انتهى الأمر الآن»، قالت سارة، «إذاً، فلنشرب نخباً، نخب العالم الجديد!»، صاحت. رفعت كأسها في انتعاش. شعروا جميعهم برغبة مفاجئة في الحديث والضحك.

صاحوا جميعاً وهم يرفعون كؤوسهم ويقرعونها ببعضها بعضاً: «نخب العالم الجديد!»

اجتمعت الكؤوس الخمس الممتلئة بالسائل الأصفر معاً.

«نخب العالم الجديد!»، صاحوا وشربوا. تأرجح السائل الأصفر صعوداً وهبوطاً في كؤوسهم.

«الآن يا نيكولاس»، قالت سارة وهي تضع كأسها مع نقرة على الصندوق، «نريد خطاباً! نريد خطاباً!»

«أيَّتها السيِّدات والسادة!»، بدأ القول، ملوّحاً بيده كخطيب، «أيَّتها السيّدات والسادة...»

قاطعه ريني: «إنَّنا لا نريد خطابات».

شعرت إليانور بخيبة الأمل. لكانت أحبَّت أن تسمع خطاباً. إنَّما بدا أنَّه استقبل المقاطعة برحابة صدر، فجلس وهو يومئ ويبتسم.

«فلنتَّجه إلى الطابق العلويِّ»، قال ريني وهو يدفع الصندوق بعيداً.

«ولنغادر هذا السرداب»، قالت سارة وهي تمدِّد ذراعيها، «كهف الطين والروث هذا...»

قاطعتها ماغي: «أنصتوا!». رفعت يدها. «ظننتُ أنَّني سمعتُ صوت المدافع من جديد...».

أنصتوا. كانت المدافع لا تزال تُطلق النار، إنَّما على مسافة بعيدة. كان هناك صوت يشبه تكسُّر الأمواج على شاطئ بعيد جدّاً.

«إنَّهم يقتلون أشخاصاً آخرين فحسب»، قال ريني بوحشيَّة. ركل الصندوق الخشبيَّ.

«إنَّما عليكَ السماح لنا بالتفكير في أمر آخر»، اعترضت إليانور. كان القناع قد نزل على وجهه.

«ويا له من هراء، يا له من هراء ذاك الَّذي يتفوَّه به ريني»، قال نيكولاس وهو يلتفت إليها على نحو خاصٍّ، «إنَّهم مجرَّد أطفال يطلقون

الألعاب الناريَّة في الحديقة الخلفيَّة»، تمتم وهو يساعدها في نزع منامتها. اتَّجهوا إلى الطابق العلويِّ.

دخلت إليانور غرفة المعيشة. لقد بدت أكبر ممَّا كانت تتذكَّره، ورحيبة ومريحة جدّاً. كانت الجرائد متناثرة على الأرض، وكانت النار تشتعل بسطوع، لقد كانت دافئة، لقد كانت مبهجة. شعرت بالتعب الشديد. غاصت في الكرسيِّ. تخلَّفت سارة ونيكولاس عن اللحاق بهم. كان الآخران يساعدان المربِّية في حمل الأطفال إلى السرير بحسب ما افترضت. تراجعت إلى الوراء في الكرسيِّ. بدا كأنَّ كلَّ شيء أصبح هادئاً وطبيعيّاً من جديد. تملَّكها شعور بالهدوء الشديد. كان الأمر كما لو أنَّ مساحة أخرى من الوقت قد مُنحت إليها، غير أنَّها شعرت، وقد سلبها حضور الموت أمراً شخصيّاً، تردَّدت في استخدام الكلمة، بأنَّها «منيعة؟». هل هذا ما كانت تقصده؟ منيعة، قالت وهي تنظر إلى صورة من دون أن تراها. أعادت، منيعة. لقد كانت صورة تلٍّ وقرية ربَّما تقع في شمالي فرنسا، ربَّما في إيطاليا. كانت هناك أشجار زيتون، وأسقف بيض متجمِّعة إلى بعضها بعضاً على منحدر التلِّ. منيعة، كرَّرت وهي تنظر إلى الصورة.

كان بإمكانها سماع صوت ارتطام رقيق على أرضيَّة الطابق العلويِّ، كانت ماغي وريني يضعان الأطفال على أسرَّتهم من جديد، كما افترضت. ثمَّة صرير خفيف، مثل عصفور وسنان يزقزق في عشِّه. كان الأمر خاصّاً ومُسالماً جدّاً بعد المدافع. غير أنَّ الآخرين قد دخلوا هنا.

«هل أزعجهم الأمر؟»، قالت وهي تقوِّم جلستها، «... الأطفال؟»

قالت ماغي: «لا، لقد ناموا على الرَّغم من كلِّ شيء».

«إنَّما، ربَّما حلِموا»، قالت سارة وهي تسحب كرسيّاً. لم يتحدَّث أحد. كان المكان صامتاً للغاية. كانت الساعات التي اعتادت أن تدقَّ معلنةً الساعة في «ويستمنستر» صامتة.

أخذت ماغي قضيب تذكية النار وضربت قطع الخشب. انطلقت الشرارات تتطاير أعلى المدخنة في شكل شلَّال من العيون الذهبيَّة.

«لكم يجعلني هذا...»، بدأت إليانور القول.

توقَّفت.

«أجل؟»، قال نيكولاس.

«... أفكِّر في شأن طفولتي»، أضافت قائلة.

لقد كانت تفكِّر في موريس وفي نفسها، وفي بيبي المسنَّة، إنَّما حتَّى وإن أخبرتهم فإنَّ أحداً لن يفهم ما كانت تعنيه. كانوا صامتين. فجأةً، رنَّت نغمة شبيهة بالفلوت في الشارع الواقع في الأسفل.

«ما هذا؟»، قالت ماغي. جفلت، نظرت نحو النافذة، ونهضت نصف نهوض.

قال ريني وهو يمدُّ يده بغية إيقافها: «إنَّها الأبواق».

صدحت الأبواق من جديد تحت النافذة. ثمَّ سمعوها بعيداً على امتداد الشارع، ثمَّ أبعد أكثر على امتداد الشارع التالي. بدأت أبواق السيَّارات من جديد مباشرة تقريباً، وتسارع العجلات كما لو أنَّ الازدحام المروريَّ قد أُطلق والحياة الليليَّة المعتادة في لندن قد بدأت مجدَّداً.

«لقد انتهى الأمر»، قالت ماغي. عادت إلى الوراء في كرسيِّها، لقد بدت متعبة جدّاً للحظة. ثمَّ سحبت سلَّة نحوها وشرعت ترتق جورباً.

«إنَّني سعيدة لأنَّني في قيد الحياة»، قالت إليانور، «هل ثمَّة خطب ما في ذلك يا ريني؟»، سألت. لقد أرادته أن يتحدَّث. لقد بدا لها كما لو أنَّه كوَّم مؤناً هائلة من المشاعر الَّتي لم يتمكَّن من التعبير عنها. لم يجب. لقد كان يميل مستنداً على مرفقه، يدخِّن سيجاراً وينظر إلى النار.

«لقد أمضيتُ الأمسية جالساً في سرداب فحم في حين يحاول أشخاص آخرون قتل بعضهم بعضاً فوق رأسي»، قال على نحو مفاجئ. ثمَّ تمدَّد والتقط جريدة.

«ريني، ريني، ريني»، قال نيكولاس، كما لو كان يعترض على قول طفل شقيٍّ. تابع القراءة. كان تسارعُ العجلات وأبواق محرّكات السيارات قد اندمجا مع بعضهما متحوِّلين إلى صوت واحد متواصل.

بينما كان ريني يقرأ وكانت ماغي ترتق، ساد صمت في الغرفة. راقبت إليانور النار تجري على طول عروق القطران وتتوهَّج وتنخفض.

«فيمَ تفكِّرين يا إليانور؟»، قاطعها نيكولاس. لقد ناداني إليانور، فكَّرت، هذا صحيح.

«في العالم الجديد...»، قالت بصوتٍ عالٍ، «هل تعتقد أنَّ حالنا سوف يتحسَّن؟»، سألت.

قال وهو يومئ برأسه: «أجل، أجل».

تحدَّث بهدوء بالغ كما لو أنَّه لم يُرد أن يوقظ ريني الَّذي كان يقرأ، أو ماغي الَّتي كانت ترتق، أو سارة الَّتي كانت تميل إلى الخلف في كرسيِّها نصف نائمة. لقد بدا كأنَّهما يتحدَّث أحدهما إلى الآخر على نحو خاصٍّ.

«إنَّما كيف...»، بدأت القول، «... كيف لنا أن نحسِّن من أنفسنا... أن نعيش أكثر...»، خفضت صوتها كما لو كانت تخشى إيقاظ النيام، «... أن نعيش على نحو أكثر طبيعيَّة... على نحو أفضل... كيف لنا أن نفعل ذلك؟».

«إنَّ المسألة فحسب»، قال ثمَّ توقَّف. اقترب منها، «هي مسألة تعلُّم. إنَّ الروح...». توقَّف مجدَّداً.

«أجل -الروح؟»، قالت محفِّزة إيَّاه.

«إنَّ الروح -الكينونة بأكملها»، شرح. جوَّف يديه كما لو كان يحيط بدائرة. «ترغب في أن تتوسَّع، في أن تُغامر، في أن تشكِّل تركيبات جديدة؟»

«أجل، أجل»، قالت كما لو أنَّها تحاول طمأنته إلى أنَّ كلماته كانت صحيحة.

«بينما الآن» -لملم شتات نفسه، وضمَّ قدميه إلى بعضهما، فبدا كسيِّدة مسنَّة خائفة من الفئران- «هذه هي الطريقة التي نحيا بها، أخفقنا إلى الحدِّ الَّذي تحوَّلنا فيه إلى عقدة واحدة صلبة، عقدة واحدة مشدودة؟»

«عُقدة، عُقدة، أجل هذا صحيح»، أومأت.

«كلُّ شخص بمنزلة حجرته الصغيرة الخاصَّة، كلُّ شخص مع صليبه أو كتابه المقدَّس، كلُّ شخص مع ناره، مع زوجته...»

«الَّتي ترتق الجوارب»، قاطعته ماغي.

جفلت إليانور. بدت كأنَّها كانت تمعن النظر إلى المستقبل. إنَّما سُمعا. لقد انتهت خصوصيَّتهما.

ألقى ريني بجريدته. «كلُّ شيء متعفِّن ملعون!»، قال. سواء أكان يشير إلى الجريدة، أم إلى ما كانا يقولانه، لم تعرف إليانور. غير أنَّ الحديث بخصوصيَّة كان أمراً مستحيلاً.

قالت وهي تشير إلى الجرائد: «إذاً، لِمَ تشتريها؟».

«كي أشعل النار بها»، قال ريني.

ضحكت ماغي وألقت الجورب الَّذي كانت تصلحه. «هاك!»، صاحت، «لقد أُصلح...»

جلسوا في صمت من جديد، ينظرون إلى النار. تمنَّت إليانور لو تابع الحديث، الرجل الَّذي تدعوه نيكولاس. متى، لقد رغبت في أن تسأله، متى سوف يأتي هذا العالم الجديد؟ متى سنتحرَّر؟ متى سنعيش بمغامرة، بكماليَّة،

لا كالمشلولين في كهف؟ بدا كأنَّه أدرك أمراً ما فيها، لم تشعر بمساحة من الوقت فحسب، بل بقوى جديدة، شيء مجهول في داخلها. راقبت سيجارته تتحرَّك صعوداً وهبوطاً. ثمَّ أخذت ماغي عصا تذكية النار وضربت الخشب، ومن جديد، انطلق وابل من الشرر ذي العيون الحُمر مرتفعاً في المدخنة. سوف نكون أحراراً، سوف نكون أحراراً، فكَّرت إليانور.

«وفيمَ تفكِّرين طيلة هذا الوقت؟»، قال نيكولاس وهو يضع يده على ركبة سارة. جفلت. «أم كنتِ نائمة؟»، أضاف قائلاً.

«لقد سمعتُ ما كنتما تقولانه»، قالت.

«ما الَّذي كنَّا نقوله؟»، سأل.

«تطير الروح إلى الأعلى مثل الشرر المتطاير إلى أعلى المدخنة»، قالت. كان الشرر يتطاير إلى أعلى المدخنة.

«ليس تخميناً سيِّئاً على الإطلاق»، قال نيكولاس.

«لأنَّ الناس يقولون الأمر عينه دائماً»، ضحكت. رفعت نفسها وجلست منتصبة. «ها هي ذي ماغي، إنَّها لا تقول شيئاً. ها هو ذا ريني، إنَّه يقول، "يا له من متعفِّن ملعون!" تقول إليانور، "هذا ما كنتُ أفكِّر فيه للتو"... ونيكولاس، نيكولاس» -ربَّتت على ركبته- «الَّذي كان يتعيَّن أن يكون في السجن، يقول، "أوه يا أصدقائي الأعزَّاء، فلنحسِّن الروح!"».

«كان عليه أن يكون في السجن؟»، قالت إليانور وهي تنظر إليه.

«لأنَّه يحبُّ»، شرحت سارة. توقَّفت قليلاً. «...الجنس الآخر، الجنس الآخر، كما تفهمين»، قالت بخفَّة وهي تلوِّح بيدها في الهواء بطريقة كانت تشبه فيها والدتها للغاية.

لثانية، عبرت رجفة حادَّة من الاشمئزاز على جلد إليانور كما لو أنَّ سكِّيناً قد قطعه. ثمَّ أدركت أنَّها لم تلمس شيئاً ذا أهميَّة. مرَّت الرجفة الحادَّة. كان في العمق... ماذا؟ نظرت إلى نيكولاس. لقد كان يراقبها.

قال متردِّداً قليلاً: «هل يجعلكِ هذا تبغضينني يا إليانور؟»

«كلّا، على الإطلاق! على الإطلاق!»، صاحت بعفويَّة. طيلة الأمسية، على نحو متقطِّع، كانت تنتابها مشاعر تجاهه، هذا الشعور، ذاك، وشعور آخر، إنَّما الآن اجتمعت كلُّ المشاعر مع بعضها بعضاً وشكَّلت شعوراً واحداً، الإعجاب. قالت من جديد: «كلّا، على الإطلاق». منحها انحناءة بسيطة. ردَّتها له بانحناءة بسيطة. غير أنَّ الساعة على رفِّ المدفأة كانت تدقُّ. كان ريني يتثاءب. لقد تأخَّر الوقت. نهضَت. اتَّجهت إلى النافذة وأبعدت الستائر عن بعضها ونظرت إلى الخارج. كانت لا تزال جميع المنازل مسدلة الستائر. كانت الليلة الشتويَّة الباردة تكاد تكون سوداء. الأمر أشبه بالنظر في فجوة داخل حجر ذي لون أسود مزرقٍّ. بين الفينة والأخرى، اخترقت نجمة السماء. كان يراودها إحساس بالسلام والضخامة، كما لو أنَّ أمراً ما قد استُهلك...

قال ريني مقاطعاً: «أترغبين في أن أطلب سيَّارة أجرة لأجلكِ؟».

«كلّا، سأمشي»، قالت وهي تلتفت، «إنَّني أحبُّ المشي في لندن».

«سنأتي معكِ»، قال نيكولاس، «تعالي يا سارة»، قال. كانت تستند إلى الوراء في كرسيِّها وتؤرجح قدمها صعوداً وهبوطاً.

«غير أنَّني لا أرغب في القدوم»، قالت وهي تلوِّح بيدها مبعدة إيَّاه. «أريد أن أبقى، أريد أن أتحدَّث، أريد أن أغنِّي -ترنيمة تسبيح- أغنية شكر...».

«ها هي ذي قبَّعتكِ، ها هي ذي حقيبتكِ»، قال نيكولاس وهو يناولها إيَّاهما.

«تعالي»، قال وهو يمسك بها من كتفها ويدفعها إلى خارج الغرفة، «تعالي».

همَّت إليانور في أن تتمنَّى ليلة سعيدة لماغي.

«إنَّني أرغب في أن تبقي»، قالت، «هناك الكثير من الأمور التي أرغب في الحديث عنها...».

«غير أنَّني أرغب في الخلود إلى النوم، أريد أن أخلد إلى النوم»، احتجَّ ريني قائلاً. وقف هناك ويداه ممدودتان فوق رأسه، يتثاءب.

نهضت ماغي. «إذاً، عليكَ فعل ذلك»، ضحكت منه قائلة.

«لا تُكلِّف نفسك عناء النزول إلى الطابق السفليِّ»، احتجَّت إليانور قائلة حين فتح الباب لها. غير أنَّه أصرَّ. إنَّه وقح جدّاً، وفي الوقت عينه، مهذَّب جدّاً، فكَّرت، حين تبعته نزولاً الدرج. رجل يشعر بالعديد من الأمور المختلفة، وكلُّها على نحو عاطفيٍّ، كلُّها في الوقت عينه، فكَّرت... إنَّما كانا قد وصلا إلى الصالة. كان نيكولاس وسارة يقفان هناك.

«توقَّفي عن السخرية منِّي لمرَّة واحدة يا سارة»، كان نيكولاس يقول وهو يرتدي معطفه.

«وأنتَ توقَّف عن أن تحاضر فيَّ»، قالت وهي تفتح الباب الأماميَّ.

ابتسم ريني لإليانور حين وقفا للحظة إلى جوار عربة الأطفال.

«إنَّهما يثقِّفان نفسيهما!»، قال.

قالت وهي تبتسم حين صافحته: «ليلة سعيدة». قالت لنفسها، في اندفاعة مفاجئة من القناعة، حين خرجت نحو الهواء المتجمِّد، إنَّ هذا هو الرجل الَّذي كنتُ أودُّ أن أتزوَّجه. ميَّزت شعوراً لم تحسَّ به قبلاً. غير أنَّه يصغرني بعشرين عاماً، فكَّرت، وهو متزوِّج قريبتي. لوهلة، أبغضت مضيَّ الوقت وحوادث الحياة الَّتي تسبَّبت في إبعادها عن كلِّ ذلك، فكَّرت في نفسها. ثمَّة مشهد حضر أمامها، ماغي وريني يجلسان إلى جوار النار. إنَّه زواج سعيد، فكَّرت، هذا ما كنتُ أشعر به طيلة الوقت. زواج سعيد. نظرت إلى الأعلى حين مشت عبر الشارع الصغير المظلم وراء الآخرَين. كانت مروحة عريضة من الضوء، مثل شراع طاحونة هوائيَّة، تجتاح السماء ببطء. بدا أنَّ هذا قد أخذ ما كانت تشعر به وشرح الأمر على نحو أوسع وأبسط، كما لو أنَّ هناك صوتاً

آخرَ يتحدَّث لغة أخرى. ثمَّ توقَّف الضوء، وفحص بقعة كأنَّها مكسوَّة بالصوف من السماء، موضعاً مشبوهاً.

الغارة! قالت لنفسها. لقد نسيتُ الغارة!

كان الآخران قد وصلا إلى التقاطع، وقفا هنا.

«لقد نسيتُ الغارة!»، قالت بصوتٍ عالٍ حين لحقت بهما. أبدت تفاجئها، غير أنَّ الأمر كان حقيقيّاً.

كانوا في شارع فيكتوريا. انحنى الشارع، كان يبدو أعرض ومعتماً أكثر من المعتاد. كانت الأشكال الصغيرة تهرع على طول الرصيف، ظهروا لوهلة تحت مصباح، ثمَّ اختفوا في الظلام من جديد. كان الشارع خالياً تماماً.

«هل ستعمل الحافلة العامَّة كالمعتاد؟»، سألت إليانور وهم يقفون هناك.

نظروا في الأرجاء من حولهم. لم يكن ثمَّة شيء قادم على امتداد الشارع في الوقت الراهن.

قالت إليانور: «سأنتظر هنا».

«إذاً، سأذهب أنا»، قالت سارة من دون مقدِّمات، «ليلة سعيدة!».

لوَّحت بيدها ومشت مبتعدة. عدَّت إليانور أنَّ ذهاب نيكولاس معها أمرٌ مفروغ منه.

كرَّرت قولها: «سأنتظر هنا».

غير أنَّه لم يتحرَّك. كانت سارة قد اختفت بالفعل. نظرت إليانور إليه. هل كان غاضباً؟ هل كان تعساً؟ لم تعلم. إنَّما هنا، لاحت هيئة ضخمة في الأفق عبر الظلام، كانت أضواؤها مغطَّاة بالطلاء الأزرق. جلس الأشخاص الصامتون مكوَّمين في الداخل، كانوا يبدون أقرب إلى الجثث ومصطنعين في الضوء الأزرق. قالت وهي تصافح يد نيكولاس: «ليلة سعيدة». عاودت

النظر إلى الخلف ورأته لا يزال يقف على الرصيف. لا يزال ممسكاً بقبّعته في يده. لقد بدا طويلاً، مثيراً للإعجاب وانعزاليّاً وهو يقف هناك بمفرده، حين تحرّكت المصابيح الكشّافة عبر السماء.

تحرَّكت الحافلة العامَّة. وجدت نفسها تحدِّق إلى رجل مسنٍّ في الزاوية كان يأكل شيئاً ما من كيس ورقيٍّ. رفع نظره ولاحظها وهي تحدِّق إليه.

«أترغبين في رؤية ما أتناوله على العشاء أيَّتها السيِّدة؟»، قال وهو يرفع أحد حاجبيه فوق عينيه المسنَّتين الدامعتين المتلألئتين. وأخرج قطعة من الخبز كانت تعلوها شريحة من اللَّحم البارد أو النقانق.

١٩١٨

غطَّى ستار من الضباب سماء نوفمبر، غطاء ذو طيَّات عدَّة، متشابك إلى الحدِّ الذي شكَّل معه ثخانة واحدة. لم يكن الجوُّ ممطراً، غير أنَّ الضباب، بين الفينة والأخرى، تكاثف على السطح متحوِّلاً إلى رطوبة، جاعلاً الأرصفة زلقة. هنا وهناك على نصلة عشب أو على ورقة شجر تعلَّقت قطرة دون حراك. لم يكن ثمَّة رياح في الجوِّ وقد بدا هادئاً. إنَّ الأصوات القادمة عبر الغطاء -ثغاء خروف، نعيق غراب- كانت خافتة. اندمج ضجيج الحركة المروريَّة فأصبح هديراً واحداً. صدح صوت الزئير وتلاشى بين الحين والآخر، كما لو أنَّ باباً قد فُتح وأُغلق، أو أنَّ الغطاء قد شُقَّ وأُغلق.

«بهيمة قذرة»، تمتمت كروسبي وهي تعرج على امتداد الإسفلت عبر «ريتشموند غرين». كانت رجلاها تؤلمانها. لم يكن الجوُّ ممطراً بالفعل، غير أنَّ الفسحة الضخمة المفتوحة كانت ممتلئة بالضباب، ولم يكن ثمَّة أيُّ شخص قريب، لذا كان في مقدورها أن تتحدَّث بصوتٍ عالٍ.

«بهيمة قذرة»، تمتمت من جديد. كانت قد اكتسبت عادة الحديث بصوتٍ عالٍ. لم يكن ثمَّة أيُّ شخص على مدِّ النظر، نهاية الطريق ضائعة في الضباب، والمكان هادئ للغاية. لم يكن هناك سوى الغربان فقط متجمِّعة على قمم الأشجار، مُطلقة بين الحين والآخر نعيقاً ضئيلاً غريباً، وورقة شجر، منقَّطة بالسواد، تسقط على الأرض. ارتعش وجهها وهي تمشي، كما لو أنَّ عضلاتها قد اكتسبت عادة الاعتراض، قسريّاً، على النكايات والعقبات الَّتي كانت تعذِّبها. غدت طاعنةً في السنِّ في السنوات الأربع الماضية. بدت ضئيلة ومتحدِّبة جدّاً إلى الحدِّ الَّذي بدا معه أنَّ قدرتها على شقِّ طريقها

عبر المساحة الواسعة المفتوحة المغطّاة بالضباب الأبيض أمرٌ مشكوكٌ فيه. إنَّما كان عليها الذهاب إلى «هاي ستريت» لأجل تسوُّقها.

«بهيمة قذرة»، تمتمت من جديد. كانت قد تبادلت بعض الكلمات في ذاك الصباح مع السيِّدة برت حول حمَّام الكونت. لقد بصق فيه، وأخبرتها السيِّدة برت أن تنظِّفه.

تابعت قائلة: «إنَّه كونت بالفعل، إنَّه ليس كونتاً أكثر منكِ». كانت تتحدَّث إلى السيِّدة برت الآن. «إنَّني أنوي أن أجبركِ تماماً»، أكملت قولها. حتَّى هنا في الخارج، في الضباب، حيث كانت حرَّة لتقول ما ترغب في قوله، تبنَّت نغمة توفيقيَّة، لأنَّها علمت أنَّهم كانوا يرغبون في التخلُّص منها. أومأت باستخدام اليد الَّتي لم تكن تحمل الحقيبة حين أخبرت لويزا أنَّها كانت على استعداد تامٍّ لأن تجبرها. واصلت العرج. «ويجب ألَّا أمانع في الذهاب أيضاً»، أضافت قائلةً بمرارة، غير أنَّ هذا الكلام قيل لنفسها فقط. لم يكن من الممتع بالنسبة إليها أن تعيش في المنزل بعد الآن، غير أنَّها لم تكن تمتلك أيَّ مكان آخر تذهب إليه، وهو أمر كانت أسرة برت تعرفه جيّداً.

«وأنا على استعداد تامٍّ لأن أجبركِ»، أضافت قائلة بصوتٍ عالٍ، كما كانت قد فعلت للويزا نفسها. إلَّا أنَّ الحقيقة كانت أنَّها لم تعد قادرة على العمل كما كانت تفعل قبلاً. لقد كانت تعاني من الألم في رجليها. تطلَّب منها إنجاز تسوُّقها الخاصّ استجماع قواها كافَّة، ناهيك عن تنظيف الحمَّام. غير أنَّ الأمر الآن قد آل إلى أن تقبل بكلِّ شيء كما هو أو تترك كلَّ شيء. في الأيَّام الخوالي، كانت لترسل المجموعة بأكملها لتوضيب أغراضهم.

تمتمت، «مومسات... بنات وقحات». الآن، كانت تخاطب الخادمة ذات الشعر الأحمر الَّتي هربت من المنزل البارحة من دون سابق إنذار. كان بإمكانها الحصول على عمل آخر بسهولة. لم يكن الأمر مهمّاً بالنسبة إليها. لذا فقد تُرك الأمر لكروسبي كي تُنظِّف حمَّام الكونت.

«بهيمة قذرة، بهيمة قذرة»، كرَّرت القول، سطعت عيناها ذاتا اللَّون الأزرق الشاحب على نحو عقيم. لقد رأت مرَّة أخرى كتلة البُصاق الَّتي تركها الكونت على جانب حمَّامه، البلجيكيُّ الَّذي سمَّى نفسه كونتاً. «إنَّني معتادة العمل لدى الأشخاص النبلاء، لا لدى الأجانب القذرين من أمثالك»، قالت له حين عرجت.

بدا زئير الحركة المروريَّة أكثر صخباً حين اقتربت من صفٍّ الأشجار الَّذي يحمل مظهر الأشباح. كان في مقدورها الآن أن ترى المنازل القابعة وراء الأشجار. حدَّقت عيناها ذاتا اللَّون الأزرق الشاحب إلى الأمام عبر الضباب حين شقَّت طريقها نحو الدرابزين. بدت عيناها وحدهما كأنَّهما تعبِّران عن تصميم لا يُقهر، ولم تكن لتستسلم، كانت عازمة على النجاة. الضباب الناعم يرتفع ببطء. استلقت الأوراق رطبة وأرجوانيَّة على الطريق الإسفلتيِّ. نعقت الغربان وتنقَّلت على قمم الأشجار. الآن، انبثق صفٌّ غامق من الدرابزين عبر الضباب. بدا زئير الحركة المروريَّة في «هاي ستريت» شيئاً فشيئاً أكثر ضجيجاً. توقَّفت كروسبي ووضعت حقيبتها على الدرابزين قبل أن تتابع مسيرها نحو إقامة حرب مع حشد المشترين في «هاي ستريت». كان عليها أن تدفعَ وتُزاحمَ، وأن تُدفعَ بالمناكب بطريقة أو بأخرى، وكانت قدماها تؤلمانها. لم يكونوا يهتمُّون ما إذا اشتريتَ أو لم تفعل، فكَّرت، وغالباً ما كانت تُدفع خارج مكانها من قِبل مومس وقحة. فكَّرت في الفتاة ذات الشعر الأحمر من جديد، حين وقفت هناك، تلهث قليلاً، وحقيبتها موضوعة على الدرابزين. كانت رجلاها تؤلمانها. فجأةً، انطلقت صفَّارة الإنذار المطوَّل وهي تصدح بصوت عويلها الكئيب، ثمَّ وقع انفجار باهت.

«إنَّها تلك المدافع من جديد»، تمتمت كروسبي وهي تنظر إلى الأعلى نحو السماء الرماديَّة الشاحبة بانزعاج نزق. ارتفعت الغربان، خائفة من

المدافع، وحامت حول قمم الأشجار. ثمَّ دوى صوت انفجار باهت آخر. توقَّف رجل يقف على سلَّم ويطلي نوافذ أحد المنازل ممسكاً بفرشاته في يده، ونظر في الأرجاء. توقَّفت أيضاً امرأة كانت تمشي وهي تحمل رغيف خبز قد خرج نصفه من التغليف الورقيِّ. انتظر كلٌّ منهما كما لو أنَّ أمراً يوشك أن يحدث. انجرف انقلاب من الدخان واندفع نحو الأسفل صادراً من المداخن. دوت المدافع من جديد. قال الرجل الواقف على السلَّم أمراً ما للمرأة الَّتي على الرصيف. أومأت برأسها. ثمَّ غمس فرشاته في الدلو وتابع يطلي. تابعت المرأة سيرها. لملمت كروسبي شتات نفسها وترنَّحت عبر الطريق نحو «هاي ستريت». واصلت المدافع دويَّها وناحت صفَّارات الإنذار. لقد انتهت الحرب، هذا ما أخبرها به شخص ما حين اتَّخذت مكانها في صفٍّ متجر البقالة. تابعت المدافع الدويَّ وناحت صفَّارات الإنذارات.

الوقت الحاضر

كانت أمسية صيفيَّة، وكانت الشمس تغرب، والسماء لا تزال زرقاء، غير أنَّ اللَّون الذهبيّ يشوبها، كما لو أنَّ ستاراً رقيقاً من شاش ضبابيٍّ قد تدلَّى فوقها، وبين مكان وآخر في الاتِّساع الأزرق والذهبيّ تعلَّقت جزيرة من السحب. في الحقول كانت الأشجار مكسوَّة على نحو مهيب بغطاء مزركش من أوراقها المذهَّبة، الَّتي لا تعدُّ ولا تُحصى. رقدت الأغنام والأبقار، ذوات اللَّون الأبيض اللؤلؤيّ أو الملوَّنة جزئيّاً، أو مضغت طريقها عبر العشب نصف الشفَّاف. أحاطت حافَّة من الضوء بكلِّ شيء. ارتفع دخان أحمر-ذهبيٌّ من الغبار على الطرقات. حتَّى الفيلَّات الصغيرة المبنيَّة من الطوب الأحمر على الطرق السريعة أصبحت مساميَّة ومتوهِّجة بالضوء، وأشعَّت الأزهار في حدائق الأكواخ، ليلكيَّة وورديَّة مُعرَّقة كفساتين من القطن، كما لو أنَّها كانت مُضاءة من الدَّاخل. إنَّ وجوه الناس الَّذين يقفون عند أبواب الكوخ أو يهرعون على طول الرصيف قد أظهرت الوهج الأحمر عينه، في حين واجهوا الشمس الغاربة ببطء.

خرجت إليانور من شقَّتها وأغلقت الباب. كان وجهها مُضاءً بوهج الشمس، في حين غربت فوق لندن، وللحظة كانت منبهرة، ونظرت إلى السطوح والأبراج الَّتي تقع تحتها. كان ثمَّة أشخاص يتحدَّثون داخل غرفتها، وأرادت التحدُّث إلى ابن شقيقها على انفراد. كان نورث، ابن شقيقها موريس، قد عاد توّاً من أفريقيا، وندرت رؤيتها له على انفراد. كان العديد من الأشخاص قد أتوا في تلك الأمسية، ميريام باريش، رالف بيكرسغيل، أنتوني ويد، بيغي ابنة شقيقها، وبالإضافة إليهم جميعاً، ذاك الرَّجل الثرثار للغاية، صديقها نيكولاس بومجالوفسكي، الَّذي ينادونه براون اختصاراً. تبادلت الحديث مع نورث على انفراد بصعوبة. للحظة، وقفا في

المربَّع الساطع من ضوء الشمس الَّذي سقط على أرضيَّة الممرِّ الحجريَّة. كانت لا تزال الأصوات تتحدَّث في الدَّاخل. وضعت يدها على كتفه.

«من اللطيف جدّاً رؤيتك»، قالت، «وأنتَ لم تتغيَّر على الإطلاق...». نظرت إليه. كانت لا تزال ترى في الرجل الضخم، الَّذي كان محترقاً جدّاً، مع قليل من الرماديِّ أيضاً فوق الأذنين، آثاراً من ذاك الصبيِّ ذي العينين البنّيَّتين، الَّذي يلعب الكريكيت. «علينا ألَّا نسمحَ لكَ بالعودة»، تابعت قولها وهي تبدأ النزول على الدَّرج معه، «إلى تلك المزرعة المروِّعة».

ابتسم. «وأنتِ لم تتغيَّري أيضاً»، قال.

كانت تبدو صارمة للغاية. لقد سافرت إلى الهند. كان وجهها مسمرّاً بسبب الشمس. كان يفكِّر في أنَّها نادراً ما تظهر في عمرها الحقيقيِّ مع شعرها الأبيض وخدَّيها البنّيَّين، إنَّما لا بدَّ أنَّ سنَّها يتجاوز السبعين بكثير. نزلا الدَّرج وهما يمسكان بذراعَي بعضهما بعضاً. كانت هناك ستُّ درجات حجريَّة كي تُنزل، غير أنَّها أصرَّت على النزول إلى الطابق السفليِّ معه كي تودِّعه.

«ويا نورث»، قالت حين وصلا إلى الصالة، «كن حذراً...». توقَّفت عند عتبة الباب. قالت: «إنَّ القيادة في لندن ليست كما القيادة في أفريقيا».

كانت سيَّارته الرياضيَّة الصغيرة في الخارج، وكان هناك رجل يعبر أمام الباب في ضوء الشمس المسائيَّة وهو يصيح: «كراسٍ وسلال قديمة للإصلاح».

هزَّ رأسه، وكان صوته غارقاً بسبب صوت الرجل الَّذي يصيح. ألقى نظرة إلى لوحة معلَّقة في الصالة، وثمَّة أسماء مكتوبة عليها. جرت الإشارة إلى الأشخاص المهمِّين، وأولئك الَّذين فقدوا أهميَّتهم على نحو أمتعه قليلاً، بعد أفريقيا. تلاشى صوت الرجل الَّذي يصيح «كراسٍ وسلال قديمة للإصلاح»، على مهل.

«حسناً، وداعاً يا إليانور»، قال وهو يستدير، «وسنلتقي لاحقاً». ركب سيَّارته.

«أوه، إنَّما يا نورث...»، صاحت إذ تذكَّرت فجأةً أمراً كانت تريد أن تقوله له. غير أنَّه شغَّل المحرّك، ولم يسمع صوتها. لوَّح لها بيده، ووقفت هناك أعلى الدَّرجات وشعرها يتطاير في الرياح. بدأت السيَّارة بإصدار اهتزازة. لوَّحت له تلويحة أخرى بيدها في حين التفَّ حول الزاوية.

إنَّ إليانور لا تزال على حالها تماماً، فكَّر، ربَّما تكون عشوائيَّة بمقدار أكبر. مع غرفة ممتلئة بالأشخاص -كانت غرفتها الصغيرة مكتظَّة- أصرَّت على أن تُريه حوض حمَّامها الجديد. «تضغط على ذاك المقبض»، كانت قد قالت، «وانظر...». عدد لا يُحصى من الإبر المائيَّة انطلقت إلى الأسفل. ضحك بصوتٍ عالٍ. جلسا على حافَّة الحوض معاً.

إلَّا أنَّ السيَّارات وراءه أطلقت أبواقها بإلحاح، أطلقوا الأبواق مراراً وتكراراً. علامَ؟ سأل. أدرك فجأة أنَّهم كانوا يطلقون أبواقهم لأجله. كان الضوء قد تغيَّر، إذ كان الآن أخضر، إنَّه يُغلق الطريق. بدأ في التحرُّك باهتزازة عنيفة من سيَّارته. لم يكن قد أتقن فنَّ القيادة في لندن.

لا يزال يبدو ضجيج لندن يصمُّ الآذان بالنسبة إليه، وكانت السرعة الَّتي يقود بها الناس مرعبة. غير أنَّه كان أمراً مثيراً للحماسة بعد أفريقيا. حتَّى المحالُّ كانت بديعة، فكَّر في حين ينطلق مسرعاً متجاوزاً صفّاً من النوافذ ذوات الزجاج المسطَّح. كانت هناك عربات يدٍّ تعلوها الفاكهة والأزهار على امتداد حرف الرصيف أيضاً. كانت هناك وفرة في كلِّ مكان، الكثير... أشعَّ الضوء الأحمر مرَّة أخرى، فتوقَّف.

نظر في محيطه. لقد كان في مكان ما في شارع «أكسفورد»، وكان الرصيف مزدحماً بالأشخاص، يدفعون بعضهم بعضاً، ويجولون حول النوافذ ذوات الزجاج المسطَّح، الَّتي لا تزال مُضاءة. كانت المباهج والألوان والتنوُّع أموراً مذهلة بعد أفريقيا. طيلة هذه السنوات، فكَّر في نفسه وهو ينظر إلى راية عائمة من الحرير الشفَّاف، كان قد اعتاد البضائع الخام الجلود والأصواف، هنا، كانت توجد السلع المكتملة. لفتت انتباهه

حقيبة من الجلد الأصفر مزوَّدة بزجاجات فضيَّة. إلَّا أنَّ الضوء قد تحوَّل إلى الأخضر من جديد. انطلق مصدراً اهتزازة.

مضت عشرة أيَّام فقط منذ عودته، وكان ذهنه خليطاً من الاحتمالات والغايات. بدا الأمر له كأنَّه لم يتوقَّف قطُّ عن الحديث، مصافحة الأيادي، والسؤال عن الحال. انبثق الناس من كلِّ مكان، والده، شقيقته، رجال مسنُّون نهضوا من الكراسي وقالوا، ألا تذكرني؟ كان الأطفال الذين تركهم وهم في الحضانة قد أصبحوا رجالاً بالغين في الجامعة، والفتيات ذوات الضفائر أصبحنَ نساءً متزوِّجات. كان لا يزال مشوَّشاً بسبب هذه الأمور كلِّها، لقد تحدَّثوا بسرعة كبيرة جدّاً، ولا بُدَّ أنَّهم يعتقدون أنَّه متبلِّد الذهن جدّاً، فكَّر. كان عليه الانسحاب إلى النافذة والقول، «ماذا، ماذا، ما الَّذي يعنونه بقولهم؟»

كان هناك رجل في منزل إليانور، في سبيل المثال، وكان يتحدَّث بلهجة أجنبيَّة، وقد عصر الليمون في الشاي خاصَّته. من قد يكون، تساءل؟ «أحد أطبَّاء أسنان نيل»، قالت شقيقته بيغي، وهي تجعِّد شفتها. لأنَّهم كانوا جميعاً يمتلكون جملاً معدَّة مسبقاً، عبارات جاهزة. إنَّما، كان هناك رجل صامت على الأريكة. كان يقصد الرجل الآخر، الَّذي يعصر الليمون في الشاي خاصَّته. تمتمت، «إنَّنا ندعوه براون». لِمَ براون إن كان أجنبيّاً، تساءل. في أيِّ حال، لقد أضفوا جميعاً طابعاً رومانسيّاً على العزلة والوحشيَّة -«أتمنَّى لو كنتُ فعلتُ ما فعلتَه»، قال رجل ضئيل يُدعى بيكرسغيل- باستثناء هذا الرَّجل براون، الَّذي قال أمراً أثار اهتمامه. كان قد قال: «إن كنَّا لا نعرف أنفسنا، فكيف لنا أن نعرف الأشخاص الآخرين؟». كانوا يناقشون أمور الحكَّام المستبدِّين، نابليون، نفسيَّة الرجال العظماء. إنَّما، كان هناك ضوء أخضر، «انطلق». انطلق من جديد. ثمَّ، انطلقت السيِّدة الَّتي تضع قرطين تتكلَّم بحماس حول مفاتن الطبيعة. ألقى نظرة على اسم الشارع إلى اليسار. كان ذاهباً لتناول العشاء مع سارة، لكنَّه لم يمتلك الكثير من الأفكار حول كيفيَّة وصوله إلى هناك. كان

قد سمع صوتها فقط عبر الهاتف وهي تقول: «تعالَ تناول وجبة العشاء معي، شارع ميلتون، الثاني والخمسون، إنَّ اسمي موجود على الباب». كان بالقرب من برج السجن. غير أنَّ صعوبة قد واجهته في وضع هذا الرجل براون في موضعه الصحيح على الفور. لقد تحدَّث، وهو يفرد أصابعه، بفصاحة رجل سيصبح مملاً في نهاية الأمر. وجالت إليانور في الأرجاء، تمسك بكوب، وتخبر الناس حول حوض استحمامها. تمنَّى لو أنَّهم يركِّزون على الموضوع الرئيس. لقد أثار الحديث اهتمامه. الحديث الجديُّ عن الأمور المجرَّدة. «هل كانت العزلة جيِّدة، هل كان المجتمع سيِّئاً؟». كان هذا الأمر مثيراً للاهتمام، غير أنَّهم انتقلوا من موضوع إلى آخر بسرعة. حين قال الرجل الضخم، «إنَّ الحبس الانفراديَّ هو أعظم عذاب نُلحقه»، هتفت على الفور السيِّدة المسنَّة الهزيلة، ذات الشعر الناعم، وتضع يدها على قلبها، «يجب أن يُلغى!». لقد بدا أنَّه سبق لها أن زارت السجون.

«أين أنا الآن بحقِّ الشياطين؟»، سأل، وهو ينظر إلى الاسم عند زاوية الشارع. كان ثمَّة شخص ما قد رسم دائرة بالطباشير على الحائط مع خطٍّ متعرِّج فيها. نظر إلى نهاية المشهد. باب تلو الآخر، ونافذة تلو الأخرى، تكرَّر النمط عينه. كان هناك وهج أحمر مصفرٌّ يعلوها جميعها، لأنَّ الشمس كان تغرق عبر غبار لندن. كان كلُّ شيء مغطًّى بوهج أصفر دافئ. وكانت عربات اليدِّ الممتلئة بالفواكه والأزهار تُسحب على حافَّة الرصيف. طلتِ الشمس الفواكه باللَّون الذهبيِّ، وكان للزهور تألُّق غير واضح. كان ثمَّة ورد، وأزهار قرنفل وزنابق أيضاً. كان يشعر بميل بالغ إلى التوقُّف وشراء مجموعة منها بغية أخذها لسالي. غير أنَّ السيَّارات كانت تطلق أبواقها وراءه. تابع تحرُّكه. إنَّ طاقة من الأزهار تُمسكها اليدان ستُليِّن غرابة اللقاء والأمور المعتادة الَّتي يتعيَّن قولها، هكذا فكَّر. «كم من اللطيف لقاؤك، لقد أصبحت أكثر اكتنازاً»، وما شابه. كان قد سمع صوتها عبر الهاتف فقط، وقد تغيَّر الناس بعد كلِّ هذه السنين. سواء أكان هذا الشارع الصحيح أم لم يكن، لم يستطع أن يكون

متيقِّناً، فمشى ببطء نحو الزاوية. ثمَّ توقَّف، ثمَّ تابع السير مجدَّداً. كان هذا هو شارع «ميلتون»، شارع معتم، ذو منازل قديمة تُؤجَّر الآن كغرف مستأجرة، غير أنَّها كانت قد رأت أيَّاماً فُضلى.

«الأرقام الزوجيَّة على ذاك الجانب، والأرقام الفرديَّة على هذا»، قال. كان الشارع مُغلقاً بالشاحنات. أطلق بوق سيَّارته. توقَّف. ثمَّ أطلق البوق من جديد. اتَّجه رجل نحو رأس الحصان، إذ كانت عربة فحم، ومشى الحصان متهادياً. كان المنزل ذو الرقم اثنين وخمسين على امتداد الصفِّ. مشى ببطء نحو الباب. ثمَّ، توقَّف.

دوى صوت عبر الشارع، صوت امرأة ترفع صوتها وهي تغنِّي مقاماً موسيقيّاً.

«يا له من شارع حقير...»، قال في حين جلس بسكون في سيَّارته للحظة -هنا عبرت الشارع امرأة تمسك بإبريق أسفل ذراعها- «قذر»، أضاف قائلاً، «شارع وضيع كي يعيش المرء فيه». أوقف محرِّكه، نزل وفحص الأسماء على الباب. تراكبت الأسماء فوق بعضها بعضاً، هنا، على بطاقة للزيارة، هناك، محفور على النحاس، فوستر، أبراهامسون، روبرتس، س. بارغيتر كان بالقرب من الأعلى، مخرَّم على شريط من الألمنيوم. قرع واحداً من الأجراس العديدة. لم يأتِ أحد. تابعت المرأة غناء المقامات الموسيقيَّة، وتصاعد صوتها ببطء. يأتي مقام اللَّحن، ويذهب مقام اللَّحن، فكَّر. اعتاد أن يكتبَ الشِّعر، الآن، أتى المقام من جديد، في حين وقف هناك منتظراً. ضغط على الجرس بحدَّة مرَّتين أو ثلاث مرَّات. إلَّا أنَّ أحداً لم يُجب. ثمَّ، دفع الباب، لقد كان مفتوحاً. كانت ثمَّة رائحة غريبة في الصالة، رائحة طبخ خضراوات، وقد جعلها الورق البنِّيُّ الزيتيُّ قاتمةً. صعد درجاً ما كان ذات مرَّة مسكناً لنبلاء. كان الدرابزين منحوتاً، غير أنَّه كان مطليّاً بورنيش أصفر بخس. صعد ببطء ووقف عند الممرِّ الفوقيِّ، غير واثق أيَّ باب عليه

أن يقرع. لطالما كان يجد نفسه الآن خارج أبواب منازل غريبة. كان يتملَّكه شعور بأنَّه كان نكرة ولم يكن في أيٍّ مكان على وجه التحديد.

أتى صوت المغنِّية من الجانب الآخر للطريق وهي تُصعِّد المقام على نحو متعمَّد، كما لو كانت النوتات الموسيقيَّة أشبه بالدرج، وهنا، توقَّفت على نحو كسول، بفتور، موقفة إصدار الصوت الَّذي لم يكن سوى صوت نقيٍّ. ثمَّ، سمع شخصاً ما في الداخل، يضحك.

لقد كان صوتها، قال. إنَّما، ثمَّة شخص معها. شعر بالانزعاج. كان يأمل في أن يجدها بمفردها. كان الصوت يتحدَّث ولم يُجب حين قرع الباب. فتح الباب بحذر شديد وولج إلى الداخل.

كانت سارة تقول، «أجل، أجل، أجل». كانت راكعة تتحدَّث عبر الهاتف، إنَّما لم يكن أيُّ شخص هناك. رفعت يدها حين رأته وابتسمت له، غير أنَّها أبقت يدها مرفوعة كما لو أنَّ الضوضاء الَّتي أصدرها قد تسبَّبت في أن تفوِّت ما كانت تحاول سماعه.

«ماذا؟»، قالت وهي تتحدَّث عبر الهاتف، «ماذا؟». وقف بصمت وهو ينظر إلى الصور الظلّيَّة الَّتي تعود إلى أجداده، والموضوعة على رفِّ المدفأة. لم يكن ثمَّة أزهار، كما لاحظ. تمنَّى لو أحضر لها بعضاً منها. استمع إلى ما كانت تقوله، وحاول أن يجمعه إلى بعضه بعضاً.

«أجل، أستطيع الآن أن أسمع... أجل، أنت على حقٍّ. لقد دخل شخص ما... مَن؟ نورث. قريبي من أفريقيا...».

هذا أنا، فكَّر نورث. «قريبي من أفريقيا». هذا هو وسمي.

كانت تقول، «هل التقيته؟». كانت هناك وقفة قصيرة. «هل تعتقد ذلك؟»، قالت. استدارت ونظرت إليه. لا بُدَّ أنَّهما كانا يناقشان أمره، فكَّر. شعر بعدم الراحة.

«وداعاً»، قالت، وأغلقت سمَّاعة الهاتف.

«يقول إنَّه قد التقاك»، قالت وهي تتَّجه نحوه وتمسك بيده، «وقد أُعجب بك»، أضافت قائلة وهي تبتسم.

«مَن كان ذاك؟»، سأل، ينتابه شعور بالغرابة، غير أنَّه لم يمتلك أيَّ أزهار كي يعطيها إيَّاها.

قالت: «رجل التقيتَه في منزل إليانور».

«أجنبيٌّ؟»، سأل.

قالت وهي تدفع كرسيّاً لأجله: «أجل. يُدعى براون».

جلس على الكرسيِّ الَّذي كانت قد دفعته لأجله، وتكوَّمت هي قبالته واضعة قدمها تحتها. تذكَّر التصرُّف، لقد عادت في أقسام، الصوت أوّلاً، ثمَّ التصرُّف، غير أنَّ أمراً ما بقي مجهولاً.

«لم تتغيَّري»، قال لها، وكان يعني وجهها. نادراً ما يتغيَّر الوجه العاديُّ، في حين تذبل الوجوه الجميلة. لم تكن تبدو كبيرة أو صغيرة في السنِّ، إنَّما بدينة، وكانت الغرفة غير مرتَّبة، مع زهرة الجيرانيوم الموضوعة في إناء عند الركن. غرفة في مسكن للإيجار قد رُتِّبت على عجل، حسب تخمينه.

قالت وهي تنظر إليه: «وأنت...». كان الأمر كما لو أنَّها كانت تحاول وضع نسختين مختلفتين منه مع بعضهما بعضاً، ربَّما تكون إحداهما الَّتي كانت على الهاتف والأخرى الموجودة على الكرسيِّ. أم كانت ثمَّة نسخة أخرى؟ هذا النصف يعرف الأشخاص، وهذا النصف يُعرف، هذا الشعور بالعين الَّتي تُحدِّق في الجسد، كذبابة تزحف، لكم كان مزعجاً، فكَّر، غير أنَّه حتميٌّ، بعد كلِّ هذه السنوات. كانت الطاولات مُتَّسخة، فتردَّد وهو يمسك بقبَّعته في يده. ابتسمت له في حين جلس هناك ممسكاً بقبَّعته في حالة من انعدام اليقين.

قالت: «مَن الرجل الفرنسيُّ الفتيُّ الَّذي يرتدي قبَّعة رسميَّة في الصورة؟».

«أيّ صورة؟»، سأل.

«الَّذي يجلس ويبدو دَهِشاً ويمسك قبَّعته بيده»، قالت. وضع قبَّعته على الطاولة، غير أنَّه فعل ذلك بغرابة. سقط كتاب على الأرض.

«المعذرة»، قال. لقد عنَت، بحسب افتراضه، حين قارنته بالرجل الدَّهش في الصورة، أنَّه كان أخرقَ، ولطالما كان على هذا النحو.

«هذه ليست الغرفة الَّتي أتيت إليها في المرَّة الماضية؟»، سأل.

لقد ميَّز كرسيّاً، فهو كرسيٌّ ذو مخالب مذهَّبة، وكان هناك البيانو المعتاد.

«كلَّا، كانت تلك في الطرف الآخر من النهر»، قالت، «حين أتيتَ كي تودِّعني».

لقد تذكَّر. أتاها في الأمسية السابقة لذهابه إلى الحرب، وقد علَّق قبَّعته على التمثال النصفيِّ لجدِّهما، الَّذي اختفى. وقد سخرت منه.

سخرت منه قائلة: «في كم قطعة من السكَّر يرغب ملازم أوَّل في الفوج الملكيِّ لصائدي الفئران؟». كان بإمكانه أن يراها الآن تُسقط قطع السكَّر في الشاي خاصَّته. وقد تشاجرا. وتركها. كانت ليلة الغارة، كما تذكَّر. تذكَّر الليلة المظلمة، أضواء الكشَّاف، الَّتي اكتسحت السماء ببطء، بين الفينة والأخرى، توقَّفوا للبحث في بقعة شبيهة بالصوف، سقطت كرات صغيرة من الرصاص، وانطلق الناس مسرعين على طول الشوارع الخالية المغطَّاة باللَّون الأزرق. كان ذاهباً إلى «كينسينغتون» بغية تناول العشاء مع أسرته، حينها ودَّع والدته ولم يرَها مرَّة أخرى بعد ذلك.

قاطعه صوت المغنِّية، «آه، ه، ه، آه، ه، ه، أوه، ه، ه»، غنَّت، وهي تتصاعد بفتور على المقام وتهبط عليه وهي في الجهة الأخرى من الشارع.

«هل تستمرُّ في فعل هذا كلَّ ليلة؟»، سأل. أومأت سارة. بدت النغمات القادمة عبر هواء الأمسية الرنَّان بطيئة وحسّيَّة. بدت المغنِّية كأنَّها تمتلك وقت فراغ لا نهائيٍّ، وكان بإمكانها أن تستريحَ على كلِّ درج.

ولم يكن ثمَّة علامة على العشاء، كما لاحظ، سوى صحن من الفواكه على مفرش طاولة المسكن المستأجر الرخيص، الَّذي اصفرَّ بالفعل، ويحوي بعض بقع المرق.

«لِمَ تختارين الأحياء الفقيرة على الدوام...»، كان يبدأ القول، لأنَّ الأطفال كانوا يصرخون في الشارع الموجود في الأسفل، حين فُتح الباب ودخلت فتاة تحمل مجموعة من السكاكين والشوك. خادمة المسكن المستأجر العاديَّة، هكذا فكَّر نورث، مع يديها الحمراوين، وواحدة من تلك القبَّعات البيض المتبخترة الَّتي ترتديها الفتيات في المساكن المستأجرة على شعورهنَّ حين يقيم الـمُستأجِر حفلاً. كان عليهما أن يخلقا حواراً في حضورها، قال: «لقد كنتُ أقابل إليانور». «هناك حيث التقيتُ صديقكِ براون...»

في أثناء إعدادها للطاولة، أصدرت الفتاة قعقعة بالسكاكين والشوك الَّتي كانت تمسكها في شكل مجموعة.

«أوه، إليانور»، قالت سارة، «إليانور...». غير أنَّها راقبت الفتاة وهي تتجوَّل حول الطاولة على نحو أخرقَ، لقد أخذت أنفاساً ثقيلة إلى حدٍّ ما وهي تُعدُّ الطاولة.

«لقد عادت من الهند توّاً»، قالت. راقب هو أيضاً الفتاة وهي تعدُّ المائدة. الآن، وضعت زجاجة من النبيذ بين أواني المسكن الـمُستأجر الفخاريَّة الرخيصة.

«تتسكَّع حول العالم»، تمتمت سارة.

«وتُرفِّه عن أغرب مجموعة من كبار السنِّ المملِّين»، أضاف قائلاً. فكَّر في الرَّجل الضئيل ذي العينين الزرقاوين الشرستين، الَّذي تمنَّى لو ذهب إلى أفريقيا، والمرأة الناعمة الَّتي ترتدي خرزاً وزارت السجون كما بدا.

«...وذاك الرجل، صديقكِ-»، بدأ القول. هنا، خرجت الفتاة من الغرفة، غير أنَّها تركت الباب مفتوحاً، علامة على أنَّها ستعود.

«نيكولاس»، قالت سارة، مُنهية له جملته، «الرَّجل الَّذي تدعوه براون».

كانت ثمَّة وقفة قصيرة. «وما الَّذي تحدَّثتما عنه؟»، سألَت.

حاول أن يتذكَّر.

«نابليون، نفسيَّة رجال عظماء، إن كنَّا لا نعرف أنفسنا فكيف لنا أن نعرف أشخاصاً آخرين...». توقَّف. كان من الصعب أن يتذكَّر على نحو دقيق ما الَّذي قيل منذ ساعة مضت.

«ومن ثمَّ»، قالت وهي تمدُّ يداً واحدة وتلمس إصبعاً كما فعل براون تماماً، «كيف لنا أن نصوغ القوانين والأديان الملائمة، الملائمة، في حين أنَّنا لا نعرف أنفسنا؟»

صاح: «أجل! أجل!». لقد حاكت تصرُّفه تماماً، اللَّكنة الأجنبيَّة الخفيفة، وإعادة الكلمة الصغيرة «تُلائم»، كما لو أنَّه لم يكن متيقِّناً تماماً من الكلمات القصيرة في اللُّغة الإنكليزيَّة.

«وإليانور»، تابعت سارة قولها، «تقول... "هل في وسعنا التحسُّن، هل في وسعنا تحسين أنفسنا؟" وهي جالسة على حافَّة الأريكة؟»

«حوض الاستحمام»، ضحك مصحِّحاً قولها.

«لقد أجريتِ هذه المحادثة قبلاً»، قال. كان هذا ما يشعر به على وجه الدقَّة. لقد تحدَّثوا من قبل. «وبعد ذلك»، تابع القول، «ناقشنا...»

غير أنَّ الفتاة اندفعت إلى الداخل هنا. كانت تُمسك أطباقاً في يدها هذه المرَّة، أطباقاً من ذات الحلقة الزرقاء، أطباقَ مسكنٍ مستأجَر رخيصة. «المجتمع أو العزلة، أيُّهما أفضل»، قال منهياً جملته.

واصلت سارة النظر إلى الطاولة. «وأيّهما»، سألت، بالطريقة المشتَّتة لشخص يراقب بوساطة حواسه السطحيَّة أمراً وهو يُنفِّذ، في حين يفكِّر، في الوقت عينه، في شأن أمر آخر، «أيّهما قلت؟ أنتَ الَّذي كنتَ وحيداً طيلة هذه السنين»، قالت. غادرت الفتاة الغرفة من جديد. «وسط أغنامك يا

نورث». توقَّفت، لأنَّ عازف ترومبون الآن قد بدأ يصدح في الشارع أدنى الغرفة، وبينما استمرَّ صوت المرأة الَّتي تتمرَّن على مقاماتها الموسيقيَّة، بدوَا كأنَّهما شخصان يحاولان التعبير عن رأيين مختلفين تماماً حول العالم على نحو عامّ مع بعضهما بعضاً، وفي وقت واحد. تصاعد الصوت، وناحت آلة الترومبون. ضحكا.

«... جالساً على الشرفة، تنظر إلى النجوم»، تابعت قولها.

رفع نظره إلى الأعلى، هل كانت تقتبس أمراً ما؟ تذكَّر أنَّه قد كتب لها في الفترة الأولى من رحيله. «أجل، أنظر إلى النجوم»، قال.

«جالساً على الشرفة في الصمت»، أضافت قائلة. عبرت شاحنة عند النافذة. طُمست كلُّ الأصوات للحظة.

«ومن ثمَّ...»، قالت، في حين انطلقت الشاحنة مهتزَّة، وتوقَّفت كما لو أنَّها كانت تشير إلى أمر آخر قد كتبه.

«ثمَّ وضعتَ السرج على حصان»، قالت، «وامتطيته مبتعداً!»

نهضت قافزة، وللمرَّة الأولى رأى وجهها في الضوء الكامل. كانت ثمَّة لطخة على جانب أنفها.

«هل تعلمين أنَّ ثمَّة لطخة على وجهكِ؟»، قال وهو ينظر إليها.

لمست الخدَّ الخطأ.

«ليس ذاك الجانب، بل الآخر»، قال.

غادرت الغرفة من دون النظر في المرآة. وهو الأمر الَّذي نستنتج منه، قال لنفسه كما لو كان يكتب رواية، إنَّ الآنسة سارة بارغيتر لم تجذب حبَّ الرجال قطُّ. أم تُراها فعلت؟ لم يعرف. تركت هذه الصور الخاطفة للأشخاص الكثير ممَّا هو مرغوب فيه، هذه الصور السطحيَّة الصغيرة الَّتي شكَّلها المرء، كذبابة تزحف على وجه، والشعور، ها هو ذا الأنف، ها هو ذا الحاجب.

تمشَّى نحو النافذة. لا بُدَّ أنَّ الشمس تغرب، لأنَّ قرميد المنزل الواقع على الزاوية أشعَّ بالورديِّ المصفرِّ. كانت نافذة أو اثنتان من النوافذ العالية تلمع باللَّون الذهبيِّ. كانت الفتاة في الغرفة، وقد تشتَّت انتباهه، بالإضافة إلى أنَّ ضجَّة لندن لا تزال تزعجه. على الخلفيَّة المملَّة لضوضاء الحركة المروريَّة، للعجلات وهي تلفُّ، وأزيز المكابح، ارتفع صوت قريب المنال لصياح امرأة شعرت بالجزع على طفلها فجأةً، والنداء الرتيب لرجل يبيع الخضراوات، وكان هناك أرغن يدويٌّ يعزف بعيداً جدّاً. توقَّف، ثمَّ بدأ من جديد. اعتدتُ أن أكتب إليها، فكَّر، في وقت متأخِّر من اللّيل، حين كنتُ أشعر بالوحدة، حين كنتُ فتيّاً. نظر إلى نفسه في المرآة. رأى وجهه المحترق بسبب أشعَّة الشمس مع عظمتَي خدَّين عريضتين، والعينين البنِّيَّتين الصغيرتين.

كانت الفتاة قد انسحبت إلى الجزء السفليِّ من المنزل. بقي الباب مفتوحاً. لم يبدُ أنَّ هناك أيَّ أمر يحدث. انتظر. شعر كأنَّه دخيل. بعد كلِّ هذه السنوات، فكَّر، كان الجميع مقترناً، مستقراً، مشغولاً بشؤونه الخاصَّة. تجدهم يتحدَّثون عبر الهاتف، ويتذكَّرون محادثات أخرى، خرجوا من الغرفة، لقد تركوا المرء وحيداً. أخذ كتاباً وقرأ جملة.

«ظلٌّ كملاك ذي شعر ساطع...»

دخلَت في اللَّحظة التالية. إنَّما، بدا أنَّ ثمَّة عقبة ما في الإجراءات. كان الباب مفتوحاً، وأُعدَّت المائدة، إنَّما، لم يحدث شيء. وقفا معاً، ينتظران، وهما يديران ظهريهما نحو المدفأة.

«لا بُدَّ أنَّه أمر بالغ الغرابة»، تابعت القول، «العودة بعد كلِّ هذه السنوات، كما لو أنَّكَ هبطت من السحاب بطائرة»، أشارت إلى الطاولة كما لو كانت الحقل الَّذي هبط فيه.

«على أرض مجهولة»، قال نورث. مال إلى الأمام ولمس السكين على الطاولة.

«... وتجد الناس يتحدَّثون»، أضافت.

«يتحدَّثون، يتحدَّثون»، قال، «عن المال والسياسة»، أضاف وهو يركل سياج المدفأة الواقع وراءه ركلة خفيفة شرِّيرة بكعبه.

هنا، دخلت الفتاة. كانت تحمل مظهراً من الأهميَّة مشتقّاً، كما هو واضح، من الطبق الَّذي حملته، لأنَّه كان مغطًّى بغطاء معدنيٍّ كبير. رفعت الغطاء بهزَّة معيَّنة. كانت هناك ساق من لحم الضأن أسفله. قالت سارة: «فلنتناول العشاء».

«إنِّي جائع»، أضاف قائلاً.

جلسا، وأخذت هي سكين التقطيع وقطعت شقّاً طويلاً. خرجت كميَّة قليلة من العصارة الحمراء، إذ لم تكن مطهوَّة تماماً. نظرت إليها.

«يجب ألَّا يبدو لحم الضأن هكذا»، قالت، «لحم البقر لا الضأن».

شاهدا العصارة الحمراء تجري إلى قعر الطبق.

«هل علينا أن نعيده، أو نأكله كما حاله؟»، قالت.

«فلنأكله»، قال، «لقد أكلت لحوماً أسوأ من هذه بكثير»، أضاف قائلاً.

«في أفريقيا...»، قالت، وهي ترفع الأغطية عن أطباق الخضراوات. كانت هناك كتلة مسطَّحة من الكرنب في ماء نازّ أخضر، في الطبق الآخر، بطاطا صفراء بدت قاسية.

«... في أفريقيا، في أدغال أفريقيا»، تابعت قولها وهي تسكب له الكرنب، «في تلك المزرعة الَّتي كنتَ فيها، حيث لم يأتِ أيُّ شخص على مدى أشهر كلَّ مرَّة، وجلستَ على الشرفة تستمع...»

«إلى الخراف»، قال. كان يقطِّع لحم الضأن إلى شرائح. لقد كان قاسياً.

«ولم يكن ثمَّة ما يكسر الصمت»، تابعت قائلة وهي تسكب لنفسها بعض البطاطا، «سوى سقوط الأشجار، أو تكسُّر صخرة على جانب جبل

بعيد...». نظرت إليه كما لو أنَّها أرادت أن يُؤكِّد صحَّة الجُمل الَّتي كانت تقتبسها من رسائله.

«أجل»، قال، «لقد كانت هادئة جدّاً».

«وحارَّة»، أضافت، «حرٌّ ملتهب في منتصف النهار، ومتسوِّل عجوز نقر على بابك...؟»

أومأ. رأى نفسه من جديد شابّاً يافعاً، ووحيداً جدّاً.

«وبعد ذلك...»، بدأت من جديد. غير أنَّ شاحنة كبيرة أتت مخترقة الشارع. اهتزَّ شيء على الطاولة. بدا كأنَّ الجدران والأرضيَّة ترتجفان. فصلت ما بين كأسين كانت تقرع إحداهما الأخرى. مرَّت الشاحنة، وسمعاها تهدر مبتعدةً في البعد.

«والطيور»، تابعت القول، «طيور العندليب تغنِّي في ضوء القمر؟»

شعر بعدم الراحة من جرَّاء الصورة الَّتي استدعتها. «لا بُدَّ أنَّني قد كتبتُ لكِ الكثير من الهراء!»، صاح، «كم أودُّ لو أنَّكِ مزَّقتِها، تلك الرسائل!»

«كلَّا! لقد كانت رسائل جميلة! رسائل رائعة!»، صاحت وهي ترفع كأسها. تذكَّر أنَّ ملء كشتبانٍ من النبيذ كان يتسبَّب في سُكرها دائماً. شعَّت عيناها، وتألَّق خدَّاها.

«ثمَّ، حصلتَ على يوم عطلة»، تابعت القول، «وهرعت على طول طريق بيضاء وعرة في عربة عديمة النوابض نحو البلدة التالية...».

قال: «على بعد ستِّين ميلاً».

«وذهبتَ إلى حانة، والتقيت رجلاً من المزرعة التالية؟». تردَّدت ما إذا كانت الكلمة قد تكون مغلوطة.

«مزرعة، أجل، مزرعة»، قال مؤكِّداً لها، «ذهبتُ إلى البلدة وتناولت شراباً في الحانة...».

«وبعد ذلك؟»، قالت. ضحك. كانت هناك بعض الأمور الَّتي لم يخبرها إيَّاها. لقد كان صامتاً.

«ثمَّ توقَّفتَ عن الكتابة»، قالت. وضعت كأسها.

«حين نسيتُ ما أنتِ عليه»، قال وهو ينظر إليها.

«أنتِ أيضاً توقَّفتِ عن الكتابة»، قال.

«أجل، أنا أيضاً»، قالت.

كان عازف الترومبون قد غيَّر موقعه، وكان ينوح على نحو جنائزيٍّ تحت النافذة. طفا الصوت الكئيب إليهما، الَّذي كان كما لو أنَّه يصدر من كلب أرجع رأسه إلى الوراء وكان ينبح على القمر. لوَّحت بشوكتها حسب توقيت العزف.

«إنَّ قلوبنا ممتلئة بالدّموع، وشفاهنا ممتلئة بالضحك، عبرنا على الدَّرج» -مدَّت الكلمات كي تناسب نواح الترومبون- «عبرنا على الدر-ر-ر-ر-ج»، غير أنَّ الترومبون غيَّر الوزن الشعريَّ إلى رقصة فرحة. «هو كي يحزن، وأنا كي أبارِك»، غنَّت بفرح مع الإيقاع، «هو كي يُبارِك، وأنا كي أحزن، عبرنا على الدر-ر-ر-ج».

وضعت كأسها على الطاولة.

«قطعة أخرى من اللحم؟»، سألت.

«كلَّا، شكراً لك»، قال وهو ينظر إلى الشيء قاسي الألياف الكريه الَّذي لا يزال ينزف في القعر. كان الطبق، ذو نمط أشجار الصفصاف، مدهوناً بالشرائط الدمويَّة. مدَّت يدها وقرعت الجرس. رنَّت، رنَّت مرَّة أخرى. لم يأتِ أحد.

«إنَّ أجراسكم لا ترنُّ»، قال.

«كلَّا»، ابتسمت، «إنَّ الأجراس لا تقرع، ومياه الصنبور لا تجري». ضربت على الأرضيَّة. انتظرا. لم يأتِ أحد. ناحت آلة الترومبون في الخارج.

«إنّما، كانت ثمَّة رسالة واحدة كتبتِها إليَّ»، تابع في حين انتظرا، «رسالة غاضبة، رسالة قاسية».

نظر إليها. كانت قد رفعت شفتها كحصان يوشك أن يعضَّ. لقد تذكَّر هذا أيضاً.

«أجل؟»، قالت.

«في الليلة الَّتي أتيتِ فيها من ستراند»، ذكَّرها.

هنا، دخلت الفتاة وهي تحمل حلوى البودينغ. كانت حلوى بودينغ مزيَّنة، شبه شفَّافة، ورديَّة، مزيَّنة بكتل من القشدة.

«إنَّني أتذكَّر»، قالت سارة وهي تضع ملعقتها في الهلام المرتعش، «ليلة خريفيَّة ساكنة، أضاءت الأنوار، والناس يهرعون على طول الرصيف ممسكين بأكاليل في أيديهم؟»

«أجل»، أومأ، «كانت تلك هي».

«وقلتُ لنفسي»، توقَّفت قليلاً، «هذا هو الجحيم. هل نحن الملعونون؟». أومأ.

سكبت له بعض البودينغ.

«وأنا»، قال وهو يأخذ طبقه، «كنتُ من الملعونين». وضع ملعقته في الكتلة المرتعشة الَّتي أعطته إيَّاها.

«جبان، منافق، مع سوطك في يدك، وقبَّعتك على رأسك...». بدا كأنَّه يقتبس من رسالة كانت قد كتبتها له. توقَّف قليلاً. ابتسمت له.

«إنَّما، ما كانت الكلمة، الكلمة الَّتي استخدمتُها؟»، سألت كما لو كانت تحاول التذكُّر.

«هراء!»، ذكَّرها. أومأت.

«ثمَّ عبرتُ فوق الجسر»، تابعت القول وهي ترفع ملعقتها إلى نصف المسافة نحو فمها، «وتوقَّفت في واحد من تلك التجاويف الصغيرة، الخلجان، ماذا تسمِّيها؟ -المحفورة فوق الماء، ونظرت إلى الأسفل...». نظرَت إلى الأسفل نحو طبقها.

«حين كنتِ تعيشين على الطرف الآخر من النَّهر»، حفَّزها.

«وقفتُ ونظرتُ إلى الأسفل»، قالت وهي تنظر إلى كأسها الَّتي كانت تمسكها أمامها، «وفكَّرت، مياه جارية، مياه متدفِّقة، المياه الَّتي تجعِّد الأضواء، ضوء القمر، ضوء النجوم...». شربت وصمتت.

«ثمَّ أتت السيَّارة»، حفَّزها قائلاً.

«أجل، سيَّارة الرولز رويس. توقَّفت في ضوء المصباح، وكانا جالسَين هناك...»

ذكَّرها قائلاً: «كانا شخصين».

«هما شخصان. أجل»، قالت، «كان يدخِّن سيجاراً. رجل إنكليزيٌّ من الطبقة العليا، ذو أنف كبير، ويرتدي بدلة رسميَّة. وهي، تجلس إلى جانبه، وترتدي معطفاً من الفرو المشذَّب. انتهزَت الوقفة القصيرة أسفل ضوء المصباح كي ترفع يدها» -رفعَت يدها- «ومسحت فمها».

ابتلعت ملء فمها من الطعام.

«والخطبة المنمَّقة؟»، حفَّزها.

هزَّت رأسها.

كانا صامتين. أنهى نورث البودينغ خاصَّته. أخرج علبة سجائره. باستثناء طبق فاكهة ملوَّث ببيض الذباب، التفَّاح والموز، لم يكن ثمَّة مزيد كي يُؤكل كما يبدو.

«لقد كنَّا أحمقين جدّاً حين كنَّا صغيرين يا سال»، قال وهو يُشعل سيجارته، «نكتب مقاطع أرجوانيَّة...»

«عند الفجر، مع زقزقة عصافير الدوريّ»، قالت وهي تسحب طبق الفاكهة نحوها. بدأت تقشِّر موزة، كما لو كانت تسحب قفَّازاً ناعماً. أخذ تفَّاحة وقشَّرها. استلقت لفَّة قشر التفَّاح على طبقه، مجعَّدة كجلد ثعبان، فكَّر، وكانت قشرة الموزة تشبه إصبعاً من قفَّاز قد مُزِّق.

الآن، كان الشارع هادئاً. توقَّفت المرأة عن الغناء. مضى عازف الترومبون في طريقه. انتهت ساعة الازدحام المروريِّ ولم يكن ثمَّة شيء يعبر الشارع. نظر إليها وهي تقضم قطعاً صغيرة من موزتها.

تذكَّر حين أتت إلى الرابع من يونيو، وكانت ترتدي تنُّورتها بالطريقة الخطأ. كانت محدودبة في تلك الأيَّام أيضاً، وقد سخرا منها، هو وبيغي. لم تتزوَّج قطُّ، تساءل عن السبب. جرف لفائف قشر التفَّاح المفصولة على طبقه.

«ماذا يعمل»، قال فجأة، «... ذاك الرجل الذي يمدُّ يديه؟».

«هكذا؟»، قالت. مدَّت يديها.

«أجل»، أومأ. كان ذاك الرجل أحد أولئك الأجانب الفصيحين الَّذين يمتلكون نظريَّة عن كلِّ شيء. غير أنَّه قد أعجبه، وكانت ثمَّة رائحة تنبعث منه، أزيز، حركات وجهه المرن المسلّية، كان يمتلك جبهة مستديرة، وعينين جيِّدتين، وكان أصلع.

«ماذا يعمل؟»، أعاد السؤال.

«إنَّه يتحدَّث»، أجابت، «عن الرُّوح». ابتسمت. شعر بأنَّه دخيل من جديد، لا بُدَّ أنَّ العديد من الأحاديث قد دار بينهما، يا لها من حميميَّة!

«عن الرُّوح»، تابعت القول وهي تأخذ سيجارة، «يُحاضر»، أضافت وهي تشعلها، «عشرة وستَّة لأجل مقعد في الصفِّ الأماميِّ»، نفخت دخان سيجارتها، «هناك غرفة للوقوف بسعر نصف كراون، إنَّما حينها»، نفخت، «لن تسمع على نحو جيِّد جدّاً. سيلتقط سمعكَ نصف درس المعلِّم فقط، الأستاذ»، ضحكت.

كانت تسخر منه الآن، ونقلت الانطباع بأنَّه كان دجَّالاً. غير أنَّ بيغي قالت إنَّهما كانا مقرَّبين للغاية، هي والأجنبيّ. تغيَّرت صورة الرَّجل في منزل إليانور قليلاً مثل كرة هوائيَّة تُنفث جانباً.

«ظننتُ أنَّه من أصدقائك»، قال بصوتٍ عال.

«نيكولاس؟»، صاحت، «أنا أحبُّه!»

لقد شعَّت عيناها بكلِّ تأكيد. ثبتتا نفسيهما على مملحة المائدة بنظرة جذلى جعلت نورث يشعر بحيرة أكبر مرَّة أخرى.

«أنتِ تحبِّينه...»، بدأ القول. غير أنَّ الهاتف رنَّ.

«ها هو ذا!»، صاحت، «ها هو ذا! إنَّه نيكولاس!»

تحدَّثت بهياج شديد.

رنَّ الهاتف من جديد. «أنا لستُ هنا!»، قالت. رنَّ الهاتف من جديد. «لستُ هنا! لستُ هنا! لستُ هنا!»، أعادت بالتزامن مع جرس الهاتف. لم تبدر منها أيُّ محاولة للردِّ عليه. لم يستطع أن يتحمَّل طعنة صوتها والجرس لوقت أطول. ذهب إلى الهاتف. كانت ثمَّة وقفة قصيرة بينما وقف والسماعة في يده.

«أخبره أنَّني لستُ هنا!»، قالت.

«مرحباً»، قال، مجيباً عبر الهاتف. إنَّما، كانت ثمَّة وقفة قصيرة. نظر إليها تجلس على حافَّة كرسيِّها، تؤرجح قدمها صعوداً وهبوطاً. ثمَّ تحدَّث صوت.

«أنا نورث»، أجاب عبر الهاتف، «إنَّني أتناول العشاء مع سارة... أجل، سأخبرها...». نظر إليها من جديد. «إنَّها تجلس على حافَّة كرسيِّها، وثمَّة لطخة على وجهها، تؤرجح قدمها صعوداً ونزولاً»، قال.

وقفت إليانور ممسكةً بالهاتف. ابتسمت، وللحظة بعد أن وضعت سمَّاعة الهاتف، وقفت هناك، لا تزال تبتسم، قبل أن تلتفت إلى ابنة شقيقها بيغي الَّتي كانت تتناول العشاء معها.

«إنَّ نورث يتناول العشاء مع سارة»، قالت وهي تبتسم للصورة الهاتفيَّة الصغيرة لشخصين في الطرف الآخر من لندن، واحدة منهما كانت تجلس على حافَّة كرسيِّها، وثمَّة بقعة على وجهها.

قالت من جديد: «إنَّه يتناول العشاء مع سارة». غير أنَّ ابنة شقيقها لم تبتسم، لأنَّها لم تكن قد رأت الصورة، وكانت منزعجة قليلاً، لأنَّ إليانور قد نهضت فجأة، في منتصف ما كانتا تقولانه، وقالت: «سأذكِّر سارة فحسب».

«أوه، هل يفعل؟»، قالت على نحو عاديٍّ.

أتت إليانور وجلست.

بدأت القول: «كنَّا نقول...».

«لقد نظَّفتِها»، قالت بيغي على نحو متزامن، في حين تحدَّثت إليانور عبر الهاتف، كانت تنظر إلى صورة جدَّتها الموضوعة على طاولة الكتابة.

«أجل»، ألقت إليانور نظرة من فوق كتفها، «أجل. وهل ترين هناك أنَّ زهرة قد سقطت على العشب؟»، قالت. التفتت ونظرت إلى الصورة. أشعَّ كلٌّ من الوجه والفستان وسلَّة الزهور على نحو ناعم، وهي تذوب في بعضها بعضاً، كما لو كانت اللَّوحة عبارة عن طبقة واحدة ناعمة من المينا. كانت هناك زهرة -غصن صغير أزرق اللَّون- ملقاة على العشب.

«لقد أخفاها الغبار»، قالت إليانور، «غير أنَّني أستطيع أن أتذكَّرها فحسب، حين كنتُ طفلة. إنَّ هذا يذكِّرني، إن أردتِ شخصاً جيّداً لأجل تنظيف اللَّوحات...»

«إنَّما، هل كانت تشبهها؟»، قاطعتها بيغي قائلة.

كان ثمَّة شخص ما قد أخبرها أنَّها كانت تشبه جدَّتها، ولم تكن ترغب هي في أن تشبهها. لقد أرادت أن تكون سمراء وذات أنف معقوف، غير أنَّ الحقيقة أنَّها كانت ذات عينين زرقاوين ووجه مستدير مثل جدَّتها.

«إنَّني أمتلك العنوان في مكان ما»، تابعت إليانور قولها.

«لا تزعجي نفسكِ، لا تزعجي نفسكِ»، قالت بيغي وهي تشعر بالانزعاج بسبب عادة عمَّتها في إضافة تفاصيل غير ضروريَّة. لقد كان نتيجة التقدُّم في السنِّ، كما افترضت، الشيخوخة الَّتي أرخت براغي تجهيزات الذهن بأكملها، وجعلته يجلجل ويخشخش.

«هل كانت تشبهها؟»، سألت من جديد.

«ليس كما أتذكَّرها أنا»، قالت إليانور وهي تنظر مرَّة أخرى إلى اللَّوحة. «ربَّما حين كنتُ طفلة، كلَّا، لا أعتقد حتَّى حين كنتُ طفلة. إنَّ الأمر المثير للاهتمام جدّاً...»، تابعت القول، «هو أنَّ ما اعتقدوا بكونه قبيحاً -الشعر الأحمر في سبيل المثال- نظنُّ نحن أنَّه جميل، لذا غالباً ما أسأل نفسي»، توقَّفت قليلاً وهي تنفخ سيجار (الشيروت) خاصَّتها، «ما الذي يعدُّ جميلاً؟».

«أجل»، قالت بيغي، «هذا ما كنَّا نقوله».

ولأنَّهما كانتا تتحدَّثان عن طفولة إليانور، والطريقة الَّتي تغيِّرت بها الأمور، وأنَّ أمراً بدا جيِّداً بالنسبة إلى أحد الأجيال، في حين بدا أنَّه أمر آخر بالنسبة إلى جيل آخر، حين قرَّرت إليانور فجأة أنَّ عليها تذكير سارة بشأن الحفل. لقد أحبَّت جعل إليانور تتحدَّث عن ماضيها، إذ بدا لها أنَّه مسالم وآمن للغاية.

«هل ثمَّة معيار بحسب اعتقادكِ؟»، قالت وهي تتمنَّى أن تعيدَها إلى ما كانتا تقولانه.

«أتساءل»، قالت إليانور وهي غائبة الذّهن. لقد كانت تفكِّر في أمر آخر.

«لكم هو أمر مزعج!»، صاحت على نحو مفاجئ، «لقد كان على رأس لساني -أمر أردتُ أن أسألكِ إيَّاه. ثمَّ فكَّرتُ في شأن حفل ديليا، ثمَّ أضحكني نورث- سالي جالسة على طرف كرسيِّها وثمَّة بقعة على أنفها، وهذه الأمور أخرجته من رأسي». هزَّت رأسها.

«هل تعرفين الشعور حين يوشك المرء أن يقول أمراً ما، وجرت مقاطعته، كيف يبدو أنَّه عالق هنا»، نقرت على جبينها، «ما يتسبَّب في إيقاف كلِّ شيء آخر؟ ليس كما لو أنَّه كان أمراً ذا أهميَّة»، أضافت قائلة. تجوَّلت في أنحاء الغرفة للحظة. «كلَّا، أنا أستسلم، أنا أستسلم»، قالت وهي تهزُّ رأسها.

«عليَّ الذهاب والاستعداد الآن، إن كنتِ ستطلبين سيَّارة أجرة».

دخلت غرفة النوم. وسرعان ما سُمع صوت جريان الماء.

أشعلت بيغي سيجارة أخرى. في حال كانت إليانور ذاهبة كي تغتسل، كما بدا الأمر من الأصوات الصادرة من الحمَّام، لم يكن ثمَّة حاجة إلى الإسراع بشأن سيَّارة الأجرة. نظرت إلى الرسائل على رفِّ المدفأة. برز عنوان يعلو واحدة منها، «مون ريبوس، ويمبلدون». أحد أطبَّاء أسنان إليانور، فكَّرت بيغي في نفسها. قد يكون الرجل الَّذي ذهبت تدرس النباتات في بيئتها الطبيعيَّة برفقته في «ويمبلدون كومون». إنَّه رجل ساحر. لقد وصفته إليانور. «إنَّه يقول إنَّ كلَّ سنٍّ لا تُشبه أيَّ سنٍّ أخرى على الإطلاق. وهو يعلم كلَّ شيء عن النباتات...». كان من الصعب إبقاؤها تتحدَّث عن طفولتها.

عبرت نحو الهاتف، وطلبت الرَّقم. كانت ثمَّة وقفة قصيرة. بينما انتظرت، نظرت إلى يديها وهما تمسكان الهاتف. فعَّالتان، تشبهان الصدفة، مصقولتان لكنَّهما ليستا مطليَّتين، فكَّرت، وهي تنظر إلى أظافر أصابعها، في أنَّها بمنزلة تسوية بين العلم و... إنَّما هنا، قال صوت، «الرقم رجاءً»، ثمَّ أعطته.

انتظرت من جديد. بينما جلست، حيث كانت إليانور تجلس، رأت الصور الهاتفيَّة الَّتي رأتها إليانور، سالي وهي تجلس على حافَّة كرسيِّها وثمَّة بقعة على وجهها. يا لها من حمقاء! فكَّرت بمرارة، وسرت رعشة في فخذها. لِمَ كانت تشعر بالمرارة؟ لأنَّها كانت تُفاخر بأنَّها كانت صادقة - لقد كانت طبيبة- وقد علمت أنَّ تلك الرعشة قد عنت المرارة. هل

حسدتها لأنَّها كانت سعيدة، أو أنَّه التشاؤم المنحدر من تزمُّت الأسلاف، وهل كانت غير موافقة على هذه الصداقات مع الرجال الَّذين لا يحبُّون النساء؟ نظرت إلى صورة جدَّتها كما لو كانت تسألها رأيها. إلَّا أنَّها افترضت حُرمة العمل الفنيِّ، فلقد بدت كما لو كانت جالسة هنا، تبتسم لأزهارها، غير مكترثة بأفعالنا ما بين الخطأ والصواب.

«مرحباً»، قال صوت أجشُّ، الأمر الَّذي يشير إلى نشارة الخشب ومأوى، ومنحته العنوان، ووضعت سمَّاعة الهاتف لحظة دخول إليانور. كانت ترتدي عباءة عربيَّة حمراء وذهبيَّة اللَّون مع غطاء فضيٍّ على شعرها.

«هل تتخيَّلين أنَّكِ في يوم من الأيَّام سوف تكونين قادرة على رؤية الطرف الآخر عبر الهاتف»، قالت بيغي وهي تنهض. كان شعر إليانور مصدر جمالها، فكَّرت، وعيناها الغامقتان ذاتا اللَّون الفضيِّ الباهت، إنَّها نبيَّة جميلة مسنَّة، عصفورة غريبة مسنَّة، ضعيفة ومضحكة في الوقت عينه. كانت منهكة من أسفارها إلى حدٍّ أن بدا شعرها أكثر بياضاً من ذي قبل.

«ما هذا؟»، قالت إليانور، لأنَّها لم تكن قد سمعت تعليقها عن الهاتف. لم تعده بيغي. وقفتا عند النافذة في انتظار سيَّارة الأجرة. وقفتا هناك جنباً إلى جنب، في صمت، تنظران إلى الخارج، لأنَّه كانت ثمَّة وقفة قصيرة يتعيَّن ملؤها، وكان المشهد من النافذة، الَّذي يرتفع أعلى الأسقف، مُطلّاً على ساحات وزوايا الحدائق الخلفيَّة نحو الخطِّ الأزرق للتلال البعيدة، قد عمل على ملء الوقفة القصيرة كما لو كان صوتاً آخرَ يتحدَّث. كانت الشمس تغرب، وقد استلقت غيمة واحدة منحنية كريشة حمراء ضمن اللَّون الأزرق. نظرَت إلى الأسفل. كان من الغريب رؤية سيَّارات الأجرة وهي تستدير حول الزوايا، تلتفُّ في هذا الشارع وعبر الشارع الآخر، وألَّا يُسمع الصوت الَّذي كانت تصدره. كان الأمر أشبه بخريطة لندن، قسم توضَّع تحتهما. كان اليوم الصيفيُّ يتلاشى، وكانت الأضواء تُنار، إذ كانت

الأضواء ذات اللَّون الأصفر الشاحب لا تزال منفصلة، لأنَّ وهج غروب الشمس كان لا يزال عالقاً في الهواء. أشارت إليانور إلى السماء.

«هذا هو المكان الَّذي رأيتُ فيه طائرتي الأولى، هناك بين تلك المداخن»، قالت. لقد كانت مداخن عالية، مداخن مصانع، في البعد، وثمَّة بناء ضخم - كاتدرائيَّة «ويستمنستر»، أليس كذلك؟- هناك تحلِّق بين الأسقف.

«كنتُ أقف هنا، أنظر إلى الخارج»، تابعت إليانور حديثها، «لا بُدَّ أنَّ هذا حدث بعد أن انتقلت إلى الشقَّة توّاً، يوم صيفيّ، ورأيتُ بقعة سوداء في السماء، وقلتُ لأيّ كان الشخص -ميريام باريش كما أعتقد، أجل، لأنَّها أتت لمساعدتي في الانتقال إلى الشقَّة- بالمناسبة، أتمنَّى لو أنَّ ديليا تذكَّرت أن تدعوها...»، هذه هي الشيخوخة، فكَّرت بيغي، إنَّها تجعلها تستحضر أمراً تلو الآخر.

«لقد قلتِ لميريام...»، حفَّزتها.

«قلتُ لميريام، "هل هذا طائر؟ كلَّا لا أعتقد أنَّه يمكن أن يكون طائراً. إنَّه أكبر من ذلك، غير أنَّه يتحرَّك". وفجأة، خطر لي الأمر، لقد كانت طائرة! وكانت كذلك بالفعل! أتعلمين أنَّهم طاروا فوق القناة منذ فترة ليست بالطويلة. كنتُ أقيم معكِ في دورست في ذاك الوقت، وأتذكَّر أنَّني قرأت هذا الأمر في صحيفة، وقال شخص ما -والدكِ كما أعتقد-"لن يعودَ العالم كما كان مرَّة أخرى أبداً!"».

«أوه، حسناً...»، ضحكت بيغي. لقد أوشكت أن تقول إنَّ الطائرات لم تشكِّل فارقاً كبيراً، نظراً لكون هذه هي جملتها الَّتي تستخدمها بغية إبطال حجَّة العجائز الَّذين تعرفهم فيما يتعلَّق بإيمانهم بالعلم، وقد كان هذا على نحو جزئيٍّ لأنَّ سذاجتهم أمتعتها، ولأنَّها، في الجزء الآخر من الأمر، كانت منبهرة على نحو يوميٍّ بجهل الأطبَّاء، حين تنهَّدت إليانور.

تمتمت: «يا للعجب!»

استدارت مبتعدةً عن النافذة.

إنَّها الشيخوخة من جديد، فكَّرت بيغي. انبثقت هبَّة تسبَّبت في فتح باب، واحدة من الملايين العديدة في سنوات إليانور البالغ عددها سبعون إضافةً إلى عدد فرديٍّ ما، خرجت فكرة مؤلمة، وقد أخفتها على الفور - كانت قد ذهبت إلى طاولة الكتابة خاصَّتها، إنَّها تعبث بالأوراق- مع الكرم المتواضع، هناك الخضوع المؤلم الَّذي يرافق الشيخوخة.

«ماذا، نيل...؟»، بدأت بيغي القول.

«لا شيء، لا شيء»، قالت إليانور. كانت قد رأت السماء، وكانت تلك السماء مرصوفة بالصور -لقد رأتها في العديد من المرَّات، إلى الحدِّ الَّذي قد تتصدَّر معه أيٌّ من هذه الصور اهتمامها حين كانت تنظر إليها. الآن، نظراً لكونها كانت تتحدَّث مع نورث، فقد أعادت إليها الحرب، كيف وقفت هناك ذات ليلة تشاهد أضواء الكشَّاف. كانت قد عادت إلى المنزل، بعد الغارة، وكانت تتناول العشاء في «ويستمنستر» مع ريني وماغي. كانوا قد جلسوا في أحد الأقبية، ونيكولاس -كانت المرَّة الأولى الَّتي تلتقيه فيها- قد قال إنَّ الحرب لم تكن ذات أهميَّة. «نحن أطفال نلعب بالألعاب الناريَّة في الحديقة الخلفيَّة»... تذكَّرت عبارته، وكيف شربوا نخب العالم الجديد وهم جالسون حول صندوق تعبئة خشبيٍّ. «عالم جديد، عالم جديد!»، صاحت سالي وهي تقرع بملعقتها على صندوق التعبئة. استدارت نحو طاولة الكتابة خاصَّتها، مزَّقت رسالة، وألقتها بعيداً.

«أجل»، قالت وهي تعبث بأوراقها، وتبحث عن أمر ما، «أجل، إنَّني لا أعرف بشأن الطائرات، ولم يسبق لي أن ركبت واحدة، إنَّما، السيَّارات ذوات المحرِّكات، إنَّني أفضِّل عدم وجود السيَّارات ذوات المحرِّكات. كادت إحداها تطيح بي، هل أخبرتكِ بذلك؟ في طريق «برومبتون». كان الذنب ذنبي بالكامل، إذ لم أكن أنظر... ولاسلكيَّة -إنَّ هذا جنونيٌّ- الناس في

الأسفل يشغِّلونها بعد الفطور، إنَّما من الناحية الأخرى، الماء الساخن، والضوء الكهربائيُّ، وتلك الجديدة...». توقَّفت قليلاً. «آهٍ، ها هي ذي!»، صاحت. تنقَّلت بين مجموعة من الأوراق الَّتي كانت تبحث عنها. «لو كان إدوارد هناك الليلة، ذكِّريني... سأعقد عقدة في منديلي...»

فتحت حقيبتها وأخرجت منديلاً حريريّاً، وتابعت بصورة مهيبة ربطه في شكل عقدة... «أن أسأله عن ابن رونكورن».

رنَّ الجرس.

قالت: «سيَّارة الأجرة».

نظرت في الأرجاء كي تتأكَّد من أنَّها لم تنسَ أيَّ شيء. توقَّفت فجأة. وقع نظرها على الصحيفة المسائيَّة الَّتي استلقت على الأرضيَّة مع شريطها العريض من الطباعة وصورتها المشوَّشة. التقطتها.

«يا له من وجه!»، صاحت وهي تفردها على الطاولة.

بقدر ما استطاعت بيغي أن ترى، غير أنَّها كانت تعاني من قصر النظر، فقد كانت صورة صحيفة المساء المشوَّشة المعتادة لرجل سمين يُومئ.

«متنمِّر لعين!»، صاحت إليانور فجأةً. مزَّقت الصحيفة بحركة واحدة من يدها وبعثرتها على الأرضيَّة. كانت بيغي مصدومة. سرت رعشة بسيطة عبر جلدها مع تمزيق الصحيفة. لقد صدمتها كلمة «لعين» على شفتَي عمَّتها.

شعرت بالتسلية في اللَّحظة التالية، غير أنَّها كانت لا تزال مصدومة. إذ حينما قالت إليانور، الَّتي كانت تستخدم اللُّغة الإنكليزيَّة بتحفُّظ بالغ، كلمتَي «متنمِّر» ومن ثمَّ «لعين»، فإنَّ الأمر كان يعني أكثر بكثير من الكلمات الَّتي كانت هي وأصدقاؤها يستخدمونها. وإيماءتها، تمزيق الصحيفة... يا لها من مجموعة غريبة! فكَّرت وهي تتبع إليانور نزولاً الدرج. انزلقت عباءتها الحمراء الذهبيَّة من درجة إلى أخرى. لقد سبق لها

أن رأت والدها يجعِّد صحيفة ذا تايمز قبلاً ويجلس مرتجفاً من جرَّاء الغضب لأنَّ شخصاً ما قد قال أمراً ما في صحيفة. يا له من أمر غريب!

والطريقة الَّتي مزَّقتها بها! فكَّرت، وهي نصف ضاحكة، ومدَّت يدها كما فعلت إليانور بيدها. كانت قامة إليانور لا تزال تبدو منتصبة من السخط. سيكون الأمر سهلاً، فكَّرت، سيكون الأمر باعثاً على الرضا، فكَّرت، وهي تتبعها درجة تلو الأخرى على الدرجات الحجريَّة، أن يكون المرء على هذا النحو. نقرت الحلية الصغيرة المدوَّرة في معطفها على الدرج. هبطتا ببطء إلى حدٍّ ما.

«فلننظر إلى عمَّتي»، قالت لنفسها وهي تبدأ في ترتيب المشهد في شكل خلاف كانت تخوضه مع رجل في المستشفى، «انظر إلى عمَّتي، تعيش وحيدة في شقَّة أشبه بشقق العمَّال، تقبع على قمَّة ستِّ درجات حجريَّة...»، توقَّفت إليانور.

«لا تخبريني»، قالت، «أنَّني تركتُ الرسالة في الأعلى، رسالة رونكورن الَّتي أردتُ أن أُريها لإدوارد، بشأن الصبيِّ؟»، فتحت حقيبتها، «كلَّا، ها هي ذي». لقد كانت في حقيبتها. نزلتا إلى الطابق السفليِّ.

أعطت سائق سيَّارة الأجرة العنوان وجلست مصدرة اهتزازة في ركنها. نظرت بيغي إليها بطرف عينها.

لقد كان ما أثار إعجابها هو القوَّة الَّتي وضعتها في الكلمات، لا الكلمات عينها. كان الأمر كما لو كانت لا تزال تؤمن بشغف -هي، إليانور المسنَّة- بالأمور الَّتي دمَّرها الإنسان. يا له من جيل رائع! فكَّرت، وهما تنطلقان. المؤمنون...

«أترين»، قاطعتها إليانور كما لو كانت ترغب في شرح كلماتها، «إنَّ هذا يعني نهاية كلِّ ما نهتمُّ لأمره».

«الحرِّيَّة؟»، قالت بيغي على نحو مملٍّ.

«أجل»، قالت إليانور، «الحرِّيَّة والعدالة».

انطلقت سيَّارة الأجرة عبر الشوارع الصغيرة المحترمة حيث كان لكلِّ منزل مشربيَّة قوسيَّة خاصَّة به، وحديقته الشريطيَّة الخاصَّة، واسمه الخاصّ. بينما انطلقتا نحو الشارع الرئيس الكبير، شكَّل المشهد في الشقَّة نفسه في ذهن بيغي، كما كانت لتخبره للرجل في المستشفى. «فجأة، فقدت أعصابها»، قالت، «أخذت الصحيفة ومزَّقتها، عمَّتي، الَّتي يتجاوز عمرها السبعين عاماً». ألقت نظرة على إليانور كي تتحقَّق من التفاصيل. قاطعتها عمَّتها.

«هذا هو المكان الَّذي كنَّا نعيش فيه»، قالت. لوَّحت بيدها نحو الشارع الموجود إلى اليسار، ذي المصابيح الطويلة المتوهِّجة. كان بإمكان بيغي، وهي تنظر نحو الخارج، أن ترى الجادَّة المهيبة المتواصلة مع سلسلتها من الأعمدة والأدراج الشاحبة. كانت حتَّى الأعمدة المتكرِّرة، والهندسة المعماريَّة المنتظمة، تحمل جمالاً باهتاً، حيث حاكى أحد الأعمدة الجصيَّة عموداً جصيّاً آخرَ في نهاية الشارع تماماً.

«أبيركورن تيريس»، قالت إليانور، «... صندوق البريد العموديّ»، تمتمت في حين جرى تجاوزه بالسيَّارة. لِمَ صندوق البريد العموديّ؟ سألت بيغي نفسها. باب آخر كان قد فُتح. لا بُدَّ أنَّ للشيخوخة جادَّات لا تنتهي، تمتدُّ بعيداً جدّاً في ظلامها، كما افترضت، والآن، فُتح باب واحد، ومن ثمَّ آخر.

«أليس الناس...»، بدأت إليانور قولها. ثمَّ توقَّفت. كما المعتاد، كانت قد بدأت انطلاقاً من المكان الخطأ.

«أجل؟»، قالت بيغي. كانت تشعر بالانزعاج من جرَّاء عدم ترابطها.

«أوشكت أن أقول إنَّ صندوق البريد العموديَّ قد جعلني أفكِّر»، بدأت إليانور القول، ثمَّ ضحكت. تخلَّت عن محاولة تفسير الترتيب الَّذي تراودها أفكارها وفقه. كان ثمَّة ترتيب، دون أدنى شكٍّ، غير أنَّ إيجاده تطلَّب وقتاً طويلاً، وعلمَت أنَّ هذا الهذيان قد أزعج بيغي، لأنَّ أذهان الأشخاص اليافعين كانت تعمل بسرعة بالغة.

«هذا هو المكان الَّذي اعتدنا تناول العشاء فيه»، قالت وهي تومئ نحو المنزل الكبير القابع على زاوية ساحة. «أنا ووالدكِ. الرجل الَّذي اعتاد أن يقرأ معه. ماذا كان اسمه؟ لقد أصبح قاضياً... لقد اعتدنا أن نتناول العشاء هناك، ثلاثتنا. موريس، والدي وأنا... كانوا يقيمون حفلات ضخمة جدّاً في تلك الأيَّام. رجال القانون على الدوام. وقد جمع خشب السنديان العتيق. كان معظمه زائفاً»، أضافت مع ضحكة مكتومة.

بدأت بيغي القول: «اعتدتم أن تتناولوا العشاء...». تمنَّت لو تعيدها إلى الحديث عن ماضيها. لقد كان مثيراً للاهتمام جدّاً، آمناً جدّاً، وهمياً جدّاً، ماضي الثمانينيَّات ذاك، وبالنسبة إليها، كان بالغ الجمال في وهميَّته.

«حدِّثيني عن شبابكِ...»، شرعت تقول.

«إلَّا أنَّ حيواتكم أكثر إثارة للاهتمام بكثير ممَّا كانت عليه حيواتنا نحن»، قالت إليانور. كانت بيغي صامتة.

كانوا يقودون على طول طريق ساطع مزدحم، هنا كان ملطخاً بالأحمر الياقوتيِّ من الضوء القادم من دور السينما، وهنا لون أصفر من نوافذ المحالِّ الفرحة بالفساتين الصيفيَّة، لأنَّ المحالَّ، على الرَّغم من كونها مغلقة، كانت لا تزال مضاءة، ولا يزال الأشخاص ينظرون إلى الفساتين، وإلى رفوف القبَّعات على القضبان الصغيرة، وإلى الجواهر.

تابعت بيغي قصَّة إليانور الَّتي كانت ترويها لصديقها في المستشفى، حين تأتي عمَّتي ديليا إلى المدينة فإنَّها تقول، علينا إقامة حفل. ثمَّ يحتشدون جميعاً. إنَّهم يحبُّون الأمر. أمَّا بالنسبة إليها، فقد كرهت هذا. كانت تفضِّل أكثر بكثير لو بقيت في المنزل أو ذهبت إلى دار السينما. إنَّه الإحساس بالأسرة، أضافت وهي تحدِّق إلى إليانور كما لو أنَّها فعلت ذلك بغية جمع حقيقة صغيرة أخرى عنها لإضافتها إلى لوحة العانس الفيكتوريَّة الَّتي ترسمها. كانت إليانور تنظر إلى خارج النافذة. ثمَّ استدارت.

«والتجربة مع خنزير غينيا، كيف انطلق ذاك الأمر؟»، سألت. كانت بيغي محتارة.

ثمَّ تذكَّرت وأخبرتها.

«لقد فهمت. إذاً، لم تثبت التجربة أيَّ شيء. لذا عليكِ البدء من جديد. هذا أمر مثير للاهتمام جدّاً. الآن، أتمنَّى لو تشرحين لي...». كانت ثمَّة مشكلة أخرى حيَّرتها.

قالت بيغي لصديقها في المستشفى إنَّ الأمور الَّتي تريد أن يجري شرحها إمَّا بسيطة ببساطة جمع اثنين واثنين فتكون النتيجة أربعة، وإمَّا بالغة الصعوبة إلى حدٍّ أنَّ أيَّ شخص في العالم لا يعرف الإجابة. وفي حال قلتَ لها، «ما حاصل ضرب ثمانية في ثمانية؟» -ابتسمت للشكل الجانبيِّ لوجه عمَّتها على الزجاج- فإنَّها ستنقر على جبينها وتقول... غير أنَّ إليانور قاطعتها مجدَّداً.

«إنَّه لمن اللطيف جدّاً منكِ أن تأتي»، قالت وهي تمنحها تربيتة خفيفة على الركبة. (إنَّما، هل أظهرتُ لها أنَّني أكره القدوم؟ فكَّرت بيغي).

«إنَّها طريقة لرؤية الأشخاص»، تابعت إليانور قائلة، «والآن، نظراً لكوننا نمتلك جميعاً علاقة وديَّة، ليس أنتِ، نحن، فعلى المرء ألَّا يضيِّعَ الفرص».

تابعت السيَّارة طريقها. وكيف للمرء أن يفهم هذا بطريقة صحيحة؟ فكَّرت بيغي وهي تحاول إضافة لمسة أخرى إلى اللَّوحة. أكان «عاطفيّاً»؟ أم، على النقيض من ذلك، كان من الجيِّد الشعور بأنَّ هذا طبيعيٌّ... أليس كذلك؟ هزَّت رأسها. إنَّني غير ذات نفع فيما يتعلَّق بوصف الأشخاص، قالت لصديقها في المستشفى. إنَّهم أصعب من اللازم... إنَّها ليست على هذا النحو، ليست على هذا النحو إطلاقاً، قالت وهي تصدر إيماءة بسيطة بيدها كما لو أنَّها فعلت ذلك لتمحو خطّاً عريضاً قد رسمته على نحو مغلوط. بينما فعلت ذلك، اختفى صديقها من المستشفى.

لقد كانت وحيدة مع إليانور في سيَّارة الأجرة. وكانتا تعبران إلى جوار المنازل. أين تبدأ، وإلى أين أنتهي؟ فكَّرت... تابعا سيرهما بالسيَّارة. لقد كانتا شخصين في قيد الحياة، تركبان السيَّارة عبر لندن، شرارتين من الحياة محتجزتين في جسدين منفصلين، وفكَّرت في هذه اللَّحظة، فإنَّ شرارتَي الحياة المحتجزتين في جسدين منفصلين تركبان السيَّارة متجاوزتين دار سينما. إنَّما، ما هذه اللَّحظة، وما نحن؟ كانت الأحجية أكثر تعقيداً من أن تستطيع حلَّها. تنهَّدت.

«أنتِ أكثر شباباً بكثير من أن تشعري على هذا النحو»، قالت إليانور.

«ماذا؟»، سألت بيغي وقد جفلت قليلاً.

«بشأن مقابلة الأشخاص. بشأن عدم تفويت فرصة رؤيتهم».

قالت بيغي: «شابَّة؟ لن أكون شابَّة بقدركِ البتَّة!»، ربَّتت على ركبة عمَّتها بدورها، «وأنتِ تتسكَّعين في الهند...»، ضحكت.

«أوه، الهند. إنَّ الهند لا تُعدُّ شيئاً في هذه الأيَّام»، قالت إليانور، «إنَّ السفر بالغ السهولة. تأخذين التذكرة فقط، وتركبين ظهر السفينة فحسب... غير أنَّ الأمر الَّذي أرغب في رؤيته قبل موتي»، تابعت قولها، «هو أمر مختلف...». لوَّحت بيدها إلى خارج النافذة. كانتا تعبران أبنية عامَّة، مكاتب من نوع ما، «... حضارة من نوع آخر. التبت، في سبيل المثال. كنتُ أقرأ كتاباً لرجل يُدعى، الآن، ماذا كان اسمه؟».

توقَّفت قليلاً مشتَّتة بسبب المشاهد في الشارع. «ألا يرتدي الناس ملابس جميلة في هذه الأيَّام؟»، قالت وهي تشير إلى فتاة ذات شعر فاتح ورجل شابٍّ يرتديان ملابس سهرة.

«أجل»، قالت بيغي على نحو روتينيٍّ وهي تنظر إلى الوجه الملوَّن والشال الساطع، وإلى الصدريَّة البيضاء والشعر الأسود المملَّس. لقد كان أيُّ شيء يشتِّت انتباه إليانور، كلُّ شيء يثير اهتمامها، فكَّرت.

«هل كانت المسألة في أنَّكِ كنتِ مقموعة حين كنتِ شابَّة؟»، قالت بصوت عالٍ وهي تستحضر بعض ذكريات الطفولة على نحو مبهم، جدّها مع جذوع لامعة بدلاً من الأصابع، وغرفة معيشة طويلة مظلمة. التفتت إليانور. لقد فوجئت.

«مقموعة؟»، أعادت. نادراً ما كانت تفكِّر في شأن نفسها إلى الحدِّ الَّذي فوجئت معه الآن.

«أوه، إنَّني أفهم ما تعنينه»، أضافت بعد لحظة. كانت قد سحبت صورة، صورة أخرى، نحو السطح. كانت هناك ديليا تقف في منتصف الغرفة، يا إلهي! يا إلهي! كانت تقول، عربة أجرة يجرُّها خيل قد توقَّفت أمام المنزل المجاور، وكانت هي نفسها تراقب موريس -هل كان موريس؟ وهو يأتي عبر الشارع كي يُرسل رسالة... لقد كانت صامتة. لا أريد أن أعود إلى ماضيٍّ، كانت تفكِّر. إنَّني أريد الحاضر.

«إلى أين يأخذنا؟»، قالت وهي تنظر إلى الخارج. كانتا قد وصلتا إلى الجزء العامِّ من لندن، إلى الجزء الـمُضاء. سقط الضوء على الأرصفة العريضة، وعلى المكاتب العامَّة الـمُضاءة بالضوء الأبيض ببراعة، وعلى كنيسة شاحبة ذات مظهر جليل. ظهرت الإعلانات واختفت. هنا، كانت ثمَّة زجاجة من البيرة، كانت تُصبُّ، ثمَّ توقَّفت، ثمَّ صبَّت من جديد. كانتا قد وصلتا إلى منطقة المسرح. كان هناك الارتباك المبهرج المعتاد. كان الرجال والنساء الَّذين يرتدون ملابس السهرة يمشون في منتصف الطريق. كانت سيَّارات الأجرة تنطلق وتتوقَّف. أوقفت سيَّارة الأجرة خاصَّتهما. توقَّفت تماماً تحت تمثال، أشعَّت الأضواء على شحوبه الشبيه بالجثث.

قالت بيغي وهي تنظر إلى شكل امرأة ترتدي زيَّ ممرِّضة وتمدُّ يدها: «تذكِّرني على الدوام بإعلان لفوط صحيَّة».

شعرت إليانور بالصدمة للحظة. بدا كأنَّ سكِّيناً قد قطع جلدها تاركاً تموُّجاً من الإحساس البغيض، غير أنَّها لم تلمس ما كان صلباً في جسدها، وقد أدركت ذلك بعد لحظة. لقد قالت هذا بسبب تشارلز، فكَّرت، وهي تشعر بمرارة في نبرتها، شقيقها، صبيٌّ مملٌّ لطيف قُتل.

«الأمر الحسن الوحيد الَّذي قيل في الحرب»، قالت بصوتٍ عالٍ وهي تقرأ الكلمات المنقوشة على قاعدة التمثال.

«لم يحدث الكثير»، قالت بيغي بحدَّة.

بقيت سيَّارة الأجرة ثابتة في القطاع.

بدا كأنَّ هذا التوقُّف القصير يحتجزهما في ضوء فكرة ما تمنَّت كلٌّ منهما التخلُّص منها.

«ألا يرتدي الناس ملابس جميلة في هذه الأيَّام؟»، قالت إليانور وهي تشير إلى فتاة أخرى ذات شعر فاتح ترتدي معطفاً ساطعاً طويلاً، ورجل شابٍّ آخر يرتدي ملابس سهرة.

أجابت بيغي باختصار: «أجل».

إنَّما، لِمَ لا تستمتعين بوقتكِ أكثر؟ قالت إليانور لنفسها. لقد كان موت شقيقها أمراً محزناً جدّاً، غير أنَّها لطالما وجدت نورث الأكثر إثارة للاهتمام بين الاثنين. شقَّت سيَّارة الأجرة طريقها بتعرُّج عبر الازدحام المروريِّ وعبرت نحو شارع خلفيٍّ. جرى إيقافه الآن بوساطة إشارة حمراء. «إنَّه لأمر لطيف أن يعود نورث من جديد»، قالت إليانور.

«أجل»، قالت بيغي، «يقول إنَّنا لا نتحدَّث عن أيِّ شيء سوى المال والسياسة»، أضافت قائلة. إنَّها تجد عيباً فيه لأنَّه لم يكن الشخص الَّذي يجب قتله، غير أنَّ هذا الأمر خطأ، فكَّرت إليانور.

«حقّاً؟»، قالت، «إنَّما حينها...». بدت لافتة صحيفة، ذات حروف سود كبيرة، كأنَّها أنهت جملتها بالنيابة عنها. كانتا تقتربان من الميدان الَّذي

عاشت فيه ديليا. بدأت تعبث بحقيبة يدها. نظرت إلى العدَّاد الَّذي كان مرتفعاً إلى حدٍّ ما. كان الرجل يسلك الطريق الطويل.

«سيجد طريقه في الوقت المناسب»، قالت. كانا ينزلقان ببطء حول الميدان. انتظرت بكلِّ صبر وهي تمسك حقيبتها في يدها. رأت اتِّساعاً من السماء القاتمة فوق الأسطح. كانت الشمس قد غربت. كانت تحمل السماء، للحظة، المظهر الهادئ للسماء الَّتي تمتدُّ فوق الحقول والغابات في الريف.

«سيتعيَّن عليه الالتفاف، هذا كلُّ ما في الأمر»، قالت، «إنَّني لستُ يائسة»، أضافت قائلة في حين التفَّت سيَّارة الأجرة، «إنَّ السفر، كما تعرفين، حين يجب على المرء الاختلاط بأنواع الأشخاص الآخرين كافَّة على سطح السفينة، أو في أحد تلك الأماكن الصغيرة الَّتي يضطرُّ المرء إلى المكوث فيها -في الأماكن المعزولة-». كانت سيَّارة الأجرة تنزلق بتردُّد متجاوزة منزلاً تلو الآخر، «عليكِ الذهاب إلى هناك يا بيغي»، قالت، «عليكِ السفر، إنَّ السكَّان الأصليِّين بالغو الجمال، كما تعلمين، نصف عراة، يذهبون إلى النهر في ضوء القمر، -ذاك هو المنزل هناك-». نقرت على النافذة، فأبطأت سيَّارة الأجرة من سرعتها. «ما الَّذي كنتُ أقوله؟ إنَّني لستُ يائسة، كلَّا، لأنَّ الناس لطيفون للغاية، جيِّدون جدّاً في الصميم... لذا، إن قام الأشخاص العاديُّون فقط، الأشخاص العاديُّون من أمثالنا...»

انسحبت سيَّارة الأجرة نحو منزل كانت نوافذه مضاءة. مالت بيغي إلى الأمام وفتحت النافذة. قفزت إلى الخارج ودفعت المال للسائق. أسرعت إليانور إلى الخارج بعدها. «كلَّا، كلَّا، كلَّا يا بيغي»، بدأت قولها.

«إنَّها سيَّارة الأجرة خاصَّتي. إنَّها سيَّارة الأجرة خاصَّتي»، اعترضت بيغي قائلة.

«إلَّا أنَّني أصرُّ على دفعي حصَّتي»، قالت إليانور وهي تفتح حقيبتها.

قال نورث: «تلك هي إليانور». ترك الهاتف والتفت نحو سارة. كانت لا تزال تؤرجح قدمها صعوداً وهبوطاً.

«لقد أخبرتني بأن أبلغكِ بالذهاب إلى حفل ديليا»، قال.

«إلى حفل ديليا؟ لِمَ إلى حفل ديليا؟»، سألت.

«لأنَّهم كبار في السنِّ ويرغبون في حضوركِ»، قال وهو يقف مرتفعاً عنها.

«إليانور العجوز، إليانور الرحَّالة، إليانور ذات العينين الجامحتين...»، قالت متأمِّلة، «هل عليَّ الذهاب أو لا؟ هل أذهب أو لا؟»، همهمت وهي تنظر إليه، «كلَّا»، قالت وهي تضع قدمها على الأرض، «لن أذهب».

«يجب أن تذهبي»، قال. إذ إنَّ أسلوبها أزعجه، وكان صوت إليانور لا يزال يرنُّ في أذنيه.

«عليَّ الذهاب، أليس كذلك؟»، قالت وهي تعدُّ القهوة.

«إذاً، اقرأ إلى أن يحين موعد ذهابنا»، قالت وهي تمنحه كوباً وتلتقط كتاباً في الوقت عينه.

كوَّمت نفسها من جديد، ممسكة بكوبها في يدها.

كان الوقت لا يزال مبكراً، وهذا صحيح. إنَّما لماذا لا تريد الذهاب؟ فكَّر، في حين فتح الكتاب مرَّة أخرى وراح يقلِّب الصفحات. هل هي خائفة؟ تساءل. نظر إليها مكوَّمة في كرسيِّها. كان فستانها رثّاً. نظر إلى الكتاب مجدَّداً، إلَّا أنَّه كاد يرى جيّداً كي يقرأ. إذ لم تكن قد أضاءت المصباح بعدُ.

«لا أستطيع أن أرى كي أقرأ من دون ضوء»، قال. سرعان ما حلَّ الظلام في هذا الشارع، كانت المنازل متقاربة جدّاً. الآن، مرَّت سيَّارة، وعبر ضوء على السقف.

«هل يجب أن أشعل الضوء؟»، سألت.

«كلَّا»، قال، «سأحاول أن أتذكَّر أمراً ما». بدأ يُلقي القصيدة الوحيدة الَّتي يحفظها عن ظهر قلب بصوتٍ عالٍ. بينما ألقاها بصوتٍ عالٍ في المكان شبه المظلم بدت الكلمات بالغة الجمال، فكَّر، ربَّما لأنَّهما لم يستطع أحدهما رؤية الآخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

توقَّف قليلاً في نهاية المقطع.

قالت: «أكمل».

بدأ من جديد. بدت الكلمات الَّتي تخرج إلى الغرفة كحالات حضور فعليَّة، صلبة ومستقلَّة. إنَّما، بينما كانت تستمع إليها، كانت تتغيَّر من جرَّاء احتكاكها معها. إلَّا أنَّه مع وصوله إلى نهاية المقطع الثاني-

إنَّ المجتمع كلُّ شيء سوى كونه وقحاً

تجاه هذه العزلة اللذيذة...

سمع صوتاً. هل كان في القصيدة أو خارجها، تساءل؟ إنَّه في داخلها، فكَّر، وأوشك أن يتابعَ، حين رفعت يدها. فتوقَّف. سمع صوت خطى ثقيلة خارج الباب. هل كان ثمَّة شخص ما يوشك أن يدخل؟ كانت عيناها مركّزتين على الباب.

تمتمت: «اليهوديُّ».

قال: «اليهوديُّ؟». أنصتا. كان بإمكانه السماع بوضوح الآن. كان ثمَّة شخص يُدير الصنابير، كان ثمَّة شخص يستحمُّ في الغرفة المقابلة.

«إنَّ اليهوديَّ يستحمُّ»، قالت.

«اليهوديُّ يستحمُّ؟»، أعاد القول.

«وغداً سيكون هناك خطٌّ من الدهن حول الحمَّام»، قالت.

«اللَّعنة على اليهوديِّ!»، صاح. إنَّ فكرة وجود خطٍّ من الدهن من جسد رجل غريب على الحمَّام في الغرفة المجاورة قد أثار قرفه.

«أكملْ...»، قالت سارة، «إنَّ المجتمع كلّ ُشيء سوى كونه وقحاً»، أعادت جملتيه الأخيرتين، «تجاه هذه العزلة اللذيذة».

قال: «كلَّا».

استمعا إلى جريان المياه. كان الرجل يسعل وينظِّف حلقه، في حين يستحمُّ بالإسفنجة.

«مَن يكون هذا اليهوديُّ؟»، سأل.

«أبرهامسون، إنَّه يعمل في تجارة الشحم»، قالت.

أنصتا.

«إنَّه مخطوب إلى فتاة جميلة تعمل في محلِّ الخياطة»، أضافت قائلة.

كان بإمكانهما سماع الأصوات بوضوح بالغ عبر الجدران الرقيقة.

كان يشخر، في حين ينظِّف نفسه بالإسفنجة.

«غير أنَّه يترك شعراً في الحمَّام»، اختتمت قولها.

شعر نورث برعشة تسري عبر جسده. شعرٌ في الطعام، شعرٌ في الأحواض، لقد تسبَّب شعر الأشخاص الآخرين في إصابته بالغثيان جسديّاً.

«هل تتشاركان معاً الحمَّام؟»، سأل.

أومأت.

أصدر صوتاً مثل، «باه!».

«"باه". هذا هو ما قلتُه»، ضحكت، «"باه!" -حين دخلتُ الحمَّام في صباح شتويٍّ بارد- "باه!" -أشارت بيدها- "باه!"». توقَّفت قليلاً.

سأل: «وبعد ذلك؟».

«بعد ذلك»، قالت وهي ترتشف قهوتها، «عدتُ إلى غرفة الجلوس. وكان الفطور ينتظر. البيض المقليُّ والقليل من الخبز المحمَّص. ليديا مرتدية قميصها الممزَّق، وشعرها منسدل. كانت المرأة العاطلة من العمل

تغنِّي التراتيل تحت النافذة. وقلتُ لنفسي...»، مدَّت يدها، «"مدينة ملوَّثة، مدينة كافرة، مدينة الأسماك الميتة وأواني القلي البالية"، وأنا أفكِّر في ضفَّة نهر، حين ينحسر المدُّ»، شرحت.

«تابعي»، أومأ.

«إذاً، ارتديتُ قبَّعتي ومعطفي وأسرعت إلى الخارج في نوبة غضب»، تابعت القول، «ووقفتُ على الجسر وقلت، "هل أنا عشبة ضارَّة، محمولة على هذا الطريق، ذاك الطريق، دون معنى مع المدِّ الَّذي يأتي مرَّتين في اليوم؟"».

«أجل؟»، حفَّزها.

«وكان هناك أشخاص يعبرون، المتبختِر، مَن يمشي بخفَّة، الشاحب، ذو عينَي النمس، مَن يرتدي قبَّعة مستديرة، جيش لا يُحصى من العمَّال العبيد. وقلت، "أعليَّ أن أنضمَّ إلى المؤامرة؟ ألطِّخ اليد، اليد غير الـمُلطَّخة"» -كان في مقدوره أن يرى يدها تتوهَّج، في حين لوَّحتها في نصف الضوء الموجود في غرفة الجلوس- «"... أن أوقِّع عقد التوظيف، وأخدم سيِّداً، وكلُّ هذا بسبب يهوديٍّ في حمَّامي، كلُّ هذا بسبب يهوديٍّ؟"»

انتصبت في جلستها وضحكت، وهي تشعر بالحماس من نغم صوتها الَّذي كان يصدر وفق إيقاع الهرولة.

«تابعي، تابعي»، قال.

«إنَّما كنتُ أمتلك تميمة، حجراً كريماً متوهِّجاً، زمرُّدة صافية» التقطت مغلَّفاً كان ملقى على الأرض- «خطاب تقديم. وقلتُ للخادم الَّذي يرتدي بنطالاً بلون أزهار الخوخ، "اسمح لي بالدخول أيُّها السيِّد"، وقادني على طول الممرَّات المغطَّاة بالأرجوان إلى أن وصلتُ إلى باب، باب من خشب الماهوغني، وقرعتُه، وقال صوت، "ادخل". وماذا وجدت؟». توقَّفت قليلاً. «رجلاً بديناً ذا خدَّين أحمرين. هناك ثلاث أزهار أوركيد

في زُهريَّة على طاولته. ضغط على يدك، بحسب اعتقادي، كما تطحن السيَّارة الحصاة حين تقودها زوجتك منطلقة بها. وفوق المدفأة، كانت الصورة المعتادة...».

«توقَّفي!»، قاطعها نورث قائلاً، «لقد دخلتِ مكتباً»، نقر على الطاولة، «أنتِ تقدِّمين خطاب تقديم، إنَّما، لمن؟».

«أوه، إلى مَن؟»، ضحكت، «إلى رجل يرتدي بنطالاً شبيهاً بكيس إسفنجيٍّ. "كنتُ أعرف والدكِ في أكسفورد"، قال وهو يلعب بورق النشَّاف، المزيَّن بعجلة على إحدى الزوايا. غير أنَّني سألته، ما الأمر الَّذي تجده مستعصياً على الحلِّ، وأنا أنظر إلى الرجل الماهوغني، الرجل حليق الذقن، ذي الخياشيم الورديَّة، الَّذي تغذَّى على لحم الضأن...».

«الرجل في مكتب صحيفة الَّذي كان يعرف والدكِ. ثمَّ ماذا؟»، أعادها نورث إلى مسارها.

«كان ثمَّة طنين وطحن. دارت الآلات الضخمة، وظهر الصبية الصغار مع أوراق ممتدة، أوراق سود، ملطَّخة، رطبة بحبر الطابعة. "اعذريني للحظة"، قال، وكتب ملاحظة في الهامش. غير أنَّ اليهوديَّ في حمَّامي، قلتُ، اليهوديَّ... اليهوديَّ...». توقَّفت فجأة وأفرغت كأسها.

أجل، فكَّر، ها هو ذا الصوت، ها هو ذا السلوك، والانعكاس في وجوه الأشخاص الآخرين، إنَّما بعد ذلك، كان ثمَّة أمر حقيقيٌّ، ربَّما يكون في الصمت. إلَّا أنَّه لم يكن الصمت. كان بإمكانهما سماع اليهوديِّ يرتطم في الحمَّام، إذ بدا كأنَّه يترنَّح من قدم إلى أخرى، في حين راح يجفِّف نفسه. الآن، فتح قفل الباب، وسمعاه يصعد إلى الطابق العلويِّ. بدأت الأنابيب تُصدر أصوات قرقرة جوفاء.

«كم من ذاك كان حقيقياً؟»، سألها. غير أنَّها دخلت في الصمت. افترض أنَّ الكلمات الفعليَّة -الكلمات الفعليَّة الَّتي طافت معاً وشكَّلت جملة في

ذهنه- كانت تعني أنَّها كانت فقيرة، وأنَّه كان عليها كسب قوتها، غير أنَّ الحماس الَّذي أبدته في أثناء تحدُّثها، قد يكون بسبب النبيذ. ربَّما ابتدعت شخصاً آخرَ أيضاً، مظهراً آخرَ، وعلى المرء أن يجمعه ليكون أمراً واحداً.

الآن، كان المنزل هادئاً، باستثناء صوت ماء الحمَّام وهو يندفع بعيداً. تقلَّب نمط مائيٌّ على السقف. إنَّ اهتزاز مصابيح الشوارع جيئة وذهاباً جعل المنازل في الطرف المقابل ذات لون أحمر باهت غريب. كان ضجيج اليوم قد انتهى، وليس ثمَّة عربات تقعقع عبر الشارع. بائعو الخضراوات، عازفو الأرغن، المرأة الَّتي تتدرَّب على مقاماتها، والرجل الَّذي يعزف على الترومبون، كلُّهم كانوا قد دفعوا عرباتهم بعيداً، وأسدلوا ستائرهم، وأغلقوا أغطية آلات البيانو خاصَّتهم. كان المكان ساكناً إلى الحدِّ الَّذي اعتقد فيه نورث للحظة أنَّه كان في أفريقيا، يجلس على الشرفة في ضوء القمر، غير أنَّه عاد بتفكيره. «ماذا بشأن الحفل؟»، قال. نهض ورمى سيجارته. مدَّد نفسه ونظر إلى ساعته. «لقد حان وقت الذهاب»، قال، «اذهبي واستعدِّي»، حفَّزها. لأنَّه في حال رغب المرء في الذهاب إلى حفل، فكَّر، فإنَّ من السخيف أن يذهب في حين يغادر الآخرون. ولا بُدَّ أنَّ الحفل قد بدأ.

«ماذا كنت تقولين، ماذا كنت تقولين يا نيل؟»، قالت بيغي، بغية تشتيت انتباه إليانور عن دفع حصَّتها من أجر سيَّارة الأجرة، في حين وقفتا على عتبة الباب. «الأشخاص العاديُّون، يتعيَّن على الأشخاص العاديين فعل ماذا؟»، سألت.

كانت إليانور لا تزال تعبث بحقيبتها، ولم تُجب.

«كلَّا، لا يمكنني السماح بذلك»، قالت، «هاكِ، خذي هذا...».

غير أنَّ بيغي دفعت باليد جانباً، وتدحرجت العملات المعدنيَّة على عتبة الباب. انحنتا في الوقت عينه، فارتطم رأساهما.

«لا تكلِّفي نفسكِ العناء»، قالت إليانور، في حين تدحرجت قطعة عملة بعيداً. «كان الأمر كلُّه ذنبي». كانت الخادمة تمسك الباب تفتحه.

«وأين نخلع معطفينا؟»، قالت، «في الداخل؟».

دخلتا غرفة في الطابق الأرضيِّ حيث نُظِّمت كي تُستخدم بوصفها غرفة معاطف، على الرَّغم من كونها مكتباً. كانت ثمَّة مرآة على الطاولة، وأمامها هناك صوانٍ من الدبابيس والأمشاط والفراشي. ذهبت نحو المرآة وألقت نظرة سريعة خاطفة على نفسها.

«إنَّني أبدو كغجريَّة!»، قالت، ومرَّرت مشطاً في شعرها، «مُحترقة وذات لون بنيٍّ مثل زنجيٍّ!». ثمَّ أفسحت في المجال لبيغي، وانتظرت.

«أتساءل ما إذا كانت هذه هي الغرفة الَّتي...»، قالت.

«أيُّ غرفة؟»، قالت بيغي بذهول؛ كانت تلفت انتباهها نحو وجهها.

«... تلك الَّتي اعتدنا أن نلتقي فيها»، قالت إليانور. نظرت إلى ما يحيط بها. إنَّ من الواضح أنَّها كانت لا تزال تُستخدم كمكتب، إنَّما الآن، هناك لافتات لوكلاء المنازل على الحائط.

«أتساءل إن كانت كيتي ستأتي الليلة»، تأمَّلت.

كانت بيغي تنظر في المرآة ولم تجب.

«إنَّها لا تأتي إلى المدينة كثيراً الآن. لأجل الأعراس والتعميدات وما شابه فقط»، تابعت إليانور.

كانت بيغي ترسم خطّاً باستخدام أنبوب من نوع ما حول شفتيها.

«إنَّكِ تقابلين على نحو مفاجئ شابّاً يبلغ طوله ستَّ أقدام واثنين، وتدركين أنَّ هذا هو الطفل»، تابعت إليانور حديثها.

كانت بيغي لا تزال غارقة في وجهها.

«هل عليكِ أن تفعلي هذا من جديد كلَّ مرَّة؟»، قالت إليانور.

«إنَّني أبدو مخيفة في حال لم أفعل»، قالت بيغي. بدا التضيُّق حول شفتيها وعينيها واضحاً بالنسبة إليها. لم تكن قد شعرت بأنَّها ليست في مزاج احتفاليٍّ أكثر من الآن.

«أوه، إنَّ هذا لطيف من قِبلكِ...»، قالت إليانور. كانت الخادمة قد أحضرت ستَّة بنسات.

«الآن يا بيغي»، قالت وهي تقدِّم العملة النقديَّة، «اسمحي لي أن أدفع حصَّتي».

«لا تكوني حمقاء»، قالت بيغي وهي تدفع يدها بعيداً.

«إلَّا أنَّها كانت سيَّارة الأجرة خاصَّتي»، أصرَّت إليانور. تابعت بيغي مشيها. «لأنَّني أكره الذهاب إلى الحفلات»، واصلت إليانور حديثها وهي تتبعها ولا تزال تُمسك بالعملة، «بسعر رخيص جدّاً. ألا تذكرين جدَّكِ؟ لطالما قال، "لا تفسدي سفينة جيِّدة لأجل بعض القطران البخس" إن ذهبتُ إلى التسوُّق معه»، أكملت حديثها، في حين بدأتا تصعدان الدَّرج، «"أريني أفضل ما تملكينه"، كان يقول».

قالت بيغي: «إنَّني أتذكَّره».

«هل تتذكَّرين؟»، قالت إليانور. كانت تشعر بالسرور حين يتذكَّر والدها أيُّ شخص. «أفترض أنَّهم قد أجَّروا هذه الغرف»، أضافت قائلة، في حين أكملتا صعودهما. كانت الأبواب مفتوحة. «هذا هو مكتب المحامي»، قالت وهي تنظر إلى بعض الصناديق الَّتي كُتبت عليها أسماء باللَّون الأبيض.

«أجل، إنَّني أفهم ما تعنينه بشأن الطلاء، وضع مساحيق التجميل»، واصلت القول وهي تلقي بنظرة إلى ابنة شقيقها. «أنتِ تبدينَ جميلة. تبدينَ مُضيئة. إنَّني أحبُّها على صغار السنِّ. ليس عليَّ أنا نفسي. إنَّني أشعر بأنَّني مزيَّنة على نحو مبهرج، مبرهج؟ كيف تُنطق الكلمة؟ وماذا عليَّ أن أفعل بالعملات إن لم تأخذيها؟ كان يجب أن أتركها في حقيبتي في

الطابق السفليِّ». صعدتا أكثر شيئاً فشيئاً. «أفترض أنَّهم قد فتحوا هذه الغرف كلَّها»، واصلت القول -الآن، وصلتا إلى شريط من السجَّاد الأحمر- «هذا في حال امتلأت غرفة ديليا الصغيرة إلى ما يفوق الحدَّ، غير أنَّ الحفل لم يبدأ بعد، بكلِّ تأكيد. لقد وصلنا في وقت مبكر. إنَّ الجميع في الطابق العلويِّ. إنَّني أسمعهم يتحدَّثون. تعالي معي. هل عليَّ الذهاب أوَّلاً؟»

صدحت ثرثرة من الأصوات خلف أحد الأبواب. اعترضتهما خادمة.

قالت إليانور: «الآنسة بارغيتر».

نادت الخادمة: «الآنسة بارغيترا!»، وهي تفتح الباب.

«اذهبي واستعدِّي»، قال نورث. عبر الغرفة وعبث بالمفتاح الكهربائيِّ.

لمس المفتاح، وأضاء المصباح الكهربائيُّ في منتصف الغرفة. كان حاجز الضوء قد نُزع، والتفَّ حوله مخروط من الورق مُخضرُّ اللَّون.

«اذهبي واستعدِّي»، أعاد قوله. لم تجب سارة. كانت قد سحبت كتاباً نحوها وتظاهرت بأنَّها تقرؤه.

«لقد قتَل الملك»، قالت، «إذاً، ما الَّذي سيفعله تالياً؟». ثبَّتت إصبعها بين صفحات الكتاب، ورفعت نظرها إليه. كان يعلم أنَّ هذه هي وسيلة بغية تأجيل الفعل. لم يرغب في الذهاب أيضاً. على الرَّغم من ذلك فإنَّ إليانور رغبت في حضورهما، تردَّد، وهو ينظر إلى ساعته.

«ما الَّذي سيفعله تالياً؟»، أعادت القول.

«كوميديا»، قال بإيجاز، «التضادّ»، قال وهو يتذكَّر أمراً كان قد قرأه، «الشكل الوحيد للاستمراريَّة»، أضاف قائلاً في مغامرة.

«حسناً، أكمل القراءة»، قالت وهي تناوله الكتاب.

فتحه على نحو عشوائيٍّ.

«المشهد هو جزيرة صخريَّة في منتصف البحر»، قال. توقَّف قليلاً.

كان عليه دائماً، قبل أن يقرأ، أن يُرتِّب المشهد، أن يسمح له بأن يُفهم، أن يمضي قُدماً. جزيرة صخريَّة في منتصف البحر، قال لنفسه، كانت هناك بُرك خُضر، خصل من العشب الفضّيِّ، الرَّمل، وهناك بعيداً جدّاً التنهُّد الناعم لتلاطم الأمواج. فتح فمه كي يقرأ. ثمَّ كان ثمَّة صوت وراءه، حضور -أكان في المسرحيَّة أم في الغرفة؟ رفع نظره.

«ماغي!»، صاحت سارة. كانت هناك تقف عند الباب المفتوح وهي ترتدي فستان سهرة.

«هل كنتما نائمَين؟»، قالت وهي تلج الغرفة، «لقد كنَّا نقرع الجرس على نحو متواصل».

وقفت تبتسم لهما، باستمتاع، كما لو كانت قد أيقظت النيام.

«لِمَ تكلِّفين نفسكِ عناء امتلاك جرس إن كان معطَّلاً على الدوام؟»، قال الرجل الَّذي كان يقف خلفها.

نهض نورث. في البدء، لم يكد يتذكَّرهما. كان المشهد السطحيُّ غريباً في ذاكرته عنهما، إذ كان قد رآهما منذ سنوات مضت.

«إنَّ الأجراس لا ترنُّ، والصنابير لا تُنزل المياه»، قال على نحو غريب، «أم أنَّها لا تتوقَّف عن الجريان؟»، أضاف قائلاً، نظراً لكون مياه الحمَّام لا تزال تقرقر في الأنابيب.

قالت ماغي: «من حسن الحظِّ أنَّ الباب كان مفتوحاً». وقفت عند الطاولة تنظر إلى قشرة التفَّاح المقطوعة وطبق الفاكهة الموبوء بالذباب. فكَّر نورث، إنَّ بعض الجمال يذوي، وبعضه الآخر، نظر إليها، يزداد جمالاً مع التقدُّم في العمر. كان شعرها أشيبَ، ولا بُدَّ أنَّ أطفالها قد كبروا الآن، كما افترض. إنَّما لِمَ تضمُّ النساء شفاههنَّ إلى بعضها بإحكام حين ينظرنَ في المرآة؟ تساءل. كانت تنظر في المرآة. وتزمُّ شفتيها. ثمَّ عبرت الغرفة وجلست على الكرسيِّ القريب من المدفأة.

«ولِمَ كان ريني يبكي؟»، قالت سارة. نظر نورث إليه. كانت هناك علامات رطبة على جانبَي أنفه الكبير.

«لأنَّنا كنَّا نشاهد مسرحيَّة سيِّئة جدّاً»، قال، «وأريد أن أشرب شيئاً ما»، أضاف.

ذهبت سارة إلى خزانة الأكواب وبدأت تقرع الكؤوس. «هل كنتِ تقرئين؟»، قال ريني وهو ينظر إلى الكتاب الَّذي كان قد سقط على الأرض.

«لقد كنَّا على جزيرة صخريَّة في منتصف البحر»، قالت سارة واضعة الكؤوس على الطاولة. بدأ ريني يصبُّ الويسكي.

الآن، أنا أتذكَّره، فكَّر نورث. المرَّة الأخيرة الَّتي التقيا فيها كانت قبل ذهابه إلى الحرب. كان في منزل صغير في «ويستمنستر». كانا قد جلسا أمام النار. ولعب طفلٌ صغير بحصان مبرقع. وقد حسدهما على سعادتهما. وكانا قد أجريا حديثاً عن العلم. وكان ريني قد قال، «إنَّني أساعدهم في صنع القنابل»، وانسدل قناع على وجهه. رجل صنع القنابل، رجل أحبَّ السلام، رجل علم، رجل بكى...

«توقَّفي!»، صاح ريني، «توقَّفي!». كانت سارة قد أراقت المياه الغازيَّة على الطاولة.

«متى عدت؟»، سأله ريني وهو يأخذ كأسه وينظر إليه بعينين لا زالتا مبتلَّتين بالدّموع.

«منذ أسبوع مضى»، قال.

«هل بعتَ مزرعتك؟»، قال ريني. جلس ممسكاً بكأسه بيده.

«أجل، لقد بعتها»، قال نورث، «سواء أكنتُ سأبقى أم سأعود»، قال وهو يأخذ كأسه ويرفعها نحو شفتيه، «إنَّني لا أعرف».

«أين كانت مزرعتك؟»، قال ريني وهو ينحني نحوه. وتحدَّثا عن أفريقيا.

نظرت ماغي إليهما يشربان ويتحدَّثان. كان المخروط الورقيُّ الملفوف فوق المصباح الكهربائيِّ مبقَّعاً على نحو غريب. جعل الضوء المبرقش وجهيهما يبدوان مخضرَّي اللَّون. الأخدودان على كلٍّ من جانبَي أنف ريني كانا لا يزالان رطبين. كان وجهه كلُّه مكسوّاً بالقمم والتجاويف، وكان وجه نورث مستديراً وذا أنف أفطس، وذا لون أزرق تقريباً حول الشفتين. دفعت كرسيَّها دفعة بسيطة كي تتمكَّن من قياس الرأسين جنباً إلى جنب. لقد كانا مختلفين جدّاً. وبينما تحدَّثا عن أفريقيا تغيَّر وجهاهما، كما لو أنَّ رعشة قد مُنحت للشبكة الدقيقة القابعة أسفل الجلد وسقطت الأوزان في مآخذ مختلفة. سرى شعور بالحماس فيها كما لو كانت الأوزان في جسدها قد تغيَّرت أيضاً. إلَّا أنَّ هناك أمراً يتعلَّق بالضوء أثار حيرتها. نظرت في الأرجاء. لا بُدَّ أنَّ ثمَّة مصباحاً يتوهَّج خارجاً في الشارع. اختلط ضوءه، الَّذي ينتفض، مع الضوء الكهربائيِّ أسفل المخروط مخضرِّ اللَّون من الورق المبرقش. كان ذاك هو الأمر الَّذي... جفلت، وصل صوت إليها.

«إلى أفريقيا؟»، قالت وهي تنظر إلى نورث.

«إلى حفل ديليا»، قال، «سألتُ إن كنتِ ذاهبة...». لم تكن تستمع.

«لحظة واحدة...»، قاطعه ريني. رفع يده عالياً مثل شرطيٍّ يوقف الحركة المروريَّة. وتابعا الحديث عن أفريقيا مرَّة أخرى.

استلقت ماغي على كرسيِّها. ارتفع خلف رأسيهما منحنى ظهر الكرسيِّ الماهوغني. وكانت ثمَّة مرآة متجعِّدة ذات حافَّة حمراء اللَّون خلف منحنى ظهر الكرسيِّ، ثمَّ هناك الخطُّ المستقيم لرفِّ المدفأة المزيَّن بمربَّعات سود وبيض، ثمَّ كانت هناك ثلاثة قضبان تنتهي بريش أصفر ناعم. مرَّرت عينيها من غرض إلى آخر. تحرَّكتا في الاتِّجاهات كافَّة، تجمع، تحشد، تلخِّصها إلى غرض واحد، حين صاح ريني، بينما أوشكت أن تكمل النمط.

«يتعيَّن علينا، يتعيَّن علينا!»

كان قد نهض. دفع كأس الويسكي خاصَّته بعيداً. وقف هناك كشخص يأمر جندياً، فكَّر نورث، وكان صوته جازماً للغاية، وإيماءته آمرة جدّاً. على الرَّغم من أنَّ المسألة برمَّتـها كانت حول الذهاب إلى حفل امرأة عجوز. فكَّر، في حين نهض وبحث عن قبَّعته، أم لطالما كان هناك أمر برز إلى السطح، على نحو غير مناسب، غير متوقَّع، من أعماق الأشخاص، وجعل الأفعال العاديَّة، الكلمات العاديَّة، تُعبِّر عن الكيان بأكمله، أو هذا ما شعر به حين استدار بغية اللحاق بريني إلى حفل ديليا، كما لو أنَّه كان يتَّجه إلى إغاثة ثكنة محاصرة في صحراء ما؟

توقَّف ويده موضوعة على الباب. كانت سارة قد أتت من غرفة النوم. لقد غيَّرت ملابسها، فكانت ترتدي فستان سهرة، وكان ثمَّة أمر غريب حولها، ربَّما كان تأثير فستان السهرة وهو يجافيها؟

قالت وهي تنظر إليهم: «إنَّني جاهزة».

توقَّفت والتقطت الكتاب الَّذي كان نورث قد سمح له بالسقوط.

«علينا أن نذهب...»، قالت وهي تلتفت نحو شقيقتها.

وضعت الكتاب على الطاولة، ومنحته تربيتة حزينة خفيفة حين أغلقته.

«علينا أن نذهبَ»، أعادت القول، وتبعتهم نزولاً على الدَّرج.

نهضت ماغي. ألقت نظرة إضافيَّة على غرفة المنزل المستأجر الرخيصة. كانت هناك زهرة جيرانيوم في إنائها المصنوع من الطِّين، الزُّهريَّة الخضراء ذات الحافّة المتجعِّدة، والكرسيّ الماهوغني. وُضع طبق الفاكهة على طاولة الطعام، واستلقى التفَّاح الشهوانيُّ الضخم جنباً إلى جنب مع الموز الأصفر المبقَّع. لقد كانت تركيبة عجيبة، المستدير والمستدقّ، الورديّ والأصفر. أطفأت الضوء. الآن، كادت الغرفة تكون مظلمة، باستثناء نمط مائيٍّ الشكل يتأرجح على السقف. لم تكن سوى الخطوط العريضة ظاهرة ضمن هذا الضوء الوهميِّ سريع الزوال، تفَّاح شبحيّ، موز شبحيّ، وطيف كرسيّ.

كانت الألوان تعود ببطء، في حين تعوَّدت عيناها الظلام، والجوهر... وقفت هناك تنظر للحظة. ثمَّ صرخ صوت:

«ماغي! ماغي!».

«إنَّني قادمة!»، صاحت، ثمَّ تبعتهم نزولاً على الدرج.

«واسمكِ يا آنسة؟»، قالت الخادمة لبيغي حين سارت خلف إليانور.

«الآنسة مارغريت بارغيتر»، قالت بيغي.

«الآنسة مارغريت بارغيتر!»، صاحت الخادمة في الغرفة.

كانت هناك ثرثرة من الأصوات، وأُضيئت الأنوار بسطوع أمامها، وتقدَّمت ديليا. «أوه، بيغي!»، صاحت. «لطف منكِ الحضور!»

ولجت داخلةً، غير أنَّها شعرت بأنَّها مطليَّة، مغطَّاة ببعض الجلد البارد. لقد قدمتا في وقت مبكر أكثر من اللازم، إذ كانت الغرفة فارغة تقريباً. وقف قلَّة من الناس في الأرجاء فقط، يتحدَّثون بصوتٍ عالٍ جدّاً، كما لو أنَّهم فعلوا ذلك بغية ملء الغرفة. فكَّرت بيغي في نفسها وهي تصافح يدَي ديليا وتمضي قُدماً، فلنتظاهر أنَّ أمراً مبهجاً يوشك أن يحدث. رأت بوضوح بالغ السجَّادة الفارسيَّة والمدفأة المنحوتة، غير أنَّه كان ثمَّة مكان فارغ في منتصف الغرفة.

ما النصيحة لهذا الموقف بالذات؟ سألت نفسها كما لو كانت تُعطي وصفة لمريض. أضافت، خُذي ملاحظات. ضعيها في قارورة ذات غطاء أخضر لامع، فكَّرت. خذي ملاحظات وسيختفي الألم. خذي الملاحظات وسيختفي الألم، أعادت لنفسها، في حين وقفت هناك وحيدة. تجاوزتها ديليا مسرعة. لقد كانت تتحدَّث، غير أنَّها كانت تتحدَّث على نحو عشوائيٍّ.

«الأمر بأسره جيِّد جدّاً بالنسبة إلى الأشخاص الَّذين يعيشون في لندن...»، كانت تقول. غير أنَّ تعب تدوين ملاحظات لما يقوله الأشخاص، أكملت بيغي، في حين عبرت ديليا إلى جانبها، هو أنَّهم يتحدَّثون بالكثير

من الهراء... هراء كامل تماماً، فكَّرت، وهي تسحب نفسها نحو الجدار. هنا، دخل والدها. توقَّف قليلاً عند الباب، ورفع رأسه كما لو كان يبحث عن شخص ما، وتقدَّم ويده ممدودة.

وما هذا؟ سألت، لأنَّ مشهد والدها منتعلاً حذاءه البالي إلى حدٍّ ما، قد منحها شعوراً عشوائيّاً مباشراً. هذا التفجُّر الدافئ المفاجئ؟ سألت وهي تختبره. راقبته وهو يعبر الغرفة. لطالما أثَّر فيها حذاؤه على نحو غريب. فكَّرت في أنَّ الأمر يتعلَّق جزئيّاً بالجنس، وبالشفقة جزئيّاً. هل يمكن للمرء أن يسمِّي الأمر «حبّاً»؟ غير أنَّها أجبرت نفسها على التحرُّك. الآن، وقد جررت نفسي إلى مرحلة من عدم الاكتراث النسبيِّ، قالت لنفسها، فسأعبر الغرفة بجسارة، وسأذهب إلى العمِّ باتريك، الَّذي يقف إلى جوار الأريكة ينكش أسنانه، وسأقول له -ماذا يجب أن أقول؟

اقترحت جملة دون منطق، حين عبرت الغرفة، «كيف حال الرجل الَّذي قطع أصابع قدمه مستخدماً بلطة؟»

«كيف حال الرجل الَّذي قطع أصابع قدمه مستخدماً بلطة؟»، قالت وهي تردِّد الكلمات على النحو الَّذي فكَّرت فيه تماماً. انحنى الرجل الأيرلنديُّ الوسيم المسنُّ، إذ كان فارع الطول، وجوَّف يده، لكونه ذا سمع ضعيف.

«هاكيت؟ هاكيت؟»، أعاد. ابتسمت. لا بُدَّ أنَّ الخطوات من دماغ إلى آخر ضحلة جدّاً، إن كان على الفكرة أن تصعدها، لاحظت.

«قطع أصابع قدمه مستخدماً بلطة حين كنتُ أقيم عندك»، قالت. تذكَّرت كيف قطع البستانيُّ قدمه ببلطة حين بقيت عندهم في أيرلندا آخر مرَّة.

«هاكيت؟ هاكيت؟»، كرَّر. كان يبدو حائراً. ثمَّ بزغ عليه الفهم!

«أوه، هاكيت!»، قال، «بيتر هاكيت المسنُّ العزيز، أجل». بدا كأنَّ ثمَّة أسرة تُدعى هاكيت في «غالواي»، وكان الخطأ الَّذي لم تكلِّف نفسها عناء

تصويبه، الَّذي عاد بالخير تماماً، لأنَّه جعله يبدأ الحديث، وأخبرها قصصاً عن أسرة هاكيت، في حين جلسا جنباً إلى جنب على الأريكة.

فكَّرت في أنَّ امرأة بالغة قد قطعت لندن بغية التحدُّث إلى رجل مسنٍّ أصمَّ عن أسرة هاكيت، الَّتي لم تسمع عنها قطُّ، في حين أنَّها كانت تقصد سؤاله عن البستانيِّ الَّذي قطع إصبع قدمه ببلطة. إنَّما، هل هذا مهمٌّ؟ أسرة هاكيت أو البلطة؟ ضحكت على النكتة، لذا بدا الأمر ملائماً. غير أنَّ المرء يبتغي شخصاً آخرَ يضحك معه، فكَّرت. إنَّ البهجة تزداد حين مشاركتها. هل ينطبق الأمر عينه على الألم؟ تأمَّلت. هل هذا هو السبب الَّذي يجعلنا جميعاً نتحدَّث كثيراً عن اعتلال الصحَّة، لأنَّ مشاركة الأشياء يخفِّف منها؟ فلنمنح الألم والمتعة جسداً خارجيّاً، ومن خلال زيادة المساحة ندمِّرهما... غير أنَّ الفكرة تراجعت. كان قد انطلق يخبرها قصصه القديمة. على نحو لطيف، وعلى نحو منهجيٍّ، مثل رجل يشرع في تحريك حصان لا يزال صالحاً للخدمة غير أنَّه منهك إلى حدٍّ ما، كان قد انطلق يتذكَّر الأيَّام الخوالي، والكلاب المسنَّة، والذكريات القديمة الَّتي شكَّلت نفسها ببطء، في حين بدأ يشعر بحماس تجاه الحديث، متحوِّلة إلى الأشكال الصغيرة لحياة المنزل الريفيِّ. تخيَّلت وهي تستمع إليه نصف استماع أنَّها كانت تنظر إلى لقطة باهتة للاعبي الكريكيت، لحفلات الصيد وهي تجلس على الدرجات العديدة لقصر ريفيٍّ ما.

تساءلت كم عدد الأشخاص الَّذين يستمعون؟ إذاً، هذه «المشاركة»، هي بمنزلة مهزلة إلى حدٍّ ما. أجبرت نفسها على الحضور.

«آهٍ، أجل، لقد كانت تلك الأيَّام الخوالي الجيِّدة!»، كان يقول. دخل الضوء في عينيه الباهتتين.

نظرت مرَّة أخرى إلى لقطة الرجال الَّذين يرتدون الجلاميق، والنساء اللواتي يرتدين التنانير الفضفاضة على الدرجات البيض العريضة، والكلاب متكوِّمة عند أقدامهنَّ. غير أنَّه كان قد انطلق من جديد.

«هل سمعتِ قبلاً من والدكِ عن رجل يُدعى رودي جينكينس، الَّذي عاش في المنزل الأبيض الصغير على جانب اليد اليمنى، في حين كنتِ تسيرين على الطريق؟»، سأل، «إنَّما، لا بُدَّ أنَّكِ تعرفين القصَّة؟»، أضاف قائلاً.

«كلّا»، قالت وهي تغلق عينيها كما لو كانت ترجع إلى ملفَّات الذاكرة، «أخبرني».

وأخبرها القصَّة.

فكَّرت، إنَّني جيِّدة جدّاً في تجميع الحقائق. إنَّما، ما الَّذي يشكِّل الشخص... (جوَّفت يدها)، المحيط... كلّا، أنا لستُ جيِّدة في ذلك. كانت عمَّتها ديليا هناك. راقبتها تتحرَّك بسرعة في أنحاء الغرفة. ما الَّذي أعرفه عنها؟ أنَّها ترتدي فستاناً ذا بقع ذهبيَّة، وتتمتَّع بشعر مموَّج، شعرها أحمر اللَّون، بيضاء البشرة، وسيمة، منكوبة، ذات ماضٍ. إنَّما، أيّ ماضٍ؟ لقد تزوَّجت باتريك... واصلت القصَّة الطويلة الَّتي كان باتريك يحكيها لها، تفكيك سطح ذهنها مثل مجاديف تُغمس في الماء. لا شيء يسعه الاستقرار. كانت ثمَّة بحيرة في القصَّة أيضاً، لأنَّها كانت قصَّة حول صيد البطِّ.

لقد تزوَّجَت باتريك، فكَّرت، وهي تنظر إلى وجهه الـمُجهد القاسي ذي الخطوط العميقة نتيجة الطقس مع وجود شعرات منفصلة عليه. تساءلت، لِمَ تزوَّجت ديليا باتريك؟ كيف ينجحان في الأمر، أهو الحبُّ، إنجاب الأطفال؟ الأشخاص الَّذين يلمسون بعضهم بعضاً ويصعدون في سحابة من الدخان: دخان أحمر؟ ذكَّرها وجهه بالقشر الأحمر للعنب الأحمر مع الشعيرات المتفرِّقة الَّتي تعلوه. غير أنَّ أيّاً من هذه الخطوط على وجهه كانت عميقة بما فيه الكفاية كي تشرح كيف ارتبط أحدهما بالآخر، وأنجبا ثلاثة أطفال، فكَّرت. لقد كانت خطوطاً حدثت نتيجة الصيد، خطوطاً نتجت من القلق، لأنَّ الأيَّام الخوالي قد ولَّت، كما كان يقول. كان عليهما التقليل من الأشياء.

«أجل، إنَّنا نكتشف ذلك جميعاً»، قالت على نحو روتينيٍّ. أدارت معصمها بحذر كي تستطيع قراءة ساعتها. لم تمضِ سوى خمس عشرة دقيقة فقط. غير أنَّ الغرفة كانت تمتلئ بأشخاص لا تعرفهم. كان هناك شخص هنديٌّ يعتمر عمامة ورديَّة اللَّون.

«آه، إلَّا أنَّني أسبِّب لكِ الملل بهذه القصص القديمة»، قال عمُّها وهو يلوِّح بيده. شعرت بأنَّه قد أحسَّ بالأذى.

«كلَّا، كلَّا، كلَّا!»، قالت وهي تشعر بانعدام الراحة. انطلق من جديد، إنَّما هذه المرَّة، انطلاقاً من حسن الأدب كما أحسَّت. لا بُدَّ أنَّ الألم يرجح على المتعة بما يعادل جزأين إلى واحد، فكَّرت، في جميع العلاقات الاجتماعيَّة. أم أكون أنا الاستثناء، الشخص الغريب؟ تابعت، لأنَّ الآخرين يبدون سعداء بما فيه الكفاية. أجل، فكَّرت وهي تنظر أمامها مباشرة، وتشعر من جديد بالجلد الـمُمدَّد حول شفتيها وعينيها وهو ضيِّق من التعب نتيجة بقائها مستيقظة لوقت متأخِّر مع امرأة في أثناء ولادتها، إنَّني الاستثناء، قاسية، باردة، في أحسن أحوالي بالفعل، طبيبة محضة.

فكَّرت في أنَّ الخروج من الحال الفضلى هو أمر بغيض لعين، قبل أن تبدأ قشعريرة الموت، مثل ثني الأحذية المتجمِّدة... حنت رأسها بغية الاستماع. بغية الابتسام، بغية الانحناء، بغية التظاهر بأنَّكِ مستمتعة في حين أنَّكِ تشعرين بالملل، لكَم هو مؤلم هذا الأمر، فكَّرت. إنَّ جميع الطرق، كلّ طريق مؤلم، فكَّرت، وهي تحدِّق إلى الهنديِّ الَّذي يعتمر عمامة ورديَّة اللَّون.

«من هو ذاك الرفيق؟»، سأل باتريك وهو يومئ برأسه في اتِّجاهه.

«إنَّه أحد الهنود الَّذين تعرفهم إليانور بحسب توقُّعي»، قالت بصوتٍ عالٍ، وفكَّرت، لو تعمل قوى الظلام الرحيمة على محو التعرُّض الخارجيِّ للعصب الحسّيِّ، وكان بإمكاني النهوض و... كانت ثمَّة وقفة قصيرة.

«إنَّما، لا يتعيَّن عليَّ إبقاؤكِ هنا، تستمعين إلى قصصي القديمة»، قال العمُّ باتريك. حصانه الَّذي أنهكه الطقس، ذو الركب المكسورة قد توقَّف.

«إنَّما، أخبرني، هل لا يزال العجوز بيدي يمتلك المحلَّ الصغير حيث اعتدنا أن نشتريَ الحلويات؟»، سألت.

«الصديق المسنُّ المسكين...»، بدأ القول. انطلق في الحديث من جديد. فكَّرت في أنَّ جميع مريضاتها قلنَ ذلك. الراحة، الراحة، دعيني أرتَحْ. كيف أخفِّف الألم، كيف أتوقَّف عن الشعور، كان ذاك هو نداء امرأة تحمل أطفالاً، أن ترتاح، أن تتوقَّف عن الوجود. في العصور الوسطى، فكَّرت، كانت الزنزانة، الدير، الآن، المختبر، المهن، ألَّا تعيش، ألَّا تشعر، أن تكسب المال، المال دائماً، وفي نهاية المطاف، حين أُصبح مسنَّة ومنهكة كحصان، كلَّا، مثل بقرة... -نظراً لكون جزء من قصَّة باتريك قد فرض نفسه على ذهنها: «... لأنَّه ليس ثمَّة بيع للمواشي على الإطلاق»، كان يقول، «لا بيع على الإطلاق. آه، ها هي ذي جوليا كرومارتي-»، صاح، ولوَّح بيده، بيده الضخمة ذات المفاصل الرخوة، نحو ابنة بلده الساحرة.

كانت قد تُركت تجلس وحيدة على الأريكة. لأنَّ عمَّها نهض وانطلق، ويداه كلتاهما ممدودتان بغية إلقاء التحيَّة على المرأة المسنَّة، الشبيهة بالطائر الَّتي كانت قد دخلت وهي تثرثر.

لقد تُركت وحيدة. كانت سعيدة في كونها وحيدة. لم تكن ترغب في الحديث إطلاقاً. غير أنَّ شخصاً قد وقف إلى جانبها في اللَّحظة التالية. كان مارتن. جلس إلى جانبها. غيَّرت من سلوكها بأكمله.

رحَّبت به بحفاوة: «مرحباً مارتن!»

«هل أدَّيتِ واجبكِ تجاه الفرس العجوز يا بيغي؟»، قال. أشار إلى القصص الَّتي لطالما كان باتريك العجوز يقصُّها.

«هل كنتُ أبدو كئيبة جدّاً؟»، سألت.

«حسناً، لم تبدي جذلى تماماً»، قال وهو ينظر إليها.

«إنَّ المرء يعرف خاتمة قصصه بحلول هذا الوقت»، سوَّغت لنفسها وهي تنظر إلى مارتن. لقد اعتاد أن يمشِّط شعره مثل شعر نادل. لم يسبق له أن نظر إلى وجهها بالكامل. لم يسبق له أن شعر براحة تامَّة معها. لقد كانت طبيبته، وكانت تعلم أنَّه كان هلعاً من السرطان. لا بُدَّ أن تحاول تشتيته عن التفكير. هل رأت أيَّ أعراض؟

«كنتُ أتساءل كيف حدث أن تزوَّجا»، قالت، «هل كانا واقعين في الغرام؟». تحدَّثت على نحو عشوائيٍّ بغية تشتيت انتباهه.

«لقد كان واقعاً في الغرام بكلِّ تأكيد»، قال. نظر إلى ديليا. كانت تقف إلى جانب المدفأة وتتحدَّث إلى الهنديِّ. كانت لا تزال امرأة وسيمة للغاية، بحضورها، بإيماءاتها.

«لقد كنَّا جميعاً واقعين في الغرام»، قال وهو ينظر إلى بيغي بطرف عينه. لقد كان الجيل الأصغر سنّاً جادّاً للغاية.

«أوه، بالتأكيد»، قالت وهي تبتسم. لقد أحبَّت سعيه الأبديَّ إلى حبٍّ تلو الآخر -تمسّكه الباسل بالذيل الـمُحلِّق، ذيل الشباب الزلق- حتَّى هو، حتَّى الآن.

«إلَّا أنتِ»، قال وهو يمدِّد قدميه، ويشدُّ بنطاله، «أعني جيلكِ، لقد فاتكم الكثير... لقد فاتكم الكثير»، أعاد. انتظرَت.

أضاف قائلاً: «أن تحبُّوا شخصاً من جنسكم فقط».

لقد أحبَّ أن يؤكِّد على شبابه بتلك الطريقة، فكَّرت، أن يقول أموراً عصريَّة بحسب اعتقاده.

«إنَّني لا أنتمي إلى ذاك الجيل»، قالت.

«حسناً، حسناً، حسناً»، قهقه وهو يرفع كتفيه وينظر إليها بطرف عينه. لم يكن يعلم سوى القليل جدّاً عن حياتها الخاصَّة. غير أنَّها بدت جديَّة، بدت متعبة. فكَّر في أنَّها تعمل بجدٍّ أكثر من اللازم.

«إنَّني أتقدَّم»، قالت بيغي، «أتَّجه إلى الوضع الملائم. هذا ما أخبرتني به إليانور الليلة».

أم كانت هي، من الناحية الأخرى، الَّتي قالت لإليانور بأنَّها كانت «مقموعة»؟ أحد الأمرين أو الآخر.

«إنَّ إليانور امرأة مسنَّة سعيدة»، قال، «انظري!»، أشار إليها.

ها هي ذي هناك، تتحدَّث إلى الهنديِّ وهي في معطفها الأحمر.

«لقد عادت توّاً من الهند»، أضاف قائلاً، «هديَّة من البنغال، أليس كذلك؟»، قال مشيراً إلى المعطف.

قالت بيغي: «وستنطلق نحو الصين في العام المقبل».

«إنَّما ديليا...»، سألت، كانت ديليا تتجاوزهما. «هل كانت واقعة في الغرام؟» (الأمر الَّذي تدعونه في جيلكم بـ«الوقوع في الغرام»، أضافت قائلة إلى نفسها).

هزَّ رأسه من جانب إلى آخر، وزمَّ شفتيه. لطالما أحبَّ مزحته الصغيرة كما تذكَّرت.

«لا أعلم، لا أعلم بشأن ديليا»، قال، «كان هناك السبب، كما تعلمين... الأمر الَّذي كانت تُسمِّيه في تلك الأيَّام بالسبب». شدَّ وجهه. «أيرلندا، كما تعلمين. بارنيل. هل سمعتِ قبلاً عن رجل يُدعى بارنيل؟»، سأل.

قالت بيغي: «أجل».

«وإدوارد؟»، أضافت قائلة. كان قد دخل، وكان يبدو مميّزاً جدّاً أيضاً ببساطته المتقنة، في حال كانت عن وعي.

«إدوارد، أجل»، قال مارتن، «لقد كان إدوارد واقعاً في الغرام. إنَّكِ تعرفين القصَّة القديمة بكلِّ تأكيد... إدوارد وكيتي؟».

«تلك الَّتي تزوَّجت -ماذا كان اسمه؟ - لاسودي؟»، تمتمت بيغي في حين عبر إدوارد إلى جانبهما.

«أجل، لقد تزوَّجت رجلاً آخر، لاسودي. غير أنَّه كان واقعاً في الغرام، كان واقعاً في الغرام إلى حدٍّ بعيد»، تمتم مارتن، «إنَّما أنتِ»، ألقى نظرة سريعة عليها. كان ثمَّة أمر يتعلَّق بها تسبَّب في إثارة القشعريرة لديه. «بالطبع أنتِ تمتلكين مهنتكِ»، أضاف قائلاً. نظر إلى الأرض. كان يفكِّر في شأن خوفه من السرطان بحسب افتراضها. لقد كان خائفاً من أنَّها قد لاحظت بعض الأعراض.

«أوه، إنَّ الأطباء مخادعون كبيرون»، قالت الجملة على نحو عشوائيٍّ.

«لماذا؟ إنَّ الأشخاص يعيشون أطول من ذي قبل، أليس كذلك؟»، قال، «إنَّهم لا يموتون ميتة مؤلمة في أيِّ حال»، أضاف.

«لقد تعلَّمنا بضع حيل»، اعترفت قائلة. حدَّق أمامه وفي عينيه نظرة حرَّكت شفقتها.

«سوف تعيش إلى أن تبلغ الثمانين، إن رغبتَ في العيش إلى أن تبلغ الثمانين»، قالت. نظر إليها.

«بكلِّ تأكيد، إنَّني من مؤيِّدي العيش إلى سنِّ الثمانين!»، صاح، «أريد أن أذهب إلى أمريكا. أريد أن أرى أبنيتهم. إنَّني على ذاك الجانب كما ترين. إنَّني أستمتع بالحياة». لقد فعل ذلك، على نحو كبير جدّاً.

لا بُدَّ أنَّه يتجاوز الستين من عمره، كما افترضت. غير أنَّه كان ينهض على نحو رائع، مثل رجل شابٍّ وأنيق في الأربعين من عمره، مع زوجته ذات لون الكناري في «كينسينغتون».

«لا أعلم»، قالت بصوتٍ عالٍ.

قال: «تعالي يا بيغي، تعالي. لا تقولي لي إنَّكِ لا تستمتعين، ها هي ذي روز».

تقدَّمت روز. لقد أصبحت بدينة للغاية.

«ألا ترغبين في أن تصلي إلى الثمانين من العمر؟»، قال لها. تعيَّن عليه أن يقولها مرَّتين متتاليتين. لقد كانت صمَّاء.

«أريد ذلك. بالطبع أريد ذلك!»، قالت حين فهمته. واجهتهما. شكَّلت زاوية غريبة ورأسها منحنٍ إلى الخلف كما لو كانت رجلاً عسكريّاً، فكَّرت بيغي.

«بالطبع أريد ذلك»، قالت وهي تجلس فجأة على الأريكة إلى جانبهما.

«آه، إنَّما حينها...»، بدأت بيغي القول. توقَّفت قليلاً. تذكَّرت أنَّ روز كانت صمَّاء. كان يتعيَّن عليها الصراخ، «إنَّ الأشخاص في زمنكم لم يجعلوا من أنفسهم حمقى»، صاحت. غير أنَّها شكَّت في أنَّ روز قد سمعتها.

«أريد أن أرى ما الَّذي سيحدث»، قالت روز، «إنَّنا نعيش في عالم مثير للاهتمام جدّاً»، أضافت قائلة.

«هذا هراء»، أغاظها مارتن قائلاً، «أنتِ ترغبين في أن تعيشي»، صاح في أذنها، «لأنَّكِ تستمتعين بالعيش».

قالت: «وأنا لا أشعر بالخجل من الأمر، إنَّني أحبُّ جنسي، في العموم».

«إنَّ ما تحبِّينه هو التشاجر معهنَّ»، صاح.

«هل تعتقد أنَّكَ قادر على إزعاجي في هذا الوقت من اليوم؟»، قالت وهي تنقر على ذراعه.

الآن، سيتحدَّثان عن وقت طفولتيهما، يتسلَّقان الأشجار في الحديقة الخلفيَّة، فكَّرت بيغي، وكيف ضربا قطَّة شخص ما. كان كلُّ شخص يمتلك خطّاً معيَّناً مُعدّاً في ذهنه، فكَّرت، وعلى امتداده، تحضر الأقوال القديمة عينها. لا بُدَّ أنَّ ذهن المرء متقاطع كما كفُّ المرء، فكَّرت وهي تنظر إلى كفِّها.

«لطالما كانت سريعة الغضب»، قال مارتن وهو يلتفت نحو بيغي.

«ولطالما ألقوا باللوم عليَّ أنا»، قالت روز، «كان هو يمتلك غرفة الدراسة. أين يفترض بي الجلوس؟ "أوه، اركضي بعيداً والعبي في الحضانة!"»، لوَّحت بيدها.

«وهكذا، ذهبت إلى الحمَّام وقطعت معصمها بسكين»، قال مارتن باستهزاء.

«كلَّا، لقد كان إيريدج، كان أمراً يتعلَّق بالـمُجهر»، صحَّحته.

إنَّ الأمر أشبه بقطَّة تُلاحق ذيلها، فكَّرت بيغي، يلتفَّان في دائرة على نحو متواصل. غير أنَّه كان الأمر الَّذي يستمتعان بفعله، فكَّرت، إنَّه الأمر الَّذي يأتيان إلى الحفلات لأجله. تابع مارتن إغاظة روز.

«وأين هي شريطتكِ الحمراء؟»، كان يسأل.

تذكَّرت بيغي أنَّها قد مُنحت وساماً في مقابل عملها في الحرب.

«ألسنا جديرين برؤيتكِ في طلاء الحرب خاصّتكِ؟»، أغاظها قائلاً.

«إنَّ هذا الرفيق يشعر بالغيرة»، قالت وهي تلتفت نحو بيغي من جديد، «لم يسبق له أن أنجز أيَّ عمل في حياته».

«إنَّني أعمل، إنَّني أعمل»، أصرَّ مارتن، «إنَّني أجلس في مكتب طيلة اليوم...»

«ماذا تفعل هناك؟»، قالت روز.

ثمَّ أصبحا صامتَين فجأة. لقد انتهت هذه الجولة، جولة نزاع الأخ والأخت القديمة. الآن، بإمكانهما فقط العودة وتكرار الأمور عينها من جديد.

«انظري هنا»، قال مارتن، «علينا أن نذهب ونؤدِّي واجبنا». نهض. افترقا.

«بفعل ماذا؟»، أعادت بيغي حين عبرت الغرفة، «بفعل ماذا؟»، كرَّرت قولها. كانت تشعر بأنَّها هوجاء، ولم يكن أيُّ أمر تفعله مهمّاً. مشت نحو النافذة وفرَّقت الستائر عن بعضها. كانت هناك نجوم مثبتة في ثقوب

صغيرة في السماء السوداء المزرقّة. وكان هناك صفٌّ من أوعية المداخن عبر السماء. ثمَّ النجوم. غامضة، أبديَّة، غير مبالية، كانت تلك هي الكلمات، الكلمات الصحيحة. غير أنَّني لم أشعر بها، قالت وهي تنظر إلى النجوم. إذاً، لِمَ أتظاهر بذلك؟ فكَّرت في أنَّ ماهيَّتها الحقيقيَّة، وهي تفتح عينيها بغية النظر إليها، هي قطع صغيرة من الفولاذ البارد. والقمر، ها هو ذا، غطاء طبق مصقول. إلَّا أنَّها لم تشعر بأيِّ شيء، حتَّى حينما قلَّصت القمر والنجوم إلى تلك الأمور. ثمَّ استدارت ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع شابٍّ يافع اعتقدت أنَّها كانت تعرفه، لكنَّها لم تستطع تذكُّر اسمه. كان يتمتَّع بملامح جميلة، إنَّما مع ذقن متراجعة، وكان شاحب اللَّون، مُصفرّاً.

«كيف حالك؟»، قالت. هل كان اسمه ليكوك أو لايكوك؟

«آخر مرَّة التقينا فيها كانت في السباقات». لقد ربطت، على نحو متناقض، بينه وبين حقل ذرة، والجدران الحجريَّة، والمزارعين، وقفز المهور الصعب.

«كلَّا، ذاك هو بول»، قال، «شقيقي بول». كان لاذعاً حيال الأمر. ما الَّذي فعله، إذاً، وجعله أسمى من بول في تقديره لنفسه؟

قالت: «أنت تعيش في لندن؟».

أومأ.

«هل تكتب؟»، سألت مجازفة. إنَّما، لأنَّه كان كاتباً -تذكَّرت الآن رؤية اسمه على الأوراق- لماذا تُرجع رأسكَ إلى الخلف مع قولك كلمة «نعم»؟ كانت تفضِّل بول، كان يبدو سليماً، هذا الشخص كان يمتلك وجهاً غريباً، ويبدو متماسكاً، سريع الغضب، وجامداً.

«الشِّعر؟»، قالت.

«أجل». إنَّما لِمَ اختصر تلك الكلمة كما لو كانت كرزة في نهاية عود؟ فكَّرت. لم يكن ثمَّة أيُّ شخص قادم، وكان عليهما أن يجلس أحدهما إلى جانب الآخر، على الكرسيِّين المجاورين للحائط.

«كيف تنجح في فعل ذلك، إن كنتَ موجوداً في مكتب؟»، قالت. إنَّ من الواضح أنَّه يفعل ذلك في وقت فراغه.

«عمّي»، بدأ القول، «... هل التقيته؟»

أجل، رجل عاديٌّ لطيف؛ لقد كان بالغ اللطف تجاهها ذات مرَّة بشأن جواز السفر. إنَّ هذا الصبيَّ كان يسخر منه بكلِّ تأكيد، هذا على الرَّغم من أنَّها كانت تستمع نصف استماع. إذاً، لِم يذهب إلى مكتبه؟ سألت نفسها. إنَّ أهلي، كان يقول... كانوا يمارسون الصيد. جال انتباهها. لقد سمعت كلَّ شيء قبلاً. أنا، أنا، أنا، أكمل كلامه. كان الأمر أشبه بنقر منقار نسر، أو شفط مكنسة كهربائيَّة، أو قرع جرس الهاتف. أنا، أنا، أنا. غير أنَّه لم يستطع فعل شيء حيال الأمر، ليس مع الوجه الأنانيِّ سريع الغضب ذاك الَّذي يتمتَّع به، فكَّرت وهي تلقي نظرة عليه. لم يكن في مقدوره تحرير نفسه، ولم يستطع الانفصال عن نفسه. كان مُقيَّداً إلى العجلة بسلاسل حديديَّة مُحكمة. وكان يتعيَّن عليه أن يفضح، وأن يعرض. إنَّما، ما سبب السماح له بفعل ذلك؟ فكَّرت، في حين استمرَّ هو في الحديث. لأيِّ سبب أهتمُّ بشأن الـ«أنا، أنا، أنا»، خاصَّته؟ أو بشأن شعره؟ فلأتخلَّص منه إذاً، قالت لنفسها وهي تشعر مثل شخص مُصَّ دمُه، وتُركت كلُّ مراكز الأعصاب ممتقعة. توقَّفت قليلاً. لاحظ افتقارها إلى التعاطف. افترضت أنَّه اعتقد بأنَّها غبيَّة.

«إنَّني متعبة»، قالت معتذرة، «لقد بقيتُ مستيقظة طوال الليل»، شرحت له، «أنا طبيبة...»

خرجت النار من وجهه حين قالت، «أنا». سيؤدِّي هذا الغرض، سيرحل الآن، فكَّرت. إنَّه لا يتحمَّل وجود، «أنت»، لا بُدَّ أن يتمحور الأمر حول «أنا». ابتسمت. لأنَّه نهض ومضى.

التفتت في الأرجاء ووقفت عند النافذة. الصعلوك الصغير المسكين، فكَّرت، ضامر، ذابل، بارد كالفولاذ، قاسٍ كالفولاذ، جافّ كالفولاذ. فكَّرت

وهي تنظر إلى السماء، وأنا أيضاً كذلك. بدت النجوم كأنَّها أماكن وخز عشوائيَّة في السماء، باستثناء تلك الموجودة هناك، الواقعة إلى اليمين فوق أوعية المدخنة، تعلَّقت عربة اليد الوهميَّة تلك، ماذا كانوا يسمُّونها؟ لم تستطع تذكُّر الاسم. سوف أعدُّها، فكَّرت وهي تعود إلى دفترها، وقد بدأت واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... حين صاح صوت خلفها: «بيغي! ألا تُدغدغكِ أذناكِ؟». استدارت. لقد كانت ديليا بالطبع، مستخدمة طرائقها اللطيفة، تقليدها للإطراء الأيرلنديِّ، «-لأنَّه لا بُدَّ أنَّهما كذلك»، قالت ديليا وهي تُلقي بيدها على كتفها، «مع الأخذ في الحسبان ما كان يقوله هو» -أشارت إلى رجل ذي شعر أشيب- «يا لها من مدائح تلك الَّتي يغنِّيها عنكِ!».

نظرت بيغي إلى المكان الَّذي أشارت إليه. كان معلِّمها هناك، أستاذها. أجل، لقد علِمت أنَّه كان يعتقد أنَّها ذكيَّة. لقد كانت كذلك، بحسب افتراضها. لقد قال الجميع ذلك. فائقة الذَّكاء.

«لقد كان يخبرني...»، بدأت ديليا القول. غير أنَّها توقَّفت.

«ساعديني في فتح هذه النافذة فحسب»، قالت، «لقد أصبح الجوُّ حارّاً».

«اسمحي لي»، قالت بيغي. هزَّت النافذة هزَّة بسيطة، غير أنَّها عالقة، لأنَّها كانت قديمة ولم تكن الأُطر ملائمة.

«هاكِ يا بيغي»، قال شخص ما، قادم من خلفها. لقد كان والدها. كانت يده على النافذة، يده الَّتي تحمل ندبة. دفعها، فارتفعت النافذة.

«شكراً لكَ يا موريس، إنَّ هذا أفضل»، قالت ديليا، «كنتُ أقول لبيغي لا بُدَّ أنَّ أذنيها تدغدغانها»، بدأت القول من جديد: «"أكثر طلَّابي عبقريَّة!"، هذا ما قاله»، أكملت ديليا حديثها، «أؤكِّد لكِ أنَّني شعرتُ بفخر شديد، "لكنَّها ابنة شقيقي"، قلت. لم يكن يعرف بالأمر....

هناك، قالت بيغي، هذا من دواعي سروري. بدا كأنَّ العصب على امتداد عمودها الفقريِّ يقشعرُّ، في حين وصل المديح إلى والدها. لقد مسَّت كلُّ عاطفة عصباً مختلفاً. قشطت السخرية الفخذ، وأثارت المتعة العمود الفقريَّ، وأثَّرت على البصر على حدٍّ سواء. كانت النجوم قد أصبحت أكثر نعومة، وارتجفت. مسح والدها يده على كتفها، في حين أنزل يده، غير أنَّ أيّاً منهما لم يتحدَّث.

«هل تريدين فتحها من الأسفل أيضاً؟»، قال.

«كلَّا، هذا يكفي»، قالت ديليا، «إنَّ الغرفة تزداد حرارة»، قالت، «بدأ الناس يقدمون. لا بُدَّ أن يستخدموا الغرف في الطابق السفليِّ»، قالت، «إنَّما، من يوجد هناك؟»، أشارت. في الطرف المقابل للمنزل، عند درابزين الميدان، كانت ثمَّة مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون ملابس سهرة.

«أعتقد أنَّني أميِّز واحداً بينهم»، قال موريس وهو ينظر إلى الخارج، «ذاك هو نورث، أليس كذلك؟».

قالت بيغي، وهي تنظر إلى الخارج: «أجل، ذاك هو نورث».

«إذاً، لِمَ لا يدخلون؟»، قالت ديليا وهي تنقر على النافذة.

«إنَّما، عليكم القدوم ورؤيتها بأنفسكم»، كان نورث يقول. كانوا قد طلبوا إليه أن يصف أفريقيا. وكان قد قال إنَّ هناك جبالاً وسهولاً، كانت ساكنة، وإنَّ الطيور كانت تغنِّي. توقَّف، كان من الصعب أن تصف مكاناً لأشخاص لم يسبق لهم أن رأوه. ثمَّ أُزيحت الستارة في المنزل المقابل، وظهرت ثلاثة رؤوس عند النافذة. نظروا إلى الرؤوس الـمُحدَّدة على النافذة قبالتهم. كانوا يقفون وظهورهم نحو درابزين الميدان. علَّقت الأشجار شلالات غامقة من الأوراق فوقهم. لقد أصبحت الأشجار جزءاً من السماء. بدت كأنَّها تختلط وتتحرَّك قليلاً بين الفينة والأخرى مع عبور

النسيم خلالها. أشعَّت نجمة بين الأوراق. لقد كان المكان ساكناً أيضاً، وتحوَّلت همهمة الحركة المروريَّة مع بعضها بعضاً إلى همهمة واحدة بعيدة. انسلَّت قطَّة إلى جوارهم، ولثانية رأوا اللَّون الأخضر المتوهِّج للعينين، ثمَّ اختفت. عبرت القطَّة المساحة الـمُضاءة ثمَّ تلاشت. نقر شخص ما مرَّة أخرى على النافذة وصاح، «ادخلوا!».

«تعالوا!»، قال ريني، وألقى سيجاره إلى الشجيرات خلفه. «تعالوا، علينا ذلك».

صعدوا إلى الطابق العلويِّ، متجاوزين أبواب المكاتب، ومتجاوزين النوافذ الطويلة الَّتي فُتحت على الحدائق الخلفيَّة المتوضِّعة خلف المنازل. مدَّت الأشجار المكتسية تماماً بالأوراق أغصانها عبر مستويات مختلفة، إنَّ الأوراق، هنا، خضراء ساطعة في الضوء الاصطناعيِّ، هنا، خضراء غامقة في الظلِّ، تحرّكت صعوداً وهبوطاً مع النسيم. ثمَّ وصلوا إلى الجزء الخاصِّ من المنزل، حيث كانت السجَّادة الحمراء موضوعة، وصدح زئير من الأصوات من خلف الباب كما لو أنَّ قطيعاً من الخراف قد حُبس هناك. ثمَّ تأرجحت موسيقا راقصة.

«الآن»، قالت ماغي وهي تتوقَّف قليلاً للحظة خارج الباب. أعطت أسماءهم للخادمة.

«وأنتَ يا سيِّدي؟»، قالت الخادمة لنورث، الَّذي كان متخلِّفاً وراءهم.

«النقيب بارغيتر»، قال نورث وهو يلمس ربطة عنقه.

نادت الخادمة: «والنقيب بارغيتر!»

أتت ديليا إليهم من فور وصولهم. «والنقيب بارغيتر!»، صاحت، في حين أتت مسرعة عبر الغرفة. «إنَّ من بالغ اللطف من قبلكم أن تأتوا!»، صاحت. أمسكت بأيديهم على نحو عشوائيٍّ، يد يسرى هنا، يد يُمنى هناك، في يدها اليسرى، في يدها اليمنى.

«لقد اعتقدتُ أنَّكم أنتم»، صاحت، «الأشخاص الَّذين كانوا يقفون في الميدان. اعتقدتُ أنَّني أستطيعُ تمييز ريني، غير أنَّني لم أكن متأكِّدة بشأن نورث. النقيب بارغيتر!»، عصرت يده، «إنَّكَ غريب تماماً، إلَّا أنَّكَ غريب مرحَّب به للغاية! الآن، من تعرفون؟ من الَّذين لا تعرفونهم؟»

نظرت في الأرجاء، تنفض شالها على نحو قلق إلى حدٍّ ما.

«دعوني أرَ، هؤلاء عمَّاتكم وأعمامكم كلُّهم، وأبناء عمومتكم، وأبناؤكم وبناتكم، أجل يا ماغي، لقد رأيتُ ولديكِ اللطيفين منذ زمن ليس بالطويل. إنَّهما في مكان ما... الأجيال كلُّها في أسرتنا فقط مختلطة إلى هذا الحدِّ، أبناء العمومة والعمَّات، الأعمام والأشقَّاء، إنَّما ربَّما يكون هذا أمراً حسناً».

توقَّفت على نحو مفاجئ تقريباً كما لو أنَّها قد استنفدت هذا السياق. نفضت شالها.

«سيرقصون»، قالت وهي تشير إلى الشابِّ الَّذي كان يضع أسطوانة أخرى على الفونوغراف، «إنَّه جيِّد لأجل الرَّقص»، أضافت قائلة، مشيرة إلى الفونوغراف، «ليس لأجل الموسيقا». أصبحت بسيطة للحظة. «لا أستطيع تحمُّل الموسيقا على الفونوغراف. إنَّما موسيقا الرقص -هذا أمر آخر. ولا بُدَّ لليافعين أن يرقصوا- ألا تعتقدون ذلك؟ هذا حسن إذ عليهم فعل ذلك. ارقصوا أو لا تفعلوا- كما ترغبون». لوَّحت بيدها.

«أجل، افعلوا ما ترغبون فيه»، ردَّد زوجها كلماتها. وقف إلى جانبها مسدلاً يديه أمامه مثل دبٍّ تُعلَّق عليه المعاطف في فندق.

«افعلوا ما ترغبون فيه»، أعاد وهو يهزُّ كفَّيه.

«ساعدني في تحريك الطاولات يا نورث»، قالت ديليا، «إن كانوا سيرقصون فإنَّهم سيرغبون في إبعاد كلِّ شيء عن طريقهم، وأن يُلفَّ السجَّاد». دفعت طاولة مُبعدة إيَّاها عن الطريق. ثمَّ، هرعت عبر الغرفة بغية وضع كرسيٍّ عند الحائط.

الآن، قُلبت إحدى الزُّهريَّات، وتدفَّق تيَّار من الماء عبر السجَّادة.

«لا تكترثوا للأمر، لا تكترثوا للأمر، فهذا غير مهمٍّ على الإطلاق!»، صاحت ديليا وهي تتبنَّى سلوك المضيفة الأيرلنديَّة الطائشة. غير أنَّ نورث انحنى ومسح الماء.

«وما الَّذي ستفعله بمنديل الجيب ذاك؟»، سألته إليانور، وكانت قد انضمَّت إليهم مرتدية معطفها الأحمر المنسدل.

«سأعلِّقه على كرسيٍّ كي يجفَّ»، قال نورث وهو يمشي مبتعداً.

«وأنتِ يا سالي؟»، قالت إليانور وهي تنسحب عائدة إلى الجدار، نظراً لكونهم سيرقصون، «هل سترقصين؟»، سألت وهي تجلس.

«أنا؟»، قالت سارة وهي تتثاءب، «أريد أن أنام». وغاصت على وسادة إلى جانب إليانور.

«غير أنَّكِ لا تأتين إلى الحفلات كي تنامي، أليس كذلك؟»، ضحكت إليانور وهي تنظر إلى الأسفل نحوها. رأت، مرَّة أخرى، الصور الصغيرة الَّتي كانت قد رأتها عند نهاية المكالمة الهاتفيَّة. إلَّا أنَّها لم تستطع رؤية وجهها، بل أعلى رأسها فقط.

«كان يتناول العشاء معكِ، أليس كذلك؟»، قالت، في حين عبر نورث إلى جانبهما ممسكاً بمنديله.

«وعمَّ تحدَّثتما؟»، سألت. رأتها، تجلس على حافَّة كرسيٍّ، تؤرجح قدمها صعوداً وهبوطاً، وثمَّة بقعة تعلو أنفها.

«عمَّ تحدَّثنا؟»، قالت سارة، «أنتِ يا إليانور». كان هناك أشخاص يعبرون إلى جانبهما طيلة الوقت، وكانوا يُلامسون ركبهما، فلقد بدؤوا الرَّقص. كان أمراً جعل المرء يشعر بالدوار قليلاً، فكَّرت إليانور وهي تغرق في كرسيِّها.

«أنا؟»، قالت، «ماذا بشأني؟».

قالت سارة: «حياتكِ».

«حياتي؟»، أعادت إليانور. بدأ الأزواج يلتفُّون ويستديرون مُتجاوزينهما. لقد كانت رقصة «الفوكستروت»، تلك التي يرقصونها، كما افترضت.

حياتي، قالت لنفسها. كان ذلك أمراً غريباً، إذ كانت المرَّة الثانية في هذه الأمسية الَّتي يتحدَّث فيها شخص ما عن حياتها. وأنا لا أمتلك واحدة، فكَّرت. ألا يتعيَّن على الحياة أن تكون شيئاً تستطيع أن تتعامل معه وتنتجه؟ حياة مكوَّنة من سبعين سنةً غريبةً. غير أنَّني لا أمتلك سوى اللَّحظة الراهنة، فكَّرت. هنا، كانت في قيد الحياة، الآن، تستمع إلى موسيقا «الفوكستروت». ثمَّ نظرت في الأرجاء. كان هناك موريس، روز، إدوارد ورأسه مُلقى إلى الخلف وهو يتحدَّث إلى رجل لم تكن تعرفه. فكَّرَت، إنَّني الشخص الوحيد هنا الَّذي يتذكَّر كيف جلس على حافَّة سرير في تلك الليلة، يبكي، ليلة إعلان خطبة كيتي. أجل، لقد عادت الأمور إلى ذهنها. هناك شريط طويل من الحياة موجود خلفها. إدوارد يبكي، السيِّد ليفي يتحدَّث، الثلج يتساقط، زهرة عبَّاد شمس مع شرخ فيها، حافلات النقل العامَّة صفراء اللَّون تُسرع على امتداد طريق «بايووتر». وفكَّرتُ في نفسي، إنَّني أصغر شخص يركب في هذه الحافلة، الآن، أنا الأكبر سنّاً... عادت إلى ذهنها ملايين الأشياء. تباعدت الذرَّات وجمَّعت أنفسها. إنَّما، كيف لها أن تشكِّل ما يطلق عليه الناس الحياة؟ شدَّت يديها وشعرت بالعملات المعدنيَّة الصغيرة الصلبة الَّتي كانت تمسكها. ربَّما تكون هناك «أنا» في منتصفها، فكَّرت، عقدة، مركز، ورأت نفسها، مرَّة أخرى، تجلس إلى طاولتها وترسم على ورق النشَّاف، تحفر ثقوباً صغيرة انبثقت منها الخيوط المتشعِّبة. لقد خرجوا تماماً، أمر بعد الآخر، طمس مشهد الآخر. ثمَّ قالوا، فكَّرت، «لقد كنَّا نتحدَّث عنكِ!»

«حياتي...»، قالت بصوتٍ عالٍ، غير أنَّ نصف حديثها كان موجَّهاً إلى نفسها.

«أجل؟»، قالت سارة وهي ترفع نظرها.

توقَّفت إليانور. كانت قد نسيتها. إنَّما، كان ثمَّة شخص آخر يستمع. إذاً، لا بُدَّ لها أن تُنظِّم أفكارها، ثمَّ يتعيَّن عليها إيجاد الكلمات. إنَّما لا، فكَّرت، لا أستطيع أن أجد الكلمات، لا أستطيع أن أخبر أحداً.

«أليس ذاك هو نيكولاس؟»، قالت وهي تنظر إلى رجل ضخم إلى حدٍّ ما كان واقفاً في الممرِّ.

«أين؟»، قالت سارة. غير أنَّها نظرت إلى الاتِّجاه الخطأ. كان قد اختفى. ربَّما كانت مخطئة. إنَّ حياتي كانت حيوات أشخاص آخرين، فكَّرت إليانور، حياة والدي، حياة موريس، حيوات أصدقائي، حياة نيكولاس... عادت أجزاء من نقاش معه إلى ذهنها. إمَّا أنَّني كنتُ أتناول الغداء وإمَّا العشاء برفقته، فكَّرت. لقد كان الأمر في مطعم. كان هناك ببغاء ذو ريش ورديٍّ في قفص على الطاولة. وكانا جالسين هناك يتحدَّثان عن المستقبل، عن التعليم، وقد حدث هذا بعد الحرب. ولم يسمح لها بأن تدفع ثمن النبيذ، تذكَّرت على نحو مفاجئ، على الرَّغم من أنَّني أنا الَّتي طلبته...

هنا، توقَّف شخص أمامها. رفعت نظرها. صاحت: «بينما كنتُ أفكِّر فيكَ توّاً!»

لقد كان نيكولاس.

«مساء الخير يا سيِّدتي!»، قال وهو ينحني إلى الأمام بطريقته الأجنبيَّة.

«بينما كنتُ أفكِّر فيكَ توّاً!»، أعادت قولها. لقد كان بالفعل مثل جزء منها، جزء غائص منها، يعود إلى السطح، «تعالَ اجلس إلى جانبي»، قالت وسحبت كرسيّاً.

«هل تعرفين مَن يكون ذاك الرجل الَّذي يجلس إلى جوار عمَّتي؟»، قال نورث للفتاة الَّتي كان يراقصها. نظرت في الأرجاء، إنَّما على نحو مبهم.

«إنَّني لا أعرف عمَّتك»، قالت، «إنَّني لا أعرف أيَّ شخص هنا».

كانت الرقصة قد انتهت، وبدؤوا يمشون متَّجهين نحو الباب.

«إنَّني لا أعرف مضيفتي حتَّى، وأتمنَّى لو تدلَّني عليها»، قالت.

«هناك، هناك تماماً»، قال. أشار إلى ديليا الَّتي ترتدي فستانها الأسود والترتر الذهبيَّ.

«أوه، تلك»، قالت وهي تنظر إليها، «تلك هي مضيفتي، أليس كذلك؟». لم يكن قد عرف اسم الفتاة، وكانت هي أيضاً لا تعرف اسم أيٍّ شخص منهم. كان سعيداً بهذا الأمر. لقد جعله هذا يبدو مختلفاً بالنسبة إلى نفسه، ولقد حفَّزه هذا الأمر. قادها نحو الباب. أراد أن يتجنَّب أقرباءه. على وجه الخصوص، أراد أن يتجنَّب شقيقته بيغي، غير أنَّها كانت هناك، تقف بمفردها عند الباب. نظر إلى الجانب الآخر، وأرسل شريكته للخروج من الباب. لا بُدَّ أنَّ هناك حديقة أو سطحاً في مكان ما، فكَّر، حيث يمكنهما أن يجلسا، بمفردهما. كانت شابَّة وجميلة على نحو استثنائيٍّ.

«تعالي معي إلى الطابق السفليِّ»، قال.

«وما الَّذي كنتِ تفكِّرين فيه بشأني؟»، قال نيكولاس وهو يجلس إلى جانب إليانور.

ابتسَمت. ها هو ذا مرتدياً ثيابه سيِّئة التنسيق، والختم المنقوش بذراعَي أمِّه الأميرة، ووجهه المتجعِّد الداكن الَّذي لطالما جعلها تفكِّر في حيوان فرويٍّ ذي جلد مرخيٍّ. إنَّه جلف مع الآخرين، لكنَّه لطيف معها. إنَّما، ما الَّذي كانت تفكِّر فيه بشأنه؟ لقد كانت تفكِّر فيه على نحو إجماليٍّ، ولم تستطع أن تفكِّك الأجزاء الصغيرة. تذكَّرت أنَّ المطعم كان ممتلئاً بالدخان.

«حين تناولنا العشاء ذات مرَّة في سوهو»، قالت، «هل تتذكَّر؟»

«إنَّني أتذكَّر كلَّ الأمسيات الَّتي قضيتها يا إليانور»، قال. غير أنَّ نظرته كانت مبهمة قليلاً. لقد كان انتباهه مشتَّتاً. كان ينظر إلى سيِّدة دخلت توّاً، سيِّدة حسنة الملابس، وقفت وظهرها إلى خزانة الكتب المجهَّزة لكلِّ الحالات الطارئة. إن كنتُ لا أستطيع أن أصف حياتي الخاصَّة، فكَّرت إليانور، فكيف لي أن أصفه؟ لأنَّها لم تكن تعرف ماهيَّته، سوى أنَّ دخوله منحها إحساساً بالبهجة، أراحها من الحاجة إلى التفكير، وجعل ذهنها ينتعش قليلاً. كان ينظر إلى السيِّدة. بدت مؤيِّدة لنظراتهما، ترتجف بفعلها. وعلى نحو مفاجئ، بدا لإليانور أنَّ كلَّ هذا قد سبق له أن حدث قبلاً. إذاً، دخلت فتاة المطعم تلك الليلة، وقفت ترتجف، إلى جوار الباب. كانت تعلم ما الذي سيقوله تماماً. لقد قاله قبلاً، في المطعم. سيقول إنَّها تشبه كرة على قمَّة نافورة بائع السمك. قال العبارة، كما فكَّرت فيها بالضبط. إذاً، هل يعود كلُّ شيء مجدَّداً على نحو مختلف قليلاً؟ فكَّرت. إن كانت هذه هي الحال، فهل هناك نمط، موضوع، متواتر، مثل الموسيقا، شبه مُتذكَّر، شبه متوقَّع؟... نمط عملاق، ملموس مؤقَّتاً؟ إنَّ الفكرة المتمثلة في وجود نمط، منحتها بهجة إلى أقصى حدٍّ. إنَّما، مَن الَّذي يصنعه؟ مَن الَّذي يفكِّر فيه؟ انزلق ذهنها. لم تستطع أن تُنهي فكرتها.

«نيكولاس...»، قالت. أرادت منه أن يُنهيها، أن يأخذ فكرتها ويُتابعها نحو المفتوح الَّذي لا ينقطع، وأن يجعلها كاملة، جميلة، متكاملة.

«أخبرني يا نيكولاس...»، بدأت القول، غير أنَّها لم تمتلك أيَّ فكرة عن الطريقة الَّتي ستنهي بها جملتها، أو ما الأمر الَّذي كانت ترغب في أن تسأله إيَّاه. لقد كان يتحدَّث إلى سارة. استمعت.

كان يسخر منها. كان يشير إلى قدميها.

«... تأتين إلى حفل وأنتِ ترتدين جورباً أبيض اللَّون، وجورباً أزرق اللَّون»، كان يقول.

«لقد طلبت إليَّ ملكة إنجلترا القدوم لشرب الشاي»، تمتمت سارة بالتزامن مع الموسيقا، «وأيّها يجب أن يكون، الذهبيُّ أم الورديُّ، لأنَّ جميعها تحوي ثقوباً، جواربي، لقد قالت». هذه هي ممارستهما للغرام، فكَّرت إليانور، وهي تستمع جزئيّاً إلى ضحكهما، وإلى مهاتراتهما. إنش آخر من النمط، فكَّرت وهي لا تزال تستخدم فكرتها نصف المتشكِّلة بغية وسم المشهد المباشر. وإن كانت مطارحة الغرام هذه تختلف عن الطريقة القديمة، فإنَّها لا تزال تحمل سحرها الخاص، لقد كان «حبّاً»، ربَّما يكون مختلفاً عن الحبِّ القديم، إنَّما أسوأ، أليس كذلك؟ في أيِّ حال، فكَّرت، كانا واعيين بشأنه، أحدهما تجاه الآخر، إنَّهما يعيشان في بعضهما بعضاً، ما الحبُّ سوى هذا، سألت وهي تستمع إلى ضحكهما.

«... أليس في وسعكِ أن تكوني ممثلة لنفسكِ فحسب؟»، كان يقول، «هل في وسعكِ أن تختاري جوارب من أجل نفسكِ فحسب؟».

«إطلاقاً! إطلاقاً!»، كانت سارة تضحك.

«... لأنَّكِ لا تمتلكين حياة خاصَّة بكِ»، قال، «إنَّها تعيش في الأحلام»، أضاف قائلاً وهو يستدير نحو إليانور، «وحيدة».

«إنَّ الأستاذ يلقي خطبته الصغيرة»، قالت سارة ساخرة وهي تضع يدها على ركبته.

«إنَّ سارة تغنِّي أغنيتها الصغيرة»، ضحك نيكولاس وهو يضغط على يدها.

غير أنَّهما سعيدان للغاية، فكَّرت إليانور، إنَّهما يسخران من بعضهما بعضاً.

«أخبرني يا نيكولاس...»، بدأت تقول من جديد. غير أنَّ رقصة أخرى كانت تبدأ. أتى الأزواج متدفِّقين عائدين إلى الغرفة. ببطء، وباهتمام شديد، ووجوه جادَّة، كما لو كانوا يشاركون في شعائر صوفيَّة منحتهم مناعة من المشاعر

الأخرى، وبدأ الرَّاقصون يدورون وهم يتجاوزونهم، يلامسون ركبهم، ويدوسون على أصابع أقدامهم تقريباً. ومن ثمَّ، توقَّف شخص أمامهم.

«أوه، ها هو ذا نورث»، قالت إليانور وهي ترفع نظرها.

«نورث!»، صاح نيكولاس، «نورث! لقد التقينا هذا المساء»، مدَّ يده نحو نورث، «في منزل إليانور».

«لقد فعلنا»، قال نورث بحرارة، سحق نيكولاس أصابعه، شعر بأنَّها تنفصل من جديد حين أُزيحت يده. لقد كان فيَّاضاً، غير أنَّه أحبَّ هذا. كان يشعر بأنَّه فيَّاض هو نفسه. أشعَّت عيناه. كان قد فقد مظهره الحائر بالكامل. سارت مغامرته على نحو جيِّد. كتبت الفتاة اسمها في كتاب الجيب خاصَّته. «تعالَ وقابلني غداً عند الساعة السادسة»، كانت قد قالت.

«مساء الخير من جديد يا إليانور»، قال وهو ينحني فوق يدها، «إنَّكِ تبدين شابَّة للغاية. أنتِ تبدين وسيمة على نحو استثنائيٍّ. أحبُّ مظهركِ في هذه الملابس»، قال وهو ينظر إلى معطفها الهنديِّ.

«الأمر عينه ينطبق عليك يا نورث»، قالت. رفعت نظرها إليه. فكَّرت في أنَّه لم يسبق لها أن رأته وسيماً بهذا القدر، ممتلئاً بالحيويَّة جدّاً.

سألت: «ألن ترقص؟». كانت الموسيقا على قدم وساق.

«ليس إلَّا إذا شرَّفتني سالي بالرقص معي»، قال وهو ينحني نحوها بكياسة مبالغ فيها.

ما الَّذي حدث له؟ فكَّرت إليانور. إنَّه يبدو وسيماً جدّاً، سعيداً جدّاً. نهضت سالي. أعطت يدها لنيكولاس.

«سأرقص معك»، قالت. وقفا ينتظران للحظة، ثمَّ بدأا يلتفَّان بعيداً.

«يا لهما من زوج غريب المظهر!»، صاح نورث. كان قد شدَّ وجهه إلى الأعلى في ابتسامة، في حين راح يراقبهما. أضاف قائلاً: «إنَّهما لا يحسنان الرقص!». جلس إلى جوار إليانور في الكرسيِّ الَّذي خلَّفه نيكولاس خالياً.

«لِمَ لا يتزوَّجان؟»، سأل.

«لِمَ عليهما فعل ذلك؟»، قالت.

«أوه، على الجميع الزواج»، قال، «وإنَّه ليعجبني، على الرَّغم من أنَّه، هل يتعيَّن أن نقول "غير مهذَّب" قليلاً؟»، قال مقترحاً، في حين راح يراقبهما يلتفَّان على نحو غريب تقريباً نحو الدَّاخل والخارج.

«"غير مهذَّب"؟»، ردَّدت إليانور قوله.

«أوه، أنتَ تعني ميداليته»، أضافت وهي تنظر إلى الختم الذهبيِّ الَّذي تأرجح صعوداً وهبوطاً في أثناء رقص نيكولاس.

«لا، إنَّه ليس بالشخص غير المهذَّب»، قالت بصوتٍ عالٍ، «إنَّه...».

غير أنَّ نورث لم يكن حاضراً. كان ينظر إلى زوج عند نهاية الغرفة البعيدة. كانا يقفان إلى جوار المدفأة. كان كلاهما شابّاً، كلاهما صامتاً، بدا وكأنَّهما يقفان ثابتين في تلك الوضعيَّة بسبب عاطفة قويَّةٍ ما. بينما نظر إليهما، اجتاحته عاطفة تتعلَّق به، تتعلَّق بحياته الخاصَّة، ورتَّب خلفيَّة أخرى لهما أو لنفسه، ليس رفّ المدفأة وخزانة الكتب، بل شلَّالات تزأر، وسُحب تتسابق، ووقفا على جرف فوق سيل...

«إنَّ الزواج لا يناسب الجميع»، قاطعته إليانور.

بدأ القول: «لا، بالطبع لا»، وافقها. نظر إليها. لم يسبق لها الزواج. لِمَ لا؟ تساءل. ضحَّت من أجل الأسرة، بحسب افتراضه -الجدُّ المسنُّ الَّذي لا يمتلك أيَّ أصابع. ثمَّ عادت إليه ذكرى ما لِسيل، سيجار وويليام واتني. ألم تكن تلك هي مأساتها، أنَّها أحبَّته؟ نظر إليها بحنان. شعر بأنَّه مولع بالجميع في تلك اللحظة.

«يا له من حظٍّ حسن أن أجدكِ بمفردكِ يا نيل!»، قال وهو يضع يده على ركبتها.

شعرت بالتأثُّر، أسعدها الشعور بيده على ركبتها.

صاحت: «يا نورث العزيز!». لقد شعرت بحماسته عبر فستانها، كان أشبه بكلب يرتدي سلسلة، يتقدَّم إلى الأمام بجهد، وكلُّ أعصابه مستنفرة، هكذا أحسَّت، حين وضعه يده على ركبتها.

«إنَّما، لا تتزوَّج المرأة الخطأ!»، قالت.

«أنا؟»، سأل، «ما الَّذي يجعلكِ تقولين ذلك؟». تساءل ما إذا كانت قد رأته يقود الفتاة إلى الطابق السفليِّ.

«أخبرني...»، بدأت القول. لقد أرادت أن تسأله، على نحو بارد، وبعقلانيَّة، ماذا كانت مخطَّطاته، الآن وقد أصبحا بمفردهما، إنَّما، بمجرَّد حديثها رأت وجهه يتغيَّر، إذ طغى عليه تعبير ذعر مبالغ فيه.

«ميلي!»، تمتم، «اللَّعنة عليها!»

ألقت إليانور نظرة سريعة فوق كتفها. كانت شقيقتها ميلي تبدو ضخمة بفعل الأقمشة الشبيهة بأقمشة الستائر الَّتي ترتديها وتناسب جنسها وطبقتها، تتَّجه نحوهما. لقد أصبحت سمينة جدّاً. تدلَّت أحجبة يعلوها خرز فوق ذراعيها بغية إخفاء قدِّها. كانتا سمينتين للغاية إلى الحدِّ الَّذي ذكَّرت نورث معه بالهليون، الهليون الشاحب الَّذي يستدقُّ متحوِّلاً إلى نقطة.

«أوه يا إليانور!»، صاحت. نظراً لكونها لا زالت تحتفظ ببقايا إخلاص الشقيقة الصغرى الشبيه بإخلاص الكلب.

«أوه يا ميلي!»، قالت إليانور، إنَّما ليس بحفاوة بالغة.

«لكَم هو لطيف أن أراكِ يا إليانور!»، قالت ميلي مع قهقهة المرأة المسنَّة خاصَّتها، إنَّما كان هناك أمر محترم بشأن سلوكها، «وأنتَ أيضاً يا نورث!»

أعطته يدها الصغيرة السمينة. لاحظ كيف غاصت الخواتم في أصابعها، كما لو كان اللَّحم قد نما حولها. لقد أثار اللَّحم الَّذي ينمو فوق الماس قرفه.

«لكَم هو لطيف أنَّكَ عدتَ من جديد!»، قالت وهي تستقرُّ ببطء على كرسيِّها. شعر بأنَّ كلَّ شيء أصبح مملّاً. إنَّها تُلقي بشبكة فوقهم، لقد جعلتهم جميعاً يشعرون كأسرة واحدة، اضطرَّ إلى التفكير في القرابات المشتركة بينهما، غير أنَّ هذا كان شعوراً زائفاً.

«أجل، إنَّنا نقيم مع كوني»، قالت، لقد أتوا لأجل مباراة كريكيت.

خفض رأسه. نظر إلى حذائه.

«ولم أسمع كلمة واحدة عن أسفاركِ يا نيل»، تابعت حديثها قائلة. إنَّها تواصل الهطول، وتغطِّي كلَّ شيء، تابع، في حين استمع إلى الثرثرة المتساقطة الخانقة للأسئلة الصغيرة الَّتي تنطلق من عمَّته. غير أنَّه كان في فيض من الحالة المعنويَّة المرتفعة إلى الحدِّ الَّذي كان لا يزال يستطيع معه جعل كلماتها رنَّانة. هل كانت العناكب الذئبيَّة تعضُّ، كانت تسأله، وهل كانت النجوم ساطعة؟ وأين عليَّ أن أقضي ليلة الغد؟ أضاف، لأنَّ البطاقة في جيب صدريَّته برزت من تلقاء نفسها، بصرف النظر عن مشاهد السياق الَّتي طمست اللحظة الحاليَّة. كانوا يقيمون مع كوني، تابعت القول، الَّتي كانت تتوقَّع جيمي، الَّذي قد وصل من أوغندا... فوَّت ذهنه بضع كلمات، لأنَّه كان يرى حديقة، غرفة، وكانت الكلمة التالية الَّتي سمعها هي «اللحميَّة» -وقد كانت كلمة جيِّدة، قال لنفسه، بغضِّ النظر عن سياقها، ضيِّقة جدّاً، مضمومة في المنتصف، ذات بطن قاسٍ، لامع، معدنيٍّ، مفيدة لوصف مظهر حشرة- غير أنَّ جسداً ضخماً اقترب هنا، صدريَّة بيضاء في شكل رئيس، مخطَّطة بالأسود، ووقف هيو جيبس فوقهم. قفز نورث ناهضاً كي يعرض عليه كرسيَّه.

«أيُّها الصبيُّ العزيز، أنتَ لا تتوقَّع منِّي الجلوس على ذاك؟»، قال هيو وهو يسخر من الكرسيِّ الطويل النحيل تقريباً، الَّذي عرضه نورث عليه.

«لا بُدَّ أن تجد لي شيئاً...»، نظر في محيطه، وهو يضع يديه على جانبَي صدريَّتـه البيضاء، «أكثر ضخامة».

سحب نورث كرسيّاً محشواً نحوه. خفض نفسه بحذر.

«تشو، تشو، تشو»، قال وهو يجلس.

ولاحظ نورث أنَّ ميلي قالت: «توت، توت، توت».

هذا ما آل إليه الأمر، ثلاثون سنة من كونهما زوجاً وزوجة -توت، توت، توت- و -تشو، تشو، تشو. لقد بدت شبيهة بأصوات مضغ غير ملفوظة لحيوانين في مقصورة. توت، توت، توت وتشو، تشو، تشو، كما لو أنَّهما يطأان قشّاً ناعماً عابقاً بالبخار في الإصطبل، في حين تمرَّغاً في المستنقع البدائيِّ، كثيري النسل، مُسرفين، شبه واعيين، فكَّر وهو يستمع بإبهام إلى الثرثرة خفيفة الظلِّ، الَّتي فرضت نفسها عليه فجأة.

«كم تزن يا نورث؟»، كان عمُّه يسأل وهو يقيسه. نظر إليه، إلى الأعلى والأسفل، كما لو كان حصاناً.

«لا بُدَّ لنا أن نجعلكَ تحدِّد موعداً حين يكون الأولاد في المنزل»، أضافت ميلي.

لقد كانا يدعوانه للإقامة معهما في «تاورز» في شهر سبتمبر لأجل صيد جِراء الثعالب. أطلق الرجال النار، والنساء -نظر إلى عمَّته كما لو أنَّها ستتصرَّف على نحو أشبه باليافعين حتَّى هناك، على ذاك الكرسيِّ- قُسّمت النساء إلى عدد لا متناهٍ من الأطفال. وأولئك الأطفال أنجبوا أطفالاً، والأطفال الآخرون كانوا يعانون من اللحميَّة. لقد تكرَّرت الكلمة، غير أنَّها الآن لم تكن تشير إلى شيء. كان يغوص، كان يسقط تحت ثقلهم، حتَّى الاسم في جيبه كان يتلاشى. هل يمكن فعل شيء حيال الأمر؟ سأل نفسه. فكَّر، لا شيء باستثناء إحداث ثورة. خطرت إلى ذهنه، من الحرب، فكرة الديناميت، مخازن الأرض الثقيلة المتفجِّرة، تفجير الأرض إلى الأعلى في هيئة سحابة تتَّخذ شكل شجرة. غير أنَّ هذا كلَّه كان مجرَّد هراء، فكَّر، إنَّ الحرب هراء، هراء. عادت كلمة «هراء»، الخاصَّة بسارة. إذاً، ما الَّذي

تبقَّى؟ وقعت عينه على بيغي، حيث وقفت تتحدَّث إلى رجل مجهول. أنتم أيُّها الأطبَّاء، فكَّر، أيُّها العلماء، لِم لا تلقون بكريستالة صغيرة في كوب، شيء متألّق وحادّ، وتجعلونهم يبتلعونه؟ إنَّ العقلانيَّة، المنطق، متألِّقان وحادَّان. إنَّما، لِمَ يبتلعونها؟ نظر إلى هيو. كانت لديه طريقة خاصَّة في نفخ خدَّيه إلى الداخل والخارج، في حين قال، توت، توت، توت وتشو، تشو، تشو. هل كان ليبتلعها؟ قال بصمت لهيو.

استدار هيو إليه من جديد.

«وآمل أنَّكَ سوف تبقى في إنكلترا الآن يا نورث»، قال، «إنَّما هل أتجرَّأ على القول بأنَّها حياة جميلة هناك؟».

وهكذا انتقلا إلى الحديث عن أفريقيا وشحِّ الوظائف. كان ابتهاجه يضمحل. لم تعد البطاقة تشعُّ بالصور بعد الآن. كانت الأوراق الرطبة تتساقط. تساقطت وتابعت التساقط، وغطَّت كلَّ شيء، تمتم لنفسه ونظر إلى عمَّته، عديمة اللَّون باستثناء بقعة بنيَّة على جبينها، وكان شعرها عديم اللَّون باستثناء بقعة تشبه صفار البيض عليه. كان يشكُّ في كونها ناعمة وعديمة اللَّون في جميع الأنحاء مثل إجاصة خاملة. وهيو عينه -كانت يده الضخمة على ركبته- كان مقيَّداً في الأرجاء بوساطة شريحة لحم بقريٍّ نيئة. وقع نظره على إليانور. كانت ثمَّة نظرة متوتِّرة فيها.

«أجل، الطريقة الَّتي أفسدوا الأمر بها»، كانت تقول.

غير أنَّ الصدى قد تلاشى من صوتها.

«فيلَّات جديدة تماماً في كلِّ مكان»، كانت تقول. إنَّ من الواضح أنَّها ذهبت إلى «دورسيتشاير».

«فيلَّات حُمر صغيرة على طول الطريق»، تابعت القول.

«أجل، إنَّ هذا هو الأمر الَّذي يفاجئني»، قال وهو ينشِّط نفسه بغية مساعدتها، «كيف أفسدتم إنكلترا حين كنتُ مسافراً».

«غير أنَّكَ لن تجد الكثير من التغييرات في جزء العالم الخاصِّ بنا يا نورث»، قال هيو. لقد تحدَّث بفخر.

«كلَّا. إلَّا أنَّنا كنَّا محظوظين في ذاك الوقت»، قالت ميلي، «كنَّا نمتلك العديد من العقارات الضخمة. إنَّنا محظوظان جدّاً»، أعادت القول، «باستثناء السيِّد فيبس»، أضافت. ضحكت ضحكة لاذعة صغيرة.

تنبَّه نورث. فكَّر في أنَّها كانت تعني ذلك. لقد تحدَّثت بفظاظة جعلتها حقيقيَّة. إنَّها لم تصبح حقيقيَّة فحسب، بل القرية، المنزل الكبير، المنزل الصغير، الكنيسة وحلقة الأشجار المسنَّة أيضاً قد ظهرت أمامه في واقعيَّة تامَّة. كان سيقيم معهم.

«هذا هو الشخص الَّذي نعرفه»، شرح هيو، «إنَّه رجل صالح بطريقته الخاصَّة، غير أنَّه طويل –طويل جدّاً. شموع-هذا النوع من الأمور».

بدأت ميلي القول: «وزوجته...»

هنا، تنهَّدت إليانور. نظر نورث إليها. أوشكت أن تغطَّ في النوم. كان وجهها قد اكتسى بنظرة زجاجيَّة وتعبير ثابت. بدت تشبه ميلي على نحو رهيب لوهلة، لقد أظهر النوم التشابه الأسريَّ. ثمَّ فتحت عينيها على وسعهما، وأبقتهما مفتوحتين بفعل جهد الإرادة. إنَّما، كان من الواضح أنَّها لم ترَ أيَّ شيء.

«لا بُدَّ أن تأتي وتعطي رأيكَ فينا»، قال هيو، «ماذا بشأن الأسبوع الأوَّل من سبتمبر؟». تأرجح من جانب إلى آخر كما لو أنَّ دماثة خلقه كانت تتدحرج في أرجاء جسده. كان يشبه فيلاً مسنّاً قد يرغب في الركوع. وفي حال ركع، فكيف له أن ينهض من جديد! سأل نورث نفسه. وإن غطَّت إليانور في النوم وشخرت، فما الَّذي سأفعله، وقد تُركت جالساً هنا بين ركبتَي الفيل؟

نظر في الأرجاء بحثاً عن حجَّة للذهاب.

كانت ماغي قادمة، لا تنظر حيث تذهب. رأياها. شعر برغبة عارمة في الصياح، «احذري! احذري!»، لأنَّها كانت في منطقة الخطر. إنَّ اللوامس البيض الَّتي تتركها تلك الأجسام غير محدَّدة المعالم، تطفو كي تتمكَّن من الإمساك بطعامها، كانت لتمتصَّها. أجل، لقد رأياها، لقد ضاعت.

«ها هي ذي ماغي!»، صاحت ميلي وهي تنظر إلى الأعلى.

«لم أركِ منذ زمن طويل للغاية!»، قال هيو وهو يحاول سحب نفسه إلى الأعلى.

كان عليها أن تتوقَّف، وأن تضع يدها في هيئة مخلب عديم الشكل. نهض نورث مستخدماً الأونصة الأخيرة من الطاقة الَّتي تبقَّت فيه، والقادمة من العنوان الموجود في جيب صدريَّته. كان له أن يحملها. كان لينقذها من التلوّث الناتج عن الحياة الأسريَّة.

غير أنَّها تجاهلته. وقفت هناك، تردُّ على تحيَّاتهم برباطة جأش تامَّة كما لو كانت تستخدم معدَّات مخصَّصة لأجل الحالات الطارئة. يا إلهي! قال نورث لنفسه، إنَّها في مثل مقدار السوء نفسه الَّذي هم عليه. كانت مصقولة، منافقة. كانوا يتحدَّثون عن طفليها الآن.

«أجل. ذاك هو ابني الأصغر»، كانت تقول وهي تشير إلى صبيٍّ يرقص مع فتاة.

«وابنتكِ يا ماغي؟»، سألت ميلي وهي تنظر في الأرجاء.

تململ نورث. إنَّها مؤامرة، قال لنفسه، إنَّ هذه هي المدحلة الَّتي تُنعِّم، تمحو، تدور في الهويَّة، وتتدحرج متحوِّلة إلى كرات. أنصت. كان جيمي في أوغندا، وكانت ليلي في «ليسترشاير»، ابني، ابنتي... كانوا يقولون. إلَّا أنَّهما ليسا مهتمَّين بأطفال الأشخاص الآخرين كما لاحظ. بأطفالهما فقط، ملكيَّتهما الخاصَّة، دمهما ولحمهما فقط، وهو الأمر الَّذي كانا ليحميانه بالمخالب المسلولة للمستنقع البدائيِّ، فكَّر وهو ينظر إلى كفَّي ميلي

الصغيرين السمينين، حتَّى ماغي، حتَّى هي. لأنَّها هي أيضاً كانت تتحدَّث عن ابني، ابنتي. كيف لنا أن نكون متحضِّرين، سأل نفسه؟

شخرت إليانور. كانت تأخذ قيلولة، بلا حياء، بلا حول ولا قوَّة. كانت هناك بذاءة في حالة فقدان الوعي، فكَّر. كان فمها مفتوحاً، وكان رأسها مائلاً إلى جانب واحد.

إنَّما، الآن، قد حان دوره. ساد الصمت. على المرء فعل شيء ما، فكَّر، على شخص ما أن يقول شيئاً ما، أو قد ينتهي المجتمع البشريُّ، وسينتهي هيو، وستنتهي ميلي، وكان قد أوشك أن يتقدَّم بنفسه كي يجدَ شيئاً ما ليقوله، شيئاً يمكنه معه تغذية الشعور الهائل بتلك الحوصلة البدائيَّة، حين أتت ديليا وهي تشير، إمَّا انطلاقاً من الرغبة الفوضويَّة لمضيفة ترغب دائماً في المقاطعة، وإمَّا من وحي إلهيٍّ مُستقًى من الخير البشريِّ.

«أسرة لودبيز!»، صاحت، «أسرة لودبيز!».

«أوه، أين؟ أبناء لودبيز الأعزَّاء!»، قالت ميلي، ونهضا بعد بذل جهد، ثمَّ انطلقا، إذ يبدو أنَّ أفراد أسرة لودبيز نادراً ما غادروا «نورثمبرلاند».

«حسناً يا ماغي؟»، قال نورث وهو يلتفت إليها، غير أنَّ إليانور أصدرت طقطقة صغيرة من مؤخِّرة حلقها. مال رأسها إلى الأمام. إنَّ النوم قد منحها كرامة، الآن وهي نائمة بعمق. كانت تبدو مسالمة، بعيداً عنهم، مستغرقة في الهدوء الَّذي يمنح النائم مظهر الميت في بعض الأحيان. جلسا في صمت، للحظة، وحيدين معاً، بخصوصيَّة.

«لماذا، لماذا، لماذا...»، قال أخيراً وهو يصنع إيماءة كما لو كان ينتف خصلات عشب من السجَّادة.

«لماذا؟»، سألت ماغي، «لماذا ماذا؟»

«أسرة جيبس»، تمتم. هزَّ رأسه في إيماءة نحوهم، حيث كانوا يقفون يتحدَّثون إلى جوار المدفأة. مقرفين، بدينين، عديمي الشكل، لقد بدوا

بالنسبة إليه كمحاكاة ساخرة، مهزلة، زائدة تضخَّمت أكثر من حدِّ الشكل الداخليِّ، النار الداخليَّة.

«ما الخطب؟»، سأل. نظرت هي أيضاً. غير أنَّها لم تقل شيئاً. أتى الأزواج يرقصون ببطء ويتجاوزونهما. توقَّفت فتاة، وكانت إيماءتها كما لو أنَّها قد رفعت يدها على نحو غير واعٍ، تحمل جديَّة الشباب الَّذي يتوقَّع الحياة بخيرها، وهو أمر قد أثَّر فيه.

«لماذا...؟»، حرَّك إبهامه في اتِّجاه الشبَّان، «حين يكونون محبَّبين للغاية...»

نظرت هي أيضاً إلى الفتاة، الَّتي كانت تُثبِّت زهرة قد انفكَّت من مقدَّمة فستانها. ابتسمت. لم تقل شيئاً. ثمَّ، على نحو نصف واعٍ، ردَّدت سؤاله من دون أن يحمل صداه معنى، «لماذا؟».

كان محبطاً للحظة. بدا له كأنَّها قد رفضت مساعدته. كان يريدها أن تساعده. لِمَ لا تزيح الحمل عن كتفيه وتمنحه ما يحتاج إليه، اليقين، القطعيَّة؟ ألأنَّها هي أيضاً مشوَّهة مثل بقيَّتهم؟ نظر إلى الأسفل نحو يديها. لقد كانتا يدين قويَّتين، يدين جميلتين، إنَّما لو كانت المسألة هي مسألة أولادي «أنا»، ممتلكاتي «أنا»، فالأمر سيتطلَّب شقّاً واحداً عبر البطن، أو أسناناً مغروزة في الفراء الناعم الَّذي يغطِّي الحلق، فكَّر وهو يشاهد الأصابع تُطوى قليلاً. لا يمكننا مساعدة بعضنا بعضاً، فكَّر، نحن جميعاً مشوَّهون. على الرَّغم من ذلك، بقدر ما كان كريهاً بالنسبة إليه أن يزيلها من الشرف الذي ألقاه عليها، ربَّما كانت على حقٍّ، فكَّر، ونحن مَن يجعل مِن الأشخاص مُثلاً عليا، مَن يمنح هذا الرجل، تلك المرأة، القوَّة لقيادتنا، مضيفين إلى التشوُّه فقط، ونحطُّ من قدر أنفسنا.

«سوف أقيم معهم»، قال بصوتٍ عالٍ.

«في تاورز؟»، سألت.

«أجل»، قال، «لأجل صيد جراء الثعالب في سبتمبر».

لم تكن تستمع. كانت عيناها عليه. كانت تربط بينه وبين أمر آخر بحسب ما أحسَّ به. لقد جعله هذا غير مرتاح. كانت تنظر إليه كما لو أنَّه لم يكن نفسه بل شخصاً آخرَ. شعر من جديد بانعدام الراحة الَّتي كان قد شعر بها حين وصفته سالي عبر الهاتف.

«أعلم»، قال وهو يشدُّ عضلات وجهه، «إنَّني أشبه صورة الرجل الفرنسيِّ الَّذي يمسك بقبَّعته».

«يمسك بقبَّعته؟»، سألت.

«ويصبح سميناً»، أضاف قائلاً.

«... يمسك قبَّعة... مَن الَّذي يمسك قبَّعة؟»، قالت إليانور وهي تفتح عينيها.

نظرت حولها في حيرة. نظراً لكون الذكرى الأخيرة لها، وبدا أنَّها قد حدثت منذ ثانية مضت فقط، كانت ميلي، وهي تتحدَّث عن الشموع في كنيسة ما، لا بُدَّ أنَّ أمراً ما قد حدث. كانت ميلي وهيو هناك، غير أنَّهما قد رحلا. كانت هناك فجوة، فجوة مُلئت بالضوء الذهبيِّ القادم من الشموع المعلَّقة، وثمَّة إحساس ما لم تستطع تحديد ماهيَّته.

استيقظت على نحو كامل.

«ما هذا الهراء الَّذي تقولانه؟»، قالت، «إنَّ نورث لا يمسك بقبَّعة! وهو ليس سميناً»، أضافت قائلة. «على الإطلاق، على الإطلاق»، أعادت وهي تربِّت على ركبته بحنان.

شعرت بأنَّها سعيدة على نحو استثنائيٍّ. إنَّ أغلب النوم يخلِّف حلماً ما في ذهن المرء، مشهداً أو شكلاً يتبقَّى حين يستيقظ المرء. غير أنَّ هذا النوم، هذه الإغفاءة اللحظيَّة، الَّتي تدلَّت خلالها الشموع وأطالت أنفسها، لم تتركها مع أيِّ شيء سوى شعور، شعور، لا حلم.

«إنَّه لا يمسك بقبَّعة»، أعادت القول.

ضحكا كلاهما عليها.

«لقد كنتِ تحلمين يا إليانور»، قالت ماغي.

«أكنتُ أفعل؟»، قالت. لقد قُطعت ثغرة عميقة في الحديث، كان الأمر صحيحاً. لم تستطع أن تتذكّر ما الّذي كانا يقولانه. كانت هناك ماغي، غير أنَّ ميلي وهيو قد اختفيا.

«غفوة لثانية واحدة فقط»، قالت، «إنّما، ما الّذي ستفعله يا نورث؟ ما هي مخطّطاتك؟»، قالت وهي تتحدّث بسرعة إلى حدٍّ ما.

«علينا ألّا نسمح له بالعودة. ليس إلى تلك المزرعة الفظيعة»، قالت.

تمنّت لو أنّها تبدو عمليّة إلى حدٍّ كبير، جزئيّاً كي تثبت أنّها لم تنم، وفي الجزء الآخر لأجل أن تحمي شعور السعادة الاستثنائيّ الّذي لا يزال باقياً معها. شعرت بأنّه قد ينجو في حال بقي محميّاً من المراقبة.

«لقد ادّخرت ما فيه الكفاية، أليس كذلك؟»، قالت بصوتٍ عالٍ.

«ادّخرتُ ما فيه الكفاية؟»، قال. تساءل لِمَ الناس الّذين كانوا نائمين يرغبون دائماً في إظهار أنّهم كانوا مستيقظين تماماً؟ أضاف قائلاً على نحو عشوائيٍّ، «أربعة أو خمسة آلاف».

«حسناً، إنَّ هذا كافٍ»، أصرّت قائلة، «خمسة في المئة، ستّة في المئة...». حاولت أن تُجري الحساب في رأسها. ناشدت ماغي المساعدة. «أربعة أو خمسة آلاف، كم سيكون ذلك يا ماغي؟ مبلغ كافٍ لأجل العيش به، أليس كذلك؟»

أعادت ماغي: «أربعة أو خمسة آلاف».

«بنسبة خمسة أو ستّة في المئة...»، قالت إليانور. لم تستطع قطُّ أن تجري الحسابات في رأسها في أفضل الأوقات، إنّما لسبب ما بدا لها أنَّ من الضروريِّ جدّاً أن تُعيد الأمور إلى نصابها. فتحت حقيبتها، فوجدت رسالة، وقدّمت قلم رصاص صغيراً قصيراً.

«هاكِ، احسبي الناتج على تلك»، قالت. أخذت ماغي الورقة ورسمت خطوطاً قليلة باستخدام القلم كما لو كانت تختبره. نظر نورث من فوق كتفها. هل كانت تحلُّ مسألة أمامها، هل كانت تأخذ حياته واحتياجاته في الحسبان؟ كلّا. لقد كانت ترسم، رسماً هزلياً كما يبدو -نظر- لرجل ضخم قبالتهم يرتدي صدريَّة بيضاء اللّون. لقد كانت مهزلة. جعله هذا الأمر يشعر بأنَّه سخيف قليلاً.

«لا تكوني سخيفة»، قال.

«إنَّ هذا شقيقي»، قالت وهي تومئ نحو الرجل الَّذي يرتدي الصدريَّة البيضاء، «لقد اعتاد أن يصطحبنا في نزهات على ظهر فيل...». أضافت زخرفة إلى صدريَّته.

«ونحن نتصرَّف بعقلانيَّة تامَّة»، احتجَّت إليانور قائلة.

«إن رغبت في العيش في إنجلترا يا نورث -في حال رغبت-».

قاطع كلامها:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أنا لا أعرف ما الَّذي أريد فعله»، قال.

«أوه، لقد فهمت!»، قالت. ضحكت. لقد عاد إليها شعورها بالسعادة، حماستها غير المسوَّغة. بدا لها أنَّهم كانوا شبَّاناً جميعاً، والمستقبل أمامهم. لم يكن أيُّ شيء ثابتاً، ولم يكن أيُّ أمر معروفاً، كانت الحياة مفتوحة وخالية أمامهم.

«أليس هذا عجيباً؟»، صاحت، «أليس هذا غريباً؟ أليس هذا السبب وراء كون الحياة -ماذا يجب أن أسمِّيها؟ معجزة سرمديَّة؟... أعني»، حاولت أن تشرح، لأنَّه بدا حائراً، «إنَّهم يقولون إنَّ الكبر في السنِّ على هذا النحو، غير أنَّه ليس كذلك. إنَّه مختلف، مختلف تماماً. لذا حين كنتُ طفلة، لذا حين كنتُ فتاة، لقد كانت استكشافاً متواصلاً، حياتي. معجزة». توقَّفت. كانت تثرثر من جديد. شعرت بدوار خفيف قليلاً، بعد حلمها.

«ها هي ذي بيغي!»، صاحت وهي سعيدة بربط نفسها إلى أمر ملموس، «انظرا إليها! إنَّها تقرأ كتاباً!»

إنَّ بيغي، الَّتي تقطَّعت بها السُّبل حين بدأ الرقص، إلى جوار خزانة الكتب، وقفت قريبة منها بقدر ما استطاعت. لأجل التغطية على وحدتها، التقطت كتاباً. كان مغلَّفاً بجلد أخضر اللَّون، وهناك نجوم مذهَّبة صغيرة مثبَّتة عليه، بحسب ما لاحظت حين قلَّبته بين يديها. فكَّرت في أنَّ هذا الأمر يعود بالخير، وهي تقلِّبه، لأنَّه حينها سيبدو الأمر كما لو أنَّني أُبدي إعجابي بالتغليف... غير أنَّني لا أستطيع أن أقف هنا لأُبدي إعجابي بالتغليف، فكَّرت. فتحته. سيقول ما أفكِّر فيه، فكَّرت في حين فعلت ذلك. لطالما فعلت الكتب الَّتي تُفتح على نحو عشوائيٍّ ذلك.

«إنَّ رداءة الكون تُذهلني، وتجعلني أثور»، قرأت باللغة الفرنسيَّة. هذا هو. بالتحديد. تابعت القراءة. «... صغر كلِّ شيء يملؤني بالاشمئزاز...». رفعت عينيها. كانوا يدوسون أصابع قدميها. «... فقر البشر يقضي عليَّ». أغلقت الكتاب وأعادت وضعه على الرفِّ.

كلام دقيق، قالت.

أدارت ساعتها حول معصمها، ونظر إليها خلسة. لقد كان الوقت يمضي. الساعة تتكوَّن من ستِّين دقيقة، قالت لنفسها، وساعتان تتكوَّنان من مئة وعشرين دقيقة. فكم دقيقة عليَّ البقاء هنا؟ هل تستطيع الذهاب بعد؟ رأت إليانور تشير إليها. أعادت وضع الكتاب على الرفِّ. مضت نحوهم.

«تعالي يا بيغي، تعالي وتحدَّثي إلينا»، نادت إليانور وهي تشير.

«هل تعرفين كم الساعة يا إليانور؟»، قالت بيغي وهي تتقدَّم نحوهم. أشارت إلى ساعتها. «ألا تعتقدين أنَّ وقت الذهاب قد حان؟»، قالت.

«لقد نسيتُ أمر الوقت»، قالت إليانور.

احتجَّت بيغي قائلة، وهي تقف إلى جانبها: «غير أنَّكِ ستكونين متعبة جدّاً غداً».

«كم تتصرَّفين كالأطبَّاء!»، أغاظها نورث، «الصحَّة، الصحَّة، الصحَّة!»، صاح، «غير أنَّ الصحَّة ليست غاية في حدِّ ذاتها»، قال وهو ينظر إليها.

تجاهلته.

«هل تنوين البقاء حتَّى النهاية؟»، قالت لإليانور، «سيستمرُّ هذا طوال الليل». نظرت إلى الأزواج المتراقصين الذين يلتفُّون بالتزامن مع النغم عبر الفونوغراف، كما لو أنَّ ثمَّة حيواناً يحتضر في عذاب بطيء، لكنَّه فاتن.

«إلَّا أنَّنا نستمتع بوقتنا»، قالت إليانور، «تعالي واستمتعي بوقتكِ أيضاً».

أشارت إلى الأرضيَّة، إلى جانبها. جلست بيغي على الأرضيَّة، إلى جانبها. توقَّفي عن التأمُّل والتفكير والتحليل، وكانت إليانور تتقصَّد أنَّها تعرف. استمتعي باللحظة، إنَّما هل يستطيع المرء فعل ذلك؟ سألت وهي تشدُّ تنُّورتها حول قدميها في أثناء جلوسها. انحنت إليانور وربَّتت على كتفها.

«أريدكِ أن تخبريني»، قالت بهدف حثِّها على الدخول في المحادثة، لأنَّها كانت تبدو مكتئبة جدّاً، «أنتِ طبيبة -أنتِ تعرفين هذه الأمور- ماذا تعني الأحلام؟»

ضحكت بيغي. سؤال آخر من أسئلة إليانور. هل حاصل جمع اثنين واثنين أربعة، وما طبيعة الكون؟

«إنَّني لا أعني الأحلام على وجه التحديد»، تابعت إليانور قولها، «المشاعر، المشاعر الَّتي تأتي حين يكون المرء نائماً؟».

«يا عزيزتي نيل»، قالت بيغي وهي تنظر نحو الأعلى إليها، «كم مرَّة أخبرتكِ؟ إنَّ الأطبَّاء يعرفون القليل جدّاً عن الجسم، ولا يعرفون شيئاً إطلاقاً عن الذهن». نظرت إلى الأسفل من جديد.

«لطالما قلتُ إنَّهم مخادعون!»، صاح نورث.

«يا للأسف!»، قالت إليانور، «كنتُ آمل أنَّكِ ستستطيعين أن تشرحي لي...». كانت تنحني نحو الأسفل. ثمَّة تورُّد في خدَّيها، كما لاحظت بيغي، كانت تشعر بالحماس، إنَّما، ما الَّذي كان يستدعي الحماس؟

سألت: «أشرح، ماذا؟».

«أوه، لا شيء»، قالت إليانور. الآن، لقد تجاهلتُها، فكَّرت بيغي.

نظرت إليها من جديد. كانت عيناها ساطعتين، وكان خدَّاها متورِّدين، أم أنَّه كان الاسمرار الَّذي جاء نتيجة رحلتها إلى الهند فحسب؟ وثمَّة عِرق صغير برز على جبهتها. إنَّما، ما الأمر الَّذي كان يستدعي الحماس؟ مالت إلى الخلف نحو الحائط. كانت تمتلك مشهداً غريباً لأقدام الناس انطلاقاً من المكان الَّذي جلست فيه على الأرض، أقدام تشير إلى هذا الاتِّجاه، أقدام تشير إلى ذاك الاتِّجاه، أحذية جلديَّة خفيفة، وشباشب من الساتان، وكلسات وجوارب حريريَّة. كانوا يرقصون على نحو إيقاعيٍّ، بإصرار، على إيقاع موسيقا «الفوكستروت». وماذا عن الكوكتيل والشاي، قال هو لي، قال هو لي، بدا وكأنَّ اللحن يُعاد مراراً وتكراراً. وتابعت الأصوات في رأسها. وصلت إليها هبَّات صغيرة غريبة من المحادثات المتعاقبة... هناك في «نورفولك»، حيث يمتلك شقيق زوجي قارباً... أوه، إنَّه إخفاق تامٌّ، أجل، أوافقك الرأي... كان الناس يتحدَّثون بالهراء في الحفلات. وكانت ماغي تتحدَّث إلى جانبها، وكان نورث يتحدَّث، وإليانور كانت تتحدَّث. فجأة، مدَّت إليانور يدها.

«ها هو ذا ريني!»، قالت، «ريني، الَّذي لا أراه أبداً. ريني الَّذي أحبُّ... تعالَ وتحدَّث إلينا يا ريني». وقطع زوجان من الأحذية الخفيفة حقل الرؤية الخاصّ ببيغي، وتوقَّفا أمامها. جلس إلى جانب إليانور. كانت تستطيع أن ترى حدود وجهه الجانبيَّة، الأنف الكبير، الخدَّ النحيل. وماذا

عن الكوكتيل والشاي، قال هو لي، قال هو لي، صدحت الموسيقا، ورقص الأزواج متجاوزين إيَّاهم. غير أنَّ أفراد المجموعة الصغيرة على الكراسي فوقها كانوا يتحدَّثون، لقد كانوا يضحكون.

«أعلم أنَّكم جميعاً توافقونني الرأي...»، كانت إليانور تقول. وكان باستطاعة بيغي عبر عينيها، نصف المغلقتين، أن ترى ريني وهو يستدير نحوها. رأت خدَّه النحيل، وأنفه الكبير، وأظافره، فلقد كانت مشذَّبة بعناية بالغة، كما لاحظت.

«إنَّ هذا يعتمد على ما كنتِ تقولينه...»، قال.

«ما الَّذي كنَّا نقوله؟»، تأمَّلت إليانور. شكَّت بيغي في أنَّها قد نسيت بالفعل.

«... إنَّ الأمور قد تغيَّرت نحو الأفضل»، سمعت صوت إليانور.

«منذ كنتِ طفلة؟». ظنَّت أنَّ هذا كان صوت ماغي.

ثمَّ، قاطع صوت قادم من تنُّورة ذات شريطة ورديَّة اللَّون على الحافَّة: «... أنا لا أعرف كيف يسير الأمر، لكنَّ الحرارة لا تؤثِّر فيَّ بقدر ما كانت تفعل قبلاً...». رفعت نظرها إلى الأعلى. كانت هناك خمس عشرة شريطة ورديَّة على الفستان، مخيطة على نحو دقيق، ألم يكن ذاك الموجود في الأعلى هو رأس ميريام باريش الصغير، الشبيه بالقدِّيس، الشبيه بالخروف؟

«إنَّ ما أعنيه هو أنَّنا قد تغيَّرنا في داخل أنفسنا»، كانت إليانور تقول، «إنَّنا أكثر سعادة، وأكثر حرّيَّة...»

ما الَّذي تعنيه بـ«سعادة»، بـ«حرّيَّة»؟ سألت بيغي نفسها وهي تنزلق نحو الحائط من جديد.

«انظري إلى ريني وماغي»، سمعت إليانور تقول. ثمَّ توقَّفت. ثمَّ تابعت القول من جديد.

«هل تتذكَّر ليلة الغارة يا ريني؟ حين التقيتُ نيكولاس للمرَّة الأولى... حين جلسنا في السرداب؟... لقد قلتُ لنفسي في أثناء نزولنا إلى الطابق السفليِّ، هذا زواج سعيد...». كانت ثمَّة وقفة قصيرة أخرى. «قلتُ لنفسي»، تابعت قولها، ورأت بيغي يدها تُلقى على ركبة ريني، «لو كنتُ عرفتُ ريني حين كنتُ شابَّة...». توقَّفت عن الكلام. هل تعني أنَّها كانت لتقع في غرامه؟ تساءلت بيغي. قاطعت الموسيقا مرَّة أخرى... قال هو لي، قال هو لي.

«كلَّا، على الإطلاق...»، سمعت إليانور تقول، «كلَّا، على الإطلاق...». هل كانت تقول إنَّه لم يسبق لها الوقوع في الغرام، ولم ترغب في الزواج قطُّ؟ تساءلت بيغي. كانوا يضحكون.

«لِمَ، أنتِ تبدين كفتاة تبلغ الثامنة عشرة من عمرها!»، سمعت نورث يقول.

صاحت إليانور: «وأنا أشعر كواحدة!». فكَّرت بيغي وهي تنظر إليها، إلَّا أنَّكِ ستكونين محطَّمة غداً صباحاً. لقد كانت متورِّدة، وبرزت العروق في جبينها.

«إنَّني أشعر...»، توقَّفت. وضعت يدها على رأسها، «كما لو أنَّني كنتُ في عالم آخر! سعيدة جدّاً!»، صاحت.

قال ريني: «هذا هراء يا إليانور، إنَّه هراء».

اعتقدتُ أنَّه سيقول ذلك، قالت بيغي لنفسها مع بعض الرضا الغريب. كان في استطاعتها أن ترى شكله الجانبيَّ، في حين جلس على الطرف الآخر من ركبة عمَّتها. إنَّ الفرنسيِّين منطقيُّون، إنَّهم عقلانيُّون، فكَّرت. إنَّما، أضافت، لِمَ لا يسمح لإليانور بالحصول على اهتياجها البسيط إن كانت تستمتع به؟

«هراء؟ ما الَّذي تعنيه بـ"هراء"؟»، كانت إليانور تسأل. كانت تميل نحو الأمام. رفعت يديها إلى الأعلى كما لو كانت تريده أن يتحدَّث.

«تتحدَّثين دائماً عن العالم الآخر»، قال، «لِمَ لا تتحدَّثين عن هذا العالم؟»

«غير أنَّني قصدتُ هذا العالم!»، قالت، «قصدتُ، سعيدة في هذا العالم، سعيدة مع الأشخاص الأحياء». لوَّحت بيدها كما لو أنَّها فعلت ذلك بغية تقبُّل الرفقة المتنوِّعة؛ الشبَّان، المسنُّون، الراقصون، المتحدِّثون، ميريام وشرائطها الورديَّة، والشخص الهنديُّ الَّذي يعتمر العمامة خاصَّته. عاودت بيغي الغوص نحو الحائط. سعيدة في هذا العالم، فكَّرت، سعيدة مع الأشخاص الأحياء!

توقَّفت الموسيقا. لقد رحل الشابُّ الَّذي كان يضع الأسطوانات على الفونوغراف. تفرَّق الأزواج، وبدؤوا يشقُّون طريقهم عبر الباب. في الغالب أنَّهم كانوا ذاهبين لتناول الطعام، كانوا يتَّجهون للخروج إلى الحديقة الخلفيَّة والجلوس على الكراسي الصلبة الـمُسخَّمة. لقد توقَّفت الموسيقا الَّتي كانت تحفر أخاديدَ في ذهنها. كانت ثمَّة فترة هدوء، صمت. سمعت من بعيد جدّاً أصوات ليلة لندنيَّة، صاح بوق، ناحت صافرة عند النهر. إنَّ الأصوات البعيدة جدّاً، الإشارة الَّتي أدلوا بها عن عوالم أخرى، غير مكترثة بهذا العالم، عن أشخاص يكدحون، يعملون بجدٍّ، في قلب الظلام، في أعماق الليل، قد جعلها تعيد تكرار كلمات إليانور، سعيدة في هذا العالم، سعيدة مع الأشخاص الأحياء. إنَّما، كيف يمكن للمرء أن يكون «سعيداً»؟ سألت نفسها، في عالم يتفجَّر بالتعاسة. لقد كان الموت موجوداً عند كلِّ لافتة، وكلِّ ناصية شارع، أو الأسوأ، الاستبداد، الوحشيَّة، التعذيب، انحدار الحضارة، ونهاية الحريَّة. إنَّنا هنا، فكَّرت، نحتمي تحت ورقة شجر فحسب، وسوف تدمَّر. ثمَّ تقول إليانور إنَّ العالم أفضل، لأنَّ شخصين ممَّن بين كلِّ تلك الملايين «سعيدان». ثبَّتت عينيها نفسيهما على الأرضيَّة، لقد كانت خالية الآن، باستثناء خصلة من قماش الموسيلن مُزِّقت من تنُّورة ما. إنَّما، لِمَ ألاحظ كلَّ شيء؟ فكَّرت. غيَّرت وضعيَّتها. لِمَ عليَّ أن أفكِّر؟ لم تكن ترغب في التفكير. تمنَّت لو أنَّ هناك ستائر مثل تلك الموجودة في عربات القطار الَّتي تستر الضوء وتحجب

الذهن. الستائر الزرق الَّتي يسدلها المرء في أثناء الرحلة الليليَّة، فكَّرت. لقد كان التفكير تعذيباً، لِمَ لا يُقلع المرء عن التفكير، وينجرف ويحلم؟ إلَّا أنَّ تعاسة العالم تُجبرني على التفكير، فكَّرت. أم أنَّه كان تظاهراً؟ ألم تكن ترى نفسها في السلوك الملائم لشخص يشير إلى قلبه الدامي؟ الَّذي تُعدُّ تعاسات العالم بالنسبة إليه هي تعاسة، في حين أنَّ الأمر في الواقع، فكَّرت، هو أنَّني لا أحبُّ جنسي. رأت، مرَّة أخرى، الرصيف المكسوَّ بالياقوت، ووجوهاً محتشدة عند باب دار سينما، وجوهاً غير مبالية وسلبيَّة، وجوه أشخاص مُخدَّرين بمُتَع رخيصة، أشخاص لا يمتلكون الشجاعة الكافية كي يكونوا أنفسهم حتَّى، بل عليهم أن يتأنَّقوا، ويحاكوا، ويتظاهروا. وهنا، في هذه الغرفة، فكَّرت وهي تثبت نظرها على زوج... إلَّا أنَّني لن أفكِّر، أعادت، كانت لتجبر ذهنها على أن يصبح فارغاً ويسترخي، ويتقبَّل أيَّ شيء يأتي بهدوء، وبتسامح.

أنصتت. وصلت إليها خربشات من الأعلى. «... إنَّ الشقق في هايغيت تحوي حمَّامات»، كانوا يقولون، «... والدتك... ديغبي... أجل، لا تزال كروسبي في قيد الحياة...». لقد كانت تميمة أسريَّة، وكانوا يستمتعون بها. إنَّما، كيف في وسعي الاستمتاع بها؟ قالت لنفسها. كانت متعبة جدّاً، أحسَّت أنَّ الجلد حول عينيها مشدود، وكانت ثمَّة حلقة مثبتة بإحكام فوق رأسها، فحاولت أن تجبر نفسها على إبعاد تفكيرها نحو ظلام الريف. إلَّا أنَّ هذا الأمر كان مستحيلاً، إذ كانوا يضحكون. ففتحت عينيها، وتفاقم سوء الأمر بسبب ضحكهم.

كان ريني هو مَن يضحك. أمسك ورقة في يده، وكان رأسه مرجعاً إلى الخلف، وكان فمه مفتوحاً على وسعه. صدر منه صوت مثل ها! ها! ها! إنَّ تلك هي ضحكة، قالت لنفسها. هذا هو الصوت الَّذي يصدره الأشخاص حين يكونون مستمتعين.

راقبته. بدأت عضلاتها في الانتفاض على نحو غير إراديٍّ. لم تستطع منع نفسها من الضحك أيضاً. مدَّت يدها، فمنحها ريني الورقة. كانت مطويَّة،

إذ كانوا يلعبون لعبة. كان كلٌّ منهم قد رسم جزءاً مختلفاً من صورة. كان هناك في الأعلى رأس امرأة يشبه الملكة ألكسندرا، مع زغب مكوَّن من لفافات صغيرة، ثمَّ عنق طائر، جسد نمر، وأنهت الصورة قوائم فيل سمين يرتدي ثياب طفل داخليَّة.

«أنا رسمتُ ذلك، أنا رسمتُ ذلك!»، قال ريني وهو يشير إلى الأرجل الَّتي تعلَّق منها ذيل طويل من الأشرطة. ضحِكت، ضحِكت، ضحِكت، لم تستطع منع نفسها من الضحك.

«الوجه الَّذي أطلق ألف سفينة!»، قال نورث وهو يشير إلى جزء آخر من الشخص الوحشيّ. ضحكوا جميعاً من جديد. توقَّفت عن الضحك، وتجانست شفتاها. غير أنَّه كان لضحكها تأثير غريب فيها. لقد هدَّأها، ووسَّعها. شعرت، أو رأت بالأحرى، أمراً لم يكن مكاناً، بل حالة من الكينونة، كان ثمَّة ضحك حقيقيٌّ فيها، سعادة حقيقيَّة، وكان هذا العالم المقسَّم متكاملاً، متكاملاً، وحرّاً. إنَّما، كيف في وسعها أن تقول هذا؟

«انظروا هنا...»، بدأت القول. أرادت أن تُعبِّر عن أمر ما أحسَّت أنَّه ذو أهميَّة بالغة، عن عالم كان الأشخاص فيه متكاملين، وكان الأشخاص فيه أحراراً... غير أنَّهم كانوا يضحكون، وكانت جادَّة. «انظروا هنا...»، بدأت القول من جديد.

توقَّفت إليانور عن الضحك.

«إنَّ بيغي ترغب في قول أمر ما»، قالت. توقَّف الآخرون عن الحديث، غير أنَّهم توقَّفوا في اللَّحظة الخطأ. لم يكن لديها ما تقوله حين وصل الأمر إلى هذه المرحلة، وعلى الرَّغم من ذلك، كان عليها الكلام.

«هنا»، بدأت القول من جديد، «ها أنتم أولاء جميعاً هنا -تتحدَّثون عن نورث-». رفع نظره نحوها وقد فوجئ. لم يكن هذا ما قصدت أن تقوله، إنَّما عليها الاستمرار الآن وقد بدأت. حدَّقت وجوههم فيها مثل

طيور ذوات أفواه مفتوحة. «... كيف عليه أن يعيش، وأين عليه أن يعيش»، تابعت الكلام، «... إنَّما، ما النفع، ما الهدف من قول ذلك؟».

نظرت إلى شقيقها. تملَّكها شعور بالعداوة. كان لا يزال مبتسماً، غير أنَّ ابتسامته تلاشت حين نظرت إليه.

«ما النفع؟»، قالت وهي تواجهه، «سوف تتزوَّج. سوف تنجب أطفالاً. ماذا ستفعل حينها؟ تجني المال. تكتب كتباً صغيرة بغية كسب المال...»

لقد أخطأت القول. كانت تقصد قول أمر غير شخصيٍّ، غير أنَّها كانت تتحدَّث على نحو شخصيٍّ. الآن، قد وقع الأمر بالفعل، ولا بُدَّ أنّ تُكمل تخبُّطها الآن.

«سوف تكتب كتاباً صغيراً، ثمَّ كتاباً صغيراً آخر»، قالت بقسوة، «بدلاً من أن تعيش... أن تعيش على نحو مختلف، على نحو مختلف».

توقَّفت عن الكلام. كانت الرؤية لا تزال موجودة، غير أنَّها لم تكن قد استوعبتها. لقد كسرت أجزاء صغيرة فحسب ممَّا كانت تنوي قوله، وقد أغضبت شقيقها. غير أنَّه تدلَّى أمامها، الأمر الَّذي كانت قد رأته، الأمر الَّذي لم تقله. إنَّما، بينما عادت إلى الخلف نحو الحائط مع اهتزازة، شعرت بارتياح من بعض الكبت، وخفق قلبها، وبرزت العروق في جبينها. لم تكن قد قالته، غير أنَّها حاولت أن تقوله. الآن، يمكنها أن ترتاح، الآن، يمكنها أن تبعد نفسها بتفكيرها نحو الريف تحت ظلِّ سخريتهم، الَّتي لم تكن تمتلك أيَّ قدرة على إيذائها. وعيناها نصف مغلقتين، وبدا لها أنَّها موجودة على شرفة، في المساء، وقد حلَّقت بومة صعوداً وهبوطاً، صعوداً وهبوطاً، وظهر جناحاها الأبيضان في ظلام السور، وسمعت الريفيِّين يغنُّون، وقعقعة العجلات على طريق.

ثمَّ أصبحت الضبابيَّة واضحة على نحو تدريجيٍّ، فرأت خطَّ خزانة الكتب في الجهة المقابلة، وخصلة قماش الموسلين على الأرضيَّة، وقدمين كبيرتين، في حذاء ضيِّق، إلى حدِّ ظهور التهابات القدم، قد وقفتا أمامها.

لم يتحرّك أحد للحظة، لم يتحدَّث أحد للحظة. جلس بيغي في سكون. لم ترغب في أن تتحرّك، أو أن تتحدَّث. أرادت أن ترتاح، أن تميل، أن تحلم. شعرت بأنَّها متعبة للغاية. ثمَّ توقَّفت أقدام أكثر، وحافَّة تنُّورة سوداء.

قال صوت ضاحك خافت: «أيُّها القوم، ألن تنزلوا لأجل تناول العشاء؟». نظرت إلى الأعلى. لقد كانت عمَّتها ميلي، مع زوجها إلى جانبها.

«إنَّ العشاء في الطابق السفليِّ»، قال هيو، «إنَّ العشاء في الطابق السفليِّ»، ومضيا قُدماً.

«لكَم أصبحا مرفَّهين!»، قال صوت نورث، ساخراً منهما.

«آهٍ، غير أنَّهما يحسنان التعامل مع الناس...»، قالت إليانور معترضة. الإحساس الأسريُّ من جديد كما لاحظت بيغي.

ثمَّ تحرَّكت الركبة الَّتي كانت تحتمي خلفها.

«يجب أن نذهب»، قالت إليانور. مهلاً، مهلاً، أرادت بيغي أن ترجوها. كان ثمَّة أمر رغبت في أن تسألها عنه، أمر أرادت أن تضيفه إلى ثورانها، لأنَّ أيَّ شخص لم يهاجمها، وأيَّ شخص لم يسخر منها. إلَّا أنَّ الأمر كان غير ذي نفع، إذ استقامت الركبتان بنفسيهما، ومدَّ المعطف الأحمر نفسه، فلقد نهضت إليانور. كانت تبحث عن حقيبتها أو منديلها، وكانت تعبث في وسادات كرسيِّها. لقد فقدت غرضاً ما، كالمعتاد.

«إنَّني أعتذر عن كوني فوضويَّة على هذا النحو»، قالت معتذرة. هزَّت وسادة، فتدحرجت عملات نقديَّة منها إلى الأرض. غزلت ستَّة بنسات على طرفها عبر السجادة، ووصلت إلى زوج من الأحذية الفضيَّة على الأرضيَّة ثمَّ سقطت.

«هناك!»، صاحت إليانور، «هناك!... إنَّما، تلك هي كيتي! أليس كذلك؟»، صاحت.

نظرت بيغي إلى الأعلى. كانت ثمَّة امرأة مسنَّة وسيمة، ذات شعر أبيض مجعَّد، وثمَّة شيء ما يشعُّ في شعرها. كانت تقف في الممرِّ وتنظر من حولها، كما لو أنَّها قد دخلت توّاً، وكانت تبحث عن المضيفة، الَّتي لم تكن موجودة. لقد استقرَّت ستَّة البنسات عند قدميها هي.

«كيتي!»، أعادت إليانور. ذهبت نحوها ويداها ممدودتان. نهضوا جميعاً. نهضت بيغي. أجل، لقد انتهى الأمر، وشعرت بأنَّه قد دُمِّر. سرعان ما يُجمع أمر ما، يُدمَّر. كان ينتابها شعور بالأسى. ثمَّ عليك أن تلتقط القطع، وأن تصنع أمراً جديداً، أمراً مختلفاً، فكَّرت، وعبرت الغرفة، وانضمَّت إلى الأجنبيِّ، الرجل الَّذي كانت تدعوه براون، الَّذي كان اسمه الحقيقيُّ نيكولاس بومجالوفسكي.

سألها نيكولاس: «من هي تلك السيِّدة الَّتي يبدو أنَّها دخلت غرفة كما لو كان العالم بأسره ملكاً لها؟»

«تلك هي كيتي لاسودي»، قالت بيغي. في حين وقفت عند الباب، لم يستطيعا المرور.

«أخشى أنَّني متأخِّرة على نحو رهيب»، سمعاها تقول بنغماتها الواضحة، المتسلِّطة، «غير أنَّني ذهبتُ لحضور مسرحيَّة باليه».

تلك هي كيتي، أليس كذلك؟ قال نورث لنفسه وهو ينظر إليها. لقد كانت من السيِّدات المسنَّات حسنات الهيئة، المسترجلات إلى حدٍّ ما، اللواتي كنَّ ينفرنَه قليلاً. فكَّر في أنَّه تذكَّر كونها زوجة أحد حكَّامنا، أم كان الحاكم العامّ للهند؟ كان في مقدوره أن يراها، في حين وقفت هناك، وهي تؤدِّي المراسم الشرفيَّة في مقرِّ الحكومة. «اجلس هنا. اجلسنَ هناك. وأنت، أيُّها الشابُّ، آمل أنَّكَ تتمرَّن كثيراً؟». كان يعرف النوع هذا. كان لها أنف قصير مستقيم، وعينان زرقاوان متباعدتان للغاية. ربَّما كانت لتبدو جميلة للغاية في الثمانينيَّات، فكَّر، وهي ترتدي ثياب فرسان ضيِّقة، وقبَّعة صغيرة تعلوها

ريشة ديك، ربَّما كانت في علاقة مع أحد المساعدين الشخصيِّين، ثمَّ استقرَّت، وأصبحت ديكتاتوريَّة، وقصَّت قصصاً عن ماضيها. أنصت.

«آه، غير أنَّه لا يُداني نيجينسكي!»، كانت تقول.

فكَّر في أنَّ هذا يشبه نوع الأمور الَّتي قد تقولها. فحص الكتب الموجودة في خزانة الكتب. أخرج واحداً وأمسكه رأساً على عقب، كتاباً واحداً صغيراً، وبعد ذلك، أخرج كتاباً صغيراً آخرَ، عاد إليه تهكُّم بيغي. لقد لسعته الكلمات على نحو غير متناسب البتَّة مع معناها السطحيِّ. كانت قد انقلبت عليه بمقدار كبير من العنف، كما لو أنَّها كانت تبغضه، وبدت كما لو أنَّها ستنفجر في البكاء. فتح الكتاب الصغير. إنَّها اللغة اللاتينيَّة، أليس كذلك؟ اقتطع جملة وسمح لها بالسباحة في ذهنه. هناك، استلقت الكلمات، جميلة، إلَّا أنَّها كانت من دون معنى، إنَّما مُؤلَّفة في نمط، إنَّ الليل من أجل نوم لا ينتهي. تذكَّر معلِّمه يقول، ضعوا علامة على الكلمة الطويلة في نهاية الجملة. هناك، طافت الكلمات، إنَّما تماماً بينما كانت توشك أن تبوح بمعناها، كانت ثمَّة حركة عند الباب. كان باتريك العجوز يسير بتمهُّل، وقد أعطى ذراعه بشجاعة إلى أرملة الحاكم العامِّ، وكانا يتقدَّمان بمظهر غريب من المراسم العتيقة نزولاً على الدرج. بدأ الآخرون يتبعونهما. حيث يسير الجيل الأصغر سنّاً في أعقاب الأكبر سنّاً، قال نورث لنفسه، في حين أعاد وضع الكتاب على الرفِّ ولحق بهم. غير أنَّهما لم يكونا شابَّين جدّاً، كما لاحظ، بيغي -كانت هناك شعرات بيض في رأس بيغي- لا بُدَّ أنَّها تبلغ السابعة والثلاثين، الثامنة والثلاثين؟

«هل تستمتعين بوقتكِ يا بيغ؟»، قال، في حين تخلَّفا عن الآخرين. كان يتملَّكه شعور مبهم بالعداء تجاهها. كانت تبدو له بأنَّها تشعر بالمرارة وخيبة الأمل، ونقديَّة للغاية تجاه الجميع، ولا سيَّما هو نفسه.

«اذهب أنتَ أوّلاً يا باتريك»، سمعا الليدي لاسودي تصدح بصوتها العالي المؤدَّب، «إنَّ هذه الدرجات غير ملائمة...»، توقَّفت قليلاً، في حين

كانت تُقدِّم ما كانت في الأرجح ساقاً مُصابة بالروماتيزم، «للأشخاص المسنّين الذين...»، كانت ثمَّة وقفة قصيرة أخرى، في حين هبطت درجة إضافيَّة، «كانوا راكعين على العشب الرطب يقتلون البزَّاقات».

نظر نورث إلى بيغي وضحك. لم يكن يتوقَّع أن تنتهي الجملة على هذا النحو، غير أنَّه فكَّر في أنَّ أرامل الحكَّام العامِّين يمتلكنَ حدائقَ دائماً، ويقتلنَ البزّاقات دائماً. ابتسمت بيغي أيضاً. إلَّا أنَّه شعر بعدم الراحة معها. لقد هاجمته. على الرَّغم من ذلك، ها هما ذان، يقفان إلى جانب بعضهما بعضاً.

قالت وهي تستدير نحوه: «هل رأيت ويليام واتني العجوز؟».

«كلَّا!»، صاح، «ألا يزال في قيد الحياة؟ الفقمة المسنَّة البيضاء ذات الشاربين؟»

«أجل، ذاك هو»، قالت. كان هناك رجل مسنٌّ يرتدي صدريَّة بيضاء ويقف عند الباب.

«الغيلم الهُزء المسنُّ»، قال. كان عليهما الاستناد إلى مصطلح طفولتيهما، إلى ذكريات الطفولة، بغية التغطية على ابتعادهما، على عدائهما.

«هل تتذكَّرين...»، بدأ القول.

«ليلة الشجار؟»، قالت، «الليلة الَّتي خرجتُ فيها من النافذة باستخدام حبل».

«وذهبنا في نزهة في المعسكر الرومانيِّ»، قال.

«لم يكن ليتمَّ العثور علينا قطُّ لو لم يشِ بنا ذاك الوغد البشع الضئيل»، قالت وهي تهبط درجة.

«الوحش الضئيل ذو العينين الملتهبتين»، قال نورث.

لم يتمكَّنا من التفكير في أمر آخر كي يقولاه، في حين وقفا محتجزين في انتظار أن يمضي الآخرون قدماً، جنباً إلى جنب. لقد اعتاد أن يقرأ لها شعره في الاستوديو المستقلّ، تذكَّر، وبينما صعدا وهبطا إلى جوار شجيرات الورد. والآن، لم يمتلكا أيَّ شيء ليقولاه، أحدهما للآخر.

«بيري»، قال وهو يهبط درجة أخرى، فلقد تذكَّر على نحو مفاجئ اسم الصبيِّ ذي العينين الملتهبتين، الَّذي رآهما يعودان إلى المنزل في ذلك الصباح فوشى بهما.

«ألفريد»، أضافت.

فكَّر في أنَّها لا تزال تعرف أموراً معيَّنة حوله، لا يزالان يمتلكان شيئاً عميقاً جدّاً مشتركاً فيما بينهما. كان هذا هو السبب، فكَّر، في أنَّها آذته بما قالته، قبل أن تفعل تجاه الآخرين، حول «كتابته لكتبه الصغيرة». كان ماضيهما يدين حاضره. نظر إليها.

اللَّعنة على النساء، فكَّر، إنَّهنَّ صعبات للغاية، ضيِّقات الأفق للغاية. اللَّعنة على أذهانهنَّ الصغيرة الفضوليَّة. ما الَّذي ارتقى إليه «تعليمهنَّ»؟ لقد جعلها تصبح نقديَّة، عيَّابة فحسب. كانت إليانور المسنَّة، مع كلِّ ثرثرتها وتعثُّرها، كانت تعادل دزينة من بيغي في أيِّ يوم من الأيَّام. لم تكن هذا الأمر أو ذاك، فكَّر وهو ينظر إليها، إنَّها لا تتبع الموضة، وليست خارجها.

شعرت به ينظر إليها ويشيح عنها ببصره. كان يجد عيباً ما في أمر يتعلَّق بها، علمت ذلك. يداها؟ فستانها؟ كلَّا، كان هذا بسبب أنَّها انتقدته، فكَّرت. أجل، فكَّرت، في حين هبطت درجة أخرى، الآن سأُهزم، الآن، سأدفع مقابل إخباري إيَّاه أنَّه سيكتب «كتباً صغيرة». فكَّرت في أنَّ الحصول على إجابة سيتطلَّب من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، وحينها سيكون أمراً خارجاً عن صلب الموضوع لكنَّه كريه، للغاية، فكَّرت. إنَّ غطرسة الرجال لا حدود لها. انتظرت. نظر إليها من جديد. والآن، هو

يقارن ما بيني وبين الفتاة الَّتي رأيتُه يتحدَّث إليها، فكَّرت، ورأت الوجه المحبَّب القاسي مجدَّداً. سيتزوَّج فتاة تضع أحمر الشفاه من ذي اللَّون الأحمر، ويصبح كادحاً. عليه فعل ذلك، وأنا لا أستطيع، فكَّرت. كلَّا، إنَّني أمتلك إحساساً دائماً بالذنب. يجب أن أدفع ثمنه، يجب ذلك، واصلت قول ذلك لنفسي حتَّى في المعسكر الرومانيِّ، فكَّرت. لم تكن لتنجب أطفالاً، وهو سينجب أطفالاً صغاراً لأسرة جيبس، المزيد من أسرة جيبس، فكَّرت وهي تنظر إلى باب غرفة مُحامٍ، ما لم تهجره عند نهاية السنة لأجل رجل آخر... كان اسم المحامي ألريدج، كما لاحظت. لن آخذ المزيد من الملاحظات، وسوف أستمتع بوقتي، فكَّرت فجأة. ووضعت يدها على ذراعه.

«هل التقيت أيَّ شخص ممتع الليلة؟»، قالت.

خمَّن أنَّها قد رأته برفقة الفتاة.

«فتاة واحدة»، قال بإيجاز.

«هذا ما رأيته»، قالت.

أشاحت عنه بنظرها بعيداً.

«أعتقد أنَّها لطيفة»، قالت وهي تراقب بعناية صورة ملوَّنة لطائر ذي منقار طويل، كانت قد عُلِّقت على الدرج.

«هل عليَّ إحضارها لمقابلتك؟»، سأل.

إذاً، كان يهتمُّ برأيها، أليس كذلك؟ كانت يدها لا تزال على ذراعه، فشعرت بشيء قاسٍ ومشدود تحت كمِّه، وملمس لحمه، ما أعاد إليها تقارب الكائنات البشريَّة وتباعدها، بحيث إن قصد المرء مساعدة الآخر آذاه، غير أنَّهم اعتمدوا على بعضهم بعضاً، ما ولَّد لديها اضطراب شعور بالغاً إلى درجة أنَّها بعناء تمنع نفسها من الصياح، نورث! نورث! نورث! إنَّما، عليَّ ألَّا أُظهر نفسي بمظهر الحمقاء مجدَّداً، قالت لنفسها.

«أيّ أمسية بعد الساعة السادسة»، قالت بصوت عالٍ، وهي تهبط بحذر درجة أخرى، وقد وصلا إلى نهاية الدرج.

صدح زئير من الأصوات من خلف باب غرفة العشاء. سحبت يدها من ذراعه. فُتح الباب بعنف.

«ملاعق! ملاعق! ملاعق!»، صاحت ديليا، وهي تلوِّح بيديها في سلوك بلاغيٍّ كما لو أنَّها كانت تخاطب شخصاً ما لا يزال في الداخل. وقع بصرها على ابن وابنة شقيقها. «فلتكن ملاكاً يا نورث وأحضر ملاعق!»، صاحت وهي تمدُّ يديها نحوه.

«ملاعق لأرملة الحاكم العامِّ!»، نادى نورث، ملتقطاً سلوكها، محاكياً إيماءتها الدراميَّة.

«في المطبخ، في القبو!»، صاحت ديليا وهي تلوِّح بذراعها باتِّجاه درج المطبخ، «تعالي يا بيغي، تعالي»، قالت وهي تمسك يد بيغي بيدها، «إنَّنا جميعاً جالسون لتناول العشاء». اندفعت إلى الغرفة حيث كانوا يتناولون العشاء. لقد كان المكان مكتظّاً. كان الناس يجلسون على الأرض، وعلى الكراسي، وعلى مقاعد المكتب. طاولات مكاتب طويلة، طاولات صغيرة للآلات الكاتبة، قد وُضعت في الخدمة. كانت مكسوَّة بالأزهار، ممتلئة بالأزهار. كانت أزهار القرنفل، الورد، الأقحوان مبعثرة على نحو فوضويٍّ. «اجلسي على الأرض، اجلسي في أيِّ مكان»، أمرتها ديليا، وهي تلوِّح بيدها بعشوائيَّة.

«إنَّ الملاعق قادمة»، قالت للسيِّدة لاسودي، الَّتي كانت تحتسي حساءها في كوب.

«غير أنَّني لا أريد ملعقة»، قالت كيتي. أمالت كوبها واحتست.

قالت ديليا: «كلَّا أنتِ لا تريدينها، إنَّما الأشخاص الآخرون يفعلون».

أحضر نورث مجموعة من الملاعق وأخذتها منه.

«الآن، مَن يريد ملعقة ومن لا يريد واحدة؟»، قالت وهي تلوِّح بمجموعة الملاعق أمامها. فكَّرت، بعض الأشخاص يريدونها وبعضهم لا يفعل.

إنَّ النوع الَّذي يماثلها من الأشخاص لم يُرد ملعقة، فكَّرت، في حين الآخرون -الإنكليز- كانوا يريدون واحدة. كانت تبني هذا التمييز بين الأشخاص طيلة حياتها.

«ملعقة؟ ملعقة؟»، قالت وهي تنظر في الأرجاء حيث الغرفة المكتظَّة، مع بعض الرِّضا الذاتيِّ. كان هناك أنواع الأشخاص كافَّة، كما لاحظت. لطالما كان هذا هو هدفها، أن تخلط الأشخاص، وأن تتخلَّص من الاتفاقيَّات السخيفة للحياة الإنجليزيَّة. وقد فعلت هذا الليلة، فكَّرت. كان هناك النبلاء والعامَّة، أشخاص مهندمون، وآخرون رثُّو الهيئة، أشخاص يشربون من كوب، وآخرون ينتظرون أن تُجلب ملعقة إليهم، في حين يبرد حساؤهم.

«ملعقة لأجلي»، قال زوجها وهو يرفع بصره نحوها.

جعَّدت أنفها. نظراً لكونه قد حطَّم حلمها للمرَّة الألف. معتقدة أنَّها ستتزوَّج متمرِّداً جامحاً، كانت قد تزوَّجت واحداً من أكثر الرجال الريفيِّين احتراماً للملك وإعجاباً بالإمبراطوريَّة، ولهذا السبب عينه، إلى حدٍّ ما، لأنَّه كان شخصيَّة رائعة من الرجال، الآن حتَّى. «ملعقة لأجلك يا عمِّي»، قالت على نحو جافٍّ، وأرسلت نورث مع المجموعة. ثمَّ جلست إلى جوار كيتي الَّتي كانت تجترع حساءها مثل طفل في حفل مدرسيٍّ. وضعت كوبها خالياً، بين الأزهار.

«الأزهار المسكينة»، قالت وهي تلتقط زهرة قرنفل استلقت على غطاء الطاولة، ثمَّ تضعها على شفتيها، «ستموت يا ديليا، إنَّها تحتاج إلى الماء».

«إنَّ الأزهار رخيصة اليوم»، قالت ديليا، «يبلغ ثمن المجموعة بنسين على عربة يد في شارع أكسفورد»، قالت. أخذت وردة حمراء اللَّون وأمسكتها تحت الضوء، ولهذا أشعَّت، معرَّقة، شبه شفَّافة.

«لكَم هي إنكلترا بلد غنيٌّ!»، قالت وهي تضعها من جديد. أخذت الكوب الَّذي يخصُّها.

«إنَّ ما أواصل قوله لكِ»، قال باتريك وهو يمسح فمه، «البلد المتحضِّر الوحيد في العالم بأسره»، أضاف قائلاً.

«ظننتُ أنَّنا كنَّا على شفا انهيار ما»، قالت كيتي، «ليس كما لو أنَّ الأمر بدا على هذا النحو في كوفنت غاردن الليلة»، أضافت قائلة.

«آهٍ، غير أنَّ الأمر صحيح»، تنهَّد وهو يتابع أفكاره الخاصَّة، «إنَّني أشعر بالأسف لقول هذا، غير أنَّنا متوحِّشون مقارنة بكِ».

«لن يشعر بالسعادة حتَّى يستعيد قلعة دبلن مجدَّداً». أغاظته ديليا قائلة.

«ألا تستمتع بحرّيَّتك؟»، قالت كيتي وهي تنظر إلى الرجل المسنِّ غريب الأطوار الَّذي لطالما جعلها وجهه تفكِّر في ثمار عنب الديب المشعرة. غير أنَّ جسمه كان رائعاً.

«يبدو لي أنَّ حرّيَّتنا الجديدة أسوأ بكثير من عبوديَّتنا القديمة»، قال باتريك وهو يعبث بعود الأسنان خاصَّته.

السياسة كما المعتاد، المال والسياسة، فكَّر نورث وقد سمعهم عن غير قصد، في حين جال مع آخر ملعقة.

«أنتَ لن تقول لي إنَّ كلَّ هذا العناء قد ذهب هباءً يا باتريك؟»، قالت كيتي.

«تعالي إلى أيرلندا وشاهدي بنفسكِ يا سيِّدتي»، قال بشراسة.

«إنَّ الوقت مبكر للغاية، إنَّه مبكر كي نعرف»، قالت ديليا.

نظر زوجها إلى ما وراءها بالعينين البريئتين لكلب رياضيٍّ مسنٍّ قد ولَّت أيَّام الصيد خاصَّته. غير أنَّهما لم يستطيعا الإبقاء على ثباتهما لفترة طويلة.

«مَن ذاك الرجل الَّذي يحمل الملاعق؟»، قال وهو يضع عينيه على نورث، الَّذي وقف خلفهم تماماً، ينتظر.

«إنَّه نورث»، قالت ديليا، «تعالَ اجلس معنا يا نورث».

«عمتَ مساءً يا سيِّدي»، قال باتريك. كانا قد التقيا مسبقاً، غير أنَّه نسي بالفعل.

«ماذا، ابن موريس؟»، قالت كيتي وهي تلتفُّ إلى الخلف فجأة. صافحت اليدين بحفاوة. جلس وابتلع جرعة من الحساء.

«لقد عاد توّاً من أفريقيا. كان يقيم في مزرعة هناك»، قالت ديليا.

«وكيف يبدو لكَ الريف القديم هناك؟»، قال باتريك وهو يميل نحوه بلطف.

«إنَّه بالغ الازدحام»، قال وهو ينظر في أرجاء الغرفة. أضاف قائلاً: «وأنتم جميعاً تتحدَّثون عن المال والسياسة». كانت تلك هي عبارته المبتذلة. لقد قالها عشرين مرَّة بالفعل.

«كنتَ في أفريقيا؟»، قالت الليدي لاسودي، «وما الَّذي جعلكَ تتخلَّى عن مزرعتك؟»، قالت مطالبة بمعرفة الإجابة. نظرت إلى عينيه وتحدَّثت بالطريقة الَّتي توقَّع أنَّها ستتحدَّث بها تماماً، بجديَّة أكثر ممَّا يفضِّل. ما الَّذي يهمُّكِ في هذا الأمر أيَّتها السيِّدة العجوز؟ سأل نفسه.

«كنتُ قد اكتفيتُ منها»، قال بصوتٍ عالٍ.

«وأنا كنتُ لأتخلَّى عن كلِّ شيء كي أصبح مزارعة!»، صاحت. لقد كان هذا خارجاً عن السياق بقليل، فكَّر نورث. وكذلك كانت عيناها، لا بُدَّ أنَّها كانت ترتدي نظَّارة أنفيَّة، غير أنَّها لم تفعل.

«إنَّما في شبابي»، قالت على نحو شرس إلى حدٍّ ما -كانت يداها قصيرتين قليلاً، وكان الجلد قاسياً، غير أنَّها كانت تمارس البستنة، تذكَّر- «لم يكن هذا الأمر مسموحاً به».

«كلَّا»، قال باتريك، «وفي اعتقادي أنَّ علينا جميعاً أن نكون بالغي السعادة، بالغي السعادة، من جرَّاء العودة إلى الأشياء كما كانت عليه قبلاً. ما الَّذي فعلته الحرب لأجلنا؟ شخصيّاً، لقد دمَّرتني»، تابع القول وهو يقرع على الطاولة باستخدام شوكة. هزَّ رأسه من جانب إلى آخر بصبر كئيب.

«أنا آسفة لسماع ذلك»، قالت كيتي، «إنَّما، بالحديث عن نفسي، فإنَّ الأيَّام الخوالي كانت أيَّاماً سيّئة، أيَّاماً شرِّيرة، أيَّاماً قاسية...». تحوَّلت عيناها إلى اللَّون الأزرق من جرَّاء الشغف.

ماذا عن المعاون الشخصيِّ، والقبَّعة الَّتي تعلوها ريشة ديك؟ سأل نورث نفسه.

«ألا تتَّفقين معي يا ديليا؟»، قالت كيتي وهي تلتفت نحوها.

غير أنَّ ديليا كانت تتحدَّث في أثناء حديثها، مستخدمة نمط حديثها الغنائيَّ الأيرلنديَّ المبالغ فيه مع شخص آخر يجلس إلى الطاولة المجاورة. ألا أتذكَّر هذه الغرفة، فكَّرت كيتي، اجتماع، نقاش. إنَّما، عمَّ كان؟ القوَّة...

«يا كيتي العزيزة»، قاطع باتريك وهو يربِّت على يدها بكفِّه الضخمة، «هذا مثال آخر عمَّا أقوله لكِ. الآن، تمتلك هؤلاء السيِّدات حقَّ التصويت»، قال وهو يلتفت نحو نورث، «فهل هنَّ أفضل حالاً من دونه؟».

بدت كيتي شرسة للحظة، ثمَّ ابتسمت.

«لن نناقش هذا يا صديقي المسنَّ»، قالت وهي تربِّت على يده تربيتة خفيفة.

«والأمر عينه مع الأيرلنديِّين»، تابع القول. رأى نورث أنَّه كان عازماً على أن يدوسَ جولة أفكاره المألوفة كحصان عجوز مصاب بمرض ربو الخيل. «كانوا ليسعدوا بما فيه الكفاية بالانضمام إلى الإمبراطوريَّة من جديد، إنَّني أؤكِّد لكَ ذلك. إنَّني أنحدر من أسرة»، قال لنورث، «خدمت ملكها وبلدها مدَّة ثلاثمئة...».

«المستوطنون الإنكليز»، قالت ديليا، بإيجاز إلى حدٍّ ما، وهي تعود إلى الحساء الَّذي يخصُّـها. لهذا السبب، كانا يتشاجران حين يكونان وحيدَين، فكَّر نورث.

«لقد مضت ثلاثمئة سنة على وجودنا في البلد»، قال باتريك العجوز، مضمِّناً حديثه كلمات إضافيَّة، وضع يده على ذراع نورث، «والأمر الَّذي يُفاجئ رجلاً عجوزاً مثلي، شخصاً رجعيّاً مسنّاً مثلي...»

«إنَّ هذا هراء يا باتريك»، قالت ديليا، «لم يسبق لي أن رأيتكَ أكثر شباباً من الآن. قد تبدو في الخمسين من العمر، أليس كذلك يا نورث؟»

إلَّا أنَّ باتريك هزَّ رأسه.

«لن أرى سنَّ السبعين مرَّة أخرى»، قال ببساطة، «...غير أنَّ الأمر الَّذي يُفاجئ رجلاً عجوزاً مثلي»، تابع القول وهو يربِّت على ذراع نورث، «هو مع كثير من الشعور الإيجابيِّ في الأرجاء»، أومأ على نحو مبهم تقريباً نحو لافتة مثبَّتة على الحائط -«والأغراض الجميلة أيضاً»- ربَّما كان يشير إلى الأزهار، غير أنَّ رأسه اهتزَّ لا إرادياً حين تحدَّث -«ما الَّذي يريده أولئك الأشخاص أن ينتج عن إطلاق النار على بعضهم بعضاً؟ إنَّني لا أنضمُّ إلى أيِّ مجتمع، إنَّني لا أوقِّع على أيٍّ من هذه» -أشار إلى اللافتة- «ما الاسم الَّذي تطلقونه عليها؟ البيانات العامَّة -أنا أذهب إلى صديقي مايك فحسب، أو قد يكون بات- إنَّهما صديقان جيِّدان من أصدقائي، ونحن...»

توقَّف وقرص قدمه.

«يا إلهي! يا لهذه الأحذية!»، قال شاكياً.

«إنَّهما ضيِّقان، أليس كذلك؟»، قالت كيتي، «اخلعهما».

لِمَ أُحضر الصبيّ العجوز المسكين إلى هنا، تساءل نورث، وعلق في هذا الحذاء الضيِّق؟ من الواضح أنَّه كان يتحدَّث إلى كلابه. كانت ثمَّة نظرة في عينيه الآن حين رفعهما إلى الأعلى من جديد وحاول استعادة سياق الأمر

الَّذي كان يقوله، وقد كانت مشابهة لنظرة رياضيٍّ رأى الطيور ترتفع في هيئة نصف دائرة فوق المستنقع الأخضر الواسع. غير أنَّها كانت خارج نطاق إصابته. لم يستطع أن يتذكَّر إلى أين وصل. «... إنَّنا نناقش الأمور حول طاولة»، قال. كانت عيناه قد أصبحتا لطيفتين وخاليتين كما لو أنَّ مُحرِّكاً قد توقَّف، وذهنه انزلق بسلاسة وصمت.

«إنَّ الإنكليز يتحدَّثون أيضاً»، قال نورث على نحو روتينيٍّ. أومأ باتريك ونظر بإبهام إلى مجموعة من الشبَّان. غير أنَّه لم يكن مهتمّاً بما كان يقوله الأشخاص الآخرون. لم يستطع ذهنه أن يمتدَّ أبعد من حدود إيقاعه الخاصِّ بعد الآن. كان جسمه لا يزال متناسقاً علَى نحو جميل، إنَّ ذهنه هو ما كان عجوزاً. كان ليقول الأمور عينها مجدَّداً، وحينما يقولها، كان ينكش أسنانه ويجلس محدِّقاً أمامه. ها هو ذا الآن قد جلس يمسك بزهرة بين إصبعه وإبهامه، على نحو رخو، من دون أن ينظر إليها، كما لو كان ذهنه ينزلق، غير أنَّ ديليا قاطعت.

«على نورث الذهاب والحديث إلى أصدقائه»، قالت. كما هي حال العديدات من الزوجات، كانت ترى حين يصبح زوجها مملّاً، فكَّر نورث وهو ينهض.

«لا تنتظر أن يقدِّمك أحد»، قالت ديليا وهي تلوِّح بيديها، «افعل ما يحلو لك فحسب، ما يحلو لكَ فحسب»، ردَّد زوجها كلماتها، وهو يضرب على الطاولة مستخدماً الزهرة الَّتي تخصُّه.

كان نورث سعيداً بالذهاب، إنَّما، إلى أين يذهب الآن؟ شعر من جديد بأنَّه كان دخيلاً، حين جال ببصره في أنحاء الغرفة. كان كلُّ أولئك الأشخاص يعرفون بعضهم بعضاً. كانوا ينادون بعضهم بعضاً باستخدام أسمائهم المسيحيَّة، وباستخدام ألقابهم - في حين وقف على أطراف مجموعة صغيرة من الشبَّان والشابات اليافعات. كان كلُّ شخص جزءاً من مجموعة صغيرة

بالفعل، وشعر بهذا حين كان يستمع، وبقي واقفاً عند الأطراف. أراد أن يسمع ما كانوا يقولونه، من دون أن يُجذب إلى الداخل هو نفسه. أنصت. لقد كانوا يتجادلون. السياسة والمال، قال لنفسه، المال والسياسة. لقد أصبحت هذه العبارة مفيدة. إلَّا أنَّه لم يستطع أن يفهم النقاش الَّذي كان محتدماً بالفعل. لم يسبق لي أن شعرت بهذا المقدار من الوحدة قبلاً، فكَّر. لقد كان الأمر البديهيُّ القديم حول العزلة ضمن حشد صحيحاً، لأنَّ التلال والأشجار تقبَّلت المرء، ورُفض المرء من قِبل الكائنات البشريَّة. أدار ظهره وتظاهر بأنَّه يقرأ تفاصيل عن عقار مرغوب فيه في «بيكسهيل»، الَّذي كان باتريك قد أشار إليه سابقاً لسبب ما بأنَّه «بيان رسميٌّ». «مياه جارية في غرف النوم كافَّة»، قرأ. سمع أجزاءً من الكلام. تلك «أكسفورد»، تلك «هارو»، تابع وهو يميِّز حيل الحديث الَّتي جرى اكتسابها في المدرسة والجامعة. بدا له بأنَّهم كانوا يلقون نكاتاً خاصَّة صغيرة عن فوز جونز البسيط في رياضة الوثب الطويل، وفوكسي العجوز، أو أيّاً كان اسم المدير. كان سماع هؤلاء الشبَّان اليافعين يتحدَّثون في أمور السياسة شبيهاً بسماع صبية صغار في مدرسة داخليَّة. «إنَّني على حقٍّ... أنتَ على خطأ». فكَّر في أنَّه حين كان في مثل عمرهم كان موجوداً في الخنادق، وكان رأى رجالاً يُقتلون. إنَّما، هل كان ذلك تعليماً جيّداً؟ انتقل من قدم إلى أخرى. فكَّر في أنَّه حين كان في مثل عمرهم كان وحيداً في مزرعة تبعد ستِّين ميلاً عن أيِّ رجل أبيض، مسؤولاً عن قطيع من الأغنام. إنَّما، هل كان ذلك تعليماً جيّداً؟ في أيِّ حال، بدا له أنَّهم جميعاً كانوا من النوع عينه، وهو يستمع نصف استماع إلى نقاشهم، وينظر إلى إيماءاتهم، ملتقطاً عباراتهم العاميَّة. مدرسة عامَّة وجامعة، راقبهم بتفحُّص وهو ينظر إليهم من فوق كتفه. إنَّما، أين عمَّال الكنس والصرف الصحيِّ، أين الخيَّاطات وعمَّال تحميل السفن وتفريغها؟ فكَّر وهو يعدُّ قائمة بالمهن الَّتي تبدأ بالحرف عينه. نظراً لكون كلِّ فخر ديليا ناتجاً عن اختلاطها، فكَّر وهو ينظر إلى الناس، فلم يكن هناك

سوى السادة والدوقات، وما الكلمات الأخرى الَّتي تبدأ بالحرف عينه؟ سأل نفسه كما لو كان يتفحَّص اللافتة من جديد، المومسات وذكور النحل؟

استدار. كان هناك صبيٌّ ذو وجه لطيف نضر، وأنف يعلوه النمش، يرتدي ملابس النهار العاديَّة، ينظر إليه. لو لم يحاذر فقد يُسحب هو أيضاً. لم يكن ثمَّة أمر أسهل من أن ينضمَّ إلى مجتمع، أن يوقِّع ما أطلق عليه باتريك «بياناً عامّاً». غير أنَّه لم يؤمن بالانضمام إلى المجتمعات، بتوقيع البيانات العامَّة. استدار إلى الخلف نحو المسكن المرغوب فيه، المحتوي على ثلاثة أرباع فدَّان من الحديقة، ومياه جارية في غرف النوم كلِّها. التقى الناس، فكَّر، وهم يتظاهرون بأنَّهم يقرؤون في الممرَّات الـمُستأجرة. ووقف واحد منهم على منصَّة. كانت ثمَّة إيماءة تشبه مقبض المضخَّة، إيماءة عصر الملابس المبتلَّة، بعد ذلك فإنَّ الصوت، المنفصل على نحو غريب عن الشكل الصغير والمضخَّم على نحو هائل بسبب مكبِّر الصوت، انطلق يصدح ويصرخ في أنحاء القاعة: العدالة! الحرّيَّة! للحظة من الزمن، بكلِّ تأكيد، جالساً بين الرُّكب، محشوراً في مكان ضيِّق، سرى عبر جلده تموُّج، اهتزاز عاطفيٌّ لطيف. إنَّما، في صباح اليوم التالي، قال لنفسه حين نظر مرَّة أخرى إلى لافتة سماسرة العقارات، ليس ثمَّة فكرة، ليس ثمَّة عبارة تُطعم عصفور دوريّ. ما الَّذي يعنونه بالعدالة والحرّيَّة؟ سأل، كلُّ هؤلاء الشبَّان اليافعين اللطيفين بمئتين أو ثلاثمئة سنوياً. إنَّ ثمَّة أمراً خطأ، فكَّر، ثمَّة فجوة، تفكّك، بين الكلمة والواقع. إن كانوا يرغبون في إعادة تشكيل العالم، فكَّر، فلِمَ لا يبدؤون من هناك، في المركز، بأنفسهم؟ استدار على كعبه وهرع مباشرة إلى رجل عجوز يرتدي صدريَّة بيضاء اللَّون.

«مرحباً!»، قال وهو يمدُّ يده.

لقد كان عمَّه إدوارد. كانت تعلوه نظرة حشرة أُكل جسدها ولم يُترك منها سوى الجناحين، القشرة.

«سعيد جدّاً برؤية أنَّكَ قد عدت يا نورث»، قال إدوارد وصافح يده بحرارة.

«سعيد جدّاً»، أعاد قوله. لقد كان خجولاً. كان ضئيلاً ونحيلاً. بدا كما لو أنَّ وجهه قد نُحت ونُقش باستخدام العديد من الأدوات الرفيعة، كما لو أنَّه تُرك في ليلة صقيع فتجمَّد في إثرها. ألقى برأسه إلى الخلف مثل حصان يعضُّ على لجام، إلَّا أنَّه كان حصاناً عجوزاً، حصاناً أزرقَ العينين لم يعد لجامه يضايقه. كانت حركاته بدافع العادة، لا الشعور. ما الَّذي كان يفعله طيلة هذه السنين؟ تساءل نورث حين وقفا يعاين أحدهما الآخر. تنقيح سوفوكليس؟ ماذا كان ليحدث لو أنَّ سوفوكليس قد نُقِّح في يوم من الأيَّام؟ ماذا كان ليفعل، حينها، هؤلاء الرجال المسنُّون المتآكلون السطحيُّون؟

«لقد امتلأت»، قال إدوارد وهو ينظر إليه صعوداً وهبوطاً. «لقد ازداد وزنك»، أعاد قوله.

كان ثمَّة احترام خفيٌّ في سلوكه. لقد أشاد إدوارد، العالم، بنورث، الجنديِّ. أجل، غير أنَّهما وجدا الحديث أمراً صعباً. كان يمتلك مظهر المسحوق، فكَّر نورث، بعد كلِّ شيء، فقد احتفظ بأمر ما خارج كلِّ الصخب.

«ألا نجلس؟»، قال إدوارد كما لو كان يرغب في الحديث معه بجديَّة حول أمور مثيرة للاهتمام. بحثا في الأرجاء عن مكان هادئ. لم يكن قد بدَّد وقته في الحديث مع الكلاب الإيرلنديَّة الحُمر ورفع بندقيَّته، فكَّر نورث وهو ينظر إليه كي يرى ما إن كان ثمَّة، من قبيل المصادفة، مكان هادئ في الغرفة حيث بإمكانهما الجلوس والتحدُّث. إنَّما، لم يكن هناك سوى كرسيّي مكتب خاليَين إلى جوار إليانور، هناك في الزاوية.

رأتهما، ونادت: «أوه، ها هو ذا إدوارد! أعلم أنَّ ثمَّة أمراً ما رغبتُ في السؤال عنه...»، بدأت القول.

كان من المريح أنَّ المقابلة مع المدير ستُقاطعها تلك المرأة المسنَّة الحمقاء، الاندفاعيَّة. لقد كانت ترفع منديل جيبها.

كانت تقول: «لقد صنعتُ عقدة»، أجل، لقد كانت هناك، عقدة في منديل الجيب خاصَّتها.

«الآن، لِمَ صنعتُ العقدة؟»، سألت وهي ترفع نظرها.

«إنَّ صنع العقدة عادة مثيرة للإعجاب»، قال إدوارد بطريقته المهذَّبة والمقتضبة، وهو يخفض نفسه بتصلُّب قليلاً على الكرسيِّ إلى جانبها، «إنَّما في الوقت عينه، فإنَّ من المستحسن...». توقَّف. إنَّ هذا ما أحبّه بشأنه، فكَّر نورث وهو يجلس على الكرسيِّ الآخر. لقد ترك نصف جملته من دون نهاية.

«لقد كان لأجل تذكيري...»، قالت إليانور وهي تضع يدها على أجمتها السميكة من الشَّعر الأبيض. ثمَّ توقَّفت عن الحديث. ما الأمر الَّذي يجعله يبدو بالغ الهدوء، متزناً جدّاً، فكَّر نورث وهو يسترق نظرة إلى إدوارد، الَّذي انتظر بسكينة مثيرة للإعجاب أن تتذكَّر شقيقته لِمَ صنعت عقدة في منديلها. كان ثمَّة أمر حاسم بشأنه، ترك نصف جملة من دون نهاية. لم يُقلق نفسه بشأن السياسة والمال، فكَّر. كان ثمَّة أمر خفيٌّ، مصرَّح به، يتعلَّق به. إنَّهما الشِّعر والماضي، أليس كذلك؟ إنَّما، بينما ثبَّت نظره عليه، ابتسم إدوارد لشقيقته.

«حسناً يا نيل؟»، قال.

كانت ابتسامة هادئة، ابتسامة صبور.

تدخَّل نورث نظراً لكون إليانور لا تزال تفكِّر في شأن عقدتها، «لقد التقيتُ شخصاً عند الخليج، وكان معجباً كبيراً بك أيُّها العمُّ إدوارد»، قال. عاد الاسم إلى ذاكرته، «أربوثنوت»، قال.

«ر. ك.؟»، قال إدوارد. ورفع يده إلى رأسه وابتسم. لقد أسعده الأمر، هذا الإطراء. لقد كان مختالاً، كان حسَّاساً، لقد كان... -اختلس نورث لمحة بغية إضافة انطباع آخر- شخصاً ذا إنجاز. مغطًّى بالورنيش اللامع الأملس الَّذي يرتديه أولئك الأشخاص الموجودون في السلطة. لأنَّه الآن كان- ماذا؟ لم يستطع أن يتذكَّر نورث. بروفسوراً؟ معلِّماً؟ شخصاً يتمتَّع بسلوك ثُبِّت عليه فلم يعد يستطيع التخلُّص منه بعد الآن. على الرَّغم من ذلك فإنَّ أربوثنوت، ر. ك. كان قد قال، ممتلئاً بالمشاعر، إنَّه مدين لإدوارد أكثر من أيِّ إنسان آخر.

«قال إنَّه مدين لك أكثر ممَّا هو مدين لأيِّ إنسان آخر»، قال بصوتٍ عالٍ.

تجاهل إدوارد الإطراء، غير أنَّه أسعده. كان يمتلك طريقة تذكَّرها نورث حيث يضع يده على رأسه. وكانت إليانور تطلق عليه، «نيغز». كانت تسخر منه، لقد فضَّلت الفاشلين، مثل موريس. ها هي ذي جالسة هناك ممسكة بمنديل الجيب خاصَّتها في يدها، تضحك، باستهزاء، بسريَّة، على ذكرى ما.

«وما هي خططك؟»، قال إدوارد، «إنَّك تستحقُّ عطلة».

كان ثمَّة أمر مثير للإطراء في سلوكه، فكَّر نورث، مثل مدير مدرسة يرحِّب بعودة صبيٍّ قديم فاز بامتياز، إلى المدرسة. غير أنَّه كان يعني هذا، إنَّه لا يقول ما لا يعنيه، فكَّر نورث، وكان هذا أمراً مقلقاً أيضاً. كانا صامتَين.

«إنَّ ديليا تستضيف الكثير من الأشخاص الرائعين هنا الليلة، أليس كذلك؟»، قال إدوارد وهو يلتفت نحو إليانور. جلسوا ينظرون إلى مجموعات مختلفة. عاينت عيناه بلونهما الأزرق الصافي المشهدَ على نحو ودّيٍّ، لكنَّه ساخر. إنَّما، ما الَّذي يفكِّر فيه، سأل نورث نفسه. إنَّه يمتلك أمراً ما خلف ذاك القناع، فكَّر، أمراً يبقيه بعيداً عن هذا التشوُّش. الماضي؟ الشِّعر؟ فكَّر وهو ينظر إلى الشكل الجانبيِّ البعيد لإدوارد. لقد كان أوسم ممَّا يتذكَّر.

«أودُّ العودة إلى تذكُّر الروايات الكلاسيكيَّة خاصَّتي»، قال فجأة، «ليس كما لو أنَّني أمتلك الكثير لتذكُّره»، أضاف، بحماقة، خوفاً من المدير.

لم يبدُ أنَّ إدوارد كان يستمع. كان يرفع نظّارته ويسمح لها بالهبوط، في حين نظر إلى الخليط الغريب. هناك، ارتاح رأسه وذقنه إلى الأمام، على ظهر كرسيِّه. إنَّ الحشد، والضوضاء، وقعقعة السكاكين والشوك، جعلت الكلام أمراً غير ضروريٍّ. اختلس نورث لمحة أخرى إليه. الشِّعر والماضي، قال لنفسه، هذان هما الأمران اللذان أرغب في الحديث عنهما، فكَّر. أراد أن يقول هذا بصوتٍ عالٍ. غير أنَّ إدوارد كان مشغولاً وفردانياً للغاية، أبيض وأسود وخطيّاً للغاية، مع رأسه الَّذي يميل نحو الأعلى على ظهر كرسيِّه، فلم يستطع أن يطرح عليه الأسئلة بسهولة.

الآن، كان يتحدَّث عن أفريقيا، وأراد نورث الحديث عن الماضي والشِّعر. ها هما ذان، الشِّعر والماضي، فكَّر، محبوسان في ذاك الرأس الوسيم، الرأس الَّذي كان شبيهاً برأس صبيٍّ إغريقيٍّ امتلأ بالشيب. إذاً، لِمَ لا ننتزعهما؟ لِمَ لا نتشاركهما؟ ما خطبه، فكَّر، في حين أجاب عن الأسئلة المعتادة للإنكليز الأذكياء حول أفريقيا ووضع البلد. لِمَ لا يستطيع أن يتدفَّق؟ لِمَ لا يستطيع أن يسحب خيط دشِّ الحمَّام؟ لِمَ كلُّ شيء محبوس، مجمَّد؟ لأنَّه قسٌّ، تاجر غموض، فكَّر، يستشعر برودة، حارس الكلمات الجميلة هذا.

غير أنَّ إدوارد كان يخاطبه.

«علينا أن نرتِّب موعداً»، كان يقول، «في الخريف المقبل». كان يعني هذا أيضاً.

«أجل»، قال نورث بصوتٍ عالٍ، «أودُّ ذلك... في الخريف...». ورأى أمامه منزلاً ذا غرف بستائر منسدلة، وثمَّة خدم يتسلَّلون، ودوارق، وشخص يمنح صندوقاً من السيجار الجيِّد.

كان ثمَّة شبَّان يافعون مجهولون يجولون محمَّلين بصوانٍ ممتلئة بالأطعمة المختلفة.

«لكَم هذا أمر لطيف من قِبلك!»، قالت إليانور وهي تتناول كأساً. هو نفسه أخذ كأساً من سائل أصفر ما. لقد كان نوعاً من الخمرة الفرنسيَّة، كما افترض. ظلَّت الفقاعات الصغيرة تصعد إلى الأعلى وتنفجر. راقبها ترتفع وتنفجر.

«مَن هي تلك الفتاة الجميلة»، قال إدوارد وهو يحني رأسه، «هناك، تقف في الزاوية، تتحدَّث إلى الشبَّان».

لقد كان رؤوفاً ومتحضِّراً.

«أليسوا لطيفين؟»، قالت إليانور، «هذا ما كنتُ أفكِّر فيه توّاً... إنَّ الجميع يبدون يافعين للغاية. تلك هي ابنة ماغي... إنَّما، مَن ذاك الَّذي يتحدَّث إلى كيتي؟».

«ذاك هو ميدلتون»، قال إدوارد، «ماذا، ألا تذكرينه؟ لا بُدَّ أنَّكِ التقيتِه في الأيَّام الخوالي».

تجاذبا أطراف الحديث، مستمتعَين براحة تامَّة. المراقبون ومربِّيات الأطفال في الشمس، فكَّر نورث، يستمتعون براحتهم حين انتهى عمل اليوم، كلٌّ من إليانور وإدوارد في مكانه الخاصِّ، ويده على الفاكهة، صبوراً، مُطمئنّاً.

راقب الفقاعات تصعد في السائل الأصفر. بالنسبة إليهم لا بأس في الأمر، فكَّر، لقد عاشوا أيَّامهم، إنَّما ليس بالنسبة إليه، ليس بالنسبة إلى جيله. بالنسبة إليه حياة مقولبة على الطائرة (كان يراقب الفقاعات ترتفع)، على المدِّ الربيعيِّ، للنافورة الصلبة المتقافزة، هي حياة أخرى، حياة مختلفة. ليست حياة الصالات وصدى مكبِّرات الصوت، ليست حياة السير بالتوازي خلف القادة على أحصنة مزيَّنة بأغطية مزخرفة، في قطعان، مجموعات، مجتمعات. كلَّا، بل البدء من الداخل، والسماح للشيطان بأن يتَّخذ هيئة خارجيَّة، فكَّر وهو ينظر إلى شابٍّ يافع ذي جبهة دقيقة وذقن دقيقة. لا القمصان السود، القمصان الخضر، القمصان الحمر، تتموضع دائماً في عين العامَّة، إنَّ هذا كلَّه

هراء. لِمَ لا تُهدم الحواجز وتُبسَّط الأمور؟ غير أنَّ عالماً، فكَّر، كان أشبه بهُلام واحد، كتلة واحدة، سيكون عالماً شبيهاً ببودينغ الأرز، عالماً مثل لحاف أبيض. بغية الحفاظ على الشعارات والعلامات المميَّزة لنورث بارغيتر، الرجل الَّذي تسخر منه ماغي، الرجل الفرنسيّ الذي يُمسك بقبّعته، إنَّما، في الوقت عينه امتدَّ، فقد شكَّل تموُّجاً جديداً في الوعي البشريِّ، كُن الفقاعة والتيَّار، التيَّار والفقاعة -أنا والعالم معاً- رفع كأسه. دون ذكر هويَّة، قال وهو ينظر إلى السائل الأصفر الصافي. إنَّما، ما الَّذي أعنيه، تساءل، أنا، الَّذي بالنسبة إليه تعدُّ الطقوس مشبوهة، ويُعدُّ الدِّين ميتاً، غير الْمُلائم، كما قال الرجل، لا يُلائم في أيِّ مكان؟ توقَّف قليلاً. كانت ثمَّة كأس في يده، وكانت ثمَّة جملة في ذهنه. أراد أن يشكِّل جملاً أخرى. إنَّما، كيف لي ذلك، فكَّر -كان قد نظر إلى إليانور، الَّتي جلست وهي تمسك بمنديل حريريٍّ في يديها -ما لم أعرف ما هو ملموس، ما هو حقيقيٌّ، في حياتي، في حيوات الأشخاص الآخرين؟

«ابن رونكورن»، صاحت إليانور، «ابن الحمَّال في شقَّتي»، شرحت قائلة. كانت قد فكَّت العقدة في منديلها.

«ابن الحمَّال في شقَّتكِ»، أعاد إدوارد. كانت عيناه مثل حقل تستريح عليه الشمس في الشتاء، فكَّر نورث وهو ينظر إلى الأعلى، شمس الشتاء، الَّتي لا تمتلك أيَّ حرارة متبقِّية فيها بل بعض الجمال الشاحب.

«إنَّهم يسمُّونه المفوَّض كما أعتقد»، قالت.

«لَكَم أكره تلك الكلمة!»، قال إدوارد مع انتفاضة بسيطة، «إنَّ كلمة حمَّال هي كلمة إنكليزيَّة ملائمة، أليس كذلك؟».

«إنَّ هذا ما أقوله»، قالت إليانور، «ابن الحمَّال في شقَّتي... حسناً، إنَّه يريد، إنَّهم يريدون منه الذهاب إلى الجامعة. لذا قلتُ إنَّه في حال رأيتك فسوف أطلب إليك...».

«بالطبع، بالطبع»، قال إدوارد بلطف.

وكان لا بأس في هذا، قال نورث في نفسه. هذا هو الصوت البشريُّ في أكثر مستويات حديثه طبيعيَّة. بالطبع، بالطبع، أعاد.

«يريد أن يذهب إلى الجامعة، أليس كذلك؟»، تابع إدوارد القول، «ما الامتحانات الَّتي نجح فيها، ها؟»

ما الامتحانات الَّتي نجح فيها، ها؟ أعاد نورث. أعاد ذلك أيضاً، إنَّما على نحو نقديٍّ، كما لو أنَّه كان ممثِّلاً وناقداً، أنصت لكنَّه علَّق. عاين السائل الأصفر الرفيع الرقيق الَّذي ارتفعت فيه الفقاعات ببطء أكبر، واحدة تلو الأخرى. لم تعلم إليانور ما الامتحانات الَّتي نجح فيها. وما الَّذي كنتُ أفكِّر فيه؟ سأل نورث نفسه. شعر بأنَّه كان وسط غابة، في قلب الظلام، يشقُّ طريقه نحو النور، إنَّما مزوَّداً بجمل مفكَّكة، كلمات فرديَّة فحسب، بوساطتها عليه أن يخترق الشجيرة الشوكيَّة المكوَّنة من الأجساد البشريَّة، الأصوات والإرادات البشريَّة، الَّتي انحنت فوقه، تتسبَّب في انحنائه، تُعميه... أنصت.

«حسناً، إذاً، أخبريه أن يأتي ويقابلني»، قال إدوارد، بحيويَّة.

«إنَّما، أليس هذا الطلب أكثر من الحدِّ بالنسبة إليك يا إدوارد؟»، اعترضت إليانور.

«لهذا السبب أنا موجود»، قال إدوارد.

هذه هي نغمة الصوت الصحيحة، فكَّر نورث. غير دفاعيَّة، اصطدمت كلمتا «الغطاء المزخرف» و«دفاعيّ» في ذهنه، وأنتجتا كلمة جديدة لم تكن بكلمة. إنَّ ما أعنيه هو، أضاف وهو يرتشف من خمرته الفرنسيَّة، أنَّ النافورة موجودة في الباطن، المكسَّرات الحلوة. الفاكهة، النافورة الموجودة فينا جميعاً، في إدوارد، في إليانور، إذاً، لِمَ نُغطِّي أنفسنا بأغطية مزخرفة في الأعلى؟ رفع نظره.

كان ثمَّة رجل ضخم قد توقَّف أمامه. انحنى ومنح إليانور يده بكلِّ لطف. كان عليه أن ينحني، لأنَّ صدريَّته البيضاء قد طوّقت بكرة ضخمة.

«يا حسرتاه!»، كان يقول بصوتٍ عذب على نحو غريب مقارنة بشخص يعادل حجمه الضخم، «لا أحبُّ أمراً أكثر من هذا، إنَّما لديَّ اجتماع عند الساعة العاشرة غداً صباحاً». لقد كانوا يدعونه إلى الجلوس والحديث. كان يتحرَّك صعوداً وهبوطاً بطريقة حيويَّة على قدميه الصغيرتين أمامهم.

«فلتتركه!»، قالت إليانور وهي تبتسم له، تماماً كما اعتادت أن تبتسم حين كانت فتاة مع أصدقاء شقيقها، فكَّر نورث. إذاً، لِمَ لَمْ تتزوَّج واحداً منهم، تساءل. لِمَ نحن نخفي كلَّ الأمور المهمَّة؟ سأل نفسه.

«وأترك مديريَّ منتظرين على نحو متعمَّد؟ إنَّ الاضطلاع بهذا الأمر خطِر!»، كان الصديق القديم يقول، وتأرجح مُلتفّاً على كعبه برشاقة فيل مدرَّب.

«يبدو أنَّ وقتاً طويلاً قد مضى مُذ مثَّل في مسرحيَّة إغريقيَّة، أليس كذلك؟»، قال إدوارد، «... وهو يرتدي شملة»، أضاف قائلاً مع ابتسامة، وهو يتبع الشخص المتوازن زعيم السكك الحديديَّة، في حين تابع سيره بسرعة معيَّنة عبر الحشد نحو الباب، لأنَّه كان رجلاً مثاليّاً في العالم.

«ذاك هو شيبرفيلد، رجل السكك الحديديَّة العظيم»، شرح قائلاً لنورث، «رفيق مميَّز للغاية»، واصل القول، «ابن تاجر سكك حديديَّة»، توقَّف وقفات قصيرة بين كلِّ جملة، «لقد فعل كلَّ شيء من دون أن يطلب إليه أيُّ شخص ذلك... منزل جميل... مرمَّم على نحو مثاليٍّ... مئتان أو ثلاثمئة فدَّان، كما أفترض... يمتلك حقل الصيد خاصَّته... يطلب إليَّ أن أوجِّه قراءته... ويشتري المعلِّمين المسنين».

«ويشتري المعلِّمين المسنِّين»، أعاد نورث. بدا أنَّ جمله القصيرة الماهرة تبني معبداً، على نحو برَّاق لكنَّه دقيق، وعبر كلِّ شيء، عبَر نفس غريب من السخريَّة الَّتي تشوبها العاطفة.

«إنَّها أكاذيب، بحسب اعتقادي»، ضحكت إليانور.

«حسناً، لا حاجة لنا إلى الخوض في ذلك»، قهقه إدوارد. ثمَّ كانا صامتَين. طفا المعبد مبتعداً. لقد اختفى شيبرفيلد عبر الباب.

«كم هذا الشراب شهيٌّ»، قالت إليانور فوق رأسه. استطاع نورث أن يرى كأسها مُمسكة على ركبتيها في مستوى رأسه عينه. طافت ورقة خضراء رقيقة أعلاه. «آمل أنَّه ليس مُسكراً؟»، قالت وهي ترفعها.

رفع نورث كأسه من جديد. ما الَّذي كنتُ أفكِّر فيه المرَّة الأخيرة الَّتي نظرتُ فيها إليه؟ سأل نفسه. كان هناك حاجز قد تشكَّل في جبينه كما لو أنَّ فكرتين قد اصطدمتا وأوقفتا مرور البقيَّة. كان ذهنه خالياً. أرجح السائلَ من جانب إلى آخر. لقد كان في منتصف غابة مظلمة.

«إذاً، يا نورث...». جعله اسمه الخاصُّ يستفيق وقد جفل. لقد كان إدوارد يتحدَّث. اهتزَّ نحو الأمام. «... أنتَ ترغب في إعادة قراءة الكتب الكلاسيكيَّة خاصَّتك، أليس كذلك؟»، تابع إدوارد القول، «أنا سعيد بسماعكَ تقول هذا. إنَّ هناك الكثير في تلك الكتب القديمة. غير أنَّ الجيل الأصغر سنّاً»، توقَّف قليلاً، «... يبدو أنَّه لا يرغب فيها».

«يا لهم من حمقى!»، قالت إليانور، «لقد كنتُ أقرأ واحداً منها ذاك اليوم... الكتاب الَّذي ترجمتَه. الآن، أيَّ كتاب كان؟». توقَّفت قليلاً. لم تكن تستطيع تذكُّر الأسماء قطُّ. «الكتاب الَّذي يدور حول الفتاة الَّتي...».

«أنتيغون؟»، اقترح إدوارد.

«أجل! أنتيغون!»، صاحت، «وفكَّرتُ لنفسي، ما قلتَه توّاً يا إدوارد -كم هذا صحيح- يا لجمال...»

توقَّفت عن الكلام، كما لو كانت تخشى المواصلة.

أومأ إدوارد. توقَّف قليلاً. ثمَّ هزَّ رأسه فجأة إلى الخلف، وقال بعض الكلمات بالإغريقيَّة: «نصّ إغريقيّ».

نظر نورث إلى الأعلى.

«ترجمه»، قال.

هزَّ رأسه. «إنَّها اللُّغة»، قال.

ثمَّ صمت. إنَّ هذا الأمر لن ينجح، فكَّر نورث. لا يستطيع أن يقول ما يرغب في قوله، إنَّه خائف. إنَّهم جميعاً خائفون، خائفون من أن يُسخر منهم، خائفون من فضح أنفسهم. إنَّه خائف أيضاً، فكَّر وهو ينظر إلى الشابِّ اليافع ذي الجبين الدقيق والذقن النحيلة، الَّذي كان يشير على نحو قاطع جدّاً. إنَّنا خائفون من بعضنا بعضاً، فكَّر، ممَّ نحن خائفون؟ من الانتقاد، من السخرية، من الأشخاص الَّذين يفكِّرون بطريقة مختلفة... إنَّه يخافني لأنَّني مزارع (ورأى من جديد وجهه المستدير، عظمتَي خدَّيه العاليتين، وعينيه البنيّتين الصغيرتين). وأنا أخافه لأنَّه ذكيٌّ. نظر إلى الجبين العريض الَّذي كان الشعر يتراجع عنه بالفعل. هذا ما يفرِّقنا، الخوف، فكَّر.

عدَّل وضعه. أراد أن ينهض ويتحدَّث إليه. كانت ديليا قد قالت: «لا تنتظر أن تُقدَّم إلى أحد». إنَّما، كان من الصعب الحديث إلى رجل لم يعرفه، والقول، «ما هذه العقدة في منتصف جبيني؟ فلتحلَّها». لأنَّه كان قد حظي بقدر كافٍ من التفكير وحيداً. تسبَّب التفكير بمفرده بتشكيل عقدة في منتصف الجبهة، إنَّ التفكير وحيداً ولَّد صوراً، صوراً حمقاء. كان الرجل يتحرَّك مبتعداً. لا بُدَّ أن يُقدِّم المجهود. على الرَّغم من ذلك، فقد تردَّد. شعر بالنفور والانجذاب، مُنجذِب ونافر. بدأ ينهض، إنَّما قبل أن يقف على قدميه، ضرب شخصٌ ما طاولة باستخدام شوكة.

كان ثمَّة رجل ضخم يجلس إلى طاولة في الزاوية ويضرب شوكته على الطاولة. كان يميل نحو الأمام كما لو أنَّه أراد جذب الانتباه، كما لو كان يوشك أن يلقي خطاباً. كان الرجل الَّذي ناديته بيغي براون، والآخرون نادوه نيكولاس، الَّذي لم يكن يعرف ما اسمه الحقيقيُّ. ربَّما كان مخموراً قليلاً.

«أيُّها السيِّدات والسادة!»، قال، «أيُّها السيّدات والسادة!»، أعاد بصوتٍ أعلى إلى حدٍّ ما.

«ماذا، خطاب؟»، قال إدوارد بتساؤل. أدار كرسيَّه قليلاً، ورفع نظّارته الَّتي تدلَّت من شريطة حريريَّة سوداء اللون، كما لو كان ترتيباً أجنبيّاً.

كان الناس يصدرون الضجيج بالأطباق والكؤوس. كانوا يدوسون فوق الوسادات على الأرضيَّة. صدمت فتاة رأسها أوّلاً.

«هل آذيتِ نفسكِ؟»، قال شابٌّ يافع وهو يمدُّ يده.

كلَّا، لم تؤذِ نفسها. غير أنَّ المقاطعة قد شتَّتت الانتباه عن الخطاب. تعالى ضجيج من الكلام مثل ضجيج ذباب على السكَّر. جلس نيكولاس من جديد. من الواضح أنَّه قد ضاع في تأمُّله للحجر الأحمر على خاتمه، أو الأزهار المبعثرة، الأزهار البيض المرنة، الأزهار الشاحبة، شبه الشفَّافة، الأزهار القرمزيَّة الَّتي كانت في مراحل متقدِّمة إلى الحدِّ الَّذي برز معها القلب الذهبيُّ، وتساقطت البتلات واستلقت بين الملاعق والسكاكين الْمُستأجرة، والأقداح الرخيصة على الطاولة. ثمَّ نهض بنفسه.

قال من جديد: «أيُّها السيّدات والسادة!». ضرب الطاولة مستخدماً شوكته من جديد. كان ثمَّة ملل لحظيٌّ. هرعت روز عبر الغرفة.

«ستلقي خطاباً، أليس كذلك؟»، قالت مطالبة، «هيّا، أنا أحبُّ الاستماع إلى الخطابات». وقفت إلى جانبه، ويدها مجوَّفة حول أذنها مثل رجل عسكريٍّ. مرّة أخرى صدحت ضجَّة الحديث.

«صمتاً!»، صاحت. أخذت سكيناً وقرعت على الطاولة.

«صمتاً! صمتاً!». قرعت من جديد.

عبر مارتن الغرفة.

«ما الأمر الَّذي يدفع روز إلى افتعال كلِّ هذه الجلبة حياله؟»، سأل.

«إنَّني أُطالب بالصمت!»، قالت وهي تؤرجح سكّينها في وجهه، «يرغب هذا السيِّد في إلقاء خطاب!».

إلَّا أنَّه كان قد جلس، وكان ينظر إلى خاتمه باتّزان.

قال مارتن وهو يضع يده على كتف روز، ويلتفت نحو إليانور، كما لو كان يرغب في تأكيد كلماته: «أليست نسخة طبق الأصل من العمِّ بارغيتر، من حصان بارغيتر؟»

«حسناً، إنَّني أفخر بهذا!»، قالت روز وهي تشير بسكِّينها في وجهه، «أنا أفخر بأسرتي، أفخر بوطني، أفخر بـ...».

«جنسك؟»، قاطعها قائلاً.

«أنا كذلك»، قالت مؤكِّدة، «وماذا عنك؟»، تابعت القول وهي تنقر على كتفه، «أنتَ فخور بنفسك، أليس كذلك؟».

«لا تتشاجرا أيُّها الطفلان، لا تتشاجرا!»، صاحت إليانور وهي تدفع كرسيَّها كي تقترب به قليلاً. «إنَّهما دائماً ما يتشاجران»، قالت، «دائماً... دائماً...»

«لقد كانت امرأة سريعة الغضب بغيضة»، قال مارتن وهو يجلس القرفصاء على الأرض وينظر إلى الأعلى نحو روز، «وشعرها المكشوط عن جبهتها...»

«... ترتدي معطفاً ورديّاً»، أضافت روز. جلست فجأة، وهي تمسك بسكينها منتصباً في يدها، «معطف ورديّ، معطف ورديّ»، كرَّرت كما لو كانت الكلمات تشير إلى شيء ما.

«إنَّما، أكمل خطابكَ يا نيكولاس»، قالت إليانور وهي تلتفت نحوه. هزَّ رأسه.

قال مبتسماً: «فلنتحدَّث عن المعاطف الورديَّة».

«في غرفة الجلوس، في أبيركورن تيريس، حين كنَّا صغيرين»، قالت روز، «هل تتذكَّر؟». نظرت إلى مارتن. أومأ برأسه.

«في غرفة الجلوس، في أبيركورن تيريس...»، قالت ديليا. كانت تنتقل من طاولة إلى أخرى حاملة جرَّة كبيرة من الخمرة الفرنسيَّة. توقَّفت أمامهم. «أبيركورن تيريس!»، صاحت وهي تملأ كأساً. أعادت رأسها إلى الوراء، فبدت للحظة شابَّة، وسيمة، وجريئة على نحو مذهل.

«لقد كان جحيماً!»، صاحت، «لقد كان جحيماً!»، أعادت القول.

«بحقِّكِ يا ديليا...»، اعترض مارتن وهو يمدُّ يده بالكأس كي تُملأ.

«لقد كان جحيماً»، قالت وهي تتخلَّى عن سلوكها الإيرلنديِّ وتتحدَّث ببساطة تامَّة، في حين صبَّت الشراب.

«هل تعلم أنَّني حين أذهب إلى بادينغتون، دائماً ما أقول للرجل، "قُد من الطريق الآخر!"»، قالت وهي تنظر إلى إليانور.

«هذا يكفي...»، أوقفها مارتن، كانت كأسه ممتلئة، «لقد كرهتُه أيضاً...»، بدأ القول.

إنَّما، هنا، تقدَّمت كيتي لاسودي نحوهم. أمسكت بكأسها أمامها كما لو كانت دمية.

«ما الَّذي يكرهه مارتن الآن؟»، قالت وهي تواجهه.

دفع سيِّد مؤدَّب كرسيّاً مُذهَّباً صغيراً إلى الأمام، فجلست عليه.

«لطالما كان شخصاً كارِهاً»، قالت وهي تمدُّ يدها بكأسها كي تُملأ.

«ما كان الأمر الَّذي كرهتَه في تلك الليلة يا مارتن، حين تناولتَ العشاء معنا؟»، سألتَه، «إنَّني أتذكَّر أنَّكَ أغضبتني للغاية...».

ابتسمَت له. لقد أصبح ملائكيّاً، ورديّاً وممتلئاً، وشعره ممشَّطاً إلى الخلف مثل نادل.

«كرهت؟ لم يسبق لي أن كرهتُ أيَّ شخص قبلاً قطُّ»، قال معترضاً.

«إنَّ قلبي ممتلئ بالحبِّ، إنَّ قلبي ممتلئ باللّطف»، ضحك وهو يلوِّح بكأسه نحوها.

«هذا هراء»، قالت كيتي، «لَمَّا كنتَ صغير السنِّ كرهت... كلَّ شيء!»، لوَّحت بيدها، «منزلي... أصدقائي...»، قطعت حديثها بتنهيدة صغيرة. رأتهم من جديد، الرجال يدخلون، النساء يمسكنَ ببعض الفساتين بين الإبهام والأصابع. لقد عاشت بمفردها الآن، في الشمال.

«وأجرؤ على القول إنَّني أفضل حالاً كما أنا»، أضافت قائلة وهي تتحدَّث إلى نفسها تقريباً، «مع صبيٍّ لأجل تقطيع الخشب فقط».

كانت ثمَّة وقفة قصيرة.

«الآن، اسمحوا له أن يكمل خطابه»، قالت إليانور.

«أجل. تابع خطابك!»، قالت روز. طرقت سكِّينها على الطاولة من جديد، ونهض إلى حدٍّ ما من جديد.

«سيلقي خطاباً، أليس كذلك؟»، قالت كيتي وهي تلتفت نحو إدوارد الَّذي سحب كرسيَّه إلى جانبها.

«إنَّ المكان الوحيد الَّذي تُمارس فيه الخطابة الآن كفنٍّ...»، بدأ إدوارد القول. ثمَّ توقَّف قليلاً، سحب كرسيَّه إلى مسافة أقرب بقليل، وعدَّل نظَّارته، «... هو الكنيسة»، أضاف قائلاً.

لهذا السبب لم أتزوَّجك، قالت كيتي في نفسها. كيف عمل الصوت، الصوت المتغطرس، على إعادة الأمر إليها! الشجرة نصف المتساقطة، هطول المطر، الطلَّاب الجامعيُّون ينادون، والأجراس تقرع، هي ووالدتها...

غير أنَّ نيكولاس قد نهض. أخذ نفساً عميقاً تسبَّب في توسيع مقدّمة قميصه. وعبثت يد بميداليته، في حين لوَّحت الأخرى بإيماءة خطابيَّة.

«أيُّها السيِّدات والسادة!»، بدأ القول من جديد، «باسم كلِّ أولئك الذين استمتعوا بوقتهم في هذه الليلة...»

«ارفع صوتك! ارفع صوتك!»، صاح الشابُ اليافع الَّذي كان يقف عند النافذة.

(«هل هو أجنبيّ؟»، همست كيتي لإليانور).

«... باسم كلِّ أولئك الَّذين استمتعوا بوقتهم الليلة»، أعاد بصوتٍ أعلى، «أرغب في شكر مضيفنا ومضيفتنا...»

«أوه لا تشكرني!»، قالت ديليا وهي تتجاوزهم حاملة جرَّتها الخالية.

مرَّة أخرى، قُوطع خطابه. لا بُدَّ أنَّه أجنبيٌّ، فكَّرت كيتي في نفسها، لأنَّه لا يمتلك أيَّ وعيٍّ ذاتيٍّ. لقد وقف هناك ممسكاً بكأس النبيذ خاصَّته، ومبتسماً.

«تابع، تابع»، حثَّته قائلة، «لا تهتمَّ لأمرهم». لقد كانت في مزاج ملائم لسماع خطاب. إنَّ خطاباً كان يعدُّ أمراً جيّداً في الحفلات. كان يمنحها دفعة. كان يمنحها ختاماً. طرقت كأسها على الطاولة.

«إنَّه لطف بالغ من قِبلك»، قالت ديليا وهي تحاول تجاوزه، غير أنَّه ألقى بيده على ذراعها، «إنَّما لا تشكرني».

«إنَّما يا ديليا»، جادل قائلاً وهو لا يزال ممسكاً بها، «هذا ليس ما ترغبين أنتِ فيه، إنَّه ما نرغب نحن فيه. وهو أمر ملائم»، تابع قوله وهو يلوّح يده، «حين تكون قلوبنا ممتلئة بالامتنان...».

الآن، كان قد بدأ على نحو واثق وفعَّال، فكَّرت كيتي، إنَّني أتجرؤ على القول إنَّه خطيب إلى حدٍّ ما. إنَّ معظم الأجانب هكذا.

«... حين تكون قلوبنا ممتلئة بالامتنان»، أعاد وهو يلمس إصبعه.

«على أيِّ أمر؟»، قال صوت فجأة.

توقَّف نيكولاس من جديد.

(همست كيتي لإليانور قائلة، «مَن ذاك الرجل ذو البشرة الداكنة؟ كنتُ أتساءل عن الأمر طيلة الأمسية». «ريني»، همست إليانور، «ريني»، كرَّرت قولها».

«على أيِّ أمر؟»، قال نيكولاس، «هذا هو الأمر الَّذي أوشك أن أخبرَك إيَّاه...». توقَّف قليلاً، واستنشق نفساً عميقاً ممَّا وسَّع صدريَّته من جديد. تألَّقت عيناه، بدا ممتلأ بالحبِّ الباطنيِّ العفويِّ. إنَّما هنا برز رأس فوق حافَّة الطاولة، وأخذت يدٌ قبضة من بتلات الأزهار، وصاح صوت:

«روز الحمراء، روز ذات الأشواك، روز الشجاعة، روز السمراء!». أُلقيت البتلات في شكل مروحة فوق المرأة السمينة المسنَّة الَّتي كانت تجلس على حافَّة كرسيِّها. رفعت نظرها وقد فوجئت. إذ سقطت البتلات عليها. نفضتها حيث توضَّعت على منحنيات جسدها البارزة. «شكراً لك! شكراً لك!»، صاحت. ثمَّ أخذت زهرة وضربتها بحيويَّة على حافَّة الطاولة. «غير أنَّني أريد خطابي!»، قالت وهي تنظر إلى نيكولاس.

«كلَّا، كلَّا. إنَّ هذا الوقت غير ملائم لإلقاء الخطابات»، قال، ثمَّ جلس من جديد.

«فلنشرب إذاً»، قال مارتن. رفع كأسه. «نخب بارغيتر لِفرس بارغيتر!»، قال، «إنَّني أشرب نخبها!». وضع كأسه وقرع على الطاولة.

«أوه، إن كنتم جميعاً ستشربون أنخاباً»، قالت كيتي، «فسأشرب أنا أيضاً. روز، نخبكِ. إنَّ روز رفيقة صالحة»، قالت وهي ترفع كأسها. «غير أنَّ روز كانت مخطئة»، أضافت قائلة، «إنَّ القوَّة على خطأ دائماً -ألا تتفق معي يا إدوارد؟» نقرت على ركبته. لقد نسيتُ أمر الحرب، تمتمت وكأنَّها تحادث نفسها. «وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ روز كانت تمتلك شجاعة معتقداتها. لقد ذهبت روز إلى السجن. وأنا أشرب نخبها!»، قالت بصوتٍ عالٍ، ثمَّ شربت.

«الأمر عينه ينطبق عليكِ يا كيتي»، قالت روز وهي تنحني لها.

«لقد حطَّمَت نافذته، ثمَّ ساعدته في تحطيم نوافذ الأشخاص الآخرين. أين هو وسامكِ يا روز؟»، قال مارتن ساخراً منها.

«في صندوق كرتونيٍّ على رفِّ المدفأة»، قالت روز، «ليس في استطاعتكَ أن تستفزَّني في هذا الوقت من اليوم يا صديقي الصالح».

«غير أنَّني آمل لو تسمحون لنيكولاس بإنهاء خطابه»، قالت إليانور.

أتت النوتات الموسيقيَّة الأوليَّة لرقصة أخرى عبر السقف، صامتة وبعيدة. اجترع اليافعون ما بقي في كؤوسهم على عجل، وبدؤوا في التحرُّك من الطابق العلويِّ. سرعان ما سُمع صوت الأقدام بصوت عالٍ على الأرض من الأعلى بشكل إيقاعيٍّ.

«رقصة أخرى؟»، قالت إليانور. لقد كانت رقصة الفالس. «لقد اعتدنا أن نرقص حين كنَّا صغاراً في السنِّ...»، قالت وهي تنظر إلى كيتي. بدا كأنَّ اللَّحن قد أخذ كلماتها وكرَّرها -اعتدتُ أن أرقص حين كنتُ صغيرة في السنِّ- اعتدتُ أن أرقص...

«لكَم كنتُ أكره الأمر!»، قالت كيتي وهي تنظر إلى أصابعها، الَّتي كانت قصيرة ومنتصبة. «لكَم هو أمر حسن ألَّا نكون يافعين! لكَم هو أمر حسن ألَّا نهتمَّ بما يعتقده الناس! الآن، يستطيع المرء أن يعيش كما يحلو له»، قالت، «... الآن وقد بلغنا السبعين من العمر».

توقَّفت قليلاً. رفعت حاجبيها كما لو كانت قد تذكَّرت أمراً ما. «من المؤسف أنَّ المرء لا يستطيع أن يحيا من جديد»، قالت. لكنَّها توقَّفت فجأة عن الحديث.

«ألن نحظى بخطابنا بعد كلِّ شيء يا سيِّد-»، قالت وهي تنظر إلى نيكولاس الَّذي لم تكن تعرف اسمه. جلس يحدِّق أمامه بنظرة من يرغب في فعل أمر جيِّد، ويحرِّك يديه بين بتلات الأزهار.

«وما النفع؟»، قال، «لا يرغب أحد في الإنصات». استمعا إلى حركة الأقدام في الطابق العلويِّ، وإلى تكرار الموسيقا، بدت الموسيقا لإليانور كأنَّها

تقول، اعتدتُ أن أرقص حين كنتُ أصغر سنّاً، كلُّ الرجال أحبُّوني حين كنتُ أصغر سنّاً...

«لكنَّني أريد خطاباً!»، قالت كيتي بسلوكها الآمر. لقد كان الأمر حقيقيّاً، كانت ترغب في أمر ما -أمر يمنح الحفلَ حافزاً، نهاية- أمرٍ كادت تعرفه. إنَّما ليس الماضي -ليس الذكريات. الحاضر، المستقبل، هذا ما أرادته.

«ها هي ذي بيغي!»، قالت إليانور وهي تنظر في الأرجاء. لقد كانت تجلس على حافَّة الطاولة وتأكل شطيرة من اللَّحم.

«تعالي يا بيغي! تعالي وتحدَّثي معنا!»، نادت.

«بمناسبة الحديث عن الجيل الأصغر سنّاً يا بيغي!»، قالت الليدي لاسودي وهي تصافحها.

«إلَّا أنَّني لا أنتمي إلى الجيل الأصغر سنّاً»، قالت بيغي، «وقد ألقيتُ خطابي بالفعل»، قالت، «لقد أظهرتُ نفسي بمظهر الحمقاء في الطابق العلويِّ»، قالت وهي تغوص على الأرض عند قدمَي إليانور.

«إذاً يا نورث...»، قالت إليانور وهي تنظر إلى الأسفل نحو تسريحة شعر نورث حين جلس على الأرض إلى جوارها.

«أجل يا نورث»، قالت بيغي وهي تنظر إليه من فوق ركبة عمَّتها، «يقول نورث إنَّنا لا نتحدَّث حول أيِّ أمر سوى المال والسياسة»، أضافت قائلة، «أخبرنا ما الَّذي علينا أن نفعله». بدأ القول. كان قد بدأ يغفو، وهو يشعر بالذهول من الموسيقا والأصوات. ما الَّذي علينا فعله؟ قال لنفسه وهو يستيقظ. ما الَّذي علينا فعله؟

رفع نفسه إلى وضعيَّة الجلوس. رأى وجه بيغي ينظر إليه. الآن، كانت تبتسم، كان وجهها سعيداً، لقد ذكَّره بوجه جدَّته في الصورة. غير أنَّه بدا له كما رآه في الطابق العلويِّ -قرمزيّاً، مجعَّداً- كما لو أنَّها توشك أن تنفجر باكيةً. لقد كان وجهها الأمر الحقيقيَّ، لا كلماتها. غير أنَّ كلماتها فقط هي

الَّتي عادت إليه -أن تعيش على نحو مختلف- على نحو مختلف. توقَّف قليلاً. هذا هو ما يحتاج إلى شجاعة، قال لنفسه، أن تقول الحقيقة. لقد كانت تنصت. كان المسنُّون يثرثرون بالفعل عن شؤونهم الخاصَّة.

«... لقد كان منزلاً صغيراً جميلاً»، كانت كيتي تقول، «اعتادت امرأة مسنَّة مجنونة العيش هناك... عليكِ القدوم والإقامة معي يا نيل. في الربيع...»

كانت بيغي تراقبه من فوق حافَّة شطيرة اللَّحم.

«إنَّ ما قلتِه صحيح»، تمتم كأنَّه يفشي سرّاً، «... صحيح جدّاً». صحَّح نفسه، إنَّ ما قصدَته من حديثها كان هو الأمر الصحيح، شعورها، لا كلماتها. لقد أحسَّ بشعورها الآن، لم يكن متعلِّقاً به، بل كان متعلِّقاً بأشخاص آخرين، بعالم آخر، عالم جديد...

كانت العمَّات والأعمام المسنُّون يثرثرون فوقه.

«ما كان اسم الرجل الَّذي كان يعجبني جدّاً في أكسفورد؟»، كانت الليدي لاسودي تقول. كان في استطاعته أن يرى جسدها الفضِّيَّ يميل نحو إدوارد.

«الرجل الَّذي كان يعجبكِ في أكسفورد؟»، كان إدوارد يعيد كلامها، «اعتقدتُ أنَّكِ لم تكوني معجبة بأيِّ شخص في أكسفورد...». ثمَّ ضحكا.

غير أنَّ بيغي كانت تنتظر، كانت تراقبه. رأى الكأس ذات الفقاعات المتصاعدة من جديد، وشعر بانقباض عقدة في جبينه مجدَّداً. تمنَّى لو أنَّ هناك شخصاً ما، صالحاً وحكيماً على نحو لا نهائيٍّ، يفكِّر بالنيابة عنه، بغية الإجابة بالنيابة عنه. غير أنَّ الشابَّ الفتيَّ ذا الشعر المتراجع كان قد اختفى.

«... أن تعيش على نحو مختلف... على نحو مختلف»، أعاد. كانت تلك هي كلماتها، لم تتناسب معانيها مجموعةً مع بعضها بعضاً، غير أنَّه كان مضطرّاً إلى استخدامها. الآن، جعلت نفسي أبدو بمظهر الأحمق أيضاً، فكَّر، حين سرى تموُّج لإحساس بغيض ما عبر ظهره كما لو أنَّ سكيناً قد قطعه، ومال نحو الحائط من جديد.

«أجل، لقد كان روبسون!»، صاحت الليدي لاسودي. صدح صوتها الشبيه بالبوق فوق رأسه.

«كيف ينسى المرء الأمور!»، تابعت قولها، «بالطبع -روبسون. هذا كان اسمه. والفتاة الَّتي كانت تعجبني -نيلي؟ تلك الفتاة الَّتي كانت ستصبح طبيبة؟».

«لقد توفِّيت كما أعتقد»، قال إدوارد.

«لقد توفِّيت، هل توفِّيت حقّاً»، قالت الليدي لاسودي. صمتت للحظة. «حسناً، آمل أن تُلقي خطابك»، قالت وهي تنظر إلى الأسفل نحو نورث.

عاود النهوض بنفسه. فكَّر، لن ألقي المزيد من الخطابات. كانت كأسه لا تزال في يده. كانت لا تزال ممتلئة إلى نصفها بالسائل الأصفر الشاحب. غير أنَّ الفقاعات توقَّفت عن الصعود. كان النبيذ صافياً وساكناً. السكون والعزلة، فكَّر في نفسه، الصمت والعزلة... هما العنصران الوحيدان اللَّذان يكون الذهن حرّاً فيهما الآن.

الصمت والعزلة، كرَّر، الصمت والعزلة. كانت عيناه نصف مغلقتين. لقد كان متعباً، كان ذاهلاً، تحدَّث الناس، واصلوا الحديث. كان ينفصل بذاته، يُعمِّم ذاته، يتخيَّل أنَّه كان يستلقي في فراغ كبير على سهل أزرقَ مع تلال على حافَّة الأفق. مدَّ قدميه. هناك، كان ثمَّة خروف يقضم العشب ببطء، ويتقدَّم بقدم متصلِّبة تلو الأخرى. ثمَّ بعبعة -بعبعة. لم يكن ما يقوله منطقياً على الإطلاق. عبر عينيه نصف المفتوحتين رأى يدين تمسكان أزهاراً - يدان نحيلتان، يدان جميلتان، غير أنَّ اليدين لم تكونا تعودان إلى أيِّ شخص. أكان ما تمسكه اليدان أزهاراً؟ أم جبالاً زرقاً ذات ظلال بنفسجيَّة؟ ثمَّ تساقطت البتلات.ورديَّة، صفراء، بيضاء ذات ظلال بنفسجيَّة، تساقطت البتلات. تساقطت وواصلت التساقط، وغطَّت كلَّ شيء، تمتم. وكان هناك جذع كأس نبيذ، حافَّة طبق، ووعاء من الماء. تابعت اليدان قطف زهرة تلو

الأخرى، كانت هناك زهرة بيضاء، وكانت هناك وردة صفراء، وكانت هناك زهرة ذات وديان بنفسجيَّة في بتلاتها. ها هي ذي قد تعلَّقت هناك، العديد منها مطويٌّ، العديد منها ملوَّن، تتدلَّى فوق حافَّة الوعاء. وتساقطت البتلات. ها هي ذي قد استقرَّت، بنفسجيَّة وصفراء، زوارق وقوارب صغيرة في النهر. وكان هو يطفو، وينجرف، في قارب، في بتلة، على امتداد النهر نحو الصمت، نحو العزلة... وهو أسوأ عذاب، عادت الكلمات إليه كما لو أنَّ صوتاً قد نطق بها، صوتاً يمكن للكائنات البشريَّة أن توجِّهه...

«استيقظ يا نورث... إنَّنا نريد خطابك!»، قاطعه صوت. كان وجه كيتي الوسيم الأحمر فوقه.

«ماغي!»، صاح وهو ينهض بنفسه إلى الأعلى. كانت هي من يجلس هناك، واضعة الأزهار في الماء. قال نيكولاس وهو يضع يده على ركبتها، «أجل، لقد حان دور ماغي في الحديث».

«تحدَّثي، تحدَّثي!»، حثَّها ريني.

إلَّا أنَّها هزَّت رأسها. اجتاحها الضحك وأيقظها. ضحِكت وهي تلقي برأسها إلى الخلف كما لو أنَّ روحاً مؤدَّبة خارج نفسها قد مسَّتها، وقد جعلتها تنحني وتنهض، كشجرة تهتزُّ وتُحنى بوساطة الريح، فكَّر نورث. لا مُثل عليا، لا مُثل عليا، لا مُثل عليا، بدت ضحكتها متناغمة مثل شجرة تدلَّى منها عدد لا يُحصى من الأجراس، وضحك هو أيضاً.

توقَّف ضحكهما. تحرَّكت الأقدام متراقصة على أرضيَّة الطابق العلويِّ. صدحت صافرة إنذار عند النهر. اصطدمت شاحنة في الشارع على مسافة بعيدة. كان ثمَّة تسارع واختلاج أصوات، بدا وكأنَّ أمراً ما قد أُطلق، كان كما لو أنَّ حياة اليوم توشك أن تبدأ، وكانت تلك هي الجوقة، الصياح، التغريد، الجلبة، الَّتي تُحيّي لندن.

التفتت كيتي نحو نيكولاس.

«وعمَّ كان يدور خطابكَ يا سيِّد... أخشى أنَّني لا أعرف اسمك؟»، قالت.

«... ذاك الخطاب الَّذي جرت مقاطعته؟»

«خطابي؟»، ضحك، «لكان معجزة!»، قال، «تحفة فنّيّة! إنَّما، كيف للمرء أن يتحدَّث في حين يُقاطَع دائماً؟ أبدأ: أقول، فلنمنح الشكر. ثمَّ تقول ديليا، لا تشكرني. أبدأ من جديد: أقول، فلنمنح الشكر لشخص ما، لأيِّ شخص... ويقول ريني، لأيِّ سبب؟ أبدأ من جديد، وأنظر -إليانور غارقة في النوم». (يشير إليها). «إذاً، ما النفع؟».

«أوه، إلَّا أنَّ هناك بعض النفع-»، بدأت كيتي تقول.

كانت لا تزال تريد أمراً ما لم تكن تعرفه -نهاية ما، حافزاً ما. وكان الوقت يتأخَّر. عليها الذهاب.

«أخبرني على نحو خاصٍّ، ماذا كنتَ ستقول يا سيِّد-؟»، سألته.

«ماذا كنتُ سأقول؟ كنت لأقول-»، صمت قليلاً ومدَّ يده، ولمس كلَّ إصبع على نحو منفصل.

«أوَّلاً، كنتُ سأشكر المضيف والمضيفة. ثمَّ كنتُ لأشكر هذا المنزل-»، لوَّح بيده في أرجاء الغرفة الَّتي عُلِّقت فيها لوحات وكيل المنزل، «-الَّذي آوى العاشقين، المبتكرين، الرجال والنساء الَّذين يحملون النوايا الحسنة. وختاماً-»، أخذ كأسه في يده، «كنتُ سأشرب نخب العرق البشريِّ، العرق البشريِّ»، تابع قوله وهو يرفع كأسه نحو شفتيه، «الَّذي يعيش الآن في خياله، علَّه ينمو نحو النضوج! أيُّها السيِّدات والسادة!»، صاح، وهو يرفع ويوسِّع صدريته قليلاً، «إنَّني أشرب نخب هذا!»

أنزل كأسه إلى الطاولة بضربة، فانكسرت.

«هذه هي الكأس الثالثة عشرة الَّتي تُكسر الليلة!»، قالت ديليا وهي تتقدَّم وتتوقَّف أمامهم، «إنَّما لا تهتمُّوا -لا تهتمُّوا. إنَّها كؤوس رخيصة للغاية».

«ما الرخيص جدّاً؟»، تمتمت إليانور. فتحت عينيها قليلاً. إنَّما، أين كانت؟ في أيِّ غرفة؟ في أيِّ غرفة من هذه الغرف الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى؟ لطالما كانت ثمَّة غرف، لطالما كان ثمَّة أشخاص. دائماً، منذ بداية الزمان... أغلقت يديها على العملات النقديَّة الَّتي كانت تمسك بها، ومرَّة أخرى غمرها شعور بالسعادة. هل كان سبب أنَّه قد نجا -إذ إنَّ ذاك الإحساس العميق (كانت تستيقظ) والأمر الآخر، الغرض الصلب -رأت فظّاً متآكلاً ملطَّخاً بالحبر- قد اختفى؟ فتحت عينيها على اتِّساعهما. ها هي ذي، في قيد الحياة، في هذه الغرفة، مع الأشخاص الأحياء. رأت كلَّ الرؤوس في حلقة. كانت لا تحمل هويَّة في البدء. ثمَّ ميَّزتهم. كانت تلك روز، كان ذاك مارتن، كان ذاك موريس. كاد يمتلك أيَّ شعر على قمَّة رأسه. كان يعلو وجهه شحوب غريب.

كان ثمَّة شحوب غريب يعلو وجوههم كلَّها في حين نظرت في الأرجاء. كان سطوع الأضواء الكهربائيَّة قد تلاشى، وبدت مفارش الطاولات أكثر بياضاً. كان رأس نورث محفوفاً بالبياض، وقد كان جالساً على الأرض عند قدميها. كانت مقدِّمة قميصه مجعَّدة.

يجلس على الأرض عند قدمَي إدوارد ويداه تحيطان بركبتيه، وأصدر ارتجافة طفيفة، ونظر إلى الأعلى نحوه كما لو كان يناشده بشأن أمر ما.

«أيُّها العمُّ إدوارد، أخبرني هذا الأمر...»، سمِعَته يقول.

كان أشبه بطفل يطلب أن تُسرد له قصَّة.

«أخبرني هذا الأمر»، أعاد قوله وهو يُبدي ارتجافة أخرى، «إنَّكَ عالم. بشأن الروايات الكلاسيكيَّة الآن. إسخيلوس. سوفوكليس. يوربيديس».

انحنى إدوارد نحوه.

«والجوقة»، اهتزَّ نورث مرَّة أخرى. مالت نحوه. «الجوقة»، أعاد نورث.

«أيُّها الصبيُّ العزيز»، سمعت إدوارد يقول، في حين ابتسم نحوه برقَّة، «لا تسألني. لم أكن قطُّ خبيراً في هذه الأمور. كلَّا، لو كانت الأمور قد جرت كما أرغب فيها» -توقَّف ومرَّر يده على جبينه- «لكنتُ...». دوى صوت

ضحك أغرق كلماته. لم تستطع أن تسمع نهاية الجملة. ماذا قال -ماذا تمنَّى أن يكون؟ لقد ضيَّعت كلماته.

لا بُدَّ أنَّ هناك حياة أخرى، فكَّرت وهي تغوص مجدَّداً في كرسيِّها. ليس في الأحلام، بل هنا والآن، في هذه الغرفة، مع الأشخاص الأحياء. شعرت كما لو أنَّها تقف على حافَّة هاوية ويُنفث شعرها إلى الخلف، أوشكت أن تفهم أمراً ما قد فاتها توّاً. لا بدَّ أنَّ هناك حياة أخرى، هنا والآن، أعادت. إنَّ هذه الحياة قصيرة أكثر من اللازم، معطوبة أكثر من اللازم. إنَّنا لا نعرف أيَّ شيء، حتَّى عن أنفسنا. نحن في البداية فحسب، فكَّرت، كي نفهم، هنا وهناك. جوَّفت يديها في حضنها، كما كانت روز قد جوَّفت يديها حول أذنيها. أبقت يديها مجوَّفتين، شعرت بأنَّها تودُّ تطويق اللَّحظة الراهنة، أن تُبقي عليها، وأن تجعلها ممتلئة أكثر فأكثر، بالماضي والحاضر والمستقبل، إلى أن تُشعَّ، مكتملة، ساطعة، عميقة بالفهم.

«إدوارد»، بدأت القول محاولة جذب انتباهه. غير أنَّه لم يكن يستمع إليها، كان يخبر نورث بقصَّة قديمة حول الجامعة. كان الأمر غير ذي نفع، فكَّرت وهي تفتح يديها. لا بُدَّ أن تسقط. لا بُدَّ أن تهوي. وماذا بعد ذلك؟ فكَّرت. إذ سيكون ثمَّة ليل لا ينتهي لها أيضاً هناك، الظلام غير النهائيِّ. نظرت أمامها كما لو كانت قد رأت فتحة متوضِّعة أمام نفق طويل مظلم للغاية. إنَّما، حينما تُفكِّر في الظلام، فقد حيَّرها أمر ما، في الواقع، لقد كان ضوءاً ينمو. كانت الستائر بيضاً.

كانت ثمَّة جلبة في الغرفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

التفت إدوارد نحوها.

«مَن يكونان؟»، سألها وهو يشير نحو الباب.

نظرت. كان هناك طفلان يقفان عند الباب. كانت ديليا تضع يديها على كتفيهما كما لو أنَّها كانت تفعل ذلك بغية تشجيعهما. كانت تقودهما نحو الطاولة كي تعطيهما شيئاً يتناولانه. لقد بديا أخرقين وغريبين.

ألقت إليانور نظرة على أيديهما، على ملابسهما، على شكل أذنيهما. «أعتقد أنَّهما طفلا القيِّم»، قالت. أجل، كانت ديليا تقتطع لهما قطعتين من الكعكة، وكانتا قطعتين أكبر ممَّا كانت ستقتطعه لو كانا طفلَي أحد من أصدقائها. أخذ الطفلان القطعتين وحدَّقا إليهما بنظرة فضوليَّة ثابتة كما لو أنَّهما كانا شرسين. إنَّما، ربَّما كانا خائفَين، لأنَّها أحضرتهما من القبو إلى غرفة المعيشة.

قالت ديليا وهي تمنحهما تربيتة خفيفة، «كُلاهما!»

بدأا يمضغان ببطء، وهما يحدِّقان إلى ما يحيط بهما بجدّيَّة.

«مرحباً أيُّها الطفلان!»، صاح مارتن وهو يلوِّح لهما. حدِّقا إليه بجدّيَّة.

«أليس لكما اسمان؟»، قال. تابعا الأكل في صمت. بدأ يعبث في جيبه.

«تحدَّثا!»، قال، «تحدَّثا!».

«إنَّ الجيل الأصغر سنّاً لا يحبُّ الحديث»، قالت بيغي.

الآن، أدارا نظريهما نحوها، غير أنَّهما تابعا المضغ. «ألن تذهبا إلى المدرسة غداً؟»، قالت. هَزّا رأسيهما من جانب إلى آخر.

«مرحى!»، قال مارتن. أمسك بالعملات النقديَّة في يده، ضغطها بين سبَّابته وإصبعه. «الآن، غنِّيا أغنية مقابل ستَّة بنسات!»، قال.

سألت بيغي: «أجل. ألم تتعلَّما شيئاً في المدرسة؟».

حدَّقا إليها، لكنَّهما بقيا صامتَين. توقَّفا عن الأكل. كانا محور المجموعة الصغيرة. نقَّلا نظريهما بين الأفراد الناضجين للحظة، ثمَّ انفجرا يغنِّيان أغنية، بعد أن منح كلٌّ منهما الآخر إيماءة:

إيثو باسو تانو هاي،

فاي دونك تو تو دو،

ماي تو، كاي تو، لاي تو سي

تو دوم تو توه دو-

هكذا بدت الأغنية، لم تكن أيُّ كلمة مفهومة. ارتفعت الأصوات المشتَّتة، وانخفضت كما لو أنَّهما كانا يتبعان لحناً. توقَّفا.

وقفا وأيديهما خلف ظهريهما. ثمَّ في اندفاعة واحدة، هاجما المقطع الثاني:

فانو تو بار، إيتو تو مار،

تيمين تودو، تيدو،

فول تو غار إن، ميتنو تو بار،

إيدو، تيدو، ميدو-

لقد غنَّيا المقطع الثاني بشراسة أكبر من الأوَّل. بدا أنَّ الإيقاع متذبذب، ودفعت الكلمات غير المفهومة نفسها في هيئة تقترب من الصراخ. لم يعلم الأشخاص البالغون ما إن كان عليهم الضحك أو البكاء. كان صوتاهما قاسيين للغاية، وكانت اللكنة مروّعة للغاية.

انفجرا يغنِّيان من جديد:

تشري تو غاي إي،

غيري ديداكس...

ثمَّ توقَّفا. بدا أنَّ هذا منتصف المقطع. وقفا هناك يبتسمان، في صمت، ينظران إلى الأرض. لم يعرف أيُّ شخص ما يتعيَّن قوله. كان ثمَّة أمر مروّع من جرَّاء الضجَّة الَّتي صدرت عنهما. لقد كانت حادَّة جدّاً، متنافرة جدّاً، وخالية من المعنى جدّاً. ثمَّ تأهَّب باتريك المسنُّ للحديث.

«آهٍ، هذا جميل جدّاً، هذا جميل جدّاً. شكراً لكما يا عزيزيَّ»، قال بطريقته المؤدَّبة، وهو يعبث بعود أسنانه. ابتسم الطفلان له. ثمَّ بدأا يشقَّان طريقهما للخروج من الغرفة. بينما عبرا متجاوزَين مارتن، مرَّر لهما قطعات معدنيَّة في يديهما. ثمَّ أسرعا نحو الباب.

«إنَّما، ما الَّذي كانا يغنِّيانه بحقِّ الشيطان؟»، قال هيو جيبس، «عليَّ أن أعترف بأنَّني لم أفهم أيَّ كلمة ممَّا قالاه». وضع يديه على طرفَي صدريَّته البيضاء العريضة.

قال باتريك: «إنَّها لكنة كوكني، كما أفترض. هذا ما يعلِّمونه في المدرسة، كما تعلم».

«إلَّا أنَّه كان...»، بدأت إليانور قولها. ثمَّ توقَّفت. ماذا كانت؟ بينما وقفا هناك كانا يبدوان وقورين للغاية، غير أنَّهما أصدرا تلك الضجَّة المروّعة. إنَّ التناقض ما بين وجهيهما والأصوات كان مدهشاً، وكان من المستحيل أن يعثرَ المرء على كلمة واحدة لتوصيف المشهد كاملاً. «جميلاً؟»، قالت بنغمة استجوابيَّة وهي تنظر إلى ماغي.

«إلى حدٍّ استثنائيٍّ»، قالت ماغي.

غير أنَّ إليانور لم تكن واثقة ما إذا كانتا تفكِّران في الأمر عينه.

جمعت قفَّازيها، حقيبتها وعملتين نحاسيَّتين أو ثلاثاً، ثمَّ نهضت. كانت الغرفة ممتلئة بضوء شاحب غريب. بدت الأغراض كما لو كانت تستيقظ من نومها، من تخفِّيها وتحمُّل رصانة الحياة اليوميَّة. لقد كانت الغرفة تتأهَّب لاستخدامها كمكتب وكيل منازل. كانت الطاولات تتحوَّل لتكون طاولات مكتب، وأرجلها تماثل أرجل طاولات مكتب، على الرَّغم من أنَّ الأطباق والكؤوس، الأزهار والزنابق والقرنفل، كانت لا تزال متناثرة عليها.

«لقد حان وقت الذهاب»، قالت وهي تعبر الغرفة. كانت ديليا قد اتَّجهت نحو النافذة. الآن، حرَّكت الستائر كي تفتحها.

«إنَّه الفجر!»، صاحت على نحو مثير إلى حدٍّ ما.

ظهرت أشكال المنازل عبر الميدان. كانت ستائرها كلُّها منسدلة، وبدت كأنَّها نائمة تماماً في الصباح الشاحب.

«إنَّه الفجر!»، قال نيكولاس وهو ينهض ويمطط نفسه. مشى هو أيضاً نحو النافذة. لحق ريني به.

«الآن، لأجل خاتمة الخطاب»، قال وهو يقف إلى جانبه، إلى جوار النافذة. «إنَّه الفجر -إنَّه اليوم الجديد-».

أشار إلى الأشجار، إلى الأسقف، إلى السماء.

«كلَّا»، قال نيكولاس وهو يمسك الستارة، «إنَّكَ مخطئ هنا. لن تكون ثمَّة خاتمة للخطاب -لا خاتمة للخطاب!»، صاح وهو يمدُّ ذراعه، «لأنَّه لم يكن ثمَّة خطاب!».

قال ريني وهو يشير نحو السماء: «لكنَّ الفجر قد بزغ».

كان ما قاله صحيحاً. لقد أشرقت الشمس. بدت السماء بين المداخن زرقاء اللَّون على نحو استثنائيٍّ.

«وسأخلد أنا إلى سريري»، قال نيكولاس بعد صمت قصير. ثمَّ استدار مبتعداً.

«أين هي سارة؟»، قال وهو ينظر في محيطه. ها هي ذي مكوَّمة في زاوية ورأسها على طاولة، وهي نائمة كما يبدو.

«أيقظي شقيقتكِ يا ماغدلينا»، قال وهو يستدير نحو ماغي. نظرت ماغي إليها. ثمَّ أخذت زهرة من الطاولة وألقتها عليها. فتحت عينيها قليلاً. «لقد حان الوقت»، قالت ماغي وهي تلمس كتفها، «حان الوقت، أليس كذلك؟»، تنهَّدت. تثاءبت ثمَّ مطَّطت نفسها. ثبَّتت عينيها على نيكولاس كما لو كانت تعيده إلى حقل الرؤية خاصَّتها. ثمَّ ضحكت.

صاحت: «نيكولاس!».

«سارة!»، أجابها. تبادلا الابتسام، أحدهما للآخر. ثمَّ ساعدها في النهوض، ووازنت نفسها بالاستناد إلى شقيقتها بشكل غير مؤكَّد، ثمَّ فركت عينيها.

«يا له من أمر غريب»، تمتمت وهي تنظر في الأرجاء، «... يا له من أمر غريب...».

كانت هناك الأطباق الملطَّخة، كؤوس النبيذ الفارغة، بتلات الأزهار وفتات الخبز. بدت مبتذلة لكنَّها مزيَّفة في خليط الأضواء، تحمل طابع الجثث، لكنَّها بالغة الجمال. وهناك عند النافذة، متجمِّعين عند النافذة، كان هناك الإخوة والأخوات المسنِّين.

«انظري يا ماغي»، همست وهي تستدير نحو أختها، «انظري!». أشارت إلى أفراد أسرة بارغيتر الواقفين عند النافذة.

كانت المجموعة الواقفة عند النافذة؛ الرجال مرتدون بدلاتهم السود والبيض، النساء يرتدينَ القرمزيَّ والذهبيَّ والفضّيَّ، يحملون طابعاً أشبه بالتماثيل للحظة، كما لو أنَّهم كانوا منحوتين في الصخر. كانت ملابسهم قد انسدلت في طيَّات منحوتة. ثمَّ تحرَّكوا، وغيَّروا في تصرُّفاتهم، وبدؤوا يتحدَّثون.

«ألا ترغبين في أن أوصلكِ يا نيل؟»، كانت كيتي لاسودي تقول، «ثمَّة سيَّارة في انتظاري».

لم تجب إليانور. كانت تنظر إلى المنازل ذوات الستائر المنسدلة عبر الميدان. كانت النوافذ مبقَّعة بالذهبيِّ. بدا كلُّ شيء نظيفاً تماماً، نضراً وعذريّاً. والحمامات تتنقَّل في أعالي الأشجار.

أعادت كيتي قولها: «ثمَّة سيَّارة...».

«أنصتي...»، قالت إليانور وهي ترفع يدها. كانت أغنية «فليحفظ الإله الملك»، تصدح في الطابق العلويِّ بالفونوغراف، غير أنَّها كانت تقصد الحمامات، لقد كانت تهدل.

«تلك حمامات الخشب، أليس كذلك؟»، قالت كيتي. أمالت رأسها إلى جانب واحد كي تنصت. أطلقي هديلَين يا تافي، أطلقي هديلَين... أطلـ.. كانت تهدل.

«حمامات الخشب؟»، قال إدوارد وهو يضع يده على أذنه.

«هناك، على قمم الأشجار». كانت الطيور ذوات اللَّونين الأزرق والأخضر تتنقَّل في أرجاء الأغصان، تنقر وتهدل لنفسها.

نفض موريس الفتات عن صدريَّته.

«يا له من وقت كي نكون نحن المسنِّين المملِّين مستيقظين!»، قال، «لم أشهد شروق الشمس منذ... منذ...».

«آهٍ، إنَّما، لَمَّا كنَّا صغاراً في السنِّ»، قال باتريك العجوز، وهو يصفعه على كتفه، «لم نكن نفكِّر في قضاء ليلة واحدة في أسرَّتنا! أتذكَّر الذهاب إلى حديقة كوفينت وابتياع الأزهار لسيِّدة بعينها...».

ابتسمت ديليا كما لو أنَّ أمراً رومانسيّاً، يخصُّها أو يخصُّ غيرها، قد عاد إليها.

بدأت إليانور القول: «وأنا...». رأت إبريق حليب خالياً وأوراق الأشجار تتساقط. إذاً، فقد كان فصل الخريف. والآن، حلَّ الصيف. كانت السماء ذات لون أزرق باهت، وكانت الأسقف مبقَّعة بالبنفسجيِّ على خلفيَّة زرقة السماء، وكانت المداخن مصنوعة من الطوب الأحمر الصافي. ساد طابع أثيريٌّ من الهدوء والبساطة على كلِّ شيء.

«وتوقَّفت الأنفاق كافَّة، والحافلات العامَّة كافَّة»، قالت وهي تلتفت في الأرجاء، «كيف لنا أن نعودَ إلى المنزل؟».

«يمكننا أن نمشي. لن يضرَّنا المشي»، قالت روز.

«ليس في صباح صيفيٍّ جميل»، قال مارتن.

عبر نسيم الساحة. كان في مقدورهم، خلال السكون، سماع تصارع الأغصان حين ارتفعت قليلاً، ثمَّ هبطت، واهتزَّت موجة من الضوء الأخضر عبر الجوِّ.

ثمَّ فُتح الباب. دخل الناس زوجاً تلو الآخر، غير مرتَّبين، سعيدين، بغية البحث عن معاطفهم وقبَّعاتهم، كي يلقوا تحيَّة المساء.

«كان لطفاً منكم أن تأتوا!»، صاحت ديليا وهي تلتفُّ نحوهم ويداها ممدودتان.

نادت: «شكراً لكم -شكراً على قدومكم!».

«وانظروا إلى مجموعة ماغي!»، قالت وهي تأخذ مجموعة من الأزهار الملوَّنة الَّتي كانت ماغي قد أمسكتها لأجلها.

«لكَم نظَّمتِها على نحو جميل!»، قالت، «انظري يا إليانور!». التفتت نحو شقيقتها.

إلَّا أنَّ إليانور كانت تقف مديرة ظهرها إليهم. كانت تراقب سيَّارة الأجرة الَّتي تستدير حول الميدان ببطء. لقد توقَّفت أمام منزل على بعد بابين منهم.

«أليست جميلة؟»، قالت ديليا وهي تمسك الأزهار.

جفلت إليانور.

«الأزهار؟ أجل...»، قالت. غير أنَّها كانت تراقب سيَّارة الأجرة. كان شابٌّ يافع قد خرج ودفع المال للسائق. ثمَّ تبعته فتاة ترتدي ثوب سفر من نسيج التويد. وضع مفتاحه في الباب. «ها أنتَ ذا»، تمتمت إليانور، حين فتح الباب ووقفا للحظة عند العتبة. «ها أنتَ ذا!»، أعادت القول، حين أُغلق الباب خلفهما مصدراً صوتاً عالياً.

التفتت حينها إلى الغرفة. «والآن؟»، قالت وهي تنظر إلى موريس، الَّذي كان يشرب القطرات الأخيرة من كأس نبيذ. «والآن؟»، سألت وهي تمدُّ يديها نحوه.

لقد أشرقت الشمس، وارتدت السماء المتوضِّعة فوق المنازل حلَّة من الجمال، والبساطة والسلام الاستثنائيَّين.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

لن ننسى تشرين . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa